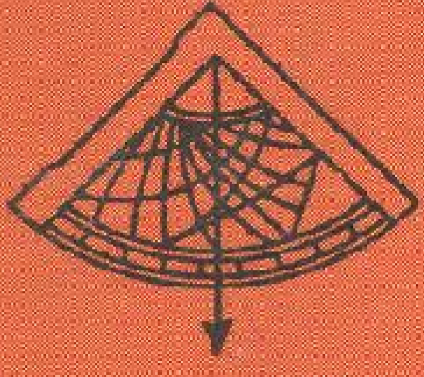


مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول



الجمعية التركية لتاريخ العلوم
(TBTK)



مجمع التاريخ التركي
(TTK)

رفع محمود العثماني

بحوث

المؤتمر الدولي حول
العلم والمعرفة في العالم العثماني

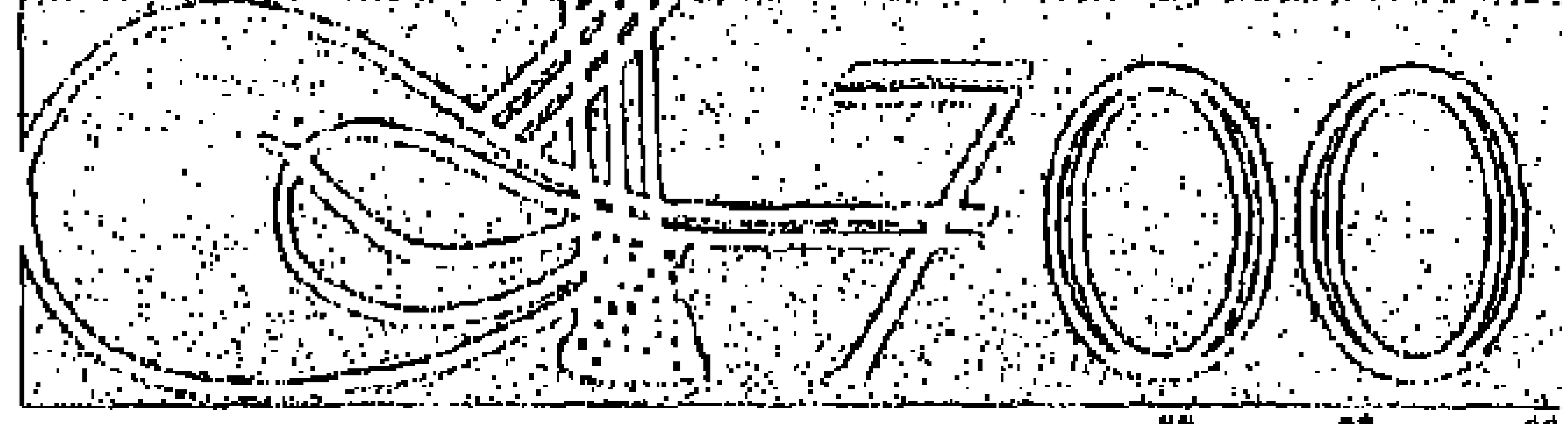
بمناسبة الذكرى السبعمائة على قيام الدولة العثمانية

١٢-١٥ ابريل/ نيسان ١٩٩٩م

المجلد الأول
(البحوث المقدمة بالعربية)



OSMANLI DEVLETİ'NİN



700. KURULUŞ YIL DÖNÜMÜ

بحوث

المؤتمر الدولي حول

العلم والمعرفة في العالم العثماني

سلسلة الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: ٥
PC/2000-5
ISBN 92-9063-090-6 (طاقـــم)
ISBN 92-9063-091-4(القسم العربي)

مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول (إرسيكا)
المكان
YILDIZ SARAYI, SEYİR KÖŞKÜ
BARBAROS BULVARI, BEŞİKTAŞ
İSTANBUL, TÜRKİYE

العنوان البريدي
P.K. 24 BEŞİKTAŞ
İSTANBUL – TÜRKİYE

هاتـــف 42 17 259 (0212)

فاكـــس 65 43 258 (0212)

تنضيد – DAVUT TEFİR

الطباعة – YILDIZ YAYINCILIK, REKLAMCILIK, TİCARET VE SANAYİ A.Ş., 2000 İSTANBUL

بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني/أعده للنشر صالح سعداوي؛ تقديم اكمل الدين احسان اوغلي.– استانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، ٢٠٠٠م

X، ٤١١ ص، [١٢] ورقـة لوحـات: صـور، مخططـات، اشـكال؛ ٢٤ سم. – (سلسلة الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: ٥)

يشتمل على هوامش ببليوغرافية
ISBN 92-9063-091-4
١– الدولـة العـثمانية – حضـارة ٢– الدولة العثمانية – تاريخ ٣– الأقطار العربية – تاريخ – في العهد العثماني ١ سعداوي، صالح ٢ احسان اوغلى، اكمل الدين ٣ (سلسلة)
٩٥٦,١



بحوث

المؤتمر الدولي حول

العلم والمعرفة في العالم العثماني

أعدّه للنشر

صالح سعداوي

تقديم

أكمل الدين إحسان أوغلى

استانبول ٢٠٠٠م

فهرس المحتويات

مقدمـــــة

تمثل هذه البحوث والأوراق ما ألقاه الأساتذة والباحثون العرب باللغة العربية في مؤتمرنا الذي عقدناه في شهر ابريل/ نيسان الماضي تحت عنوان "العلم والمعرفة في العالم العثماني" في إطـــار الاحتفالات التي جرت في جمهورية تركيا تحت رعاية فخامة الرئيس ســليمان دمــيريل رئيس الجمهورية بالذكرى السبعمائة على قيام الدولة العثمانية (١٢٩٩م). وقد نظّم المركزُ هذا المؤتمـرَ بالتعاون مع مجمع التاريخ التركي (أنقرة)، والمجمع التركي لتاريخ العلوم (استانبول)، وبـــالدعم الكريم من وزارة الخارجية التركية واللجنة المعنية باحتفالات الذكــرى الســبعمائة فـــي مجلــس الوزراء التركي.

قد يتساءل البعض لماذا الدولة العثمانية بالذات وتاريخ العثمانيين، ثم لمـــاذا اهتمـام مركــز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (ارسيكا) بمثل هذه المؤتمــرات والنــدوات الدوليــة والمؤلفات المختلفة حول تاريخ الدولة العثمانية ؟ والحق إن هناك اعتبارات عدة تدفعنـــا ونحــن نستهل قرناً جديداً أو ألفية جديدة إلى التركيز على تاريخ الدولة العثمانية دون غيرها فـــي تلــك المرحلة من تاريخ البشرية، وأول هذه الاعتبارات أن الإمبراطورية العثمانية هي الدولة الوحيــدة التي استطاعت بعد الإمبراطورية الرومانية أن تعمـــر أطــول حقبــة فــوق أراضٍ ذات أهميــة استراتيجية عظيمة، وأن تنجح في توحيد تلك الأراضي فوق ثلاث قارات. فعندما ننظر إلى البقعــة الجغرافية الواسعة التي نعيش عليها ونرى ما هي عليه الآن من مظاهر عدم الاستقرار السياســي والصراعات العرقية والدينية، ثم نرى أنها عاشت حقبة طويلة تحت الحكم العثماني في جو مــــن

السلم والهدوء على عكس ما يحدث اليوم ندرك مدى أهمية التاريخ العثماني ومكانته في الإطار العام للتاريخ العالمي.

والاعتبار الثاني هو أن من البداهة أن استيعاب مشاكل الحاضر وفهمها أمر يتأتى – في جانب كبير منه – بالمعرفة الصحيحة لوقائع الماضي؛ فالحربان العالميتان اللتان نشبتا في القرن العشرين والحروب التي ظلت مستمرة حتى وقت قريب، وكذلك الأزمات والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية إنما تدفعنا أكثر من أي وقت مضى إلى الشعور بالحاجة إلى تحري التطورات التاريخية التي أدت إلى كل ذلك.

فالبحث عن حلول للمشاكل التي تهدد الانسانية والقدرة على الاحاطة بالتطورات السياسية الحادثة وطرح الأفكار والتوقعات والتكهنات عن نتائجها إنما هو أمر يتأتى بالتعرف على التطورات التاريخية التي مرت بها المجتمعات والايديولوجيات والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعوامل التي كانت تحركها وتكمن وراءها. وفي هذا السياق يقتضي الأمر منا التوقف عند ماهية الدعائم والمرتكزات التي قامت عليها أسس الحكم العثماني.

أما الاعتبار الثالث فهو أننا حينما نتحدث عن تاريخ الدولة العثمانية فإننا نكون قد تعرضنا في الوقت نفسه لحقبة هامة من تاريخ الشعوب التي انضوت تحت رايتها في العصر الحديث على بقعة شاسعة ممتدة فوق قارات آسيا وأوربا وأفريقيا. فتاريخ هذه الحضارة العظيمة التي نعتز بها إنما هو تاريخ مشترك لكافة الشعوب التي عاشت داخل حدود الدولة العثمانية، ومن ثم وجب علينا دراسة هذا التاريخ وإعادة صياغته من هذا المنطلق صياغةً جديدة. كما نرى أن مثل هذه اللقاءات والمؤتمرات العلمية الدولية سوف تسهم في تقييم التاريخ العثماني من وجهة نظر مشتركة، وهو أمر على جانب كبير من الأهمية والفائدة. فلا بد لنا من الخروج بدروس وعبر من تاريخ الدولة العثمانية، فهو نموذج للتعايش مع احترام الفوارق، وعلينا إذن لبلوغ هذا الهدف أن نعيد قراءة ذلك التاريخ في إطار ينشد الوحدة والوئام وليس الفرقة والخصام، فالتاريخ في الأصل محاسبة مستمرة مع الماضي وصولاً إلى عالم أفضل، واصطناع الخصام من خلال التاريخ أمر لا يعود بالفائدة على أحد، وعلينا ألاّ ننسى أن الروابط التاريخية التي تربطنا ببعضنا البعض هي فوق كل اعتبار، حاضراً ومستقبلاً.

والاعتبار الرابع هو أننا معنيون في المركز بالدرجة الأولى بالجانب الثقافي والحضاري في تاريخ الشعوب الإسلامية، ثم تاريخ الدولة العثمانية، باعتبارها الحلقة الأخيرة التي لا زالت آثارها ماثلة حية تعمل عملها حتى الآن؛ ومؤمنون في نفس الوقت إيماناً راسخاً بأن توطيد وترسيخ وتوثيق العلاقات الثقافية فيما بين الشعوب الإسلامية نفسها وبينها وبين شعوب العالم الأخرى يفوق في الأهمية بكثير توطيد وترسيخ العلاقات السياسية والاقتصادية وغير ذلك، لأن العلاقات الثقافية الوثيقة هي الأكثر بقاءاً واستمراراً وتأثيراً، إذ هي التي تخاطب الشعوب وتشكل وجدانها وضميرها. ومن ثم فقد جاء عنوان المؤتمر حول "العلم والمعرفة في العالم العثماني" للتعرف على ذلك التراث المشترك الذي أسهم في تشكيل أسس التركيب الثقافي وساعد على وضع العديد من المرتكزات التي وُضِعَتْ عليها نهضة العديد من دول الشرق الأوسط ومنطقة البلقان. ولا يزال العديد من الآثار المعمارية العثمانية قائماً حتى الآن وشاهدا في تلك الدول على أن المسلمين شاركوا بعضهم بعضاً وأنجزوا في مجالات شتى، في الفنون والعمارة وغيرها.

والمعروف أن حوض البحر الأبيض المتوسط يشكل نقطة التقاء بين ثلاثة بحور وثلاث قارات، وهي الجغرافيا التي حددت معالم تاريخ الدولة العثمانية. وكان حوض البحر الأبيض المتوسط مهدا لحضارة عالمية ظهرت ونمت نتيجة لتلاقح الحضارتين الشرقية والغربية على مر الزمان. وجاءت الحضارة العثمانية ثمرة يانعة لهذا التلاقح، فالموروث من روما وبيزنطة مع الرصيد الحضاري وتقاليد التسامح من آسيا الوسطى، والتقاء كل ذلك بالحضارتين الفارسية والعربية في إطار الدين الإسلامي ودوره المحوري الرائد قد تراكم سويا ليسفر عن الحضارة العثمانية التي غدت قادرة على إحداث تأثيرها القوي في تاريخ البشرية.

ونرى اليوم شعوب العالم في العصر الحاضر تقترب من بعضها البعض بفضل التطورات التكنولوجية وتقنيات الاتصال المتقدمة من ناحية، ونشهد مراكز قوى جديدة ذات نفوذ في السياسة العالمية كشفت عنها المتغيرات السياسية والاقتصادية المتلاحقة. وفي ظل هذه الظروف فإن إقامة جسور التفاهم والاحترام بين الشعوب والأمم والحضارات والثقافات المختلفة في العالم تصبح ذا أهمية بالغة في تحقيق مستقبل يسوده الأمن والسلام. فنحن نعيش بشائر قرن جديد، أو ألفية جديدة تاركين وراء ظهورنا حقبة مضت وانطوت بكل ما فيها من مظاهر نجاح أو إخفاق، متطلعين بالأمل والرجاء إلى حياة أكثر أمنا ورخاءا في عالم أصبح قرية صغيرة. فلا نريد أن

ندخل القرن الحادي والعشرين والعالم مثقل بأعباء ومشاكل كثيرة لا زالت تهدد الأمن والسلام، أقلها النزاعات العرقية والدينية وانتهاك حقوق الإنسان.

والاعتبار الخامس هو أننا نرى أن الأديان – كل الأديان – تنطوي على مبادئ التسامح والخير وتحض عليها وتدعو للتمسك بها، كما أن الزعم بتفوق عنصر إثني على آخر بات قضية يعترف الجميع ببطلانها وخوائها، ومن ثم فلا يمكن أن يكون كل ذلك سبباً للنزاع والصراع بين الدول والجماعات، ولكنها الأطماع ونزعات الهيمنة والتعصب المقيت للعرق والدين.

وعليه فإننا في أمس الحاجة إلى قنوات ومنابر ومؤتمرات وندوات دولية قوية فاعلة يمكنها أن تمارس الأنشطة الوقائية للتصدي للمشكلات التي تواجه الإنسانية وتهدد منجزاتها الحضارية كظاهرة التطرف القومي والتعصب الديني والطائفي، وتنهض لحل النزاعات الدولية بالطرق السلمية وتسعى لترسيخ أسس السلام وتعميق وسائل التفاهم وتعزيز سبل الحوار. فلا أخطر على الاستقرار والسلام أكثر من نبذ الآخرين وإقصائهم وحملهم على فعل ما يكرهون. ونود هنا أن نشير إلى استجابة الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها المنعقدة عام ١٩٩٨ لدعوة الدول الإسلامية لجعل عام ٢٠٠١ عاماً للحوار بين الحضارات.

ونحن لا ننكر هنا أن العامل القومي والثقافي والديني في عصرنا الحالي يتبوأ مكاناً مهماً في إقامة السلام العالمي واستمراره. ومن ثم نود الإشارة مرة أخرى إلى تاريخ الدولة العثمانية التي وَحّدت بين عالمي الشرق والغرب، وتاريخ البلدان والمجتمعات التي انضوت تحت لوائها، ثم مدى الأهمية التي ينطوي عليها الفهم الجيد لهذا التاريخ لدى الباحثين والمثقفين في الشرق والغرب على السواء. وأبرز مثال على ذلك هو منطقة البلقان، فالمعروف أنها كانت من أكثر المناطق تأثراً بالهزات التي أحدثتها المتغيرات والتحولات التاريخية على مر العصور لكونها نقطة تقاطع هامة في الجغرافيا السياسية ونقطة التقاء للعديد من الأقوام والثقافات والأديان التي احتلت مكانة خاصة في تاريخ الدولة العثمانية. والمعروف أن جواً من السلم والاستقرار القائمين على روح التعايش والعمل المشترك قد ساد تلك المنطقة زمن العثمانيين، إلاّ أن الطبيعة الفسيفسائية فيها قد تأثرت تأثراً عميقاً بالتيارات القومية العرقية والدينية التي ألقت بظلالها اعتباراً من القرن التاسع عشر حتى عرفت آنذاك باسم "برميل البارود" في أوربا، وهو البرميل الذي انفجر كما نعلم في السنوات الماضية، ولا زال دخانه مخيماً على سماء المنطقة حتى الآن.

ولكل هذه الاعتبارات إذن يشكل تاريخ الدولة العثمانية جانباً مهماً من تاريخ العديد من الدول الإسلامية والعالم، سواء كان من ناحية جوانبه الجد متشعبة في المجالات العدلية والمدنية والعسكرية والعلمية والتعليمية والإدارية وغير ذلك، أو كان من ناحية الزمان والمكان؛ فقد ظهرت حول ذلك التاريخ أدبيات غنية في تركيا وفي الدول الأخرى باللغة التركية والعربية وغيرهما.

ومن ثم كان هذا المؤتمر الحاشد من العلماء والباحثين مناسبة جيدة لفهم حقيقة الدولة العثمانية والتعرف بصورة أفضل على تاريخها الطويل واكتشاف العديد من جوانبه. وسوف تشكل هذه البحوث والأوراق – التي نقدم لها اليوم بين دفتي هذا الكتاب – فرصةً للتعرف الصحيح على النشاط العلمي والفكري الذي ساد على أراضي الدولة العثمانية في أوربا والشرق الأوسط وشمال إفريقيا، بل وفي بعض الدول الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى، وبعض الدول في شرق آسيا.

لا بد أن يكون هناك إذن إحساس بمسئولية حقيقية تجاه هذا التاريخ المشترك الذي عشناه معاً واستمر لعدة قرون قد تزيد في بلد وتنقص في بلد آخر. تلك المسئولية التي تتلخص في فهم وإدراك هذا التاريخ بصورة جيدة صحيحة، والتعرف على الخصائص المميزة وطبيعة الحركية الداخلية للفترة التي تأسست فيها الدولة حتى بلغت عهد الازدهار في مؤسساتها وتقاليدها.

ومن الضروري أيضاً تقييم التاريخ العثماني في ضوء التطورات التاريخية الرئيسية والتأثيرات المتبادلة التي كان لها أثر كبير في تغيير حياة الشعوب والأمم آنذاك. وهذا التحليل والتقييم يجب أن يكون بعيداً عن الايديولوجيات والتيارات القومية والأحكام المسبقة التي أفرزتها الحروب والنزاعات التي ظهرت إبان سقوط الدولة العثمانية. ولعل ذلك هو الذي دفعنا لوضع كتاب في مجلدين كبيرين بالتركية والعربية عن تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها تحت عنوان "الدولة العثمانية تاريخ وحضارة"، صدرت طبعته التركية عام (٩٤-١٩٩٨)، بينما ظهرت الطبعة العربية عام (١٩٩٩).

فالهدف الأساسي من ذلك المؤتمر هو تنمية وتعزيز عرى التعاون الدولي لدراسة التاريخ العثماني من زواياه وجوانبه المختلفة اعتماداً على كافة المصادر في شتى بقاع الأرض. لأن ذلك سيساعد بلا شك على إضافة أبعاد وآفاق جديدة ومتنوعة تثري عملية التحليل والتقييم، وربما يكشف ذلك أيضاً عن الخصائص والسمات التي جعلت من الدولة العثمانية بنظام إدارتها

ومؤسساتها وتقاليدها قادرة على أن تجمع ذلك الحشد والتنوع في الأعراق والأديان والمعتقدات والثقافات لقرون عدة في جو من السلم والوئام.

ونعتقد بعد كل ذلك، وبعد انفضاض المؤتمر، وبعد هذا الكم الكبير من البحوث والأوراق التي قدمت بالتركية والعربية والإنجليزية وغيرها، أننا في حاجة ماسة إلى آلية جديدة من الباحثين والمؤرخين في كل مكان يمكنها الاضطلاع بمهمة إقامة الحوار المستمر على المستوى الدولي وتبادل الآراء والأفكار حول جذور المشاكل والنزاعات التي تواجه عالمنا المعاصر وطرح ومناقشة التدابير الوقائية التي تجنب العالم مخاطر الصراع والنزاع.

ويسرني في النهاية أن أتوجه بالشكر إلى فخامة الرئيس سليمان دميريل الذي رعى هذا المؤتمر، وإلى وزارة الخارجية التركية واللجنة التي عنيت باحتفالات الذكرى السبعمائة في مجلس الوزراء التركي. وأشكر رئيس مجمع التاريخ التركي الأستاذ الدكتور يوسف حلاج اوغلى وأمينة المجمع التركي لتاريخ العلوم الدكتور فضا كون ارغون. كما أتوجه بالشكر لكافة الشخصيات البارزة التي شاركتنا افتتاح المؤتمر، وأخص بالشكر سمو الأمير الحسن بن طلال راعي الثقافة والفنون المحبوب، وإلى كل السيدات والسادة الباحثين والمؤرخين الذين شرفنا بحضورهم.

ونود التنويه – ونحن نقدم لهذا الكتاب – إلى أننا رتبنا مقالاته التسع عشرة بحسب تكامل الموضوعات وانسجامها، حيث جاءت المقالات الخاصة بالتعليم ومؤسساته في البداية، ثم تلتها المقالات التي تتناول جوانب من العلوم والفنون في العهد العثماني.

ويسعدني وأنا أقدم لمجموعة البحوث والمقالات التي ألقاها أصحابها بالعربية في المؤتمر أن أشكر زميلي الدكتور صالح سعداوي الذي تولى مراجعتها وإعدادها للنشر على هذه الصورة الحسنة. أرجو أن ينفع الله بها الجميع وهو المستعان.

أ.د. اكمل الدين احسان اوغلى

الحياة العلمية في طرابلس العثمانية
(١٥١٦-١٩١٨م)

الأستاذ الدكتور عمر عبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية - بيروت

طرابلس وحركتها العلمية:

احتفظت مدينة طرابلس الشام بأهمّية موقعها السياسي والإداري عبر تاريخها الطويل الممتدّ أكثر من ثلاثة آلاف سنة. ففي عصر المماليك الذي سبق الفتح العثماني، كانت عاصمة لنيابة السلطنة، وتأتي في المرتبة الثالثة بعد نيابتي دمشق وحلب، وكانت نيابتها تشمل منطقة واسعة من ساحل الشام تمتدّ من نواحي اللاذقية وحماه شمالاً، حتى نواحي جونية وجبال العاقورة جنوباً، ويتبعها إدارياً نياباتٌ وأعمال وولايات هي: نيابة حصن الأكراد، وحصن عكار، وبلاطُنُس، وصهيون، واللاذقية، والمرقّب، والرصافة، والخوابي، والقَدْموس، والمنيّقة، والكهف، والعُلّيقة، ومصياف، وأنطرَطوس، وجُبّة المُنَيْطرة، والظنّيّة، وجُبّة بشرّي، وجبلة، وأنفة، وعرقة، وحلْبا، ومَرَقية، والكورة، والبترون، والعاقورة[1].

وعندما دخلت طرابلس بحوزة الدولة العثمانية عقب موقعة مرج دابق بنواحي حلب سنة ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م. اتّسعت سُلُطات نائبها الذي أصبح فيما بعد والياً برتبة باشا، ويحمل لقب

---

(١) تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، عصر المماليك، د.عمر عبد السلام تدمري، طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١، ج ٢/ص ٢٤-٣١.

وزير، وضُمّ إلى ولايته سَنْجقا حماه وحمص بالإضافة إلى سَنْجَقَيْهما: سَلَمية، وجبلة. وكانت أهم مقاطعات سنجقها من الشمال إلى الجنوب: صافيتا، طرطوس، الشعرا، عكّار، الظنيّة، الهرمل، الزاوية، جُبّة بشرّي، الكورة، أنفة، البترون، وجبيل(٢).

وأحياناً تصل سُلُطات واليها إلى مدينة بعلبك (٣).

واستناداً إلى هذه الخلفية الأساسية التي كانت عليها طرابلس كمركز سياسيّ مهمّ على ساحل الشام، وعاصمة لولاية كبيرة، غنية بمواردها الزراعية، ونتاجها الصناعي، ودورها التجاري المزدهر، فإنها شهدت خليطاً من السكان العرب والأتراك والفرنج، بحكم موقعها كميناء رئيس على الساحل الشرقيّ للبحر المتوسط، تمرّ عبره تجارة بلاد الشرق الأقصى، وبلاد العرب، وخاصة تجارة حلب وحماه وحمص إلى الموانئ الأوربية، ويستقبل بدوره السفن الأوربية وغيرها المحمّلة ببضائع الغرب ومصر لتُوَزّع في أسواقها ، وتُنقل إلى بلاد الشام الداخلية.

وقبل الخوض في رصد الحركة العلمية بطرابلس العثمانية، يجدر التعرّف على تاريخ هذه الحركة قبل الفتح العثماني، في إلمامةٍ سريعة، للدلالة على أن الحياة العلمية لم تنشأ من فراغ، وإنما تعود في جذورها إلى مئاتٍ سبقت من السنين، وذلك اعتباراً من العهد العباسي، وصولاً إلى العصر الفاطمي الذي تحدّثت المصادر عن مكتباتها الغنية والمنتشرة في المساجد والقصور والبيوت، والتي كان أكثرها موقوفاً لطلبة العلم، ثم قيام المكتبة الكبرى ودار العلم على عهد أمراء طرابلس وقُضاتها من بني عمّار(٤) الذين استقلّوا بحكم المدينة حكماً ذاتياً في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). وكانت المكتبة تحتوي عند تأسيسها على أكثر من مائة ألف كتاب، ثم تضاعف هذا الرقم خلال نصف قرن من حكمهم ليصل إلى ثلاثة

---

(٢) بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦-١٧٩٨ م، عبد الكريم رافق، دمشق ١٩٧٨، ص ١٢٥، العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦، رافق، دمشق ١٩٧٤، ص ٩٦.

(٣) سجلّ المحكمة الشرعية طرابلس لسنتي ١١٨١-١١٨٢ هـ، ص٧٧.

لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين (سلسلة دراسات في تاريخ الساحل الشامي) -القسم الحضاري، عمر عبد السلام تدمري، دار الإيمان، طرابلس ١٩٩٤،ص ٢٢٣-٣٠٢ وفيه مصادر عن دار العلم.

(٤) تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، عصر الصراع العربي البيزنطي والحروب الصليبية، عمر عبد السلام تدمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الإيمان، طرابلس ١٩٨٤، طبعة ثانية، ص ٤٦٧ وما بعدها.

ملايين مخطوط، بحيث أضحت أضخم مكتبة في الدنيا، قبل أن يحرقها الفرنجة الصليبيون عند احتلالهم لطرابلس سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٩م. واتخاذهم منها عاصمة لإمارة لاتينية في الشرق الإسلامي(٥).

ورغم النيران التي التهمت ذلك الكمّ الهائل من التراث الإنساني، فإن المدينة احتفظت بموقعها العلمي خلال حكم الفرنجة الذي امتدّ لأكثر من ١٨٠ عاماً، وذلك لوجود معهد الطبّ الأكاديمي فيها، فكان أشهر معاهد الطب في بلاد الشام كلّها، وتخرّج منه عدد كبير من العلماء في الطبّ أو الفلك، والكيمياء، والهندسة، والفلسفة، والآداب، والجغرافيا، والعلوم الإنسانية الأخرى(٦).

وتحوّل معهد الطب في عصر المماليك إلى بيمارستان ودار للشفاء ومعالجة المرضى، وبُنيت المساجد الجامعة والمدارس والزوايا، بإشارة من سلاطين دولة المماليك، أو نواب السلطنة، أو الأمراء، وذوي المناصب في الدولة، والأثرياء وأهل الخير من سكان المدينة، ووقفوا لها الأوقاف الكثيرة للإنفاق على عمارتها، وترميمها، وفرشها، وعلى العلماء والموظّفين فيها. فأقيم في عهد المماليك سبعة مساجد جامعة هي: الجامع المنصوري الكبير، والجامع الناصري المعروف بالتوبة، والسيد عبد الواحد المكناسي (المغربي)، والعطار، والبُرطاسي، وطينال، وأرغون شاه٧. كما أقيم أكثر من ٢٥ مدرسة وزاوية(٨).

وفي العصر العثماني اتّسعت المدينة، وازداد عدد المساجد الجامعة، فأقيم جامع الزعيم (المعلّق) و السنجق (محمود بيك)، والأُوَيسيّة، والطحّام، والتفاحي (حميدي البلد)، وجامع القلعة، والكبير العالي بالميناء، والحميدي بالميناء، والداكيز بالميناء، وتضاعف عدد المدارس

---

(٥) الحياة الثقافية في طرابلس الشام خلال العصور الوسطى، عمر عبد السلام تدمري، طبعة دار فلسطين للتأليف والترجمة، بيروت ١٩٧٣، ص٦٩-٧٤.

(٦) تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك، عمر عبد السلام تدمري، طبعة دار البلاد، طرابلس ١٩٧٤.

(٧) المرجع السابق نفسه.

(٨) التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، عبد الغني النابلسي، تحقيق هريبرت بوسه، نشره المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت ١٩٧١، ص ١٠٠.

الدينية–وهي مساجد صغيرة–بشكلٍ مُلْفتٍ، إلى أن وصل عدد الجوامع والمساجد والمدارس في سنة ١٧٠٠م. إلى ٣٦٥ مسجداً ومدرسة، بعدد أيام السنة(٩).

ونظراً لهذا العدد الضخم بالنسبة لمدينةٍ كان سكانها في مطلع القرن العاشر (السادس عشر الميلادي). في حدود العشرين ألف نسمة تقريباً، أكثرهم مسلمون سُنّة، إلى جانب أقليّة من النصارى، وقلّة قليلة من اليهود، فقد كثُر فيها الشيوخ من الأئمّة الخطباء، والوُعّاظ، والمحدّثين، والمدرّسين، والمؤدّبين، والمقرئين، والكُتّاب، والحُفّاظ، والموقّتين، الذين يحتاجهم ذلك العدد الكبير من الأماكن الدينية، فكان من هؤلاء وأولئك علماء، وأدباء، ومؤلّفون، ونسّاخة، وشعراء، ومُفْتون، وقضاة، وأصحاب طُرُق صوفية، ومُقرئون، ومعلّمون، لهم طلبة، ومريدون...وبهم أصبحت المدينة مركزاً علمياً بارزاً في بلاد الشام، ولذا يُطلق عليها منذ عدّة قرون وحتى عهد قريب لقب: "مدينة العلم والعلماء"، كما عُرفت قديماً باسم "دار العلم"(١٠).

الحركة العلمية وأماكن التعليم:

كان التعليم بطرابلس العثمانية –كما في غيرها من المدن الإسلامية– يتمّ في دُور العبادة من جوامع ومساجد ومدارس وزوايا وتكايا، أو في مكاتب خاصة، أو في البيوت. وكذا كان الحال عند النصارى، فالتعليم في الكنائس، والأديرة، والبيوت أيضاً. إذ لم تنشأ المدارس والمعاهد النظامية إلاّ في القرن الأخير من العصر العثماني تقريباً.

وتفتقر هذه الناحية من الدراسات إلى المصادر الأساسية، وإلى الأبحاث المتخصصة، إذ أنّ الغالبية الساحقة من الباحثين انصرفت اهتماماتها إلى التأريخ السياسي والعسكري، ورصد الأحداث والوقائع من حروب وفِتَن ونزاعات، وأخبار الحكام والقادة، والنواحي الاقتصادية، والعمرانية، وغيرها، وأهملت دراسة الحياة الثقافية والفكرية في هذا العصر إلاّ ما ندَر، وتزداد صعوبة البحث عندما تنحصر ساحته الجغرافية على مدينة محدّدة، لم تعتن المراجع بدراستها لحدّ الآن كما ينبغي. ومن هنا كانت محاولتي الأولية هذه، أتلمّس فيها هذا الموضوع

---

(٩) الدرّة الزكيّة في تاريخ الدولة التركية، ابن أيبك الداوداري، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١، ص٢٩٦، نثر الجمان، الفيّومي، مصوّر بدار الكتب المصرية رقم ١٧٤٦ تاريخ، ج١/ورقة ٢٢٢أ.

(١٠) يراجع هذا الموضوع في مقدمة السجل الأول الذي نشره معهد العلوم الاجتماعية بالجامعة اللبنانية، طرابلس ١٩٨٢، بتحقيق عمر تدمري، خالد زيادة، وفردريك معتوق.

الهامّ، معتمداً في الأساس على ما وصل إلينا من وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس من معلومات متناثرة بين عشرات السّجلات المحتوية على آلاف الصفحات ذات الحجم الكبير، وعشرات آلاف القضايا، رغم ضياع قسم كبير منها على مرّ السنين(١١).

وفي الواقع، إن معاهد التعليم، على تنوّع أماكنها، بين جوامع ومدارس ومكاتب، وكنائس، وبيوت، كانت، أيضاً، تشهد تنوّعاً في موادّ العلوم، وفي طرائق التعليم، تلقيناً، وإقراءً، وإملاءً.

ففي الجوامع، كان الناس –عامّة الناس من المثقّفين والأميّين على السواء– يستمعون إلى دروس العلماء، في الفقه، أو التفسير، أو الحديث، أو غيرها من الدروس الدينية. وكان يُتاح لمن أراد من الذكور والإناث حضور تلك الدروس، وينصرف في الوقت الذي يشاء قبل أن يُنهي العالِم درسه. فالاستماع مُتاح للجميع دون مقابل، والإنصراف غير مقيّد بموعدٍ أو توقيت، والإفادة ذهنية وروحية معاً. وكان يبرز من كل جَمْعٍ من الحضور فئة يهتمّون بالعلم فيلازمون العالِم في كل دروسه وحلقاته العلمية، ويصبحون من تلاميذه وخرّيجي مدرسته ومنهجه، ويتخرّجون عليه، فيمنحهم الإجازة بما أخذوه عليه، ويصبحون مؤهّلين للجلوس والتعليم والتدريس. وبعضهم يتردّدون على أكثر من جامع، فيأخذون على أكثر من شيخ وعالم، ويحصلون على إجازاتهم. وكان النابهون منهم لا يكتفون بالتردّد على علماء المدينة وشيوخها فحسب، بل يسافرون إلى مصر للدراسة على علماء الأزهر، أو للدراسة في اسطنبول، وغيرها من حواضر العالم الإسلامي.

ونحن نعرف أن جوامع طرابلس كان بها أكثر من وظيفة واحدة للتدريس والوعظ والتحديث والإقراء، وفي أكثر من مذهب. ففي الجامع المنصوري الكبير كان المحدّث، والمدرّس، والواعظ، والمفسّر، والمؤقّت، والفقيه الشافعي، والفقيه الحنفي، وغيرهم، وهم يتناوبون مَهَامّهم في أوقات متّفق عليها، فهذا يحدّث بعد صلاة الفجر، وذاك قبل صلاة الظهر، وآخر بعد الظهر، وغيره قبل العصر وآخر بعد العصر، وبعضهم بين المغرب والعشاء، وهكذا طوال أيام السنة، وتتضاعف حلقات الدرس والوعظ في شهر رمضان، بحيث يدرّس عالمان في وقت واحد، كلٌّ منهما يأخذ جانباً من حَرَم الجامع. وكان الشيوخ يتقاضون من ناظر الوقف المرتّب المخصّص لوظائفهم. وبعضهم يتطوّع حسبة لله. ومن هنا كان الجامع

---

(١١) تاريخ وآثار ومساجد ومدارس طرابلس ...، ص ٢١٠.

المنصوري الكبير أهمّ معاهد التدريس والتعليم الديني، وعلم الميقات، لوجود هذه الوظيفة الأساسية فيه لتحديد مواقيت الأذان في مساجد المدينة ومطالع الشهور القمرية، وإثبات شهر رمضان والعيدين، وهذا الفنّ يتطلّب دراسة الحساب والتقويم والفلك وغيره.

وكانت بعض المساجد مخصّصة للتعليم وفْق مذهبٍ مُعيَّن، حسب شرط الواقف، كما هو الحال في مسجد ومدرسة "البرطاسي" حيث اشترط مؤسّسه أن يُدرّس فيه العِلم على المذهب الشافعيّ: "**بسم الله الرحمن الرحيم. أوقف هذه المدرسة المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى عيسى بن عمر البُرطاسي عفا الله عنه وعلى المشتغلين بالعلم الشريف على مذهب الإمام الشافعي وإقامة الجُمَع والصلوات المكتوبة. وشرَط أن لا يُرسَّم فيها على أحد ولا يسكنه من لا له الحق في ذلك**" (١٢).

وكذلك كان الحال في جامع العطار، فالدروس فيه على المذهب الشافعيّ أيضاً، وهو المذهب السائد في عصر المماليك، قبل أن يصبح المذهب الحنفيّ هو السائد والرسميّ للدولة العثمانية.

ولما كان المستمعون للدروس في الجوامع والمساجد من الكبار من الرجال والنساء، فقد أقيمت مدارس صغيرة عُرفت بمكاتب الأطفال، أو الكُتّاب، بتعليم الأطفال الذين هم دون سنّ البلوغ، وكان الطالب يتلقّى مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وتعلُّم الخط على شيخ المكتب لقاء أجْرٍ ماليّ أو عَيْنيّ يتناسب مع وضع كل طالب. كما كانت هناك مكاتب أخرى خاصّة بالأطفال الأيتام والمساكين، والتعليم فيها مجّانيّ دون أجرٍ حسب شرط الواقف.

وكان بين الشيوخ معلّم يختصّ بتعليم سورة "يس"، يُعرف بـ "معلّم "يس". أما الأولاد الصغار الذين دون الخامسة فكانوا يتلقّون مبادئ الحروف والحساب في بيوت خاصّة تُشرف عليها سيّدة تُلمّ بالقراءة والكتابة تُعرف بالخوجاية، أمّا البيوت التي فيها عالِم أو شيخ أو مدرّس فمن البداهة أن تكون أول مَدْرَجٍ للأبناء في رحلة العلم والتعلُّم، لاستمرار المناصب العلمية والوظائف الدينية في الأبناء والذراري، والحفاظ على المستوى الاجتماعي للأسرة. وهذا نراه

---

(١٢) السيري: نسبة إلى بلدة سير. مصيف قريب من طرابلس.

واضحاً في توارث أفراد الأسرة لوظيفة معيّنة لعشرات السنين، وقد يمتدّ الأمر ببعضهم لعدّة قرون.

المدرّسون في المساجد الجامعة:

من مطالعاتنا لسجلّات المحكمة الشرعية بطرابلس وكتب التراجم للعلماء استطعنا أن نقف على أسماء جماعة من المدرّسين الذي كان لهم دورهم في الحياة العلمية، يأتي في مقدّمتهم علماء الجامع المنصوري الكبير، وأول من عرفنا منهم في العصر العثماني:

- **أحمد بن عبد المولى السّيري**(١٣) وهو جدّ أسرة تولّت منصب الإفتاء والوظائف الدينية. ورد اسمه لأول مرة في سجلات المحكمة الشرعية على أنه مدرّس في الجامع المنصوري سنة ١٠٩٦ هـ/ ١٧٤٣ م. وكتب إجازة في رواية حديث للشيخ "محمد بن محمد بن أبي حامد الحامدي" في شهر رمضان ١٠٩٧ هـ/ ١٧٤٤م.

وكان "ابن محاسن الدمشقي" قام برحلة إلى طرابلس في سنة ١٠٤٨/١هـ٦ .م٩٦١ والتقى بـ "محمد بن عبد المولى السيري"، ووصفه بالشيخ الفاضل، واللوذعيّ الكامل، وأنه رجل له فضيلة في فقه الشافعية ومعرفة في الحساب والفلك، فكان يتذاكر معه(١٤).

- **عبد المولى السيري** كان مدرّساً بالجامع المنصوري، ويتولّى وظيفة طلب العلم الشريف بجامع محمود لطفي الزعيم، وقراءة الحديث الشريف في جامع طينال، وتولّى منصب إفتاء الشافعية، إلى جانب وظائف أخرى في عدّة مساجد ومدارس. وتوفي في شهر رمضان سنة ١١٣٦ هـ/ ١٧٢٣م. وتوزّعت وظائفه بين ابنه أحمد، وحفيده محمد، وابن أخته، وغيره. ذكره "المرادي" فقال: "كانت له يد في العلوم، لا سيّما في الطبيعيات والنجوم، حتى قيل إنه وصل بمعارفه عند توسّط كيوان(١٥)، إلى استحالة بعض العناصر

(١٣) آثار طرابلس الإسلامية، عمر عبد السلام تدمري، دار الإيمان، طرابلس ١٩٩٤، ص ١١٦،١١٧.

(١٤) كيوان: لفظة فارسية تُطلق على أحد سيّارات النظام الشمسي زُحَل، واسمه عند المنجّمين: النحس الأكبر والمقاتل.

(١٥) سلك الدُرَر في أعيان القرن الثاني عشر، المرادي، دمشق ١٢٩١ هـ، ج٣/١٤٠.

آثار طرابلس الإسلامية، ص١١٨، سجلّ المحكمة، رقم ٨ لسنوات ١١٥٠-١١٥٧ هـ، ص١٧٨.

إلى بعض، وإلى تقاويم عند أخذ العرض تُنْبي عن استخراج مجهولات. وكان له قدم ثابت في إرصاد الثوابت، كما أن له باعاً طويلاً فيما إليه يميل"[١٦].

• **محمد بن عبد الله السيري** انتقل إليه تدريس الجامع المنصوري لوفاة خاله "عبد المولى" في ٢٨ رمضان ١١٣٦ هـ. وهو إمام محلّة الصباغة بطرابلس[١٧]. توفي سنة ١١٦٥ هـ/ ١٧٥١ م.

• **محمد بن محمد السيري** تقرّر في وظيفة التدريس بعد أبيه في ٢٦ شوال ١١٦٥هـ[١٨].

• **عبد الله الخليلي** عالم طرابلس في أيامه، وشيخ مشايخها، ومُفتيها. وُصِف في سجلّات المحكمة بأنه "إنسان عين العارفين، وبهجة نور الأتقياء والموحّدين، شيخ مشايخ الديار الطرابلسية، ومفتي أهل المذهبين: الحنفية والشافعية..وعُمدة أهل التحقيق القامع بأدلّته القطعية لكلّ مبتدع زنديق، المولى الهُمام الفاضل، المسمّى في هذا الإقليم بشمس الساحل، محرّر النقول للفُتْيا على المذهبين، المشهود بفضله على هام الأنام من غير مَيْن".

كان بيده مجموعة وظائف، منها الوعظ في الجامع المنصوري، وتدريس الفقه على مذهب الإمام الشافعي بجامع العطار. وتخرّج عليه جماعة من أعلام طرابلس. وله نقد على رسالة ألّفها "علي بن مصطفى كرامي". وتوفي سنة ١١٦٠ هـ/ ١٧٤٧م[١٩].

• **عمر بن مصطفى بن أبي اللُّطف الكرامي** ذكره "المرادي" فقال إنه من أفاضل العلماء، الأديب، العالم، الحنفي الشهير بابن كرامة، قرا بمصر، ودرّس بجامع طرابلس، وتولّى إفتاءها، وله من المؤلّفات "نظْم متن السراجية"، وشرحها، وله رسائل في العَروض، وغيره. وكان معمَّراً عاش ١١٥ سنة، وتوفي بعد سنة ١١٦٠ هـ/ ١٧٤٧ م[٢٠].

---

(١٦) سجلّ السلوات ١١٦٤-١١٦٦ هـ، ص ٤٣١.

(١٧) آثار طرابلس..، ص ١١٩،١٢٠، وفيه مصادر أخرى.

(١٨) آثار طرابلس..، ص ١٢٠،١٢١، وفيه مصادر أخرى.

(١٩) آثار طرابلس، ص١٢١، وفيه مصادر أخرى.

(٢٠) آثار طرابلس، ص ١٢١ وفيه مصادر أخرى.

• **محمد بن محمد السندروسي الحسيني الحنفي** تولّى الخطابة والتدريس وقراءة الحديث في الجامع المنصوري في سنة ١١٥٠ هـ/١٧٣٧ م. وصفه "المرادي" بالفاضل النجيب الفقيه، تفقّه في المسائل، وألّف كتاباً في أسماء الصحابة عارضَ به كتاب "الإصابة في تمييز الصحابة" لابن حجر، وسمّاه "الشموس المضيّة في ذكر أصحاب خير البريّة" في مجلّد. وصنّف كتاباً آخر سمّاه "الفجر المنير في ذِكر أسماء أهل بدر ذوي المقام الخطير". وله "الكشف الإلهي عن شديد الضعف والموضوع والواهي" في الحديث، وفرغ منه في سنة ١١٤٦ هـ/ ١٧٢٩م(٢١).

• **مصطفى وعبد الواحد السندروسي** وهما ولدا محمد المذكور قبلهما، أخذا مهمّة قراءة الحديث، والخطابة بعد وفاته سنة ١١٧٧ هـ/ ١٧٦٣م(٢٢).

• **عبد القادر بن عبد اللطيف بن عمر الرافعي البيساري الحنفي** هو أول من تلقّب بالرافعي، إذ قال له أحد مشايخه الكبار: أنت من رافعي لواء العلم، فلُقّب بذلك، وكان من أكابر العلماء العاملين، سافر إلى مصر، وأخذ عن علماء عصره، ولازم الشيخ محمود الكردي المتوفى ١١٩٥ هـ. وبعد وفاة شيخه عاد الرافعي إلى طرابلس وتولّى مهمّة التدريس في الجامع المنصوري، فكان الجامع على اتساعه يضيق بتلاميذه. وقيل إن الدولة العثمانية كانت تعزل كل قاضٍ لا يرضى عنه الشيخ عبد القادر الرافعي.

له قصيدة يمدح فيها شيخه الكردي من ٤٧" اهركذ ًاتيد الجَبَرتي"(٢٣)، وله في الأدبيات والتصوّف شِعر رائق، ونثر فائق، منه مقالة بديعة أرسلها إلى علي باشا الأسعد أمير عكّار، يصف فيها هياج البحر وريحه العاصف. وله مقامة في المفاخرة بين حمص وحماه، أتى فيها بأبدع النكات، عارضها الشيخ أمين الجندي الحمصي (ت ١٢٥٦ هـ/ ١٨٤٠ م). وله تشطير "البُرْدَة" منها نسخة قيّمة منقولة عن نسخة مقروءة عليه سنة ١٢٠٥ هـ. قراها عليه وكتبها مفتي الديار الشامية، المؤرّخ "المرادي"، وهي محفوظة

---

(٢١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي، طبعة بولاق ١٢٩٧ هـ ، ج٢/٦١.

(٢٢) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق (الشعر) ، إعداد د.عزّة حسن، دمشق ١٩٦٤، ص٨٥.

(٢٣) آثار طرابلس..، ص ١٢١-١٢٣.

بدار الكتب الظاهرية بدمشق، ضمن مجموع رقمه (٨٧٣٢) في الأوراق (٢١٠٢٩) [٢٤]، وله شرح طويل على حِكم شيخه الكردي، وقد طُبع. توفي سنة ١٢٣٠هـ/١٧١٤م. وتولى "مصطفى آغا بربر" والي طرابلس غسله بنفسه، ورثاه الشعراء من المسلمين والنصارى[٢٥].

• **إسماعيل بن أحمد الأحمدي الحافظ** قدِم أبوه من مصر إلى طرابلس سنة ١١٨٥هـ/ ١٨٢٠ م. وأتى معه بالطريقة الأحمدية فاشتهر بها، ثم انتقل إلى القسطنطينية وتوفي هناك سنة ١١٩٢ هـ/ ١٨٢٧ م. فخلّفه بطرابلس ابنه إسماعيل، وحفظ القرآن الكريم في صِغَره، ولذا اشتهر بالحافظ، وتلقّى العلوم على شيوخها، حتى صار علاّمة كبيراً ونابغة عصره، وتولّى أمانة الفتوى بطرابلس، وإقراء الحديث والتفسير في الجامع المنصوري. توفي سنة ١٢٨٨ هـ/ ١٨٧١م([٢٦]).

• **محمود بن محمد بن عبد الدائم نشّابة** أحد علماء طرابلس الأعلام. نشأ وتعلّم بها، ثم سافر إلى مصر في الحادية عشرة من عمره، فجاور بالأزهر، وأخذ الإجازة عن إبراهيم السقّا، وإبراهيم الباجوري، وغيرهما، وحين عاد إلى بلده سنة ١٢٦٦ هـ/ ١٨٤٩ م. تولّى التدريس في الجامع المنصوري، وأفاد كثيراً في العلوم الشرعية والعقلية، ومن أشهر تلامذته مصطفى كرامي مفتي طرابلس، وابنه رشيد كرامي، والشيخ عبد الفتاح الزعبي الحيلاني خطيب الجامع.

من مؤلفاته "حاشية على متن البيقونية" في مصطلح الحديث، وهي مطبوعة، وحاشية علّقها على "همزيّة" البُوصيري، وتعليق على "شرح الضنّاوي" في المنطق، و "العقود الدريّة على الأسئلة النحوية" للشيخ عبد الغني الرافعي، (طبع سنة ١٣٠١ هـ) وله "نثر الدراري على شرح الفناري" (طُبع بطرابلس ١٣١٠ هـ) وقرّظه قاضي طرابلس محمد منيب الهاشمي. وترجم "قانون كاتب العدل الموقّت" من التركية إلى العربية. (طُبع بطرابلس ١٣٢٩ هـ)

---

(٢٤) آثار طرابلس ..، ص ١٢٣.

(٢٥) نفحة البشام في رحلة الشام ، القاياتي، مصر ١٣١٩ هـ، ص ٦٩.

(٢٦) آثار طرابلس..، ص ١٢٣،١٢٤ وفيه مصادر أخرى.

التقى به "القاياتي" عند زيارته لطرابلس سنة ١٣٠٠/ــه١٨٨٢ ادهتجم ناك هنإ لاقو .م في التعليم بالجامع، ويشتغل في أغلب أحواله على مذهب الإمام الشافعي (٢٧).

توفي سنة ١٣٠٨/ــه١٨٩٠ م(٢٨).

● **حسين بن محمد بن مصطفى الجسر** وُلد سنة ١٢٦١ هـ/ ١٨٤٤ م. ونشأ يتيماً إذ توفي والده ولم يُكمل السنة الأولى من عمره، فقرأ القرآن الكريم على الشيخ أحمد عبد الجليل أحد قرّاء طرابلس وحفّاظها المشهورين في عصره، وأخذ الدروس الدينية واللغوية على الشيخين الرافعيّين: عبد القادر وعبد الرزاق، ثم تردّد على حلقة الدروس في مدرسة الشيخ أحمد عُرابي بالخاتونية، وأخذ عنه مبادئ النحو والصرف والفقه. وفي سنة ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢ م. سافر إلى مصر وجاور بالأزهر الشريف ومكث هناك خمس سنوات انكبّ خلالها على التحصيل وظهر نبوغه وذكاؤه حتى اشتهر بين أساتذته ورفاقه من الطلبة، ثم عاد إلى طرابلس ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٧ م. فكان عالمها في عصره، تولّى التدريس في الجامع المنصوري، وجامع طينال، والمدرسة الرجبية، ولما رأى أن التدريس في المساجد لا يفي بالغاية، أسّس بمفرده "الكلية الوطنية" ودرّس فيها علوم الدين واللغة العربية على غرار الأزهر، وأدخل الفرنسية والعلوم الطبيعية والرياضية والآداب، وتخرّج منها جمهور من أكابر العلماء لم يدرسوا في معهد سواها، وأشهرهم: السيد محمد رشيد رضا صاحب "المنار"، والشيخ صالح الرافعي، والشيخ عبد القادر المغربي عضو مجلس العلماء العربي بدمشق، والشيخ عبد المجيد المغربي أمين فتوى طرابلس، والشيخ سعيد كرامي، والشيخ محمد البارودي، والشيخ وهيب البارودي، والشيخ محمد رحيم، والشيخ كامل الميقاتي أمين الفتوى، ومن تلاميذه المتأخّرين في السنّ: الشيخ إسماعيل الحافظ الذي أتمّ دراسته في الأزهر، وكذلك الشيخ عبد الكريم عويضة، والشيخ أمين عز الدين الذي بدأ دراسته على الشيخ محيي الدين الخطيب وأتمّها على الشيخ الجسر.

من أشهر مؤلّفاته "الرسالة الحميدية" وقد تُرجم إلى اللغة الأوردية في الباكستان، و"الحصون الحميدية" في علم الكلام، وغيرهما من المصنّفات التي بلغت ٤٧ كتاباً، في

---

(٢٧) في مكتبتي نسخة بخطه، أعتقد أنها فريدة لا ثاني لها، ولكنها ناقصة في آخرها.

(٢٨) آثار طرابلس ...، ص ١٢٤-١٢٦ وفيه مصادر أخرى.

(٥٥١٥ صفحة) طُبع بعضها، والبعض الآخر ما زال مخطوطاً، وأشهر المخطوطات "الكواكب الدرّية في الفنون الأدبية" وهو يبحث في علم البديع والقرض والإنشاء، ويُعتبر من أبدع ما كتب في الأدب العربي[٢٩]. ومن أشهر أعماله الفكرية إصدار جريدة طرابلس باسم "رياض طرابلس" احتوت على مقالاته الدينية، والعلمية، والتهذيبية، والأدبية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعمرانية، والصحية. وبدأ بنظم الشعر الراقي وهو ابن ١٧ عاماً، وله قصيدة في محاسن طرابلس ومُنتزهاتها عدد أبياتها ١٠٦ أبيات كلها من غُرر الشعر وبديعه. وتوفي سنة ١٣٢٧ هـ/ ١٩٠٩م [٣٠].

أمّا جامع العطار فدرّس به:

- **عبد القادر بن محمد بن محمد الصهيوني الطرابلسي** يُعرف بابن قاضي سراسيق. ذكره "الغزّي" في "كواكبه" فقال: "الشيخ العلاّمة شرف الدين الصهيوني ثم الطرابلسي ثم الدمشقي الشافعي خطيب جامع العطار بطرابلس وإمامه. أخذ عن شيخ الإسلام الوالد، وقرأ عليه في "البهجة" جانباً صالحاً. وفي "صحيح مسلم" وفي الأذكار، وغير ذلك. وحضر كثيراً من دروسه، ثم أخذ قسماً في "الألفيّة" عليه، وهو القسم الأخير مع رفاقه الثلاثة: الشيخ رجب الحموي، والشيخ محمد الجبرتي، والشيخ إبراهيم اليمني الجبرتي، وقدِم حلب في حياة الشيخ شهاب الدين الهندي، فقرأ عليه في "شرح الشمسية" للقُطب، وسمع عليه في غيره، ثم عاد إلى طرابلس ودرّس بجامع العطار وانتفع به الطلبة. وكان الثناء عليه جميلاً في الديانة وحُسْن الخُلُق، غير أنه كان يُنكر على ابن العربيّ. وتوفي بطرابلس سنة ٩٦٢هـ[٣١]/ ١٥٥٥م.

- وكان قبله في جامع العطّار "محمد بن عبد الرحمن الصهيوني" ذكره "الغزّي" أيضاً، وهو إمام وخطيب بالجامع، توفي سنة ٩٤٩ هـ[٣٢]/١٥٤٢م. وهو الجدّ الأعلى

---

(٢٩) الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة، الغزّي، تحقيق جبرائيل سليمان جبّور، بيروت ١٩٤٥، ج٢/١٧٢، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي ، مصر ١٣٥١ هـ، ج٨٣٣٢، تاريخ وآثار.. ، ص ٢٠٢.

(٣٠) الكواكب السائرة..، ج٢٤١ تاريخ وآثار..، ص ٢٠٢.

(٣١) تاريخ الطائفة المارونية، اسطفان الدويهي، بيروت ١٨٩٠، ج٢ /٢١٣.

(٣٢) مجلّة المورد، بغداد ١٩٨١، المجلّد ١٠، العدد ٢ ، ص٢٢٥.

لبني "الحامدي" وهي أسرة معروفة بطرابلس قدمت من جبل صهيون بفلسطين واستوطنتها. ومن أفرادها: مصطفى بك ابن الصهيوني، وكان مدبّراً لوالي طرابلس محمد باشا الأرناؤط الذي تولاّها في سنة ١٠٤٩ هـ/١٦٣٩م(٣٣).

• ومن أبناء الأسرة "**محمد بن محمود بن عبد الحق العُمري الحامدي**" وكان من أهل البيان، له خلوة في جامع العطار وجامع طينال، وهو إمام وخطيب العطار. اجتمع به "ابن محاسن الدمشقي" في الجامعين أثناء رحلته إلى طرابلس سنة ١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٨م. ورأى الكثيرين من تلاميذه، وأخذ منه إجازة. له "دُرَر الفوائد المستحسَنة في شرح منظومة ابن الشحنة" في فنّ البلاغة. واختصر منظومة" غرامي صحيح" للإشبيلي، وله "مسائل في البسملة"، منها نسخة خطيّة محفوظة بمكتبة الأوقاف العامّة ببغداد، تحت رقم (١٢٧٩٣/١٣) (٣٤). وله ديوان خُطَب كبير الحجم، وكتاب في المواعظ والإرشاد جَمَعه تلميذه ابن الحلواني الحصني. توفي سنة ١١١٧ هـ/ ١٧٠٥م. ودُفن بمقبرة جامع العطار(٣٥).

• **محمد بن محمد بن محمود بن عبد الحق الحامدي** درّس في جامع العطار إلى أن توفي سنة ١١٦٢ هـ/ ١٨٤٣ م.

• **عبد القادر بن محمد** خلف أباه في التدريس في ٢٦ ربيع الثاني ١١٦٢ هـ/ ١٨٤٣ م.

• **نجيب بن محمد بن أحمد بن عبد القادر الحامدي** وُلد سنة ١٢٦٢ هـ/ ١٨٤٣م. ودرس في طرابلس، ثم سافر إلى مصر في مُقتَبَل عُمره والتحق بالأزهر ولبث هناك عدّة سنين حيث أنهى علومه العقلية والنقلية على فطاحل الأساتذة وأخذ الشهادة بذلك، ورجع إلى طرابلس وعكف على التعليم والإرشاد حوالى الأربعين سنة، ولم ينقطع عن التدريس

---

(٣٣) المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية، ابن محاسن الدمشقي، تحقيق د.محمد عدنان البخيت، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨١، ص ٦٧و٦٨، موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي، عمر عبد السلام تدمري، طبعة المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، بيروت ١٩٩٣، ق ٣ج٤/ ٢٨١-٢٨٣ رقم ١٢١٥، وفيه مصادر أخرى.

(٣٤) تراجم علماء طرابلس وأدبائها ، عبد الله نوفل، طرابلس ١٩٢٩، ص ١٨٣.

(٣٥) سلك الدرر، ج٢ ٢٣٨.

حتى وفاته سنة ١٣٢٩ هـ/ ١٩١١م. وتخرّج عليه كثيرون من طلبة العلم(٣٦). وترك مكتبة ضخمة فيها مجموعة نادرة من المخطوطات في حجرة الإمام بجامع العطار.

ومن الشيوخ الذين تولّوا التدريس في جامع العطار من غير بني الصهيوني= الحامدي:

• **أحمد بن عثمان البتروني**: أصله من بلدة البترون القريبة من طرابلس جنوباً. توفي سنة ١٠٧٧ هـ/ ١٦٦٦م.

• **مصطفى بن إبراهيم البتروني**: تقرّر في وظيفة التدريس في ٣ شوال ١٠٧٧ هـ/ ١٦٦٦ م.

• **إبراهيم بن مصطفى بن عبد الحيّ الميقاتي** خطيب الجامع المنصوري. تقرّر مدرّساً في جامع العطّار بعد مصطفى البتروني في غُرّة رجب ١٠٧٨ هـ/ ١٦٦٧م.

• **عبد الجليل بن سُنّين الطرابلسي** ورد في سجلاّت المحكمة الشرعية أنه كان مدرّساً سنة ١٠٨٨ هـ/ ١٦٦٨م. واجتمع به الرحّالة "عبد الغني النابلسي" في رحلته إلى طرابلس ١١١٢ هـ/ ١٧٠٠م. وجرت بينه وبين مفتي طرابلس آنذاك "هبة الله بن علي البصير" أبحاث علمية ومسائل فقهية. وجرى عرض مسائل الطلاق المعزُوّة لقاضي خان، والتي سألها قاضي طرابلس يحيى (؟) للشيخ النابلسي، كما جرى البحث في مسألة أخرى في الطلاق ذكرها المفتي هبة الله. ثم امتدّ الكلام في التاريخ إلى ذكر نور الدين محمود زنكي.

• طلب منه الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم المعروف بابن عبد الرزاق وهو المرافق للنابلسي في رحلته، إجازة في الحديث، فكتب له ابن سُنين إجازة طويلة بإسناد عال بجميع ما يجوز له وعنه روايته(٣٧).

• **أبو بكر بن محمد بن مصطفى بن عبد الحيّ** تولّى التدريس في أول ربيع الأول ١١٤٢ هـ/ ١٧٢٥م.

---

(٣٦) فهرس مخطوطات المطران سليمان الصائغ وأخيه، الأب بطرس حداد ، مجلّة المورد، بغداد ١٩٨٣، المجلّد ١٢،العدد ١، ص ١٣٩.

(٣٧) سجلّ المحكمة، لسنة ١١٩٢ هـ، موسوعة علماء المسلمين.،، ق٣ج٣/ ٣٣١، ٣٣٢.

• **عبد الله الخليلي** كان يدرّس الفقه الشافعي، وتوفي سنة ١١٦٠ هـ/ ١٧٤٧م.

• **إبراهيم بن عبد الله الدمنهوري** أصله من دمنهور بمصر. تولّى بعد وفاة الخليلي.

• **عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن مصطفى بن عبد الحي** أخذ التدريس عن أبيه المتقدّم، ثم تفرّغ عنه في سنة ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٤م.

• **محمد بن أحمد الشهير بابن عبد الدائم نشّابة** أخذ التدريس عوضاً عن عبد الرحمن بن أبي بكر في سلْخ شهر صفر ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٤م. وفرغ منه في ٥ ربيع الأول ١١٨٩ هـ.

وفي جامع التوبة عرفْنا من المدرّسين:

• **محمد بن مرحبا** وكان يدرّس أيضاً في جامع أرغون شاه. توفي في أواسط ربيع الآخر ١٠٧٨ هـ/ ١٦٦٧م. فتقرّر بعده ابنه:

• **عمر بن محمد بن مرحبا.**

وفي جامع طينال كان يدرّس:

• **سليم بن علاء الشهير بابن مدوخ** بين سنتي ١٠٨٨ و١٠٨٩ هـ/ ١٧٣٥ و١٧٣٦م.

• **عثمان بن مصطفى بن أبي اللُطف كرامي** مفتي طرابلس وابن مُفتيها. كان يدرّس في الجامع وفي مسجد القَرْمَشْية، بموجب براءة سلطانية مؤرّخة في سنة ١١٢١هـ/١٧٠٨م. وكان يكلّف وكيلاً ينوب عنه في مهمّته إلى أذِن له الحاكم الشرعي بطرابلس خليل(؟) أن يباشر التدريس بنفسه في أول ربيع الثاني ١١٦٦ هـ/ ١٧٧٤م. وكان يجمع مكتبة عامرة بالمخطوطات في مختلف العلوم الدينية والأدبية. وكتب بيده: "الاقتضاب في شرح أدب الكتاب" لعبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي المتوفّى سنة ٥٢١ هـ/ ١١٢٨م. وتاريخ الكتابة في أواخر ربيع الأول ١١٤٢ هـ/ ١٧٢٨م(٣٨). وانتقل إلى مدينة أَدَنَة وتوفي فيها غريباً سنة ١١٧٥ هـ/ ١٧٨٣م. ووُجد في مكتبته:

---

(٣٨) سجلّ المحكمة الشرعية لسنة ١١٩٣ هـ، ص١٦١.

"فتاوى ابن نُجيم"، و "تعارض البيّنات"، و "أحكام الصغار"، و "شرح السراجية"، و "الدنشاه"، والجزء الأول من "البحر الرائق"(٣٩).

• حسن بن عمر بن مصطفى بن اللُطف كرامي درّس في جامع طينال بعد وفاة عمّه عثمان، وتقرّر في وظيفته في ٧ شعبان ١١٧٥ هـ/ ١٧٨٣م. وتولّى الإفتاء وعدّة وظائف في مساجد ومدارس أخرى، وكان وكيله في مهامّه الشيخ عمر بن محمد تدمري. ودرّس في مدرستي: القادرية، والحُجيْجيّة. وفرغ عن التدريس في الأخيرة سنة ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م(٤٠).

• حسين بن محمد بن مصطفى الجسر تقدّم ذكره في مدرّسي الجامع المنصوري.

وفي جامع أرغون شاه كان مفتي الحنفية بطرابلس "محمد أفندي التدمري" يقوم بمهمّة الوعظ للخاصّة من الطلاّب، والعامّة من الناس. وقد وُصف في السجلاّت بأنه "وحيد عصره، وفريد أوانه ودهره، والجامع لمحاسن تشتّتت في غيره من العلوم كالفقه والنحو والحفظ والقراءة والمنطوق والمفهوم، الإمام الهُمام(٤١)". توفي في غرّة شهر رجب ١١٦٠ هـ/ ١٧٦٨م. وقام بعده بمهمّة الوعظ الشيخ "أبو بكر بن محمد بن مصطفى بن عبد الحيّ الميقاتي" الذي كان مدرّساً في الجامع المنصوري اعتباراً من أول ربيع الأول ١١٤٢ هـ/ ١٧٢٥م. ويقوم بمهمّتي الإمامة والتوقيت في الجامع المنصوري أيضاً. ذُكر في "نزهة الفكر في مناقب الشيخ محمد الجسر" ووُصف بأنه من أكابر الصالحين، ومن العلماء العاملين. وترك من الأولاد: عبد الرحمن، ومصطفى، ومحمد، وقد خلفوه في وظائفه(٤٢).

وفي جامع الطحّام كان يدرّس خاتمة المحدّثين المُسْندين الكبار في بلاد الشام:

• محمد بن خليل بن إبراهيم بن محمد على المَشيشي الطرابلسي الحنفي، الشهير بأبي المحاسن القاوقجي" كان محدّثاً كبيراً، وعلاّمة فقيهاً، ومُسند بلاد الشام، وعلى

---

(٣٩) السجلّ ١٤-لسنة ١١٦٠هـ ص١١٧.

(٤٠) السجلّ نفسه.

(٤١) موسوعة علماء المسلمين...، ق٣ ج٣/١٢٧-١٣٨ رقم ١٠٩١ وفيه مصادر كثيرة.

(٤٢) موسوعة علماء المسلمين ، ق٣ج٣/٤٠ -٥١ رقم ٦٣٤ وفيه مصادر أخرى.

أسانيده المدار في غالب بلاد الشام ومصر والحجاز. وُلد بطرابلس سنة ١٢٢٤ هـ/ ١٨٢٧م. وتلقّى علومه الأولى فيها، ثم رحل إلى مصر سنة ١٢٣٩ هـ/ ١٨٤٢م. فتفقّه في الأزهر، وأقام هناك ٢٧ سنة حتى صار له آلاف التلاميذ والمريدين، وعاد إلى بلده، وعكف على التدريس في جامع الطحّام إلى جانب الاشتغال بالتأليف، فألّف أكثر من ١٠٠ كتاب بين مطوّل ومختصر، منها "الجامع الفيّاح للكتب الثلاثة الصحاح" وهي الموطأ والبخاري ومسلم، و "الذهب الإبريز شرح المعجم الوجيز"، وهو مطبوع، و" البهجة القدسية في الأنساب النبوية"، ورسالة في "مصطلح الحديث وشرح غرامي صحيح"، و "تسهيل المسالك لمختصر موطّأ مالك"، و "الفتح المبين" وهو شرح "الحصن الحصين" لابن الجزَري، ورسالة تشتمل على ٢٠٠ حديث جعلها على أركان الإسلام الخمس، لكلّ منها أربعين حديثاً، وحاشية على "الأربعين النووية"، و "اللؤلؤ المرصوع فيما لا أصل له أو أصله موضوع" وهو مطبوع، و "كواكب الترصيف فيما للحنفية من التصنيف"، و "الأسانيد العليّة المتّصلة بأربعين كتاباً من أشهر الكتب الحديثية"، و "الاعتماد في الاعتقاد"، و "ربيع الجنان في تفسير القرآن"، و "روح البيان في خواصّ النبات والحيوان"، و "سفينة النجاة في معرفة أحكام الصلاة"، و "معدن اللآلي في الأسانيد العوالي" ذكر فيه أسماء العلماء الذين درس عليهم، ومنهم: الشيخ الشمس محمد البهيّ وهو أعلى شيوخه إسناداً، ومحمد بن أحمد الودي الفاسي دفين طرابلس، وعلي بن علي مراد الطرابلسي، ومحمد الدسوقي دفين طرابلس، والبرهان الباجوري، والشيخ السنوسي، والسيد الميرغني، وابن أخيه الشمس محمد عثمان صاحب "تاج التفاسير"، والشمس محمد التطواني، ومفتي يافا حسين الدجاني، وعابد السندي المدني، ومحمد بن محمود الجزائري، وغيرهم.

وحدّث عشرة من كبار أصحابه بأسانيده، ومنهم: مُسند المدينة المنوّرة أبو الحسن علي بن طاهر المدني، ومُسند دمشق أبو النصر الخطيب الدمشقي، ومُسند دمياط محمد الشريف بن عوض الدمياطي، وخطيب الأزهر أبو علي حسن بن محمد السقّا الفرغلي المصري، وعبد الفتّاح الزعبي خطيب الجامع المنصوري الكبير بطرابلس ونقيب أشرافها، ومحمد بن سليمان المكي، وغيرهم.

توفيّ في مكة المكرّمة ليلة الأربعاء ٧ ذي الحجّة سنة ١٣٠٥ هـ/ ١٨٨٧م[٤٣].

• عبد الغني الرافعي الكبير ولد في طرابلس سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٧م، وأخذ على أبيه أحمد بن عبد القادر، وحفظ القرآن الكريم على الشيخ مصطفى الحفّار، ثم أخذ العلم على علماء طرابلس كالشيخ أعرابيّ الزيلعي، والشيخ نجيب الزعبي الجيلاني، فأخذ عنه أكثر العوم العقلية والنقلية وفنون الأدب، وقرأ "البيضاوي" في التفسير على الشيخ إسماعيل الحافظ الكبير، ثم رحل إلى دمشق وأخذ عن مشاهيرها، كما أخذ الفقه والأصول والتفسير، وقرأ على الشيخ محمد الكتبي في مكّة المكرّمة، وعاد إلى بلده فسلك الطريقة الخلوتية على الشيخ محمد رشيد الميقاتي، الإمام المؤقّت في الجامع المنصوري الكبير، وبعد أن أنهى دراسته، أخذ يقرأ الدروس وينشر العلوم، فتخرّج عليه كثير من الطلبة، وخدم في الدولة العثمانية ولكنه لم يترك التعليم، فكان كلّما حلّ في بلدة يُحيي فيها المجالس العلمية، ويحضر مجالس علمائها ويأخذ عنهم. وكانت آخر وظائفه رئاسة استئناف الحقوق والجزاء في صنعاء اليمن، ثم غلب عليه التصوّف في آخر أيامه، فترك الوظائف وانقطع للعبادة حتى توفي في مكة المكرّمة يوم الاثنين ١٤ ذي الحجّة سنة ١٣٠٨ هـ/ ١٨٩٠م. وترك عدّة مؤلّفات منها: "الفتاوى"، و "تعليقات على حاشية ابن عابدين" في الفقه، وجملة رسائل في المسائل الفقهية، و "ترصيع الجواهر المكية في تزكية الأخلاق المَرْضيّة" في التصوّف، و "شرح على بديعية الصفيّ الحليّ" وهو حافل في مجلّد ضخم. و "أسرار الاعتبار فيما أودعه الله تعالى من الحِكَم في الأشجار"، وله رسائل في فنون مختلفة، وأشعار كثيرة.

رثاه العلاّمة حسين الجسر، والسيد محمد رشيد رضا صاحب "المنار"، وعبد الفتاح الزعبي نقيب الأشراف بطرابلس[٤٤].

المدرّسون في المدارس:

إنّ أقدم وثيقة تؤرّخ لوجود مدرسة لتعليم الأطفال في طرابلس وصلتنا من العصر العثماني تعود إلى سنة ١٠٧٨ هـ/ ١٦٦٧م. حيث تفيد أنه كان بجامع التوبة مكتب يُعرف

(٤٣) السجلّ الأول للمحكمة، سنة ١٠٧٨ هـ.

(٤٤) سجلّ المحكمة لسنة ١١٨٨ هـ.

بـ "الأحمدية" لتعليم الأطفال[٤٥]، وهذا المكتب لا يزال قائماً إلى الآن في الطـرف الشـمالي الغربي من الجامع عند بابه الشمالي الصغير. وأفادتنا وثيقة أخرى أنه في سـنة ١١٨٨هـ/ ١٧٧٥م. تقرّر فيها خليل بن عبد الوهاب مدرّساً[٤٦].

وفي جامع محمود بيك السنجق مكتب لطلب العلم، تقرّر فيه فخر الطلبة عمر بـن جـلال الدين بدلاً من الشيخ شهاب الدين (؟) لقاء غرشين أسديّين كل سنة، لطلب العلـم الشـريف، وذلك اعتباراً من نصف رجب ١٠٧٩ هـ/ ١٦٦٧م[٤٧].

وفي سنة ١٠٧٨ هـ/ ١٦٦٧م. وما قبلها كان محمد بن مرحبا يقوم بالتدريس في المدرسة القادرية، فتُوفي وخلّفه ولده الشيخ أحمد بن محمد بن مرحبا في وظيفته في أواسط ربيع الآخر من السنة[٤٨]. كما تقرّر مدرّساً أيضاً في مدرسة الشيخ علي الوتّار[٤٩].

وفي المدرسة الطُرمُشيّة = الدرمشية، المعروفة بالمدرسة النورية الواقعـة تجـاه حمّـام النوري كان يوجد مكتب لتعليم الأطفال قراءة القرآن، وكان يُقـرئ فيـه الشـيخ عمـر (؟) ويتقاضى ستّ عثمانيات فضية كل يوم من وقف المدرسة على وظيفته، حتـى توفـي سـنة ١٠٨٨ هـ/ ١٧٧٥م[٥٠].

وعلى مسافة ٥٠ متراً إلى الشمال من النورية تقوم المدرسة الطواشية، وبها مكتب لتـأديب الأطفال وتعليم القرآن. وقد تولّى التعليم فيه الشيخ شحادة بن مصطفى القادري، ثم فرغ مـن الوظيفة لخير الدين بن محمد في أواخر ذي الحجة ١٠٩٦ هـ/ ١٧٨٣م[٥١].

وعلى شاطئ نهر طرابلس كان يوجد مكتب لتعليم الأطفال يُعرف بمكتب الشـيخ محمـد الإيعالي، ويلاصقه مصلّى صيفيّ بقرب جسر الجديد، جدّده شهاب الدين بـن جمـال الديـن

---

(٤٥) سجلّ المحكمة رقم ٢، سنة ١٠٧٩ هـ.

(٤٦) سجلّ المحكمة رقم ١، ص ١٣٧ و١٣٨.

(٤٧) موسوعة علماء المسلمين.. ، ق ٣ج١/ ٣٨٠، ٣٨١ رقم ١٣٣.

(٤٨) سجلّ المحكمة لسنة ١٠٨٨ هـ.

(٤٩) سجلّ المحكمة لسنة ١٠٩٦ هـ. ، ص٢٢، موسوعة علماء المسلمين، ق٣ج٢/ ٢٩٤ رقم ٤٨٣.

(٥٠) سجلّ المحكمة رقم ٣/ص٧٢.

(٥١) سجلّ المحكمة لسنة ١١٢٦ هـ.

البارودي وأنشأ فيه غرفة، ثم توفيّ سنة ١٠٩٠ هـ. وخلفه ابنه مصطفى ووضع يده عليه وهو غير أهل له فتعطّل المصلّى، ولذلك صرفه الحاكم الشرعي وعيّن مكانه الشيخ علي بن محمود من طلبة العلم الشريف ويُحسن القراءة في الإمامة، وذلك في شعبان ١٠٩٧ هـ/ ١٧٨٤م[٥٢].

وفي سنة ١١٢٦ هـ/ ١٧١٥م عُيّن عمر كرامي ناظراً على المدرسة التي بجانب دار المير حاج إحياءً لمواتها، كما عُيّن مدرّساً فيها[٥٣]. وكان أخوه الحاج عثمان كرامي مفتي طرابلس مدرّساً بالمدرسة القرمشيّة بمحلّة اليهود، بموجب براءة سلطانية مؤرّخة في سنة ١١٢١ هـ/ ١٧١٠م، ثم وُجّهت الوظيفة [لغيره] في أول ربيع الثاني ١١٦٦ هـ/ ١٧٥٣م[٥٤]. وكان مدرّساً بجامع طينال، وجمع مكتبة عامرة، وانتقل في آخر عمره إلى مدينة أَدَنَة وتوفي فيها سنة ١١٧٥ هـ/ ١٧٦٢م. فورثه ابنه عليّ وتولّى الإفتاء، وأخذ وظائفه، وأغنى المكتبة، إلى أن مات في اسطنبول سنة ١١٩٢ هـ/ ١٧٧٩م[٥٥].

وفي محلّة سُوَيقة الخيل (بالحدّادين) بالقرب من جامع محمود لطفي الزعيم، المعروف بالجامع المعلّق يوجد مكتب عُرف بمكتب المرحوم صلاح الدين، كان يعمل فيه محمد بن مصطفى مقابله جي مؤدّباً للأطفال، وقد فرغ عن وظيفته في ٢٥ ذي العقدة ١١٦٤ هـ/ ١٧٥١م[٥٦].

وعلى مسافة أقلّ من مئة متر يقوم أمام جامع الطحّام في محلّة قهوة الحتّة مكتب آخر لتأديب الأطفال، عُرف بمكتب البياطرة، تقرّرت توليته للشيخ محمد بن علي الشهير بابن الحفّار سنة ١١٣٧ هـ/ ١٧٢٥م. ويظهر أن بني الحفّار تعاقبوا على وظيفة تأديب الأطفال

---

(٥٢) سجلّ المحكمة، رقم ٢٣، ص٣، موسوعة علماء المسلمين، ق٣ج٣/٢٨٦ رقم ٨١٦.

(٥٣) موسوعة علماء المسلمين، ق٣ج٣/٣٣٠ -٣٣٣ رقم ٨٦٧.

(٥٤) سجل المحكمة لسنتي ١١٢٧ و١١٢٨ هـ، ص ٦و٢٥، موسوعة علماء المسلمين، ق٣ ج٣ /٢٩٦ رقم ١٢٢٤.

(٥٥) سجل المحكمة رقم ٦٠/ص ١٤٠، وسجل ٣٣/ص٢٠٩.

(٥٦) سجل المحكمة رقم ١٤/ ص٤٣.

بمكتب المدرسة حتى عُرفت بهم، وكان منهم الشيخ قاسم بن الشيخ أحمد الحفار، وتقرّر في الوظيفة سنة ١٢٠٧ هـ/ ١٧٩٣م(٥٧).

وفي سنة ١١٦٠ هـ/ ١٧٣٨م. تقرّر الشيخ عبد الهادي عمر السيري مدرّساً بالشمسية بعد وفاة والده في ١٢ صفر من السنة، كما تقرّر مدرّساً في القرمشية قبل أن تُجدّد على الحاج عثمان كرامي المفتي(٥٨).

وبقي الشيخ عبد الهادي يدرّس حتى توفي في أواسط ربيع الأول ١١٧٥ هـ/ ١٧٦٢م، فتعيّنت وظيفة تدريس الشمسية بعبد الكريم بن محمد بن زين، ثم فرغ عبد الكريم من تدريس الشمسية لأحمد بن الحاج مصطفى ومحمد بن محمد السيري في ٢٤ رمضان ١١٧٥هـ/ ١٧٦٢م(٥٩).

وفي المدرسة الخاتونية بالقرب من جامع أرغون شاه كان يوجد مكتب للتدريس وتعليم الكتابة، وتولّى التدريس فيها الشيخ إبراهيم بن مصطفى الشهير بابن عبد الحيّ، ثم تفرّغ عن الوظيفة لعمر بن أحمد في أول ربيع الأول ١١٤٢ هـ/ ١٧٢٩م(٦٠)، ثم تولّى التدريس فيها الشيخ محمد السندروسي، وكان يأخذ ٣٠ قرشاً أسديّة في السنة، إلى جانب التدريس في جامع طينال لقاء ٢٧ قرشاً في السنة. وبعد وفاته تقرّرت الوظيفتان في جامع طينال والمدرسة الخاتونية لولديه مصطفى وعبد الواحد في سنة ١١٧٧ هـ/ ١٧٦٤م، وتولّى التدريس في الخاتونية بعدهما محمد عارف الزيني سنة ١٢٠٩ هـ/ ١٧٩٥م(٦١).

وكان الشيخ مصطفى القاسمي يقوم بوظيفة قراءة أطفال المسلمين بالمدرسة السلطانية بمحلّة القنواتي، وهي المدرسة الناصرية التي بناها السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون بمواجهة الباب الرئيس للجامع المنصوري الكبير، وتوفي القاسمي في شهر ذي القعدة

---

(٥٧) سجل المحكمة لسنة ١١٧٥ هـ، ص١٥٧.

(٥٨) سجل المحكمة لسنتي ١١٤١ و١١٤٢ هـ، رقم ٢٠ /ص٢٥١.

(٥٩) سجل المحكمة رقم ٣٤ /ص١٥١.

(٦٠) سجلّ المحكمة لسنوات ١١٧٩-١١٨١هـ، ص ٩٤و٩٥، موسوعة علماء المسلمين ق٣ ج٣/٣٢،٣٣ رقم ١٠٠٦.

(٦١) سجلّ المحكمة لسنتي ١١٧٢ و١١٧٣ هـ، ص ٤٨ و٤٩، موسوعة علماء المسلمين ق٣ ج٣/١٦٣،١٦٤ رقم ١١٤.

١١٧٩هـ/ ١٧٦٦م، فَخَلَفه ابنه محمد أمين بن مصطفى القاسمي في وظيفته يوم السبت ٩ ذي القعدة ١١٧٩ هـ[٦٢].

وفي مدرسة الدبّوسية كان محمد بن صالح الأدهمي يدرّس فيها لأكثر من ١٤ عاماً براتب ٣ قروش في السنة، وفي سنة ١١٦٦ هـ/ ١٧٥٣م ادّعى على متولّي وقفها محمد بن عبد القادر نجا وأخيه أحمد نجا أنه كان يؤدّي إليه قرشين ونصف القرش فقط من أصل ٣ قروش. ثم تقرّر الأدهمي مدرّساً بالدبّوسية لوفاة والده في ٢٠ ذي القعدة ١١٧٢ هـ/ ١٧٥٩م[٦٣].

وفي سنة ١١٩٣ هـ[٦٤]. جرى تعيين مدرّسين، هم: عبد الله بن محمد الخانجي[٦٥] في وظيفة طلب العلم الشريف بمكتب الأحمدية لتعليم الأطفال[٦٦]، ومن بعده أحمد بن محمد[٦٧].

والدرويش مصطفى السُّنّيني في تدريس مدرسة سيط العطار، وجرى تثبيته في غرّة ربيع الثاني من السنة[٦٨].

وعُيّن محمد سعيد مدرّساً بالحُجَيْجيّة في ١١ جمادى بعد الحاج حسن كرامي مفتي طرابلس[٦٩].

وفي ميناء طرابلس المعروفة بالأسكلة كان يوجد مكتب الأسكلة لإقراء أطفال المسلمين، وقد تقرّر في وظيفتها الشيخ أحمد بن إبراهيم الصفدي سنة ١١٩٣ هـ/ ١٧٨٠م[٧٠].

---

(٦٢) سلك الدرر، ج٣/٣٨ و٤/٢٥٠،سجلّ المحكمة رقم ٢٣/ص٤، موسوعة العلماء ق٣ج٣/٣٠١،٣٠٢ رقم ٨٣٣.

(٦٣) السجلّ رقم ٣٤، ص٧٥.

(٦٤) السجلّ رقم ٢٥، ص٩٨.

(٦٥) السجلّ لسنة ١١٩٣هـ.

(٦٦) السجل رقم ٢٧، ص ١٤٨.

(٦٧) السجل لسنة ١١٩٣ هـ، ص ١٦١.

(٦٨) السجلّ لسنة ١١٩٣.

(٦٩) السجل رقم ٢، ص١٠٣.

(٧٠) السجل لسنة ١١٦٦ هـ، ص ٦٣.

أمّا الأطفال الأيتام والمساكين، فكان لهم مدارسهم وكتاتيبهم الخاصة بهم، ولم يُحرموا نعمة العلم، حيث وقف رضوان آغا دَزْدار قلعة طرابلس مكتباً في محلّة العديمي بالقرب من المدرسة الحُجَيْجية لإقراء الأطفال وتعليمهم أحكام القراءة، وذلك في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، وتقرّر فيه الشيخ إبراهيم بن الشيخ أحمد سنة ١٠٧٩ هـ/ ١٦٦٨م[٧١]. ثم تولّى التعليم بعده عبد القادر بن الشيخ حسين المصري حتى توفي، وخَلَفَه مصطفى القاسمي الهاشمي في ١٧ جمادى الأولى هـ/ ١٧٥٣م[٧٢].

وبقي حتى توفي، وتقرّر بعده ابنه محمد أمين يوم السبت ٩ ذي القعدة ١١٧٩ هـ/ ١٧٦٦م[٧٣]. ويظهر أنّ المكتب أُهمل بعد ذلك فتهدّم وخرب ولم يُنتفع به مدّة سنوات، وأصبح سقفه مهدّداً بالسقوط، وتهدّم القبو من تحته، فتقرّر الكشف عليه سنة ١٢٠٨ هـ لإعادة بنائه، وذلك باهتمام متولّيه فخر الثقاة أحمد آغا دَزْدار قلعة طرابلس[٧٤].

وكان بين الشيوخ معلّم يختصّ بتعليم سورة يس، وهو الشيخ عمر (؟)، وكانت داره في محلّة العديمي، وهي دار شهيرة بدار الشيخ عمر معلّم يس، بقرب مدرسة محمد الفستقي، التي يحدّها غرباً دار قنصل الإنكليز، والدار هي قصر آل كاستفليس[٧٥].

وفي ٦ شوّال ١٢٢٩ هـ/ ١٨١٤م وصل إلى طرابلس (بيورلدي) من الحاج سليمان باشا العظم والي صيدا وطرابلس يطلب التشديد على إقامة الصلوات في المساجد وتعليم الصبيان القرآن الكريم، والتفتيش على الأوقاف لمصلحة المساجد والعناية بها، ونتيجة للتفتيش تبيّن أن مدرسة سبط العطار مهملة من المتولّين عليها وهما الشيخان الأخوان محمد وشاكر ابنا الشيخ مصطفى المولوي السُنَيني، وظهرت خيانتهما عند المحاسبة، فعُزلا عن المدرسة، وعُيّن مكانهما الحاج عبد الله بن السيد علي البارودي في ١٩ شوال ١٢٢٩ هـ[٧٦].

---

(٧١) السجل لسنة ١١٧٩ هـ، ص ٩٤.

(٧٢) السجل رقم ٣٤، ص ١٠٠.

(٧٣) السجل لسنة ١١٤١ هـ، ص ٨٩.

(٧٤) السجل رقم ٤٣، ص ١٦٤، ١٦٥و١٧٥.

(٧٥) السجل رقم ٤٣، ص٢٠٢،٢٠٣.

(٧٦) السجل لسنة ١١٦٦ هـ، ص ٣٢٩.

كما تبيّن أن الصلوات الخمس معطّلة في مدرسة القباقبية المعروفة بمدرسة الحبّاك وهي تحتاج إلى ترميم وتنظيم، فعُزل المتولّي عليها السيد محمد الأدهمي، وعُيّن السيد محمد الحاج ابن الحاج عيسى الذي يسكن بجوار المدرسة. وكان يقوم بخدمتها والصلاة فيها حسبة لله دون أن يتقاضى شيئاً. وتمّ تعيينه في ٢١ شوال ١٢٢٩ هـ(٧٧).

ومن أماكن التعليم بطرابلس غير المساجد والمدارس والكتاتيب، كان مُنتزه التلّ، ويُعرف قديماً بتلّ المشتَهَى، وهو تلّ مرتفع من الرمال، كان يُعتبر خارج نطاق المدينة في العصر العثماني، وهو وسط مرج البساتين، بين طرابلس والميناء، كان يقصده الناس رجالاً ونساءً للتنزّه، ونظراً لبعده النسبي عن بيوت الصلاة في باطن المدينة، فقد أقيم فيه مصلّى، كما أقيم فيه منبر لإقامة صلاة العيدين، فكان أحمد السُنَيني يتولّى الخطابة عليه بموجب حجّة شرعية مؤرّخة في ١٥ رمضان ١١٦٤ هـ/ ١٧٥١م. ويتناول ما يدفعه له وزراء طرابلس في وقته، إذ لم يكن لهذه المهمّة راتب محدّد، كما لم تكن وظيفته مقرّرة كغيرها من وظائف المساجد والمدارس، ثم تقرّرت مهمّة الخطابة على الشيخ علي بن أحمد السُنيني في سنة ١١٦٦ هـ(٧٨). ولما كان هذا الموضع يشهد وجود عدد كبير من المتنزّهين، فقد كان العلماء يعقدون لهم مجلساً على التل ويقومون بالوعظ وإلقاء الدروس في الهواء الطلق، ويتناقشون مع الطلبة والسائلين والمستفسرين، كما يقصدهم الرحّالة والمستشرقون من غير المسلمين لإجراء المحاورات العلمية معهم. وأقيم على التلّ مقهى صيفيّ كبير، عُرف ولا يزال باسم مقهى التل العليا، ومن روّاده الشيخ أحمد بن منير عبد الرحمن الكمالي، وكان إمام جامع الزعيم المعروف بالمعلّق، وأديب، له شعر متوسط الجودة جمعه في كرّاس صغير بخطه سنة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٥م(٧٩). ومنه أبيات يذكر فيها "قهوة التلّ":

في قهوة التلّ ليلاً قد جمعنا بها والبدر فيه منير ضاء في الأفق
فيها المحاسن بالتوفيق قد كملت ببهجة الأنس تجلو ظُلْمة الغَسَق

(٧٧) شعر أحمد منير الكمالي، سنة ١٣٢٢ هـ، موسوعة علماء المسلمين، ق٣ ج١/ ٣٩٩.

(٧٨) تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً، سميح الزين، دار الأندلس،بيروت ١٩٦٩، ص٤٨١،٤٨٢،موسوعة علماء المسلمين، ق٣ ج٤/٤٥-٤٩ رقم ١٠٢٣، وفيه مصادر أخرى.

(٧٩) راجع ترجمة: إبراهيم بن علي الأحدب الطرابلسي، في موسوعة العلماء، ق٣ج١/٢٢٩ رقم ٢٠.

وتفرّد الشيخ محمد بن إبراهيم الحسيني الطرابلسي السندروسي بإلقاء الدروس على الطلاّب في حلقته الخاصّة بقهوة التلّ العليا، يفسّر لهم ما يرغبون من العلوم العصرية والفلسفية، فكانت حلقته تكتظّ بالحضور والمستمعين إلى شروحه في الأحاديث النبوية، والفقه، والفلسفة، وغيرها. وبالرغم من أنه لا يُحسن لغةً أجنبية، فإنه كان واسع الاطّلاع على ما كتبه الفلاسفة الأوربيون بشأن المادّة وحدوثها، وكان أحد أصدقائه من تلاميذه ينقل له آراء الفلاسفة، فيقوم هو بمقابلتها مع ما أتت به الشريعة الإسلامية، وعرف فضله ومكانته عدد من المستشرقين، منهم المستشرق الفرنسي "ماسينيون" أثناء زيارته لطرابلس، فلما استمع إلى حديثه قال إنه من المؤسف أن يبقى في طرابلس ولا يرتاد جامعات أوربة ليُلقي محاضرات فلسفية على الطلاّب.

توفي سنة ١٣٥٩ هـ. وترك تفسيراً للقرآن الكريم، وبعض الردود على المستشرقين من الفلاسفة الذين يروّجون للإلحاد[٨٠].

العلوم والترجمة:

وفي القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي). كانت موادّ الدراسة في مدارس طرابلس: التفسير، الحديث، الأصول، اللغة، الفرائض، الفقه، النحو، والصرف، المعاني والبيان، البديع، العَروض، المنطق، التوحيد[٨١].

وكان التعليم باللغة العربية، إلى جانب تعلّم العثمانية، وكان الذين يتعلّمون العثمانية قلّة، وأغلبهم يعملون كُتّاباً ومترجمين في ديوان الوالي أو المتصرّف، وفي ديوان المحكمة لقراءة المراسيم والبيورلدات التي تصل من اسطنبول، وترجمتها إلى العربية، وتدوين مضمونها في السجلاّت، وقراءة مافيها من تعليمات لجماهير الناس، ومنهم: محمد چلبي ابن أحمد، في سنة ١٠٧٧ هـ/ ١٦٦٦م[٨٢]. وحسن آغا رمّاح سنة ١٢٣١ هـ/ ١٨١٦م[٨٣]. و مصطفى بن

(٨٠) السجلّ الأول، ص٧٢.

(٨١) السجلّ رقم ٤١، ص ١٧٢.

(٨٢) السجل رقم ٥، ص ٣١٠.

(٨٣) السجل لسنتي ١١٢٧ و١١٢٨ هـ، ص٢١، موسوعة علماء المسلمين ق٣ ج٤/٧٩ رقم ١٠٥٦.

رجب ترجمان المحكمة، توفي سنة ١١٢٨ هـ/ ١٧١٦م[٨٤]، وكانت دار بني الترجمان في محلّة العديمي بالقرب من الحمّام القديم الشهير بدار الشفاء بحمّام البرطاسي.

أمّا الطب فكان يدرّس في البيمارستان، وكان الذي يمتهن الطبابة يُعرف بـ "جاكر" و "حكيم"[٨٥]، والذي يقوم بالعمليات الجراحية كان يُعرف بـ "الجرايحي"، وقد اشتهر من بيت الجرايحي "أحمد بن محمد" شيخ طائفة الحمّامين والحلاّقين في سنة ١٠٧٨ هـ/ ١٦٦٧م[٨٦]. وكان بيته في محلّة زقاق الطويل بقرب جامع العطار، حسب وثيقة مؤرّخة لقناصل الإنكليز والفرنسيّين والروس وغيرهم. فكان منهم الخوجا طربيه بن يعقوب ترجمان الفرنساوية[٨٧] في سنة ١١٢٣ هـ/ ١٧١١م[٨٨]. وإسحاق خلاط[٨٩]. وجرجس بن نوفل ترجمان الفرنج سنة ١١٢٧ هـ[٩٠]. ومارس الذمّي ورنز بن سليمان الطب وعُرف بالطبيب سنة ١١١٦ هـ/ ١٧٠٥م[٩١].

المكتبات الطرابلسية:

وكان بعض علماء طرابلس يعرفون العربية والتركية الفارسية، وتدلّ مكتباتهم الخاصّة التي يقتنونها على ثقافتهم الدينية والدنيوية ولدينا عدّة أمثلة من عدّة فهارس لتلك المكتبات نقف عليها في سجلاّت المحكمة، منها مكتبة علي بن هبة الله وفيها كتب في الطب، والعلوم، والفقه، والسيرة والأصول، والأدب، والتوحيد، والتاريخ، واللغة العربية، والحديث، والزهد، والنحو

---

(٨٤) السجل رقم ٣، ص٣٢٦.

(٨٥) السجلّ نفسه.

(٨٦) سجلّ سنة ١١٢٧ هـ، ص٣.

(٨٧) سجلّ رقم ٤١، ص١٥٧.

(٨٨) سجلّ سنة ١١٦٦ هـ، ص ٢٣، وسجلّ رقم ٦، ص ٢٢٦.

(٨٩) سجلّ رقم ٣٧، ص١٠٦.

(٩٠) سجلّ رقم ١٢، ص٥٧.

(٩١) سجلّ رقم ١٢.

والصرف، والتفسير، والعقائد، والشعر، والفرائض، ومجاميع في التركية، قُوّمت بعد وفاته بـ ٢٢٠ قرشاً أسدياً، وبيعت في المدرسة الشمسية سنة ١١٦٣ هـ/ ١٧٥٠م(٩٢).

ومنها مكتبة مصطفى البعلبكي، وفيها كتب تفسير، وحديث، وأدب، وعقائد، وتجويد، وفقه، ولغة، وأصول، ونحو وصرف، وفرائض، ووعظ، وتاريخ، وتصوّف، وطب، وعَروض، وعلم الطيور، والأزهار، والبيان، وقد قُوّمت بعد وفاته سنة ١١٦١ هـ/ ١٧٤٨م. مع آلات تجليد ودواة نحاس وأقلام وجلد وغيره بـ ٢٠٣ قروش(٩٣).

وضمّت مكتبة مصطفى بن سليمان الرفاعي المتوفى سنة ١١٥٣ هـ/ ١٧٤٠م. كتباً في: الأنساب، والمنطق، والعقائد، والأصول، والتصوّف، والنحو والصرف، ودواوين الشعر، والفقه، والتفسير، والتوحيد، والسيرة، والوعظ، والحديث، واللغة، والأوراد. وقُوّم ثمنها بمبلغ ١١٠ قروش ونصف القرش(٩٤).

وكانت مكتبة مصطفى آغا دزدار الوزير مصطفى باشا والي طرابلس تضمّ كتباً بالعربية والتركية والفارسية، وفيها التوحيد، والفقه، والشعر، والحكايات، والتاريخ، واللغة. وذلك سنة ١١٦٣ هـ/ ١٧٥٠م(٩٥).

ولدينا أسماء كتب مختلفة في مكتبات: عبد الهادي بن عمر السيري ١١٧٥ هـ/ ١٧٦٢م(٩٦)، ومكتبة يوسف الإسعرتي الشهير بالإسلام بولي ١١٧٥ هـ/ ١٧٦٢م(٩٧)، ومكتبة علي الإسكندري صاحب المكتب لتعليم الأطفال ١١٧٠ هـ/ ١٧٥٧م(٩٨)، ومكتبة حسين بن محمد العطار ١١٧٠ هـ/ ١٧٥٧م(٩٩)، ومكتبة أحمد البرطل ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م(١٠٠)،

---

(٩٢) سجلّ قم ٨، ص ٤٤٣.

(٩٣) سجلّ رقم ١٢، ص ٧٢.

(٩٤) سجلّ سنتي ١١٧٤ و١١٧٥ هـ، ص٤٥ و٤٦ و٤٧، موسوعة علماء المسلمين ق٣ ج٣/ ٢٧٠، ٢٧١ رقم ٧٩٧.

(٩٥) سجلّ سنة ١١٧٥ هـ، ص٨٨.

(٩٦) سجلّ رقم ٢٣، ص٤.

(٩٧) سجلّ رقم ٢٣، ص ١٥٩.

(٩٨) سجل رقم ٢٦، ص٢٨.

(٩٩) سجل رقم ٢٦، ص ١٨٤.

ومكتبة أحمد بن عبد الله النقشبندي ١١٧٢ هـ/ ١٧٥٩م[١٠١]، ومكتبة علي كرامي التي قوّمت بعد وفاته سنة ١١٩٢ هـ/ ١٧٧٨م[١٠٢] بمبلغ ١٤٨ قرشاً، ومكتبة الشيخ سليمان بن مصطفى الشهير بابن الفقيه[١٠٣] وغيرها.

أمّا مؤلّفات الطرابلسيين في العصر العثماني، وشروحهم ومنسوخاتهم فكثيرة، وفي مختلف الفنون، ومنها ما هو مطبوع، ومنها المخطوط، ومنها ما هو معروف، ومنها ما هو ضائع. والإحاطة بتلك المؤلّفات تتطلّب بحثاً مطوّلاً لا مجال لتناوله هنا خشية الإطالة. ويمكن الإطلاع على القسم الثالث والأخير من كتابنا "موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان" للوقوف على ذلك من خلال تراجم أعلام وعلماء الطرابلسيين.

(١٠٠) سجل رقم ٢٧، ص٦٩.

(١٠١) سجل رقم ٥٥، ص٤٩.

(١٠٢) سجل رقم ٢٧، ص٦٩.

(١٠٣) سجل رقم ٥٥، ص٤٩.

محاولات تحديث التعليم والمواصلات
في طرابلس الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

الدكتورة سوسن آغا قصّاب (*)
الجامعة اللبنانية- بيروت.

هذه محاولة معرفية أولية تقترح تحليل واجهات التجربة التحديثية في لواء طرابلس الشام- التابع إدارياً لولاية سورية، ثم بيروت منذ عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م- كجزء من التطويرات الإصلاحية في الدولة العثمانية ككل، وذلك على الصعيدين التعليمي والعمراني، من خلال مظاهر التحولات البنيوية في المجتمع الطرابلسي، والتي أسهمت في تشكيل طبيعة العلائق الثنائية بين السلطات الرسمية الحاكمة والفئات المحلية، والمتضمّنة – تلقائياً – مظاهر التعاون بين هذين الطرفَيْن.

ولعله من المفيد ملاحظة أن تزويد طرابلس بسلسلة من المشاريع الإصلاحية قد تمّ أثناء

(*) أود أن أعرب عن تقديري وامتناني لكل القائمين على تنظيم وإعداد هذا المؤتمر، وأخص منهم بالذكر الأستاذ أكمل الدين احسان اوغلى على ما خصّني به من التفات واهتمام، وأتاح لي الفرصة للمشاركة بعملي هذا.

تولي «مدحت باشا» الولاية السورية بين عامي ١٨٧٨- ١٨٨٠م [(١)]، والتي قد تكون توجّهاته مبنية على ملاحظته أمرين: [(٢)].

١- سوء الحالة الثقافية في الولاية عامةً- واختلال القالب السلوكي للفئات غير الاسلامية، عبر التحاقهم بمؤسسات التعليم الأجنبية العاملة باسم الثقافة «الأمبريالية»[(٣)]، في حين تتفشى الجهالة في الأوساط المجتمعية الإسلامية، والتي تشكل نسبة ٨٠% من سكان الولاية، يستثنى منها علماء الدين.

٢- وقوع طرابلس في النقطة الاستراتيجية، والوحيدة المناسبة لتشكيل المحطة الأولى في خط بغداد الحديدي.

إلا أن التعمّق في مقاربات التحديث يُنظر إليها دوماً من زاوية نمو التأثير الأوروبي السياسي والحضاري؛ إذ تهدف الإصلاحات - وبصورة أساسية - إلى تقوية الدولة تجاه تحديات الدول الاستعمارية - على حد قول «عبد الله العروي» [(٤)]- وذلك حفاظاً على كيانها السياسي ونظامها الإداري، وخوفاً من التفكّك، في ظل تمتع الأوروبيين بمجالات اختراق، وفرتها لهم الامتيازات الأجنبية، داخل السلطنة.

وقد ارتأيت أن يتّخذ موضوعي اتجاهين: - الأول: ويتناول التعليم

- الثاني: ويتناول المواصلات

أولاً: التعليم:

حاولت السلطات العثمانية - من جانبها - تأسيس مدارس عصرية في طرابلس، منذ إصدار نظام المعارف العمومية عام ١٨٦٨م. إلا أن تشكيل الـ «جمعية خيرية» من «العلماء

---

(١) لقد أحدثت المدارس إلى جانب المدارس الدينية التقليدية (وهي مدارس للشيوخ والعلماء يعلمون فيها الطلاب مجاناً بعد المغرب) أنظر: **ثمرات الفنون**، السنة السابعة، عدد ٣٥٨، ١٣ محرم ١٢٩٩هـ/ ٥ كانون أول و٢٣ تشرين ثاني ١٨٨١م. ص٢. وأشهر تلك المدارس التقليدية «المدرسة الوطنية»، التي أسسها كل من الشيخ «حسين الجسر» و«عبد الغني آغا الضنّاوي». راجع: **لسان الحال**، السنة الثالثة، عدد ٢٤٤، ٢٨ شباط ١٢٩٥ و١١ آذار ١٨٨٠م/ ٣٠ ربيع الأول ١٢٩٧، ص ٣. و**ثمرات الفنون**، السنة الخامسة، عدد ٢٦٥، ١٤ صفر ١٢٩٧/١٤ و٢٦ كانون ثاني ١٨٨٠،ص١.

(٢) علي حيدر مدحت، **مدحت باشا - مرآت حيرت**، جلد ١، هلال مطبعه سي استانبول ١٣٢٥ هـ، ص ٢٠٨-٢١٠.

(٣) راجع الأرشيف العثماني: **- BEO SADARET.** Sıra No 1282 - Dosya N:117. 29. M. 1273 H.

(٤) عبد الله العروي، **مفهوم الحرية**، ط ٣، دار التنوير للطباعة والنشر والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ١٩٨٣م.

وأرباب الحمية الوطنية» (٥)، بجهود «مدحت باشا»، أطلق إشارة البدء في افتتاح المدارس – وإن كان على نفقة الأهالي ومن واردات الأوقاف المحدّدة بمائة وخمسين قرشاً (٦)– إسهاماً في نشر المعرفة العصرية بين أبناء طرابلس، من مواد علمية ولغات أجنبية (٧)، وذلك انسجاماً مع القرار الحكومي القاضي بتشكيل هيئات محلية في مراكز الألوية، والأقضية (٨).

استمرت «الجمعية الخيرية» في أداء رسالتها التعليمية، إلى أن تمّ تشكيل شعبة مجلس المعارف من بين أبناء طرابلس المسلمين فقط عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م، إثر إجراء تبليغ مقام الولاية، وتحت رئاسة نواب المركز (٩).

وقد أنيط بها مسؤوليات عدة، أهمها (١٠):

١– الاجتهاد في تعميم وإصلاح «مكاتب الصبيان» الابتدائية.

٢– البحث عن سبل زيادة إيرادات المعارف.

٣– تعيين المعلمين وأجراء التدقيق في المدارس.

٤– أجراء الامتحانات، وبالتالي توزيع الشهادات على الفائزين من الطلاب.

٥– إرسال تقارير مفصلة بمداخيل ومصاريف المدارس كل ستة أشهر.

---

(٥) علي حيدر مدحت، المصدر السابق، ص ٢٠٩. تشكلت الجمعية برئاسة الشيخ «علي أفندي رشيد الميقاتي» وعضوية بعض نظار الأوقاف المضبوطة على الذرية. راجع: **ثمرات الفنون**، السنة الخامسة، عدد ٢٢١، ٢ ربيع الثاني ١٧/١٢٩٦ و٢٤ آذار ١٨٧٩، ص٤.

(٦) علي حيدر مدحت، المصدر نفسه.

(٧) كانت تلك المدارس تتبع الأصول الحديثة، في وقت سبق صدور الإرادة السنية الملزمة اتباع هذه الأصول. أنظر: **ثمرات الفنون**، السنة الثامنة والعشرون، عدد ١٣٣٦، ١٤ ربيع الأول ١٨/١٣١٩حزيران ش و١ تموز غ ١٩٠١، ص ٣. ويشار إلى أن أمر تطبيق الأصول الحديثة الفعلي كان عام ١٨٧٢م بافتتاح «مكتب نمونه الابتدائي» راجع:

- Osman Ergin, *Türkiye Maarif Tarihi,* Cilt II, İst. 1940. s.390.

(٨) راجع الأرشيف العثماني: - Yıldız, Kısım A, no 21, III K, zarf 21, Karton 131.

(٩) **حديقة الأخبار**، السنة الخامسة والعشرون، عدد ١٢٦٢، ٢١ ذو الحجة ٢١/١٢٩٩ و٢ تشرين ثاني ١٨٨٢، ص ١. وكانت هناك نية باستحداث مجالس معارف وشعبها في مراكز الألوية والأقضية حوالي عام ١٨٧٧. أنظر: **الجنان**، الجزء الثاني عشر، ١٥ حزيران ١٨٧٧، ص ٤١٦.

(١٠) أنظر: - Bayram Kodaman, *Abdülhamid Devri Eğitim Sistemi,* Türk Tarih Kurumu, Ankara 1991. s.47.

وقد شاطرت «مؤسسة التفتيش» [١١] «شعبة المعارف» في الاهتمام بالخدمات التعليمية، وفي إدارة المعارف حتى في المدارس الأجنبية [١٢].

والواقع أن «الجمعية الخيرية» و«شعبة المعارف» شكلتا أداةً لتنفيذ تعليمات وتوجيهات السلطات الرسمية.

وبإطلالة سريعة على حصيلة الجهود التحديثية المبذولة [١٣]، نجد أنه تحقق ما يلي:

١- افتتاح عدد من المكاتب الابتدائية (١١ مكتب للذكور وواحد للإناث) [١٤]، والمكاتب الرشدية (اثنين للذكور وواحد للإناث) [١٥]، فضلاً عن تحويل رشدية منطقة «تل الرمل» إلى مدرسة إعدادية سنة ١٨٩٠م [١٦]. وبذلك تُوصّل إلى اسعاف الأهالي من خطر الجهالة - لا سيّما في صفوف المسلمين منهم [١٧]- وبالتالي إلى أحقية الإناث في

(١١) دخل التفتيش ضمن الوظائف الرسمية والقانونية مع نظام ١٨٦٩م. أنظر المواد ١٤٣، ١٤٤، ١٤٩ و١٥١ من الدستور. راجع: نوفل نعمة الله نوفل، الدستور، مراجعة وتدقيق خليل أفندي الخوري، المجلد الثاني، المطبعة الأدبية، بيروت ١٣٠١ هـ، ص ١٥٦-١٨٧.

(١٢) أنظر الأرشيف العثماني: İrade Dahiliye, No 81099. Sene 1304 H. -

(١٣) تشير الوثائق الرسمية إلى تحقيق هذه الشعب نتائج مثبتة على صعيد إصلاح وتحديث مكاتب الصبيان. راجع الأرشيف العثماني: Ayniyat Defterleri, No 1442-1444. -

(١٤) ثمرات الفنون، السنة التاسعة، عدد ٤٢٨، ٧ رجب ١٣٠٠/ ١٤ آيار ١٨٨٣، ص ٤. والسنة الثانية عشر، عدد ٥٨٢، ٢١ شعبان ١٣٠٣/٢٤ و١٢ أيار ١٨٨٦، ص ١.

(١٥) لسان الحال، السنة الثامنة، عدد ٨٣٧، ١٧ شباط و١ آذار ١٨٨٦/٢٦ جمادى الأولى، ١٣٠٣، ص ١، ويذكر أنه قد تأسست في طرابلس مدرسة رشدية عام ١٨٦٣م أنظر: المقتطف، منشئها يعقوب صروف وفارس نمر، السنة السابعة، ط١، ص٤٧٥، وقد تمّ تخصيص حصة معينة من خزينة الدولة لإحضار أدوات التعليم وتأمين أجور معلميها. راجع: المنار، المجلد الثاني، عدد ٣٣، ٢٣ جمادى الآخرة ١٣١٧/ ٢٨ أكتوبر ١٨٩٩، القاهرة، ص ٥٢٦.

(١٦) رياض طرابلس الشام، الجزء الرابع، عدد ١٧٧، ١٢ جمادى الأولى ١٣١٤/٧ و١٩ تشرين أول،١٨٩٦، ص ١١٦. وكان من الملاحظ التحاق الطرابلسيين بمكتب بيروت الإعدادي حتى بعد تأسيسه في طرابلس، ولعل من أبرز خريجيه بدرجة متفوقة: «إبراهيم بهجت أفندي». أنظر: ثمرات الفنون، السنة السابعة والعشرون، عدد ١٢٩٠، ١٩ ربيع الأول ١٣١٨/٣ و١٦ تموز ١٩٠٠م ص٥، وقد تقرر توسيع دائرة التدريس في المدارس الإعدادية في الولايات والألوية بزيادة سنة واحدة على مدتها. راجع: الصحيفة السابقة، السنة الثامنة والعشرون، عدد ١٣٥٦، ٧ شعبان ١٣١٩/٥ و١٨ تشرين ثاني،١٩٠١، ص٢.

(١٧) أنظر الأرشيف العثماني: Yıldız, Kısım A, no 21. III C, zarf 21, Karton 131. -

التعليم، إذ كان المعتقد آنذاك هو عدم ضرورة تعليمهنّ (١٨)، على أن إلزامية التعليم تنطوي على ما يُعلَّم في المؤسسات الابتدائية (١٩)، ولا يتجاوز إلى التعليم المتوسطي أو العالي.

٢- نشر اللغة التركية - إلى حد ما - في جزء من ولاية عربية كطرابلس (٢٠)، وذلك بعد أن كانت منكمشة على نفسها، إذ كانت السلطات العثمانية تعمد غالباً إلى تعريب الأوامر الحكومية والقوانين المكتوبة، لتتلى في المساجد أو في الساحات العامة.

وقد أفضى التحديث إلى بروز فئة من الطرابلسيين ألـمّت بالتركية وأتقنتها، بل ونقلت عنها، أخص بالذكر «نوفل نعمة الله نوفل» الذي عَـرَّبَ «قوانين المجالس البلدية» و«دستور الدولة العلية»(٢١).

٣- تأمين حصة المعارف للانفاق على التعليم من مقدرات الأهالي، في ظل عجز ميزانية الدولة (٢٢).

ويبدو أن مبدأ «العثمنة» الذي نادى به تحديث التعليم (٢٣)، وأُريد ترسيخه في أدمغة الطلاب، تمهيداً لتجاوز مشكلات تباين الأعراق والمذاهب داخل السلطنة، قد لاقى صدى

(١٨) وقد تخطى التحاق الإناث بالمكاتب الابتدائية إلى المكاتب الرشدية، التي أدخل في مناهجها تدريس فنون الخياطة والرسم والموسيقى. أنظر: - Enver Ziya Karal, *Osmanlı Tarihi*, Cilt VIII, 4. Baskı, Türk Tarih Kurumu, Ankara 1995. s.390.

(١٩) كان التعليم الالزامي قانوناً لا عملاً، فهذه الإجبارية قيّدت بأسباب استثنائية. راجع: كاظم بك أفندي، **تلخيص الحقوق الموضوعة**، تعريب كمال قزح، المطبعة العثمانية، بعبدا ١٨٩٦، ص ٣٤.

(٢٠) ألزمت الحكومة العثمانية مدارس الملل غير الإسلامية - لا سيما الموسوية منها - بإدخال اللغة التركية في مناهجها التدريسية. راجع: **ثمرات الفنون**، السنة الحادية والعشرون، عدد ١٠١١، ١٠ رجب ١٣١٢/ ٢٦ كانون أول و ٧ كانون ثاني، ١٨٩٥، ص ٢، وقد ذكرت جريدة «ثروت فنون» التركية فصلاً عن المدارس غير الإسلامية - في ولايات سورية وبيروت وحلب - التي لا تقوم بتعليم اللغة التركية بحجة عدم كفاية المعلمين إلخ - أنظر: السنة السادسة والعشرون، عدد ١٢٣٨، ٢ ربيع الأول ١٣١٧/ ٢٨ حزيران و١٠ تموز ١٨٩٩، ص ٢.

(٢١) كافأته الدولة العثمانية على عمله هذا بمبلغ ثلاثمائة ليرة عثمانية. أنظر: عبد الله حبيب نوفل، **تراجم علماء طرابلس وأدبائها**، مطبعة الحضارة، طرابلس ١٩٢٩م، ص ٧٦.

(٢٢) تمّ في فترة لاحقة تشكيل لجنة برئاسة ناظر المعارف «زهدي باشا»، تلاه صدور إرادة سنية بضم تسعة عشر ألف ليرة إلى ميزانية المعارف للقيام بالإصلاح المطلوب. أنظر: **ثمرات الفنون**، السنة الثامنة والعشرون، عدد ١٣٥٦، ٧ شعبان ١٣١٩/ ٥ و١٨ تشرين ثاني ١٩٠١، ص ٢.

(٢٣) أنظر الأرشيف العثماني: - Yıldız, Kısım 18, No 79 / 119, zarf 106, Karton 40.

واسعاً في طرابلس، بدليل نمو الشعور الوطني الشعبوي، وتعالي الدعوات للجوء إلى تجفيف جذور الثقافة الغربية عبر مقاطعة الالتحاق بمؤسساتهم التعليمية، إضراراً بالغرب بما يمثّل من قيم وأساليب ومنطلقات وإيديولوجيات [٢٤]...

ولكن يبقى السؤال هل أدت جهود التحديث دورها المسؤول في تلبية متطلبات وحاجات المجتمع الطرابلسي؟

لقد كانت الرؤى المستقبلية تعد بنقلة جذرية في الأوضاع التعليمية في طرابلس في ظل النظم الموضوعة. وعلى الرغم من تفوق طرابلس على مثيلاتها من الألوية في مجال التعليم[٢٥]، إلا أن جهود التوسع العصري – لا سيما فيما يختص بانتشار المؤسسات التعليمية على المستوى المتوسط والمهني – لم تأخذ مداها، ,ارجع البعض ذلك إلى تدهور الوضع المالي للدولة، والامتيازات الأجنبية، والنشاط الثقافي للملل غير الاسلامية [٢٦]، وضعف مؤهلات المعلمين... وغير ذلك.

١– ضعف الإمكانيات المادية (المشكلات المالية) [٢٧]: على الرغم من اتخاذ الدولة بعض السبل الضرائبية [٢٨] لتأمين حصة المعارف، إلا أن عملية التحديث تعثرت، ليس في طرابلس وحسب، بل حتى في كافة أنحاء السلطنة، نظرا لاعتماد المؤسسات التعليمية – في موازناتها المالية – على مساعدة ودعم الحكومة لها، عبر ارتباطها بإيراد نظارة المعارف.

---

(٢٤) وقد اعتبر البعض أن للمدارس الحكومية الدور البارز في بث روح البغضاء والكراهية للأوروبيين، بصورة خاصة، ولأبناء الطوائف غير الإسلامية. راجع: أسعد داغر، **مذكراتي على هامش القضية العربية**، ط ١، دار القاهرة، القاهرة ١٩٥٩، ص ٢٦، محمد جميل بيهم، **فلسفة التاريخ العثماني – أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها**، الكتاب الثاني ١٣٧٣ هـ/١٩٥٤، ص ١٧٧.

(٢٥) علي حيدر مدحت، **المصدر السابق**. ص ٢١٠، وقد وصفت مدارسها بأنها على جانب كبير من «الانتظام والترتيب والنجاح». راجع: **ثمرات الفنون**، السنة السابعة، عدد ٣٢٣، ٢١ ربيع الثاني ١٢٩٨/ ٩ و٢١ آذار ١٨٨١، ص ٤.

(٢٦) لا سيما النصرانية منها كمدرسة مار ميخائيل، التابعة لطائفة الموارنة، ومدرسة الإناث التابعة لطائفة الروم الأرثوذكس. راجع: اغناطيوس طنوس الخوري، **أبرشية طرابلس المارونية**، مخطوط باليد، دفتر رقم B-VI. ص ٣٦، **لسان الحال**، السنة الثامنة، عدد ٧٨٢، ٢٠ و٨ آب ١٨٨٥/ ١٠ ذو القعدة ١٣٠٢، ص٣.

(٢٧) بلغت فوائد الديون الخارجية للدولة العثمانية في عهد عبد الحميد الثاني «٢٧٨,٠٨٢,٠٧٣» ليرة عثمانية. أنظر:

- Enver Ziya Karal, C. VII, s. 428.

(٢٨) أنظر الأرشيف العثماني: **- Ayniyat Defterleri, No 1243.**

٢- انتشار مؤسسات التعليم الأجنبية من فرنسية (الفرير - الفرنسيسكان - راهبات الإحسان) وأميركية (المدرسة الأميركية) (٢٩).. فضلاً عن مؤسسات محلية للجماعات غير الإسلامية، لا سيما النصرانية.

٣- ضعف مؤهلات المعلمين: أن تحديث التعليم يتطلب - خلا توفر الأموال - توفير معلمين مقتدرين لأجل تطبيق المناهج المتطورة. إلا أنه لم يجرِ في طرابلس تأسيس دور تأهيلية للمعلمين، على الرغم من صدور قرار بتأسيسها في مراكز الألوية عام ١٨٩٦م (٣٠).

وقد تمت الاستعاضة عن ذلك باختيار معلمين من مصافي الأئمة والوعاظ والمؤذنين، لا سيما في دروس اللغة العربية والدين والأخلاق، في ظل المفهوم السائد آنذاك، الذي يجعل التعليم والتهذيب من متعلقات المعلم. كما تمَّ استخدام العناصر غير الإسلامية في تدريس اللغة الفرنسية بشكل خاص (٣١). وقد وُصف معلمو طرابلس بأنهم فوق درجة الابتداء، تحديداً في مجال اللغات الفيلولوجية (٣٢).

يستنتج مما سبق أن التجارب الإصلاحية التعليمية التي مورست في طرابلس، وجدت أرضية مواتية لإحداث التحولات من فئات المجتمع المختلفة، فقد أبدى الأهالي تحمساً بالغاً للتعاون بتذليلهم مشكلات تتصل بمسائل التقاليد والرواسب المتوارثة والذهنيات... لا سيما فيما يختص بتعليم الإناث وتطبيق المناهج التعليمية الحديثة، في وقت واجه التحديث مقاومة شرسة، أحياناً، من قِبل علماء الدين - تحديداً - في أنحاء أخرى (٣٣).

وبذلك وجد الطرفان (الدولة والمجتمع الطرابلسي) مزيداً من الفرص للتفاعل في إطار التعليم، فبدا الوضع متجانساً ومتواصلاً من خلال هذا النمط الإصلاحي.

---

(٢٩) سالنامهء نظارت معارف عموميه ١٣١٦، دار الخلافه العليه، مطبعهء عامره ١٣١٦، ص، ٩٨٦-٩٨٧.

(٣٠) أنظر الأرشيف العثماني: .Yıldız, Kısım a, No21 / III K, zarf 21, Karton 131 -

(٣١) اتخذت نظارة المعارف عام ١٨٩٩م قراراً يقضي بإلغاء تعليم اللغة الفرنسية في المكاتب الرشدية وذلك في جميع الولايات الشاهانية، على أن يقام مقامها علم الأخلاق. واستناداً إلى ذلك رسمت مديرية المعارف في حلب خطة من أجل تدريس الأخلاق، وعرضتها على النظارة المشار إليها. أنظر: ثمرات الفنون، السنة السادسة والعشرون، عدد ١٢٥٧، ١٧ رجب ١٣١٧/ ٨ و٢٠ تشرين ثاني، ١٨٩٩، ص ٥.

(٣٢) الصحيفة السابقة، السنة السابعة، عدد ٣٣٦، ٢٣ رجب ١٢٩٨/ ٨ و٢٠ حزيران ١٨٨١، ص ١.

(٣٣) أنظر: .Bayram Kodaman,. s. 68 -

ثانياً: المواصلات:

إن موقع طرابلس الجغرافي والاستراتيجي عزّز فكرة تحديث شبكة المواصلات فيها بغرض ترويج المعاملات التجارية، سواء الداخلية أو الخارجية. وقد تمثلت عملية التحديث في ذلك المجال بإقامة مشروعين وطنيين هما:

- المشروع الأول: **السكة الحديدية:**

هو خط حديدي تجري عليه العجلات - المركبة على قضبان الحديد - بقوة الخيول (٣٤)، على ما يُعرف إصطلاحاً «بترامواي».

وقد جرى مده بطول «٣٥٠٠م» من الميناء إلى البلدة (٣٥)، حيث اتصل بهذه الأخيرة عند نقطتي «تل الرمل» و«باب التبانة». وكانت أعماله قد بدأت في آذار ١٨٧٩م/ ربيع الأول ١٢٩٦ هـ، وانتهت في شباط ١٨٨٠م. وذلك بعد تنظيم برنامج خاص بإنشائه - من طرف «مدحت باشا»- يقضي بتقسيم الطريق على نفوس أي سكان كل محلة، وبالتالي إلزام الأهالي - الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٧٠ سنة - بعمل متر واحد، أو الاستعاضة عن ذلك باستئجار آخر بديل عند وجود عذر ما (٣٦).

وقد أسهم «الترامواي» في تسهيل المعاملات بين قصبة طرابلس وميناءها، نظراً لتوفر العديد من الأسواق (الخانات) التجارية والجوامع ومعاهد العلم وما شاكل ذلك (٣٧).

---

(٣٤) محمد كرد علي، **خطط الشام**، الجزء الخامس، مطبعة الترقي، دمشق ١٣٤٦/ ١٩٢٧م، ص ٢٢١. وحكمت بك شريف، **تاريخ طرابلس الشام من أقدم أزمانها إلى هذه الأيام**، حققه وعلق على حواشيه وفهارسه وقدم له منى الحداد يكن ومارون عيسى الخوري، ط١، دار حكمت شريف ودار الإيمان، طرابلس ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ١٨٣. وسميح وجيه الزين، **تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً منذ أقدم الأزمنة حتى عصرنا الحاضر**، الطبعة الأولى، دار الأندلس، بيروت ١٩٦٩م/١٣٨٩هـ، ص ٣٢٠.

(٣٥) أنظر المادة الأولى من مقاولة شركة الترامواي في الأرشيف العثماني ضمن:

- **İrade Meclis Mahsus, No 2949. Sene 1296 H.**

(٣٦) **ثمرات الفنون**، السنة الخامسة، عدد ٢٢١، ٢ ربيع الثاني ١٢٩٦/ ١٧ و٢٤ آذار ١٨٧٩، ص ٤. وقد نصّ نظام الطرق والمعابر - الصادر في ١٨ جمادى الأولى ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م- على «أن يعمل ذكور الولاية الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و٦٠ سنة، بمعدل أربعة أيام في كل عام، بعمارة الطرق أو أن يدفع الراغبون في الإعفاء ضريبة قدرها ريال مجيدي، أنظر: عبد العزيز محمد عوض، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤م**، دار المعارف، مصر، ص ٢٧٢.

(٣٧) علي حيدر مدحت، المصدر السابق، ص ٢١١.

- المشروع الثاني: **طريق طرابلس – حمص المُعَبَّد:**

هو طريق مركبات اعتيادية من نوع «الشوسه»، معد لتشغيل العربات عليه.

وقد جرى مد هذا الطريق بطول ٩ كلم من«باب التبانة» إلى «حمص» (٣٨)، بعد أن أناط «مدحت باشا»، إدارته بالبلدية – كون مصروفه من الأهالي المحليين، وخصّ كل فرد بعمل متر وربع المتر، أو دفع أجرة ذلك نقداً، على أن يعمّ هذا البرنامج أهالي طرابلس وحمص وحماه وسائر الأمكنة المستفيدة من المشروع (٣٩).

هذا وتمّ تنفيذه في غضون بضعة أشهر (خلال ١٨٧٩م)، إلا إنه بقي مبتوراً، في ظل الحاجة إلى إتمام نواقصه وإقامة الجسور عليه، وقد استكمل أثناء ولاية «أحمد حمدي باشا» (١٢٩٢ – ١٢٩٣هـ ثم ١٢٩٦ – ١٣٠١هـ).

وقد تلازم إقامة «الجسر الأسود» عليه – وهو الجسر الذي يربط حي «التبانة» بحي «التل»، مع تنظيم رسوم خاصة – عرفت برسوم المرورية – كانت الشركة الوطنية – المكلّفة الإشراف على أعمال الطريق – تتقاضاها عند عبور الحيوانات المارة على الجسر المذكور، سواء كانت محملّة أو غير محملّة. لكن الشركة المذكورة منحت حق النقل المجاني لـ (٤٠):

١- خيالة العساكر السلطانية أثناء الحرب أو أثناء أداء المهمات العسكرية والميرية.

٢- بوستة الحكومة وأماناتها الخاصة.

٣- الولاة والمشيرين في الولاية السورية.

٤- متصرفي لوائي طرابلس وحماة، إضافة إلى قائمقامي اللوائين المذكورين والضباط العسكريين.

٥- هيئة إدارة الشركة والمساهمين والوكلاء أثناء توجههم لعقد الاجتماعات.

يشار إلى أن إخراج هذين المشروعين إلى حيز التنفيذ، يعود – بالدرجة الأولى – إلى اتخاذ التدابير والوسائل اللازمة، التي يدخل في إطارها تشكيل اللجان المختصة (شركة

---

(٣٨) أنظر الأرشيف العثماني: İ. M. Mahsus, No 3317. Sene 1299H. -

(٣٩) لسان الحال، السنة الثانية، عدد ١٤٤، ١٥ و٢٧ آذار ١٨٧٩/ ٤ ربيع ثان ١٢٩٦، ص ٣.

(٤٠) أنظر الأرشيف العثماني: İrade Meclis Mahsus, No 3317. Sene 1299H. -

الترامواي الوطنية والشركة الوطنية) بإدارة أعمال الطريقين المذكورين واتمام نواقصهما واجراء صيانتهما.

وقد ترتب عن هذا التحديث بعض النتائج، يتصدرها ما يلي:

١- إعادة زخم العجلة الزراعية (٤١)، وبالتالي انتعاش الحركة التجارية الداخلية والخارجية، عبر فتح موارد الولاية ككل في وجه التجارة العالمية (٤٢).

٢- إحداث تغيير في الإطار الداخلي لطرابلس، فضلاً عن تبوئها المركز المميّز ضمن الولاية بعد أن توفر لها:

أ- أول خط حديدي مدّ في سورية (٤٣).

ب- ثاني طريق معبّد في الولاية، معدّ لتشغيل العربات عليه، بعد جادة «بيروت» التي أقامتها شركة فرنسية (٤٤).

وفي الختام، وباختصار شديد، نجد أن «مدحت باشا» دفع بأفكاره الإصلاحية شطر ميادين التنمية الثقافية والاقتصادية، مسدياً بذلك خدمة لسياسة السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م) ورؤيته الخاصة في تنظيم الدولة وزيادة صولتها، معللين ذلك باتباع «السلطان عبد الحميد الثاني» ما يلي:

١- مبدأ العناية بالتعليم في إطار انسجامه مع سياسته العامة، التي تقضي بحفظ التوازن بين الثقافة والشعور الإسلامي المراد إيقاظه (٤٥).

---

(٤١) راجع المذكرة السامية بتاريخ ١٦ جمادى الأولى ١٣٠٢هـ/١٩ شباط ١٣٠٠ رومي في الأرشيف العثماني ضمن:
İrade Şura-yı Devlet, No 4315, Sene 1302H.

(٤٢) لسان الحال، السنة السادسة، عدد ٥٣٦، ١٥ و٣ كانون ثاني ١٨٨٣ / ٧ ربيع الأول ١٣٠٠، ص ٣.

(٤٣) تأخر تأسيس ترامواي في مدينة دمشق - حاضرة الولاية حتى عام ١٨٨٩م/ ١٣٠٧هـ، كذلك في بيروت عام ١٨٩٨م. أنظر: عبد العزيز محمد عوض، **المرجع السابق**، ص ٢٧٨. ولويس شيخو، **بيروت تاريخها وآثارها**، ط ٣، دار المشرق، بيروت ١٩٩٣، ص ١٥٩.

(٤٤) علي حيدر مدحت، **المصدر السابق**، ص ٢١٠.

(٤٥) مثال على ذلك صدور إرادة سنية بتوزيع المصاحف والأجزاء الشريفة مجاناً على فقراء تلامذة المكاتب الابتدائية. أنظر: **ثمرات الفنون**، السنة الثامنة والعشرون،عدد ١٣٤٤، ١١ جمادى الأولى ١٣١٩/ ١٣ و٢٦ آب، ١٩٠١، ص ٤.

٢- سياسة تشديد القبضة بالاستناد إلى شبكة مواصلات حديدية وغيرها بغرض جعل الموظفين الإداريين طوع إرادة الحكومة المركزية، خوفاً من وقوعهم تحت تأثير السيطرة الأوروبية فكراً وواقعاً.

ومن الجدير ذكره أن السلطات الرسمية أثارت مشروعي «الترامواي» و«الشوسه» بحماسة، انطلاقاً من كونهما وطنيي المال والإدارة والنشأة (٤٦)، في حين كانت تسعى للتقليل من التأثير الأوروبي، عبر عدم تشجيع المبادرات الأجنبية المحتملة (٤٧).

وفي سياق خطواتها الآيلة إلى دعم وتغذية المشروعين المذكورين، يأتي على سبيل المثال - حضور السلطان البارز والمتقدم في عداد المساهمين في شركة «الشوسه» (ألف سهم) (٤٨)، كما اكتتب الوالي «مدحت باشا» بقيمة أربعين سهماً في شركة الترامواي (٤٩)، إلى جانب مبادرته بالعمل، وبنفسه، في أعمال «الشوسه» (٥٠).

ولا مراء في أن تشكيل الأهالي طرفاً أساسياً في الأعمال الإصلاحية (٥١)، أضفى أجواءً إيجابية على مجرى العلائق الثنائية، كفلت عدم إفساح المجال لبروز اتجاهات قومية.

---

(٤٦) راجع الأرشيف العثماني: - İ. M. Mahsus, No 2949. Senc 1296H.
- İ. M. Mahsus, No 3317. Senc 1299H.

(٤٧) كانت الدول الأوروبية تتنافس فيما بينها لنيل امتيازات مد الخطوط الحديدية بشكل رئيس. أنظر: عبد العزيز محمد عوض، **المرجع السابق**، ص ٢٧٢.

(٤٨) **ثمرات الفنون**، السنة الثامنة، عدد ٤٠٤، ١٦ محرم ١٣٠٠/ ١٥ و٢٧ تشرين ثاني ١٨٨٢، ص ٤.

(٤٩) **الصحيفة السابقة**، السنة الخامسة، عدد ٢٢٠، ٢٤ ربيع الأول ١٢٩٦/ ١٠ و١٧ آذار، ١٨٧٩، ص ٤.

(٥٠) **لسان الحال**، السنة الثانية، عدد ١٤٤، ١٥ و٢٧ آذار ١٨٧٩/ ٤ ربيع ثان ١٢٩٥، ص ٣.

(٥١) قابلت الحكومة العثمانية المساعي المحلية بتقدير كبير، ومن ذلك: توجيه الرتبة الثانية الرفيعة مع لقب البكوية لـ«قيصر نوفل». وتوجيه الرتبة الثانية لـ«جرجي نقاش» و«عبد القادر المنلا». وتقديم الوسام المجيدي من الصنف الرابع لـ«درويش أفندي الشنبور» و«محمد بك المحمد».راجع: **ثمرات الفنون**، السنة السادسة، عدد ٣٠١، ٧ ذو القعدة ١٢٩٧/ ٢٩ أيلول و١١ تشرين أول، ١٨٨٠، ص١.و**لسان الحال**، السنة الثالثة، عدد ٢٩٤، ٢١ و٢ أيلول ١٨٨٠/ ٢٨ رمضان ١٢٩٧، ص٤.

كما أن تطبيق النظم كان موكولاً بهمة الأهالي، الذين لم يترددوا في تقديم المساعدات وإبداء الاستعدادات [٥٢]، ربما لمعرفة تامة بخواص الإصلاحات وفوائدها التي تخدم مصالح بلادهم، أو تأكيداً منهم على الالتزام الصادق بمسار الحكومة العثمانية.

وأملي أن أكون قد وفقت في معالجة هذا الموضوع، لما فيه خير العلم وخدمة الحقيقة.

(٥٢) من ذلك التوصّل – في غضون عشرة أيام – لبيع «١٤٢٠» سهماً من أسهم شركة الترامواي البالغة ألفي سهم، أنظر: تحريرات «مدحت باشا» المرسلة إلى مقام الصدارة العظمى بتاريخ ٢ ربيع الآخر ١٢٩٦هـ/ ١٣ مارت ١٢٩٥ رومي في الأرشيف العثماني ضمن: İrade M. Mahsus, No 2949. Sene 1296H. والبشير، عدد ٤٤٨، ١١ نيسان ١٨٧٩. وكانت نية الأهالي تحديث «الشوسه» عبر مدّ خطوط حديدية، وذلك أثناء عقد جمعية عمومية في دار الحكومة بطرابلس لإجراء مذاكرة الموضوع. أنظر: ثمرات الفنون، السنة الحادية عشر، عدد ٥٠١، ١ محرم ١٣٠٢هـ/ ٢٠ و٨ تشرين أول ١٨٨٤، ص ٤.

مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية

(نموذج بلاد القبائل)

الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني

قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية

جامعة الجزائر

كان لمؤسسة الزوايا بالبلاد الجزائرية أثناء العهد العثماني دور مهم في مختلف أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والروحية، وهذا ما يجعل فهمنا لواقع المجتمع الجزائري آنذاك يرتبط بمدى معرفتنا لبيئة ونشاط ودور الزوايا كمراكز توعية وتوجيه وتربية، قادرة على تأطير المجتمع والتأثير فيه ثقافيا وروحيا وتوجيهه اجتماعيا واقتصاديا.

إن معالجة أوضاع المجتمعات المحلية خارج المدن والبحث في التنظيمات القبلية بالريف ورسم صورة للواقع الثقافي والروحي بعيدا عن تأثير المدينة يتطلب منا التعرض إلى دور الزوايا التربوي والتعليمي والاجتماعي والاقتصادي وحتى السياسي ؛ وهذا ما نحاول معالجته في هذا البحث في إحدى المناطق الجزائرية المتميزة وهي بلاد القبائل، وذلك لصعوبة دراسة شاملة في هذا المجال لكل البلاد الجزائرية في حدود المعلومات المتوفرة والإمكانيات المتاحة، فضلا عن كون موضوع مؤسسة الزوايا في حد ذاته متعدد الجوانب ومتداخل المعلومات.

إن موضوع الزوايا ببلاد القبائل (زواوة) يقدم لنا عينة جيدة عن تأثير الزوايا في الريف وتشكل نموذجا يساعدنا في التعرف على الوضع التعليمي والتربوي وعلى الحياة الاجتماعية

والاقتصادية في المناطق الجزائرية الأخرى التي تصعب دراستها لنـــدرة المصـــادر ولشـــح الوثائق. ولعل الشيء الذي دفعنا إلى هذا الاختيار هو كون بلاد القبائل(1) ظلت طيلـــة الفـــترة العثمانية تشكل مجتمعا محليا يتميز بمحافظته على تقاليده المتوارثة ولهجته البربرية الخاصـــة (القبائلية)، وتسود به علاقات قبلية راسخة ونشاط اقتصادي شـــبه مغلـــق، متـــأثر بصـــلات وعلاقات مع الحكم المركزي العثماني بمدينة الجزائر يغلب عليها التوتر والتعامل الحذر.

وحتى يكون عرضنا لواقع الزوايا ودورها التربوي والتعليمي بمنطقـــة القبـــائل مركـــزا وشاملا، فإننا سوف نتناوله من خلال ست نقاط، الأولى نتعرض فيها للواقع الاجتماعي القبلـــي ببلاد القبائل وتأثره بحركة التصوف منذ القرن الثامن الهجري (الرابـــع عشـــر الميـــلادي)، والثانية إلى طبيعة تنظيم الزوايا ببلاد القبائل، والثالثة نتلمس فيها التأثير الثقافي والروحي، أما الرابعة فنخصصها للدور التربوي والتعليمي للزوايا، والخامسة نتطرق فيها لتـــأثير الزوايـــا الاجتماعي والاقتصادي، والسادسة لواقع علاقة الزوايا بالحكم المركزي بالجزائر، وذلك قبـــل

(١) تقدر مساحة بلاد القبائل بحوالي ١٥٠٠٠ كلم٢، وهي تمتد على مسافة ١٥٠ كلم من وادي يسر غربا إلى وادي آقريـــون شرقا، ويعمق ٧٠ إلى ١٠٠ كلم من البحر المتوسط شمالا إلى هضاب سطيف وسهول مجانة وجبـــال البيبـــان جنوبـــا، وتشتمل على سلسلتين جبليتين شاهقتين هما جبال جرجرة (قمـــة لالا خديجـــة ٢٢٠٣ م) وجبـــال البـــابور (٢٠١٩ م)، وتحتضن حوضين رسوبيين هما حوض وادي الصومام الذي يصب في البحر عند بجاية وحوض وادي ساباو الذي ينتـــهي في البحر شرق دلس. وتتميز بلاد القبائل بغطاء نباتي متنوع وكثيف.

عرفت بلاد القبائل هذه بكثافة سكانها الموزعين على مئات القرى المقامة على قمم المرتفعات أو على المنحدرات المشرفة على الأودية، وأهم مجموعاتها القبلية في العهد العثماني مجموعة قبائل زواوة (إكاوان) أو قليسة المؤلفة من ٣٠٠ قريـــة أو دشرة، فعرفت ببلاد زواوة في المصادر الإسلامية.

يعيش سكان بلاد القبائل على ممارسة الزراعة وخاصة الزيتون والتين، وعلى تربية الحيوانات فـــي المراعـــي الجبليـــة، ويمارس قسم كبير منهم حرفا يدوية ومهنا تقليدية. ونظرا لكثرة السكان وقلة الموارد اضطر العديد من أفراد القبائل إلـــى الهجرة إلى أقاليم الجزائر الأخرى واستقر كثير منهم بمدينة الجزائر، حيث كانوا يشكلون في العهد العثماني إحدى طوائف الدخلاء (البرانية) المستخدمين في الأشغال اليدوية.

للتعرف أكثر على أوضاع بلاد القبائل تاريخيا وجغرافيا، راجع :

ناصر الدين سعيدوني، بلاد القبائل، مدونة المدن والأقاليم الجزائرية (تحت الطبع).

Letourneau (R.), La Kabylie, in *Encyclopédie de l'Islam*, Paris, T.IV, pp.374-380.

Despois (J.) et Raynal (R.), *Géographie de l'Afrique du Nord-ouest*, Paris, Payot, 1967, pp.156-165.

Belin (A.) et Flandin (J.), *Guide de la montagne algérienne : Djurdjura*, Alger, 1947.

Bebisco (N.), Les Kabyles du Djurdjura, in *Revue des Deux Mondes*, T.2/1866, pp.113-149.

Berbrugger (A.), *Les époques militaires de la Grande Kabylie*, Alger, Bastide et Chalancl, 1857, pp.122-139.

أن نختم البحث باستخلاص بعض المميزات والخصائص التي تحدد مكانة الزوايا في المجتمع القبائلي.

١- الواقع الاجتماعي لمنطقة القبائل وتأثره بحركة التصوف

يقوم البنيان الاجتماعي لمنطقة القبائل على تنظيم قبلي محكم يتميز باستقلال كل قبيلة بشؤونها الخاصة من حيث النشاط الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية ومتطلبات المعيشة. وقد تدعم هذا الوضع القبلي الذي يعود إلى فترة سابقة لانتشار الإسلام بالمنطقة بفعل الميل الفطري إلى الحرية ورفض الخضوع للحكام والوقوف منهم موقف الحذر، وقد ساعد على تأكيد هذا الوضع ما تتميز به بلاد القبائل من كثافة سكانية مرتفعة وبيئة جبلية صعبة وما تتطلبه هذه البيئة الصعبة من نشاط اقتصادي معيشي مغلق يقوم على تلبية حاجيات أفراد القبيلة.

كان للوضع القبلي ببلاد القبائل دخل كبير في الحد من سيطرة الحكام سواء كانوا حفصيين من مقرهم بمدينة بجاية أو عثمانيين من مركزهم بمدينة الجزائر، وهذا ما جعل المنطقة تظل أغلب فترات تاريخها الحديث بعيدة عن الحكم المركزي المباشر، الأمر الذي سمح للمؤسسات الدينية أن تقوم بدور الحكام وأن تتكفل بمهمة الجهاز الإداري والتعليمي والاقتصادي.

وقد أدى اشتداد الصراع الإسلامي المسيحي بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الإسبانية طيلة القرن السادس عشر ميلادي في الحوض الغربي للمتوسط، وما نتج عنه من التحاق الجزائر بالدولة العثمانية، وما صاحبه من احتلال إسباني لمدينة بجاية لمدة تقارب نصف قرن (٩١٦-٩٦٢ هـ/١٥١٠-١٥٥٥م)، وفشل المحاولات المتعددة لأمراء قلعة بني عباس (آل مقران) وأمراء قلعة كوكو (آل القاضي) في تكوين حكم محلي يسد الفراغ الذي تركه الحفصيون بالمنطقة والذي لم يستطع العثمانيون في أول أمرهم ملأه، كل ذلك أدى إلى تدعيم النظام القبلي وتعميق الاحساس بالانتساب إلى الدشرة لدى سكان بلاد القبائل، وهذا ما زاد من نفورهم من السلطة المركزية بمدينة الجزائر، فترسخت نتيجة لهذه الظروف تقاليد وأعراف محلية مستمدة في أساسها من أحكام الشريعة الإسلامية، وإن كانت تخالفها في بعض الأحكام المتعلقة بالمعاملات الشخصية لتمسك أفراد القبائل بما تعارفوا عليه من معاملات.

بفعل هذا الوضع الاجتماعي الخاص أصبحت القبيلة أو العرش أو الدشـــرة أو "تـــادارت" باللهجة القبائلية بمثابة الوحدة الأساسية للنظام الاجتماعي ببلاد القبائل، فأخضعت المعـــاملات والأحكام إلى ما يتماشى وتماسكها واستمرار نشـــاط أفرادهـــا. وأصبحـــت الرابطـــة بيـــن المجموعات التي تتألف منها القبيلة تقوم على الانتساب إلى جد واحد غالبا ما تعـرف القبيلـــة باسمه. وحتى تحافظ القبيلة على تماسكها فقد اقتضت الأعـــراف تكويـــن مجلـــس الجماعـــة المعروف محليا "بثجماعت"، يسهر على مصالح القبيلة ويحق لكل ذكـــر بـــالغ حضـــوره ولا تصبح قراراته قابلة للتطبيق إلا بموافقة الجميع ولو ظاهريا، لأن الكلمة الأخـــيرة فـــي كـــل القرارات والمواقف، وخاصة ما يتعلق منها بالنزاعات القبلية، يعود أساسا إلى كبار السن مـــن أفراد العائلات المتنفذة المعروفين بالأعيان والذين لهم مكانة متميزة في مجلس القبيلة.

يتألف مجلس الجماعة (ثجماعت) من الأمين وهو بمثابة شيخ القبيلة وعادة ما يكون متقدما في السن وأكثر القوم نفوذا وأقواهم شخصية، لأن هذه الصفات ضرورية للابقاء على تماســك القبيلة وتلاحمها، ولعل هذا ما يجعل أفراد القبيلة يطلقون عليه اسم الراعي (أمسكا) لدوره فـــي جمع أفراد القبيلة وتلاحم أسرها، ويساعده في مهامه بعض الأفراد من الأعيان ذوي المكانـــة المتميزة في مجلس القبيلة، يضاف إليهم بعض الأفراد الذين يحرصون على رفـــع انشـــغالات الأحياء التي ينوبون عنها ويعرف كل واحد منهم "بالطامن"، ومن أعضاء مجلـــس الجماعـــة أيضا الوكيل وهو المكلف بحفظ الموارد المالية والعينية التي تعود للقبيلة من هبات وغرامـــات وهو المخول عادة باستغلال الأملاك المشاعة التي تعود إلى مجموع أفراد القبيلة، ومن أعضـاء مجلس الجماعة المؤثرين "الطالب" أو "المعلم" أو "الشيخ" الذي يحظى بتقدير الجميـــع لعلمـــه وسلوكه وخدماته التربوية والدينية (٢).

---

(٢) لقد كان التكوين الاجتماعي القبلي ببلاد القبائل "زواوة" والعلاقات المترتبة عنه والخصائص المميزة له محـل دراســات متعددة متباينة الآراء ومختلفة الاتجاهات، نذكر منها على سبيل المثال :

- Aucapitaine (Le Baron H.), Kanoun du village de Thaourirt Amokrane chez les Aïth Iraten, in *Revue africaine*, T. 7, 18 , p.279.
- Baudicour (L.), *Des indigènes de l'Algérie*, Paris, Ch. Douniol, 1852, pp.23-24.
- Bernard (A.), Millot (L.), Les Qânnouns kabyles, in *l'ouvrage de*…
- Viré (A.), Les Kabyles du Djurdjura, in *Bulletin de la société anthropologique de Paris*, 1893, pp.82-84.
- Devaux (C.), *Les Kebailes de Djerdjera, Etudes nouvelles sur le pays vulgairement appelé la Grande Kabylie*, Paris, Challamel, Marseille, Camoin, 1859, pp.23-27.

اقتضت ظروف التعامل وطبيعة العلاقات بين أفراد القبائل احترام الأعراف السائدة والعادات المتعارف عليها، وهذا ما اضطر بعض المجالس القبلية إلى المبادرة بصياغة تلك الأعراف والعوائد في عرائض ولوائح بحضور وموافقة أفراد القبيلة المعنية، مما أكسبها في نظر الجميع حكم القوانين المعمول بها، مثل قانون قبائل بني بترون لعام ١١٦٢هـ/١٧٤٩م، الذي صاغه الأعيان المنتمون إلى هذه المجموعة من القبائل والذي أسقط متوجب الصداق وحق الإرث للإناث بهدف المحافظة على تجانس الأسرة ووحدة القبيلة وتماسك الصف (٣).

إن هذا الواقع الاجتماعي القائم على تماسك القبيلة والمستند إلى مصلحة التحالف القبلي (الصف) في بلاد القبائل (زواوة) خضع لتأثير حركة التصوف التي انتشرت في المغرب الأوسط، والتي كان منطلقها مدينة بجاية العاصمة التاريخية لبلاد القبائل (٤)، على أيدي عدد

- Hanoteau (A.) et Letourneux (A.), *La Kabylie et les coutumes kabyles*, Paris, Challamel, T.I, 1873.

ومن الدراسات الحديثة المتميزة بنظرتها الموضوعية للواقع الاجتماعي ببلاد القبائل، نذكر :

- محمد سي يوسف، القانون في بلاد القبائل خلال العهد العثماني، المجلة التاريخية المغربية للدراسات العثمانية، زغوان، عدد ١٧-١٨، ١٩٩٨، ص ص.٢٧٤-٢٨٣.
- أحمد ساحي، الزواوة في عهد الإمارة، (١٥١٢-١٧٦٧ م)، رسالة ماجستير، الجزائر، ١٩٩٩.

(٣) مما جاء في نص هذا القانون (العرفي) : "أنه بعمارة سوق السبت لبني واسيف، اجتمعوا هناك سادات بني بترون، وهم زواوة الغربية : بني يني وبني واسيف وبني بودواو، مع عدول أهل قراهم وأمام مسجد تاحمامت... فاتفقوا على كلمة واحدة بأن الميراث وشفعة الحبس وشفعة البنات والأخوات واليتامى وصداق المرأة إن طلقها زوجها أو مات عنها مسقط في بني بترون ومن اتصل معهم، فاتفقوا على اتفاق واحد، ومن أراد إحداث هذه الأمور فهو جور والجور منهي عنه لأن حكم العرف والعادة لا يخرقان ولا ينقضان كحكم السلطان، انتهى". راجع :

Patorni (F.), Délibération de l'année 1749 dans la Grande Kabylie, in *Revue africaine*, T. 39/1895, pp.315-320.

(٤) أسس مدينة بجاية الملك الحمادي الناصر علناس سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧م، وجعلها عاصمة له بدل قلعة بني حماد، فعرفت ازدهارا كبيرا جعلها من أهم حواضر بلاد المغرب، وحافظت على هذه المكانة أثناء حكم الموحدين لها (٥٤٦ هـ/١١٥٢م)، ثم ألحقت بدولة الحفصيين (٦٢٩ هـ/١٢٩٨م)، وأصبحت بمثابة العاصمة الثانية لهم، فأمها علماء الأندلس للاستقرار بها أو في طريقهم إلى تونس والمشرق، وقد ترجم للعديد منهم أبو العباس الغبريني (ت. ٧٠٤ هـ/١٣٠٤م) في كتابه "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"، ومع ازدياد ضغط النصارى عليها، تحول العديد من علمائها للاستقرار في أماكن محصنة ببلاد القبائل منقطعين للعبادة والتعليم، فساهموا بانتقالهم إلى داخل بلاد القبائل في تأسيس الزوايا ونشر حركة التصوف، وذلك قبل أن يتمكن الإسبان من احتلال بجاية وتخريب معالمها وتشريد سكانها سنة ٩١٦ هـ/١٥٠٩م، وبعد أن استرجعها حاكم الجزائر صالح رئيس سنة ٩٦٣ هـ/١٥٥٥م، لم تتمكن بجاية من استعادة سالف مجدها، فظلت بلدة إقليمية متواضعة، في الوقت الذي كانت فيه زوايا بلاد القبائل الكثيرة تستقطب النشاط الثقافي والعلمي، واستمر هذا الوضع حتى أثناء فترة الاحتلال الفرنسي (١٢٤٦-١٣٨٢ هـ/١٨٣٠-١٩٦٢م). للمزيد من الاطلاع، راجع : ناصر الدين سعيدوني، مدونة المدن الجزائرية "مادة بجاية".

Cat (E.), Bougie, in *Grande Encyclopédie*, Paris, A.B. Bertholot, 1866, pp.636-637.

كبير من الفقهاء والعلماء والزهاد من مهاجري الأندلس، الذين وجدوا في بجاية البيئة الملائمة لنشاطهم التعليمي وتأثيرهم الاجتماعي، وكان في طليعة هؤلاء العلماء المتصوفة الولي الصالح سيدي أبو مدين شعيب البلنسي دفين العباد بتلمسان (ت. ٥٩٤ هـ/١١٩٧م) الذي مكث ببجاية مدة تناهز العشرين سنة.

انطلقت حركة التصوف من حواضر بلاد المغرب (تونس، بجاية، تلمسان، فاس، مراكش)، وقد كان لمدينة بجاية خاصة تأثير قوي على أقاليم المغرب الأوسط وخاصة بلاد القبائل، فكانت البيئة التي انتشر منها التصوف كسلوك ديني وتوجه اجتماعي وتعبير ثقافي يعكس بصدق واقع المجتمع المغربي الإسلامي الذي أصبح يعيش منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) تراجعا عسكريا وانغلاقا فكريا وتأخرا اقتصاديا ومعرفيا [٥]. وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن التصوف رغم اختلاف الآراء حوله يظل من وجهة نظر التاريخ الاجتماعي تعبيرا ناجحا واستجابة موفقة عن شعور القلق وحالة الفراغ التي نتجت أساسا عن تعطل آليات المجتمع الإسلامي شرقا وغربا عن أداء دورها والذي برزت مظاهره في فوضى سياسية واضطرابات اجتماعية وتراجع عسكري وتأخر اقتصادي وحيرة نفسية، فالتصوف بهذه النظرة هو عملية تراجع مخصب (Régression féconde) ، لأنه سمح باحتضان البيض إلى وقت التفقيش والمحافظة على الجوهر لفترة تجدد القشرة وتبدل الإطار الخارجي.

Féraud (Ch. L.), *Histoire des villes de la province de Constantine : Bougie*, Constantine, 1896.

Marçais (G.), Bidjâya, in *Encyclopédie de l'Islam*, Paris, T.II, pp.1240-1244.

(٥) بدأت حركة التصوف بالمشرق العربي منذ القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد)، مع سلوك رابعة العدوية ثم أبي يزيد طيفور الفارسي، وتحول إلى تيار فكري في القرنين الثالث والرابع للهجرة مع أبي القاسم الجنيد والحلاج، وتدعم مع أبي حامد الغزالي، ثم ما لبث أن انتقل إلى بلاد المغرب والأندلس مع محمد بن عربي الأندلسي (ت. ٥٤٣ هـ/١١٤٨م) وعبد السلام بن مشيش (ت. ٦٢٥ هـ/١٢٢٧م)، هذا وتحددت معالم التصوف المغربي مع الطريقة الشاذلية المنتسبة إلى أبي الحسن الشاذلي دفين حميثرة بصعيد مصر (ت. ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م)، ومع تراجع الإسلام بالأندلس وزيادة ضغط النصارى على السواحل المغربية وتراجع مظاهر الحياة الاقتصادية وغلبة رأي الفقهاء على ثقافة المتكلمين والفلاسفة، أصبح التصوف ظاهرة عامة ببلاد المغرب الإسلامي مع القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، فتحكم في سلوكات مجتمع الريف والمدينة وطبع توجهات العامة وميول الحكام منذ القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، فكان من التأثير ما جعل المجتمعات المحلية وكأنها أصيبت بضربة عنيفة أذهبت العقول وحولت عناصر من المجتمع إلى مجاذيب وبهاليل لا يملكون إلا الهذيان الصادر عن الفعل اللاواعي في سعي للخلاص من الإحباطات والفشل في تغيير الواقع.

وقد كانت مدارس بجاية ومساجدها، ومنها مسجد سيدي محمد أمقران ومسجد سيدي التواتي ومسجد سيدي عبد الحق، أماكن لتلقي العلم واكتساب السلوك الصوفي، فقصدها أعلام التصوف أمثال سيدي عبد الرحمن الثعالبي الذي تردد على بجاية سنتي ٨٠٢ و٨٠٩ هـ (١٣٩٩ و١٤٠٦م)، وسيدي أحمد بن يوسف الذي مكث بها مدة سنة (٩٣٤هـ/١٥٢٧م)، وكذلك سيدي أحمد زروق البرنسي (ت ٨٩٩ هـ/١٤٩٣م).

كما غدت أضرحة علماء بجاية ومزاراتهم بدورها عاملا في تعمق روح التصوف لدى الخاصة وتأثيرها في العامة، حتى أصبحت بجاية في نظرهم بمثابة مكة الصغيرة، وتذهب الأقوال الشعبية إلى حد الجزم بأنه لو زاد عدد أولياء بجاية التسع والتسعين بولي واحد لأصبحت أرضا مقدسة بالفعل(٦).

تحول العديد من علماء بجاية وأغلبهم من فقهاء ومتصوفة الأندلس، مع سقوط بجاية بيد الإسبان (٩١٦ هـ/١٥١٠م)، إلى ربوع بلاد القبائل الواقعة خلفها، لينقطعوا للعبادة والتعليم، فتعاظم دورهم في وسطهم المحلي وتأكدت مكانتهم لدى العامة بعد أن توسع نشاطهم بفعل انحصار الحكم المركزي واستقلال الجماعات القبائلية بشؤونها منذ القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، فازداد عدد الزوايا في مختلف مناطق بلاد القبائل (جبال جرجرة

---

(٦) من أضرحة هؤلاء الأولياء الصالحين الذين نشروا التصوف وشجعوا على انتشار الزوايا ببلاد القبائل، والذين لازالوا محل إجلال وتبرك بمدينة بجاية، نذكر أضرحة سيدي أبي علي حسن المسيلي المعروف بأبي حامد الصغير وسيدي معمر وسيدي عبد الحق وسيدي الصوفي وسيدي الأخيضر وسيدي محمد أمقران وسيدي والي وسيدي عبد الرحمن الصباغ وسيدي البتروني وسيدي محمد التواتي وسيدي عيسى وسيدي يحي أبي زكريا. راجع من المصادر عن علماء وأضرحة بجاية : أبو العباس أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الجزائر، ١٩٧١. Féraud (Ch. L.), op.cit., p.

– ناصر الدين سعيدوني، مدرسة بجاية الأندلسية، بحث قدم في ندوة "الأندلس، قرون من التقلبات والعطاءات"، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ٣٠ أكتوبر-٣ نوفمبر ١٩٩٣، نشر في أعمال الندوة وسوف ينشر في كتاب "أندلسيات جزائرية" لنفس المؤلف.

والقرقور ووادي الصومام وساباو)، فناهز عددها أواخر العهد العثماني الخمسين زاوية(٧)، وأصبحت أساس الحياة الاجتماعية والاقتصادية ومحور النشاط الروحي والثقافي بالمنطقة(٨).

٢- طبيعة تنظيم الزوايا ببلاد القبائل

تشتمل الزوايا بالبلاد الجزائرية وخاصة بمنطقة القبائل على مجموعة بناءات تتوزع على المرافق الضرورية للزاوية، فهناك مكان مخصص لحفظ القرآن وتلاوته (قراءة الحزب) وأداء فريضة الصلاة، وهو بمثابة مسجد الزاوية، ومكان آخر للدراسة يعرف عادة بالمعمرة، وقد تقتصر الزاوية عليه فتعرف بالمعمرة، بالإضافة إلى دار للضيافة وغرف لإيواء الطلبة وبناء لاستقبال الزوار والضيوف وملحق لإقامة أهل الزاوية أو لسكن القائمين عليها، وغير بعيد عنهم المصالح الضرورية من مطبخ وإسطبل ومخازن لحفظ المؤونة ورحى لطحن الحب ومعصرة لعصر الزيت وغيرها.

تضم الزاوية في غالب الأحيان ضريح الولي أو المرابط الذي أسسها أو التي تحمل اسمه أو تنتسب إليه، والضريح غالبا ما يكون في شكل بناء مربع ذي قبة نصف كروية وفي بعض الأماكن تكون مخروطية الشكل ومغطاة بالقرميد، وهذه القبة بغض النظر عن شكلها تقام على دعامات مثمنة الأضلع، غالبا ما تستند مباشرة على جدران بناء الضريح المربع الشكل (٩).

---

(٧) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٩، ج.١، ص.٢٦٥.

هذا وقد استخلص الحاج صدوق في دراسته عن الورتيلاني ببلاد القبائل، أنه كانت توجد بجبل زواوة (جرجرة) ٥٠ زاوية، ونفس العدد بناحية زمورة، وحوالي ٢٠ ببجاية وناحيتها، و١١ في نواحي الماين. أنظر :

Hadj Sadok (M.), A travers la Berbérie orientale du XVIII è siècle avec le voyageur Al-Warthîlânî, in *Revue africaine*, T. 95/1951, p.370.

(٨) الزوايا جمع زاوية، وهي في الاصل ركن كل بناء، أطلقت في أول الأمر على صومعة الراهب لانقطاعه للصلاة في ركن منعزل، ثم استعملت للدلالة على المصلى وحتى على المسجد الصغير الذي يخلوا فيه الناس للعبادة، ثم توسع فيه في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس، فأصبح يطلق على مجموعة البنايات المستخدمة لأغراض دينية وتعليمية واجتماعية، وذلك منذ القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد. ولم يلبث مع حلول القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، أن أصبح مرادفا للرباط الذي كان منتشرا في الجهات المنعزلة أو التخوم والسواحل، والموجه في أساسه لتلبية المهام الدينية والحاجات الجهادية، وذلك قبل أن يتكاثر عدد الزوايا خاصة ببلاد القبائل، وتتعدد خدماتها ويزداد نفوذها وتصبح محور الحياة الاجتماعية والاقتصادية وأساس النشاط الروحي والثقافي للمجتمع الريفي، طيلة العهد العثماني وحتى الفترة الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر (ق ١٦-١٩ م).

(٩) Cauvet (Commandant), Les marabouts, petits monuments funéraires votifs du Nord de l'Afrique, in *Revue africaine*, T. 64/1923, pp.22-23.

وفي كثير من الاماكن تكون هذه الأضرحة متواضعة في أول أمرها لبساطة الحياة الريفية ببلاد القبائل، فتكون قصيرة الحيطان منخفضة القباب، ثم لا تلبث أن تتوسع وتتطور مع تعاظم مكانة الولي وتزايد عدد مريديه وتكاثر زواره، فيتحول الضريح من شكله البسيط المتواضع إلى بناء يعكس مكانة ومنزلة الولي، فيزداد ارتفاع قبة الضريح وتعلوها الأعلام وشارات النذر، وتكسى الجدران الداخلية للمقام في بعض الأحيان بالزليج ويجلل القبر بالقماش الفاخر كما هو عليه الحال لدى الأولياء المشهورين، ومنهم مرابط قرية تاوريرت منقلات (١٠).

إن الزاوية بهذه المواصفات أصبحت بمثابة مجمع متعدد الخدمات، فهي المسجد والمدرسة والملجأ والمأوى والمزار، الأمر الذي جعلها محور الحياة الروحية والثقافية وحتى الاجتماعية في الوسط الريفي ببلاد القبائل، فتعددت بناءاتها وبلغ بعضها العشرين أو الثلاثين مسكنا وتحولت في بعض الأماكن إلى ما يشبه ضواحي للمداشر الجبلية، وأصبح بعضها، بعد أن استقر بالقرب منه عقب شيخ الزاوية ومريديه بمثابة القرية المستقلة بشؤونها، ولعل أحسن مثال على ذلك دشرة الجهراوية التي تكونت في أساسها من بنايات زاوية الشيخ الحسين بن آعراب (١١).

هذا وعادة ما يؤكد المرابط مكانته بحسن تصرفه وبساطة عيشه ومستوى معارفه وتفانيه في خدمة من يتصل به، فيزداد تقدير الناس له بعد أن يلاحظوا مواظبته على الزهد وميله إلى العزلة وإعراضه عن الخصومات وتجرده من أغراض الدنيا ومطالبها، وهذا ما يسبغ عليه في حياته وخاصة بعد موته نوعا من القداسة، فيعتقد الناس في بركاته وينطوعون مخلصين لخدمته ويرغبون في مصاهرته والتقرب إلى أسرته وعقبه، وقد بلغت طاعته من قبل مريديه حد نكران الذات، فهم في حضرته "كالجثة بين أيدي المغسلين" حسب التعبير العامي المتداول(١٢).

---

(١٠) Viré (A.), op.cit., p.83

(١١) Niox, *Algérie, Géographie physique*, Paris, 1884, pp.345-354.
Turin (Y.), *Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale*, Paris, François Maspéro, 1971, Annexe 1.

(١٢) Robin (Colonel), *L'insurrection de la Grande Kabylie en 1871*, Paris, H. Charles La Vauzelles, s.d., p.34.
- Emerit (M.), Etat intellectuel et moral de l'Algérie en 1830, in *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, T.I, 1954, p.11.

اعتمدت جل الزوايا ببلاد القبائل عند نشأتها على شخصية فقيه ورع أو ولـي صـالح أو عابد زاهد منقطع للعبادة، يعرف لدى العامة "بالمرابط"، وهو عادة ما يكون غريبا عن المنطقة لا يمت بأية صلة إلى أصول القبيلة التي يقيم بمواطنها ويؤسس زاويته على أراضيـها، وقـد تذهب الروايات الشعبية إلى نسبة ذلك المرابط إلى أقاليم بعيدة، فغالبا ما يعتقد عامة النـاس أن مرابط زاويتهم من منطقة جنوب المغرب الأقصى (السوس) أو الصحراء الغربيـة (السـاقية الحمراء) وحتى بلاد الأندلس أو أقطار المشرق. كما أن العديد من الروايات التاريخية والكثير من تقاييد نسب شيوخ الزوايا تذهب في هذا المنحى وتؤكد على تنوع الأصول من حيث العرق والموطن، وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن أغلب مرابطي زوايا بلاد القبائل في العهد العثمـاني وحتى أوائل الاحتلال الفرنسي، من أصول عربية صريحة النسب مثل الشيخ غوارب العربـي الأصل الذي استقر المقام به بتاشرا حيث اقام الزاوية التي توارثها عقبه، والقليـل منـهم لـه أصول تركية أو بربرية محلية من قبيل مرابط آيت عمور وهو كرغلي [قول اوغلـي] مـن وادي الزيتون تحول إلى قرية آروس حوالي سنة ١٠٤٨ هـ/١٦٣٨م، حيث أسس بها معمرة (زاوية لحفظ القرآن) قبل أن يستقر بتمازيرت لينشئ بها زاوية ظل عقبه يشـرفون عليـها، ومنهم مرابط آيت داغون من برابرة قرية إيعزوزن، الذي سمح له علمه وزهـده وصلاحـه بتأسيس زاوية، فعد عقبه من الأشراف بعد أن توارثوا العلم ونسبت إليهم الكرامات(١٣).

هذا ويمكن اعتبار المرابط سيدي منصور الجنادي شيخ زاوية بني جناد نموذجا المرابـط في البيئة القبائلية، الذي يكتسب الاحترام وينال التقدير ويلتف حوله المريدون بفعـل السـلوك الحسن والعمل الصالح، ثم يصبح بعد ذلك محل تقديس فتنسب إليه الكرامات وتـروى عنـه أعمال من قبيل المعجزات، وهذا ما جعل سعيد بن زكري يصفه بأنه "كثير العبادة في خلواته، مستجاب الدعوة، وصاحب كشف رباني، فهو لا يتكلم إلا بالحق ولا يتصرف إلا بالعدل "(١٤).

وقد نسج الخيال الشعبي حول بعض الأولياء والأشياء الخاصة بهم قصصا طريفة تعبر عن ميول العامة وتأثرهم بالغيبيات واعتقادهم بالخوارق، وهذا ما جعلهم مقصد المحتاجين وملجـأ

---

(١٣) Hanoteau et Letourneux, *La Kabylie...*, op.cit., T.I, pp.92-94.

(١٤) Boulifa (S.A.), *Le Djurdjura à travers l'histoire, de l'Antiquité à la période coloniale*, Alger, Berti éd., 1999, appendice II(كتبه شيخ الزاوية داوي أحمد).pp.283-297.

السائلين للشفاء والراجين للعقب أو النسل والمتسولين لحفظ الإنتاج واستدرار المطر والغيث، فعصا سيدي الطالب بجامع كوكو تحركها المرأة العاقر عند زيارتها في ثقب وسط المسجد في جميع الاتجاهات رغبة في الولادة، ويحك بها المريض ظهره طلبا للشفاء ؛ وزيارة قبة مرابط تاوريرت منقلات تتطلب تقديم النذر لها جلبا للشفاء أو طلبا للعقب أو قضاء للحاجات الخاصة، ومن تقاعس عن ذلك أو أخلف قسمه أو تجرأ على الكذب في حق المرابط أو تجرأ على إهانة ضريحه فإنه لا محالة سوف يصيبه مكروه في اعتقاد العامة التي تتداول في هذا الشأن ما حدث لعدد من الأشخاص ومنهم محمد الحواسن، فقد هلكوا كلهم، حسب الرواية الشعبية المتداولة في نفس السنة التي اقترفوا فيها جريمة الكذب والحنث في قسمهم باسم مرابط تاوريرت منقلات. ولعل من أطرف ما يروى في شأن تعظيم المرابطين لدى العامة هو جواب فرد من القبائل لسائلة عن من هو أعظم، الله أم المرابط سيدي محمد أمقران، فأجاب بدون تردد بأنهما الاثنان عظيمان لكن سيدي محمد أمقران نجد عنده الخبز والمأوى(١٥).

عرفت الزوايا التي اشتهر مرابطوها لدى العامة بالكرامات والخوارق بالزوايا "الخلواتية"، واعتبر بعض مرابطوها بمرتبة القطب أو بمنزلة الغوث العارف بالأسرار الربانية، فنعتوا بألقاب تعبر عن ذلك من قبيل "صاحب الله" و"حبيب الله"، وقد كان هؤلاء المرابطون في أول أمرهم فقهاء ذوي سلوك حسن وعمل صالح وانقطاع إلى العبادة، لكن الاعتقاد الشعبي البسيط وميول العامة جعلهم يتحولون إلى عارفين بأسرار الغيب ومن ذوي القدرة على تلقين الأسرار الربانية لخاصة أتباعهم الذين كانوا يحرصون على الترويج لكراماتهم ورواية الحكايات حول بركاتهم التي لا يرقى إليها الشك في اعتقادهم. وقد وجد بعض الدارسين الأوربيين في ذلك ما سمح لهم بالقول بأن هذه الاعتقادات تعبر ضمنيا وبشكل لاشعوري عن الماضي الوثني للبربر، ومن ثمة ذهبوا إلى حد اعتبار ذلك بمثابة طقوس دينية خاصة أطلقوا عليها عبارة "تقديس المرابطين" Le culte des marabouts (١٦).

(١٥) للتعرف على مثل هذه الروايات الشعبية المتداولة بمنطقة القبائل والتي تعبر عن الاعتقاد الساذج والفهم البسيط للدين لدى العامة، راجع على سبيل المثال :

Daumas (E.), *Mœurs et coutumes de l'Algérie*, Paris, Sindbad, 1988, pp.166-167.

(١٦) Dermenghem (E), L'Algérie religieuse, in *Initiation à l'Algérie*, Paris, Maisonneuve, pp.254-257.

إن هذا الاعتقاد الغيبي في الذهنية الشعبية القائم على كرامات المرابط ومآثر أقواله وسلوكه لم يكن ظاهرة عامة أو شيئا مسلما به لدى الجميع ببلاد القبائل، فقد تجنبه الكثير من شيوخ الزوايا الذين حرصوا على أن تقتصر مهمتهم على تحفيظ القرآن وتلقين مبادئ الفقه، فاعتبرت الزوايا التي يقومون عليها زوايا أو معمرات "غير خلواتية" مهمتها الأساسية نشر مبادئ الإسلام بعيدا عن كل الخرافات والأباطيل، فلم يَدَّعُوا الكرامات أو أي شيء من قبيل المعجزات، بل كرسوا كل وقتهم للتعليم وعمل الخير والصلاح وتلقين عبارات الذكر والدعاء بهدف غرس الاستقامة والورع في قلوب أتباعهم ومريديهم، وغالبا ما يكون ذلك عن طريق أخذ الورد في حلقات الذكر حسب الطريقة التي تنتمي إليها الزاوية وإن أصبحت جل زوايا بلاد القبائل تأخذ بالطريقة الرحمانية منذ مطلع القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)، كما سوف نتطرق إلى ذلك عند تعرضنا للدور التربوي والتوجيهي للزوايا.

وقد دفع هذا الوضع بعض المصلحين من رجال الزوايا إلى حد محاربة الاعتقاد العامي في كرامات المرابطين وإلى نقد من لا يلتزم من شيوخ الزوايا بحكم الشرع وسلوك السلف الصالح من رجال العلم والمصلحين، وهذا ما عبرت عنه العديد من التقاييد والكتب ومنها ما كتبه الشيخ الحسين الورتيلاني في رحلته، عندما آخذ أولاد سيدي بهلول بن عاصم لكون " كثير منهم على طبع العامة... في تقليدهم سيف الفتنة وأحكام العوائد..." (١٧).

بفعل الاعتقاد في صلاح المرابط وبركاته وفي حرمة الزاوية وقدسية رفات الولي الذي تضمه، أصبح العامة يرون في عقب المرابط سلالة شريفة النسب، تحظى بكل احترام وتقدير. وقد فرض هذا التمايز الاجتماعي القائم على السلطة الروحية للمرابطين معاملات متميزة لعائلات المرابطين، فلم يعد يحق لبناتها أن يتزوجن من عامة أفراد القبيلة، وإن كان أفراد تلك العائلات المرابطية يقبلون على الزواج من بنات تلك القبيلة التي تشجع بدورها تلك الروابط لأنها تكسبها حظوة ومكانة. كما أن هذا الاعتقاد في بركة المرابط وعقبه سمح لأغلب الزوايا أن تحافظ على استمرارها بعد وفاة مؤسسيها، فكان يتولى أمورها ويُسَيِّر شؤونها في أغلب الأحيان عقب الشيخ الذي أسسها، وحتى في حالة انقطاع عقب المرابط وانتفاء ورثته القادرين

---

(١٧) الشيخ الحسين بن محمد السعيد الورتيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، المعروفة "بالرحلة الورتلانية"، نشر محمد بن أبي شنب، الجزائر، ١٩٠٨، ص.

على تسيير الزاوية فإنه كثيرا ما يختار المنتسبون إلى تلك الزاوية والمعتقدون في بركة مرابطها، وهم عادة ما يكونون من طلبة الزاوية، واحدا من بينهم ممن عرف بالتقوى والورع والمواظبة على العبادة لرعاية مصالح الزاوية والسهر على تسيير أمورها ، فإذا فشل في مهامه يعاد الاختيار بعد سنة وهكذا دواليك، وعندما يوفق طلبة الزاوية في من يختارون يثبت في مهمته ويكتسب بدوره قدرا من الاحترام والتقدير مما يسمح له بأن يتمايز في المعاملة عن باقي أتباع الزاوية ويؤهل عقبه من بعده أن يتولى أمور الزاوية وأن يخول عقبه تبعا لذلك التكريم في المعاملة والاعتقاد في الصلاح أن يدعوا النسب الشريف، ويصبح ذلك بعد فترة جيل أو جيلين شيئا مسلما به من طرف جميع أفراد القبيلة (١٨).

يقوم تنظيم الزاوية كمؤسسة تعليمية وهيئة دينية ومركز إرشاد وتوجيه ومكان خدمات ورعاية على أساس الانتساب الروحي لصاحب الطريقة التي تنتمي إليها الزاوية أو للولي الصالح (المرابط) الذي أنشأها أو جدد نشاطها، ويقوم الهيكل التنظيمي للزاوية على مبدأ الولاء القائم على طاعة شيخ الزاوية واتباع نصائحه وتنفيذ تعليمات وكيل الزاوية الذي يعوض المرابط في حالة وفاته أو انقطاع عقبه، ويلتزم بذلك حرفيا جميع طلبة الزاوية والأتباع المعروفين بالمريدين أو الإخوان، فيتوزعون بينهم حسب قدراتهم ومكانتهم من شيخ

---

(١٨) لقد كانت أوضاع الزوايا ومواصفات مرابطيها ومكانتهم الاجتماعية وعلاقتهم بالسكان محل وصف وتعليق من طرف العديد من الكتاب الفرنسيين الذين تناولوها من وجهة نظر غربية دون الأخذ بالواقع الاجتماعي ومعطيات الحضارة الإسلامية، مما يتوجب إخضاع كتاباتهم للتحليل والنقد عند الرجوع إليها، ونذكر منها :

Tableau de la situation des établissements français en Algérie, Paris, *imp. Royale,* Année 1840, p.377.

Hanoteau et Letourneux, *La Kabylie...*, op.cit, T.II, pp.84-58.

De Neveu, *Les khouan, ordre religieux chez les Musulmans d'Algérie,* 3è éd., Alger, A. Jourdan, 1913, pp.17-20.

Daumas (E.), *Exposé de l'état actuel de la société arabe,* Alger, 1844, pp.15-16.

Daumas (E.), *Mœurs...*, op.cit., pp.159-172.

Doutté (E.), *Notes sur l'Islam maghrébin,* Paris, E. Leroux, 1900, p.86.

Dermenghem (E.), *Le culte des saints dans l'Islam maghrébin,* Paris, Gallimard, 1954, p.96.

Brosselard (Ch.), *Les khouan. De la constitution des ordres religieux musulmans en Algérie,* Paris, imp. de A. Bourget, 1859, pp.7-28.

Berque (J.), Qu'est-ce qu'une tribu nord-africaine, in *Maghreb, Histoire et société,* Alger, S.N.E.D., Duclot, 1974, p.33.

Saint-Marie (A.), Etude des migrations dans la Régence d'Alger, Formation et déplacement des tribus au XVIII è et début du XIX è siècle, in *Cahiers de la Méditerranée,* Série spéciale, n°2/1973, p.167.

الزاوية الخدمات والمهام المتعددة، وقد يلتجئون في بعض الأحيان، حرصا على مصلحة الزاوية، إلى وضع تعليمات وإجراءات محددة في شكل قانون داخلي للزاوية يحفظ بالتواتر أو يسجل كتابيا كما هو الشأن في بعض الزوايا الرئيسية مثل زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي(١٩).

أما مصادر تمويل الزاوية وتغطية مطالبها المعيشية والمالية (٢٠)، فهي تقوم على إمكانية محيطها الطبيعي وطاقات مجتمعها المحلي الذي لا حد لعطاء أفراده وتفانيهم في خدمة الزاوية التي ينتمون إليها، يدفعهم في ذلك اعتقاد شعبي صادق في بركة الشيخ، مما يجعل أفراد القبيلة مجندين دوما لخدمة الزاوية (٢١) وملزمين بتلبية حاجاتها سواء في شكل هدايا وعطايا يقدمها الزائرون أو زكاة وعشور تجمع لفائدة الزاوية، بالإضافة إلى ما يستخلص من مردود الأوقاف التابعة لها.

فالزيارة والهدية المعروفة محليا **بالوعدة** تقدم للزاوية كنذر أخذها بعض الأشخاص على أنفسهم عند قضاء حاجاتهم وتحقيق مبتغاهم، وهي تكون في شكل مبالغ مالية من النقود المتداولة أو كميات عينية من المنتجات المتوفرة بالمنطقة كالتين والزيتون والزبيب والعسل والزيت ورؤوس الماشية وحتى المفروشات والاواني. وقد اتخذت هذه الزيارة (وعدة المرابط) لدى بعض أتباع الزوايا شكل اشتراك سنوي قار لا يمكن إهماله والتهرب منه قدرت الإدارة الفرنسية أوائل الاحتلال قيمته، بالنسبة لبعض المرابطين، بمبلغ يتراوح بين ٥٠ دورو (٢٥٠

---

(١٩) تتوفر الزوايا الرئيسية ببلاد القبائل على قوانين خاصة بها كانت محل دراسة ونشر من طرف الدارسين :
أحمد ساحي، أعلام من زواوة (إيقواون)، الجزائر، طباعة الثورة الإفريقية، د.ت.

Boulifa (S.A.), op.cit., Appendice n°2.

Hanoteau (A.) et Letourneux (A.), *Les coutumes kabyles*, Alger, Berti éd., 1999, pp.117-147.

(٢٠) من المراجع التي تعرضت إلى ذلك بالإضافة إلى تقايد بعض الزوايا، نذكر :

Daumas (E.), *La vie arabe et la société musulmane*, Paris, 1869, pp.439-452.

Daumas (E.), *Exposé...*, op.cit., pp.16-17.

Daumas (E.), *Mœurs...*, op.cit., pp.161-167.

De Neveu, op.cit., pp.17-18.

Boyer (P.), *L'évolution de l'Algérie médiane*, p.75.

(٢١) Berque (J.), *L'intérieur du Maghreb (XV è - XIX è siècle)*, Paris, Gallimard, 1978, p.405.

فرنك فرنسي آنذاك) و١٠٠٠ دورو (٥٠٠٠ فرنك فرنسي) (٢٢). هذا وتحولت هدايا المرابطين لدى بعض الحكام والموظفين إلى أسلوب تعامل ووسيلة لكسب عطف "المرابط" وتعاون أتباعه معهم، فكانت عاملا أساسيا في تأكيد صلات المودة والصداقة والتعاون بين شيوخ الزوايا من جهة وحكام الجزائر وموظفي البايليك من جهة أخرى، كما سوف نتطرق إليه عند تناولنا للعلاقة بين الزوايا والسلطة المركزية بالجزائر.

أما **الزكاة والعشور** التي تعود للزاوية فيقوم بجمعها طلبة الزاوية ومريدوها وأتباعها في مواطنهم الأصلية أو عند تنقلهم إلى الجهات البعيدة عن مكان الزاوية أملا في أن يجدوا الاستجابة والتعاون في هذا الشأن، فيعرفون في تنقلهم هذا بفضل المرابط ومكان زاويته، ويحصلون على إعانات مادية للزاوية وقد ينجحون في تجنيد الأتباع لخدمة المرابط واستمالة السكان لتأييد الزاوية. أما موسم الخروج لجمع الزكاة والعشور لفائدة الزاوية فعادة ما يكون مع حلول فصل الصيف الذي يتوقف فيه بعض الطلبة عن الدراسة ويكون سكان الريف منهمكين في حصاد حقولهم وجني الثمار من بساتينهم، وقد يؤجل بعض الطلبة والأتباع خروجهم إلى فصل الخريف وهو وقت جني الزيتون، أو يعجلون به في فصل الربيع أملا في جمع كميات من القديد ومقادير من الزيت.

لقد شكلت المواسم الدينية، أي عيد الأضحى (العيد الكبير) وعيد الفطر (العيد الصغير) ومحرم وعاشوراء والمولد النبوي، مواعيد مهمة لجمع الزكاة والعُشور لفائدة الزاوية خاصة من أتباعها ومريديها الملتزمين أدبيا بتقديم الهدايا الموسمية للزاوية عن طواعية وبفخر واعتزاز، عكس استجابتهم لمطالب السلطة المركزية (البايليك) التي كانت تتم غالبا بالإلزام أو الالتجاء إلى استعمال الضغط الذي يصل إلى حد تجريد الحملات العسكرية (المحلات).

يضاف إلى هذه المداخيل مردود **أوقاف الزاوية** من الاراضي والأملاك العقارية التي خصصت للإنفاق عليها من طرف ذوي التقوى والصلاح، أوالتي آلت إلى الزاوية عن طريق الهبة وحولت إلى أوقاف تابعة لها ليستفيد القائمون على الزاوية من مردودها، وهذه الأوقاف عادة ما يتولى خدمتها أتباع الزاوية الذين يعرفون لدى العامة "بخدم الزاوية"، وقد يعطى لهم

(٢٢) Daumas (E.), *La vie arabe...*, op.cit., p.452.

مقابل خدمتهم لها خمس الإنتاج، هذا إن لم يلتجأ المشرفون على الزاوية في خدمة الأرض الموقوفة عليها إلى العمل التطوعي الموسمي المعروف محليا "بالتويزة".

ومما يلاحظ أن أوقاف الزوايا ببلاد القبائل وباقي أقاليم البلاد الجزائرية لم تعرف تطورا ملحوظا في الوسط الريفي عكس ضواحي المدن والجهات القريبة منها التي تحولت أغلب الأراضي بها إلى أوقاف خيرية (٢٣) ؛ ولعل من الأسباب التي حَدّت من توسع أوقاف الزوايا بالريف كون المجتمع القبلي المحلي القائم على اقتصاد تكاملي معيشي، كان يتكفل بخدمة الزاوية ويقوم بتغطية مطالبها، مما سمح ببقاء أغلب الأراضي الزراعية والأملاك العقارية ملكيات فردية لأفراد القبيلة، أو ساهم في ترك مساحات مشاعة بدون استغلال لتلبية الحاجات الجماعية للقبيلة سواء في الاستغلال الزراعي أو الرعي أو جمع الحطب. كما حد من انتشار وقف الزوايا بالريف القبائلي ميل العديد من المرابطين إلى اعتبار الاراضي الزراعية التابعة للزاوية بمثابة ملكية خاصة للأسرة وليس وقفا على الزاوية، وهذا ما حول أملاكها ومنها أوقاف كثيرة إلى ما يمكن أن نعتبره بمثابة "إقطاع" لشيخ الزاوية ولعقبه كما هو الشأن بالنسبة لزاوية ابن علي الشريف بشلاطة التي توسعت أملاكها العقارية بوادي الصومام خاصة، وكذلك زاوية صدوق التي كانت أملاكها الزراعية قبل تعرضها للمصادرة من طرف الفرنسيين (١٢٨٨ هـ/١٨٧١م)، تبلغ ٥٠٢,٥ هكتار، تشتمل على ٦٢ مزرعة و٦ بساتين بها ١٤٥٢٨ شجرة زيتون، و٦ أحواش (ضيعات) بها ٤١ غرفة و١٥ دكانا ومخزنا للتجارة و٣ إسطبلات و٣ رحى ومعصرة زيتون واحدة (٢٤).

وما دامت الإحاطة الشاملة بأوضاع الزوايا ببلاد القبائل شيء متعذر لطبيعة هذا البحث الذي يقتضي التركيز والاختصار ولنقص الوثائق المتعلقة بالزوايا بعد ضياع الكثير من سجلات وتقاييد وكلاء الزوايا وإتلاف الأوراق الخاصة بشيوخها عند تعرضها للغزو الفرنسي في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، فإننا نكتفي في هذا البحث بتعريف مقتضب بأهم

---

(٢٣) ناصر الدين سعيدوني، وضعية الأوقاف العقارية بفحص مدينة الجزائر أواخر العهد العثماني، ضمن كتاب دراسات في الملكية العقارية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٦، ص ص. ٧٧-١٠١.

Saïdouni (N.), *La vie rurale dans l'Algérois, de 1791 à 1830*, Thèse, Aix-en-Provence, 1988, T.I, pp.289-306 (Travail dactylographié).

(٢٤) راجع، يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مجلة الثقافة، عدد ٦٣/١٩٨١، ص ص. ١١-٢٨.

الزوايا الرئيسية، التي كان لها تأثير على مختلف أوجه الحياة في المجتمع القبائلي حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي (٢٥)، وهي حسب تاريخ نشأتها :

١- **زاوية سيدي أحمد بن إدريس**: مؤسسها سيدي أحمد بن إدريس، من أولياء القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، المشهود لهم بالصلاح والورع والتقوى، اشتهر لدى العامة والخاصة بعلمه وعمله، فأسس مدرسة لتلقين القرآن ومبادئ الدين (معمرة) بعرش إيلولن، بعدها تحول إلى آيت إيبورة عرش آيت علي أومحمد بحوز عزازقة، حيث أنشأ زاوية بهدف تحفيظ القرآن للطلبة وتنشئتهم على عمل الخير والصلاح، وبعد وفاته (٧٦٠هـ/١٣٥٨م) تحولت الزاوية إلى إشراف أسرة أواقوان التي ارتبطت بالزاوية وعملت على إقرار نظام محكم بها، إذ قسم فيها الطلبة بمقتضى هذا النظام إلى مجموعتين إحداهما مواظبة على التعلم وخاصة حفظ وتفسير وقراءة القرآن عرفت لدى العامة " بطلبة اللوح "، ومجموعة أخرى مهيئة لخدمة الزاوية وموجهة لتوفير الماء والخشب والمؤونة، مما أسبغ على سلوكها طابع الخشونة والقسوة وجعل أفرادها في نظر العامة بمثابة الصعاليك فعرفوا "بطلبة الدبوز"، قبل أن يتشتت شملهم إثر الاحتلال الفرنسي لبلاد القبائل (١٢٧٤ هـ/١٨٥٧م)(٢٦).

٢- **زاوية سيدي منصور الجنادي** : أسسها الولي الصالح والفقيه الورع الذي تحمل اسمه في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي بدشرة تميزار عرش آيت جناد، وقد جاء في قانون هذه الزاوية الذي أثبته بوليفة في ملحق كتابه " جرجرة عبر التاريخ " ما يذكر بمناقب مؤسسها بهذه العبارات التي توحي بمدى تقدير العامة له : "أن سيدي منصور نزل عندنا في القرن التاسع من القرون العربية (الهجرية) وكان من أكابر الأولياء في عصره، يفزع الناس

(٢٥) من المراجع التي تناولت هذه الزوايا، ؟ التي رجعنا إليها :

أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٩، ج.٣، ص ص.١٨٢-١٨٩.

أحمد ساحي، المصدر نفسه، ص ص. ١٨٣-١٩٩.

Hanoteau et Letourneux, *La Kabylie...*, op.cit, T.II, p.126.

Boulifa (S.A.), op.cit., p.

Aucapitaine (Le Baron H.), La zaouïa de Chellata, in *Extrait de mémoire de la Société de Géographie de Genève*, 1860, pp.2-21.

André (P.J.), *Contribution à l'étude des confréries religieuses musulmanes*, Alger, La maison des livres, 1956.

(٢٦) أبو القاسم سعد الله، المصدر نفسه، ج.٣، ص ص. ١٨٧-١٨٨.

دائما إليه وكان مجاب الدعوة وكثير العبادة والخلوة وصاحب كشف رباني... وكان أولياء هذا العرش (أي بني جناد) سلموا له الأمر يخدمونه ولا يخالفونه أبدا "(٢٧).

استطاعت زاوية سيدي منصور أن تكتسب الأنصار وتحظى بالاحترام وتواصل مهامها التعليمية وتؤدي خدماتها الاجتماعية بفضل التزام شيوخها ونشاط طلابها وخضوعهم لنظام داخلي محكم لتسيير الزاوية انطلاقا من أقدميتهم ومعارفهم ونوعية خدماتهم.

٣- زاوية سيدي عبد الرحمن بن يسعد المصباحي اليلولي : (توفي حوالي ١١٠٥هـ/١٦٩٣م)، من قرية خردوشن بيلولة أومالو ناحية عزازقة، عرفه محمد السعيد بن زكري في " أوضح الدلائل " بقوله : " أبو زيد عبد الرحمن بن يسعد المصباحي أو الخردوشي قرابة ونسبا اليلولي منشأ ووفاة الزواوي ناحية، فريد عصره في الرواية القرآنية، أخذ روايته من الولي محمد السعدي البهلولي... دفين غابة مزرانة خارج دلس..." (٢٨).

وعندما توفي بدون عقب أصبحت الزاوية تحت تصرف الطلبة المنتسبين إليها، فكان يتولى شؤونها المادية (التموين والموارد) بتزكية من مجمع الزاوية وكيل يعرف بمقدم الثمن بالتناوب لمدة شهر، ويسهر على أمورها العلمية (الدراسة والتربية) إلى وكيل الطلبة المعروف بمقدم العسكر بالتداول لمدة نصف شهر، وكان كل من مقدم الثمن ومقدم العسكر يختار من مجلس قدماء طلبة الزاوية المؤلف من اثني عشر طالبا المشهود لهم بالأخلاق الحسنة والسلوك الحميد.

٤- زاوية الشيخ الحسين بن أعراب : وهو من فقهاء ومصلحي القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، درس بمسقط رأسه ثم ارتحل إلى مصر فأخذ عن شيوخ الأزهر ومنهم الخرشي الذي درس عليه مختصر خليل، فاعتبر لدى الفقهاء بأنه أول من أدخل شرح الخرشي إلى المغرب الأوسط (الجزائر). وعندما عاد إلى موطنه أسس زاوية بقرية إيشرعيون بعرش نايث إراثن، فقصده الطلبة وتردد عليه الفقهاء مثل السعيد بن أبي داود

---

(٢٧) Boulifa (S.A.), op.cit., appendice n° 2.

(٢٨) الشيخ محمد السعيد بن زكري الجلادي الزواوي (ت. ١٣٣٥ هـ/١٩١٤م)، أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل، الجزائر، مطبعة فونتانا، ١٩١٣، ص. ٤٣.

الدعوة مثل محمد بن عبد الرحمن الأزهري صاحب الطريقة الرحمانية، ومنهم من كانت له مكانة في سلك الوظيف (البايليك) مثل محمد الفريرة المشهور بالذباح والذي تولى بايليك التيطري وقيادة ساباو.

اهتمت زاوية الشيخ بن آعراب أساسا بتدريس الفقه وكانت في ذلك نموذجا لبعض الزوايا الأخرى، فقصدها الطلبة وكان عددهم يقدر بنحو ٢٠٠ ألى ٣٠٠ طالب قبل الاحتلال الفرنسي لبلاد القبائل، كما كانت هذه الزاوية مثالا في الصمود ضد الفرنسيين، فأعلن منها الشيخ عمر السحنوني الثورة على الفرنسيين، وكان لطلبتها (١٥٠ طالبا حسب إحصاء ١٢٨٥ هـ/١٨٦٨م) دور مهم في انتفاضة الرحمانيين (١٢٨٨ هـ/١٨٧١م)، فاستشهد العديد منهم وتشرد الكثير منهم، وإن ظلت الزاوية محافظة على نشاطها فيما بعد بفعل حنكة وحرص القائمين عليها [٢٩].

٥- **زاوية سيدي محمد بن علي الشريف** : تنتسب إلى مؤسسها سيدي موسى أوعلي سليل الولي سيدي عبد السلام بن مشيش الذي عاش في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وعرف منذ صغره بحبه للعلم والتزامه بالعمل الصالح وميله للتواضع والبساطة، رغم شخصيته القوية وتأثيره على من يتعامل معهم، فأصبح لديهم بمثابة الزعيم الروحي والحكم في الخلافات والمرجع في تقديم المشورة والنصيحة. وهذا ما شجعه على تأسيس زاوية خاصة به بموقع شلاطة بموطن بقبيلة إلولن أو سامر الذي تبعد باثني عشر كيلومتر عن مدينة آقبو الحالية، وقد اشتهر من أحفاده الشيخ سيدي محمد بن علي الشريف (توفي في النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري/النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي) الذي اشتهر بعلمه وعمله وعد من علماء عصره، فأفرد له تلميذه محمد العربي بن الموهوب العجيبي مصنفا يشيد فيه بمناقبه بعنوان "توشيح الخياطة بشمائل شيخ شلاطة" [٣٠]، خصه فيه بالعبارات التقدير هذه : " شيخنا الرباني وأستاذنا العرفاني أوحد زمانه في العلم والدين وشيخ أوانه في تربية المريدين ".

---

(٢٩) Turin (Y.), op.cit, Annexe I.

(٣٠) محمد العربي بن الموهوب العجيبي، توشيح الخياطة بشمائل شيخ شلاطة (مخطوط).

خلفه ابنه الشيخ سيدي محمد السعيد الذي وصلته الرسائل والهدايا من حواضر بعيدة مثل فاس وإستانبول (٣١)، وكان مواظبا على تربية المريدين وتدريس الطلبة وحريصا على الاتصال بالعديد من العلماء والحكام، فكانت له علاقات تعاون مع حكام الجزائر الذين أعانهم في القضاء على ثورة ابن الأحرش الدرقاوي (١٢١٩-١٢٢٢ هـ/١٨٠٤-١٨٠٧م)، فأرسلوا له الهدايا وحرروا الظهائر التي تؤكد مكانته وترعى حرمته. وقد حافظ على مكانة زاويته عندما اضطر إلى التعاون مع الفرنسيين عند احتلالهم لبلاد القبائل، وقلدوه منصب [باش اغا] الذي أكد هيبته لدى أتباعه ومريديه.

٦- **زاوية سيدي محمد بن عبد الرحمن القشتولي** : المكنى بأبي زيد والمعروف بالأزهري، من قبيلة آيت إسماعيل بعرش قشتولة، من أسرة تنسب إلى الأشراف ويعود أصلها حسبما توارد من روايات إلى المغرب الأقصى. كرس سيدي محمد بن عبد الرحمن حياته للتزود بالعلم والقيام بالتعليم وخدمة من اتصل به أو تعامل معه، فبعد أن تعلم بزاوية الشيخ بن أعراب أوالصديق شيخ نايث إراثن، انتهت به الرحلة في طلب العلم إلى أقطار المشرق، فأدى فريضة الحج حوالي سنة ١١٥٢ هـ/١٧٣٩م)، وأخذ العلم عن فقهاء الحجاز وعلماء الأزهر منهم سالم النفراوي وعمر الطلحاوي وحسن الجداوي والعمروسي، وتلقى تعاليم الطريقة الخلواتية عن الشيخ محمد بن سالم الحفناوي بالقاهرة أو مكة، واكتسب تجربة ميدانية في ممارسة الدعوة عندما توجه بوصية من شيخه إلى السودان وربما إلى تركيا والهند حسب بعض الروايات، وقد ذكر في رسالته إلى نقيبه بتونس بلحسن اليوسفي أنه أقام ست سنوات بدارفور أحد أقاليم السودان.

وعاد سيدي محمد بن عبد الرحمن إلى مواطن قبيلة آيت إسماعيل في صيف عام ١١٧٧هـ/١٧٦٣م بعد غياب دام حوالي ربع قرن، فانقطع للعبادة بها وعظم أمره وذاع صيته في تلك الجهة، مما سمح له بتأسيس زاوية يعلم بها مبادئ الطريقة الخلواتية قبل أن يتميز بطريقته الخاصة (الرحمانية) ويسمح لنفسه بمنح الإجازة لمن درس عنه، فكان أول من أجازه تلميذه ومريده سيدي بلقاسم بن محمد من شرفة تاجويت (عرش مقاطعة)، وبعدها كثر من أخذ

---

(٣١) Lapène (E.), *Vingt-six mois à Bougie. Notice historique, morale, politique et militaire sur les Kabaïles*, Paris, Anselin, s.d., p.144.

عنه وحصل على إجازته، اشتهر منهم الشيخ محمد التيجاني وسيدي العابد بن الأعلى الشرشالي، ومحمد عنتر البتروني.

كان سيدي محمد بن عبد الرحمن، مع نشاطه العلمي والدعوي بالزاوية، يتردد على مدينة الجزائر، فاكتسب بها الأتباع والمريدين وكان محل مراقبة وتخوف من الحكام ومنافسة وتحرش من الفقهاء، ولم يطل به الأمر حتى توفي سنة ١٢٠٨ هـ/١٧٩٣م بمدينة الجزائر أو بزاويته بآيت إسماعيل حسب بعض الروايات، فصمم أتباعه ورجال قبيلته على دفنه بزاويته بآيت إسماعيل، بينما حرص حكام الجزائر على دفنه خارج الجزائر لتكون زيارة أتباعه الكثيرين لضريحه تحت نظرهم ؛ وقد انتهي الخلاف بتصديق ما تردد بين الناس بأن ضريحه ما يزال بفحص الحامة خارج مدينة الجزائر رغم أن جثمانه حمل إلى زاويته بالقبائل، فسلم الجميع بذلك اعتقادا في بركة الولي التي حالت دون نشوب نزاع بين الطرفين، فعرف من يومها لدى العامة بسيدي محمد بوقبرين (صاحب الضريحين) (٣٢).

---

(٣٢) حظي سيدي محمد بن عبد الرحمن وطريقته الرحمانية بدراسات وافية مختلفة الاتجاهات ومتعددة الأغراض، نذكر منها:

أبو القاسم سعد الله، المصدر نفسه، ١٩٩٩، ج.١، ص ص. ٥٠٦-٥٠٩، ج.٣، ص.١٣٩.

أبو القاسم محمد الحفناوي، المصدر نفسه، ص ص. ٤٥٠-٤٥١.

مقران يسلي، الحركة الدينية والإصلاحية في منطقة القبائل (١٩٢٠-١٩٥٤ م)، رسالة ماجستير، الجزائر، ١٩٨٣، ص ص. ١٧٩-٢٦٨ (غير مطبوعة).

Archives nationales d'Outre-mer, Aix-en-Provence, 16 H. 1, Note sur l'ordre religieux de Sidi Mohamed ben Abderrahman Bou Kabrin

Robin (Colonel), *L'insurrection...*, op.cit., pp.32-35.

André (P.J.), op.cit., pp.265-266.

Copolani (X.) et Dupont (O.), *Les confréries religieuses musulmanes*, Alger, A. Jourdan, 1909, pp.365-383.

Hanoteau et Letourneux, *La Kabylie...*, op.cit, T.I, p.95.

Salhi (M.B.), *Etude d'une confrérie religieuse algérienne : La Rahmania*, Thèse, Ecole des Hautes études, Paris, 1979, pp.55-77 (Travail dactylographié).

Hamdan Khodja, *Le miroir. Aperçu historique et statistique sur la Régence d'Alger*, Paris, Sindbad, 1985, p.50.

Delpêch (A.), un diplomate de Mokaddem de la confrérie religieuse Rahmania, in *Revue africaine*, T.18/1874, pp.418-420.

Rinn, Marabouts et khouans. *Etude sur l'Islam en Algérie*, Alger, A. Jourdan, 1884, pp.452 et suiv.

De Neveu, op.cit., pp.89-95 et 113-116.

Dermenghem (E.), *Algérie religieuse...*, op.cit., p.255.

تولى أمر زاوية سيدي محمد بن عبد الرحمن ومشيخة الطريقة الرحمانية المنتسبة إليه الشيخ علي بن عيسى المغربي الذي عينه سيدي محمد بن عبد الرحمن قبل وفاته وزوجه ابنته وترك له كل ما يملك من أرض وكتب وأشهد على ذلك أهل آيت إسماعيل، وقد ظل سيدي علي بن عيسى يدير الزاوية بحنكة ويتولى أمر الطريقة مدة اثنين وأربعين سنة (من ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م إلى ١٢٥١ هـ/١٨٣٦م)، ثم خلفه الشيخ بلقاسم الحافظ من شيوخ المعاتقة، وبعده الشيخ البشير سنة ١٢٥٧ هـ/١٨٤١م، ثم الشيخ محمد بن بلقاسم نايت عنان، بعده تولى أمر الزاوية سيدي الحاج عمر البجاوي الذي التجأ إلى تونس عندما تعرضت الزاوية إلى التخريب في خريف عام ١٢٧٤ هـ/١٨٥٧م عندما اجتاح الفرنسيون منطقة القبائل، فانتقلت نتيجة ذلك رئاسة الطريقة الرحمانية إلى شيخ زاوية صدوق الشيخ محمد بن الحداد الذي عرف كيف يحافظ على نشاط الطريقة، فتكاثر عدد أتباعها وأصبحوا يقدرون في مستهل القرن الرابع عشر الهجري بنحو ٩٦٩١٥ منتسب حسب إحصاء الإدارة الفرنسية لسنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٤م (٣٣).

٣- التأثير الروحي والثقافي للزوايا ببلاد القبائل

كان للزوايا ببلاد القبائل تأثير روحي كبير سواء على سلوك العامة أو مواقف الخاصة، وكان هذا التأثير الروحي للزوايا الذي نعتبره أحد متطلبات المجتمع الريفي القبلي، يقوم على موقف في الحياة وممارسة في السلوك يتمسك بالتعاليم الإسلامية ولا يفرط في التقاليد القبلية المتوارثة. وهذا ما نحاول إجماله في النقاط التالية :

١- تعميق روح الانتماء والأخوة الإسلامية في الريف القبائلي بواسطة تربية أخلاقية وتوجيه روحي للعامة : أساسه المواظبة على العبادة وتلاوة الأوراد وحضور حلقات الذكر التي غالبا ما يرافقها الرقص والانشاد الجماعي وتميزها حالات الوجد والانجذاب الروحي، مما يجعلها في بعض مظاهرها أقرب ما تكون إلى أسلوب الثقافات الهندية منها إلى سلوك

Boyer (P.), Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la Régence d'Alger (XVI è - XIX è siècles), in *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, n° spécial, 1970, pp.39-40.

Berque (J.), *L'intérieur, op.cit.*, pp.404-405.

(٣٣) Rinn (L.), op.cit., p.549.

المسلم العادي في أداء واجباته الدينية. على أن هذه المظاهر على ما فيها مما يعارض روح الإسلام البسيطة ويصطدم والمفهوم السلفي في السلوك والعمل إلا أنها كانت الوسيلة الفعالة والطريقة المثلى لإيجاد وعي اجتماعي وغرس توجه ثقافي بل نشر قناعات سياسية لدى البسطاء من سكان الريف أساسها الإسلام كمعتمد وإطارها الحضارة العربية الإسلامية كنظوة ومنهج في الحياة، وقد أدى هذا الأسلوب وتلك الطريقة إلى تجاوب السكان مع كل قضية منطلقها الإسلام وهدفها المحافظة على قيمه، وأوجد توازنا روحيا لدى العامة وقناعات ثقافية لدى الخاصة من المجتمع القبائلي مما سمح باندماج منطقة القبائل في الإطار العام السياسي والثقافي للجزائر العثمانية.

لقد عوض نشاط الزوايا في توعية السكان وتوجيههم الروحي والثقافي ذلك الفراغ الذي أصبحت تعيشه حواضر المغرب الأوسط وبواديه بفعل الفوضى السياسية التي استفحلت أواخر العهد الحفصي والزياني وزاد من خطورتها الغزو الاسباني للسواحل واستيلائه على حواضرها، فعوض مرابطو الزوايا بالريف القبائلي ما كان يقوم به الفقهاء في فترة سابقة، فملأوا الفراغ وواجهوا الغزاة، ولعل هذا ما جعل الأستاذ أحمد توفيق المدني يقر بفضل الزوايا خاصة ببلاد القبائل لأنها حسب رأيه "استطاعت أن تحفظ الإسلام بهذه البلاد في حضور الجهل والظلمات" (٣٤)، وأن تعمق روح الإسلام لدى القبائل البربرية المعتزة بنفسها والمتشبعة بتقاليدها والمنعزلة في مداشرها وقراها. وقد دفع هذا الدور الذي لعبته الزوايا الكاتب دونوفو إلى إرجاع روح المقاومة ضد الفرنسيين إلى شيوخ الزوايا الذين اتهمهم بالتعصب بقوله : " إن المعلمين الأهالي (أي شيوخ الزوايا) المتشبعين بمبادئهم والذين يغذيهم حقد لا هوادة فيه ضد النصارى ويعميهم التعصب الأعمى، يحاولون دائما أن يلقنوا الجيل الصاعد هذه المبادئ، وهو الجيل الذي خرج ضدنا وقاومنا" (٣٥).

من جهة أخرى عملت الزوايا على غرس روح الانتماء الإسلامي وتأكيد الأخوة الإسلامية انطلاقا من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، مثل قوله تعالى "أن أكرمكم عند الله أتقاكم"، ومن قبيل الحديث الشريف أن "المسلمين كأسنان المشط" وأن "لافرق بين عربي وأعجمي إلا

---

(٣٤) أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، الجزائر، المطبعة العربية، ١٩٣١، ص.٣٧٥.

(٣٥) De Neveu, *d'après Turin*, op.cit., p.109.

بالتقوى"، وهذا ما ساعد على إزالة الحواجز النفسية والفوارق الاجتماعية بين أفـــراد القبـــائل وخلق انسجاما نفسيا بين ذوي الغنى ومن يعيشون على الكفاف، وأكد في الوقت نفسه التـــآلف بين أفراد القبيلة الأشراف منهم والعامة، وهذا ما جعل الزاوية بمثابة مؤسسة مرجعية للمجتمع الريفي ببلاد القبائل تحافظ على استقراره وتعمل على اندماج عناصره.

٢- **تأطير سكان القبائل روحيا وتوجيههم سياسيا** : فالزوايا التي ساعد علـــى تطورهـــا ازدياد ضغط النصارى على سواحل بلاد القبائل منذ القرن الثامن الـــهجري (الرابـــع عشـــر الميلادي) ونجاح الإسبان في تدمير مركز الثقافة الإسلامية بالمنطقـــة وهـــي مدينـــة بجايـــة (٩١٦هـ/١٥١٠م)، وغياب بل انعدام السلطة المركزية القوية القادرة على الدفاع عن السكان ورعاية مصالحهم والاستجابة لمطالبهم، أصبحت بلاد القبائل في مثل هـــذه الأوضـــاع، منـــذ أواخر العهد الحفصي وطيلة الحكم العثماني وحتى السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي للمنطقـة (١٢٧٣ هـ/١٨٥٦م)، مجالا قبليا مغلقا على نفسه وبيئة ريفية لا تتقبل أي جور وتعسف مـن ممثلي السلطة (رجال البايليك) وإن كانت لا تتردد في التعاون مع الحكام (دايات الجزائـــر)، وكانت الزوايا في هذه الأوضاع الإطار الملائم لتجنيد السكان لمقاومة الغزو الأجنبي باعتبـــار ذلك جهادا مقدسا، فتكفي صيحة واحدة لجمع السكان حول المرابطين لمواجهة الغزاة حســـبما عبر عنه تقرير فرنسي أوائل عهد الاحتلال (٣٦).

هذا وتكمن قدرة الزوايا على تأطير السكان في نوعية تنظيمها وسرعة تجنيد المتحمســـين من أتباعها للدفاع عن حرمة الدين وشرف القبيلة، وهذا ما رأت فيه التقارير الفرنسية عندمـــا واجه الجيش الفرنسي مقاومة القبائل موقفـــا وصـــف بـــالتعصب الدينـــي (Le fanatisme religieux)، الذي سوف يأخذ به في دراسته من تأثر بأدبياتهم من أجيـــال المنطقـــة لاحقـــا، فيعتبرون النزعة الإسلامية المرتبطة بالزوايا منافية للحضارة ومناقضة للتقدم (٣٧).

(٣٦) Archives nationales d'Outre-mer, Aix-en-Provence, F80/1674, Administration des tribus arabes, Blida, 1842, p.16.

(٣٧) Archives nationales d'Outre-mer, Aix-en-Provence, 1 G H. 1, Affaires arabes, circulaire envoyée du Cabinet du Gouverneur général au généraux commandants les divisions, Alger, 29 mai, 1849.

إن الزوايا بهذا النشاط الروحي كانت المؤطر الوحيد لتوجيه وتجنيد السكان لمقاومة الأعداء، في فترة توارى فيها الحكام أو الزعماء المحليون عن الساحة، وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن الزوايا بهذه المهام وفي تلك الفترة قامت بما تقوم به اليوم الأحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية بالترويج لقناعات فكرية وقيم حضارية وحتى بث قناعات إيديولوجية، فهي بحق "داعية سلام وعامل على نشر الإسلام" حسب تعبير الحاج صدوق في دراسته عن واقع الزوايا ببلاد القبائل (٣٨).

٣- توفير تربية شعبية تقوم على ثقافة دينية بسيطة وعلى سلوك أخلاقي متعارف عليه: يقوم على الاعتقاد بكرامة الشيخ والانضباط لأوامره والطاعة لنصائحه وتقليد سلوكه والاقتداء بتوجيهاته. وقوام هذه الثقافة الشعبية العميقة والمؤثرة تعليم مبادئ العبادة وتلقين الأدعية وبعض الآيات والأحاديث والمواعظ ورواية كرامات الشيخ ومناقبه، مع شروح خاصة أساسها قصائد صوفية ومدائح نبوية ورواية أخبار الصالحين وأصحاب الولاية، وغالبا ما يعتمد في ذلك على كتاب دلائل الخيرات وتنبيه الأنام.

تأخذ هذه الثقافة الدينية البسيطة شكل حلقات ذكر يؤطرها مقدم الزاوية أو وكيلها وينشطها المريدون، وذلك عندما يتوافد الزوار على ضريح الزاوية أو يقبلون على التبرك بشيخها أثناء المناسبات الدينية المخصصة لذلك وخاصة المواسم الدينية التي يتوفر فيها الأكل للجميع ويتم أثناءها التعارف بين الغرباء، فتقضى الحاجات وتتردد طلقات البارود، ويقبل الجمع على حلقات ذكر جماعية تختلط فيها طقوس العبادة بحفظ الأذكار وبترديد الأدعية حسب منهج الطريقة المتبعة أو الاسلوب الذي يلتزم به شيخ الزاوية، وقد تستغرق هذه الحلقات وقتا طويلا يبدأ فيه الذكر بالتدريج حتى يصل فيه الأتباع (المريدون) إلى منزلة الحال وهي مرحلة الانجذاب والوجد، يعقبها إعطاء الشيخ الورد لبعض الأتباع الذين يلتزمون بنصائحه ويواظبون على الأخذ بطريقته الخاصة في العبادة (٣٩).

---

(٣٨) Hadj Sadok (M.), op.cit., p.381.

(٣٩) للتعرف أكثر على مظاهر الاحتفال بالزوايا وحلقات الذكر وأخذ الورد، راجع :

أبو القاسم سعد الله، المصدر نفسه، ج. ١، ص. ٥٠٨.

Daumas, *Expansé...*, op.cit., p.15.

Daumas, *La vie arabe*, op.cit., pp.466-470.

وقد استطاعت الطريقة الرحمانية أن تكتسب رضا جل شيوخ زوايا بلاد القبائل، فأخذوا بها في الذكر وأخذوا الميثاق ولم يمانعوا في الانتساب إليها، وقد ساعد على ذلك نشاط أتباعها ومرونة المنتسبين إليها وتعاملهم مع الواقع الشعبي باعتقاداته البسيطة ومعاملاته الخاصة، وقبولها لما يصدر عن العامة ولو كان يتنافى ظاهريا مع تقاليد السلف الصالح، وهذا ما سمح بالتسليم ثم القبول مع الوقت بالكثير من الخرافات والبدع، مما جعل رجال الإصلاح منذ منتصف القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) في موقف معادي لسلوكات أغلب شيوخ الزوايا، وكان في مقدمة هؤلاء المصلحين الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس وصحبه الذين حاربوا جاهدين تلك السلوكات التي طبعت موقف أصحاب الزوايا الذين أصبحوا يعرفون بالطرقية [٤٠].

لقد أصبحت الطريقة الرحمانية منذ أواخر العهد العثماني الطريقة الغالبة على زوايا بلاد القبائل، وهذا ويوجب علينا في هذا البحث التعرف على ما تتميز به من معاملات وأذكار. فقد استمدت الطريقة الرحمانية أصولها من الطريقة الأم التي أخذ بها سيدي عبد الرحمن في مصر وهي الطريقة الخلواتية، وأخذت منها الكثير من الأذكار والمعاملات الخاصة وطورتها حسبما يتلاءم ومفهوم العامة وميول الخاصة الدينية والثقافية، فأصبحت الرحمانية تقوم نتيجة ذلك على أخذ العهد (الورد) مدة العمر من المريدين، وتنظملهذا الغرض جلسات ذكر تبدأ بالتعوذ من الشيطان الرجيم والاستغفار والتشهد وقراءة الفاتحة وبعض الأدعية، ويكتسب الزائر صفة المريد بحرصه طيلة حياته على ذكر الله وتكرار الشهادة طيلة أيام الأسبوع (من عصر الجمعة إلى عصر الخميس)، وترديد الدعاء الذي أخذ به الشاذلي وهو " اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه " بعد عصر الخميس إلى عصر الجمعة، مع المواظبة على

Daumas, *Mœurs...*, op.cit., pp.159-160.

Brosselard, op.cit., pp.12-13.

Mercier (E.), *Etude sur la confrérie des Khouans Sidi Abdelkader El-Djilani*, Constantine, L. Arnolet, pp.8-10.

Hanoteau et Letourneux, op.cit, T.II, p.85.

Hadj Sadok (M.), op.cit., p.365.

Emerit (M.), op.cit., pp.10-11.

(٤٠) وهذا ما كرسته أدبيات جمعية العلماء المسلمين (راجع كتابات الشيوخ عبد الحميد بن باديس ومبارك الميلي ومحمد البشير الإبراهيمي)، وأخذت به الدراسات الحديثة حول قضية الإصلاح، نذكر منها على سبيل المثال: مقران يسلي، المصدر نفسه.

قراءة الفاتحة والاستغفار والتشهد مائة مرة في اليوم، والتقيد بسلوك الرحمة والاحسان والعطف على الفقراء والمساكين ويكون عمله طاعة لله واتباعا لسنة رسوله محمد (ص).

بمثل هذا التوجه والنشاط استوطنت الطريقة الرحمانية ببلاد القبائل واستطاعت استيعاب الموروث الديني للمنطقة، فتجاوبت مع مزاج وميول المجتمع القبلي المحلي، وأقبل عليها المعدومون من سكان الريف وأشاد بها مداحون وشعراء محليون منهم الشيخ أبو القاسم الرحموني القسنطيني، مما أكسبها حيوية وجعلها بمثابة تنظيم اجتماعي يحافظ على الهياكل المتوارثة ببلاد القبائل التي عرف شيوخ الرحمانية بتبنيها وتوجيهها توجها دينيا يتماشى وقناعات العامة وتطلعات الخاصة، التي يمتزج فيها الميل للتصوف والتشبث بالقواعد الاجتماعية والخضوع لمتطلبات الحياة البسيطة القائمة على الاعتقاد الفطري، ولعل هذا ما أعطى للطريقة الرحمانية طابعا جزائريا محليا ومكنها من أن تنتشر خارج بلاد القبائل بالأقاليم الوسطى والشرقية للجزائر وجهات الزيبان ووادي ريغ وسوف والجريد، وأصبح لها أتباع حتى بمدينة تونس. هذا ما جعلها الطريقة الأولى بالبلاد الجزائرية من حيث الانتشار وكثرة الأتباع، ففي إحصاء سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٤م، كان عدد أتباع الرحمانية (الإخوان) يقدر بنحو ٩٦٩١٥ فرداً من مجموع ١٦٩٠٠٠ منتسب إلى ١٦ طريقة تشرف على ٣٥٥ زاوية [٤١].

٤- تأكيد دور المرابط وشيخ الزاوية على حساب الفقيه وزعيم القبيلة : فقد كرست الزوايا ببلاد القبائل تراجع دور الفقيه المرتبط بالحكام والمقيم بالمدينة والمتعامل مع القياد والشيوخ والمتحمس من الاعتقادات الشعبية التي لا تسلم بها السنة النبوية ولا تقرها المراجع الفقهية. وكان خراب بجاية واضمحلال مدينة دلس وبرج حمزة وصعوبة الاتصال بمدينة الجزائر، منذ أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، من العوامل المساعدة على تحول شيوخ الزوايا من ممارسة مهام "الفقهاء" إلى القيام بواجبات "المرابطين"، فتحرر بذلك الريف من تأثير المدينة وحدث نفور بل تعارض بين ميول فقهاء المدن وخاصة مدينة الجزائر وتوجهات شيوخ الزوايا ببلاد القبائل خاصة. وقد تجلى ذلك النفور والحذر بين فقهاء المدينة ومرابطي الريف في الفتوى التي أصدرها علماء مدينة الجزائر في شأن التعاليم

(٤١) Rinn (L.), op.cit., p.549.

والطرق التي أخذ بها سيدي محمد بن عبد الرحمن القشتولي مؤسس الطريقة الرحمانية والتي رأوا فيها ما يتنافى ومبادئ الدين الصحيح، التي تنفي وجود واسطة بين العبد وربه، وحسبما يفهم من بعض الروايات أن المجلس العلمي المنعقد بالجامع الأعظم بالجزائر تراجع سرا عن هذه الفتوى بدافع التخوف من مغبة غضب العامة وبتدخل من حكام الجزائر الذين خشوا أن تتسبب تلك الفتوى في فتنة تعم بلاد القبائل والجهات القريبة منها (٤٢).

وبالفعل فإن تركز السلطة بالمدينة جعل نشاط الفقهاء ينحصر في أمور العبادة والتعليم وبعض الوظائف القضائية والمهام المرتبطة بها، مثل الإشراف على رعاية الأوقاف وتصدر النشاط الثقافي، فيما سمح تضاؤل سلطة الحكام في الريف وخاصة ببلاد القبائل لشيوخ الزوايا بتجاوز إطار الخدمات الدينية والتعليمية التي قنع بها فقهاء المدن إلى ممارسة دور الموجه ومهمة القاضي والحاكم، فأصبحوا سلطة حقيقية مستقلة بشرعيتها وبمصادر تمويلها ونشاطها الخاص، مما جعلهم متعاملين مستقلين عن السلطة وفي أحسن الأحوال حلفاء لها، فيما ظل الفقيه بالمدن الجزائرية مراقبا حتى في نشاطه الديني والتعليمي وبعيدا عن مصادر القرار، فأرقى ما قد يصل إليه وظيف قار المورد ومحدد الصلاحيات.

٥- **إقرار التقاليد المتوارثة وشيوع الاعتقاد الشعبي البسيط في كرامات شيوخ الزوايا (المرابطين)**: وهذا ما عمل على تعميق الإيمان في القلوب وأرضى ميول سكان المنطقة. فالزوايا لم تكن في بلاد القبائل أداة تجديد في الفكر وتغيير في السلوك، وإنما كانت عامل رضاء نفسي وروحي، فلم تحارب الخرافات ولم تقف في وجه البدع والدروشة والأباطيل بمفهوم خصومها في فترة لاحقة من دعاة الإصلاح في العشرينيات من القرن العشرين.

إن الحكم التاريخي الذي يتجاوز ما قد تؤاخذ عليه الزوايا بجرجرة من انقطاع عن مصادر الفكر الإصلاحي الإسلامي وعدم استجابتها في وقت لاحق لحركاته التجديدية، يرى أن موقف شيوخ الزوايا من التقاليد المتوارثة كان صادرا عن حكم موضوعي وواقعي، لأنه لم يكن

---

(٤٢) لم يصلنا النص الحرفي لهذه الفتوى التي ورد ذكرها في العديد من المراجع، منها :

Rinn (L.), op.cit., p.454.

Dermenghem (E.), *Le culte des marabouts...*, op.cit., pp.254-259.

André (P.J.), op.cit., pp.265-266.

Salhi (M.B.), op.cit., p.77.

يتجاوز مستوى مدارك العامة ولم يهمل ظروف الريف الجزائري في العهد العثماني وخاصة بلاد القبائل. فالزوايا من خلال نشاط شيوخها حاولت ونجحت في ممارسة مقبولة وتطبيق عملي وملائم للإسلام في الوسط الريفي المغلق على نفسه، فأخذت بإسلام الاعتقاد في الغيبيات والتوجه إلى العاطفة وابتعدت عن إسلام النصوص والدراسة الفقهية، فتقديس الولي والاعتقاد في كرامة شيخ الزاوية والقيام بطقوس أخذ الورد [أو العهد] وتعاليم الطريقة شيء ضروري للتعامل مع الذهنية القبلية في الريف، بل أقصر الطرق لتعميق الإسلام وانتقاله من تلقين المبادئ النظرية وممارسة مقننة للعبادة إلى حافز روحي يوجه الشخصية ويتحكم في السلوك ويستجيب للقلق النفسي ويبعد الحيرة الروحية، وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن الإسلام الفعلي لكثير من الجهات الجبلية في بلاد المغرب العربي ومنها منطقة القبائل، اكتمل وتعمق في مطلع العصور الحديثة مع انتشار حركة التصوف والانتساب للطرق الدينية، وقد كانت مؤشرات هذا التحول الجذري في معطيات الشخصية الجزائرية هو تلك القباب المتناثرة والأضرحة الكثيرة، وبذلك أصبح الإسلام في البلاد الجزائرية وخاصة منطقة القبائل ليس معتقدا فحسب وإنما هو جزء من الشخصية وموقف من الحياة، وهذا ما لاحظه ألفرد بل (A. Bel) في دراسته للإسلام ببلاد المغرب وعبر عنه بقوله : " إن الإسلام يكتسب كل يوم مجالات أكبر بفضل عمل الطرق الدينية وسط القبائل البربرية "(٤٣).

" Dans les tribus berbères, l'Islam gagne tous les jours du terrain par l'action des confréries religieuses... ".

٤- المهام التربوية والتعليمية للزوايا ببلاد القبائل

من الخدمات الضرورية التي توفرها الزوايا للمجتمع الريفي ببلاد القبائل التكفل بالتعليم وتلقين المبادئ الدينية والمحافظة على القيم التربوية حسبما تقتضيه التقاليد المحلية والأعراف المتوارثة وتنص عليه أحكام الشرع وسيرة السلف الصالح.

يقوم التعليم بالزوايا على تربية خلقية ومعارف ثقافية أساسها حفظ القرآن وتعلم المعارف المتصلة به، وهذا ما فرض على الزوايا أن تتحقق من سيرة الطلبة المنتسبين إليها، فيشترط على الطالب الذي يلتحق بالزاوية لأول مرة السيرة الحسنة والأخلاق الفاضلة، فيبحث عن سلوكه ويتحقق فيه، وهذا ما أشار إليه الشيخ محمد السعيد بن زكري في أوضح الدلائل، في

---

(٤٣) Bel (A.), *Coup d'œil sur l'Islam en Berbérie*, Paris, E. Leroux, 1917, p.72.

معرض كلامه عن زاوية سيدي منصور الجنادي، بقوله : " اعلم أنه جرت عاداتهم بأن كل وارد إلى هذه الزاوية يقصد القراءة، لا بد أن يبحث عنه بحثا تاما حتى يكون عندهم معروف الاسم والعين والنسب والسيرة والبلد، فإن وجد في جميع ذلك على أحسن حال فإنه لا يناقش فيه مناقش بوجه ما "(٤٤).

وعندما يلتحق الطلبة بالزاوية لأول مرة يوزعون على حلقات لحفظ القرآن وتعلم مبادئ الكتابة والقراءة، ويقسم وقتهم بين الحفظ والمراجعة وأداء الفرائض الدينية وحضور حلقات التلاوة، ولا يترك لهم من الراحة إلا العطلة الأسبوعية التي تبدأ عادة من مساء يوم الأربعاء بعد صلاة العصر إلى يوم الجمعة قبل صلاة المغرب، بالإضافة إلى المواسم الدينية التي تحتفل بها الزاوية (عيد الأضحى، عيد الفطر، عاشوراء، المولد النبوي)، وفترة الحصاد وجني المحاصيل التي تخلو فيها الزوايا من أغلب طلبتها، وذلك من نهاية فصل الربيع وحتى بداية فصل الخريف (من شهر جوان إلى شهر سبتمبر).

أما الدراسة اليومية فهي بالنسبة لهؤلاء الطلبة المبتدئين (القدادشة) فتبدأ من الصباح. فبعد قراءة الحزب وأداء صلاة الصبح ينشغل الطلبة بمحو الألواح[٤٥] وكتابتها وتصحيحها من طرف الحفاظ (الطلبة المتقدمون) وبإشراف المقرئ (الطالب)، وقد كان هذا الأسلوب المتبع في التلقين الشفوي والمنهج المعتمد على الحفظ والاستذكار الذي ظل يلتزم به المعلمون بالزوايا عائقا بيداغوجيا، فهو لم يسمح بتطوير مواهب الطلبة اللغوية بل حال دون اكتسابهم ملكة الفهم والتحليل والاستنتاج، وهذا ما تنبه له الشيخ محمد السعيد بن زكري الذي تعلم بزوايا بلاد القبائل وانتقد طرق التعليم بها في كتابه أوضح الدلائل واقترح ادخال إصلاحات على أسلوب التعليم بالزوايا وطريقة الدراسة بها(٤٦).

هذا وتوفر جل الزوايا تعليما متكاملا للطلبة المنتسبين إليها، يتدرج من مرحلة المبتدئين إلى مستوى المتقدمين في مدة غير محددة تتراوح ما بين خمس إلى عشر سنوات وتبدأ

(٤٤) محمد السعيد بن زكري، المصدر نفسه، ص. ٤٥.

(٤٥) كانت وسيلة التعليم بسيطة وفي متناول الجميع، فهي تعتمد أساسا على اللوح الخشبي المعالج والذي به ثقب في أعلاه ليسهل تعليقه، وهو عادة ما يطلى بطين ناعم يعرف بالصلصال، ويكتب عليه بالصمغ، وهو مسحوق مادة رماد الصوف "الودح"، مما يسهل تجفيف اللوح على الهواء ومحوه بالماء مرة أخرى.

(٤٦) محمد السعيد بن زكري، المصدر نفسه.

بالتحاق الطالب بالزوايا عادة في سن الرابعة عشر ؛ ويتدرج خلال دراسته في ثلاثة مستويات متعارف عليها ؛ المستوى الأول يكون خاصا بالطلبة المبتدئين المحجر عليهم باعتبارهم خاضعين للمراقبة، فيعرفون "بإيحجارن"، ويدعون "بالقدادشة"، ويكاد برنامجهم الدراسي يتلخص في استظهار سور القرآن وحفظ بعض الأحاديث وتعلم الخط والتدرب على مبادئ الكتابة ؛ أما المستوى المتوسط فهو خاص بالطلبة الذين يوجهون لتلقي مبادئ العلوم اللغوية والدينية وقواعد الصرف والنحو، ويعرفون بالمعادين أو المعيدين الذين منهم من يتعلم في الصباح ومنهم من يدرس في المساء، فيبدأ الطلاب بدراسة الكتب الأساسية في هذه المعارف مثل آجرمية وقطر الندى في النحو وابن عاشر والرسالة ومختصر خليل في الفقه مع التوسع في تفسير القرآن ورواية الحديث، وعادة ما يرتبط كل شيخ بمادة يدرسها ويشتهر فيها ؛ أما المستوى المتقدم الخاص بقلة من الطلبة يعرفون بالمنتهين أو المسبقين أو المحضرين أو المتقدمين، الذين تتركز دراستهم على معالجة المسائل الفقهية والأمور اللغوية ويهتمون بالرواية والتجويد وأحكام الفقه خاصة، وقد اشتهرت بعض الزوايا في هذا المستوى بتعليم متطور ذي مستوى عال يماشي وقد يتفوق على ما تقدمه بعض المعاهد الدراسية بالمساجد الكبرى بمدن الجزائر وقسنطينة وتلمسان ؛ وهذا ما أكسب شهرة لبعض الزوايا مثل زاوية بالخصوص زاوية سيدي أحمد بن إدريس في تجويد القرآن وزاوية سيدي منصور الجنادي في القراءات.

على أن أشهر هذه الزوايا من حيث المستوى التعليمي هي زاوية سيدي محمد بن علي الشريف بشلاطة، فقد نجحت في توفير تعليم متقدم في علوم الدين وفنون الفقه ومعارف الفلك والحساب، وعرف طلبتها بتفوقهم في القراءات ورواية الحديث، وقد حظيت بشهرة واسعة جعلتها مقصد الطلبة، فقد وصفها عبد الحي الكافي في فهرس فهارسه "أنها كانت مدرسة لعلوم الدين والفلك والحساب والنحو في زواوة وغيرها"(٤٧).

---

(٤٧) عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، نشر حسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢، ج.٢، توصية ١٠٠٢٧.

إن التعرف على المستوى التعليمي للزوايا ببلاد القبائل، يتطلب منا في هذا العرض ذكر أهم الفنون الدراسية والمقررات التعليمية التي كانت تدرس في أمهات الزوايا ببلاد القبائل(٤٨)، حسب الترتيب التالي :

– التفسير : ابن عطية، البيضاوي، ابن جزي، الجلالين، الجواهر الحسان، الواحدي.

– الحديث : الصحيحان (البخاري ومسلم)، الشفاء للقاضي عياض، مختصر بن أبي حمزة (في شرحه للأحاديث النبوية)، مصطلح الحديث بألفية العراقي (المصطلح).

– الفقه والفرائض : ابن عاشر، رسالة أبي زيد وشروحها، مختصر الشيخ خليل المعروف بسيدي خليل وشروحه(٤٩)، مختصر ابن الحاجب الفرعي، الوغليسية، موجز أحمد بن الطيب الرحموني، أحكام القضاء لابن عاصم، الرحبية في الفرائض، المواريث للشيخ الأخضري.

– أصول الفقه : منظومة ابن جزي، الخراز، ابن بري، الصغرى والكبرى للشاطبي (الشاطبتان).

– علم الكلام والتوحيد : المقاصد وشرحها للسعد التفتزاني، المنظومة الجزائرية، عقائد السنوسي الثلاث (السنوسية في حكم الكلام)، أم البراهين وشروحها، حاشية الشيخ عيسى اكتنائي والشيخ يحي الشاوي، العقائد النفيسة وشرحها، الجوهرة للقاني وشرحها، والكبير والصغير لناظمها.

– المنطق : السلم المرونق للأخضري، تهذيب السعد، الجمل للخونجي، مختصر السنوسي.

---

(٤٨) اعتمدنا في رصد هذه القائمة على عدد من المراجع منها :
الشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ (الحياة الثقافية)، الجزائر، ص ص. ١٥٢-١٥٣.
أبو القاسم محمد الحفناوي، المصدر نفسه.
أبو القاسم سعد الله، المصدر نفسه، ج. ١، ص ص. ٣٥٠-٣٥٢.
-Hadj Sadok (M.), op.cit., p.325.

(٤٩) سيدي خليل، كما هو متداول على ألسنة العامة، هو الشيخ خليل بن إسحاق الجندي المصري (ت. ٧٩٦ هـ/١٣٩٣م)، كان مختصره في الفقه محل عناية وشرح من قبل كثير من الفقهاء، منهم الدردير والخرشي وسيدي عبد الباقي والشيخ سالم والقناني وبهرام وغيرهم.

- التصوف : حكم بن عطاء الله، كتاب إسقاط التدبير، تأليف القشيري والشيخ زروق، الإحياء للغزالي.

- السير والأخبار : الوظيفة الزروقية، نظم الضمياطي، البردة، المتفرجة، أحزاب الشاذلي والنووي وابن سيد الناس.

- النحو والصرف : الآجرمية، ألفية ابن مالك وشروحها كالماكودي وابن عقيل والأشموني، وكذلك الكافية والتسهيل لابن مالك، شذور الذهب، قطر الندى، شرح بن يعيش على المفصل، مؤلفات ابن هشام الأنصاري، مؤلفات خالد الأزهري وهي التصريح والأزهرية وملحة الاعراب.

- البلاغة والعروض : متنة تلخيص المفتاح، الجوهر المكنون للأخضري، حواشي السعد والتفتراني، الخزرجية (في العروض) وشرحها للشريف الغرناطي، التلخيص وشروحه.

- الفلك (الهيئة) وحساب الأعداد (الغباري) : علم الفلك لأبي مقرع، السراج للأخضري، الدرة البيضاء في علم الحساب للقلصادي.

وقد ترتب على الاهتمام بجمع المقررات الدراسية العديدة أن أصبحت زوايا بلاد القبائل تتوفر على مجموعات ثمينة من المخطوطات في مختلف المعارف والفنون والعلوم اللغوية والفقهية، وأصبح لبعضها مكتبات غنية يحرص الشيوخ على المحافظة عليها ويعملون على إضافة ما استطاعوا اقتناءه أو نقله مما يقع تحت أيديهم من مخطوطات.

هذا وقد اشتهر بتدريس هذه المصنفات العديد من الشيوخ الذين عرفوا بغزارة علمهم وسعة معارفهم واطلاعهم على ثقافة عصرهم، تخرج أغلبهم من زوايا بلاد القبائل والقليل منهم استكمل تعليمه بالزيتونة والأزهر وغيرهما من معاهد الثقافة الإسلامية، وقد كان لبعضهم مساهمات علمية متميزة، ومنهم من وضع مقررات دراسية أصبحت مرجعا للطلبة، ومن هؤلاء الشيوخ(٥٠) على سبيل المثال لا الحصر:

(٥٠) للتعرف أكثر على تراجم هؤلاء الشيوخ، راجع :

أبو القاسم محمد الحفناوي، المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٣٤-٣٦، ٤٠٧-٤١٧، ٤٥٧-٤٧٤، ٥٤٤-٥٤٥.

الشيخ المهدي البوعبدلي، تراجم بعض مشاهير علماء زواوة (القبائل الصغرى والكبرى)، مجلة الأصالة، عدد ١٤-١٥/١٩٧٣، ص ص. ٢٦٥-٢٧٥.

- الشيخ أبو زكريا يحي العيدلي، صاحب زاوية تامقرا (ت. ٨٨١ هـ/١٤٧٦م)، له قصيدة "الوظيفة" التي شرحها محمد الخروبي.

- الشيخ محمد السعيد الحسين الورتيلاني (ت. ١١٩٣ هـ/١٧٧٩م)، اشتهر برحلته "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" وكانت له شروح عديدة منها شرح على المنظومة القدسية للشيخ عبد الرحمن الأخضري، وشرح على الصغرى للسنوسي وشرح على حاشية الكتاني على شرح السنوسي وشرح على منظومة "الوظيفة" للشيخ يحي العيدلي مع ذكر لبعض كراماته.

- الشيخ عبد الرحمن الصباغ المعروف ببوالبيلة، دفين بجاية (القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي)، له شرح على الوغليسية في التصوف والفقه لسيدي عبد الرحمن الوغليسي (٧٨٦ هـ/١٣٨٤م)، وله شرح آخر على البردة وقصائد في الرثاء والمدح.

- الشيخ أبو القاسم البوجليلي (ت. ١٣٠٧ هـ/١٨٩٨م)، له التبصرة في علم القراءات.

- الشيخ المتصوف أبو عبد الله محمد بن علي الشريف الشلاطي (ت. ١٣١٤ هـ/١٨٩٦م)، صاحب زاوية شلاطة، له معالم الاستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار (في الفلك) وضعه حوالي عام ١٢٩٢ هـ اعتمادا على كتاب مفيد المحتاج لحسن بن عثمان (التعريف بالأحبار المالكين الأخيار)، وله تقييد في الوعظ والأذكار وتأليف في حكايات الصالحين الأبرار، وفي التوسم والاستدلال على محاسن أخلاق النساء والرجال، وتفسير الغريب للمبتدئ القريب، وسيرة المصطفى وسير الخلفاء ومن بعدهم من الملوك العرفاء.

محمد الهادي الحسني، جوانب من شخصية الشيخ محمد بن أبي القاسم البوجليلي (١٨٢٩-١٨٩٨ م)، جريدة النصر، ١٩ نوفمبر ١٩٨١.

علي أمقران السحنوني، هذا الشيخ المجهول : الشيخ أبو زكريا يحي العيدلي، مجلة التاريخ، الجزائر، العدد ٤، ١٩٨٨، ص ص. ٣١-٥٢.

يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٥، ج. ١، ص.٤٢.

أحمد ساحي، الزواوة...، المصدر نفسه.

أحمد ساحي، أعلام من زواوة...، المصدر نفسه.

- الشيخ محمد العربي بن الموهوب بن مصباح اليعلاوي العجيبي (القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي)، له شرح لقصائد ثلاث من نظمه، في مدح أستاذه سيدي محمد بن علي الشريف، بعناوين متعددة : شمائل شيخ شلاطة أو روض الحدائق المنيف في مدح الشيخ ابن علي الشريف أو دور التعريف بالشيخ ابن علي الشريف.

- الشيخ محمد السعيد الزواوي، أحد شيوخ زاوية شلاطة (ت. ١٢٤٦ هـ/١٨٣٠م)، روى عنه عبد الحي الكتاني بواسطة المكي بن عزوز ورجع إليه في فهرسه.

- الشيخ أحمد بن الطيب بن صالح الرحموني، خريج زاوية سيدي محمد بن عبد الرحمن، وضع رجدا في الفقه (حوالي سنة ١٢١٢ هـ/١٧٩٧م) ظل قضاة جرجرة يرجعون إليه فيما يعرض لهم من أحكام.

- الشيخ محمد السعيد بن زكري، درس في عدة زوايا منها زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي وبني عيدل وبني وغليس (ت. ١٣٣٥ هـ/١٩١٩م)، واشتغل بالوظيف، له "أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل".

هذا ويمكن إجمال خصائص التعليم بالزوايا فيما يلي :

- يجمع التعليم في الزوايا بين تلقي المعلومات والالتزام بالآداب والسلوك حسب التقاليد الإسلامية المتعارف عليها، دون اهتمام كبير بمتطلبات الطالب وميوله أو مستوى إدراكه وتقبله، وإن كان الطلبة في بعض الزوايا يصنفون إلى طلبة اللوح المتفرغين للدراسة وطلبة الدبوز الموجهين للخدمة كما هو الحال في زاوية سيدي أحمد بن يوسف، وقد يقسمون إلى طلبة موجهين إلى علوم القرآن وآخرين متخصصين في العلوم اللغوية والفقهية.

- يقوم التعليم بالزوايا على الحفظ والتلقين، دون التركيز على الفهم والتحليل، ففي كل المراحل كانت طريقة التعليم تتلخص في قراءة أحد الطلاب فقرات أو نصوص من الكتاب المقرر، ليقوم المعلم بالتعليق عليها. أما في المستويات الأولى فيقوم نظام الدراسة أساسا على حفظ القرآن وترتيل الحزب الراتب عقب صلوات العصر والمغرب والصبح. وفي المستوى المتوسط يعمد إلى دراسة الشروح وإملاء النصوص ويكون ذلك فترتين أو ثلاث في اليوم. أما المستوى المتقدم فتكاد الدراسة تقتصر فيه على التعليق على المتون والحواشي.

– يعتمد التعليم بالزوايا على كتب متداولة ومتعارف عليها سبقت الإشارة إليها، ومن النادر أن يتجاوزها المدرس أو يخالفها الطالب. ويؤطر التعليم شيوخ مكلفون بالتدريس يساعدهم الوكلاء وهم قدماء طلبة الزاوية الذين يسهرون على شؤون الزاوية أو المعمرة ويراقبون الخدمات بها، مما أوجد نوعا من التكامل والتنسيق في أداء الزوايا لمهامها التعليمية.

– يقوم نظام الدراسة في أغلب الزوايا على تقسيم شيوخ وطلبة الزاوية إلى أربع مجموعات (طبقات) متدرجة في المكانة والصلاحيات والمهام، ففي زاوية سيدي منصور الجنادي، وهي نموذج للعديد من الزوايا ببلاد القبائل، كان الطلبة يصنفون حسب درجة تقدمهم في الدراسة، فهناك :

جماعة الأكابر أو الطلبة المتقدمون، وهم أهل الحل والعقد بالزاوية، يعود إليهم أمر التصرف في شؤون الزاوية وهذا ما سمح لهم بالنظر فيما يحدث من مخالفات وخول لهم فرض غرامات مالية بسيطة وإصدار أوامر للقيام بأعمال السخرة لفائدة الزاوية، ويبلغ عدد أفراد جماعة الأكابر عشرة، وقد يصل إلى خمسة عشر طالبا، يتولى كل واحد منهم أمر الجماعة بالتناوب لمدة شهر واحد ويعرف أثناءها بالمقدم وينظر إليه وكأنه شيخ الزاوية.

جماعة المقدمين، وهم قدماء طلبة الزاوية، وعددهم من ٦ إلى ١٠ طلاب، يتولون شؤون الطلبة بالتناوب لمدة شهر، ويعود إليهم النظر فيما يتعلق بسلوك الطلبة من أداء لصلاة الجماعة والمواظبة على حضور حلقات التدريس، وكل مخالف لذلك يعاقب بأشغال لفائدة الزاوية.

جماعة الوكلاء، وهم حوالي أربعين فردا، يتولى كل واحد منهم مهامه لرعاية شؤون الزاوية، ويكون ذلك بالتناوب لمدة شهر، وتتحدد مهام الوكيل بتلبية الحاجات المعيشية لطلبة الزاوية وضيوفها، مما يسمح له بمراقبة تناول الوجبات، ويعطى له الحق في البدء بالأكل بعد ذكر اسم الله التزاما بالأخلاق الإسلامية، وذلك ليكون قدوة للطلبة الذين يشاركونه الطعام.

جماعة القدادش، وهم مجموع الطلبة المتفرغين للدراسة والذين يكلفون عند الضرورة بقضاء حاجات الزاوية البسيطة من جلب الماء والحطب والقيام بأعمال النظافة.

- يوجه التعليم بالزاوية في مستواه المتوسط عادة إلى تلبية الحاجات الملحة للعبادات والمعاملات، فالحساب لعلاقته بالمواريث وممارسة التجارة، والفلك لمعرفة الزوال وأوقات الصلاة وتحديد طلوع الهلال، والمنطق لصلته بعلم التوحيد، والسيرة للتعرف على حياة الرسول (ص) ومآثر الصحابة (ض).

- ينتهي التعليم في أغلب الزوايا بحصول الطالب على إجازة تسجل فيها المواد التي درسها وأصناف المعارف التي تحصل عليها والمقررات الدراسية المرتبطة بها، وهي عادة ما تأخذ صيغة متعارف عليها من حيث العبارات والأسلوب، باعتبارها نوعا من التزكية يشهد فيها الشيخ بكفاءة تلميذه وتحصيله لما درسه عليه، وهذا ما يجعلها بعيدة عن مفهوم الشهادة الدراسية المتعارف عليها، بل تعد بمثابة تسريح من الدراسة يسمح فيها للطالب أن يرجع إلى موطنه أو إلى مكان آخر زيادة في العلم أو طلبا للرزق.

٥- الخدمات الاجتماعية والمهام الإدارية والمساهمات الاقتصادية للزوايا ببلاد القبائل

توفر الزوايا ببلاد القبائل خدمات اجتماعية ضرورية وتساهم بمهام اقتصادية حيوية، وهذا ما سمح لها أن تعوض السلطة المركزية في هذا المجال وتتكفل بما يقوم به الحكام عادة، فكانت بذلك عامل استقرار اجتماعي للقبيلة وانسجام للمجتمع الريفي المحلي، فمن هذه الخدمات والمهام الاجتماعية والاقتصادية التي حفظت مصالح المجتمع الريفي ببلاد القبائل، والتي كانت تتكفل بها الزاوية نذكر :

١- **التوسط في النزاعات بين الأفراد والقبائل :** فقد خول الوضع الاجتماعي لشيخ الزاوية أو مقدمها أو وكيلها أن يتدخل في النزاع بين الأفراد لإقرار الصلح بينهم أو التوسط بين القبائل لإرجاع السلم أو التوصل إلى هدنة مؤقتة بين العشائر أو الصفوف ؛ وعادة ما يسارع شيوخ الزوايا عند حدوث أي نزاع بتقديم النصيحة والمبادرة بالوساطة حتى يحولوا دون سفك الدماء، وحتى يحافظوا على التوازن الاجتماعي ويبقوا على مصالح الجميع. وفي بعض الحالات عندما يحتد النزاع كان شيوخ الزوايا يتدخلون لدى القبيلة المنتصرة لتتخلى على مكاسبها وتعتبر نفسها وكأنها هزمت حتى يحولوا دون إبادة القبيلة المنهزمة ويحفظوا لها كرامتها. كما أنه في حالة حدوث نزاع بين الصفوف (أحلاف القبائل)، وعندما يتعذر عليهم

جمع المتنازعين كان المرابطون (شيوخ الزوايا) يقومون بالاستماع إلى كل طرف على حدة ثم ينقلون آراءه إلى الطرف الآخر بوصفهم وسطاء محايدين ورجال دين فوق أي نزاع أو مصلحة أو اعتبار، بعدها يجتمع المرابطون والأعيان نيابة عن الجماعات المتنازعة لتقرير ما يرونه صالحا للجميع، وعندما تحظى الوساطة برضى أعيان القبائل تتعالى تصفيقات رجال القبائل ويطلق المحاربون منهم طلقات البارود إعلانا على إقرار السلم ونهاية النزاع. وهذا ما عبر عنه أوكابيتان (Aucapitaine) عندما وصف شيوخ زاوية شلاطة "بأنهم رجال سلام يحرصون على تقديم وساطاتهم الخيرة لإخماد روح الصراع التي أنهكت المجتمع المحلي"(٥١).

٢- **تقديم المساعدة والعون للفقراء والعجزة والمحتاجين** : فتوفر لهم الزوايا الإيواء والأكل وتمدهم بالضروري من اللباس، فكان الطعام المتمثل في الخبز الذي يحضر يوميا (الكسرة) والكسكس في متناول كل من يقصد الزوايا أو يمر بها، سواء كان طالبا يريد الإقامة بها للدراسة أو محتاجا يطلب العون أو مسافرا يلتمس المأوى أو عاجزا يرغب في الحصول على ما يسد به رمقه، وحتى الزائرين للزوايا من ذوي العاهات والمصابين بالأمراض يقدم لهم بالإضافة إلى الأكل ما يخفف عنهم آلامهم في شكل علاج بسيط وقد يجدون في ذلك راحة نفسية لاعتقادهم في بركة شيخ الزاوية.

بهذا النشاط عملت الزوايا على الحد من شيوع مظاهر البؤس الاجتماعي وساهمت بصفة أساسية في ابعاد شبح الجوع والتشرد عن سكان الريف، فكان دور الزوايا ببلاد القبائل بهذه المهام يماثل ما كانت تقوم به أديرة العصور الوسطى بأوربا حسب تعبير برثران (Bertherand) (٥٢). وهذا ما يؤكده الشيخ محمد السعيد بن زكري في معرض حديثه عن زاوية سيدي منصور الجنادي بقوله : " إن سكان هذه الزاوية قد اشتهروا بإقراء الضيف واكرام الزائر وتأنيس الغريب والحنان والرأفة على الفقير والمسكين تغني على الدليل وفضلهم ظاهر كنار على علم"(٥٣). ولا تختلف عن هذه الزاوية باقي زوايا بلاد القبائل، وفي مقدمتها زوايا

---

(٥١) Aucapitaine(Baron H.), *La zaouïa de Chellata*, op.cit., p.21.

(٥٢) Bertherand (Dr A.), *Campagnes de Kabylie en 1854, 1856 et 1857*, Paris, 1862, p.39.

(٥٣) محمد السعيد بن زكري، المصدر نفسه.

- Carette (E.) et Warnier (Dr A.), *Description et division de l'Algérie*, Paris, Hachette, 1847, p.54.

سيدي عبد الرحمن اليلولي وأحمد بن إدريس وابن علي الشريف، فقد كانت هذه الأخيرة تتوفر على ست رحى تشتغل باستمرار لتوفير الطعام للفقراء ولمن يقصدها من الزائرين ولسد حاجات طلبتها الذين بلغ عددهم في مستهل القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) ستمائة طالب[٥٤].

٣- **تقديم الحماية للمضطهدين والمأوى للاجئين** : فكان يستجير بالزوايا كل من كان مهددا بالانتقام من الحكام أو ملاحقا من رجال القبائل لجرم اقترفه وثأر ترتب عنه. ويعرف هذا الامتياز الذي أقره الحكام للزوايا وعملوا على احترامه والتزم به رجال القبائل كافة بحق "العناية"[٥٥]، ويكون الضامن فيه أو صاحب عهد الأمان المترتب عليه هو شيخ الزاوية، وتصبح الزاوية بذلك المكان الأمن الذي لا تنتهك حرمته والملجأ الذي لا يجرؤ أي حاكم على التعدي عليه، وقد دأب شيوخ زاوية سيدي عبد الرحمن الغبريني في بني اسماعيل على إعطاء عهد الأمان للملتجئين إليهم بدون تمييز أو تفضيل.

لقد كانت "العناية" مبدأ لا يناقش فيه ولا ينقص منه بوجه من الوجوه، حتى اعتبر عامة القوم عن جهل وسذاجة بأن الاستجارة بالزاوية أقوى من الالتجاء إلى الله. وهكذا أصبحت الزوايا بهذا الوضع تؤلف شبكة اجتماعية كثيفة وذات فعالية ومصداقية ببلاد القبائل وباقي جهات القطر الجزائري، فعوضت بذلك ما كان السكان في حاجة إليه من أمن وعدالة ورعاية اجتماعية، وضمنت مصالح السكان وتحكمت في تعاملهم اعتمادا على روح الاحترام والطاعة التي كان يحظى بها شيوخ الزوايا.

٤- **المحافظة على اقتصاد قبلي محلي مستند إلى مبدأ التكافل الاجتماعي وقائم على الأعمال الخيرية والمهام التطوعية بين أفراد القبائل ولفائدة الزوايا** : خاصة فيما يتعلق بجني الثمار والمحافظة على مرافق الري وتنظيم الاسواق. وفي هذا الإطار كانت المواسم الدينية

---

(٥٤) Emerit (M.), op.cit., p.6.

Daumas (E.), *Mœurs...*, op.cit., p.166.

(٥٥) للتعرف على الإجراءات الخاصة بحق "العناية"، راجع :

Daumas (E.), *Mœurs...*, op.cit., p.169-172.

Devaux (C.), op.cit., pp.27-31.

Baudicour (L.), op.cit., pp.28-29.

التي تحتفل بها في الزاوية وكذلك مواعيد الزيارة لولي الزاوية أو لشيخها مناسبات يجمع فيها أفراد القبائل لتصفية معاملاتهم وتصريف انتاجهم وعقد صفقاتهم ؛ وقد كان شيوخ الزوايا يشرفون على تنظيم تلك المواسم والمواعيد، فتقوم الزوايا والحالة هذه بدور الوكالة الاقتصادية التي تسهر على القيام بالأعمال الضرورية للقبيلة وتشجيع التبادل في المنطقة التي تخضع لنفوذها.

٥- المحافظة على البناء الاجتماعي بالريف والتعبير بصدق عن مطالب سكانه : فكانت الزوايا ببلاد القبائل الوسيلة الفضلى للتعبير عن تطلعات سكان الريف وميولهم في غياب الحكم المركزي وانعدام التنظيمات الاجتماعية، فقد حاول شيوخ الزوايا ونجحوا إلى حد كبير من خلال نشاطهم الاجتماعي في تكريس نوع من العلاقات الاجتماعية القائمة على الاعتدال والملتزمة بالمعاملة بالحسنى والأخذ بالرأي العام للقبيلة، فلم يسلموا بشيء مستحدث كما أنهم لم يحاولوا تبني أي شيء قد يصدم عواطف الناس ويتعارض وعاداتهم المتوارثة، وقد حقق هذا السلوك الاجتماعي الذي اصبغ على الحياة الاجتماعية ببلاد القبائل طابعا ديمقراطيا تقليديا مطلبين أساسين كانا أساس البناء الاجتماعي للقبيلة، الأول هو تأكيد روح الأخوة وتعميق روابط التلاحم على مستوى الأسرة والقبيلة، والمطلب الثاني هو المحافظة على تنظيم اجتماعي يتماشى وأوضاع الريف القبائلي، يتميز في ظاهره بالتفريق في المعاملة بين الفرد الشريف والشخص العادي وبين أصحاب الزوايا وأهل الرأي وبين عامة الناس، لكنه عرف كيف يستجيب لمتطلبات التعامل اليومي والعلاقات الاجتماعية السائدة. وهذا ما قوى الامتيازات المادية والروحية للزوايا بل أصبغ على التنظيم القبلي "صبغة اقطاعية" أساسها توزيع الخدمات على الأفراد وحصر الامتيازات في ذوي المكانة والمنزلة الاجتماعية بالقبيلة بفعل إعطاء وضع متميز لمن ينتسبون إلى الولي الصالح، وبذلك أصبح ادعاء النسب الشريف عاملا أساسيا في تكريس وبناء واستمرار المجموعات والفرق التي تشكل هرم البناء الاجتماعي بالريف القبائلي.

٦- علاقة الزوايا بالسلطة المركزية

كانت العلاقة بين شيوخ الزوايا وموظفي البايليك (الجهاز الإداري لحكام الجزائر العثمانية) تقوم على اقتسام الصلاحيات وتكامل المهام، فقد وجد الحكام في الزوايا إطارا يكفل لهم حفظ الأمن وإقرار الهدوء في مناطق جرجرة حصينة والقريبة من مركز الحكم (مدينة الجزائر)

والتي تتحكم في طرق المواصلات مع المناطق الشرقية للجزائر. فبعد المصادمات العنيفة الأولى على عهد خير الدين وحسن بن خير الدين وصالح رئيس، استقرت الأوضاع بالتسليم بشرعية الحكم المركزي إثر القضاء على نفوذ إمارتي كوكو بالقبائل الكبرى وبني عباس بالقبائل الصغرى (القرن التاسع الهجري/السادس عشر الميلادي)، فظلت العلاقة بين سكان القبائل والحكم المركزي بالجزائر منذ تلك الفترة قائمة على توازن يحفظ مصلحة الحكام ويستجيب للواقع المحلي الذي نشأت فيه الزوايا وعرفت كيف تتعامل معه، لتصبح قوة روحية وثقافية وعاملا اجتماعيا واقتصاديا يؤطر ويوجه سكان القبائل.

على أن تحول حكام الجزائر في فترة الدايات الأوائل إلى سياسة توسعية تهدف إلى مراقبة السكان وإخضاعهم لجباية ثقيلة تطلبها تناقص مردود النشاط البحري وتلبية حاجات الجهاز الاداري، فتركزت الجهود منذ أواسط القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) على إخضاع المناطق الخصبة مثل حوض سباو وحوض الصومام، وكان لباي التيطري محمد الذباح المعروف بمحمد بن علي الفريرا (١١٥٨-١١٦٨ هـ/١٧٤٥-١٧٥٤ م) دور مهم في هذه العملية، فقد تمكن بالاعتماد على فرسان المخزن بحوض سباو من التوسع في أعالي بلاد القبائل ففرض بذلك مراقبة على تنقلات القبائل الجبلية بفضل أبراج الحاميات التي أنشئت (برج سباو وحمزة وتيزي وزو وبوغني وغيرها) والمراكز العسكرية التي جددت (سوق حمزة وسور الغزلان وبرج مجانة (البرج) وزمورة وبجاية)، وهذا ما أدى إلى تحول في موقف الزوايا ودفع رجال القبائل إلى العصيان لمقاومة ضغط الحكام والتهرب من مطالبهم المالية، وقد بدأت أهم انتفاضات القبائل بتمرد رجال قبيلة قشتولة (١١٧٠ هـ/١٧٥٦م) ثم عمت باقي القبائل والتحق بها حتى رجال المخزن الذين كانوا في أول أمرهم يساندون الحكم المركزي في توسعه ببلاد القبائل[٥٦].

ونظرا لنتائج الحملات العسكرية الفصلية (المحلات) الموجهة لجباية الأموال ولتكلفة انتقال فرق الجند (الوجاق) بين المراكز العسكرية وأبراج الحراسة وتحول فرسان المخزن في بعض

---

(٥٦) (N.), *La vie rurale*..., op.cit., p.8.

Robin (N.), Yahia Agha, in *Revue africaine*, T.18/1874, pp.59-61.

Grammont (H.D. de), *Histoire d'Alger sous la domination turque*, Alger, E. Leroux, 1887, pp.278-282 et 310-321.

Boulifa (S.A.), op.cit., pp.165-205.

الأحيان عن مساندة تلك الحاميات، فقد آثر حكام الجزائر العثمانية موالاة شيوخ الزوايا والتقرب إلى المرابطين، فحاولوا استرضاءهم وتبادلوا معهم الرسائل وأصدروا في فائدتهم الظهائر(٥٧) والتزموا باحترام مبدأ "العناية"، وأعطوا حق الحماية للملتجئين إلى الزوايا، ولم يبخلوا على بعض شيوخ الزوايا المشهورين من ذوي النفوذ بالهدايا بل أظهروا التقدير لهم والتبرك بهم، وعمدوا على إسقاط مطالب الجباية عنهم ورفعوا عنهم كل أعمال السخرة، بل خولوا لهم في أغلب الأحيان جمع الزكاة والعشور لفائدة الزوايا، ولم يمانعوا في امتلاكهم الأراضي (الاقطاعات)، بل شجعوا وساهموا في بناء القباب والمزارات على أضرحة من كانوا محل إجلال وتعظيم(٥٨).

بفضل هذه السياسة تمكن رجال البايليك من المحافظة على طريق المواصلات الرئيسي نحو مركز الشرق الجزائري قسنطينة "الطريق السلطاني" والذي كان يحاذي بلاد القبائل ويعبر المناطق القريبة منها. كما أمنوا انتقال فرق الحامية نحو بجاية عبر ممر أكفادو الصعب ومضايق وادي الصومام الخطيرة، وقد كان لشيوخ زاوية شلاطة دور مهم في ضمان أمن الفرقة الإنكشارية "النوبة" إذ منحوها عند انتقالها عبر أعالي جرجرة حماية الزاوية (حق العناية) وساعدوها في الحصول على حق "العناية" من قبائل آيت زلال من بني شعيب وبني يجر(٥٩).

لقد ارتبط النفوذ العثماني ببلاد القبائل بتأييد رجال الزوايا وتعاون شيوخها منذ موالاة ابن القاضي لخير الدين وتعامل أفراد أسرته بقلعة كوكو وأفراد أسرة الأمير عبد العزيز بقلعة بني

---

(٥٧) نشر بعضها دوفو، أنظر :

Devoulx (A.), Lettres adressées par des Marabouts arabes aux Pachas d'Alger, in *Revue africaine*, 1874.

(٥٨) للتعرف على العلاقة بين شيوخ الزوايا وحكام الجزائر العثمانية، راجع :

Saïdouni (N.), *La vie rurale*..., op.cit., T.II, pp.606-618.

Hamdan Khodja, op.cit., p.77.

Lapène (E.) , op.cit., p.144.

Doutté (E.), op.cit., p.217.

Emerit (M.) , op.cit., pp.11-13.

Boyer (P.), *Contribution*.... , op.cit., pp. 40 et 49.

(٥٩) Robin (N.), Note sur l'organisation militaire et administrative des Turcs dans la Grande Kabylie, in *Revue africaine*, T. 17, 1873, pp. 204-205.

عباس مع حسن بن خير الدين وصالح رئيس، ورغم ما اعترى هذه العلاقة من تحالف وتعاون وعداء ومواجهة فإن سياسة التدخل ببلاد القبائل التي انتهجها دايات الجزائر وحاول تطبيقها بايات التيطري من المدية وحكام قيادة سباو من برج سباو لم تتغير حتى بعد أن عجز الباي محمد المدعو "الذباح" باي التيطري عن مواجهة عصيان القبائل (١١٥٨ هـ/١٧٥٤م)، فإنه التجأ إلى الزوايا ووجد العون من الشيخ سيدي محمد بن أعراب صاحب الزاوية التي درس بها هذا الباي، فتوجه هذا الشيخ بمسعى من محمد الذباح على رأس وفد إلى داي الجزائر للتفاوض باسم قبائل بني جعاد وبني إيراتن الثائرة وتمكن من الحصول على عهد الأمان لهم مقابل التوقف عن عدائهم للبايليك(٦٠).

وفي السنوات الأخيرة من الحكم العثماني للجزائر وخاصة منذ عام ١٢٤١ هـ/١٨٢٥م عمت حالة التمرد بلاد القبائل وتمكن رجال القبائل من قتل قائد مدينة بجاية وتقدموا نحو أسوارها لنهبها، فلم يجد قائد فرق الإنكشارية بالجزائر "الآغا يحي" بدا من الالتجاء إلى شيوخ زوايا ابن علي الشريف بشلاطة وأولاد مقران بأمعدن وأولاد سيدي الشريف أمزيان بملولة وأولاد رابح وغيرهم، فوجد لديهم العون والمساعدة والتأييد، فأمنوا المسالك لمرور فرق الحامية التي كان على رأسها عبرالمضايق الجبلية الصعبة، ولم يتردد شيخ زاوية شلاطة من مده بما يحتاج إليه من حيوانات نقل ومؤن(٦١).

هذا وقد انتهج الفرنسيون فيما بعد نفس السياسة مع الزوايا عند احتلالهم لبجاية (١٣٤٨ هـ/١٨٣٢م) أو بعد إخضاعهم لبلاد القبائل (١٢٧٤ هـ/١٨٥٧م)، فوجدوا استجابة من بعض شيوخ الزوايا، وكان في مقدمتهم شيخ زاوية شلاطة سيدي محمد السعيد بن علي الشريف الذي هادن الفرنسيين وقدم لهم العون فنال رضاهم وتأييدهم، وقلده القائد الفرنسي بوجو (Bugeaud) منصب باش اغا (١٢٦٠ هـ/١٨٤٤م)، فحافظ بذلك على أملاك زاويته، ودعم نفوذه بالأعراش التابعة لها وهي إيلولا أوثامر، شلاطة، إيغرام، إيزلاقن، بني عيدل، صدوق،

---

(٦٠) Idem.

(٦١) (Ch. L.), *Histoire des villes...*, op.cit., pp.234-235.

Boyer (P.), *Contribution....* , op.cit., p.49.

عمالو، بوحمزة، تامقرا، وبذلك أصبح بمثابة الحليف للفرنسيين فوقف بجانبهم في ثورة الرحمانيين التي عمت بلاد القبائل (١٢٨٨ هـ/١٨٧١م) (٦٢).

يتضح لنا مما سبق أن حكام الجزائر العثمانية انتهجوا سياسة واقعية في تعاملهم مع شيوخ الزوايا، فكانت علاقاتهم تتصف بالحنكة والمرونة وتتماشى مع مصالح الطرفين وهما السلطة المركزية للبايليك والزعامة المحلية لشيوخ الزوايا، مما أبعد كل تهديد جدي للحكم المركزي بالجزائر مصدره بلاد القبائل، وجعل من الزاوية السلطة الحقيقية والوسيط الفعلي بين إدارة البايليك وسكان بلاد القبائل، فهي حلقة اتصال ووسيط مفضل يبعد الاحتكاك المباشر للحكام بالسكان ويتخذ سلوكا معينا يرضي العامة ويبتعد عن موقف طموح قد يجعل منه منافسا أو خصما للسلطة المركزية، بل يفضل دائما أن يقوم بدور الحليف المتعاون والقائم بمهام إدارية ودور سياسي محلي.

إن مهمة الزوايا الأساسية تتمثل في التوسط للسكان لدى الحكام وتبليغ مواقفهم للسلطة المركزية، وهذا ما خول لشيوخ الزوايا أن يقوموا بمهام الحكام (قياد البايليك) في بيئة جبلية منيعة وضمن تنظيم قبلي محكم رافض لكل أمر صادر عن الحكام ومتحفظ على كل توجيه من أعوانهم وممثليهم، وهذا ما أكسب الزوايا في تعاملها مع الحكام نفوذا سياسيا حقيقيا بالإضافة إلى سلطتها الروحية التقليدية، فتحققت بذلك مصالح الحكم المركزي ومطالب السكان ودعمت مكانة الزاوية، في وقت اختلت فيه الموازين واضطربت الأحوال نتيجة شح موارد النشاط البحري في أواخر القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) وتزايدت قوة القبائل وتعددت ثوراتها ضد السلطة المركزية (البايليك)، فكانت الزوايا مع نهاية القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) بمثابة عامل توازن محلي حافظ على سير الحياة الطبيعية بالريف القبائلي.

إن الإجراءات القاسية وغير العادلة لبعض الحكام في حق الجماعات القبلية لم تؤثر على العلاقة بين الزوايا والسلطة المركزية بالجزائر، فلم تصل إلى حد العصيان الشامل والحرب المعلنة كما وقع بالشرق الجزائري مع ابن الأحرش وبالغرب الجزائري مع الدرقاوية والتيجانية، ويعود ذلك إلى دور الزوايا ببلاد القبائل في تهدئة الأوضاع وتعاملها مع الحكام

---

(٦٢) Robin (Colonel), *L'insurrection...*, op.cit., p.6.

بمرونة وحكمة، فظلت حركات العصيان محدودة في إطار المطالب المقبولة والظروف المحلية، ولعل هذا ما أكد في نظر الحكام سلطة الزوايا الروحية ودفعهم إلى إقامة صلات تعاون مع العديد من شيوخ الزوايا وفي مقدمتهم شيوخ زاوية ابن علي الشريف بشلاطة وشيوخ زاوية سيدي الشريف مزيان بن موهوب بإمالو بالصومام.

أصبحت الزوايا ببلاد القبائل في هذا الوضع وبفعل هذه العلاقة مع نهاية القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) قوة مالية وأخلاقية واجتماعية حقيقية تأخذها إدارة البايليك في الحسبان، وهذا ما دعم مكانة شيوخ الزوايا ومقدمي الطرق الدينية وجعلهم الواسطة الفعلية بين السكان وسلطة البايليك. وهذا ما يجعلنا نستبعد تصنيف الزوايا ببلاد القبائل ضمن قائمة الزوايا الخاضعة والمتعاونة مع الحكام، كما هو الشأن بالنسبة لزوايا المدن والجهات القريبة منها ؛ كما لا يمكن أن ندرجها ضمن الزوايا الممتنعة عن التعامل مع البايليك والمعادية لجهازه الاداري، كما هو حال الزوايا المنتمية للطريقتين الدرقاوية والتيجانية، بل يمكن اعتبار زوايا بلاد القبائل من صنف الزوايا الحليفة (Alliées) التي ظلت تحتفظ بعلاقات متزنة مع الحكام من أجل أن تحافظ على إمكانياتها وتبقي على نفوذها[٦٣]، وقد تميزت الطريقة الرحمانية والزوايا التابعة لها بعلاقة متوازنة مع السلطة المركزية، فهي تحرص على المحافظة على استقلالها ورعاية مصالح السكان المتعاملين معها وإبعاد سلطة الحكام عنهم في الوقت الذي اتخذت فيه إزاء الحكم المركزي بالجزائر موقفا يتسم بالمعاملة بالحسنى والحذر أساسه المصلحة المتبادلة والاحترام المتبادل.

***

نستنتج مما سبق أن الزوايا لم تكن ببلاد المغرب الإسلامي وخاصة ببلاد القبائل مكان عبادة وتعليم فحسب، وإنما كانت أيضا مؤسسة تربوية واجتماعية ذات تأثير اقتصادي ونفوذ سياسي، فوصفها دوما الذي اهتم بدراستها بأنها "مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة"[٦٤].

---

(٦٣) Saïdouni (N.), *La vie rurale*..., op.cit., T. II, p.606.

(٦٤) ليفي بروفانصال وآخرون، الزوايا، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشنتاري، القاهرة، ١٩٣٣، المجلد ١٠، ص. ٢٣٢ (عن دوما).

واعتبرها إميري الذي تفهم دورها بأنها "مكان عبادة ومدرسة تعليم وملجأ تصوف وبيت ضيافة ومكان معالجة، كما أنها في بعض الأحيان مركز للنشاط التجاري"(٦٥).

فالزوايا بوظائفها التي سبقت الإشارة إليها تعبر بصدق عن حاجات الريف القبائلي وتستجيب لأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية، وتتعامل معه حسب مستوى مدارك سكانه البسطاء وما يتجاوب وميولهم ويتفق ونظرتهم للحياة. فمن الجانب الروحي، كانت الزاوية من خلال نشاط الطرق الدينية التي تنتسب إليها العامل الوحيد القادر على إثارة الحماس وتجنيد الأتباع وتنظيم حركة المقاومة، وهذا ما أكسبها تقاليد سمحت لها أن تلعب دورا أساسيا في مقاومة الفرنسيين، منذ احتلالهم مدينة الجزائر (١٢٤٦ هـ/١٨٣٠م) وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٣٣٨ هـ/١٩١٤م). أما من حيث الجانب الاجتماعي، فقد كانت الزوايا ببلاد القبائل أساس تفاعل اجتماعي عمل على توازن المجتمع المحلي وإبعاد الصراعات بين أحلافه والحد من النزاعات بين قبائله، فكانت بحق وسيلة ملائمة نابعة من المجتمع المحلي وأداة محافظة على وظائفه الاجتماعية دون أن تتسبب في تمزقه أو تشتته، وهذا ما يدفعنا إلى التحفظ إزاء الاستنتاجات التي انتهت إليها بعض الدراسات الاجتماعية الأوربية الحديثة القائمة على النظرية التجزيئية (La théorie segmentaire) والتي تعتبر أن البنية القبلية التجزيئية (Structure segmentaire) لا تقوم في الواقع على أساس نظام التحالف والانسجام في الوظائف والعلاقات الذي تلعب فيه المؤسسة الدينية المتمثلة في الزوايا الدور الأساسي، وإنما تقتصر في هذه المؤسسة الدينية على كونها أداة تعاون قبلي ضيق ووسيلة فرضتها مصالح القبيلة وحافظت عليها ميول أفرادها، مما يجعل البناء التجزيئي للقبيلة بهذا المفهوم ظاهرة اجتماعية خاصة يعبر عنها "بالفوضى البربرية المنظمة"، تستخدم فيها الزوايا كأدوات استقرار وتوازن لهذه الفوضى وليس كعوامل تغيير وتأطير، وهذا ما ذهب إليه كل من غلنر Gellner ومونتان Montagne (٦٦).

---

(٦٥) Emerit (M.), op.cit., p.10.

(٦٦) راجع في ذلك دراسة الأستاذ بابر يوهانسن القيمة التي قدمها في ندوة المؤسسات الدينية بالمغرب العربي، بجامعة برلين الحرة، ٢٤-٢٥ مارس ١٩٨١، بعنوان:

- Baber Johansen, *De l'histoire des institutions religieuses en tant qu'indicatrices pour le développement social*, p.2 (travail dactylographié).

أما من الناحية السياسية فالزوايا كانت وسيلة عملية لسد الفراغ الذي نتج عن انحصار نفوذ السلطة المركزية ووسيلة ملائمة للوقوف في وجه تصرفات الحكام الجائرة وإجراءات الموظفين غير العادلة، فخلقت الزوايا بذلك توازنا في التعامل مع المجتمع الريفي ببلاد القبائل أساسه الاقتسام الفعلي للوظائف بين الحكم المركزي غير المباشر وتحكم المرابط المباشر، وهذا ما أدى إلى ازدواجية فعلية في ممارسة السلطة بين الحكام (البايليك) وشيوخ الزوايا (المجتمع الريفي) في البلاد الجزائرية عامة وفي منطقة القبائل خاصة.

وفي ختام هذه الدراسة تجدر بنا ملاحظة أن الواقع الاجتماعي والاقتصادي والمناخ الثقافي والروحي الذي أثرت فيه وتأثرت به الزوايا ببلاد القبائل وكذلك الصلاحيات الإدارية والتطلعات السياسية التي اكتسبتها بفعل ممارسة أنشطتها، جعلها عامل استقرار وتوازن وتوجيه في إطارها المحلي ببلاد القبائل أو في بعدها الإقليمي بالبلاد الجزائرية ؛ على أن الاحتلال الفرنسي والسياسات الاستعمارية التي ارتبطت به وما نتج عنها من تغيير في بنية المجتمع ومقوماته الاجتماعية والاقتصادية، أدى إلى الحد من صلاحيات الزوايا وأضعف نفوذ الشريحة الاجتماعية المتميزة القائمة على شؤون الزوايا (جماعة المرابطين والشوفاء) ؛ وزاد الطين بلة وأدى إلى محاصرة الزوايا وإضعاف تأثيرها ببلاد القبائل خاصة، تلك الآثار التي ترتبت عن الهجرة الكثيفة من المنطقة إلى فرنسا وانتشار المفاهيم السياسية العلمانية التي ارتبطت بالحركة الوطنية الجزائرية والتي تركت مكانها للتوجهات الاشتراكية التي أخذت بها جزائر الاستقلال والتي تلغي دور الزوايا ولا تعترف بتمايز الطبقة القائمة عليها، كل ذلك حيد دور الزوايا عمليا في حياة المجتمع القبائلي وجعله عرضة للتأثر بالمفاهيم السياسية العلمانية الغربية، بل أدى إلى دفع بلاد القبائل اليوم نحو المجهول وجعلها فريسة سهلة للاستلاب الثقافي وميدانا خصبا للقلق الحضاري، ولعل الحركة الأمازيغية اليوم ذات المطالب الثقافية المصطبغة بالثقافة الفرنسية والمعادية للتوجهات العربية والمتحسسة من قيم الإسلام خير شاهد على المخاطر والآثار المدمرة التي نتجت عن تجاهل الزوايا وإلغاء تأثير رجالها في توجيه الرأي العام بمنطقة القبائل.

بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني ١٥١٨-١٨٣٠

الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله

قسم التاريخ - جامعة آل البيت / الأردن

تنطلق هذه الدراسة من إشكالية أساسية وهي: ما التحولات التي طرأت على نظام التعليم في الجزائر أثناء الحكم العثماني أو بسبب هذا الحكم؟ إن الدراسة لا تحاول أن تجيب على إشكالية النظام التعليمي وبرنامجه، كما لا تحاول أن تجد المبررات للحكم أو لخصومه بالنسبة لنظام التعليم. فقد تناول ذلك دارسون آخرون، سيما الفرنسيون، وحاولوا أن يخرجوا بأحكام عامة تركزت بالخصوص على تجريد الحكم العثماني من كل فضيلة ومنها فضيلة التعليم والثقافة. وقد خضنا نحن أيضاً في بعض بحوثنا في هذا الميدان وانتهينا إلى أن الظاهرة تنسحب على الدولة العثمانية بأسرها وليس على الجزائر وحدها.

إن الحكم العثماني لم ينشأ من فراغ دفعة واحدة في كامل القطر الجزائري، ولكنه أخذ وقتا طويلاً حتى يمتد ويتوطد، ثم أنه بعد أن امتد وتوطد لم يكن على درجة واحدة من التغلغل والتأثير. فإذا كانت البداية هي سنة ١٥١٨ م في العاصمة فانه بالنسبة إلى تلمسان لم ينشأ إلا سنة ٩٥٦ هجرية[1]، وبالنسبة لأقليم الصحراء والاوراس والزواوة لم يكن موجوداً إلا ظاهرياً حتى قارب نهايته. وقد كان اتساع رقعة البلاد وقلة عدد العثمانيين والتمركز على السواحل

(١) أبو راس الناصر، فتح الإله. تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، ١٩٩٠، ص١٠٧ وفيه أن الأتراك استولوا على تلمسان سنة ٩٢٣هـ ثم وقع التنازع ودخلها الأتراك نهائيا سنة ٩٥٦هـ.

التي كان الخوف متوقعا منها جراء التهديدات الأسبانية (والأوروبية عموماً)، كل ذلك جعل العثمانيين يكتفون بوجودهم على المراسي والمدن الساحلية لصد العدوان الأجنبي. أما مع فئات السكان فقد سلكوا طريقة التعامل المتفاضل: الاقتراب من الأندلسيين (ومنهم بعض المهاجرين اليهود) والحضر ورجال الدين، ولاسيما أهل التصوف والولاية، والعلماء. أما في داخل البلاد فقد اختاروا طريقة التعاون مع القيادات المحلية الراغبة في التعاون معهم لأسباب اقتصادية ونفوذية. وبذلك أصبحت هذه القيادات أدوات قمع لغيرها مقابل امتيازات حصلت عليها من السلطة العثمانية، بينما ظلت المناطق الجبلية الصعبة والصحراوية النائية متأبية على السلطة العثمانية نفسها وعلى أصحاب الامتيازات المتعاملين معها.

ونتيجة لهذا الوضع غير المستقر في الداخل ونتيجة غياب الحاكم العادل والولاء الصريح شهدت الجزائر الفتن (الثورات) المتوالية التي كانت تعصف بالأمن وتقضي على بوادر الإنتاج الثقافي ومنه التعليم. وهذه الفتن شملت المدن الرئيسية، سيما تلمسان وقسنطينة، كما شملت الارياف بدرجة اكثر لبعدها على يد الحاكم العادل واقترابها من القيادات المحلية المتعسفة في الضرائب والرشاوي والفساد الإداري والجور. ولدينا في كتب المناقب مثل (كعبة الطائفين)[٢]، وفي كتاب (منشور الهداية) للفكون[٣] وفي فتاوى بعض العلماء ونصائح أهل الصلاح لأتباعهم مادة غزيرة عن الفتن التي كانت تعصف بالبلاد. ومن النتائج الأولية المؤثرة على التعليم عندئذ هجرة العلماء والمؤدبين وأهل الأدب والثقافة هروبا من الفتن وابتعادا عن "أرض الجور" حسب التعبير الشعبي الشائع عندئذ.

ومع ذلك فان النظام الإداري الذي أقامه العثمانيون قد ساعد على عدم إصدار حكم سلبي على النظام كله. فبعد أن كانت الجزائر غير موحدة إدارياً، بحيث كان الإقليم الغربي في يد بني زيان، والإقليم الشرقي في يد بني حفص، والإقليم الوسطي في يد المتغلب من هذا أو ذاك، أصبحت الجزائر كلها في العهد العثماني خاضعة لسلطة مركزية واحدة تقع في وسطها، ومقرها مدينة الجزائر، وقد اختلفت تسمية الحكام العثمانيين خلال عهدهم الطويل (ثلاثة قرون)، ولكن الحكم بقي واحداً بالنسبة للأهالي. فهناك المركز الذي يمثله الباشا أو بأي البايات

---

(٢) محمد بن سليمان الجزولي، كعبة الطائفين، مخ. نشرنا عن هذا المخطوط بحثين، كلاهما في أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج٢،٣، ص ٢٠٩-٢٣٠، ١٥٩-١٧٥، طبع بيروت، ١٩٩٠م.

(٣) عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، من تحقيقنا، بيروت، ١٩٨٧م.

أو الداي، وهو يحكم باسم العساكر الذين يختارونه وليس باسم الأهالي الذين لا دخل لهم في تعيينه أو عزله. وفي هذا المركز يوجد ظل من حكم "الشورى" المتمثل في هيئة تساعد الحاكم على اتخاذ القرارات الصعبة، بالإضافة إلى ما يشبه الحكومة التي تنفذ القرارات وتبرم المعاهدات وتحافظ على الأمن والاستقرار. ولكن المركز لا يستطيع أن يصل إلى حكم الأطراف مباشرة، ولذلك كان يعتمد على مبدأ اللامركزية الإدارية. ومن ثمة نشأ نظام الحكام الإقليميين المعبر عنهم بالبايات، فكان منهم ثلاثة: باي في الغرب وآخر في الشرق وثالث في الوسط. وكانت حكومة الباي في الإقليم على نموذج حكومة الباشا في المركز، غير أنها أكثر التصاقا بالمواطنين من المركز، بمن فيهم القيادات المحلية. وربما نستطيع القول إن الحاكم العثماني الفعلي في الجزائر هو حاكم الإقليم (الباي) الذي يستمد سلطاته من الحاكم المركزي الذي يستمدها، بدوره من السلطان العثماني نفسه.

وقد كان بايات الأقاليم في أغلبهم عثمانيين (أتراكا أو أجانب بالمفهوم القومي)، ولكن بعضهم كانوا من دم مختلط. وكان هؤلاء أقرب إلى مشاعر الأهالي من الآخرين الذي ولدوا خارج الجزائر ثم حلوا بها كمغامرين وأصحاب مصالح. وكان اهتمام البايات أصحاب الدم المختلط بمصالح الأهالي اكثر من غيرهم، كما ستظهره الدراسة بالنسبة للمساهمة في ترقية ودعم نظام التعليم. وربما كان خير دليل على ذلك مساهمة الباي محمد الكبير في الغرب والحاج أحمد في الشرق، وكلاهما من أم جزائرية، وكلاهما حكم في أواخر العهد العثماني، وهي الفترة التي نقرأ عنها في التقارير الفرنسية غداة الحملة بان التعليم خلالها كان اكثر ازدهاراً مما كان عليه التعليم في فرنسا.

كان الدين والتعليم متلازمين في الجزائر أيام الحكم العثماني. وكان التعليم قضية أهلية لا دخل للحكومة فيها. وقد ورث العثمانيون هذه الحالة فلم يغيروها ولم يتدخلوا فيها، وربما كان الفرق بينهم وبين الحكام الذين سبقوهم أن هؤلاء كانوا من أبناء البلاد فكان إسهامهم يتمثل في تشجيع المدارس والعلماء وتكريمهم واستقبال المادحين من الأدباء والشعراء. أما العثمانيون فلم يهتموا بالأمداح واستقبال الشعراء وتقريب العلماء بقدر ما ساهموا في دفع التعليم برصد الأوقاف التي تتخذ عندهم طابعاً دينياً كمساعدة الطلبة والغرباء وصيانة المساجد وإرضاء رجال الدين. وعلى كال حال فان مختلف الفئات الاجتماعية، بما فيها فئة الحكام (العثمانيون منهم) كانت تساهم في نشر التعليم بين الأطفال. وكان هذا التعليم قد اصبح بالتدرج مقتصراً

تقريباً على التعليم الديني المتمثل في تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والإنشاء وحفظ المتون الفقهية والنحوية والعروضية والفرضية. وهذا المستوى من التعليم هو الذي كان منتشراً بشكل ملحوظ بين الجزائريين، فهو تعليم ديني بالدرجة الأولى الهدف منه فهم تعاليم الدين ورفع الأمية في الأدب والإنشاء. أما التعليم الثانوي والعالي فكان ينظر إليه على انه من الكماليات التي لم تهتم بها إلا فئة نادرة من الطلبة. وكانت هذه الفئة تجد ما تروي به ظمأها في بعض المساجد الكبيرة والمدارس التعليمية والزوايا في معسكر ومازونة وقسنطينة والعاصمة أو في زوايا مجاجة[٤] وزواوة والخنقة. ولكن الطالب الجزائري لم يجد في بلاده مؤسسة تعليمية جامعة تتوفر على هيئة تدريس مجربة وذات تقاليد عريقة كالزيتونة. ولذلك كان يهاجر من أجل العلم إلى بعض البلاد الإسلامية، فكان يشد الرحال مجاهدا للحصول على ما لم توفره له حكومة بلاده من جامعات ومعاهد عليا. ومن الواضح أن هذا كان من نقاط الضعف البارزة في نظام التعليم في الجزائر سواء قبل العهد العثماني أو خلاله، إذ لم يحاول الحكم العثماني رغم طول العهد تدارك هذا النقص الفادح.

تحدثت المصادر عن نشاط التعليم ومؤسساته في تلمسان عشية الحكم العثماني، فقد كانت تضم حوالي ستين جامعا وخمس مدارس على الأقل، في آخر القرن الخامس عشر.[٥] وقد رأى ليون الإفريقي أنها كانت تضم حوالي ثمانين ألف نسمة في فاتح القرن السادس عشر، وكان فيها خمس مدارس وعدد من الجوامع[٦]. وكانت فئاتها الاجتماعية تتمثل في الصناع والتجار والعلماء والجيش. ومن بين هذه الفئات طبقة غنية تتمثل في التجار وبعض أفراد الحاشية. ولكن تلمسان الزيانية فقدت قيمتها في العهد العثماني، فقد كان أهلها قد وقعوا بين الهجوم الإسباني من جهة والهجوم العثماني من جهة أخرى، فكثر فيها الطامعون، وهرب منها أهلها بحثاً عن الأمن، كما تدهورت اقتصاديا، وخرج منها العلماء والتجار، وقتل حكامها مع أتباعهم. ومن العلماء الذين خرجوا منها إلى المغرب الأقصى أسرة الونشريسي وأسرة المقري

---

(٤) أبو حامد العربي المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة، وهو كتاب في نسب محمد بن علي المجاجي، صاحب زاوية مجاجة، المتوفي سنة ١٠٠١هـ.

(٥) روبير برونشفيك: نصان من رحلة مخطوطة في إفريقيا الشمالية في القرن الخامس عشر، باريس، ١٩٣٦، أحد النصين من رحلة عبد الباسط بن خليل المصري.

(٦) ليون الإفريقي: وصف إفريقيا، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، المغرب، ١٩٨٣.

وأسرة المرازقة وأسرة العبادي، ولذلك كانت تلمسان طيلة العهد العثماني ميدانا للثورات التي تحدث عنها ابن مريم في البستان (٧)، وابن سليمان في الكعبة... وكان ذلك سببا في تدهور وضع التعليم فيها وخراب عدد من مؤسساتها.

وقد حكى الرحالة المصري عن وهران سنة ٨٧١ هجرية بأن سكانها المسلمين كانوا قليلين، وذكر من علمائها المتميزين: محمد القصار، والمفتي احمد بن العباس، وسليمان الحميدي، وعبد الرحمان بن عزوز. أما جوامعها فقد ذكر منها جامع البيطار وجامع الصخرة، وقال عنها إنها مدينة تجارية. ومن الواضح أن السبب في هذا الوضع هو أنها كانت مستهدفة من قبل الإسبان الذين نجحوا في احتلالها منذ فاتح القرن السادس عشر. واستمروا حاكمين لها إلى سنة ١٧١٧م عندما استعادها العثمانيون أول مرة ثم احتلها الإسبان مجدداً بعد خمسة وأربعين سنة، قبل أن يستعيدها المسلمون ثانية سنة ١٨٠٥م، ثم وقعت في قبضة الفرنسيين سنة ١٨١٣م. فأنت ترى أن الوجود العثماني كان ضعيفاً في وهران. ومن ثمة فان التعليم فيها كان شبه معدوم طيلة هذا العهد.

وهناك مدن أخرى في غرب البلاد كان وضعها غير مستقر أيضا، ولكن حظها من التعليم كان أفضل من حظ وهران. ونعني بها مدينة مازونة التي كانت أول عاصمة للعثمانيين في المنطقة وكانت تتوفر على مدرسة أنشأها بعض الأندلسيين وعلى بعض المساجد، وحتى عهد أبي راس الناصر (ت ١٨٢٣) كانت مدرسة مازونة مقصد العديد من الطلاب. وبعد انتقال عاصمة الإقليم إلى معسكر شهد التعليم تحولات هامة على يد محمد الكبير كما سنذكر. وكانت زاوية القيطنة التي كان يديرها أجداد الأمير عبد القادر قد ساهمت أيضا في نشر التعليم وتنشيطه، رغم أنه كان تعليماً اختلط بالتصوف والدين، كما لاحظنا، كما كانت مستغانم سيما في عهد الباي الإقطاعي الكبير مصطفى بوشلاغم قد أصبحت محل ثروة كبيرة وظفت أوقافا لبناء المساجد والكتاتيب.

فإذا اتجهنا شرقا وجدنا مدن مليانة وتنس وشرشال قد أصبحت موئلا للأندلسيين بعد لجوئهم وأصبحت أيضاً مبعثا لنشاط تعليمي هام، تسانده بعض الزوايا المهتمة بالتصوف مثل

(٧) محمد بن مريم المديوني: البستان، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر، ١٩٠٨، انظر أيضا أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت، ١٩٩٨، ١/١٧٦.

زاوية الشيخ أحمد بن يوسف الملياني (٨) وزاوية مجاجة. وكانت ثورة حميد العبد السويدي قد جلبت الأنظار إلى تنس، ورغم أن العثمانيين استرضوا السويدي وأبقوه على تنس إلى وفاته ثم عينوا بدله حاكماً عثمانياً، فان ذلك لم ينه الثورة (ثورة قبيلة سويد) التي طال عهدها وشملت حوض وضفاف نهر الشلف. أما شرشال فقد استوطنها الأندلسيون وجعلوا منها مدينة تجارية نشطة ونقلوا إليها صناعتهم في التعليم والخط والفنون، وقد امتد تأثيرهم في هذا المجال إلى مدينة الجزائر نفسها لقرب المسافة بين المدينتين.

وكانت مدينة الجزائر قد تطورت خلال العهد العثماني تطوراً ملحوظاً سياسياً وتجاريا وتعليميا، مما جعلها تستقطب العلماء والطلبة من الأرياف والمدن الأخرى. وكان سكانها في عهد ليون الأفريقي ٢٨ ألف نسمة(٩) و(٢٣ ألف عند فرنسيس نايت) (١٠) وقد وصل هذا العدد إلى ١٢٠ ألف في نهاية العهد العثماني(١١). وكان سكانها خليطاً من الحضر والأندلسيين والأتراك عند نهاية القرن العاشر الهجري. وقد وصفها التمغروطي (سنة ٩٩٩ هجرية) باسطانبول الصغرى لكثرة أسواقها وتجارتها وعمرانها وسكانها(١٢). ووصفها ابن زاكور بالبهاء(١٣)، وكذلك نوه بها عبد الرحمان الجامعي(١٤)، ومصطفى بن رمضان العنابي وابن ميمون(١٥)، واحمد بن عمار(١٦). أما محمد بن الشاهد فقد خلد ذكراها في قصيدته غداة الاحتلال متحدثا عن عمرانها ومساجدها وجمالها. وسجل أحمد الجزائري الذي حضر الاحتلال الفرنسي بأن مدينة الجزائر كانت هنيئة العيش متوفرة على أسباب الراحة والعافية.

---

(٨) عن أحمد الملياني أنظر محمد الصباغ القلعي: بستان الأزهار، الجزائر، ١٩٢٧.

(٩) انظر نيقولاي نيقولاس: تاريخ الترك العام، باريس، ١٦٦٢، ص ٦٢، وبناء عليه فإن السكان كانوا ٢١ ألفا.

(١٠) فرانسيس نايت (F. knight): سبع سنوات في الجزائر، لندن، ١٦٤٠، ص ٥٠، وعنده أن السكان ٢٣ ألفا رغم أن الفارق الزمني أكثر من قرن.

(١١) بنانتي (S.Pananti): قصة إقامة في الجزائر، لندن، ١٨٣٠، ص ١٠٩.

(١٢) التمغروطي زار الجزائر سنة ٩٩٩هـ/١٥٩٥م. انظر النفحة المسكية، تحقيق سليمان الصيد، دار أبو سلامة، تونس، د. ت.

(١٣) أبو القاسم بن زاكور: نشر أزاهير البستان، آخر القرن ١٨.

(١٤) عبد الرحمن الجامعي: شرح الحلفاوية، مخ، باريس، ٥١١٣.

(١٥) محمد بن ميمون: التحفة المرضية في الدولة البكداشية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، ١٩٧٢.

(١٦) أحمد بن عمار: نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر، ١٩٠٣، وله أيضا

وفي رحلات الأوروبيين أحاديث عن الأمن الذي كان يسودها وعن نظافة بيوتها وجمال آثارها، أما التعليم فيها فقلّ من اهتم به. وسرعان ما توسع عمران مدينة الجزائر فأصبحت تضم بالإضافة إلى الجامع الكبير الذي بني قبل العثمانيين، جوامع وزوايا ومدارس كثيرة. فقال التمغروطي أنها تضم أربع جوامع خطبة (كبيرة)، وقدرها هايدو الإسباني بسبعة جوامع لصلاة الجمعة. وبلغ عدد المساجد عند آخرين مائة وسبعة[١٧]. وفي إحصاءات الفرنسيين غداة الاحتلال مائة وثلاثة عشر جامعاً بين كبير وصغير[١٨].

أما مدينة قسنطينة فقد كانت عاصمة إقليم الشرق وأكبر مدنه. ورغم أنها كانت مدينة داخلية فإنها كانت تعتمد على مدينة عنابة باعتبارها الميناء الرئيسي لها. وبناء على مختلف المعطيات فإن العثمانيين قد استولوا على قسنطينة سنة ٩٣٢ هجرية (١٥٢٦م) [١٩]، وكان حاكمها قبل ذلك مواليا لسلاطين تونس، وهي لذلك كانت شديدة الصلة بتونس تجارياً وثقافياً. وكان جامع الزيتونة هو مقصد طلابها الراغبين في مواصلة الدراسة بعد مرورهم بمؤسسات التعليم المحلية. وبذلك أصبحت قسنطينة في العهد العثماني أكبر مدن الجزائر الداخلية، فقال عنها ديفونتين (في القرن الثاني عشر الهجري) إنها أكبر وأجمل من مدينة الجزائر وإنها آهلة بالسكان [٢٠]. وقال عنها بنانتي أيضاً إنها كانت تضم مائة ألف ساكن، ولكن سكانها في مصادر أخرى لم يتجاوزوا الأربعين ألفاً، وهم من الحضر ذوي الأصول العريقة، أمثال عائلة ابن باديس وعائلة ابن الفكون وعائلة الوزان وعائلة ابن البجاوي، وعائلة ابن نعمون. وقد نشأت في قسنطينة جالية تركية أو مختلطة من الباي وعماله وقادته وديوانه إلى أبناء هؤلاء وأحفادهم والمتصلين بهم. وقد وصفت قسنطينة بأنها كانت كثيرة الأسواق والقصور والبيوت والصناعات النسائية والنقابات المهنية. أما المؤسسات الدينية والتعليمية فمنها خمسة جوامع لصلاة الجمعة [٢١]. تشير تقارير الفرنسيين غداة الاحتلال إلى أن قسنطينة كانت كثيرة

---

(١٧) دابر (Dapper)، وصف إفريقيا، أمستردام، ١٦٨٦، لاشك أن ذلك يشمل المساجد والزوايا أيضا.

(١٨) ألبير ديفوكس: المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر، الجزائر، ١٨٧٨.

(١٩) المشهور هو أن الإستيلاء على قسنطينة وقع سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٦م. انظر بحثنا عن (كتاب علاج السفينة في بحر قسنطينة) في أبحاث وآراء، ج١، ط ٢، ١٩٩٠، ص٣٢٩.

(٢٠) اندري لوشي (Dapper)، الكراسات التونسية، ١٩٥٥، ص٣٧٣.

(٢١) الحسين الورتلاني، الرحلة، الجزائر، ١٩١٠، ص ٦٨٧.

المدارس وكانت مقصد طلاب الضواحي وأهل القرى الذين يجدون في أوقافها وعائلاتها المساعدة على الإقامة وتحصيل العلم. ورغم نقد الورتلاني لحكام قسنطينة على ضعف مساهمتهم في الأوقاف والاهتمام بالمدارس فان وثائق المرحلة الأخيرة من العهد العثماني تثبت أن بايات من أمثال حسن بوكمية وصالح بن مصطفى والحاج احمد قد تركوا آثارهم في تنشيط مؤسسات التعليم (٢٢). ونحن نجد في كتاب منشور الهداية (في القرن السابع عشر الميلادي) حديثا هاما عن الوضع الاجتماعي والعلمي والديني لقسنطينة.

وربما كانت عنابة هي المدينة الثانية بشرق الجزائر في التجارة والتعليم. فباعتبارها المرسي الرئيسي للإقليم كانت تصدر البضائع التي تنتجها الجزائر إلى أوروبا، ومنها المرجان الذي كان يصدر من مرسى الخرز، وكانت تستقبل البضائع من الخارج أيضا. وكان التعامل فيها بالعملة الذهبية مع تجار جنوة وليفورنيا والبندقية، وكانت الشركات الفرنسية والإيطالية (جنوة) لها مراكز هامة في عنابة ونواحيها وتوظف حوالي مائتي عامل، حسب الكتاب البحري لبيري رئيس (٢٣). وقبل ذلك قال التمغروطي (في القرن السادس عشر الميلادي) بأن عنابة تحتوي على تجارة نافقة، وذكر من سلعها اللحم والعسل والسمك والألبان، وقال إن السمن يصدر منها الى أسطانبول (٢٤). أما عدد سكانها فقد قدره ليون الإفريقي بواحد وعشرين الفا، وبعد حوالي قرنين قدره مردخاي نوح سنة ١٨١٣م بحوالي عشرين ألفا (كان نوح قنصلا لأمريكا في تونس). وقد اعتبرها نوح مركزا تجاريا هاما لصيد المرجان وتصدير الصوف والشمع والجلود والقمح، وقال عنها إنها كانت مقرا لتجار قسنطينة، ومنهم الممثل التجاري للباي. ومن ثمة كانت عنابة مركزا لخليط من الأجانب أيضا (عمال وتجار وبحارة من كل الأجناس). أما علميا فقد اشتهرت فيها أسرة البوني وأسرة ابن العنابي وبعض الطرق الصوفية. ومن أشهر مساجدها جامع سيدي ابي مروان. وعنابة هي التي بنى فيها صالح باي (في القرن الثامن عشر الميلادي) أحد المساجد، بالإضافة إلى العلماء والصلحاء والكتاتيب والمدارس والزوايا التي جاء ذكرها في الفية البوني ومنشور الهداية. وكان قرب عنابة من

---

(٢٢) أبو القاسم سعد الله ، التاريخ الثقافي، ١٧٥/١.

(٢٣) انظر روبير مونتران (R. Mantran)، مجلة الغرب الإسلامي (ROM) ، ١٥-١٦، ١٩٧٣، ص١٥٩.

(٢٤) التمغروطي، النفحة المسكية، مخ، باريس، رقم ٦٨٩٨.

جامع الزيتونة (تونس) قد سهل على طلابها التوجه إليه إذا رغبوا في مواصلة التعلم، سـيما بعد أن أصبحت تونس أيضاً ايالة عثمانية. (٢٥).

وكانت بجاية قد فَقَدَتْ مكانتها الخاصة كنقطة جذب للأندلسيين بالتدرج. ورغـم مكانتـها البحرية والتاريخية (عاصمة الحماديين) فإن عـائلات الغـبريني وابـن خلـدون والثعـالبي والمشدالي قد تركت مكانها لأهل زواوة الذين جعلوها عاصمة تجارية لهم. ولعل من أسـباب هذا التحول لبجاية احتلال الإسبان لها وهروب حَضَرِها منها إلى قسنطينة وتونس. فقد هجرها كذلك أهلها من العلماء والتجار، كما أكد التمغروطي بأن الإسبان قد خربوها فلم تبق فيـها إلا ديار قليلة وقلعة صغيرة. ثم استقر بها حاكم عثماني مهمته منع سقوطها من جديـد فـي يـد الإسبان (٢٦). وكان بيري رئيس قد زارها وقال إن سكانها قد بلغوا ثمانية عشر ألفا، والتقـى بشيخها محمد التواتي في زاويته (زاوية سيدي التواتي). وقد ظلت بجاية قليلة الأهمية التجارية والعلمية إلى عشية الاحتلال الفرنسي، إذ قال عنها مردخاي نوح إنها فقدت قيمتها ولا توجـد فيها سوى صناعات حديدية(٢٧). ولكن هذا لا يعني أنها كانت خالية مـن بعـض المـدارس والمساجد والزوايا والمتعلمين.

وتعتبر بسكرة بوابة الصحراء، وقد وصفها الرحالة بانها كانت كثيرة أسباب العيش. ونحن نجد هذا الرأي عند العياشي والدرعي والورتلاني. ثم تغير حالها إلى الأسوأ. ويبدو أن الحامية العثمانية لم تكن دائما على وفاق مع الأهالي. وقد تحدث الورتلاني عن كون "الأتـراك" قـد استولوا على الأوقاف في بسكرة وعلى "المدارس الكثيرة" يأكلون منها وينتفعون بها كـأملاك "طغيانا وظلما"(٢٨). وتحدث الدرعي عن هروب مفتيها من الحاكم العثماني. وعانت بسكرة من الغارات والنهب التي كان يشترك فيها أهل البدو والترك (٢٩).

---

(٢٥) التاريخ الثقافي، ١/١٧٧.

(٢٦) التمغروطي، مرجع سابق.

(٢٧) نوح (N. Naoah)، مرجع سابق، ص ٣٦٩.

(٢٨) الورتلاني ، مرجع سابق، ص ١١٥.

(٢٩) التاريخ الثقافي، مرجع سابق، ١/١٨٠.

لاحظنا أن عدد العثمانيين كان قليلا في الجزائر وأن أغلبهم كانوا بحارة، أو من الجنود المشاة المتواجدين في الثكنات، وكانت منهم حاميات في مختلف المدن التي ذكرناها ولكن بأعداد رمزية فقط. وقد تمركز بعضهم في قلاع في مواقع حساسة بين الأقاليم أو قريبا من الحدود مع الجيران. ولكن هذا العدد لا يمكنه وحده أن يحافظ على النظام ولا على الأمن، ولا أن يجبي الضرائب ولا أن يعاقب المتمردين، ولذلك كان على السلطات أن تبحث عن مصدر دائم للتجنيد، فكانت أناضوليا تمدها ببعض المتطوعين، وكانت أوروبا تقدم أيضا بعض الذين اختاروا الإسلام على المسيحية، سيما عندما كان البحر يأتي بالغنائم والأسرى. ومع ذلك فان المصدر الحقيقي لتوفير الجنود هو الشعب الجزائري نفسه. فقد أعفت السلطة قبائل (عشائر) بعينها من دفع الضرائب مقابل الخدمات العسكرية والقمعية ضد المتمردين من الرعية في داخل البلاد، كما أبقت السلطات تلك القبائل على أراضيها. ولاشك أن هذا التواجد العسكري، التركي والشعبي (الأهلي)، قد أضعف من الطابع المدني للبلاد، وأضفى عليها الطابع العسكري الذي ظل معها فترة طويلة. وكان على مؤسسات التعليم أن تصبح في المقام الثانوي بالنسبة للمؤسسات العسكرية.

وعلى ذلك النحو تكونت فئة السلطة الحاكمة والى جانبها فئة العسكر بأصنافها. وكانت هذه الفئات ممتازة بوجودها في السلطة أ قريبة منها. ورغم أن أبناء العثمانيين من الجزائريات كانوا لا يتمتعون بنفس الميزة في الحكم فانهم من الناحية الاجتماعية كانوا أيضا من الفئة الممتازة. وقد ساند الاندلسيون الحكم العثماني لوجود المصالح المشتركة بين الطرفين، كما سانده اليهود نظرا للعسف والاضطهاد الذي عانوه على أيدي الإسبان وحصولهم على الأمن من السلطة العثمانية التي منحتهم امتيازات هامة كالإشراف على جودة أو زيف العملة وفحص الذهب والفضة في خزانة الدولة، ومنحهم امتيازات التجارة مع أوروبا تصديرا وتوريدا. وكان من مصلحة الحضر أيضا التعاون مع السلطة العثمانية لأنها هي التي تضمن لهم الاستقرار الضروري لتجارتهم وصناعتهم. وبذلك نفهم أن العثمانيين كانوا على العموم أقرب إلى قلوب سكان المدن منهم إلى قلوب سكان الارياف، ولكنهم لم يكونوا كذلك بالنسبة لرجال الدين وأهل العلم. لقد كان العلماء ورجال التعليم من صنف الحضر طبعا. ولذلك حاول العثمانيون تقريب العائلات العلمية المتنفذة في المدن. ولجأوا أحيانا إلى وسائل الإغراء والتهديد لكسب المؤيدين أو النافرين من العلماء، وكانت اللغة تشكل حاجزا بين الطرفين، فبينما كان العلماء يصلون

إلى قلوب الحكام في المغرب الأقصى عن طريق لغة الأدب والدين كان علماء الجزائر لا يستطيعون الوصول إلى قلوب الحكام العثمانيين الذين ظلوا يستعملون اللغة التركية أو كانوا في أغلب الأحيان غير متعلمين أو يتحدثون فقط إحدى لغات البحر الأبيض المتوسط. ونستطيع إذن أن نفهم لماذا كان العلماء ينفرون من الحكام. وقد اعتمد العثمانيون في أول أمرهم على علماء من إسطانبول، وبقيت هذه الطريقة جارية إلى أن أصبحت المدرسة الجزائرية تكون العلماء والقضاة الأحناف من أبناء الأتراك المولودين في الجزائر. ومع ذلك يمكننا التأكيد على أن إسطانبول بقيت ترسل علماءها إلى الجزائر لملء الفراغ أو الحصول على وظائف لأناس أكثر ولاء وأضمن ثقة للسلطة من علماء الجزائر. ولا غرابة أن نجد عددا من العائلات العلمية ذات الأصول العثمانية أو الألبانية مثل عائلة ابن رجب شاوش، وعائلة ابن العنابي، وعائلة ابن علي وعائلة شكيكن (٣٠).

ولكن هذا لا يعني أن العثمانيين لم يجدوا من يتعاون معهم من علماء الجزائر. فنحن نجد في مدرسي ومعلمي المساجد والزوايا والمدارس قائمة طويلة بأسماء أندلسية وأسماء محلية (وطنية) تولى أصحابها الوظائف الهامة أيضا كالإفتاء والقضاء ومشيخة الإسلام. ومن الاسماء الأندلسية: عائلة ابن نيكرو، وعائلة الكبابطي، وعائلة ابن جعدون، وعائلة ابن ميمون، وعائلة ابن الامين. ومن الأسماء الوطنية عائلة ابن الفكون، وعائلة ابن عبد المؤمن، وعائلة ابن باديس، وعائلة المقري، وعائلة البوني... وكانت مشيخة الإسلام في عائلة الفكون (قسنطينة) منذ انتزعها العثمانيون من عائلة ابن عبد المؤمن (٣١).

لقد هاجر عدد من علماء الجزائر إلى المغرب وآخرون إلى المشرق سخطا على العثمانيين لأسباب مختلفة. وربما كان السبب الأول هو عدم الانسجام معهم وعدم فهم رسالتهم في الجزائر في بادئ الأمر. وقد يكون السبب الآخر هو عسكرة النظام في الجزائر وإبعاد أهل العلم والدين من النفوذ، أو بعثرة المدارس وعدم احترام الأوقاف، فقد بادر بعض العلماء الذين كانوا مرتبطين بالزيانيين إلى التوجه إلى المغرب في انتظار ما تنجلي عليه الأحداث. وهاجر

---

(٣٠) انظر "بين علماء الجزائر وعلماء اسطانبول" في أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج ٣، ص ١٩٥-٢٠٨.

(٣١) أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، بيروت، ١٩٨٦، وكذلك "أربع رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة" في كتابنا تجارب في الأدب والرحلة، الجزائر، ١٩٨٣، ص ٤٣-٦٢.

آخرون بعد أن وجدوا العيش مع العثمانيين غير ممكن مثل سعيد المنداسي الذي توجه إلى المغرب وهجا الأتراك. كما هاجر آخرون من قسنطينة إلى تونس ثم إلى الشرق بحثا عن الاستقرار في بلاد بعيدة عن سيطرة العثمانيين وطلبا للهدوء بعد أن كثرت المصادمات في الجزائر وتونس بين العثمانيين والإسبان، أمثال يحي الشاوي وعيسى الثعالبي وأحمد البوني وعبد الرزاق بن حمادوش. فأنت ترى أن أسباب نفور العلماء مختلفة، وهي تتلخص في طلب العيش الأفضل وضمان الهدوء والتعلم.

وكتعويض عن هذه الهجرة التي أضرت بالحياة التعليمية في الجزائر استقبل الحكام العثمانيون، بالإضافة إلى علماء إسطانبول، علماء من المغرب ومن المشرق ومن تونس، وقد ولوهم وظائف التدريس والقضاء وإدارة الأوقاف ونظارة المدارس وشؤون المساجد. ومن أبرز الأسماء في هذا المجال سعيد قدورة الذي جاء من تونس (وما يزال أصله غامضا) واستطاع بعلمه وفضله أن يفرض نفسه فترة طويلة باعتباره العالم غير المنازع في العاصمة، كما استطاع من هذا المكان أن يورث منصبه لأبنائه وأقاربه حتى ارتبط في أذهان العامة أن المنصب (وهو المدرس الأول بالجامع الكبير) إذا لم يتوله واحد من آل قدورة يصيب البلاد شر عظيم! ومن علماء المغرب الذين حظوا بالتقدير والنزل الكريم والوظيفة السامية: علي بن عبد الواحد الأنصاري الذي أخرج عددا من علماء الوقت بالعاصمة وتوفي بها. أما من ليبيا فقد جاء محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الذي أصبح يعرف بالجزائري نظرا لطول إقامته بالعاصمة وتدريسه فيها. وكان الخروبي أيضا من أبرز رجال الدين والتصوف ومن المقاوضين للمغاربة في صالح العثمانيين.

وقد ورد على الجزائر عدد من العلماء الذين أقاموا ودرسوا وألفوا فيها. وكان بعضهم قد مدح فأكثر، أمثال عبد الرحمان الجامعي وأبي القاسم بن زاكور، واحمد الورززي، وأبي القاسم الزياني، وقد بقي الأخير لاجئا خوفا من عقاب السلطان سليمان له. ويجب أن نسجل هنا أن حركة التعليم في الجزائر قد استفادت من هذه الهجرة. فقد وقع ما نسميه اليوم بتلاقح الأفكار وتبادل المعلومات والمعارف والإطلاع على تجارب الشرق والغرب الإسلاميين في مجال التعليم. وكان بعض العلماء الجزائريين يقضون وقتا في الأزهر الشريف ثم يحصلون على الإجازات ويعودون إلى بلادهم، مثل أبي راس و علي بن الأمين وحمودة المقايسي أوائل

القرن التاسع عشر. وقد تأثر ابن العنابي بنهضة محمد علي باشا بعد أن قضى في مصر مدة وألف فيها كتابه (السعي المحمود[٣٢]) ولم يرجع إلى الجزائر إلا عشية الاحتلال الفرنسي.

وأثناء هذا العهد شهدت الجزائر تأليف عدد من كتب المناقب والتصوف. وكان ذلك في نظرنا رد فعل سلبي ضد العثمانيين. ذلك أن كتب المناقب في الحقيقة كانت تمجيدا لعلماء ومشائخ فضلوا الزهد والابتعاد عن السلطة واهتموا بالعامة وانعزلوا عن المجتمع الذي ساد فيه الظلم وقل فيه العلم وظهر فيه علماء السلطة. إن من يقرأ كتاب بستان الأزهار للقلعي في تمجيد أحمد بن يوسف الملياني[٣٣]، وكتاب البستان لابن مريم في تمجيد الشيخ موسى اللالتي وغيرها من الكتب، يدرك أن مؤلفيها كانوا في الواقع يحتجون على المظالم التي ارتكبها الجنود العثمانيون أو أرتكبها باسم السلطة العثمانية قادة (المخزن) أو القيادات المحلية، وانحسار دور رجال الدين والزهد، وبروز دور رجال السلطة من الفقهاء والعلماء الراغبين في الدنيا والنفوذ. ولعل حملة عبد الكريم الفكون على بعض علماء عصره في قسنطينة والتي عبر عنها في كتابه (منشور الهداية) تعتبر أفصح مثال على حركة الاحتجاج التي نحن بصددها. وقد جاء بعده الورتلاني ليضرب على نفس الوتر ويكثر من الإشادة بأهل الصلاح ونقد أصحاب السلطة.

وبالمقابل قام بعض الحكام العثمانيين برد فعل أيضا، تمثل في تشجيع الطرق الصوفية وبعض رجالها. فقد ازدهرت خلال هذا العهد الطريقة القادرية وكثرت فروعها وأوقافها وشيوخها، وهي طريقة ترجع اصولها إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني دفين بغداد. وقد كان أتباعها يؤدون الزيارة لضريح الشيخ بعد أداء الحج ويقدمون لأولاده هناك ما جاد به الأتباع لشيخهم في شكل صرة مالية من التبرعات. ومن أبرز من كان يفعل ذلك الشيخ مصطفى المختاري ثم ابنه محي الدين والد الأمير عبد القادر. وكانت للشاذلية فروع عديدة وأتباع أيضا، ومن فروعها المتأخرة طريقة محمد العربي الدرقاوي بالمغرب التي كان لها أتباع بالجزائر أيضا. أما الرحمانية فقد ظهرت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وسرعان

---

(٣٢) حققه ونشره محمد بن عبد الكريم، الجزائر، ١٩٨٢، انظر أيضا كتابنا رائد التجديد الإسلامي: ابن العنابي ط ٢، بيروت، ١٩٩٢.

(٣٣) مطبعة كاربونال، الجزائر، ١٩٢٧.

ما انتشرت في وسط وشرق البلاد. وقد تركها مؤسسها عبد الرحمان الأزهري في يد أحد أتباعه المغاربة وهو علي بن عيسى. ولكن الرحمانية لم تكن طريقة موالية للعثمانيين. ثم ظهرت التجانية التي أسسها الشيخ احمد التجاني في آخر القرن الثامن عشر، ولم تكن موالية لهم أيضا.

ونود أن نبدي ملاحظتين على انتشار الطرق في هذه الفترة. الأولى أنها لم تكن تعرف الحدود السياسية القائمة عندئذ، وكان مشائخها مثل رجال العلم والأدب والفقه يتنقلون من بلد إلى آخر دون قيود في أغلب الأحيان. والملاحظة الثانية أن العثمانيين أبدوا تسامحا ملحوظا مع بعض رجال الطرق الصوفية للاستفادة من تأثيرهم على عامة الناس. ولكن بعض الطرق أبدت تمردا على السلطة العثمانية سواء بإيعاز من المغرب أو نتيجة سخط واحتجاج داخلي من جراء تخاذل السلطة في الجهاد أو اضطهاد المشائخ، كما فعلت مع عبد الرحمان الأزهري والشيخ أحمد التجاني، مما دفع الدرقاوية والتجانية إلى الثورة. وقد تأثرت حركة التعليم تأثرا سلبيا نتيجة لهذه الثورات، وخير دليل على ذلك ما كتبه أبو راس الناصر في كتاب (فتح الإله) المطبوع وفي كتابه المفقود (درء الشقاوة).

أشرنا إلى أن التعليم كان حرا وأن المساهمة في تموينه كانت مفتوحة أمام الجميع، حكاما ومحكومين. وأبرز المساهمات في هذا المجال هي الوقف من أجل التعليم وبناء المؤسسات له. وقد شهد العهد تخصيص أوقاف كثيرة ساهم فيها الحكام أنفسهم، فكلما بنى أحدهم مسجدا أو زاوية رصد لها الوقف الذي يضمن لها الاستمرار والازدهار. وتطول القائمة لو أننا ذكرنا ما سجلته الوثائق من تلك الأوقاف المخصصة لخدمة الدين والتعليم. وما تزال تلك الوثائق تحمل أسماء البناة والمؤسسين. فمن ذلك جامع عبد الله صفر (وهو مولى لخير الدين بربروس) [٣٤]، وجامع خضر باشا، وجامع حسين باشا، والجامع الجديد، وجامع عبدي باشا، وجامع علي باشا، وجامع كتشاوة، وجامع علي بيتشين، وغيرها. وكلها في العاصمة. وكان كل جامع له أوقافه وله مدرسة وملحق به غالبا كتاب لتحفيظ القرآن الكريم. وكانت بعض الأوقاف مخصصة لزاوية ملحقة بالجامع لإيواء الغرباء، إضافة إلى بيوت الطلبة والمدرسين والوكيل.

---

(٣٤) انظر البير دوفوكس (A. S. Devoulx)، المجلة الإفريقية R.A. ١٨٧٠، ص ١٨٩.

وإلى جانب المساجد بنى العثمانيون مؤسسات موجهة لخدمة فئة معينة أو إدارة نوع من الوقف. ونعني بذلك مؤسسة سبل الخيرات التي كانت تشرف على أوقاف المساجد والمدارس الحنفية، ومؤسسة الأندلس التي كانت تسهر على خدمة المهاجرين الأندلسيين وتقدم لهم الدعم المادي والمعنوي، كالتعليم والإيواء، وتضم المؤسسة عادة زاوية ومسجدا وكتابا ومقبرة، إلى جانب ما تحتاجه من موظفين ومدرسين. وساهم العثمانيون في تأسيس زاوية للأشراف (آل البيت) تضم أيضا مسجدا وكتابا، ومن أبرز المساهمين فيها محمد بكداش باشا الذي أعترف للأشراف بنقابتهم الخاصة بحيث لا يتولى فيها التدريس والخطابة ونحوهما إلا شريف من آل البيت [٣٥]. وقد تولتها لفترة طويلة عائلة المرتضي وعائلة الزهار، والأخيرة هي التي ظلت فيها حتى الاحتلال الفرنسي.

وقد بنيت زوايا عديدة في هذا العهد، ساهم في بعضها الحكام العثمانيون أنفسهم. وكان الهدف من إنشائها أحيانا إرضاء رجال الدين والصالحين، سيما في المناطق الريفية. وهناك زوايا نشأت في المدن مثل زاوية شيخ البلاد في العاصمة، فقد كانت عبارة عن مدرسة في الحقيقة. ثم زاوية الشيخ الثعالبي وزاوية الولي دادة، وكان في قسنطينة حوالي ست عشرة زاوية، منها زاوية المناطقي وزاوية عبد المؤمن. وفي تلمسان أكثر من ثلاثين زاوية، بعضها كان موجودا قبل العثمانيين ولكن هؤلاء تعهدوه، ومنه زاوية سيدي بومدين، وزاوية السنوسي، وزاوية احمد الغماري... أما الزوايا خارج المدن فمن أشهرها زاوية تيزي راشد، وزاية البلولي، وزاوية الأزهري، وزاوية ابن علي الشريف، وكلها في ناحية زواوة. أما في الغرب فأشهرها زاوية مجاجة وزاوية القيطنة. وأما الشرق فقد احتلت زاوية الخنقة مكانة مرموقة.

وازدهرت في العهد العثماني أوقاف مكة والمدينة. ويدل أسمها على أنها مخصصة للصرة التي كانت ترسل إلى فقراء المدينتين المقدستين من الجزائر مع ركب الحج السنوي. ولكن الواقع هو أن نسبة معينة فقط من هذه الأوقاف كانت تذهب إلى مكة والمدينة، أما الباقي فقد كان يستعمل في أغراض علمية واجتماعية في الجزائر نفسها. فكانت هذه الأوقاف مصدرا لتنشيط التعليم من ابتدائه إلى عاليه، وكان بعض المدرسين والخطباء والأئمة يعيشون من هذه الأوقاف أيضا. ومن جهة أخرى كانت أوقاف الجامع الكبير بالعاصمة ضخمة، وكان

---

(٣٥) محمد بن ميمون، التحفة المرضية، مرجع سابق.

العثمانيون يسهمون فيها مباشرة أو عن طريق مؤسسة أوقاف مكة والمدينة. ويمكننا القول إن الأوقاف كانت المجال الأوسع الذي ظهرت فيه مساهمة الحكام العثمانيين بمختلف مستوياتهم في تنشيط حركة التعليم الملتصقة بالسهر على الدين وحفظه. فقد كان هناك تلازم في أذهانهم بين الدين والعلم (٣٦).

ونود أن نركز الآن على جهود شخصين كان لهما الفضل في تنشيط حركة التعليم بالذات. ونبدأ بدور صالح باي الذي كان متوليا إقليم قسنطينة في آخر القرن الثامن عشر. وكان من مواليد أناضوليا، ولا تربطه بالجزائر سوى الولاية، ومع ذلك اهتم بالكتب والتعليم وتنظيم حياة الناس دينا ودنيا، كما يقولون. وقد طال عهده في الحكم، وكان، حسب وصف المعاصرين، محبوبا عند خاصة الشعب من العلماء ورجال الدين والتجار، لأن المدينة (قسنطينة) شهدت تطورا ملحوظا في عهده. وفيما يخص موضوعنا اهتم صالح باي بإحصاء المدارس والمساجد والأوقاف والمكتبات، وأنشأ مجلسا علميا لمحاسبة الوكلاء على مداخيلهم ونفقاتهم، وبنى عددا من المساجد في عنابة أيضا، ورمم أخرى. واشترى واستنسخ الكتب وأوقفها على المؤسسات العلمية، وخصص المنح لطلاب العلم، سيما أولئك الذين يأتون من خارج المدينة. ويقال إن الدروس قد تقدمت في عهده وشهدت المدينة حركة علمية حيوية في المساجد والزوايا والكتاتيب. ومن قسنطينة كان الطلاب يتوجهون إلى الزيتونة؛ فكانت بقايا هذه "النهضة" العلمية هي التي جعلت الفرنسيين يندهشون من انتشار التعليم عند الاحتلال.

وكان محمد الكبير بايا على معسكر ثم وهران ومعاصرا لصالح باي في قسنطينة. وهو واحد من أبناء الأتراك الذين تزوجوا نساء جزائريات فاطلق عليهم إسم (الكراغلة). وكان من مواليد الجزائر والعارفين بمتطلبات العلماء ورجال الدين. وقد ركز في حكمه على فتح وهران واستعادتها من الإسبان. وجند من أجل ذلك العلماء وطلبتهم، فكانوا يدرسون بالليل ويحاربون بالنهار عند جبل المائدة المطل على وهران. ولكي يرضي العلماء اهتم بالمدارس والمساجد فبنى المدرسة المحمدية بمعسكر ومسجد الباي، كما بنى مساجد أخرى في وهران بعد فتحها ورمم ما كان قد تهدم منها. وخصص جوائز لمن يختصر بعض الكتب المطولة ولمن ينسخ الكتب النادرة لوضعها في المكتبة التي أنشأها. ومحمد الكبير هو الذي كان يراسل محمد

---

(٣٦) للتفصيل، انظر، رين (L. Rinn)، مرابطون وأخوان، الجزائر، ١٨٨٤.

مرتضى الزبيدي صاحب القاموس وكان يمده بالعطايا، وكان الزبيدي من جهته يرسل له الشكر والدعاء الصالح على عادة بعض العلماء. وكانت المدرسة التي بناها محمد الكبير تضم أربعة مدرسين وعددا هاما من الطلبة، وقد خصص له أحمد بن سحنون كتابه (الثغر الجماني) وابن زرفة كتابه (الرحلة القمرية)، كما أثنى عليه المؤرخ أبو راس في كتابه (عجائب الأسفار)(٣٧).

ومع ذلك فهناك نقد لاذع وجه إلى العثمانيين على عدم عنايتهم بالتعليم. ويبدو من الوهلة الأولى أنه لم يكن لديهم خطة لتنشيط التعليم أو إحداث مؤسسة عامة له. فكان اهتمامهم فرديا، وبدافع رغبة الخير والصلاح الكامنة في الفرد منهم، أو التقرب إلى رجال الدين والعلماء. ومن أبرز من انتقدهم في هذا المجال الحسين الورتلاني الذي اتهمهم بأكل أموال الأوقاف وعدم الاهتمام بالمدارس، وقد شكا أحمد البوني من خراب المساجد وقلة العلم إلى محمد بكداش باشا. ونحن نجد في مؤلفات عبد الكريم الفكون ومحمد بن سليمان تعريضا بالعثمانيين في هذا المجال. أما الفرنسيون فقد صبوا غضبهم على العثمانيين واتهموهم بمعاداة الثقافة كما تدل كتابات شارل فيرو وأمثاله. وكان الدكتور شو الإنكليزي والقنصل شيلر الأمريكي معتدلين في نقدهما، ولكنهما انتهيا إلى الحكم بعدم عناية العثمانيين بالصالح العام، ومنه التعليم.

على أن المرء إذا رجع إلى تقارير الفرنسيين التي كتبت بعد حوالي عشر سنوات من الاحتلال يلاحظ أنها تحكم بانتشار التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني بطريقة ملفتة للنظر. فبعد احتلال قسنطينة سنة ١٨٣٧م كتب الجنرال بيدو تقريرا عن التعليم وقدمه إلى وزير الحربية المسؤول عن الجزائر. وقد جاء في هذا التقرير أن التعليم كان منتشرا بحيث لم يتوقع الفرنسيون ذلك. فمدارس الإقليم كانت تخدم جميع مستويات التعليم. وقد بلغت المدارس الابتدائية تسعين مدرسة كان يتردد عليها حوالي ١٣٠٠ تلميذ، وكانت المدارس الثانوية والعليا، وعددها سبعة، تضم ٧٠٠ طالب، بينما المساجد، وعددها ٣٥ مسجدا وكانت غاصة بالمستمعين. وكانت النفقات جميعا من الأوقاف. ولكن مع الاحتلال الفرنسي تدهورت أوضاع التعليم حتى كاد يختفي. ومن أسباب ذلك استيلاء الفرنسيين على الأوقاف، وهجرة العلماء من

(٣٧) أحمد بن سحنون، الثغر الجماني تقديم المهدي البو عبد للي، الجزائر، ١٩٧٧. أما الرحلة القمرية فلم تنشر حتى الآن، وكذلك عجائب الأسفار، وعن الكتاب الأخير انظر كتابنا أبحاث وآراء، ج ١، انظر أيضا:
مارسيل ايمريت M.Emerit الجزائر في عهد الأمير عبد القادر، نقلا عن تقرير طاطارو، باريس، ١٩٥١، ص٩١.

البلاد بعد أن حل بهم الفقر والخوف، وتفرق الطلبة نتيجة الحروب واختفاء المؤسسات والمدرسين. وقد أضاف لويس رين أن فرنسا فعلت ذلك عن قصد، وأن من نتائجه هو الفصل بين الدين والتعليم.

ويمكننا في النهاية أن نستخلص النتائج التالية:

١- نلاحظ منذ البداية انعدام أية خطة لترقية التعليم، فقد تركت أمور التعليم إلى الصدفة وإلى رغبة الأفراد وإمكاناتهم ومشاعرهم الدينية. ولذلك اتخذ التعليم طريقا متعرجة، فهو ينشط أحيانا ويضعف أحيانا، تبعا للمشاعر والرغبات. ومن أجل ذلك لم تنصب الجهود على مشروع جامعة ترسخ تقاليد التربية والتعليم مثل القرويين أو الزيتونة.

٢- إن التعليم والدين كانا صنوين متلازمين. فالدرس والصلاة أو المدرسة والجامع أو المدرس والإمام كانا شيئا واحدا تقريبا. وفي هذا المفهوم كان التعليم أساسا لخدمة الدين، ولحفظ القرآن، ومعرفة العبادات والمعاملات، وحماية الآداب العامة، وتربية الأخلاق الفاضلة وحفظ الصحة. بل حتى معرفة اللغة وقواعدها كان لخدمة الدين وفهم معاني وبلاغة القرآن الكريم. أما شؤون الدنيا من حرب وسلم، ومعاش واقتصاد وزراعة وتجارة وعلوم فلم تكن مجال اهتمام التعليم في الفترة المدروسة.

٣- كانت جهود تنشيط التعليم في كثير من الأحيان لإرضاء رجال الدين وفئة العلماء. فقد كان هؤلاء يضغطون من جانبهم إما للحصول على مصالح طبقية، أو للقيام بالجهاد ضد الإسبان في وهران ونواحيها، أو لإخماد الثورات الداخلية التي كانت تؤذن بضياع مصالح الحضر عامة وفئة العلماء ورجال الدين خاصة. ولا غرابة بعد ذلك أن نجد الأدب المكتوب في العهد العثماني قد تركز على الشخصيات التي لعبت دورا في الجهاد أمثال محمد بكداش باشا الذي ألف فيه ابن ميمون كتابه (التحفة المرضية)، والذي خصه الشعراء بالأمداح رغم قصر مدته، لأنه استرجع وهران من الإسبان للمرة الأولى. أما الشخص الثاني الذي حظي بتراث مكتوب فهو محمد الكبير، باي معسكر الذي استرد وهران للمرة الثانية والأخيرة من الإسبان. فقد خصه أبو راس وابن سحنون وابن زرفة بمؤلفات تمدحه وتشيد بجهود. بينما كان هناك حكام طالت مدتهم ومع ذلك لم يظفروا بأي مدح او تخليد مثل خير الدين وصالح رئيس ومحمد عثمان باشا...

٤- إن وجود العاصمة في مدينة الجزائر قد جعل البعض يحكم، وإلى وقت قريب، بأنه لم يخدم التعليم. ذلك أن التعليم قبل العثمانيين كان راسخا في مدن أخرى مثل تلمسان وقسنطينة، وكانت له تقاليد وهيئة تدريس ثابتة ومؤسسات مستقرة وموارد سخية، ولكن انتقال الإدارة المركزية إلى مرسى صغير ومدينة تكاد تكون مهملة، كمدينة الجزائر، جعل التعليم يصاب بالشلل منذ البداية. ثم احتاج الأمر إلى حوالي قرن لتثبت العاصمة الجديدة جدارتها في قيادة البلاد فكريا كما كانت تقودها عسكريا وسياسيا. ورغم ذلك فإنها لم تستطع طيلة الحكم العثماني أن تكون مركزا فكريا كما كانت تلمسان مثلا قبل هذا العهد. فقد طبعها العثمانيون بطابعهم العسكري من جهة والجبليون بطابعهم الريفي من جهة أخرى.

٥- يظهر من كل العلامات أن الأربعين سنة الأخيرة من الحكم العثماني قد بدأت تعرف "نهضة" في التعليم تمثلت في بناء المدارس ووقف الأوقاف عليها والعناية بالمساجد والترحيب بالعلماء. وكان وراء هذه النهضة غير المتعمدة بعض البايات، أمثال صالح باي ومحمد الكبير والحاج أحمد وبعض الباشوات، أمثال مصطفى باشا وحتى الداي حسين. ومن علامات ذلك وجود علماء تخرجوا من الأزهر، أمثال ابن الأمين والمقايسي وابن العنابي، والأخير هو الذي كتب في هذه الفترة كتابه (السعي المحمود) الذي دعا فيه إلى الإصلاح السياسي والعسكري، كما أن حمدان خوجة قد طاف اوروبا خلال هذه الفترة وكان من "المتنورين" بمفهوم التنوير الاوروبي عندئذ. ومن دراستنا لحياة الأمير عبد القادر قبل الاحتلال نعرف أن زاوية القيطنة كانت تضم مؤلفات فلسفية وفكرية وأنه كان يدرسها ويتأثر بها. كل ذلك يعتبر من المؤشرات لنهضة تعليمية واعدة أشارت إليها التقارير الفرنسية فيما بعد، ولكنها نهضة حكم عليها الاحتلال بالموت إذ جعل المثقفين يهاجرون، والطلبة ينشغلون بالمقاومة، فعفت المدارس والمساجد ونضبت الأوقاف وصوح درس العلم على حد تعبير ابن الشاهد:

ولثم درس العلم والليل عسعس ونادى بتعطيل العلوم على النشر.

مراجع البحث

- الإفريقي، ليون :

وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط٢، بيروت، ١٩٨٣.

- إيمريت، مارسيل :

الجزائر في عهد الأمير عبد القادر، باريس، ١٩٥١.

- برونشفيك، روبير :

" نصان من رحلة مخطوطة في إفريقية الشمالية في القرن ١٥ "، باريس، ١٩٣٦.

- بنانتي ، سنيور:

قصة إقامة في الجزائر، لندن، ١٨٣٠.

- التمغروطي علي :

النفحة المسكية في السفارة التركية، تحقيق سليمان الصيد، دار أبو سلامة، تونس، ١٩٨٩م.

أيضا مخطوط باريس، ٦٨٩٨.

- الجامعي عبد الرحمن :

شرح الحلفاوية، مخ. باريس، ٥١١٣.

- الجزولي محمد بن سليمان :

كعبة الطائفين وبهجة العاكفين، مخ. بحثان عنه في أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، تأليف أبي القاسم سعد الله ، ج٢، ٣، بيروت، ١٩٩٠.

-دابر:

وصف أفريقيا، أمستردام، ١٦٨٦.

-ديفوكس، البير :

المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر، الجزائر، ١٨٧٨.

-رين لويس :

مرابطون وأخوان، الجزائر، ١٨٨٤.

- ابن زاكور أبو القاسم :

نشر أزاهير البستان، (آخر القرن ١٨).

-ابن زرفة أحمد :

الرحلة القمرية، مخ. خاص (آخر القرن ١٨).

-ابن سحنون، أحمد :

الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تقديم المهدي البوعبدلي، الجزائر، ١٩٧٧.

-سعد الله، أبو القاسم :

رائد التجديد الإسلاميه: ابن العنابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٢.

-سعد الله، أبو القاسم :

تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨.

-سعد الله، أبو القاسم :

"كتاب علاج السفينة في بحر قسنطينة " في مجلة كلية الآداب، الجزائر، ٢، ١٩٦٩. أيضا في أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج١، ط٢، ١٩٩٠.

- سعد الله، أبو القاسم :

" بين علماء الجزائر وعلماء إسطانبول"في أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠.

-سعد الله، أبو القاسم :

شيخ الإسلام : عبد الكريم الفكون، درا الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦.

-سعد الله، أبو القاسم :

" أربع رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة " في تجارب في الأدب والرحلة، الجزائر، ١٩٨٣.

- ابن عمار، أحمد :

نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب، تحقيق محمد بن أبي شنب،الجزائر، ١٩٠٣.

- ابن عمار، أحمد :

مختارات مجهولة من الشعر العربي، تحقيق أبو القاسم سعد الله، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢.

-ابن العنابي، محمد بن محمود :
السعي المحمود في نظام الجنود، تحقيق محمد بن عبد الكريم، بيروت، ١٩٨٢.

-الفكون، عبد الكريم :
منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧.

- القلعي، محمد الصباغ :
بستان الأزهار في مناقب الشيخ أحمد بن يوسف الملياني، مطبعة كاربونال، الجزائر، ١٩٢٧.

-المديوني، محمد بن مريم :
البستان في ذكر العلماء والصلحاء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر، ١٩٠٨.

-المشرفي، أبو حامد العربي :
ياقوتة النسب الوهاجة.... مخ. (في نسب محمد بن علي المجاجي، دفين زاوية مجاجة بالجزائر)، نسخة خاصة.

-مونتران، روبير :
" وصف السواحل الجزائرية في الكتاب البحري لبيري رايس"، مجلة الغرب الإسلامي، Rom ١٥-١٦-١٩٧٣ فيص ص ١٥٩-١٦٨.

-ابن ميمون، محمد :
التحفة المرضية في الدولة البكداشية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، ١٩٧٢.

-الناصر أبو راس :
فتح الإله ومنته... تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، ١٩٩٠.

-الناصر أبو راس :

عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخ. انظر دراستنا عنه في أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج١، دار الغرب الإسلامي بيروت، ١٩٩٠.

-نايت، فرنسيس :

سبع سنوات في الجزائر، لندن، ١٦٤٠.

-نوح مردخاي :

رحلة ، ١٨١٩.

-نيقولاس، نيقولاي :

تاريخ الترك العام، باريس، ١٦٦٢.

- الورتلاني، الحسين :

رحلة الورتلاني : نزهة الأنظار، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر،١٩١٠.

المؤسسة التعليمية بمدينة الجزائر أثناء الفترة العثمانية

(دراسة حول الدور التعليمي للمساجد والزوايا والمدارس والكتاتيب)

الدكتورة زكية زهرة
قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية
جامعة الجزائر

تميزت الفترة العثمانية من تاريخ مدينة الجزائر بانتشار المؤسسات التعليمية بمختلف أصنافها ومراحلها، وخاصة الكتاتيب أو المسايد(١)، التي كانت بمثابة مدارس ابتدائية.

وقد كانت مؤسسات الوقف أحد العوامل الرئيسية في انتشار التعليم وتشجيعه، كما كان لشغف الجزائريين بالعلم وحرصهم الشديد على تعليم أبنائهم دور أساسي في ذلك، ولولا العامل المادي المتمثل في الوقف والدافع النفسي المتمثل في تعلق السكان بالتعليم، لما كان في مقدورنا تناول هذا الموضوع في بحثنا، ولظلت مدينة الجزائر العريقة فاقدة للعمق الحضاري وللطابع الثقافي العربي الإسلامي، ولغدت كما تصورها الأدبيات الأوربية إبان هذه الفترة مدينة بدون روح تتأثر بالبحر وتتعامل مع عالمه الخاص وما يفرضه من تجارة وعلاقات خاصة، ولعل التركيز على النشاط البحري للمدينة هو الذي جعل تلك الأدبيات الأوربية تغفل مجال الثقافة والتعليم لمدينة الجزائر العثمانية رغم كونه الميدان الحيوي والحساس في تاريخ أي مجتمع أو شعب.

---

(١) المسايد، جمع مسيد : تعبير محلي دارج يطلق على مدارس التعليم الابتدائي، ومازال متداولا لدى سكان مدينة الجزائر إلى اليوم.

ولقد أدى هذا التوجه في دراسة تاريخ مدينة الجزائر في العهد العثماني إلى تكريس فكرة خاطئة أصبحت اليوم في العديد من الكتب بمثابة القناعات الراسخة، وهي تحفظ أو معاداة حكام الجزائر العثمانية للعلم ورجاله وللثقافة وأهلها، لكن الواقع يشهد أن هؤلاء الحكام أوكلوا التعليم إلى مؤسسات تعليمية ودينية تتمتع بحرية المبادرة والتصرف ومنها تنظيمات الأوقاف، وهذا ما أبعدهم عن الاهتمام بقضايا التعليم والمسائل الثقافية، فلم يولوا أية عناية لكل ما يتصل بها، ولم يفكروا حتى في إحداث هيئة أو مجلس أو ديوان أو شيء من هذا القبيل يشرف على ميدان التعليم بمختلف مستوياته، الأمر الذي يسمح لنا بالقول بأن حكام الجزائر في العهد العثماني لم تكن لهم سياسة تعليمية محددة الخطوط وواضحة المعالم[٢].

إن غياب سياسة محددة للتعليم لدى السلطة الحاكمة حال دون وجود برامج مسطرة ومناهج واضحة وقوانين مضبوطة تلتزم بها مؤسسات التعليم وتعمل على تنفيذها، وبالتالي يمكن من خلالها للتلميذ الانتقال من طور إلى آخر حتى يرتقي إلى أعلى مستويات التعليم.

وقد نتج عن غياب السلطة الحاكمة عن ميدان التعليم وتوجهها لأمور وقضايا أخرى[٣]، ظهور مؤسسات تعليمية قائمة بذاتها تمارس مهنة التعليم بمدينة الجزائر وغيرها من المدن الجزائرية، وخاصة منها مدينتي تلمسان وقسنطينة. ويقوم هذا التعليم على شبكة من المؤسسات التعليمية، تتمثل أساسا في الكتاتيب (المسايد) والزوايا والمدارس والمساجد.

إن هذا الوضع يطرح علينا عدة تساؤلات مهمة نعتبرها بمثابة إشكالية لهذا البحث، ومنها التساؤل عن الدور الذي أدته المؤسسات الدينية في ميدان التعليم، وهل كان ذلك الدور في المستوى المطلوب؟ وهل أصبحت مدينة الجزائر بمؤسساتها هذه مركز إشعاع ثقافي ومحطة استقطاب للعلماء الأجانب؟ وهل استطاعت هذه المؤسسات أن تكوّن نخبة من "العلماء"[٤]

---

(٢) سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (١٦ – ٢٠ م)، ج.١، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ١٩٨١، ص. ٣١٥.

(٣) مهما كانت الأسباب التي أبعدت الحكام عن الاهتمام بالتعليم، فإن هذا في نظرنا لا يبرر موقفهم الذي أثر سلبا على التعليم.

(٤) المقصود بالعالم في إطار هذا البحث، و اعتمادا على المصطلح الشائع، هو كل مثقف له معرفة متميزة في أحد فروع المعرفة الإسلامية بمفهومها الواسع و لا سيما ما يتصل بالدراسات الدينية و اللغوية و العقلية...

تركوا بصماتهم واضحة في الرصيد الثقافي للجزائر وكانت لهم مكانة في الحياة العلمية في العالم العربي والإسلامي الذي تفاعلوا معه أو انجذبوا إليه؟

ولا يمكن الإجابة عن هذه التساؤلات دون أن نعرج على محورين هامين، وهما موقف الجزائريين من العلم والتعليم من جهة، ودور الأوقاف في الإشراف على التعليم وتشجيعه ونشره من جهة أخرى.

أ- حرص سكان مدينة الجزائر على تعليم أبنائهم :

إن حرص عامة الجزائريين وخاصة سكان مدينة الجزائر، سواء منهم الأغنياء أو الفقراء، على تعليم أبنائهم، كان نابعا من إحساس عميق وعن أصالة المجتمع الحضري لمدينة الجزائر المتشبع بتعاليم الإسلام والمتشبث بقيمه[٥]، مما يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وهذا ما يضع الشخص المتعلم في مكانة متميزة ودرجة عالية دون سواه من أفراد المجتمع. فمجتمع مدينة الجزائر وغيرها من مدن القطر الجزائري كان المتعلم فيه يحظى بالاحترام والتقدير، وهذا ما يتطلب منا تحديد مواصفات المتعلم بأنه ذلك الشخص الذي يعرف الكتابة والقراءة والدين والحساب، وذلك الموظف الذي يمارس مهنة المعلم والكاتب والإمام والقاضي والمفتي وغيرها من الوظائف التي لا يصل لها ولا يرقى إليها إلا من تلقى تعليما بالكتاتيب والمدارس. وهذا ما جعل العائلات المتنفذة بمدينة الجزائر تحرص كل الحرص على تعليم أبنائها حتى يمكن لها القيام ببعض المهن المرتبطة بالتعليم كمهنة القضاء والافتاء التي توارثها أفراد عائلات معروفة أبا عن جد، ومن هذه العائلات نذكر على سبيل المثال عائلة المرتضى وقدورة عن المذهب المالكي، وعائلة ابن عنابي عن المذهب الحنفي[٦].

فبفعل هذا الواقع الاجتماعي والمناخ الثقافي أصبح التعليم في نظر غالبية الجزائريين في العهد العثماني وكأنه فريضة لا بد من أدائها وواجب يتوجب القيام به، وهذا ما دفع السكان إلى وضع كل إمكانياتهم في خدمة التعليم، فأوقفوا على مؤسساته بعض ممتلكاتهم من ديار

---

(٥) منها الحديث الشريف:" اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"،وكذلك الآية الكريمة: "هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ".

(٦) نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، ج.٢، قسنطينة، مطبعة البعث، ١٩٦٥، ص. ١٨٣ و ١٨٧. وكذلك : سعد الله، أبو القاسم، المصدر نفسه، ص. ٤٠٥-٤٠٦.

وأراض وماشية ولوازم منزلية ومكتبات[٧] وغيرها من الأمور التي يمكن أن تساهم من بعيد أو قريب في سد نفقات التعليم والقيام بشؤون القائمين عليه.

ب- دور الأوقاف في انتشار التعليم بمدينة الجزائر :

لا يمكن أن نتحدث عن وضع التعليم في مدينة الجزائر دون التطرق إلى دور الأوقاف في رعايته والتشجيع عليه. فالأوقاف هي الأداة العملية التي كانت تسهر على أداء المساجد والمدارس والزوايا لمهامها الدينية ورسالتها التعليمية، فينفق من ريعها على القائمين على هذه المؤسسات، ومن مدخولها تسد حاجات الشيوخ والطلبة[٨] وخاصة المعوزين منهم، وبفضل هذه المداخيل التي توفرها الأوقاف أمكن لبعض الطلبة أن يتلقوا مبالغ مالية في شبه منح حتى يتمكنوا من سد حاجاتهم ومواصلة دراستهم، وهذا ما كان معمولا به بمدينة الجزائر وقسنطينة، وقد كان عدد الطلبة في هذه المدينة الأخيرة الذين يحظون بمنحة من مؤسسات الأوقاف يقدر ب١٥٠ طالبا من مجموع ٧٠٠ طالبا، وقد كانت هذه المنحة تقدر أواخر العهد العثماني بحوالي ٣٦ فرنكا فرنسيا[٩].

لقد ساهم في تلك الأوقاف أفراد محسنون من الرجال والنساء[١٠] ومن الأغنياء والموسرين وأفراد الطبقة الوسطى وحتى من ذوي الدخل المحدود والفقراء. وكانت مساهمة بعض الحكام والموظفين الكبار كبيرة تعكس مقدار ثرواتهم ومدى نفوذهم[١١].

---

(٧) بوعزيز، يحي، أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين التاسع عشر و العشرين، الثقافة، العدد ٦٣، ١٩٨١، ص. ٢٢.وكذلك : سعيدوني، ناصر الدين، الوقف و مكانته في الحياة الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بالجزائر أواخر العهد العثماني و أوائل الاحتلال الفرنسي، نشر بكتاب دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٤، ص. ١٤٩-١٦٩. عن أوقاف المنشآت الدينية المخصصة للتعليم بمدينة الجزائر، أنظر :

DEVOULX, *Les édifices religieux de l'ancien Alger*, Alger, Typographie Bastide, 1870.

وهذا العمل منشور كذلك في المجلة الإفريقية (*Revue africaine*).

(٨) سعد الله، أبو القاسم، المصدر نفسه، ص. ٢٢٧. سعيدوني، ناصر الدين، الوقف و مكانته...، المصدر نفسه.

(٩) M. EMERIT, L'état intellectuel et moral de l'Algérie en 1830, in *Revue des travaux de l'Académie des sciences morales et politiques*, 1954, p. 5.

(١٠) سعيدوني، ناصر الدين، وثائق الأوقاف بالأرشيف الجزائري، المجلة التاريخية المغاربية، زغوان، عدد ٩٣-١٩٩٩/٩٤، ص. ٢٦٧-٢٦٨. A. DEVOULX, op.cit.

أنظر كذلك : غطاس عائشة، إسهام المرأة في الأوقاف في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، المجلة التاريخية المغاربية، العدد ٨٥-١٩٩٧/٨٦، ص. ٩٩-١٣١.

(١١) M. EMERIT, op.cit., p. 2.

إن مساهمة بعض حكام الجزائر في أوقاف التعليم يجعلنا نقر بأن هؤلاء وإن لم يكونوا يهتمون بالإشراف على التعليم إلا أنهم لم يحاولوا عرقلته بل عملوا بمبادرة منهم كأفراد وليس كسلطة على نشر التعليم والمشاركة بما لهم من أموال في بناء المساجد والزوايا التي تتوفر على أماكن للتعليم والدراسة.

لقد كانت مؤسسات الأوقاف تخضع لنظام محكم، إذ يعود التصرف في كل مؤسسة إلى وكيل يوافق على تعيينه ديوان الجزائر ويعينه الداي أو أحد مساعديه الأقربين، وتوكل إلى هذا الوكيل مهام السهر على تطبيق ما تنص عليه الوثائق الوقفية للمؤسسة التي يشرف عليها، ويراقبه في ذلك مجلس من بعض العلماء والموظفين، وذلك حتى تحفظ مصالح الأوقاف التي يتصرف فيها[١٢]، وتتشكل أوقاف مؤسسات الوقف من الأملاك الموقوفة والتي يضبط التصرف فيها بوثائق وقفية يحررها القاضي حسب الشروط المتوجبة في الوقف، فتكتسب صفة الوثيقة الوقفية بإقرارها وتسجيلها في سجل رسمي يسمى بدفاتر الأوقاف[١٣] موضوع تحت إشراف ومراقبة المفتي، هذا ويرجع إلى الوثيقة "الوقفية" كلما اقتضت الحاجة ذلك، خاصة عند نشوب النزاعات[١٤]، وباعتبارها وثيقة رسمية فإن الدفتر المسجلة فيه يحفظ عند ناظر المؤسسة، وقد وصلتنا دفاتر مؤسسة الجامع الأعظم التي تعود إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر، منها دفاتر ترجع إلى سنة ١٦٧١ م وأخرى مؤرخة في عام ١٦٨٧م[١٥].

مع العلم بأن وكيل الوقف الذي كان يعين من طرف الجهاز الاداري، كان موظفا حكوميا يتقاضى مرتبه من عائدات الوقف و ليس من الجهاز الاداري الذي عينه، أنظر : سعيدوني، ناصر الدين، موظفو مؤسسة الأوقاف بالجزائر، المجلة التاريخية المغاربية، زغوان، عدد ٥٧-٥٨/١٩٩٠، ص. ١٧٥-١٩٨. A. DEVOULX, op.cit., p.2.

G. BUSSON DE JANSSENS, Contribution à l'étude des habous publics, Thèse de doctorat en droit, Alger, 1950 (Texte dactylographié, in *A.O.M.*, n° 7624), p.26.

(١٢) M. EMERIT, op.cit., p.3.

(١٣) ضاع كثير من هذه السجلات عند استيلاء الجيش الفرنسي على الجزائر و قد فقد سجل أوقاف الجامع الكبير عندما طرد المفتي المالكي منه سنة ١٨٤٣ م، و قد وجدت نسخة أخرى منها عند القاضي المالكي لكنها غير كاملة (و قد تكون قد استنسخت)، أنظر : A. DEVOULX, op.cit., p.16.

(١٤) G. BUSSON DE JANSSENS, op.cit., p.27.

(١٥) يعد الجامع الأعظم أو الكبير أقدم و أعظم جوامع مدينة الجزائر، و يعود تاريخ إنشائه إلى عهد الدولة المرابطية، أنظر عنه:

A.DEVOULX, *Notes historiques sur les mosquées et autres édifices religieux d'Alger*, Alger, Jourdan, 1912.

R. DOKALI, Les mosquées de la période turque à Alger, Alger, *S.N.E.D.*, 1974.

هذا وتتنوع الأوقاف إلى أوقاف ذرية أهلية يعود الانتفاع بمردودها إلى من أوقفها إلا بعد انقضاء عقبه، وإلى أوقاف خيرية عامة يرجع مدخولها إلى المؤسسة أو الجهة التي أوقفت عليها، وهذه الأوقاف سواء كانت أهلية أو خيرية، كانت تتوزع على عدة مؤسسات منها مؤسسة أوقاف سبل خيرات مدينة الجزائر التي كانت موجهة للإنفاق على المساجد الحنفية الثمانية(١٦) وعلى رعاية ما يتصل بها وبأتباع المذهب الحنفي من زوايا ومدارس(١٧)، وقد أثبتت الإحصاءات التي تعود إلى عام ١٨٣٧ م، أي بعد مرور سبع سنوات من الاحتلال الفرنسي للجزائر، بأن عائدات سبل الخيرات كانت تتكفل بتسديد مرتبات الوكيل والكاتب (الخوجة) والقيم أو الحارس المعروف محليا بالشاوش، بالإضافة إلى ٨٨ طالبا أو قارئا مكلفا بقراءة الحزب(١٨).

لقد كانت عوائد سبل الخيرات تتميز بضخامتها نظرا لغنى الحكام وثراء العائلات المرتبطة بهم والتي كانت تنتسب إلى المذهب الحنفي، فقد قدرت سنة ١٨٣٧ بمبلغ ٣٦٣١ فرنكا(١٩)، وهذا ما مكنها من الأنفاق على المؤسسات الدينية والتعليمية الحنفية بمدينة الجزائر، وفي طليعتها الجامع الجديد الذي يعد المسجد الرئيسي للأحناف بمدينة الجزائر، فقد كان يجتمع فيه مفتي الحنفية وقضاتها، وقد بني هذا الجامع سنة ١٦٦٠ م من وقف ساهم به الجيش الانكشاري العثماني، وأقيم على أنقاض مدرسة عتيقة متهدمة تعرف بمدرسة بوعنان أو المدرسة العنانية الملحقة بزاوية مولاي بوعنان(٢٠). وقد جاء في نص وقفية هذا المسجد أن أحد الانكشارية ويدعى الآغا الحاج محمد بن علي أقام هذا الوقف بغرض الأنفاق على قارئي

V. WAILE, Autour des mosquées d'Alger, in *Revue africaine*, 1899.

نور الدين عبد القادر، المصدر نفسه، ج.٢، ص. ١٥٠.

(١٦) G. BUSSON DE JANSSENS, op.cit., p.34.

سعيدوني، ناصر الدين، دراسات في الملكية العقارية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٦، ص. ٨٨-٨٩.

يذكر أبو القاسم سعد الله تسعة مساجد حنفية و ليس ثمانية.

(١٧) سعد الله، أبو القاسم، المصدر نفسه، ص. ٢٣٤.

M. EMERIT, op.cit., p.2.

G. BUSSON DE JANSSENS, op.cit., p.33.

(١٨) G. BUSSON DE JANSSENS, op.cit., p.33 et note 4 de la même page.

(١٩) M. EMERIT, op.cit., p.2.

(٢٠) A. DEVOULX, *Les édifices*..., op.cit., p. 140.

القرآن بالمسجد الذي بني مكان المدرسة العنانية ويقصد به المسجد الذي أصبح يعرف فيما بعد بالجامع الجديد(٢١).

ومن المؤسسات الوقفية المهمة بمدينة الجزائر مؤسسة أوقاف الجامع الكبير مركز المذهب المالكي الذي يأخذ به أغلب السكان، وهذا ما جعله أعظم وأهم جامع في مدينة الجزائر، وقد ظل كذلك إلى يومنا هذا، وبالرغم من أنه كان جامعا تابعا للمذهب المالكي في الوقت الذي كان فيه الحكام من أتباع المذهب الحنفي، فقد كان هذا الجامع مقر اجتماع المجلس القضائي "العلمي" بمدينة الجزائر والذي كان بمثابة المحكمة العليا، بحيث كانت له صلاحية النظر في المسائل الكبرى الدينية والمدنية وحتى السياسية وإليه يرجع التصرف في شؤون أوقاف المذهب المالكي بمدينة الجزائر، وهذا ما جعل أوقافه تتعدد(٢٢) ومردودها يرتفع، فقد قدرت عائداتها سنة ١٨٣٧م بمبلغ ١٢٠٠٠ فرنك(٢٣).

لقد كان نصيب كبير من هذه المداخيل التي توفرها أوقاف الجامع الأعظم يعود إلى القائمين بشؤون التعليم من شيوخ وطلبة، وهذا ما أكدت عليه العديد من وثائق وقف الجامع الكبير، وفقد نصت وقفية تابعة له يعود تاريخها إلى سنة ١٧٩٠-١٧٩١ م على أن صاحبها أوقف أملاكه للانفاق على تعليم العلوم الدينية ورعاية القائمين بها(٢٤)، كما نصت وثيقة أخرى يعود تاريخها إلى سنة ١٦٤٢ م على أن مفتي الجامع الكبير المدعو سيدي سعيد بن الحاج إبراهيم قد اشترى من عائدات أوقاف الجامع الكبير كتبا، وأنفق منها على إنشاء مسجد ومدرسة وكذلك لإقامة مسكن لإمام هذا المسجد(٢٥).

---

(٢١) Idem, pp. 140-142.

(٢٢) عن وقف الجامع الكبير، أنظر : التميمي، عبد الجليل، وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر، تونس، منشورات المجلة التاريخية المغربية، عدد ٥، ١٩٨٠.

(٢٣) سعيدوني، ناصر الدين، الأوقاف العقارية بفحص مدينة الجزائر أواخر العهد العثماني، نشر في كتاب "دراسات و أبحاث في الملكية العقارية"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٦، ص. ٧١-١٠٨.
M. EMERIT, op.cit., p.2.

(٢٤) A. DEVOULX, *Les édifices...*, op.cit., p. 122.

(٢٥) Idem, p. 124.

ويتوفر الجامع الكبير على زاوية تعرف بزاوية المسجد الكبير تقع بالقرب منه، وقد أسست حسب وثيقة الوقف الخاصة بها في الربع الأول من القرن السابع عشر (١٦٢٩-١٦٣٠ م)، وهي تحتوي على غرف لإيواء العلماء الفقراء، وقاعة تعتبر بمثابة مسجد صغير بدون منارة ومكتب (أي مسيد) مخصص لتعليم الأطفال[٢٦].

كل ما سبق في شأن الوقف نعتبره نماذج معبرة عن ارتباط الوقف بواقع التعليم في مدينة الجزائر في العهد العثماني، لا يتسع المجال في هذا البحث للتوسع فيها والاحاطة بمختلف مظاهرها المتنوعة وجوانبها المتعددة.

مؤسسات التعليم :

أ- التعليم الأولي (الابتدائي) :

وهو ما يمكن أن نعتبره تعليما ابتدائيا، فقد كانت تشرف عليه الكتاتيب (المسايد) بالدرجة الأولى وبعض الزوايا التي توفر بجانب التعليم الأولي للأطفال تعليما متوسطا وعاليا لمن أنهوا دراستهم الأولية، كما سوف نتطرق إلى ذلك عند تعرضنا إلى مرحلة التعليم المتوسط والعالي.

هذا وقد كانت أغلب الكتاتيب في مدينة الجزائر تابعة لمؤسسات وقفية أو تعود إلى أوقاف خاصة وضعت بهدف تعليم الأطفال، وهذا ما سمح للكثير من سكان مدينة الجزائر من تحويل ما يملكونه إلى كتاتيب، ولو كان دكانا متواضعا أو غرفة منعزلة، ، هذا بالإضافة إلى الكتاتيب الرئيسية التابعة لمساجد وزوايا مدينة الجزائر، وهي تتميز بملاءمتها لمهمة التعليم وتوفرها على الشروط الضرورية لمزاولته.

يستقبل الكتاب الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين ستة أعوام وعشرة، أما المدة التي يقضيها التلميذ في الكتاب فهي عادة لا تتجاوز الأربع سنوات[٢٧]، أي أن أغلب التلاميذ الذين

---

(٢٦) Idem, p. 123.

(٢٧) P. FONCIN, L'instruction des indigènes en Algérie, in *Revue internationale de l'enseignement*, n° 6, 1983, p. 703; E. LAPENE, *Tableau historique de l'Algérie*, Metz, Lamort, 1845, p. 200; Dr SHAW, *Voyage dans la Régence d'Alger*, traduit de l'anglais par J. MAC CARTHY, 2è éd., Tunis, Bouslama, 1980, p. 78; M. EMERIT, op.cit., p. 5.

يصلون إلى سن العاشرة أو الرابعة عشر يكونون قد أنهوا تعليمهم الأولي. هذا ونـــادرا مـــا يتعدى عدد التلاميذ في الكتاب الواحد ١٥ إلى ٢٠ تلميذا وقد يصل إلى ٣٠ تلميذا في بعــض الأحيان(٢٨)، وهذا العدد يسمح للمعلم الذي يعرف محليا " بالطالب "(٢٩) أن يشرف علــى كــل الأطفال، مع العلم بأنه في كل كتاب يوجد الأطفال المبتدئون الذين لم يتعلموا بعد مبادئ الكتابة والقراءة إلى جانب أطفال تقدموا في تعليمهم وأصبحوا على وشك ختم القرآن الكريم وإنـــهاء دراستهم " الأولية "(٣٠).

أما من حيث الطريقة ووسائل التعليم المعتمدة في الكتاب، فقد كان الطلبة يجلســون علــى أبسطة " حصائر " تفرش على الأرض، ويتحلقون حول المعلم " الطالب " على شكل دائــري، ويستعملون في تعلمهم اللوح الخشبي المصقول والذي يطلى بالطين الناعم (الصيصـــال)(٣١). وقد اعتبر الأسير الأمريكي بمدينة الجزائر وهو كاثكارت (Cathcart) أن طريقة الكتابة علــى اللوح الخشبي وسيلة ملائمة وطريقة اقتصادية لعدم اعتمادها على الورق(٣٢).

إن التعليم الذي يتلقاه الطفل في الكتاب يتلخص في تعلم الكتابة والقراءة وحفظ ما تيسر لــه من القرآن الكريم عن ظهر قلب، فيبدأ عادة باستظهار سورة الفاتحة ثم يواصل بعدهــا حفــظ السور الأخرى، وقد يتمكن إن واصل تعلمه من إتمام حفظ سور القرآن كلها " ختم القـــرآن ". كما يتعلم التلميذ عادة في الكتاب كيفية القيام بالشعائر الدينية، فيتعلم كيفية الوضوء والصـــلاة، وقد يتلقى بعض المبادئ في الحساب(٣٣). هذا وغالبا ما يقضي التلامذة النجباء الذين ينـــهون حفظ القرآن في فترة قصيرة السنوات المتبقية من مرحلة تعليمهم الأولي والتي تدوم غالبا أربع سنوات، في استظهار القرآن والتدرب على تلاوته والبدء في تجويده وإتقان الخـــط والتمــرن

---

(٢٨) يذكــر P. BOYER, *La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française*, Paris, Hachette, 1963, p. 201. إمريت (EMERIT)، ص. ١٠، بأن عددهم يتراوح ما بين ٢٠ و ٣٠ تلميذا، و لا أميل إلى هـــذا الـــترجيح لكــون الكتاتيب كانت منتشرة بكثرة و المكان المخصص لكل كتاب كان ضيقا.

(٢٩) الطالب هو اسم المعلم في الكتاتيب و يدعى كذلك بالمؤدب.

(٣٠) P. BOYER, op.cit., p. 201.

(٣١) Dr SHAW, op.cit., p. 78.

(٣٢) كاثكارت، مذكرات أسير أمريكي، قنصل أمريكا في المغرب، ترجمها من الإنكليزية و علق عليها قدم لها إســماعيل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٢، ص. ٩٨.

(٣٣) P. BOYER, op.cit., p. 199,202; M. EMERIT, op.cit., p. 4-5

على القراءة، فيكونون خير معين للمعلم " الطالب " على تعليم الجدد الحديثي العهد بالكتاب(٣٤). وقد كان الاعتناء بالخط والتدرب عليه من طرف الأطفال النجباء عاملا ساعد على المحافظة على قواعد الخط العربي متوارثة، بل جعل عملية استنساخ الكتب وبخط جميل شائعة بمساجد الجزائر وزواياها، وهذا ما شهد به كاثكارت، وسجله في مذكراته بقوله: " قد يبدو لنا أنه من المستحيل أن يتعلم الطالب أن يكتب خطا جميلا بهذه الطريقة (ويقصد هنا الكتابة على اللوحة)، ولكنه مما يدعو إلى الدهشة والتعجب أنهم يكتبون خطا عربيا في غاية الجمال. ولقد أتيح لي أن أرى مصاحف مكتوبة بخط عربي يشرف أعظم مكتبة في العالم أن تقوم بإنجاز مثلها"(٣٥).

عند تخرج التلميذ من الكتاب ويكون معدل عمره يتراوح بين ١٠ و ١٤ سنة، ويكون قادرا على تعليم القرآن في الكتاتيب، يلقب " بالطالب " ويحظى تبعا لهذا اللقب التشريفي بإضافة كلمة " سي "(٣٦) لدى العامة، دلالة على احترام المجتمع له وتقديره لعلمه.

ولما كان الانتقال من الكتاب أو من مرحلة التعليم الأولي " الابتدائي " إلى مستوى أعلى منه غير منظم ولا يخضع لشروط مسبقة، فإن غالبية الأطفال يتوقفون عن متابعة تعليمهم بعد خروجهم من الكتاب، وخاصة منهم الفقراء وأبناء العائلات التي تمتهن الحرف وتزاول التجارة، وإن كان من أطفال هذه الأوساط من يعود إلى الدراسة في المدارس والمساجد بعد أن يكبر وتصبح له رغبة في العلم واكتساب المعرفة(٣٧)، بعد أن يكون قد شق طريقه في الحياة بتعلم مهنة وإتقان حرفة، هذا إن لم ينخرطوا في أعمال الوظائف البسيطة أو اندمجوا في الجند أو التحقوا بالحاميات أو البحرية(٣٨). أما القليل ممن أنهوا تعليمهم الأولي فإنهم يواصلون دراستهم ويتجهون نحو المدارس والمساجد التي تتوفر على أئمة فقهاء وشيوخ علماء وقضاة ومفاتي، وعندما يتخرجون يمتهنون التعليم بجانب واجباتهم في القضاء، فيحرصون على تلقين

---

(٣٤) كاثكارت، المصدر نفسه، ص. ٩٨. سعد الله، أبو القاسم، المصدر نفسه، ص. ٣٤٦. بوعزيز، يحي، المصدر نفسه، ص. ١٤. P. BOYER, op.cit., p. 200.

(٣٥) كاثكارت، المصدر نفسه، ص. ٩٨.

(٣٦) P. BOYER, op.cit., p. 202. ما زالت هذه العادة متبعة في مدينة الجزائر و باقي القطر الجزائري إلى يومنا هذا.

(٣٧) سعد الله، أبو القاسم، المصدر نفسه، ص. ٣٤٧.

(٣٨) Dr SHAW, op.cit., pp. 78-79.

الطلبة الذين يلتحقون بحلقاتهم دروسا في العلوم اللغوية والدينية خاصة. ولعل أهم شيء يسجل عن وظيفة الكتاب التعليمية التربوية التي تشكل المستوى الأولي في التعليم بمدينة الجزائر، هو أن الكتاب بجانب تميزه بطرق تقليدية في التعليم كان يقوم بتربية النشء حسب المبادئ الإسلامية وقواعد السلوك والتعامل التي تفرضها تلك المبادئ، والتي تجعل من حفظ القرآن الكريم وتعليم قواعد الفقه إضافة إلى تعلم مبادئ الكتابة والقراءة والحساب أهم رصيد معرفي للفرد العادي في مجتمع مدينة الجزائر، هذا الرصيد الذي يكسبه حصانة حضارية وشخصية جزائرية أصيلة بعد تخرجه من الكتاب وانخراطه في خضم الحياة العملية. وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن توفر الكتاتيب بمدينة الجزائر بعدد كبير وقدرتها على استقبال كل الأطفال الصغار قد ساهم بفاعلية ونجاعة في محو الأمية بين سكان مدينة الجزائر، وهذا ما لاحظه العديد من الكتاب بل شهد به بعض قادة الجيش الفرنسي عند احتلالهم للمدينة، وأثبته الأستاذ إمريت في دراسته حول الأوضاع الثقافية والنفسية للجزائر عند الاحتلال(٣٩).

ب- التعليم الثانوي :

إذا كان التعلم الابتدائي متميزا بالمؤسسات القائمة عليه ومحددا بالمعلومات التي يقدمها وبالفترة الزمنية التي يستغرقها وبالسن الذي يسمح فيه للطفل بمزاولته، فإن كل ذلك يصبح من الصعب تحديده عندما يتعلق الأمر بالتعليم الثانوي أو العالي، ولعل أول شيء يلاحظه الباحث في هذا المجال هو صعوبة التفريق أو التمييز بين التعليم الثانوي والتعليم العالي، وذلك لكون التعليم في الجزائر العثمانية كما في غيرها من المدن الإسلامية آنذاك لم يكن يسير ويحدد وفق قوانين وبرامج متفق عليها، تسمح للتلميذ بالانتقال من مؤسسة إلى أخرى في سن أو فترة محددة.

ولعل الحد الفاصل بين ما يمكن أن نعتبره تعليما ثانويا وما يمكن أن يشكل تعليما عاليا، هو مستوى المعلومات التي كانت تلقن في المدارس والزوايا والمساجد والتي كان بعضها بمثابة مدارس عليا(٤٠)، وخاصة ما كان منها تابعا للأوقاف، وهذا ما خولها أحقية الإشراف الأدبي على تنظيم الدراسة في مستواها الثانوي والعالي، فهذه المدارس والمساجد والزوايا التي

---

(٣٩) M. EMERIT, op.cit., p. 9.

(٤٠) P. FONCIN, op.cit., pp. 703-704. سعد الله، أبو القاسم، المصدر نفسه، ص. ٨٥.
المهدي البوعبدلي، مراكز الثقافة و خزائن الكتب بالجزائر عبر التاريخ، الأصالة، العدد ١١، ١٩٧٢، ص. ٩٣.

كانت توفر هذا المستوى من التعليم كانت تقدم لتلاميذها برنامجا تعليميا عاما يعتمد أساسا على تدريس مواد ومقررات في علوم الفقه وفنون اللغة، مع بعض المعلومات الأولية والمبادئ الأساسية في الطب والفلك والحساب(٤١)، علما بأن البرنامج الدراسي لم يكن موحدا، فهو يختلف من مدرس إلى آخر ومن مدرسة إلى أخرى، فالمدرس حر في تسطير برنامجه، والمدرسة لها كل الصلاحيات لاعتماد أي برنامج أو مقرر يراه شيوخها صالحا لتقديمه لطلبتهم.

يتميز التعليم الثانوي والعالي بكونه مجانيا، فهو مثل التعليم الأولي لا يدفع فيه أولياء التلاميذ مقابل دراسة أبنائهم شيئاء سواء للمدرس أو للمؤسسة، بل كان بعض التلاميذ وخاصة المحتاجين منهم والغرباء عن المنطقة، يتلقون شبه منحة من المؤسسة التي يدرسون فيها، تدفع لهم عادة من عائدات الأوقاف(٤٢)، كما كانت الزوايا التابعة للمدارس التي يدرسون بها تتكفل بإيواء الطلبة الغرباء وإطعامهم، على أن هذه المساعدات مع أهميتها لم تكن لتكفي لتلبية حاجيات طلاب العلم، فكان معظمهم في هذه المرحلة من دراستهم يعيشون في حرمان وفقر، وهذا ما أشار إليه كاثكارت بقوله: " والطلبة (بمدينة الجزائر) متقشفون بحكم الحاجة وليس على أساس المبدأ "(٤٣).

أما المدرس الذي يسمى في هذه المرحلة من التعليم " بالشيخ "، فيعتبر موظفا لدى المؤسسة المشرفة على المدرسة، سواء كانت تحظى برعاية بعض الحكام أو خاضعة لنظر مصلحة الأوقاف، فهو يعين في وظيفته ويتطلب منه لشغل هذا المنصب السلوك الحسن والمستوى العلمي المشهود له من طرف زملائه في المهنة، ويتلقى عن اشتغاله بالتعليم أجرة تحدد له من عائدات الأوقاف، تتراوح عادة ما بين ١٠٠ و ٢٠٠ فرنك سنويا بقيمة ذلك الوقت، ويوفر له في الغالب المسكن اللائق وبعض المستلزمات الضرورية للعيش كزيت الإنارة وماء الوضوء، وفي شهر رمضان تقدم له يوميا الحلويات وتهدى له الثياب في المواسم والأعياد. هذا ولم يكن كل المدرسين في حاجة إلى مثل هذه المساعدات المادية، إذ غالبا ما

---

(٤١) M. EMERIT, op.cit., p. 6; P. FONCIN, op.cit., p. 703; P. BOYER, op.cit., p. 200..

(٤٢) M. EMERIT, op.cit., p. 5.

(٤٣) كاثكارت، المصدر نفسه، ص. ٩٩.

كانوا يقومون بجانب تدريسهم بوظيفة الإمام أو القاضي أو المفتي(٤٤)، وهناك من كان يمارس نشاطا تجاريا مربحا مثل الشيخ عبد الرزاق بن حمادوش والشيخ سعيد قدورة(٤٥).

ومما يلاحظ أن التوجه العام الذي يغلب على سلوك الشيوخ والعلماء بمدينة الجزائر العثمانية هو حياة الزهد والابتعاد عن الحكام، أو التحول إلى أعمال تجارية لا ينتظرون معها أن يجود بهم غيرهم، ولعل هذا ما جعل الكثيرين منهم يعزفون عن وظيفة التدريس، بحيث لم يشتغل بها إلا الذين لم يجدوا عملا آخر يعيشون منه أو من كان منهم ذا ثروة تغنيه عن انتظار ما يجود به الآخرون. إن هذا السلوك لا يمكن أن يفسر بعزوف علماء الجزائر عن التدريس والعلم وإنما لكون مهنة التدريس في حد ذاتها لم تكن مصدر رزق كاف، فهي لا توفر لصاحبها حياة مستقرة، وقد انتبه لهذه الحالة التي أصبحت معها ممارسة التجارة أفضل من الاشتغال بالتعليم، الكثير من الذين زاروا الجزائر وتعرفوا عليها في الفترة العثمانية، سواء كانوا من الأقطار العربية أو البلاد الأوربية والأمريكية، فقد ذكر رجل الدين الإنكليزي الطبيب شاو (Dr Shaw) : " بأنهم (أي الأتراك)كانوا جد متشبثين بتجارتهم حبا في الثراء ولم يولوا أي اهتمام جدي بالدراسة"(٤٦)، فهذه الملاحظة من الطبيب شاو لا تفسر إلا إذا عرفنا أن أوضاع المعيشة الصعبة هي التي حثت العديد ممن كانوا مؤهلين للقيام بالوظيفة التعليمية إلى مزاولة أعمال حرة وخاصة التجارة.

أما طلبة التعليم الثانوي، فإنهم يتجهون بعد إنهاء دراستهم نحو الحياة العملية، فهناك من يصبح طالبا أو مؤدبا، وهناك من يصبح قارئا للقرآن في المساجد، والبعض الآخر يوظف كخوجة أو كاتب. وكان تأثيرهم في المجتمع كبيرا ونشاطهم العلمي ملحوظا، نظرا لعددهم الذي كان يتراوح في مدارس المدن الجزائرية ما بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ طالب في المرحلة

---

(٤٤) M. EMERIT, op.cit., p. 5.

(٤٥) عن ابن حمادوش، أنظر: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة : لسان المقال في النبأ عن النسب و الحسب و الحال، تقديم و تحقيق و تعليق أبو القاسم سعد الله، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ١٩٨٣. و كذلك : نور الدين عبد القادر، المصدر نفسه، ص. ١٩٤. عن الشيخ سعيد قدورة، أنظر : سعد الله، أبو القاسم، المصدر نفسه، ص. ٣٢٢ و ٣٦٤-٣٧٢. و كذلك : نور الدين عبد القادر، المصدر نفسه، ص. ١٩١-١٩٤ و ٢٧١.

(٤٦) Dr SHAW, op.cit., p. 77.

الثانوية، قسم كبير منهم في مدارس وزوايا مدينة الجزائر، وذلك حسبما توصلت إليه بعض الدراسات المعتمدة على وثائق الأرشيف والتقارير الخاصة[٤٧].

ج- مستوى التعليم العالي :

أما ما يمكن أن نطلق عليه تعريف التعليم العالي بمفهوم عصرنا، فقد كانت توفره بعض المدارس والزوايا، وقد أمكن لها تحقيق ذلك بفضل نخبة من العلماء الذين كانوا يدرسون بها ويحرصون على أن تكون دروسهم لا تقل في مستواها العلمي عما كان يقدم بالقرويين بفاس والزيتونة بتونس وحتى الأزهر بالقاهرة، على أن جهودهم لم تثمر لتصبح تقليدا متبعا في المدارس التي كانوا يشتغلون بها. ومن هذه المدارس التي كانت تتميز بتعليمها العالي " المدرسة القشاشية " التي كانت تابعة لجامع القشاش[٤٨]. وقد عرف بهذه المدارس المؤرخ الجزائري أبو راس الناصري في كتابه " عجائب الأسفار "، بقوله : " المدرسة المتعارفة عندنا الآن هي التي تبنى لدراسة العلم، أي لتعليمه وتعلمه، كمدرسة ابن الإمام بتلمسان، والقشاشية بالجزائر، والمحمدية بأم معسكر..."[٤٩].

أما بمدينة الجزائر، فقد ذكر فانتور دو بارادي (Venture de Paradis) الذي زار مدينة الجزائر أواخر القرن الثامن عشر، "بأن مدينة الجزائر تتوفر على ثلاث جامعات لتعليم المذهب المالكي" [٥٠] ولم يذكر أسماءها، وهو الشيء الذي جعل المؤرخ سعد الله يقول بأنه ربما كان يقصد بالجامعات الثلاث مدرسة الجامع الكبير والمدرسة القشاشية ومدرسة شيخ البلاد[٥١]، وهذا ما يتماشى وما ذهب إليه الشيخ المهدي البوعبدلي الذي ذكر أن من المدارس

---

(٤٧) M. EMERIT, op.cit., p. 6.

(٤٨) A. DEVOULX, *Les édifices*..., op.cit., p. 87.

(٤٩) هناك من يذكر أن أول مدرسة ذات مستوى جامعي بنيت في الجزائر كانت بتلمسان و هي مدرسة ابني الإمام، في عهد أبي حمو الزياني الأول المتوفى سنة ٧١٨ للهجرة، و كان من جملة تلامذة هذه المدرسة العلامة المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون و الخطيب التلمساني، كما تخرج من هذه المدرسة جل علماء المغرب العربي آنذاك، و هذا دليل قاطع على مستوى التعليم بالجزائر في فترة سابقة لحلول العثمانيين أنظر : المهدي البوعبدلي، المصدر نفسه، ص. ٨٥.

(٥٠) VENTURE DE PARADIS, *Tunis et Alger au XVIIIè siècle*, Mémoires et observations rassemblés et présentés par Joseph Cuoq, Paris, Sindbad, 1983, p. 255.

(٥١) سعد الله، أبو القاسم، المصدر نفسه، ص. ٢٧٣.

العليا بالجزائر المدرسة القشاشية التي أشاد بها أبو راس الناصري عندما زار المدينة في أواخر القرن الثامن عشر، وكذلك مدرسة الجامع الكبير[٥٢].

من كل ما سبق يتضح لنا أن جل الباحثين الذين تعرضوا للحياة العلمية بالجزائر العثمانية، أجمعوا على أنه بالفعل كانت مدينة الجزائر تتوفر على تعليم عال، ومن هؤلاء الباحثين نشير إلى ما توصل إليه فونسان (Foncin) في دراسته التي تعود إلى سنة ١٨٨٣ م، فقد أكد وجود تعليم عال بالجزائر فعلا وتوفره مساجد المدن الكبرى[٥٣]، ويماثله في الرأي الأستاذ إمريت (Emerit) في دراسته التي اعتمد فيها على وثائق الأرشيف وتقارير خاصة، إذ يقر بأن التعليم العالي كان يعطى في أهم مسجد في مدينة الجزائر[٥٤]. ولعل هذا ما جعل الأستاذ سعد الله في دراسته للحياة الثقافية للجزائر العثمانية يعتبر أن الجامع الكبير ومدرسته العليا كانا يشكلان نواة لجامعة في مدينة الجزائر[٥٥]، ولم يتردد في القول بأن الدروس التي كانت تلقى في الجوامع الكبيرة والمدارس العليا كانت تضاهي إن لم نقل تتفوق أحيانا على ما كان يلقن آنذاك من دروس الجامع الأموي بدمشق وبالحرمين الشريفين، وذلك لتنوع الدروس في مدرسة الجامع الكبير بالجزائر وتردد الشيوخ عليها من مختلف أنحاء العالم[٥٦].

إن مكانة هذه المدارس بمدينة الجزائر والتي اعتبرت بمثابة مدارس عليا تعود إلى شهرة العلماء الذين كانوا يدرسون بها من أمثال الشيخ سعيد قدورة والشيخ علي الأنصاري والشيخ أحمد بن عمار[٥٧] الذين شهد لهم طلبتهم ومن اتصل بهم بجودة دروسهم وعمق تناولهم للمسائل التي يدرسونها وإحاطتهم بالقضايا المتعلقة بها. وهذا ما يتطلب منا الإشارة في هذا البحث إلى تلك المعارف التي كان يشتهر بها هؤلاء الشيوخ والتي كانت توفرها مؤسسات

---

(٥٢) المهدي البوعبدلي، المصدر نفسه، ص. ٩٢-٩٣.

(٥٣) P. FONCIN, op.cit., p. 703.

(٥٤) M. EMERIT, op.cit., p. 6.

(٥٥) سعد الله، أبو القاسم، المصدر نفسه، ص. ٢٨٤.

(٥٦) المصدر نفسه، ص. ٢٧٣.

(٥٧) المصدر نفسه، ص. ٢٧٣. و كذلك : نور الدين عبد القادر، المصدر نفسه، ص. ١٩٠-١٩٥. و أبو القاسم الحفناوي، تعريف السلف برجال الخلف، ط. ٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢.

التعليم المتقدم في مدينة الجزائر، سواء كانت مدارس خاصة أو مدارس تابعة للمساجد والزوايا؛ ويمكن تصنيف هذه المعارف كالتالي(٥٨) :

١- العلوم الدينية : كالتفسير والحديث الشريف، وقد كانت الدراسة مركزة خاصة على صحيح البخاري وأمهات كتب الفقه المالكي والحنفي.

٢- العلوم اللغوية : كالنحو والصرف وفقه اللغة والبلاغة والعروض.

٣- العلوم المحضة : من قبيل الحساب والفرائض وعلم الفلك والطب والصيدلة، وقد كان كتاب الطب لابن سينا يحظى بعناية خاصة.

٤- علوم التاريخ والسير والأخبار : وهي تدرس في إطار الثقافة العامة والتعرف على تاريخ الإسلام وسير رجاله وعلمائه.

وقد كانت هذه العلوم تلقن بطرق تقليدية متعارف عليها في جميع المؤسسات التعليمية الإسلامية آنذاك، فهي تقوم على الإسناد والرواية وتقدم عن طريق الشرح والتعليق في حلقات يجتمع فيها الطلبة بشيوخهم الذين لهم حرية اختيار المادة التي يدرسونها والأسلوب الذي يقدمون به دروسهم.

وقدرت بعض الإحصائيات بأن العدد الإجمالي للطلبة الذين كانوا يزاولون الدراسات العليا في كل القطر الجزائري أواخر العهد العثماني بحوالي ٢٠٠٠ طالب(٥٩)، وذكرت إحصائيات أخرى بأن عددهم كان يتراوح ما بين ٦٠٠ و ٨٠٠ طالب في كل مقاطعة(٦٠) من المقاطعات الثلاث للجزائر العثمانية والتي تعرف بالبايليك، زيادة على مدينة الجزائر التي تعد مقر الحكم والسلطة والتي كانت تضم أكبر عدد من هؤلاء الطلبة ولا تقاربها في ذلك سوى مدينتي تلمسان وقسنطينة.

إن أهم ميزة تميز بها التعليم في مستواه المتوسط (الثانوي) أو المتقدم (العالي) في مدارس مدينة الجزائر(٦١) هي حرية الطالب في اختيار الحلقة التي يجلس فيها أو الشيخ الذي يتعلم

---

(٥٨) سعد الله، أبو القاسم، المصدر نفسه، ص. ٣٥٦-٣٥٩. P. FONCIN, op.cit., p. 704.

M. EMERIT, op.cit., p. 6.

(٥٩) P. FONCIN, op.cit., p. 705.

(٦٠) M. EMERIT, op.cit., p. 6.

عنه، إذ لا يمكن لأحد أن يمنعه من الانتقال من حلقة إلى أخرى ومن شيخ إلى آخر، مادام لا يوجد برنامج معين يتبعه الشيخ وقوانين تضبط التعليم وتراقب الطالب فيما يتلقاه من معلومات ومقررات.

ولكون نظام الشهادات لم يكن معروفا، فكل ما يحصل عليه الطالب عند نهاية دراسته في المدارس والمساجد التي توفر تعليما متوسطا أو متقدما هو الفوز "بإجازة" بخط شيخه الذي التزم بحضور دروسه يشهد له فيها بأنه مجاز فيما حضره من دروس وتلقاه من المعلومات وقراءة الكتب(٦٢). هذا ويلقب عادة المتخرج من المدارس العليا بالعالم أو الشيخ ويطلق عليه اسم "سيدي" ويصبح له حق العمل بمقتضى الإجازة التي يحملها في سلك القضاء كقاض أو مفت أو عادل أو وكيل وفي إطار الخدمات الدينية في المساجد ومؤسسات الوقف(٦٣)، غير أن قلة الوظائف الإدارية المتوفرة وكثرة المرشحين لها، جعلت بعض المتخرجين الجدد يهاجرون نحو مدن أخرى أو نحو الأرياف أو يشدون الرحال نحو بلدان خارج الجزائر استزادة في العلم وطلبا للرزق.

ومما يلاحظ أن التعليم قد طغى عليه طابع الحفظ والاستظهار وتأثر بنزعة التصوف، فحتى العلوم التي تقتضي النظر وتستعمل العقل والاجتهاد في تحليلها ظلت شبه غائبة في البرامج الدراسية آنذاك وفي طليعتها كتب المنطق والفلسفة، وحتى بقية العلوم (التجريبية) التي يحتاج إليها الطالب في حياته العملية، كالطب والفلك والرياضيات، فكان تعليمها بسيطا جدا لا يتعدى المعلومات الأولية، وهذا ما لاحظه رجل الدين الإنكليزي الطبيب شاو، فقد ذكر بأن المعلمين في مدارس الجزائر العثمانية لم يهتموا بالفلسفة ولا الرياضيات أو الطب، مع أن هذه العلوم قد اشتهر بها المسلمون وبرعوا فيها فيما مضى، أما الكيمياء التي كانت في سابق العهود العلم المفضل للشعوب الإسلامية فقد أضحت تقتصر على ممارسات يدوية لا تتعدى تقطير ماء الورد(٦٤).

---

(٦٢) المهدي البوعبدلي، المصدر نفسه، ص. ٩٦.

(٦٣) سعيدوني، ناصر الدين، موظفو مؤسسة الأوقاف، المصدر نفسه.و كذلك: P. FONCIN, op.cit., p. 704.

(٦٤) Dr SHAW, op.cit., p. 77.

وقد عبر هذا الطبيب بصدق عن المناخ الثقافي السائد في العالم الإسلامي وخاصة ببلاد المغرب ومنها الجزائر، بعد أن انقضت إلى غير رجعة فترة تلمسان الزيانية وبجاية الحفصية، ولعل هذا التراجع الثقافي الذي أصبحت عليه الجزائر في العهد العثماني من حيث المعارف العلمية هو الذي دفع بعض العلماء إلى الدعوة إلى التجديد والإصلاح، وكان منهم الشيخ أحمد بن عمار والشيخ عبد الرزاق بن حمادوش، وقد تميز هذا الأخير من علماء مدينة الجزائر العثمانية بوضعه كتاب في الأعشاب والمعالجة بها، ولم يفته أن يسجل ما عرض له في انتقاله إلى المغرب أو رحلته إلى المشرق (٦٥).

إن مدينة الجزائر بمدارسها ومساجدها وزواياها طيلة العهد العثماني، رغم السلبيات التي عرفها التعليم ورجاله، كانت محل استقطاب العلماء من شتى أقطار البلدان الإسلامية، فهناك من تولى بها التدريس ونشر العلم، وهناك من تصدر للقضاء، فعلى سبيل المثال نذكر من العثمانيين القاضي مولى علي الذي عاش بقسنطينة ثم استقر بالجزائر، إضافة إلى الشيخ مصطفى خوجة الذي تولى الإمامة بجامع خضر باشا، وكان يعتبر من الكتاب والمؤرخين المرموقين، ومن إقليم طرابلس الغرب لا يفوتنا ذكر الشيخ محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الذي قدم الجزائر شابا ودرس بها وشارك في السفارات التي بعثها حكامها إلى المغرب الأقصى، ومن إيالة تونس نذكر قدوم الشيخ أبي حفص عمر بن محمد الذي اشتهر في مدينة الجزائر عندما تولى القضاء بها من المغرب الأقصى ابن زاكور الفاسي، ومن بلاد الشام نذكر الشيخ فتح الله الذي حل بمدينة الجزائر ومكث بها فترة قبل أن ينتقل إلى قسنطينة ليدرس بها ويتولى الافتاء والقضاء الحنفي ويشتغل بنظارة الأوقاف(٦٦).

* * *

يتضح مما سبق أن مدينة الجزائر العثمانية، مقر الحكم وعاصمة الإيالة الجزائرية ومركز الحياة الاقتصادية والعلمية ومجال التفاعل الاجتماعي والثقافي، لم يغلب عليها الطابع العسكري

---

(٦٥) ترك ابن حمادوش قاموسا في جل أسماء الأعشاب، أنظر عنه : سعد الله، أبو القاسم، المصدر نفسه، ص. ٤٥٩-٤٦٠. نور الدين عبد القادر، المصدر نفسه، ص. ١٩٤.

(٦٦) أنظر عن هؤلاء العلماء : سعد الله، أبو القاسم، المصدر نفسه، ص. ٤٤٠-٤٤٥. و كذلك : سعيدوني، ناصر الدين، من التراث التاريخي و الجغرافي للغرب الإسلامي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٩.

ولم تتحول إلى مدينة إدارية تجارية بحتة كما حاولت المصادر الأوربية إثباته، إذ كان لها نشاط ثقافي خاص بها وحياة علمية تميز بها سكانها(٦٧)، فكانت نموذجا لباقي المدن الجزائرية. لقد كانت الحياة العلمية بمدينة الجزائر تقوم على مؤسسات تعليمية منتظمة ونظام تعليمي متعارف عليه يقوم على الكتاتيب في مراحله الأولية وعلى مدارس المساجد والزوايا في مراحله المتوسطة، كما احتضنت بعض المدارس التابعة لأهم المؤسسات الدينية وفي مقدمتها الجامع الكبير وبعض الزوايا تعليما متقدما يمكن أن نعتبره بمفهوم اليوم تعليما جامعيا، وإن كان يعتمد على الأساليب والطرق التقليدية من حفظ واستظهار وتلقين، فكان هذا التعليم يتماشى مع طابع الثقافة آنذاك، الذي لا يسمح بفتح الباب للاجتهاد وإنما يؤكد على التوجه نحو التصوف والمحافظة على التقاليد الثقافية المتوارثة، رغم أن بعض العلماء لم تفتهم خطورة هذا المنحى وحاولوا التنبيه إلى ضرورة الإصلاح والتجديد، مثل ابن حمادوش الذي سبقت الإشارة إليه عندما حاول أن يقنع معاصريه بضرورة تدريس العلوم المحضة كالحساب، وكذلك الشيخ ابن العنابي الذي نادى بضرورة التجديد وخاصة فيما يتصل بتنظيم الجيش باعتباره وسيلة دفاع عن الأمة والأخذ بمظاهر الحضارة الأوربية في اللباس والعتاد والخطط العسكرية(٦٨).

لكن الطابع الديني التقليدي الذي ظل متحكما في المؤسسات التعليمية بمدينة الجزائر، رغم نتائجه المحدودة إلا أن له بعض الجوانب الإيجابية التي يجب أن تذكر، ومنها أنه سمح بتعميم التعليم في المرحلة الأساسية على مستوى الكتاتيب، مما جعل الأمية تكاد تختفي من أوساط سكان مدينة الجزائر آنذاك، كما سمح بانتشار التعليم في مستواه المتوسط والعالي على نطاق واسع نسبيا.

إن هذا الوضع المتميز من حيث انتشار التعليم في مدينة الجزائر كان حصيلة تضافر جهود المؤسسات الكثيرة من كتاتيب ومساجد ومدارس وزوايا، والتي بلغ عددها في مدينة

---

(٦٧) أنظر: RAYMOND, Le centre d'Alger en 1830, *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, n°31, 1981, pp. 73-74.

أنظر كذلك عن مدينة الجزائر:

TAL SHUVAL, *La ville d'Alger vers la fin du XVIIIè siècle*, Paris, C.N.R.S. Editions, 1998.

(٦٨) ابن العنابي (١٧٧٥-١٨٥١)، هو أحد علماء الجزائر الذين تولوا التدريس بالجزائر و تونس و مصر، كما تولى عدة مناصب إدارية بالجزائر كالقضاء و الافتاء، أنظر عنه : سعد الله، أبو القاسم، المفتي الجزائري ابن العنابي رائد التجديد الإسلامي (١٧٧٥-١٨٥٠)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.

الجزائر وحدها، أواخر العهد العثماني، ١٦٤ مؤسسة تعليمية. هذا ومع محدودية التجديد والإصلاح في المناهج التعليمية السائدة في الجزائر العثمانية إلا أن المؤسسة التعليمية بمدينة الجزائر آنذاك استطاعت بنشاطها التربوي تعميق الانتماء الروحي لمجتمع مدينة الجزائر المتميز بتعدد عناصره السكانية واختلاف مشاربهم بفعل النشاط البحري وبسبب قدوم جماعات ريفية من شتى أنحاء البلاد الجزائرية، وقد اتضح مدى مساهمة المؤسسة التعليمية في تعميق الاحساس الحضاري لمجتمع مدينة الجزائر عند تعرض المدينة للاحتلال الفرنسي (١٨٣٠ م) ومواجهتها المستميتة لمحاولات طمس المقومات الحضارية للمجتمع الجزائري.

لقد سمح التعليم بمدينة الجزائر بظهور علماء أجلة كانت لهم مكانة متميزة في المدينة وخارجها، وهذا ما تؤكده كتب التراجم التي عرفت بهم، منهم على سبيل المثال الشيخ محمد بن عبد الكريم الجزائري الذي هاجر إلى فاس بالمغرب الأقصى واشتهر هناك بعلمه وسعة معارفه[٦٩].

و في ختام هذا العرض لا يفوتنا أن نلاحظ أن المؤسسة التعليمية بمدينة الجزائر العثمانية ساعدت على توفر عدد كبير من المكتبات الغنية بمخطوطاتها، وقد كانت تلك المكتبات ثمرة جهود متواصلة لشيوخ الزوايا وأئمة المساجد ومفاتي المحاكم، فتم بتشجيع منهم وبرعايتهم وبمشاركة منهم نسخ نوادر الكتب التي انتشرت خزائنها على المساجد الكبرى وزوايا المدينة البالغ عددها تسع عشرة زاوية[٧٠]، وهذا ما اندهش له قادة الجيش الفرنسي عند احتلالهم للمدينة (١٨٣٠ م) وإن لم يترددوا في إتلاف قسم كبير منها ووضع ما تبقى منها في المكتبة العامة التي أسسوها في مدينة الجزائر (١٨٣٢ م). كما أن المؤسسة التعليمية بمدينة الجزائر العثمانية نجحت في تكوين فئة من العلماء احتكرت مجالات معينة ومحدودة في حياة المجتمع الجزائري، كالتعليم والقضاء والإفتاء والإمامة والخطابة، إلا أن السلطة الحاكمة آنذاك لم تسمح لهذه الفئة المكونة من شيوخ العلم ومعلمي المدارس وموظفي الأوقاف أن تصبح قوة موازية لقوة الحكام، وأن تغدو قوة ضاغطة على الديوان المسير لشؤون البلاد، فظلت بذلك فئة العلماء مع أهميتها وتكاثرها في المجتمع فئة بعيدة عن مصدر القرار السياسي، فلم يكن الحكام

---

(٦٩) سعد الله، أبو القاسم، المصدر نفسه، ص. ٣٣٣-٣٣٤.

(٧٠) A. DEVOULX, *Les édifices...*, op.cit.

في حاجة إليها إلا عندما يطلبون منها التدخل لإطفاء الفتن والوقوف في وجه الخارجين عن السلطة الحاكمة داخل الجزائر وخارجها أو يكلفونها للقيام بالسفارات لعرض مطالب الحكام سواء في الأقاليم الداخلية أو البلاد المجاورة.

من كل ما سبق عرضه يمكن القول بأن مدينة الجزائر بمؤسساتها التعليمية قد أدت دورها التربوي والعلمي والثقافي، وساهمت كمدينة عربية متوسطية في الاشعاع الثقافي الذي عرفته البلاد الجزائرية في العهد العثماني، هذا العهد الذي نعتبره فترة إسلامية متأخرة وحلقة وصل بين ماضي الجزائر الإسلامية وفترة الاحتلال الفرنسي الذي قضى على تقاليد الجزائر الإسلامية وروابطها العثمانية منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر.

الزوايا والمدارس العثمانية في القيروان

الدكتورة المهندسة نجوى عثمان
حلب ـ سوريا

بنى عقبة بن نافع القيروان عام ٥٠هـ/٦٧٠م، واختط أولاً المسجد الجامع. ومع الأيام عمرت القيروان وكبرت وعظم قدرها، وصارت عاصمة للغرب الإسلامي الذي كان يمتد من طرابلس الغرب شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وجنوب فرنسا شمالاً. ثم نقل مركز الحكم من القيروان إلى عواصم محدثة عديدة خلال الدول التي تعاقبت على إفريقية، من الأغالبة (العباسية فرقادة)، إلى العبيديين فالصنهاجيين (المهدية فصبرة المنصورية)، ومن الموحدين إلى الحفصيين فالعثمانيين (تونس).

دخل العثمانيون القيروان عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م بطلب من أهلها الذين استغاثوا بالحاكم التركي على طرابلس الغرب درغوث باشا، ليخلصهم من حكم محمد ابن أبي الطيب الشابي الثائر على الحفصيين. ومن القيروان انطلق المتطوعون عام ٩٨٠هـ/١٥٧٢م ليساندوا العثمانيين في تخليص تونس من الإسبان وآخر الحفصيين.

نشأة الزوايا والمدارس في القيروان:

بعدما انتهى عقبة بن نافع من بناء القيروان دار حولها مع وجوه أصحابه وهو يدعو الله: "اللهم املأها علماً وفقهاً واعمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزاً لدينك وذلاً لمن كفر بك"[١] . فأول شيء رجاه عقبة من الله لأهل القيروان هو العلم والفقه. وكذلك فإن البعثة التي

(١) التميمي أبو العرب محمد، طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني ببيروت (بدون تاريخ)، ٨/١.

أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى القيروان، والتي كانت تضم عشرة من وجوه التابعين لتفقيه البربر وإرشادهم إلى شرائع الإسلام وتعاليمه العالية، اختط كل واحد من أفرادها بالقيروان مسجداً لعبادته ومجالسه، واتخذ بقربه كتّاباً لتحفيظ القرآن وتلقين مبادئ العربية لصغار أطفال البلد[٢]. فهذه الكتاتيب التي اتخذت كمكان مخصص للتدريس، هي المدارس الأولى في القيروان، وقبلها كان التدريس يتم في المساجد.

ويمكن اعتبار مسجد السبت (توفي بانيه عام ٢٥٠هـ/٨٦٤م)، ومسجد الخميس (توفي بانيه عام ٢٧٦هـ/٨٨٩م)، أول زاويتين في القيروان، إذ كان يجتمع فيهما أولياء الله والصالحون والعلماء كل يوم سبت (مسجد السبت)، ويوم الخميس من كل أسبوع (مسجد الخميس)، يقرؤون أشعاراً في الزهد وآيات من القرآن الكريم وحكايات السلف الصالح (الرقائق). ولكن لم يطلق عليهما اسم "زاوية" في أي عصر من العصور، ربما لأنهما أنشئا كمسجدين، ولأن الذكر كان يقام في يوم واحد من الأسبوع فقط، أو لأنهما لقيا معارضة من بعض الفقهاء الذين اعتبروا ما يجري فيهما بدعة. وقد ألف الفقيه يحيى بن عمر كتاباً في الرد على أصحاب مسجد السبت.

وأعتقد أن زاوية الشيخ أبي يوسف الدهماني (توفي عام ٦٢١هـ/١٢٢٤م)، أول زاوية مستقلة عن المسجد تنشأ في القيروان. ولربما أنشئت في أول الأمر كمدرسة لتدريس المذهب المالكي، بعدما زال من البلاد حكم العبيديين وأتباعهم الصنهاجيين، الذين كانوا يعتنقون المذهب الشيعي. وعندما دفن فيها شيخها صار الناس يطلقون عليها اسم "الزاوية"، كما هو الحال بالنسبة لمعظم المدارس التي أنشئت في العصر الحفصي ودفن فيها مشائخها، كزاوية أبي علي سالم القديدي (ت ٦٩٩هـ/١٢٩٩م) وزاوية علي العواني (ت ٧٥٨هـ/١٣٥٦م) وزاوية سليمان البربري (ت ٧٦٦هـ/١٣٦٤م) وزاوية عبيد الغرياني التي أنشأها محمد الجديدي (توفي بمكة ٧٨٦هـ/١٣٨٤م) ودفن فيها خليفته عبيد الغرياني (ت ٨٠٥هـ/١٤٠٢م). لذلك نجد المؤرخين يطلقون على المبنى نفسه أحياناً "المدرسة" وأحياناً "الزاوية". وأشير إلى أن كل الزوايا والمدارس التي أقيمت في القيروان خلال العصر الحفصي، كانت بمبادرة من الأفراد ولم ينشئها الحكام الحفصيون.

---

(٢) عبد الوهاب حسن حسني، كتاب العمر، بيت الحكمة بتونس ١٩٩٠، ٤٦/١.

الزوايا والمدارس العثمانية في القيروان:

كثر عدد الزوايا في القيروان خلال العصر العثماني، ولقي بناؤها تشجيعاً من الحكام، بل إن بعضهم ساهم في إنشاء العديد منها، ووقفوا عليها العقارات الكثيرة، وأعفوا بعضها من أداء العشر، وخصصوا لها جرايات دورية. أما المدارس فقد اقتصر إنشاؤها على الحكام. كما سنرى في الفقرات التالية التي اعتمد البحث فيها على الجولات الميدانية التي قمت بها على زوايا القيروان ومدارسها خلال عام ١٩٩٣م، بالإضافة إلى الدراسة المكتبية. وقد عنونت البحث بـ"الزوايا والمدارس **العثمانية**" لأنني سأدرس المباني التي أنشأها **الحكام العثمانيون**، دون التعرض إلى تلك التي بناها الأفراد في هذا العصر لكثرتها، مما لا يسمح به الحجم المخصص للبحث.

الزوايا:

عندما زار الأمير حمودة باشا بن مراد القيروان، جرى حادث أشعره ببركة علي الوحيشي ومكانته عند الله، فأنشأ له زاوية، تقرباً إلى الله، تم بناؤها عام ١٠٥١هـ/١٦٤١م، وهي أول زاوية ينشئها الحكام العثمانيون في القيروان. وتقرباً إلى الله أيضاً جدد حمودة باشا عام ١٠٧٢هـ/١٦٦١م بناء زاوية الصحابي أبي زمعة البلوي الذي استشهد في إفريقية سنة ٣٤هـ/٦٥٤م.

وكان الباشا حمودة بن علي بن حسين بن علي تركي ووزيره الأكبر يوسف صاحب الطابع يعتقدان الشيخ سعد بن فرج جرفال (ت ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م)، فبنى الوزير له زاوية.

كما كان الأمير أحمد باي والمشير محمد الصادق يعتقدان عمر عبادة (ت ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م) فأنشأ له المشير زاوية تم بناؤها سنة ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م.

المدارس:

كانت مساجد القيروان وزواياها والمدارس التي أنشئت في العصر الحفصي تدرس المذهب المالكي. وبما أن الحكام العثمانيين يعتنقون المذهب الحنفي، لذلك حرصوا على إنشاء المدارس، ورتبوا فيها مدرسين لتدريس المذهب الحنفي، ووقفوا عليها أوقافاً جليلة تضمن استمرارها.

فمحمد باي بن مراد أنشأ عام ١٠٩٦هـ/١٦٨٤م المدرسة الصحابية ملاصقة للزاوية الصحابية التي أنشأها جده. وبنى الباي حسين بن علي تركي المدرسة الحسينية عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م في موقع استراتيجي قرب الأسواق، بل وقف عليها سوقين يجاورانها، وأوقافاً أخرى. واختار ابنه علي باي (ت ١١٩٦هـ/١٧٨١م) موقعاً استراتيجياً آخر ليقيم عليه المدرسة العوانية بين مبنيين حفصيين (زاوية علي العواني غرباً ومسجد ابراهيم العواني شرقاً) فنشأ بذلك المجمع الديني الثاني بعد مجمع الصحابي.

الدراسة الهندسية:

المسقط الأفقي:

تتألف الزاوية بشكل عام من صحن تحيط به أروقة تتوزع خلفها غرف صغيرة للمريدين، كما تضم مسجداً وغرفة يدفن فيها شيخ الزاوية أو الشيوخ الذين يتولون أمرها، وفي الغالب، تعلو غرفة الضريح قبة. وككل مباني القيروان يدخل إلى الزاوية عبر سقيفة (ردهة مسقوفة) تلي الباب الخارجي. والزوايا العثمانية لا تختلف عن زوايا العصور السابقة. فمسقط زاوية علي الوحيشي (المخطط ١) يشبه إلى حدٍ كبير مسقط زاوية أبي يوسف يعقوب الدهماني (المخطط٢).

أما الزاوية الصحابية فلها مخطط خاص، إذ بنيت على مراحل. ففي العصر الحفصي كانت هنالك قبة مثمنة فوق الضريح، يحيط بها سياج. وفي العصر العثماني أعاد حمودة باشا بناء القبة، وأنشأ لها الصحن الداخلي، ولربما كانت هناك سقيفة، مكان قبة الهواء، يدخل منها إلى الصحن (المخطط٣). وأعتقد أن سقيفة عاشور مع المجاز وقبة الهواء، أنشئت عام ١٠٩٦هـ/١٦٨٤م مع المدرسة الصحابية. وأضاف (أو جدد) حسين باي عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م أروقة الصحن الداخلي.أما الصحن الخارجي فطريقة بنائه تدل على أنه أضيف إلى مجمع الزاوية والمدرسة أواخر العصر العثماني.

ولا نستطيع معرفة مخطط زاوية سعد جرفال، إذ لم يتبقَ منها سوى غرفة الضريح التي تعلوها قبة آجرية، ويدخل إليها بمدخل شرقي.

وبما أن عمر عبادة غريب في أطواره وطبيعته، فقد جاءت زاويته كذلك غريبة في مسقطها الأفقي عن زوايا القيروان. تتألف من ردهات وممرات متصلة يؤدي بعضها إلى

بعض، سقفت بأقبية وقباب، تذكرنا بالمسجد الأزرق (المسجد المظفري) في تبريز الذي بني سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٥م[٣] .ولا يوجد فيها مسجد ولا صحن ولا أروقة (المخطط٤). رمم القسم الشمالي منها عام ١٩٩٢م وجعل متحفاً لمخلفات عمر عبادة.

وأعتقد أن محمد الصادق أنشأ هذا المبنى، منذ البداية، ليضم مخلفات عمر عبادة الغريبة في أشكالها وحجومها، كشكل من أشكال التقديس له ولها. ولا يستبعد هذا، فأميره أحمد باي استقبل أعيان تونس الذين ذهبوا لزيارته بمناسبة عيد الأضحى المبارك، وهو يلبس جبة صوف خلقة وبلغة في رجليه (حذاء من الجلد) كان يلبسهما عمر عبادة، للتبرك بلباسه[٤]. ولم يتكرر هذا التخطيط في المباني الدينية بالقيروان.

ويشبه مخطط المدارس العثمانية مخطط الزوايا، ولا يختلف عنه إلا بعدم وجود غرفة الضريح، ذلك لأن الحكام العثمانيين كانوا يدفنون في تونس العاصمة. فكل من المدرسة الحسينية (المخطط ٥) والمدرسة العوانية (المخطط٦)، يتألف من صحن تحيط به أربعة أروقة تتوزع خلفها غرف الطلبة، ومن مسجد، ويدخل إلى كل منهما بسقيفة. وتختلف المدرسة الحسينية عن المدرسة العوانية بكون مسجدها يقع جنوب الصحن، ومسجد العوانية شرقه.

وتتميز المدرسة الصحابية (المخطط٣) بوجود مستودع شرق المدرسة الصغرى، وبوجود الطابق الثاني الذي يدل تخطيطه على أنه كان يستعمل كمقر للحكام العثمانيين أثناء مرورهم بالقيروان في طريقهم إلى الجنوب لجباية الأموال. أو عندما يقصدونها مستجيرين بالسيد الصحابي في نزاعاتهم مع بعضهم. وأظن أن هذا هو سبب تسميته بـ"علو الباشا"، وأنشئ المستودع لتخزين المؤونة للحكام ومرافقيهم.

وأثناء الترميم الذي أجري على المدرسة الصحابية (١٩٨٩ـ١٩٩٣م) والمدرسة الحسينية (بدأ في عام ١٩٩٣م) حصلت تحويرات على غرف الطلبة، فأزيلت معظم الجدران التي تفصل بين الغرف، فتحولت إلى صالات متطاولة، وجعلت بعض الأبواب نوافذ.

---

(٣) أصلان آبا اوقطاي، فنون الترك وعمائرهم ، ترجمة أحمد محمد عيسى، إرسيكا باستانبول ١٩٨٧، ص(١٤٦-٤٧).

(٤) ابن أبي الضياف أحمد، إتحاف أهل الزمان، كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار بتونس ١٩٦٣، ١٤١/٤.

السقوف:

حافظ العثمانيون على الطرق التقليدية القيروانية في تسقيف الزوايا والمدارس التي أنشأوها، فاعتمدوا على الأسقف الخشبية (المربعة والبسيطة) بصورة رئيسية، ولكنهم أغنوها بطلائها بالدهان، وزينوها برسومات متنوعة نباتية وهندسية (الصورة ١) و(الصورة ٢).

ويجدر بالذكر أن سقف مسجد المدرسة الحسينية كان خشبياً مربعاً، وجعل قبواً متقاطعاً حوالي عام ١٩٢٦م. كما أن سقف مسجد المدرسة الصحابية كان خشبياً مربعاً، جعل من البيتون المسلح عام ١٩٦٠م، وفي عام ١٩٩٣م غطي بسقف خشبي مستوٍ (سمية) لإعطائه مظهراً تراثياً.

واعتمدوا كذلك على الأسقف الآجرية بأنواعها: الأقبية المهدية والمتقاطعة (سجروان وتطبيق)، والقباب (المحززة من الداخل والخارج، والمحززة من الداخل المفصصة من الخارج، والمعصبة من الداخل المفصصة من الخارج، بالإضافة إلى الملساء من الداخل والخارج). ويتم الانتقال من المربع إلى الدائرة في القباب جميعها بحنيات ركنية. وفي زاوية عمر عبادة أكبر استعمال للأقبية المهدية (البرميلية) والمتقاطعة والقباب بأنواعها المختلفة، ولم تستعمل فيها الأسقف الخشبية، وهذا ما لم نجده في غيرها.

ونلاحظ ظاهرة جديدة في قباب العصر العثماني. ففي هذا العصر حدثت أكبر هجرة أندلسية إلى تونس سنة ١٠١٧هـ/١٦٠٨م، ورحب الحكام العثمانيون بالأندلسيين، وساعدوهم على الاستيطان وبناء المدن والعمل في المجالات والصناعات المختلفة[٥]، فبدأ تأثيرهم ـ بتشجيعٍ من العثمانيين ـ يظهر في العمارة التونسية. فقبة الزاوية الوحيشية قيروانية، آجرية معصبة ومزينة بالفخار المفرغ من الداخل (الصورة ٣)، أما من الخارج فتجتمع العمارة القيروانية مع العمارة الأندلسية، إذ غطيت القبة نصف الكروية بسقف هرمي أندلسي كسي بالقرمود الأخضر، ويستند هذا السقف الهرمي إلى رقبة مربعة مزينة بمحاريب، على الطريقة القيروانية، ومطلية بالجير الأبيض (الصورة ٤).

---

(٥) ابن أبي دينار محمد، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، المكتبة العتيقة بتونس ١٩٦٧ ، ص٢٠٤.

الأقواس وطرق استنادها:

استخدمت في الزوايا والمدارس العثمانية الأقواس حدوة الفرس بنوعيها : الدائري والمدبب المميزة للعمارة المغربية. تستند هذه الأقواس، كما في مباني العصور السابقة، إلـــى: مخـــدة (خشبية أو حجرية)، كتف، مخدة، تاج، فعمود حجري (المخطط ١ ــ التفصيل آ) كمـــا فـــي أروقة الزاوية الوحيشية (الصورة٤) والمدرسة الصحابية والمدرسة الحسينية. أما في الزاويـــة الصحابية (أروقة الصحنين الداخلي والخارجي) وفي المدرسة العوانية فاستند القوس إلى مخدة فتاج فعمود، أي استغني عن الكتف والمخدة فوقه. وما يميز المباني العثمانية هو تماثل تيجـــان الأعمدة، وتشابه الأعمدة نفسها التي تستند إليها الأقواس. ففي مباني العصور السابقة، يختلـــف كل تاج عن الذي يجاوره، كما تختلف أقطار وأطوال وألوان الأعمدة المتجاورة. وتماثلها فـــي الأبنية العثمانية يدل على أن هذه التيجان والأعمدة صنعت خصيصاً للمباني التـــي اســـتعملت فيها، ولم تجلب من أماكن قديمة متفرقة. كما استعمل العمود المثمن والمزخـــرف بزخـــارف متنوعة في مسجد المدرسة العوانية، والعمود الحلزوني المصنوع من المرمر الأبيـــض فـــي الرواق الشرقي بالمدرسة الصحابية.

واستخدمت الأقواس في المداخل الرئيسية للمباني العثمانية بدلاً من النجفات المستقيمة، كما في المدخل الشرقي لزاوية عمر عبادة (الصورة ٥)، والمدخل الغربي للزاوية العوانية الـــذي أعتقد أنه أنشئ في العصر العثماني مع المدرسة العوانية. وكذلك في المدخل الجنوبي للصحن الخارجي بالزاوية الصحابية، والمدخل الأوسط للمسجد بالرواق الغربي ومدخل الســـقيفة فـــي الرواق الشرقي بالمدرسة الصحابية. أما المدخل الجنوبي للمدرسة الصغرى، فقد وسع وجعلت نجفته قوساً في الترميم الذي انتهى عام ١٩٩٣م.

مواد البناء والإكساء:

يستخدم الآجر الطيني كمادة رئيسية في إنشاء كل المباني القديمة في القيروان، بمـــا فيـــها المنشآت العثمانية. وتطلى الواجهات الداخلية والخارجية بالجير (الكلـــس) لجعلـــها ناصعـــة البياض. ونظراً لقداسة الصحابي أبي زمعة البلوي عند العثمانيين، فقد أولوا الزاوية والمدرسة الصحابية كل عنايتهم. كما منحوا المدرسة العوانية الكثير من الاهتمام. ونجد في هذه المنشآت الظواهر الجديدة التالية:

١ـ استخدمت الحجارة في بناء أقواس الأروقة في الصحن الداخلي للزاوية الصحابية، وصحن المدرسة الصحابية الكبرى، وفي إكساء جزء من الواجهات فوقها. وإن كانت هذه الظاهرة ليست جديدة تماماً على المباني الدينية بالقيروان، إذ نجدها في واجهات أروقة جامع عقبة التي يرجح أن إكساءها بالحجارة قد تم في العصر الحفصي.

٢ـ اعتمد على تناوب الحجر الأبيض والأسود في تزيين أقواس الأبواب والمحاريب، وأحيطت هذه الأقواس بالمزررات البسيطة التي يتناوب فيها اللونان الأبيض والأسود أيضاً، ولم تستعمل المزررات في غير المباني العثمانية. وأحيطت المثلثات حول الأقواس بالرخام الأسود (الصورة٦) و(الصورة٧).

٣ـ ملئت المثلثات بين الأقواس في واجهات أروقة الصحن الداخلي للزاوية الصحابية بزخارف حجرية، تذكرنا بالفن الإيطالي (الصورة٨). والمعروف أن الزخارف الحجرية نادرة في المباني القيروانية، ولا نجدها إلا في واجهة مسجد الأبواب الثلاثة الذي بناه عام ٨٦٦/٢٥٢ ابن خيرون الأندلسي المهاجر إلى القيروان. وفي أماكن متفرقة من جامع عقبة (جلبت إليه من مبانٍ مندثرة).

٤ـ كسي السطح الداخلي لقبة الهواء مع رقبتها والجدران التي تستند إليها، وكذلك الأقسام العليا من الجدران داخل أروقة الصحن الداخلي والمجاز في الزاوية الصحابية بنقش الحديدة (جبس طري تستعمل قطعة حديد لحفره بنقوش نباتية وهندسية غنية ومتنوعة). وهي صناعة أندلسية نمت وتطورت في القيروان بتشجيع من الحكام العثمانيين. الصورة(٨) والصورة(٩).

٥ـ استعمل الزليج (القاشاني) لإكساء الأقسام السفلى من الجدران داخل أروقة الصحن الداخلي والمجاز في الزاوية الصحابية وواجهة الرواق الغربي الذي يتقدم غرفة الضريح والأقسام العليا من واجهات الأروقة الثلاثة الأخرى، وفي غرفة الضريح وسقيفة عاشور، والمدخل الشرقي للمدرسة الصحابية. أما الأقسام السفلى من الجدران داخل أروقة المدرسة الصحابية الكبرى، فقد كسيت بالزليج عام ١٩٩٣، جذباً للسياح، وقد برر المشرف على الترميم هذا الإكساء بأنهم وجدوا، تحت طبقة الجير، كسراً من الزليج في الزاوية الجنوبية من الرواق الشرقي. واستعمل الزليج كذلك على جانبي

محراب المدرسة الصحابية وحول كلٍ من: الباب الشرقي الأوسط للقبلية، وباب السقيفة في الرواق الشرقي (الصورة٦)، وفي الدور العلوي من المئذنة. أما في المدرسة العوانية فقد استعمل الزليج لإكساء الأقسام السفلى داخل أروقة الصحن، وحول المحراب (الصورة٧). ووضع كذلك حول باب المسجد وغرفة الضريح والمدخل الغربي في الزاوية العوانية. ومع أن الزاوية حفصية إلا أنني أعتقد أن هذا الزليج أضيف في العصر العثماني، وأعتقد كذلك أن المدخل الخارجي الغربي للزاوية جدد بكامله في العصر العثماني، كما ذكرت من قبل، لوجود المميزات العثمانية التالية فيه (الصورة١٠):

١ــ كبره واستعمال القوس بدلاً من النجفة المستقيمة.

٢ــ تناوب الحجر الأبيض والأسود في قوسه.

٣ــ وجود المزررات حول القوس وتناوب الحجر الأبيض والأسود فيها، وإحاطة المثلثين على جانبي القوس بالمرمر الأسود.

٤ــ إحاطته بالزليج ذي اللونين الأزرق والأصفر على أرضية بيضاء.

٥ــ وجود الخوخة (الباب الصغير) ضمن الردفة اليمنى للباب الخشبي.

ومن المعروف أن استعمال الزليج (القاشاني) للإكساء بهدف الزينة هو من مميزات العمارة العثمانية في كل البلدان التي دخلها العثمانيون. ولكن العثمانيين اعتمدوا في تونس على الأندلسيين لصناعة الزليج، إذ أن الأندلس كانت تشتهر أيضاً بصناعته وكثرة استعماله في إكساء المباني. وقد استخدم الصناع الألوان المميزة للزليج العثماني والتي تغلب عليها الألوان: الأزرق والأخضر والأصفر فوق أرضية بيضاء، كما نفذوا بالزليج لوحات جميلة ومتنوعة الرسومات، منها الصورة(١١) والصورة(١٢) داخل الرواق الشرقي في الصحن الداخلي للزاوية الصحابية.

وبينما كان الزليج من مميزات المباني العثمانية، صار في العصر الحديث يستخدم، وبإسراف، لإكساء جدران بعض منشآت العصور السابقة للعصر العثماني، وفي مباني العصر الحديث، جذباً للسياح. كما هو الحال في زاوية عبيد الغرياني من العصر الحفصي، وفي جامع الحبلي وجامع الحمامي اللذين هدما وأعيد بناؤهما في العقدين الأخيرين، مع التوسيع على مراحل بإضافة عقارات مجاورة. وهذا لا يعني أن الزليج لم يستعمل في المباني الدينية

بالقيروان قبل العصر العثماني، فقد كسيت واجهة محراب جامع عقبة عام ٢٤٨هـ/٨٦٢م بقراميد (زليج) جلبت من بغداد[٦]، ألوانها فاهية (أبيض ورصاصي)، ولم نره في مبانٍ دينية أخرى قبل العصر العثماني.

وتجدر الإشارة إلى أن معظم الزليج الموجود حالياً في المباني العثمانية المدروسة أعلاه، ليس بالزليج الأصلي الذي استعمل أثناء إنشاء تلك المباني، فالزليج التونسي لا يتمتع بالديمومة، ويحتاج للتغيير خلال فترات متقاربة. ونستفيد من وثائق جمعية الأوقاف، التي اطلعت عليها، أن معظم الزليج يزال كل حوالي ٢٠ سنة لتآكله بتأثير الرطوبة والعوامل الجوية الأخرى، ويستعاض عنه بزليج جديد له الرسومات والألوان نفسها، ما أمكن. ويؤكد هذا أيضاً اختلاف سماكات ألواح الزليج المنتزعة من جدران مجمع الصحابي. ويجلب الزليج الذي يستعمل حالياً من دار شعبان (نابل) بالوطن القبلي، التي تقع شمال شرق القيروان وتبعد عنها بحوالي ٨٠كم.

نخلص من الفقرات أعلاه إلى النتائج التالية:

١ـ ظهرت المجمعات الدينية في العصر العثماني (مجمع الصحابي ومجمع العواني).

٢ـ حافظ العثمانيون على الشكل العام للمسقط الأفقي في الزوايا والمدارس القيروانية، وتميزت المدارس العثمانية بعدم وجود غرفة الضريح فيها. كما أضافوا مسقطاً جديداً (زاوية عمر عبادة).

٣ـ استعمل الحجر في إكساء الواجهات، وظهر التناوب بالحجر الأبيض والأسود في الأقواس، كما استعملت المزررات.

٤ـ استخدمت الزخارف الحجرية في تزيين واجهات الأروقة.

٥ـ تميزت معظم الزوايا والمدارس العثمانية باستخدام تيجان وأعمدة متماثلة في البناء، كما استخدم العمود الحجري المثمن والمزخرف والعمود الحلزوني.

---

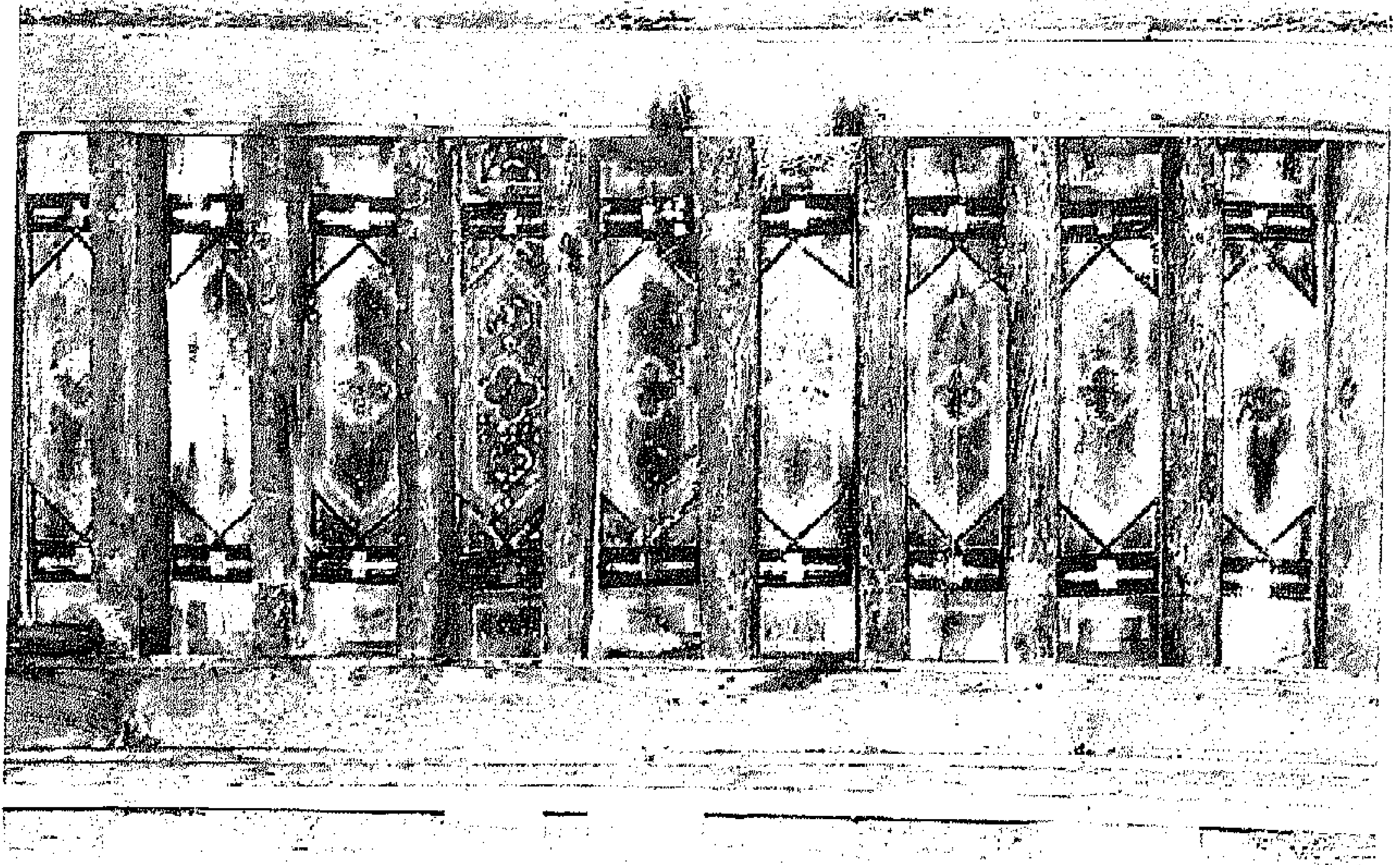
(٦) الدباغ عبد الرحمن وابن ناجي أبو القاسم، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، المكتبة العتيقة بتونس ١٩٧٢، ١٤٧/٢.

٦ـ جعلت المداخل الرئيسية للمباني كبيرة، فاستخدمت الأقواس كنجفات بدلاً من النجفات المستقيمة. وفتح باب صغير (خوخة) في الردفة اليمنى للباب الخشبي لدخول الأشخاص.

٧ـ شجع العثمانيون صناعة نقش الحديدة الأندلسية، فنمت وتطورت هذه الصناعة في عهدهم.

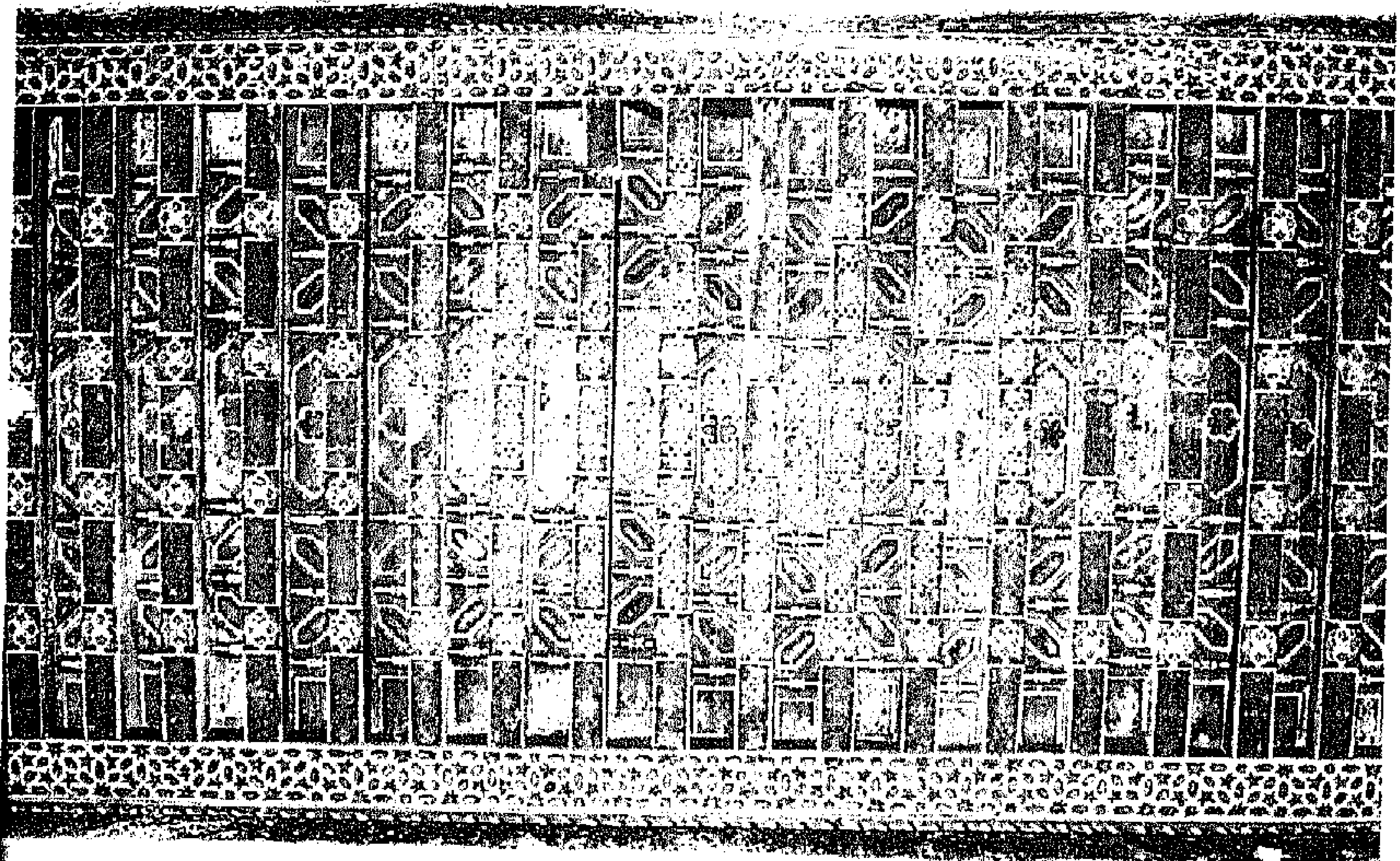
٨ـ استخدم الزليج (القاشاني) بألوانه ورسوماته العثمانية على نطاق واسع لإكساء الجدران.

وهكذا نجد أنه قد اندمجت في الزوايا والمدارس العثمانية التقاليد المعمارية والفنية القيروانية مع الفن العثماني والأندلسي والإيطالي لتعطينا مبانٍ ستبقى خالدة .... وإلى الأبد.



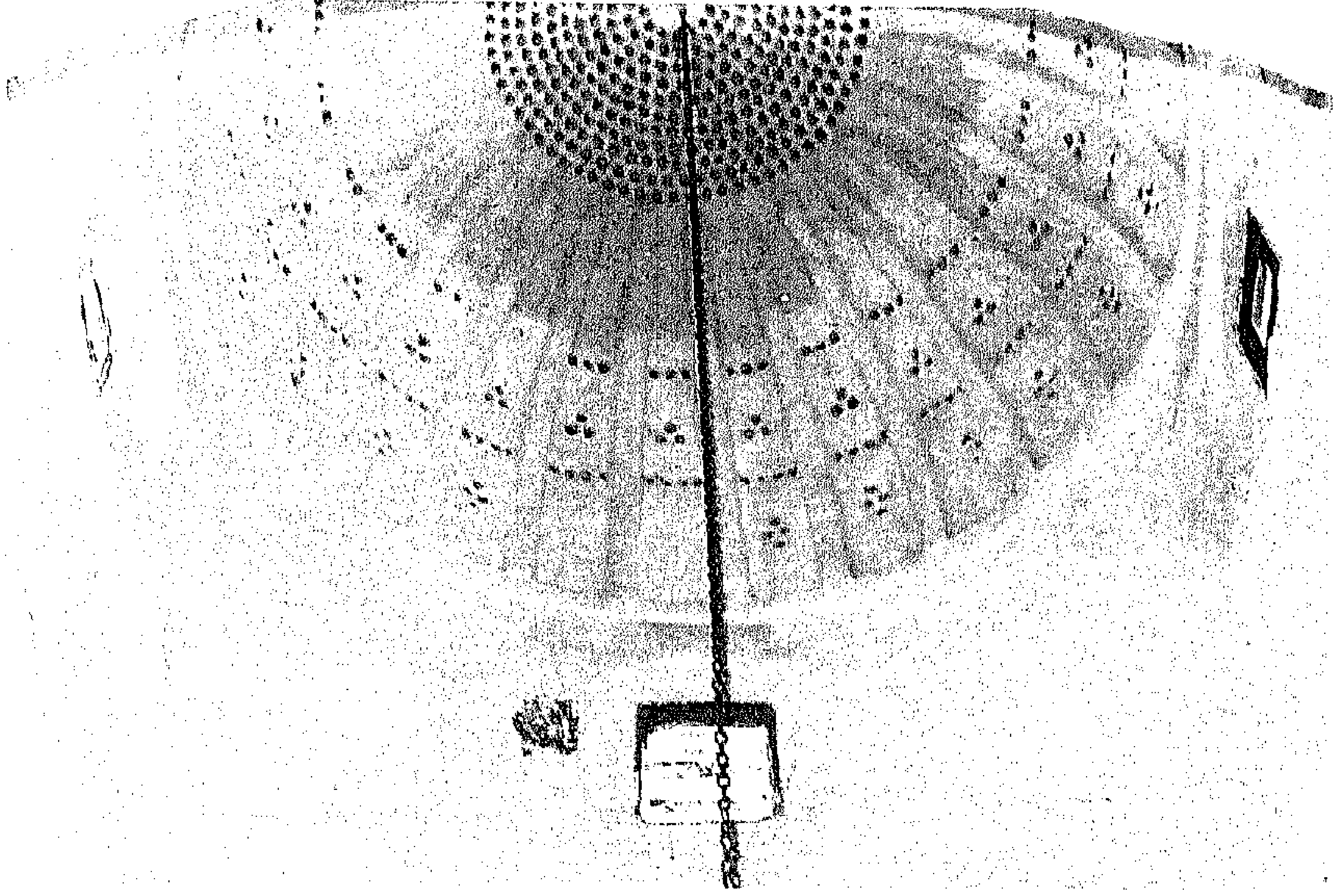
الصورة ١ – المدرسة الحسينية – سقف الرواق الشمالي

سبتمبر / أيلول ١٩٩٣

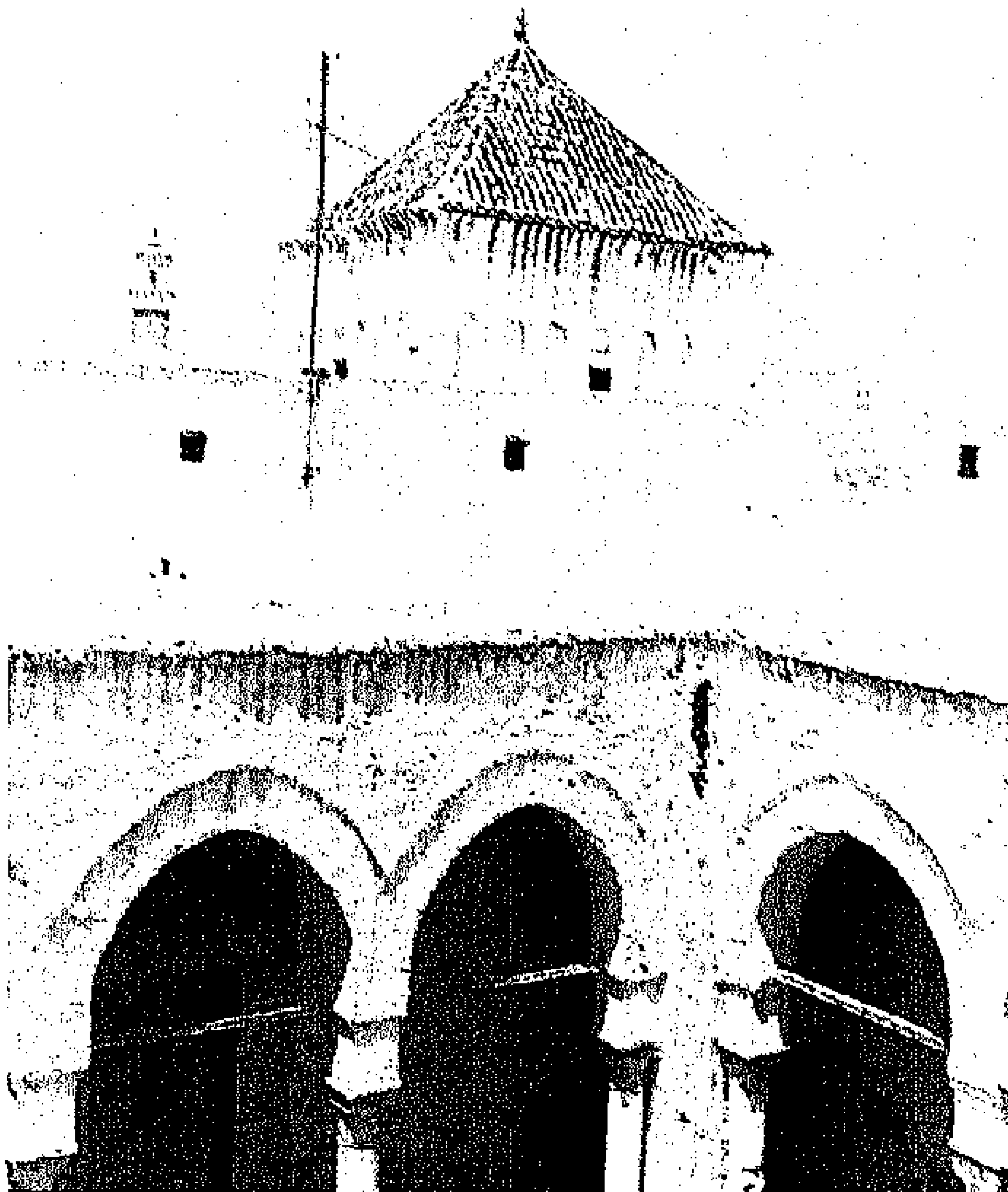


الصورة ٢ – سقف خشبي (مربع) مزخرف في بيت الصلاة

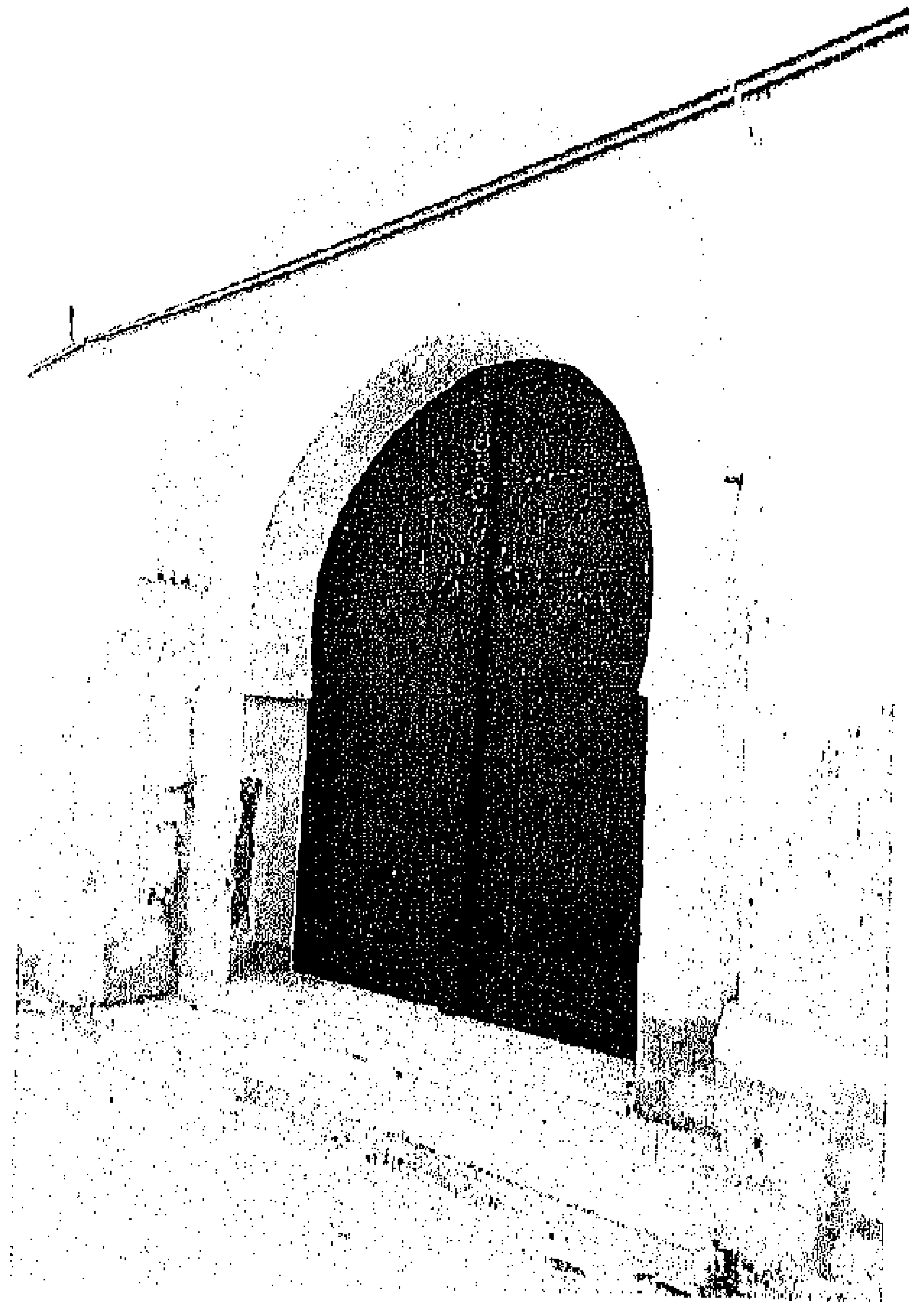
بمسجد المدرسة العوانية يوليو/ تموز ١٩٩٣



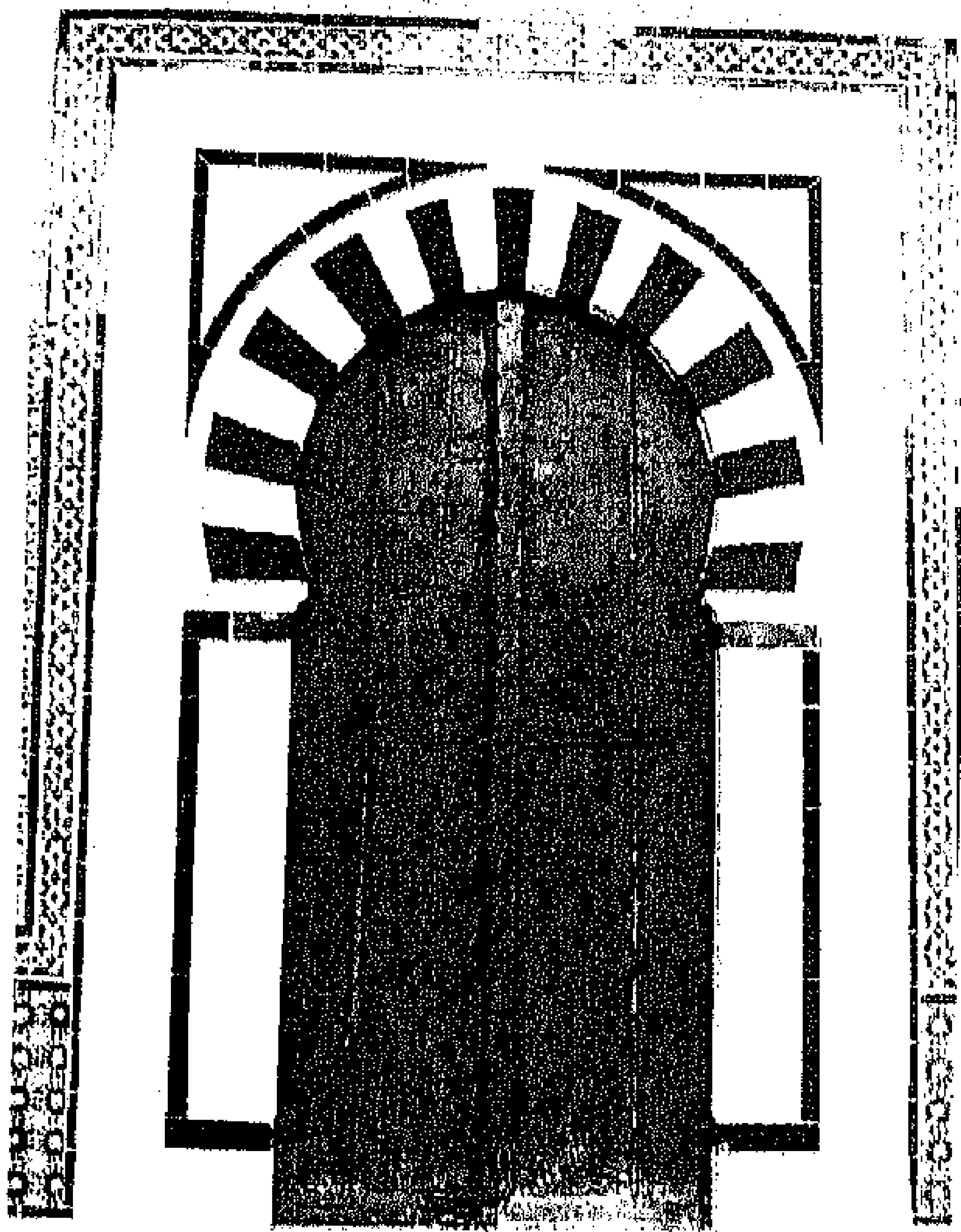
الصورة ٣ – الزاوية الوحيشية – قبة الضريح من الداخل
أغسطس / آب ١٩٩٣



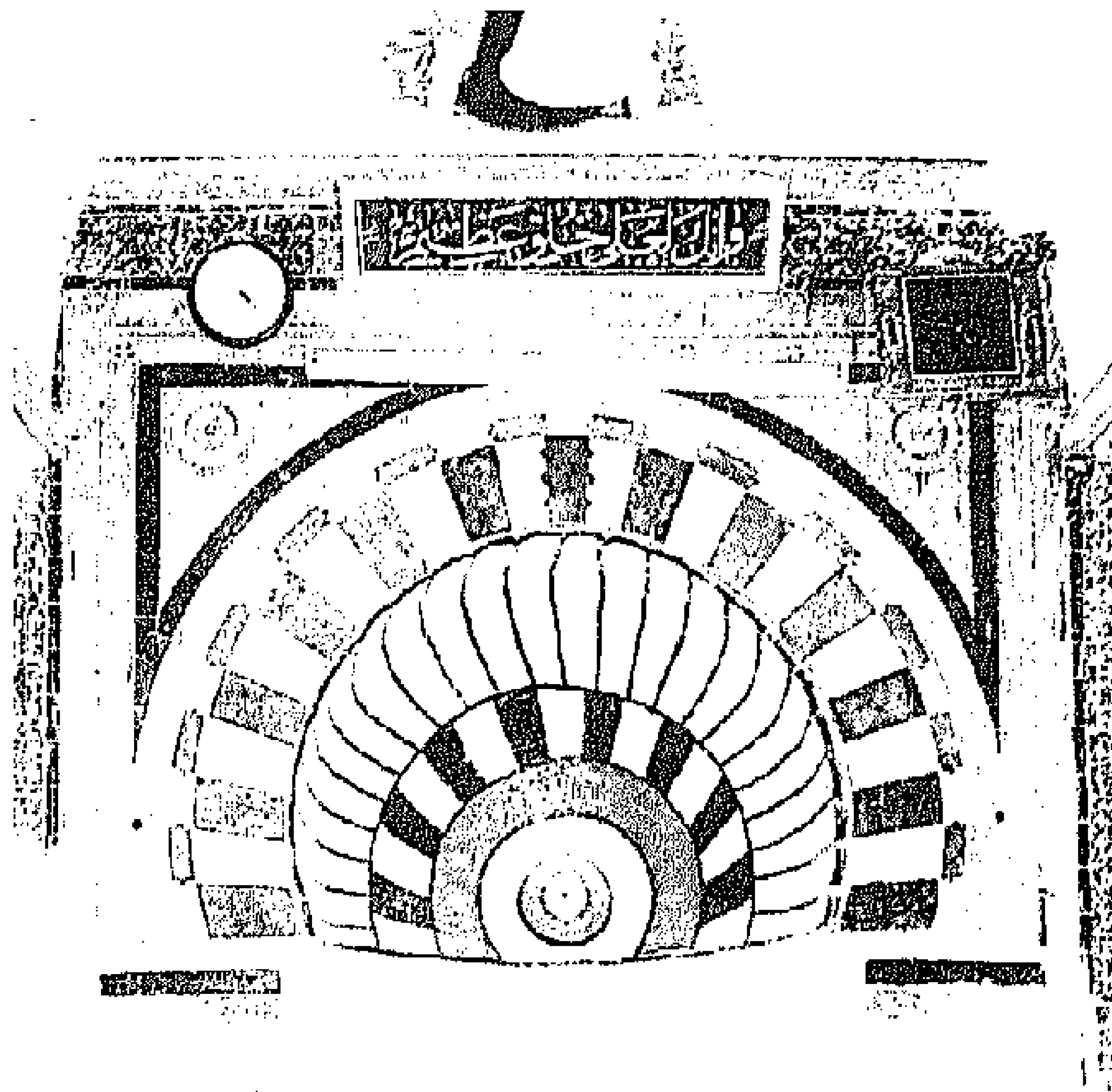
الصورة ٤ – الزاوية الوحيشية – قبة الضريح مع جزء من الرواقين
الشرقي والشمالي في الصحن أغسطس/ آب ١٩٩٣

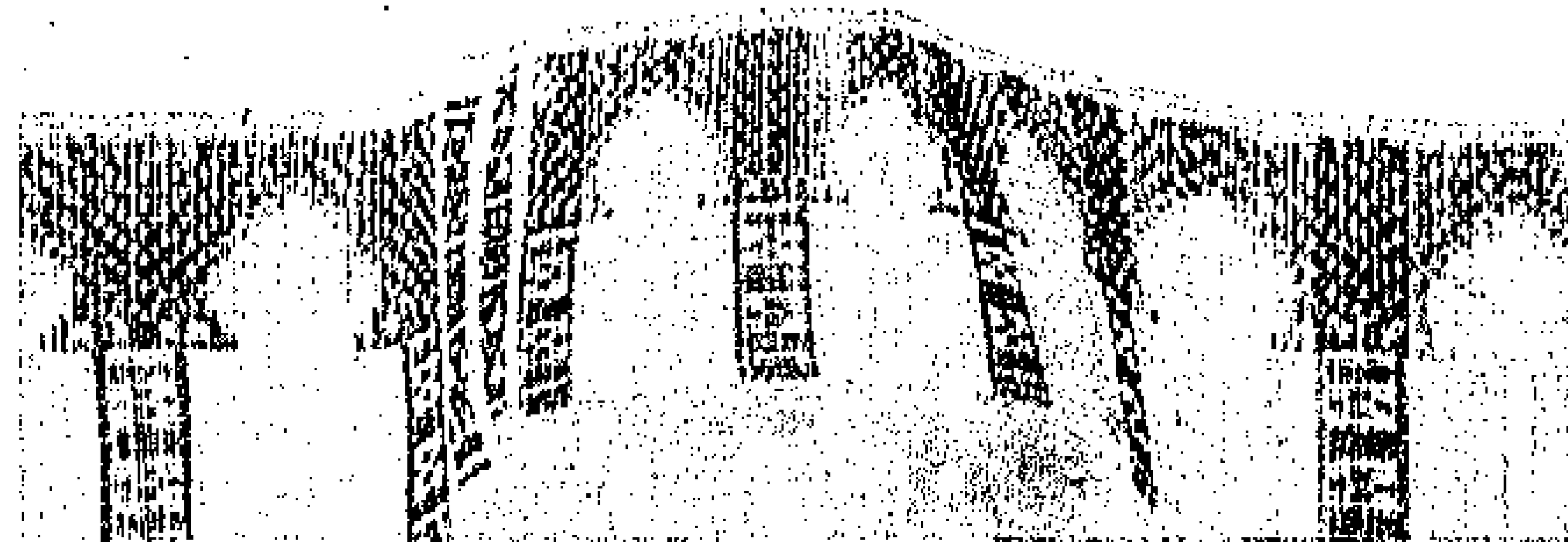


الصورة ٥ – زاوية عمر عبادة – المدخل الشرقي
سبتمبر / أيلول ١٩٩٣



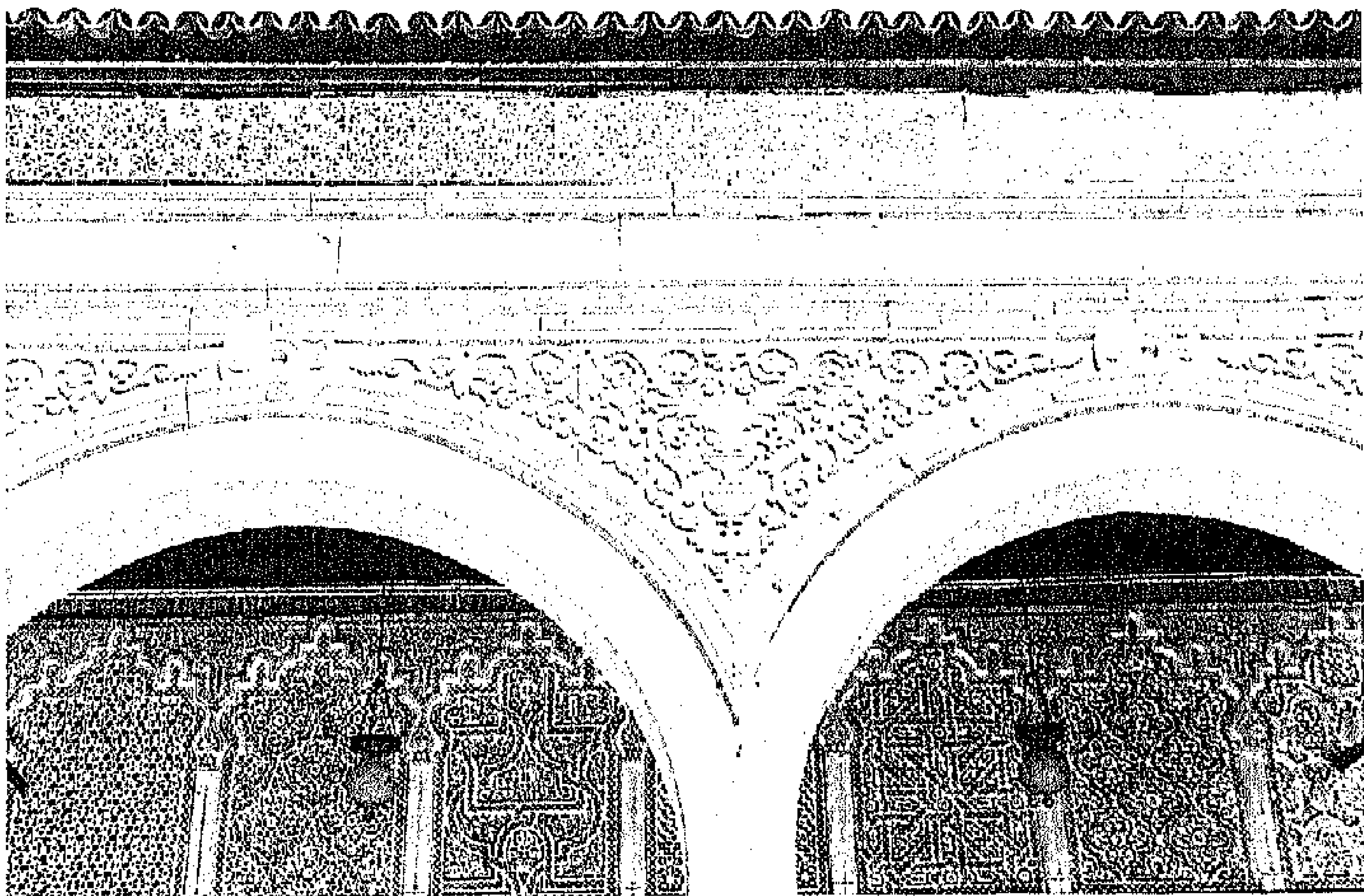
الصورة ٦ – المدرسة الصحابية – باب السقيفة الشرقية من الداخل
أغسطس / آب ١٩٩٣





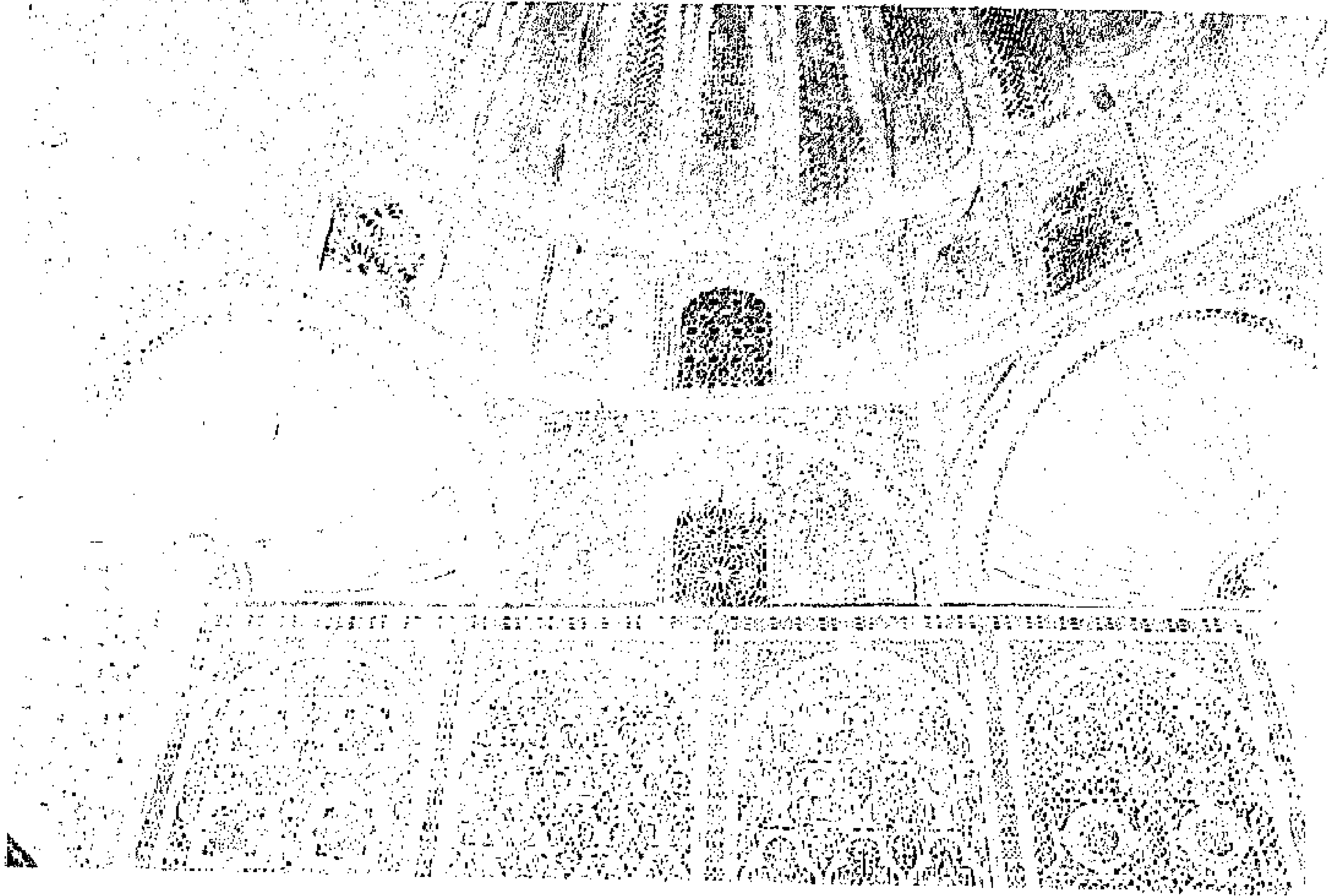
الصورة ٧ – محراب مسجد المدرسة العوانية

يوليو / تموز ١٩٩٣



الصورة ٨ – الصحن الداخلي للزاوية الصحابية

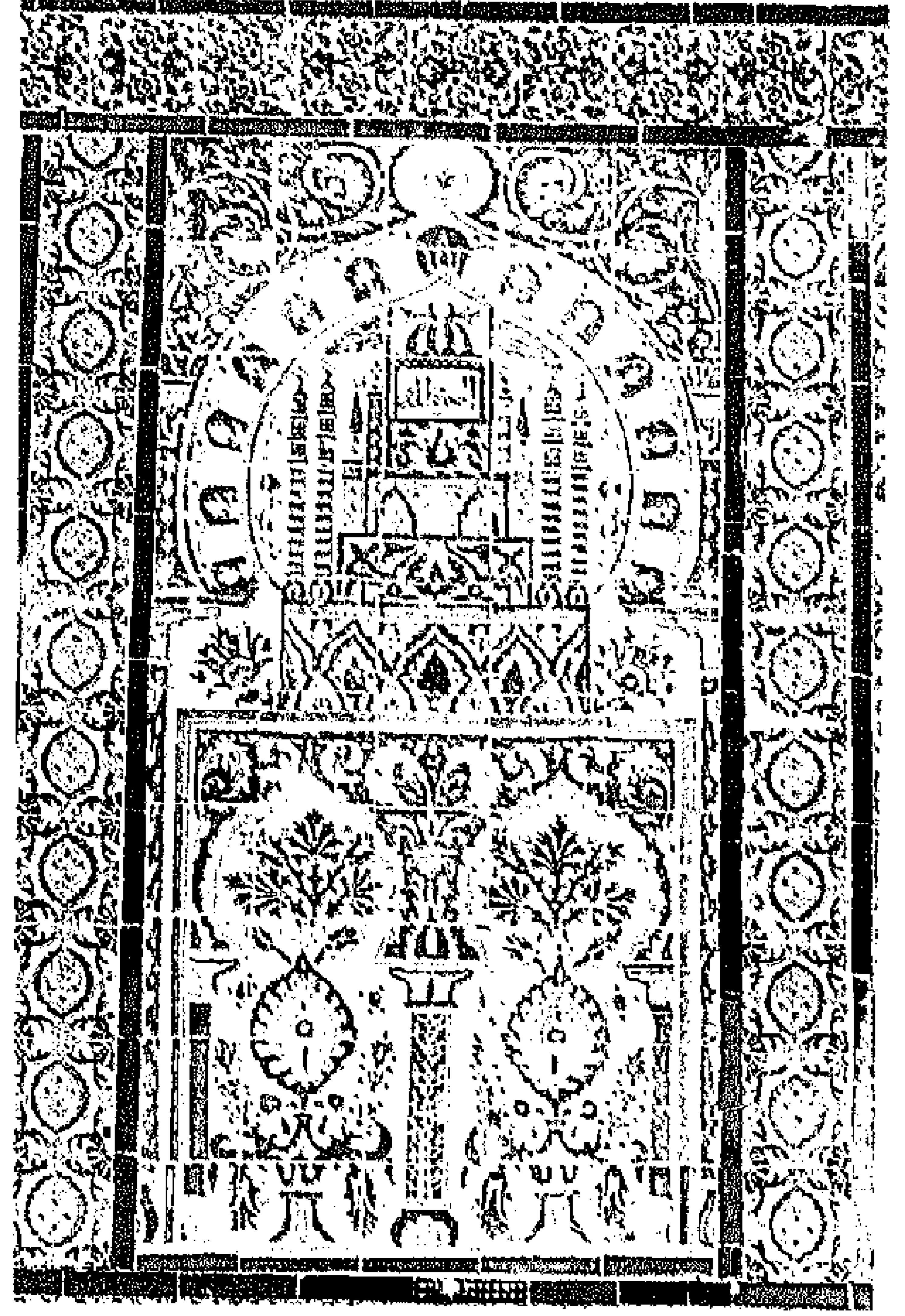
الزخارف الحجرية على الرواق الشرقي



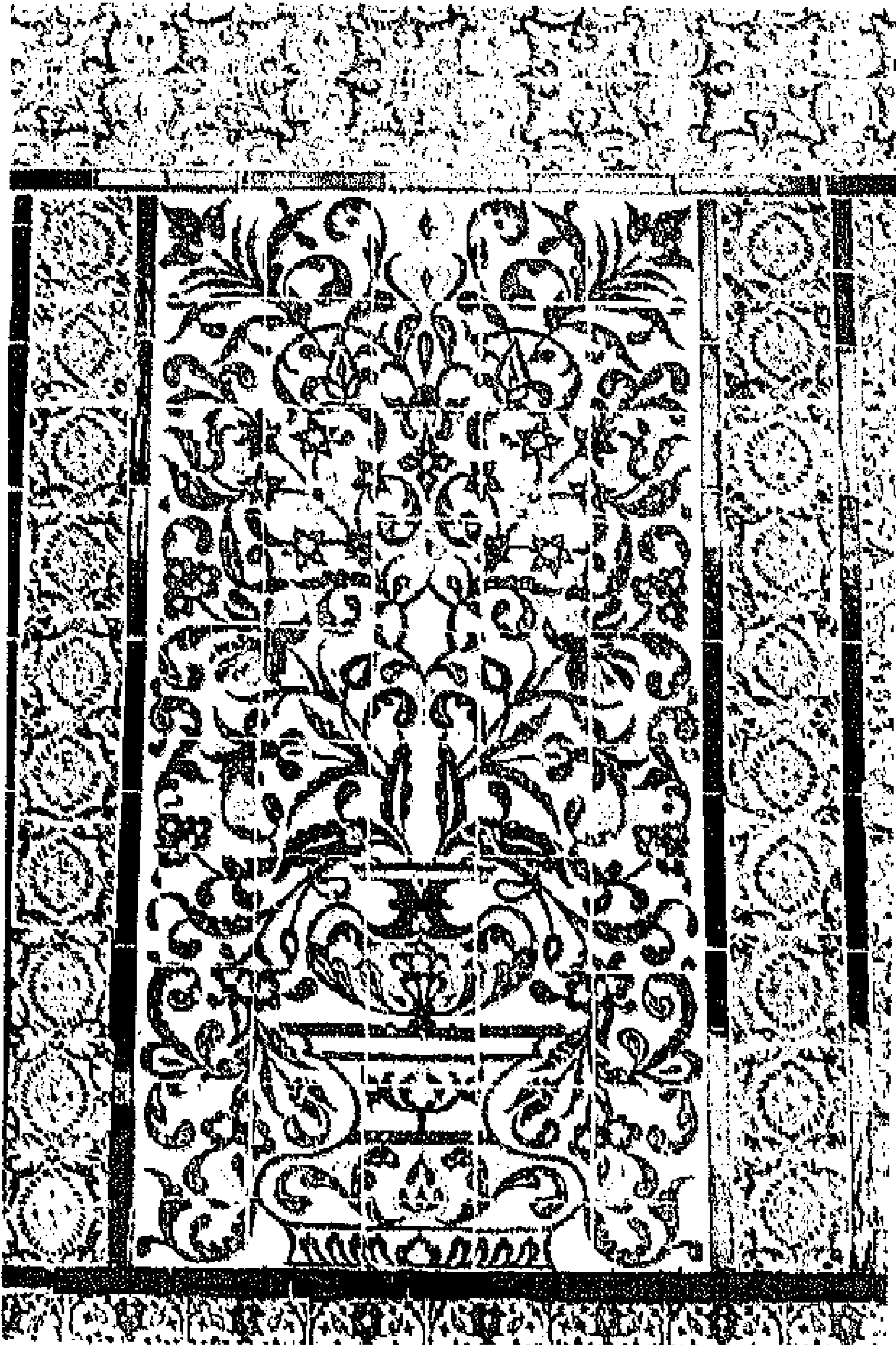
الصورة ٩ – قبة الهواء بالمقام الصحابي من الداخل
ونقش الحديدة – يوليو/ تموز ١٩٩٣



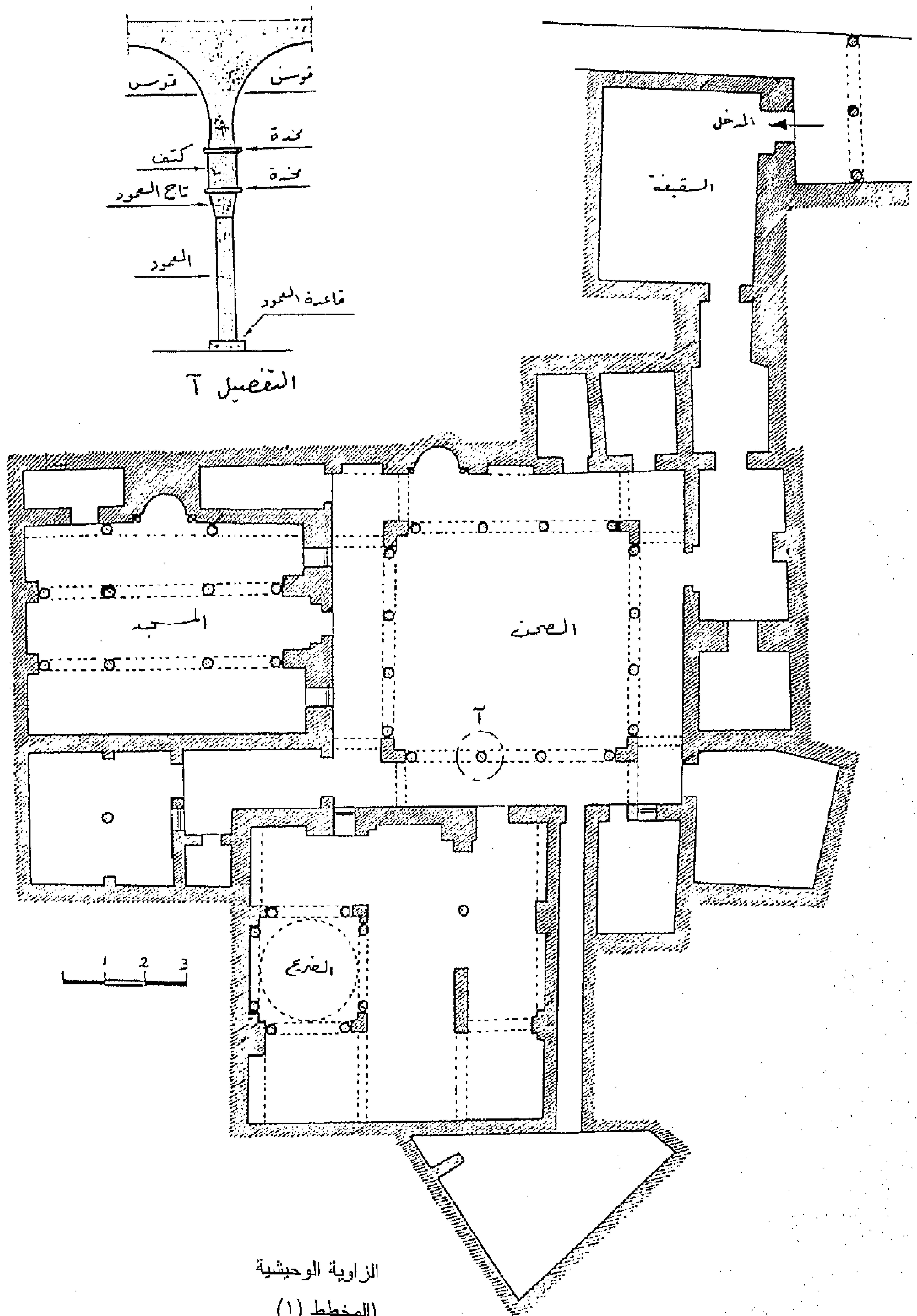
الصورة ١٠ – مدخل الزاوية العوانية
أغسطس / آب ١٩٩٣



الصورة ١١ – لوحة من الزليج (القاشاني) في الرواق الشرقي
للصحن الداخلي بالزاوية الصحابية سبتمبر / أيلول ٩٩٣

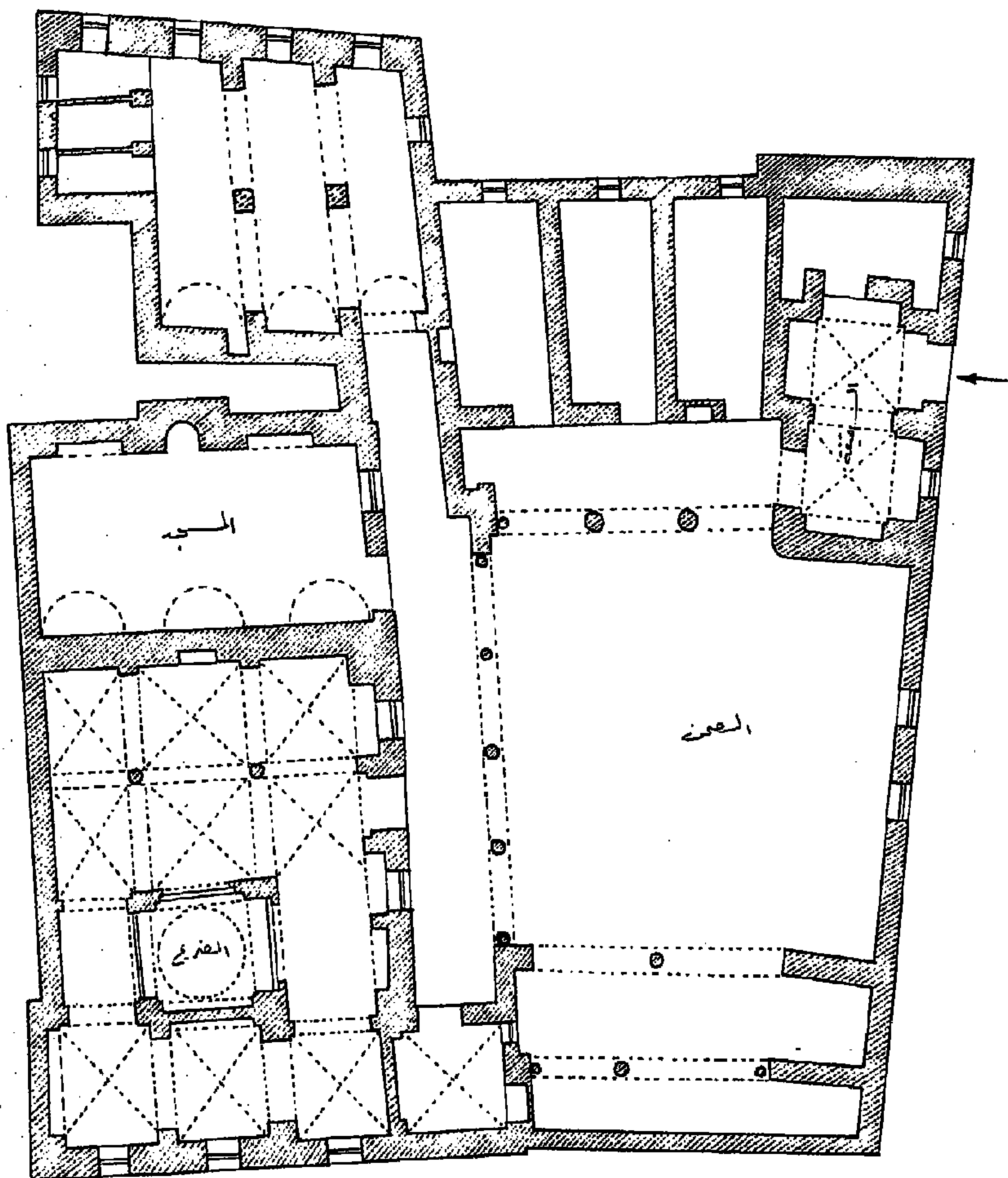


الصورة ١٢ – لوحة من الزليج (القاشاني) في الرواق الشرقي
بالصحن الداخلي بالزاوية الصحابية سبتمبر/ أيلول ١٩٩٣



الزاوية الوحيشية

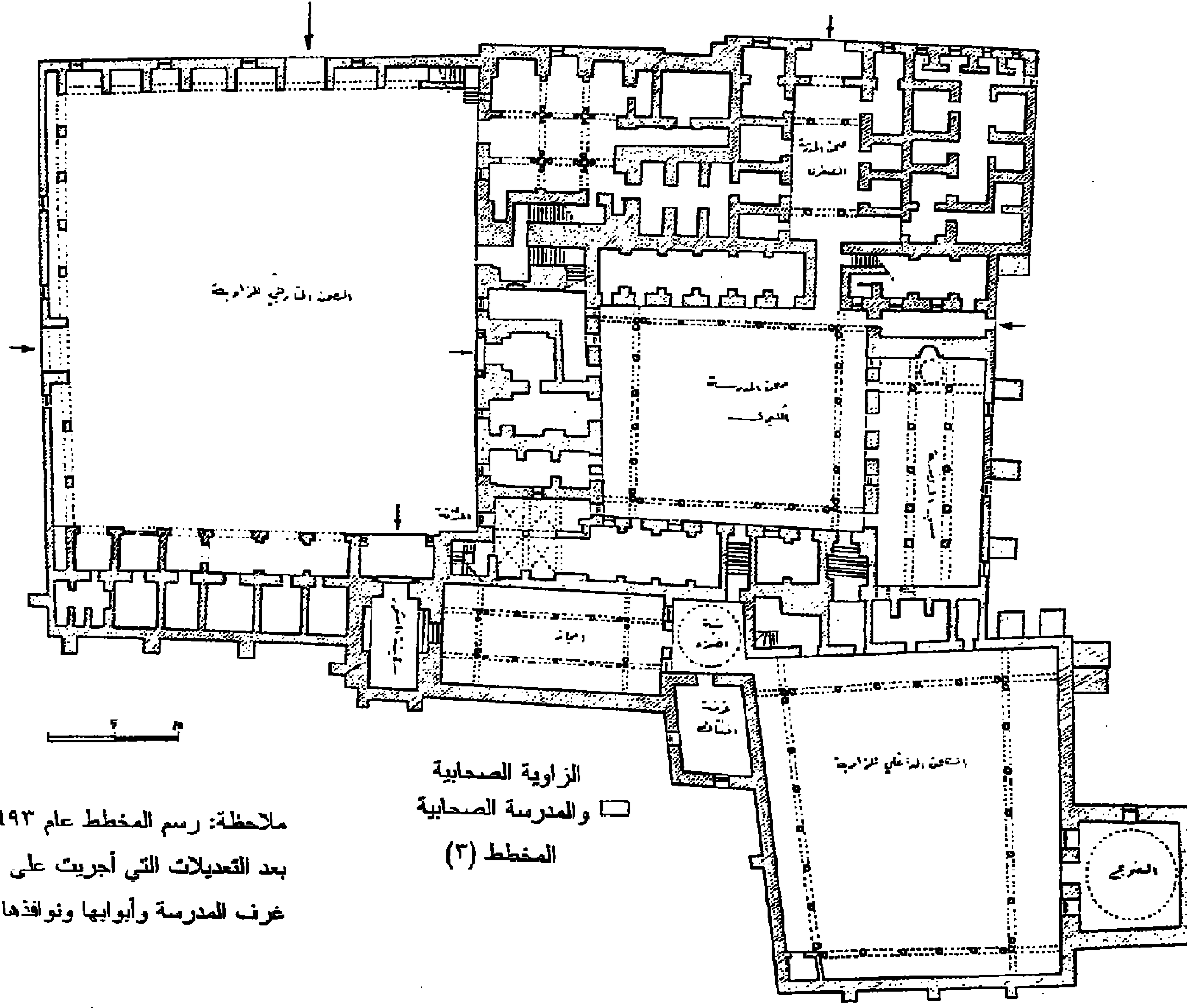
(المخطط ١)



1 2 3

زاوية أبي يوسف الدهماني

(المخطط (٢)

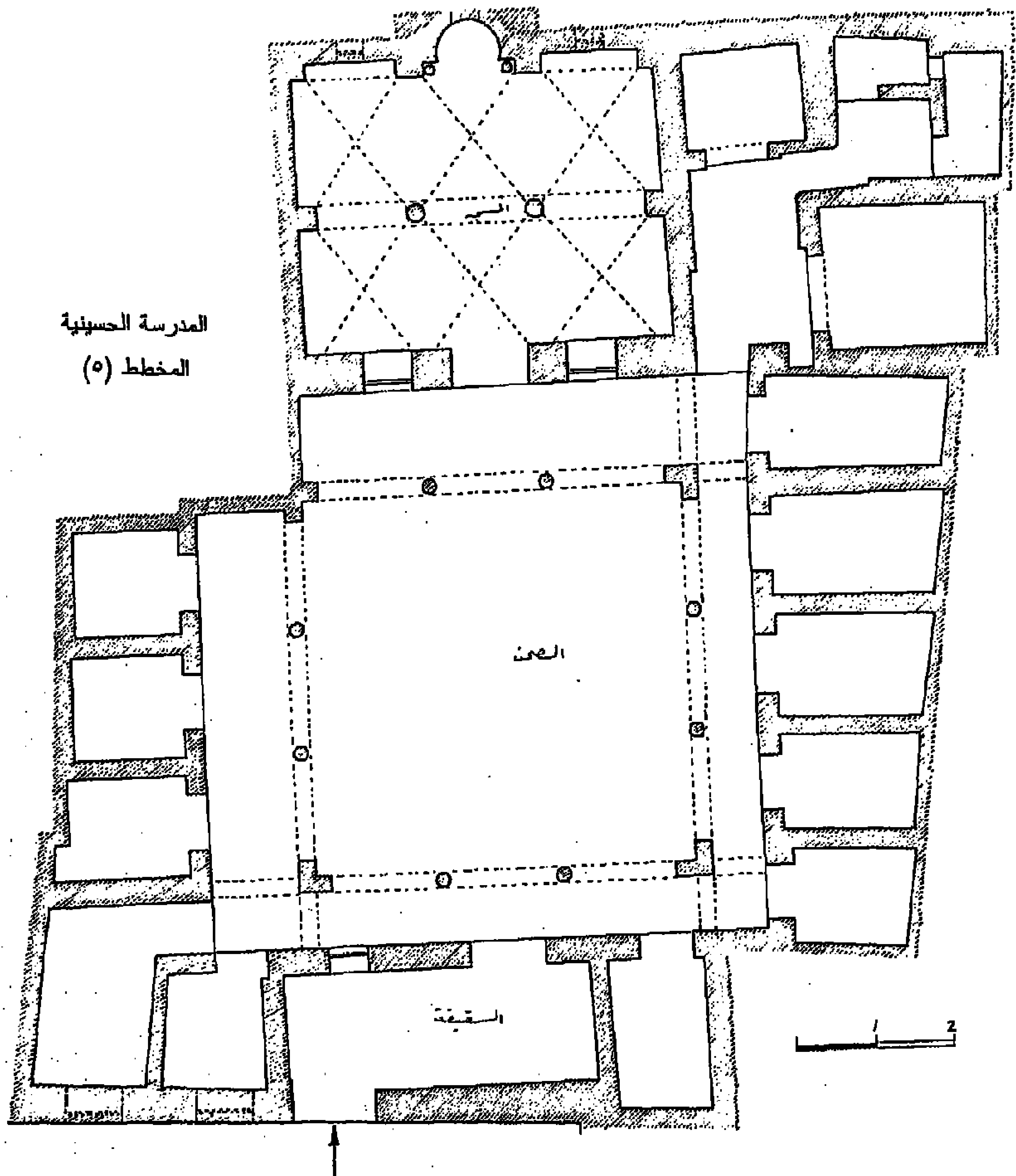


الزاوية الصحابية
والمدرسة الصحابية
المخطط (٣)

ملاحظة: رسم المخطط عام ١٩٩٣ بعد التعديلات التي أجريت على غرف المدرسة وأبوابها ونوافذها.



زاوية عمر عبادة
القسم المرمم
(متحف عمر عبادة)
المخطط (٤)


المدرسة الحسينية
المخطط (٥)
الصحن
السقيفة
1
2

مسجد الزاوية

صحن الزاوية

مسجد المدرسة

صحن المدرسة

سقيفة المدرسة

الضريح

سقيفة الزاوية

1 2 3

المدرسة العوانية

الزاوية العوانية

المخطط (٦)

المدرسة الطبية المُلكية في دمشق
وأثرها في ابتداء التعليم الطبي في سوريا (*)

مقدمة ولمحة عن بدايات التعليم الطبي الحديث في الإمبراطورية العثمانية

الدكتور محمد بشير الكاتب
أستاذ الجراحة – كلية الطب
جامعة حلب

مما لا شك فيه أن التعليم الطبي بمفاهيمه الحديثة لم يبتدأ في الإمبراطورية العثمانية حتى بدايات القرن التاسع عشر. وصحيح أنه كان يوجد ما يمكن أن يطلق عليه تعبير "مدرسة طبية" في استانبول. أسست في القرن السادس عشر أيام السلطان سليمان القانوني. ولكنها بقيت زهاء قرنين تدرس الطب وفق المفاهيم الطبية القديمة. إلى أن جاء السلطان محمود الثاني الذي يعتبر في مقدمة الحكام الإصلاحيين في العالم، والذي قام بأعمال إصلاحية في السلطنة، أراد بها أن ينقذ الإمبراطورية، ويبعث فيها روحاً جديدة ويضع لها نظماً حديثة تتماشى مع النهضة العلمية والصناعية التي ظهرت في أوربا. ولكي يتمكن من تحقيق أفكاره التقدمية فانه أراد أن يعتمد على جيش حديث يدعمه ويؤمن له ما يريده للإمبراطورية من نهضة علمية، اجتماعية، عسكرية، إدارية، تواكب الحضارات المعاصرة الأخرى، وبتخطيط محكم دقيق تمكن من القضاء على النظام الانكشاري الذي بات مصدر شغب وفوضى وخطر على سلامة

(*) ظهر أثناء انعقاد المؤتمر كتاب مفصل بالتركية للأستاذ الدكتور اكمل الدين احسان اوغلى حول "المؤسسات الصحية العثمانية الحديثة في سوريا، المستشفيات وكلية طب الشام" من منشورات مجمع التاريخ التركي (أنقرة ١٩٩٩) (المركز).

الدولة. وأنشأ جيشاً حديثاً يوازي في تشكيلاته واستعداداته أمثاله من جيوش الدول الأوربية التي كانت تحكم العالم كروسيا والنمسا والمجر وألمانيا وفرنسا وإنجلترا.

ورأى هذا السلطان المصلح بثاقب نظره أن قوة الجيش لا يمكن أن تكون كافية لبقاء الإمبراطورية واستمرارها، ما لم تحدث نهضة علمية حديثة في جميع مرافق حياة السلطنة. ولذا فإنه ابتدأ بإدخال مناهج التعليم الحديث، وكان من جملة إصلاحاته اهتمامه بتنظيم المدرسة الطبية القديمة، حيث أسس فيها شعبتين، إحداهما للأمراض الداخلية والثانية للأمراض الجراحية، وبعدها وبنصيحة من مستشاريه دمج الشعبتين وجعل منهما مدرسة طبية واحدة جعل مقرها في منطقة "بك اوغلى" في استانبول وفي البناء الذي تقوم عليه حالياً مدرسة "غلطة سراي" الثانوية، وأمر بتجهيز هذه المدرسة الطبية بالوسائل والتجهيزات الحديثة، واستقدم للتدريس فيها بعض الأطباء الأجانب المشهورين، وابتدأ التدريس في هذه المدرسة الطبية الحديثة التي عرفت باسم المدرسة الشاهانية العسكرية للطب والصيدلة في عام ١٨٢٧. وكما يظهر من اسمها، فإنها كانت مدرسة عسكرية تتبع في نظمها الحربية (وزارة الدفاع) ويتخرج منها أطباء وصيادلة عسكريون يخدمون في الجيش. ونظراً لوجود الأساتذة الأجانب ولعدم توفر الكتب اللازمة باللغة التركية، فقد كان التدريس باللغة الفرنسية. وفي عهد السلطان عبد المجيد (عام ١٨٣٩) الذي خلف السلطان محمود وكان أيضاً من السلاطين الإصلاحيين الذين أرادوا بعث روح جديدة قائمة على العلم والتنظيم الحديث في تلك الإمبراطورية المهددة بالانقراض، فكان من جملة إصلاحاته أنه شمل المدرسة الشاهانية العسكرية للطب والصيدلة، بعنايته واهتمامه بحيث أمر بتوسيعها واستقدم لها المزيد من الأساتذة الاختصاصيين الأجانب، وأضاف إليها قسماً لتعليم التوليد وتخريج القابلات المجازات قانونياً. ولكن هذه المدرسة لم تبق في بنائها في (غلطه سراي)، فقد جرى نقلها وفق الظروف وحسب الاحتياج إلى أماكن مختلفة في استانبول. ففي عام ١٨٧٦، انتقلت هذه المدرسة الطبية العسكرية من (غلطه سراي)، بحيث أصبحت الصفوف التحضيرية في قوله لي KULELİ أما الصفوف العليا فأصبحت في دمير قبو DEMİRKAPI في مدينة استانبول. بعد ٩ سنوات من إنشاء المدرسة الطبية الشاهانية العسكرية، تأسست في عام ١٨٣٦ مدرسة طبية مماثلة ولكنها تحمل الصفة المدنية لا العسكرية، وابتدأ التدريس في هذه المدرسة في عام ١٨٣٩. وكان التدريس يتم فيها أيضاً باللغة الفرنسية، ولكن السلطان محمود الثاني وعد بأن يجرب التدريس فيها باللغة التركية في

المستقبل القريب وفي الواقع فإنه لم يكن لهذه المدرسة الطبية المدنية بناء خاص بها، وكان طلابها المدنيون يدرسون جنباً إلى جنب مع زملائهم العسكريين ولكنهم كانوا يعملون في الجهات المدنية إذ يمارسون الطب بعد تخرجهم بشكل خاص. ودام الوضع على هذا الشكل إلى أن تم فصل المدرسة الطبية المدنية عن الطبية العسكرية وذلك في سنة ١٨٦٧. ولم يبدأ التدريس باللغة التركية، بشكل فعلي في المدرسة الطبية العسكرية حتى عام ١٨٨٠. أما بالنسبة للمدرسة الطبية المدنية، فإن لغة التدريس فيها قد تحولت من الفرنسية إلى التركية وذلك اعتباراً من عام ١٨٦٦.

وفي عام ١٨٩٤ أي في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. انتقلت المدرسة الشاهانية المدنية للطب والصيدلة من مكانها في دمير قبو DEMİRKAPI إلى بناء فسيح خصص لها في قصر مصطفى باشا المنمنلي في حي قادرغه KADIRGA في استانبول، وألحقت بالمدرسة الطبية عيادات للعديد من الاختصاصات الطبية كالأمراض الداخلية والجراحية والعينية والجلدية والتوليد، ومدرسة لتخريج قابلات مجازات.

السلطان عبد الحميد الثاني والتعليم في الإمبراطورية العثمانية

اعتلى السلطان عبد الحميد الثاني العرش خلفا لأخيه السلطان مراد الذي خلع عن العرش ولما يمض على توليه السلطة سوى أشهر قليلة (من أيار إلى آب ١٨٧٦) بسبب إصابته بمرض عقلي لا يؤهله للقيام بمهامه. ولقد جئ بالسلطان مراد خلفا لعمه السلطان عبد العزيز، الذي خلع عن العرش بتدبير من مدحت باشا وجماعة تركيا الفتاة.

وأنا لا أريد في هذا المجال أن أدخل في تفصيلات خلع السلطان عبد العزيز، وفيما إذا كانت جمعية تركيا الفتاة على حق في تدبير خلعه أم لا؟، ولا أريد أن أناقش فيما إذا كان مدحت باشا قد قام بهذه العملية بدافع وطني بحت لإصلاح الإمبراطورية العثمانية، وترسيخ النظام الدستوري فيها أسوة بغيرها من الدول العظمى الأوروبية التي سبقتها في هذا المجال! أم أنه كان عدا تشبعه بأفكار الحرية والأخوة والمساواة التي كان يعتنقها، مدفوعاً بشكل ما من قبل دولة أجنبية أو أكثر لإحداث تغيير جذري في نظام الحكم في الإمبراطورية العثمانية... ولكن مهما كانت الأسباب، فإن طريقة خلع السلطان عبد العزيز ثم كيفية موته منتحرا في سراي جراغان، ترك في نفس ابن أخيه الذكي عبد الحميد آثاراً عميقة ظهرت بكل وضوح

حين توليه السلطنة، حيث أصبح دوماً يعيش في خوف من أن يلاقي مصيرا مماثلاً لمصير عمه السلطان عبد العزيز. ويعد ارتقاء السلطان عبد الحميد الثاني عرش السلطنة في أيلول ١٨٧٦ أعلن القانون الأساسي في كانون الأول ١٨٧٦ والذي كان في حد ذاته مستوحى من الدستور البلجيكي. وبقي السلطان عبد الحميد على العرش ثلاثا وثلاثين سنة، وكانت الإمبراطورية في عهده رغم اتساع رقعتها وبقاء السلطة المركزية صادرة من استانبول عاصمة الإمبراطورية، فإنها كانت أشبه بالرجل المريض الذي كان يعيش فترة النزع الأخير. ولم يجد السلطان عبد الحميد الثاني فكرة تقوم مقام الوعي القومي الذي كان سائدا في دول أوروبا، سوى فكرة الإسلام والجامعة الإسلامية للحفاظ على الإمبراطورية. وكان يرى أن الأمة الإسلامية التي تشكل إمبراطورية في جهل وتخلف لا يسمحان لها بممارسة حياة ديمقراطية نيابية كتلك التي كانت تسود في بلاد أوروبا الغربية، كإنكلترا وفرنسا مثلا... أي أنه لم يرها مؤهلة للحياة النيابية العصرية.. فحاول ما استطاع أن يحكمها بأسلوبه الفردي الخاص، وأن يقف في وجه التيارات الثورية العاطفية.. التي كان (وربما على حق إلى حد ما).. يشك في دوافعها الحقيقية، وأهداف من يغذونها والنوايا السرية التي تكمن في داخلها. والتي تسعى إلى تفتيت الإمبراطورية العثمانية الإسلامية، واقتسامها وإزالتها تماماً من الوجود.

وأراد السلطان عبد الحميد الارتقاء بالأمة العثمانية، ورأى أن تهيئة الإمبراطورية لمقاومة التيارات الهدامة يكون بوسائل ثلاث:

الوسيلة الأولى: تقوية الجيش وتحديثه، ولذا فإنه انصرف إلى تدريب جيشه تدريباً حديثا جيدا على أيدي الخبراء الألمان، الذين كانوا يعتبرون قمة العبقرية العسكرية في أوربا.

الوسيلة الثانية: هي إنعاش الحركة التجارية بإنشاء الخطوط الحديدية، من غرب الإمبراطورية إلى شرقها ومن شمالها إلى جنوبها. وهكذا فإنه اهتم باتمام الخط الحديدي من بلغراد إلى استانبول، فالأناضول واتفق مع حلفائه الألمان على إنشاء خط حديدي من استانبول مروراً بالأناضول إلى حلب وحتى بغداد. هذا الخط الذي أصبح مصدر قلق للحكومة البريطانية لأنهم اعتبروه وسيلة لسيطرة العثمانيين وحلفائهم الألمان على طريق الهند جوهرة التاج البريطاني والذي يعتبره العديد من المؤرخين أحد الأسباب الخفية للحرب

العظمى (١٩١٤-١٩١٨). كما أنه بين عامي ١٩٠٠-١٩٠٨ أتم تمديد الخط الحديدي من دمشق إلى المدينة المنورة، حيث ربط هذا الخطُ بلاد الشام بالحجاز. وأمن سلامة الحجاج المسلمين من استانبول حتى المدينة المنورة، وصحيح أن هذا الخط ما كان ليتم لولا التبرعات التي جمعت من المسلمين في مختلف أرجاء العالم لأن الدولة العثمانية كانت آنذاك في ضائقة مالية شديدة، فإنه أيضاً ما كان ليتم لولا تبني السلطان عبد الحميد لفكرة إنشائه وذلك انطلاقا من إيمانه بفكرة الجامعة الإسلامية وتحمسه لها.

الوسيلة الثالث: هي نشر التعليم بمختلف درجاته في أرجاء الإمبراطورية. وصحيح أن السلطان عبد الحميد. فرض مراقبة شديدة على الكتب التي تدرس وعلى الصحافة والمطبوعات بشكل عام، وظهر وكأنه الحاكم الذي يقف في وجه العلم والتقدم، فإنه في الحقيقة، كان مهتما بتوطيد دعائم التعليم الحديث. ففي عهده أصبح التعليم الابتدائي الرسمي المرتبط بوزارة المعارف إلزاميا. وفي عهده أنشئت أكثر المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية (المدنية والعسكرية) في مختلف أنحاء الإمبراطورية. وفي عهده انتقلت مدرسة الطب والصيدلة من دمير قبو DEMİRKAPI إلى بناء كبير في قادرغه KADIRGA الذي هو قصر مصطفى باشا المنمنلي وافتتحت العيادات الخارجية التخصصية. ومنذ عام ١٨٩٧ بدأت الدولة تفكر بإنشاء مدارس عليا أو كليات للطب والصيدلة في بعض المدن الكبيرة والهامة في الإمبراطورية، لما لوحظ من قلة عدد الأطباء، وتدن في الوضع الصحي في تلك المناطق. وهكذا كلفت الدولة أمير اللواء خير الدين باشا بإجراء دراسة عن الوضع الصحي للمنطقة التي يمر فيها الخط الحديدي من دمشق إلى المدينة المنورة، حيث أن الدولة كانت تتوقع حدوث تطورات اقتصادية واجتماعية مهمة في هذه المنطقة التي ستكون بحاجة إلى أطباء من أبنائها، الذين يمكن أن يقدموا خدماتهم بشكل أفضل، نظراً لارتباطهم الطبيعي بمنطقتهم.

ولقد كانت فكرة إنشاء مدرسة للطب والصيدلة قد وردت لأول مرة في تقرير للجمعية الطبية الشاهانية نشر في أيول ١٩٠٠ بمناسبة العيد الفضي لاعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني عرش السلطنة. وعلى كل فإن اللواء خير الدين باشا أنهى تقريره في ١٥ كانون الثاني ١٩٠١ واقترح في هذا التقرير إنشاء مدرسة طبية في مدينة دمشق.

المدرسة الطبية الملكية (المدنية) العثمانية في دمشق

يذكر الأستاذ أحمد شوكت الشطي في كتابه "تاريخ الطب عند العرب في القرون الأخيرة". الذي كان أحد مطبوعات جامعة دمشق في عام ١٩٩٠ أن الإرادة السلطانية (السنية) صدرت بتاريخ ٢٧ أيلول ١٩٠١ بتأسيس مدرسة لتعليم الطب والصيدلة في مدينة دمشق. وفي ٣ نيسان ١٩٠٣ صدر الفرمان (المرسوم) السلطاني التنفيذي بتأسيس هذه المدرسة، وفي ٣١ آب من العام نفسه تم افتتاحها رسمياً، وفي شهر تشرين الأول ١٩٠٣ ابتدأ التدريس الفعلي. وكان مقرها قصر زيبور باشا في شارع الصالحية في دمشق. واختير هذا القصر لاحتوائه على قاعات كبيرة مناسبة للأغراض التدريسية، بما تتطلبه من مخابر الكيمياء وعلم الغرائز والعلوم الطبيعية (نبات، حيوان)، وقاعات للتشريح الوصفي، وأخرى لإعطاء الدروس، وهكذا فإن العلوم الأساسية كانت تعطى للطلاب في هذا المبنى، أما بالنسبة للدروس السريرية فكانت تتم في مستشفى الحميدية الذي كان لا يزال موجودا ومستخدما لنفس الغاية حتى زمن قريب وأطلق عليه اسم مستشفى الغرباء.

لقد ذكرنا آنفا أن المدرسة الطبية الملكية العثمانية، قد أنشئت في دمشق من قبل الدولة بعد دراسة وتمحيص، لاحتياجات المنطقة حاضرا ومستقبلا إلى المزيد من الأطباء ومن الصيادلة أبناء تلك المنطقة بالذات.. ولكن هل كان هذا هو السبب الوحيد الذي يكمن وراء إنشاء مدرسة للطب والصيدلة في دمشق؟.. أم أن هناك أسباباً أخرى دفعت الحكومة العثمانية إلى اختيار دمشق مكاناً مناسباً لهذه المدرسة؟...

الأسباب الخفية التي دفعت بالعثمانيين لافتتاح المدرسة الطبية الملكية في دمشق

إن الحكومة العثمانية، كانت دون شك تعرف مكانة بلاد الشام التي تقع في قلب الإمبراطورية، وكانت تدرك طبعاً أطماع الدول الأوربية وأحلامها بالنسبة لهذه المنطقة، وكانت على دراية بالتركيبة العرقية والمذهبية والطائفية للمنطقة. ففي عام ١٨٨٠ طوح الأب نورمان NORMAND رئيس البعثة اليسوعية في لبنان على قنصل فرنسا العام في سورية الذي كان يقيم في بيروت وهو السيد باتريمونيو PATRIMONIO فكرة تأسيس مدرسة طبية فرنسية من قبل البعثة اليسوعية، واقتنع القنصل العام الفرنسي بهذا المشروع وتبناه واعتبره أحد الدعائم لتثبيت مركز فرنسا في شرق البحر الأبيض المتوسط. وبدعم من رئيس مجلس النواب ليون غامبيتا LEON GAMBETA ورئيس مجلس الوزراء الفرنسي جول فيري

JULES FERRY وافق البرلمان الفرنسي على اعتماد مبلغ ١٥٠,٠٠٠ فرنك فرنسي من ميزانية عام ١٨٨٢ لبناء مدرسة للطب في بيروت مرتبطة بوزارة الثقافة الفرنسية، سواء من حيث التدريس أو الامتحانات. وابتدأ التدريس فعلاً في هذه المدرسة التي سميت آنذاك المدرسة الطبية الفرنسية، في عام ١٨٨٣.

وكانت هذه المدرسة في بداياتها متواضعة جداً قائمة على أربعة أساتذة وسبعة أسرة للمرضى، وكان عدد طلابها أحد عشر طالباً فقط. ولكنها بفضل الدعم الحكومي الفرنسي تطورت وتقدمت بسرعة ملحوظة. وارتفعت سنوات الدراسة فيها من ثلاث إلى أربع سنوات. وفي عام ١٨٨٨ أطلق عليها وزير الثقافة الفرنسية تسمية جديدة، فأصبح اسمها كلية الطب الفرنسية، وأصبح خريجوها يحملون لقب دكتور في الطب، وشهاداتهم توقع من قبل وزير الثقافة الفرنسي.

وفي عام ١٨٨٩ أحدثت ضمن كلية الطب مدرسة للصيدلة، وفي عام ١٩٢٠ مدرسة لطب الأسنان.

وإلى جانب المدرسة الطبية الفرنسية، التي كانت تستند إلى الدعم الحكومي الفرنسي والجهود التبشيرية الكاثوليكية، نرى أن النشاط التبشيري البروتستانتي قد بدأ في منطقة الشرق الأوسط، حوالي عام ١٨٢٣، وذلك عندما جاءت إلى بيروت بعثة تبشيرية بروتستانتية واستهلت أعمالها بتوزيع الإنجيل (الكتاب المقدس) مطبوعاً باللغة العربية. ورغم أن البعثات الكاثوليكية التبشيرية كانت قد سبقت البعثات المماثلة البروتستانتية فإن الأخيرة أظهرت نشاطاً ملحوظاً، وكأنها استطاعت إلى حد كبير كسب عواطف الكنائس الشرقية الأرثوذكسية الموجودة في المنطقة ذلك مما جعل الكنيسة الكاثوليكية لا تنظر بارتياح إلى النشاط التبشيري البروتستانتي. ففي عام ١٨٤٧، تمكن تبشيريان بروتستانيان أمريكيان هما "إيلي سميث ELIE SMITH وكورنيليوس فان ديك CORNELIUS VAN DYCK" بالتعاون مع ثلاثة أدباء لبنانيين (بطرس البستاني، ناصيف اليازجي، يوسف الأسير) من تأسيس (جمعية الفنون والعلوم). وقد بدا الاهتمام الأساسي لهذه الجمعية وكأنه كان موجهاً إلى ترجمة العهد القديم والعهد الجديد من الكتاب المقدس (الإنجيل)، إلا أن النشاط البروتستانتي قد ازداد من خلال هذه الجمعية.

وفي عام ١٨٥٦ أوفد إلى لبنان قس بروتستانتي اسمه دانييل بليس DANIEL BLISS للعمل بأقصى سرعة ممكنة على تأسيس مدرسة للتعليم العالي. وقد وجد البروتستانت في بيروت المناخ الملائم لمثل هذه المدرسة التبشيرية، نظراً لما كان يتمتع به لبنان من وضع إداري خاص، وما لبيروت من موقع جغرافي متميز، وأراد البروتستانت أن يسبقوا الكاثوليك، فسارعوا إلى إنشاء الكلية السورية البروتستانية في ٣ كانون الأول ١٨٦٦. وفي السنة التالية أي في عام ١٨٦٧ أضيف إلى هذه الكلية قسم لتدريس الطب، وكان النواة الأولى لكلية طب الجامعة الأمريكية في بيروت فيما بعد، وكانت لغة التدريس في البداية هي المحلية أي اللغة العربية والتي أتقنها المدرسون الأمريكيون.

ولكن الطلاب كانوا يتلقون أيضاً دروساً في اللغات التركية والإنكليزية والفرنسية. وفي عام ١٨٧١ افتتح فرع للصيدلة. وفي عام الدراسي ١٨٨٣-١٨٨٤، بسبب نقص في عدد الأساتذة الأمريكيين الذين كانوا يعرفون اللغة العربية، تحولت لغة التدريس إلى الإنكليزية، وبدأ هذا الحل مناسباً لرغبات إدارة الكلية التي أصبح يسيطر عليها فريق من الأساتذة المتزمتين دينياً والمتعصبين عرقياً.

وفي عام ١٩١٩ تقرر تغيير اسم (الكلية السورية البروتستانتية أو الكلية السورية الإنجيلية) إلى "الجامعة الأمريكية" في بيروت.

ومما لا شك فيه أن هذه الجامعة تأسست بتخطيط وجهود ودعم مالي وعلمي من قبل الكنيسة البروتستانتية الأمريكية، ورغم كل هذه العوامل، فإننا نجد أن فريقاً من المؤسسين الأوائل لهذه الجامعة كالدكتور (كورنيليوس فان ديك) أستاذ علم الأمراض (الباتولوجي) والدكتور (ادوين لويس) أستاذ الكيمياء، كان يتمتع بحرية الفكر والتسامح الديني، إلى جانب الالتزام الوثيق بالبروتستانتية التبشيرية، بينما كان يوجد فريق آخر متزمت لا يخفي تعصبه، وعلى رأس هذا الفريق الدكتور جورج بوست الذي كان قد درس اللاهوت بعد تخرجه من كلية طب نيويورك، ورغم إتقانه الجيد للغة العربية فإنه كان بروتستانتيا متشبعاً بالأفكار التبشيرية المتزمتة، حتى أنه كان يجبر الطلاب من جميع الأديان على حضور الصلاة والمواعد الدينية المسيحية، وربما بسبب عدم فهمه الصحيح لبعض الآيات القرآنية أظهر بعض التطاول على القرآن والنبي محمد عليه الصلاة والسلام...

فماذا كان موقف الدولة العثمانية تجاه هذه التطورات التبشيرية التعليمية في بلاد الشام؟ لا شك أن هذه الحركات التبشيرية التعليمية لم تكن خافية عن أنظار الدولة، وهي وإن سمحت بتأسيس الكلية الإنجيلية السورية، وكلية الطب الفرنسية، فإنها حرصا على مستوى خريجي هاتين الكليتين الناشئتين، الذين سيمنحون نفس الحقوق المهنية التي يجوز عليها خريجي المدرستين الطبيتين العسكرية والمدنية في استانبول. فإنها قررت إيفاد لجنة فاحصة من استانبول إلى بيروت في كل عام للمشاركة في امتحانات الكليتين الفرنسية والأمريكية.

وشاءت الدولة – عدا ذلك – أن تثبت وجودها العلمي والسياسي في المنطقة، فقررت إنشاء مدرسة طبية في دمشق. وكان هذا هو السبب الخفي على ما اعتقد في تأسيس المدرسة الطبية الملكية في دمشق إلى جانب الأسباب الظاهرية الأخرى التي سبق الحديث عنها.

التطورات التي مرت على المدرسة الطبية الملكية (المدينة) العثمانية في دمشق حتى تحولها إلى المعهد الطبي العربي.

ابتدأت الدراسة في هذه المدرسة في شهر تشرين الأول ١٩٠٣ في قصر زيور باشا في حي الصالحية بدمشق. وكانت مدة الدراسة في هذه المدرسة ست سنوات وكان عدد الطلاب في السنة الأولى أربعين طالباً من مختلف مدن بلاد الشام، أي سوريا ولبنان وفلسطين، وحتى من بعض بلدان الأناضول القريبة. وكان الطلاب يقضون السنتين الأخيرتين من دراستهم من المدرسة الطبية وفي مستشفى الغرباء الحميدي الذي يعتبر ثالث مستشفى أنشأه العثمانيون في دمشق وذلك في عام ١٨٩٩. وفي عام ١٩١٤ تم نقل المدرسة الطبية من قصر زيور باشا إلى البناء الجديد الذي شيد في حديقة مستشفى الغرباء الحميدي، بحيث كانت هذه الخطوة المهمة هي النواة الأولى لتأسيس كلية الطب في دمشق أي (الكلية والمستشفى). وهذا المستشفى وإن كان لا يشمل أكثر من مئة سرير، فإنه سد احتياجاً صحياً كبيراً، عدا عن كونه أضحى يحمل صفة المستشفى التعليمي، ولا زال هذا المستشفى بعد تطويره وتوسيعه يقوم بنفس المهمات الخدمية الصحية والتعليمية. والأطباء الذين تخرجوا من جامعة دمشق اعتباراً من علم ١٩٢٠ وحتى ما يقارب النصف قرن تدربوا في هذا المستشفى كطلاب ثم أتم البعض منهم اختصاصاته الطبية فيه.

ولكن في عام ١٩١٤ عندما ابتدأت الحرب العالمية الأولى ودخلتها الدولة العثمانية.. لم يكن ممكناً توسيع المدرسة الطبية وتطوير المستشفى. ونظراً لدخول فرنسا الحرب مع إنكلترا وروسيا وإيطاليا في جبهة مضادة للدولة العثمانية وحليفتيها ألمانيا والنمسا، فإن الآباء اليسوعيين اضطروا إلى مغادرة بيروت وترك كليتهم ومستشفاهم. وهكذا رآها الأتراك فرصة سانحة لنقل المدرسة الطبية الملكية من دمشق إلى بيروت عام ١٩١٦ وبقيت مدرسة دمشق تقوم بكامل فعاليتها في كلية الطب الفرنسية حتى انكسار الدولة العثمانية وانسحابها من سوريا ولبنان في عام ١٩١٨.

ولما عاد الآباء اليسوعيون إلى كليتهم بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لم يعد لمدرسة دمشق الطبية وجود. وواقعياً كانت نهاية لهذه المدرسة التي استمرت بين دمشق وبيروت من عام ١٩٠٣ حتى عام ١٩١٨، والتي خرجت ٢٤٠ طبيباً و ٢٨٩ صيدلياً.

المعهد الطبي العربي في دمشق

لا شك أن هذه النهاية الحزينة لمدرسة دمشق الطبية كانت خسارة كبيرة لسوريا، بل كانت كارثة بالنسبة للطلاب الذين كانوا يداومون على هذه المدرسة في بيروت ولم ينتهوا من دراساتهم بعد. وكان أغلب هؤلاء الطلاب من سوريا والبعض منهم من لبنان وفلسطين. وقام جماعة من هؤلاء الطلاب الذين انقطعت دراستهم، فطالبوا الحكومة العربية التي تولت إدارة سوريا آنذاك برئاسة الأمير فيصل بن الحسين، إعادة افتتاح مدرسة الطب والصيدلة في دمشق. والحقيقة ان الظروف السياسية أو الاقتصادية لم تكن في ذاك الزمن تسمح بالتفكير بافتتاح مؤسسات للتعليم العالي في سوريا. حيث أن الوضع السياسي في سوريا لم يكن مستقراً ومستقبل سوريا كان مخططاً له مسبقاً بأن يكون حسب اتفاقية سايكس – بيكو، بيد فرنسا، ولم تكن للدولة الهشة التي قامت بإدارة سوريا في تلك الفترة موارد مالية تمكنها من الإنفاق على مشاريع كبيرة لتأسيس جامعة مثلاً. وبرغم كل ذلك فعندما ذهب وفد من الطلاب الذين توقفت دراستهم لمقابلة الحاكم العسكري والمدني المكلف بمهام إدارة سوريا من قبل الأمير فيصل بن الحسين وهو علي رضا باشا الركابي، فإنه بعد حوار بسيط، رأف بحال هؤلاء الطلاب الذين أضحوا بمثابة متشردين، كما كان يدرك مدى احتياج سوريا الحديثة إلى أطباء وصيادلة، ورغم أن مبنى مستشفى الغرباء كان قد استهلك بشكل سئ جداً خلال الحرب، ونقلت أدوات المخابر إلى بيروت، وغير ذلك من المعوقات، فإنه وافق وخاصة بعد أن أعلمه الطلاب بأن

فئة خيرة من الأطباء والصيادلة والأساتذة القدامى سوف تقوم مجاناً بالتدريس ريثما يستقر الوضع السياسي لسوريا، على إعادة افتتاح المدرسة الطبية المُلكية (المدنية) العثمانية القديمة للطب والصيدلة تحت اسم المعهد الطبي العربي، وفي نفس بناء مستشفى الغرباء الحميدي، وذلك في يناير/ كانون الثاني عام ١٩١٩. وقد سمعت هذه التفاصيل بالذات من المرحوم والدي الدكتور أحمد صفا الكاتب الذي كان طالباً في السنة الأخيرة في مدرسة الصيدلة، وأحد هؤلاء الطلاب المشردين القادمين من بيروت.

بداية ظهور المعهد الطبي العربي وتطوره في دمشق

اختير لرئاسة المعهد الطبي العربي المرحوم الدكتور رضا سعيد، وهو طبيب اختصاصي في أمراض العيون، وله خبرة كبيرة سابقة في الأمور الإدارية. ويتمتع بالحنكة والمرونة (كما يصفه الأستاذ الدكتور شوكت الشطي)، ورغم الأجواء السياسية المضطربة جداً في سوريا في ذاك الوقت، فإنه صمم على النجاح في المهمة التي أوكلت إليه. وفي السنة الدراسية الأولى قُبِل في المعهد أربعون طالباً عدا الطلاب القدامى الذين جاءوا من مدرسة بيروت الطبية.

كان جميع الطلاب، سواء القدامى أو الجدد، من أبناء العرب الذين وان تكلموا لغتهم الأم التي هي العربية خلال حياتهم اليومية، فإنهم كانوا قد أنهوا جميع مراحل دراساتهم ما قبل الجامعية وقسما مهما من دراساتهم الجامعية، أي حتى توقف الدروس في مدرسة بيروت الطبية، وهم يتلقون دروسهم باللغة التركية، وفجأة انهار الحكم العثماني ودخل الجيش الحجازي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين مع الجيش البريطاني بقيادة الجنرال اللنبي إلى البلاد السورية. وتشكلت في سوريا إدارة عربية كانت النواة الأولى لأول حكومة عربية تظهر منذ أن تسلم السلطان سليم الأول الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين الذي كان مقيما في القاهرة وذلك بعد تغلبه على السلطان المملوكي طومان باي في علم ١٥١٧، فلا غرو إذا قوبلت الإدارة العربية بحماس شديد أملا أن تكون هذه الدولة الفتية هي النواة الأولى للمملكة العربية الموحدة التي كان الإنكليز قد وعدوا بها الشريف حسين بن علي شريف مكة، وجعلوه يعلن الثورة العربية في عام ١٩١٦، ويحارب معهم ضد الإمبراطورية العثمانية. كما أنه يجب أن نقر بأن سياسة التتريك التي انتهجتها حكومات (حزب الاتحاد والترقي)، والتي كانت تكمن وراءها أصابع أجنبية كانت تسعى لتفتيت الإمبراطورية العثمانية والتخلص من السلطنة أو بالأحرى الخلافة رمز الجامعة الإسلامية، أحدثت شرخاً كبيراً بين أهم عنصرين في

الإمبراطورية العثمانية، ألا وهما العرب والأتراك. ولذا فلا عجب إذا حدثت ردة فعل قوية تجاه اللغة التركية ظهرت بكل وضوح إثر انسحاب العثمانيين من البلاد الناطقة باللغة العربية.

في هذا الجو الذي وصفناه لم يكن ممكناً أبداً أن تستمر اللغة التركية لغةً للتدريس في المعهد الطبي العربي وريث المدرسة الطبية الملكية (العثمانية). وسواء بالنسبة للطلاب أم بالنسبة للأساتذة المدرسين فإن التركية كانت لغتهم العلمية. وربما كان يوجد بين الأساتذة من يتقن إحدى اللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية أو الألمانية. ولكن هؤلاء الأساتذة كانوا إما من خريجي المدرسة الطبية الملكية في دمشق أو في الأغلب من خريجي المدرسة الطبية الشاهانية العسكرية أو الملكية في استانبول، وبالطبع فإن دراستهم كانت جميعها باللغة التركية وكذلك كتبهم والمراجع التي يعتمدونها هي تركية على الأكثر.

وكما يعلم الجميع فإن اللغة التركية كانت تكتب حتى عام ١٩٢٨ بالأحرف العربية وكانت اللغة الأدبية والعلمية العثمانية تعتمد على لغتين غنيتين قديمتين هما اللغة العربية واللغة الفارسية. وكما اعتمدت اللغات الأوربية في وضع مصطلحاتها العلمية على اللغتين القديمتين اليونانية واللاتينية، فإن العثمانيين عندما شرعوا في بناء نهضتهم العلمية الحديثة في أواسط القرن التاسع عشر، فإنهم لاحظوا ان اللغة العربية يمكنها أن تلبي جميع الاحتياجات العلمية الحديثة وذلك حينما باشروا بترجمة المصطلحات العلمية الجديدة في الهندسة والطب من اللغات الأوربية. وهكذا فإن (جمعيت طبيۀ عثمانيه) أي الجمعية الطبية العثمانية، أنجزت لأول مرة في عام ١٨٧٠ قاموساً للمصطلحات العلمية الطبية من اللغة الفرنسية إلى اللغة التركية، سَمّته (لغت طبيه) أي القاموس الطبي، واعتمدت في هذا القاموس الكلمات العربية ولكن بتركيب تركي وبتلفظ تركي، وخاصة بالنسبة لحرف الضاد العربي الذي كان يُحَوَّل إلى (ظاء) في اللغة العثمانية كترجمتهم للأوكسجين بمولد الحموضة، وكانوا يلفظونها مولد حموظة. وترجمتهم للهيدروجين بـ (مولد ماء). وكقولهم (عضله صدريه أماميه) أي العضلة الصدرية الأمامية أو (شريان فخذي) للشريان الفخذي وهذا النوع من التركيب كان مأخوذاً من اللغة الفارسية ويسميه الأتراك (تركيب اضافي) وكقولهم مثلا عن اختصاص الأمراض النسائية والتوليد (فن قباله وسريريات ولاديه) وعن الجراحة (أمراض خارجيه) وعن علم النسج (فن انساج) و عن الفيزياء (حكمت طبيعيه) وعن علم الغريزة (علم منافع اعضا) وعن

الطب الشرعي (طبٌ قانوني) وعن الصحة العامة (حفظِ صحت) وعن علم الأدوية (مفـردات طبيه) وعن التشريح المرضي العام (أمراض عموميه)...

ويجب ألاّ ننسى ما كان للأساتذة أصحاب الأصول العربية ممن يتقنون اللغة العربية وكانوا يدرسون في الكليات العلمية كالطب والصيدلة والهندسة في استانبول، أمثـال نعـوم الرامـي اللبناني (من بلدة فالوغا) الذي كان يدرس التشريح وباسيل نعوم شاشاتي الحلبي الأصل الـذي كان يدرس الكيمياء وأمثالهما من فضل كبير في ترجمة المصطلحات العلمية الأجنبية الطبيـة إلى اللغة العثمانية وذلك بشكل كلمات عربية موضوعة في قالب تركي.

وهكذا فإن المعهد الطبي العربي عندما ابتدأ التدريس لم يكن صعبـاً علـى الأسـاتذة أن يستفيدوا من المصطلحات العثمانية، فجعلوها في قالب عربي لغوي صحيح، ولم يكن صعبـاً عليهم أيضاً أن يبدأوا تدريسهم بلغتهم الأم اللغة العربية ويعتمدوا الكتب الصادرة باللغة التركية كمراجع لهم يترجموها وينقلون معلوماتها إلى طلابهم بالعربية، ومـا كـان باسـتطاعتهم أن يعتمدوا لغة أخرى لأن أغلبهم لم يكن يعرف سوى اللغة التركية. ولا شك أنهم لاقوا الكثير من الصعوبات في بداية التدريس، واستعانوا بالكتب الطبية التي صدرت في مصر في أيام محمـد علي باشا وخلفائه باللغة العربية وبقيت كتباً مقررة حتى تحول التدريس التـالي إلـى اللغـة الإنكليزية وذلك بعد الاحتلال البريطاني لمصر بفترة قصيرة أي حوالي عام ١٨٦٧ تقريبـاً، كما أنهم استفادوا من الكتب الطبية التي ألفها أساتذة الكلية السورية الإنجيلية الأوائـل والتـي كانت باللغة العربية.

وهكذا فإن وجود مدرسة للطب والصيدلة في دمشق مؤسسة منذ عام ١٩٠٣ مـن جهـة، ووجود مصطلحات علمية طبية وصيدلانية موثقة ضمن قاموس صادر عن الجمعيـة الطبيـة العثمانية من جهة أخرى، كانا عاملين في إعادة إحياء مدرسة دمشق الطبية تحت اسم المعـهد الطبي العربي، وفي التمكن من اقرار اللغة العربية كلغة للتدريس، مما أتاح الفرصة مؤخـرا لكي تكون جامعة دمشق هي الجامعة العربية الأولى التي اعتمدت على اللغة العربيـة كلغـة للتعليم الجامعي. وحافظت عليها وهذا هو ما ذكره المرحوم الأستاذ الدكتور حسني سبح الـذي كان أحد طلاب المدرسة الطبية المُلكية في دمشق ممن كانوا يدرسون في بيروت، وعادوا مـع زملائهم إلى دمشق بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ثم تخرج طبيبا في عداد الدفعة الأولـى

لخريجي المعهد الطبي العربي في دمشق والذي عمل فيه بتدرج حتى أصبح أستاذا في كلية طب دمشق وعميداً لها، وأخيراً رئيساً لمجمع اللغة العربية في دمشق، فعاصر بذلك تطور المعهد الطبي العربي منذ بدايته حتى أضحى كلية للطب، تابعة لجامعة دمشق، حيث أشار إلى دور المدرسة الطبية الملكية في دمشق في افتتاح المعهد الطبي العربي، وفي تدريس الطب باللغة العربية في بحث نشر له في عدد أيلول عام ١٩٨٥ من مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق ص (٦٤٧-٦٦٥).

المعهد الطبي العربي بعد الاحتلال الفرنسي لسوريا

على إثر انسحاب العثمانيين من سوريا في نهاية الحرب العالمية الأولى، دخل الأمير فيصل بن الحسين إلى دمشق في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨ على رأس قوة عربية كانت تقاتل مع الجيش الإنكليزي بقيادة الجنرال اللنبي. ومضت سنتان على دخول الأمير فيصل إلى دمشق، حاول خلالها تأسيس دولة سورية عربية معترف بها من قبل القوى العالمية العظمى، ولكنه كان في كل مرة يذهب فيها إلى باريس أو لندن أو جنيف (مقر عصبة الأمم) يجد أمامه طريقا مسدوداً. لأن مستقبل المنطقة كان قد خطط له مسبقا منذ إبرام معاهدة سايكس – بيكو في عام ١٩١٦ بين فرنسا وإنكلترا. ولكن رغم كل العقبات التي صادفها الأمير فيصل فإنه تمكن بقليل من المسامحة الإنكليزية له وبالتفاف القوى الوطنية السورية حوله، أن يقوم بإدارة سورية، وأخيرا بضغط شعبي كبير، عقد المؤتمر السوري في ٨ مارس/ آذار ١٩٢٠. وكأن هذا المؤتمر أراد أن يضع الدول الكبرى أمام الأمر الواقع، فأعلن استقلال سوريا (الكبرى) بحدودها الطبيعية، وبايع الأمير فيصل ملكاً على سوريا. ولكن الفرنسيين لم يكن باستطاعتهم أن يقبلوا هذه الإجراءات ولم يكن أمامهم من وسيلة لتطبيق اتفاقية سايكس – بيكو سوى اللجوء إلى القوة العسكرية، وهكذا زحف الجيش الفرنسي من لبنان بعد معركة رمزية، استشهد خلالها وزير الحربية السوري، الرجل العسكري ذو المبدأ الوطني المثالي يوسف العظمة بتاريخ ٢٤ يولية/ تموز ١٩٢٠. ودخل الجيش الفرنسي إلى دمشق وانتهى العهد الذي سمي بالعهد الفيصلي.

فالعهد الفيصلي هو الفترة الزمنية بين تشرين الثاني ١٩١٨ وتموز ١٩٢٠. في هذه الفترة الزمنية القصيرة، افتتح المعهد الطبي العربي كوريث للمدرسة الطبية العثمانية، وتمكن هذا المعهد رغم الأوضاع السياسية والاقتصادية غير المستقرة في سوريا من الوقوف على قدميه

وتخريج عدد مهم من الأطباء والصيادلة، والشهادات التي صدرت من المعهد الطبي العربي في الفترة الواقعة بعد ٨ مارس/ آذار وحتى ٢٤ يولية/ تموز ١٩٢٠. كانت تحمل اسم المملكة السورية وشعارها، وتوقيع وزير المعارف آنذاك المرحوم الأستاذ ساطع الحصري، ورئيس الجامعة المرحوم الدكتور رضا سعيد. وأنا لا زلت احتفظ بشهادة والدي (المرحوم الدكتور أحمد صفا الكاتب) من المعهد الطبي العربي، قسم الصيدلة، وهي تحت رقم /٣/ ومؤرخة في يونية/ حزيران ١٩٢٠ وتحمل المواصفات التي نوهت عنها آنفاً.

وضع المعهد الطبي العربي في فترة الانتداب الفرنسي على سوريا وتطوره منذ عهد الاستقلال حتى اليوم

لا شك أن المعهد الطبي العربي في دمشق تعرض لهزة كبيرة بعد دخول الفرنسيين إلى سوريا، حيث ترك بعض أساتذة المعهد سوريا، وشغرت أمكنتهم في المعهد وظهرت في الأفق أفكار سلبية تنادي بإلغاء المعهد الطبي في دمشق وبعدم حاجة سوريا إليه مع وجود مدرستين طبيتين إحداهما فرنسية والثانية أمريكية في مدينة بيروت تؤمنان احتياج المنطقة من الأطباء والصيادلة...

ولكن رئيس الجامعة المرحوم الدكتور رضا سعيد بما أوتي من ذكاء وحكمة في تدبير الأمور وإخلاص في العمل، سارع فوراً إلى تأليف لجنة طبية تمكنت من اختيار أساتذة لملأ الشواغر التدريسية في المعهد، لاستمرار العملية التدريسية فيه... كما جرب الفرنسيون في أكثر من محاولة جعل اللغة الفرنسية لغة التدريس في المعهد فلم يوفقوا أيضاً، وبقيت اللغة العربية لغة التدريس، وكأن فكرة التدريس بهذه اللغة أصبحت شعاراً قومياً للمعهد الطبي العربي. فاهتم جميع الأساتذة تقريباً، كل حسب اختصاصه بالمساهمة في تدعيم هذه الفكرة وانتقاء المصطلحات العلمية المناسبة المستقاة أحياناً من التراث الطبي العربي القديم أو بتعريب المصطلحات الجديدة التي لم يدركها العرب القدامى، وبرزت في هذا المجال أسماء ثلاثة أساتذة أعلام كبار من الطب هم الدكتور مرشد خاطر والدكتور أحمد حمدي الخياط والدكتور جميل الخاني وأستاذ من الصيدلة وهو الدكتور صلاح الدين الكواكبي، رحمهم الله جميعاً وجزاهم كل خير على ما قاموا به من جهود وما قدموه للمكتبة الطبية العربية من آثار قيمة، كان على رأسها معجم المصطلحات الطبية. وفي عام ١٩٢٤ أصدر المعهد الطبي السوري مجلة طبية باللغة العربية تتضمن أبحاثاً أصيلة لأساتذة المعهد وغيرهم من الأطباء، وترجمات

لآخر المستجدات العالمية في الطب والصيدلة مما يتيح للطبيب أو الصيدلي في جميع أرجاء الوطن العربي الاطلاع عليه وفهمه واستيعابه بسهولة ويسره واستمرت هذه النهضة العلمية الطبية قدماً، وحذت بقية الكليات التي تأسست بعد المعهد الطبي العربي حذوه، ومرت السنون، وتطور هذه المعهد فأصبح كلية الطب، في جامعة دمشق.

وتأسست في سورية كليات ثلاث أخرى للطب، في حلب واللاذقية وحمص. تدرس الطب والصيدلة بلغة البلد القومية، (اللغة العربية)، ثم أحدثت الدراسات العليل التخصصية، التي تعتبر القاعدة الأساسية للبحث العلمي. واستمرت كليات الطب في مسيرتها العلمية، محافظةً على اللغة العربية كما كان الأمر عليه في المعهد الطبي العربي، كلغة التدريس والأبحاث، ولم تحظ اللغة القومية بما حظيته في الكليات المناظرة في المنطقة. وإلى جانب ما سجلته كليات الطب في سوريا من تقدم علمي ملموس فقد استطاع خريجوها من الأطباء العامين والاختصاصيين أن ينجحوا في مواكبة برامج الصحة العالمية في النهوض بصحة الفرد والمجتمع في هذه المنطقة المهمة من العالم.

لذا يجدر القول بأن تأسيس المدرسة الطبية الملكية (العثمانية) في عام ١٩٠٣ في دمشق واستمرار فعالياتها بين دمشق وبيروت خلال فترة عصيبة من تاريخ العالم، وهي فترة الحرب العالمية الأولى، أفسح المجال لظهور المعهد الطبي العربي على أنقاض هذه المدرسة المندثرة، في زمن كانت فيه سوريا لا تمثل سوى قطعة جغرافية تنتظر دورها لكي تؤكل على مآدب الغنائم للدول العظمى التي خرجت منتصرة من الحرب. ولا شك أنه لولا حب الوطن والإيمان الصادق بمستقبله ووجود كوكبة من رجال الدولة والإدارة والأساتذة المخلصين، والطلاب المتحمسين المتشوقين إلى العلم، لما كتب لهذا المعهد الظهور. كما أن وجود منهاج قديم مطبق ومقررات دراسية معروفة ومصطلحات عثمانية جاهزة لفرعي الطب والصيدلة، ووجود مستشفى (الغرباء الحميدي) يمكن الاستفادة منه كمستشفى تعليمي... كل ذلك سهل إعادة إحياء المدرسة الطبية القديمة، ولكن تحت اسم جديد (المعهد الطبي العربي) وبلغة تعليمية جديدة هي اللغة العربية.

وكما أسلفت الذكر، فإن هذا المعهد تعرض لهزات عنيفة كادت تقضي عليه وهو لا يزال في المهد، وخاصة بعد دخول الفرنسيين إلى سوريا، لولا أن قيض الله له دوماً فئات وطنية

واعية من رجال الإدارة والعلم في سوريا أدركت أهمية التعليم العالي بالنسبة لسوريا الحديثة، فصمدت وقاومت وعملت بصدق وإخلاص، وأنقذت هذه المؤسسة العلمية التي كانت فعلاً النواة الأولى للجامعات السورية، وبقيت اللغة العربية لغة التعليم العالي.

ويمكننا القول إنه لولا المدرسة الطبية الملكية ثم المعهد الطبي العربي ما كانت ستتأسس في سوريا كليات للطب أو الصيدلة. فمن الطبيعي جداً أن التعليم العالي في سوريا كان سيظهر يوما ما، وذلك كما حدث في بلدان أخرى من المنطقة كسيرٍ حضاري طبيعي. ولكنه كان سيأتي متأخراً بمدة ربع قرن على الأقل، وربما كانت لغة التعليم العالي ستكون لغة أجنبية، غير اللغة العربية التي نعتز ونفاخر ونباهي بها دوماً ونثبت من خلالها بأن لغتنا لم تكن يوما عاجزة عن أن تصبح لغة للمعلم الحديث.

المـــراجــــــــع

١- **إحسان اوغلى، اكمل الدين**، دراسة أولية حول المؤسسات الصحية العثمانية في ســـوريا. بحث قدم في المؤتمر الثالث عشر لتاريخ العلوم عند العرب. طرطـــوس – سوريا مايو/ ايار ١٩٨٩.

٢- **إحسان اوغلى، اكمل الدين**، المؤسسات الصحية العثمانية الحديثة في سوريا: المستشفيات وكلية طب دمشق، مطبعة (هيئة التاريخ التركية) أنقرة عام ١٩٩٩.

٣- **بروكلمان، كارل**، تاريخ الشعوب الإسلامية (بالعربية) الطبعة الثامنة، دار العلم للملاييـن. بيروت ١٩٧٩

٤- **زيدان، جرجي**، تراجم مشاهير الشرق، الطبعة الثالثة (دون تاريخ)، دار الحياة، بيروت

٥- **سبح، حسني**، تصدير وذكريات، المجلة الطبية العربية، مجلـــد ٢٥ عـــدد ٩٠ /١٩٨٦، منشورات نقابة الأطباء في الجمهورية العربية السورية

٦- **شحادة، محمد كمال**، الطب والمدارس الطبية العربية من نهاية القرون الوســـطى حتـــى العصر الحديث (رسالة دكتوراه) قسم تاريخ العلوم الطبية. معهد الـتراث العلمي العربي، جامعة حلب ١٩٩٠

٧- **الشطي، أحمد شوكت**، تاريخ الطب عند العرب في القرون الأخيرة، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠

٨- **الكاتب، أحمد صفا**، محادثات شخصية، حلب (١٩٧٣-١٩٧٤)

٩- **كرد علي، محمد**، خطط الشام، الجزء السادس (الطبعة الثالثـــة) دار العلـــم للملاييـــن، بيروت، لبنان ١٩٧٢

المصطلحات الطبية العثمانية

الدكتور محمد هيثم الخياط
نائب المدير الإقليمي لمنظمة الصحة
العالمية لشرق المتوسط، الإسكندرية – مصر

كان أبي – رحمه الله – أحد تلامذة مدرسة الطب العثمانية، التي أنشئت في دمشق في السنة الثالثة من سنوات هذا القرن. وتخرّج منها في أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم لم يلبث بعد الحرب أن انضمّ إلى رعيل الرُّوَّاد الذين أعادوا افتتاحها سنة تسع عشرة باسم المدرسة الطبية العربية، التي لم تلبث أن سُمِّيت المعهد الطبي العربي، وهو كلية الطب بجامعة دمشق الآن، وشرعوا في تدريس الطب باللغة العربية. وكان معظمهم ممن تخرّج من إحدى مدرستي الطب العثمانيتين في استانبول أو دمشق؛ و"المدرسة" في مصطلح العثمانيين تعني ما نسميه "الجامعة" أو "الكلية الجامعية" اليوم. وكانت دراستهم بالتركية قد مهّدت أمامهم السبيل إلى التدريس بالعربية، لأن معظم المصطلحات الطبية في اللغة التركية كانت مصطلحات عربية.

ومَرَدُّ ذلك إلى أن الطب كان من أوائل العلوم التي عني أطباء الحضارة العربية الإسلامية بالكتابة فيها، ترجمةً في بادىء الأمر عن اليونانية والسريانية، ثم تأليفاً أصيلاً. وقد ألجأتهم الترجمة إلى ابتكار كثير من الألفاظ وصَوْغ كثير من المصطلحات لمقابلة المفردات الأجنبية. وكان كثير من هذه الألفاظ يُستَعْرَب استعراباً لفظياً في البداية، ثم لا تلبث هذه المُستَعْرَبات أن تختفي لتحل محلّها كلمات عربية النِّجار، نقَّب عنها الأطباء أو اجتهدوا في توليدها على

قواعد الاشتقاق والمجاز المعروفة في اللغة العربية. وقد بقيت هذه الكتب الطبية المخطوطة ثم المطبوعة باللغة العربية مرجعَ العالم كله، شرقِهِ وغربهِ حتى عهد قريب.

ومن أجل ذلك كان من الطبيعي عندما أراد الأساتذة الأتراك أن يؤلفوا في الطب، أن يستعملوا المصطلحات التي استعملها أطباء الحضارة العربية الإسلامية، فقد كانت مصطلحات شائعة وصالحة، ثم إنها ليست غريبة على اللغة التركية التي استوعبت كثيراً جداً من الألفاظ العربية في شتى المجالات.

*

واهتمامُ العثمانيين بالطب قديم، لم يحدَّ منه انصرافهم للجهاد والفتوحات، بل إنا لنذكر بكل إكبار، الشيخَ الجليل محمد شمس الدين بن حمزة المعروف بالشيخ آق شمس الدين، مؤدِّبَ السلطان العظيم محمد الفاتح ومربيه. هذا المربي الجليل كان عالماً مشهوراً في الأدوية النباتية وفي الطب النفسي والبدني، وهو صاحب الفضل بالحديث عن الجراثيم أو المكروبات قبل أن يراها باستور وأضرابه من العلماء تحت المجهر بأربعة قرون، إذ قال في كتاب له بالتركية عنوانه "مادة الحياة" ما ترجمته: "من الخطأ تصوُّر أن الأمراض تظهر على الأشخاص تلقائياً، فالأمراض تنتقل من شخص إلى آخر بطريق العدوى. هذه العدوى صغيرة ودقيقة إلى درجة عدم القدرة على رؤيتها بالعين المجرّدة، لكن ذلك يحدث بواسطة بذور حيّة".

وقد أنشئت قبل عهد الفاتح بكثير، أول كلية طبية عند العثمانيين في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي باسم "دار الطب". ثم أنشئ المجمع الطبي العثماني في القرن الخامس عشر الميلادي.

*

والناظرُ في المنهجية التي اتّبعها الأطباء العثمانيون في اختيار المصطلحات الطبية وما يتعلق بها، تلفت نظره الملامح التالية:

الـمَلْمَح الأول: أنهم تبنّوا المفردات التي كانت معروفة لأول عهدهم باختيار المصطلحات. وهذه في غالب الأمر مما وضعه باديءَ الأمر الأطباء التراجمة، كيوحنا بن ماسَوَيْه وحُنَيْن بن إسحاق العِبَادي، ثم ما وضعه الأطباء المؤلفون كالرازي (صاحب الحاوي والمنصوري وغيرهما)، وابن سينا (صاحب القانون)، وعلي بن العباس (صاحب الكتاب

الملكي أو كامل الصناعة الطبية)، وغيرهم من أطباء المشرق؛ وابن رشد (صاحب الكليات في الطب)، وابن زهر (صاحب التيسير في المداواة والتدبير)، وأبي القاسم الزهراوي (صاحب التصريف لمن عجز عن التأليف)، وغيرهم من أطباء الأندلس.

وقد كان الغالب أنهم يتخيّرون لفظة واحدة إذا اختلفت الآراء، ولو أنهم كانوا في بعض الأحيان يذكرون أكثر من مصطلح واحد، مقدّمين المصطلح المحبّذ. فتراهم مثلاً في مقابلة شريان الجسم الأعظم الذي يدعى aorta بالإنكليزية وaorte بالفرنسية، يستعملون لفظة "الأبهر" التي استعملها علي بن العباس، مفضلين إياها على لفظة "الأوُرْطَى" التي استعملها ابن سينا. ولكنك تراهم في بعض معاجمهم يكتبون في المدخل الرئيسي: "أبهر، آورط"، ثم لا يكادون يستعملون في المداخل الفرعية إلا الأبهر، فيقولون مثلاً: توسع أبهر؛ تضيق أبهر؛ أم الدم أبهر؛ التهاب أبهر – التهاب آوورط؛ استرخاي أبهر؛ تصلّب أبهر؛ تعظم أبهر؛ وهكذا.

*

الملمح الثاني: أنهم استعملوا الأسماء العربية لأعضاء جسم الإنسان إلى جانب الأسماء التركية الأصيلة، ثم اقتصروا على الألفاظ العربية في المصطلحات المركبة من هذه الأسماء. فلفظة liver بالإنكليزية وfoie بالفرنسية، تجد في مقابلها لفظتين هما: كبد (العربية) ثم قره جكر (التركية). أما المصطلحات المشتقة فلا تجد فيها إلا أمثال: وجع كبدي؛ انسداد كبد؛ شريان كبدي؛ صفراي كبدي؛ قنات كبدية؛ مجراي كبدي؛ فص وفصيص كبدي؛ ضفيره كبدية؛ قولنج كبدي؛ هجمة كبدية؛ سل كبدي؛ داء الافرنج كبدي؛ أدويه كبدية؛ تكبد؛ التهاب كبد؛ فتق كبدي؛ تشمع كبد إلى آخر القائمة.

*

الملمح الثالث: أنهم وضعوا لأنفسهم قائمة بالسوابق prefixes واللواحق suffixes التي تساعد في توليد الألفاظ، والتزموا بها ما سمح المعنى بذلك. وليس يخفى أن لهذه السوابق واللواحق شأناً كبيرا في الترجمة من اللغات التي تكتب بالأحرف اللاتينية، وتصوغ مصطلحاتها باستعمال هذه السوابق واللواحق الإغريقية أو اللاتينية. على أن مما يذكر للأطباء العثمانيين، أنهم لم يكونوا يلتزمون بذلك التزاما أعمى، وإنما كان التزاما على بصيرة، يعدلون عنه إذا أخل بالمعنى أو لم يؤده بأمانة.

فمن الأمثلة على السوابق سابقة – anti اللاتينية فقد وضعوا مقابلها في المدخل الرئيسي لفظتَيْن اثنتَيْن هما: "مُضَادّ" و"دافع"، والتزموا بهما في غالبية الكلمات فقالوا مثلاً: مضاد شهوت؛ دافع قَوْبا، دافع نزله؛ دافع قولرا؛ مضاد نقريس؛ مضاد داء بُهْر؛ مضاد إسهال؛ مضاد دوار؛ مضاد سم، پانزهر؛ مضادّ قَيْ؛ مضاد التهاب؛ دافع تعفّن؛ دافع تشيُّخ؛ مضـ‍ تعرُّق؛ وهكذا.

ولكنهم قالوا: قاطع لبن antigalactique؛ وقاطع نزف antihémorragique؛ كما قالوا: مقابل حنطه antitragus ومقابل پروستات antiprostate؛ وقالوا: منعكس الاستقامة antitrope؛ وقالوا: عدم بول anurie؛ كما قالوا: ساعدي لتقابل antibrachial؛ وشامخهء إنسيّة لتقابل antithénar؛ وناحيهء شرسوفية لتقابل anticardium؛ ومتقدّم لتقابل anticipant؛ وهلمّ جرّا.

وسابقة أخرى هي – peri، وضعوا مقابلها لفظة "محيط"، فقالوا: محيط ثمر péricarpe؛ ومحيط أدمه périderme؛ ومحيط تناسل périgone؛ والتهاب محيط رحم périmétrite؛ والتهاب محيط كلية perinéphrite؛ ومحيط قضيب péripénien؛ ومحيط لهات péristaphylien؛ وهكذا. ولكنهم قالوا كذلك: غلاف ثمر مرادفاً لمحيط ثمر؛ وغلاف غضروف périchondre؛ وغلاف عصب périnèvre؛ كما قالوا: حول المبيض périgyne؛ وحول الفم péristome؛ بل قالوا: شغاف pericarde؛ وعِجان périnée؛ وسمحاق périoste؛ وپريطون péritoine.

ومن السوابق الأخرى: – dys ترجموها في الغالب بعسرة (عسرت) فقالوا: عسرت تلفُّظ dysarthrie؛ وعسرت حركت dyscynésie؛ وعسرت طمث ويا حيض dysmenorrhée؛ وعسرت هضم dyspepsie؛ وعسرت بلع dysphagie؛ وعسرت تصوّت dysphonie؛ وعسرت تنفس dyspnée؛ وعسرت دفق مني dysspermatisme؛ وعسرت ولاده dystocie؛ وعسرت تبوّل dysurie... ولكنهم قالوا: غلط رؤيت ألوان dyschromatopsie؛وقالوا: حمل معيوب dyskésie؛ وقالوا: سوء تلفظ dyslalie؛ وسوء هضم مرادفاً لعسرت هضم dyspepsie؛ وقالوا: ضعف شم dysosmie، وهكذا.

وقُلْ مثل ذلك في شأن اللواحق. فمنها اللاحقة itis- بالإنكليزية أو ite- بالفرنسية وقد استعملوا لها إحدى لفظتَيْن: "ذات" و"التهاب". فكما ورد في الحديث الشريف اسم "ذات الجنب" pleurite أو pleurésie، قاسوا على ذلك ذات الرئة pneumonie أو pneumonite؛ وذات السحايا méningite؛ وذات المعدة gastrite؛ وذات الكبد hépatite؛ وذات الكلية néphrite؛ وذات العصب névrite؛ أو قالوا لهذه الكلمات على الترتيب: التهاب غشاي جنب، والتهاب الرئة أو آق جكر التهابي؛ والتهاب سحايا؛ والتهاب المعدة؛ والتهاب الكبد؛ والتهاب كلية؛ والتهاب عصب.

واستعملوا "ألم" و"وجع" وهما مترادفان، مقابل اللاحقتين algie- وdynie - وهما مترادفتان. فقالوا: ألم معدة gastralgie وgastrodynie؛ ووجع كبدي hépatalgie؛ وألم كلية néphralgie؛ وألم عصبي névralgie. ولكنهم قالوا: صُداع في مقابل céphalalgie.

واستعملوا "قيلة" و"فتق" مقابل اللاحقة cèle-، فقالوا: فتق كلية néphrocèle؛ وفتق سحايائي méningocèle؛ وفتق سُرّه وي ompalocèle؛ وفتق دماغ encéphalocèle؛ وقالوا: قيلهء مائية hydrocèle؛ وقيلهء دوالية cirsocèle.

واستعملوا "قابليّت" لمقابلة اللاحقة able- أو ible-، و"مبحث" لمقابلة اللاحقة logie-.

*

الـمَلْمَح الرابع: أنهم ابتكروا عديداً من الألفاظ التي لم يستعملها أطباء الحضارة العربية الإسلامية من قبلهم. فاستعملوا "الالتهاب" مثلاً لما نقول له اليوم inflammation، وقد كان الأطباء من قبل يستعملون لفظة "ورم" للدلالة في وقت واحد على الالتهاب وعلى ما نطلق عليه اليوم اسم "الورم" لما يقابل tumeur. أما هم فقد ميّزوا بينهما كما ترى.

ومما ابتكروه من الكلمات مثلاً كلمة "الحويضة" للدلالة على حوض الكلية ولم تكن مستعملة من قبل؛ وكلمة "تقصّع" لما يقابل كلمة abcéder الفرنسية، وهي كلمة فصيحة. فقد جاء في اللسان: "تقصّع الدمّل بالصديد إذا امتلأ منه"، وهذا هو المقصود من المصطلح بالضبط.

ومنها "السيساء" التي تقابل لفظة rachis الفرنسية ومعناها العمود الفقاري، وهي كلمة واحدة تسهل النسبة إليها كقولهم "بصلهء سيسائية" مقابل bulbe rachidien.

ومنها "النفخة" souffle؛ و"الخَرْخَرَة" râle؛ و"الزَّئير" bruit وكلها من أعراض أمـــراض القلب أو التنفس. وذكروا من أنواع الخراخر: الخراخر اليابســـة، والفرقعيـــة، والمخاطيـــة، والكهفية، والحلقومية، والصفيرية... وذكروا من أنواع الزئير: الزئير الصفيقي، والتصـــادمي، والفرقعي، والاحتكاكي، والدلكي، والركضي، والحجيفي، والطبلي، وغير ذلك.

واستعملوا التصغير في توليد كثير من الكلمـــات، فقـــالوا "الغُدَيْـدات"؛ و"الفُصَيْصـــات"؛ والقُنَيْوَات"؛ و"الحُوَيْصلات"؛ و"الحُبَيْبات"؛ و"الجُسَيْمات"؛ والقُرَيْبة"؛ و"الجُذَيْر".

واستعملوا "المنعكس" مقابل réflexe و"الانكدام" مقابل enchymose و"الانخماص" مقـــابل affaissement؛ و"الانسكاب" مقابل affusion و"السَّفك" مقابل effusion؛ و"الآفـــة" (آفـــت) مقابل lésion و"الاحتشاء" مقـــابل infarctus؛ و"الإنتـــان" أو "التعفّـــن" مقـــابل infection؛ و"الارتشاح" مقـــابل infiltration؛ و"النكـــس" أو "النكـــاس" مقـــابل rechute؛ و"المعـــاودة" (معاودت) مقابل récidivité.

*

الـــمَلْمَح الخامس: أنهم لم يكثروا من الاستعراب أي التعريب اللفظي للألفاظ الأجنبيـــة، بل عملوا على إيجاد مقابل عربي لها. وكانوا يعمدون أحيانـــاً إلى وضع اللفظـــة المســـتعرَبة وإلى جانبها اللفظة العربية التي يقترحونها لتحلّ محلها. فقالوا مثلاً: "قوليرا" و"هيضة" مقـــابل cholera؛ وقالوا: "روماتزمه" و "رثية" مقابل rhumatisme. ولم يســـتعربوا مـــن الألفـــاظ التشريحية إلا ما استعربه أطباء الحضارة العربية الإسلامية لعدم تمكنهم من العثور على مقابل له أو ابتكار ذلك المقابل، وذلك في مثل "بانقره آس" مقابل pancréas و"بَرُوسْـــتات" مقـــابل prostate.

أما الألفاظ الكيميائية فقد أكثروا فيها من الاستعراب، ولو أنهم كثيراً ما حاولوا أن يشـــتقوا لها مصطلحات من الألفاظ العربية، فقالوا مثلاً " بپسين"، هضمين" مقـــابل pepsine؛ وقـــالوا "حمّاضات، أوقسالات" مقابل oxalate. وتجلّى ذلك على الخصوص في أســـماء الأحمـــاض فقالوا مثلاً: "حامض سينـــام، حامـــض قرفـــة" مقابل acide cinnamique؛ و"حامض

خل" مقابل acide acétique؛ و"حامض كبريت" مقابل acide sulfurique؛ و"حامض قاربون، حامض فحم" مقابل acide carbonique.. وهكذا.

*

وبعد، فقد ذكرت في مطلع هذا الحديث، أن أساتذة المعهد الطبي العربي بدمشق قد وجدوا المصطلحات الطبية العثمانية تمهد السبيل أمامهم إلى التدريس بالعربية. وقد تبين لي من مطالعة مؤلفاتهم، أنهم اعتمدوا هذه المصطلحات الطبية العثمانية اعتمادا كاملا أو يكاد، اللهم إلا ما كان مثلا من أمر مصطلحات علم الجراثيم Bactériologie التي كانت معظم أسمائها دخيلة معربة تعريبا لفظيا، وقد رأى أبي – رحمه الله وأحسن إليه – أن ينقلها جميعا إلى العربية، فقال "المكورات العنقودية" بدل "استافيلوقوق" و"المكورات البنية" بدل "غونوقوق" وهكذا في عشرات بل مئات من مصطلحات هذا العلم. وقل مثل ذلك في بعض مصطلحات علم النسج Histologie التي عدل فيها عن اللفظ المستعرب في كثير من المصطلحات التي لم تكن عربية في الأصل، واستعيض عنها بكلمات عربية.

على أن من المفيد أن أشير أيضا إلى مدرستين أخريين، واكبتا القرن الأخير من المدرسة العثمانية. أولى هاتين المدرستين هي مدرسة طب قصر العيني، التي أنشئت في مصر في عهد محمد علي باشا، سنة سبع وعشرين وثمانمئة وألف، وكان أول ناظر لها هو الطبيب الفرنسي العالم أنطوان كلوت، أو "كلوت بك" كما صار يدعى بعد ذلك. وقد كان رأي "كلوت بك" أن التعليم ينبغي أن يكون بالعربية، "لأن التعليم بلغة أجنبية – على حد قوله – لا تحصل منه الفائدة المنشودة، كما لا ينتج عنه توطين العلم أو تعميم نفعه". وقد كانت الكتب المدرسية التي بين يديه كلها فرنسية، والأساتذة أكثرهم فرنسيين. فكان الأساتذة يلقون المحاضرات بالفرنسية، ويقوم تراجمة بترجمتها ترجمة فورية إلى العربية. ثم ترجم كثير من الكتب إلى العربية وكلف عالم أزهري يعاونه آخرون بتهذيبها وصقلها. وقد بلغ عدد الكتب المترجمة إلى العربية ستة وثمانين كتابا. وقد قام الأساتذة المصريون الرواد بترجمة معجم فرنسي في المصطلحات الطبية إلى العربية، يعاونهم عدد من المصححين المتعمقين في العربية. ولاشك عندي في أنهم استفادوا كثيرا من المصطلحات الطبية العثمانية، فالمطالع لكتبهم لا يكاد يجد فروقا تذكر بين

مصطلحاتهم وبين المصطلحات التي كانت تدرَّس في مدارس الطب العثمانية. والأمر الذي لا يكاد يَخْفى أنه كان ثَمَّةَ نوع من التآثر أي التأثير المتبادل بين المدرستين.

وأما المدرسة الثانية فهي الكلية الإنجيلية السورية التي أصبح اسمها في ما بعد الجامعة الأمريكية في بيروت. وقد جُعِل التعليم فيها عند إنشائها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، باللغة العربية. وكان فيها ثلاثة من العلماء الأعلام، أتقنوا العربية، وانكبّوا على نقل الكتب المدرسية إليها، وهم الأساتذة فان دايك، وبوست، وورتبات. ولاشك عندي كذلك في أنهم اقتبسوا كثيراً من المصطلحات الطبية العثمانية ومن مصطلحات مدرسة طب قصر العيني على حد سواء.

والمؤسف أن التعليم في كلتا المدرستين لم يلبث أن أصبح باللغة الإنكليزية، بعد الاحتلال البريطاني لمصر في الأولى، وبعد تمكُّن الثانية ورسوخ قدمها.

*

وبعد، فهذه نظرة عَجْلَى على المصطلحات الطبية العثمانية، لم أشأ فيها أن أخوض في كثير من التفاصيل التي لا تهم غير الاختصاصيين، ولو أنني أرجو أن أكون قد وُفِّقتُ إلى بيان الجهد الكبير الذي بذله الأطباء العثمانيون في جمع ووضع هذه المصطلحات، وكذلك إلى بيان أثر هذه المصطلحات في أعمال المدارس الثلاث التي علّمت الطب باللغة العربية وهي مدرسة طب قصر العيني، والكلية الإنجيلية السورية، والمعهد الطبي العربي بدمشق الذي واصل التدريس بها حتى اليوم.

التعليم "العصـــري"
موحّداً في الافتراق الملي

الدكتور شربل داغر
جامعة البلمند – لبنان

لا يتأخر برنار لويس عن استعمال لفظ "الاكتشاف" في عنوان كتابه "كيف اكتشف الإسلام أوروبا" (١٩٨٢، في طبعته الأمريكية) للدلالة على مسار "الفضول" الذي بات يعين المبنى الذهني والخيالي والتعليمي في الحقبة العثمانية المتأخرة (١). ولقد اتخذ الفضول أو تشكل في مسار في مطالع القرن التاسع عشر، حسب لويس، ذلك أن أوروبا ظلت قبل هذا العهد منطقة بعيدة نائية، لا تثير اهتمام العالم الإسلامي. وحصول هذا التباعد هو الذي جعل عملية الاتصال بين العالمين، في غير مجال وسياق، أشبه بعملية الاكتشاف. ولكن أهو اكتشاف فعلاً، أم مباينة، أم تداخل بين مقتضيات ثقافتين وعالمين؟

نثير السؤال، ذلك أن ما جرى في مطالع القرن التاسع عشر، سواء في الآستانة نفسها، أو في مراكز غير ولاية عثمانية، وقبل مدن الداخل والقصبات والقرى، جدير بالملاحظة والتتبع والتبين، لأن فيه ما يشير إلى مسارات عديدة، على ما تحققنا، إلا أن حصول هذه المسارات إشارة إلى نهاية مسارات أخرى، هي مسار "العلماء"، كما نلقاه في غير كتاب قديم يتحدث عن مسار التعليم والدرس في العهود العثمانية وقبلها. وهو المسار الذي يتحقق محمد رشيد رضا من كساده، عند زيارته طرابلس في مطالع القرن الجاري، إذ يقول إن العلماء فيها "تركوا

(١) Bernard Lewis: *Comment a découvetr l'europe*, tradult, Gallimard, Paris, 1984

الدرس والتدريس، واجتنبوا الكتابة والتصنيف"، وانصرفوا إلى أمر الدنيا من تجارة وزراعة "لكساد بضاعة العلم".

وهو عينه، محمد رشيد رضا، الذي يقول في تحقق مأسوي من اندثار خط العلماء: "لقد نام المسلمون نومة اجتماعية أطول من نومة أهل الكهف وأثقل، الموقظات التي تضج الأسماع تتوالى من حولهم كالصواعق وقد ضرب على آذانهم فهم لا يسمعون، ولما بعثوا وجدوا ما يعرفون من سير البشر قد تبدل فصار على غير ما يعهدون، رأوا الغربيين قد سادوا العالم وتولوا إدارة شؤونه في بلادهم وبلاد غيرهم من حيث يشعر أولئك الأغيار ومن حيث لا يشعرون، فحاروا في أمرهم لا يدرون ما يصنعون" (٢). فكيف جرى ما جرى؟

لا يعالج لويس في كتابه المذكور التعليم كمسار مستقل يتحقق فيه من حصول الفضول، والاكتشاف بالتالي، وإنما يستعرض بعض جوانب هذا المسار ومواده، مثل تعلم اللغات (والانفتاح على ثقافات أخرى)، أو القبول بدخول وسائل الذيوع الحديثة، كالمطابع وموادها في الكتب والصحف وغيرها. ويتحقق لويس في هذه المراجعات – التي تتوسع في النطاق التركي ضمن العالم العثماني – من اللامبالاة بما يجري في أوروبا، قبل الخشية منه أو احتقاره: فالسفير المغربي، الغساني، يسخر من المطبعة، "طاحونة الكتابة"، حين يتعرف عليها في فرنسا، قبل أن يخشى السلطان العثماني عواقب دخولها على الحياة العثمانية، فيعمل على استصدار "فتوى" للسماح بعملها في منتصف القرن الثامن عشر، على أن تمتنع عن طبع الكتب الدينية.

ستنقلب الآية في القرن التاسع عشر، لا بل ستتحول هذه الخشية إلى تشوف في بعض الأحوال، وإلى اتباع يكاد يكون أعمى للمثال الأوروبي. إلا أن دخول بيئات العالم العثماني في هذا المسار مختلف، فما جرى في مدينة "الباب العالي" هو غير ما جرى في قاهرة محمد علي أو في بيروت أو في تونس. فنحن لا نتبين كفاية في الآستانة حقيقة الإذعان إلى مقتضيات هذا النظام الضاغط من حقيقة القبول به بل التشوف إليه، فيما نتبين قيام سياسة تحديثية لمحمد علي، لا يتورع معها عن الإتيان بتراجمة وقفوا إلى جانب الأساتذة الإيطاليين أو الفرنسيين لشرح العلوم "العصرية" للطلاب العثمانيين والمصريين.

---

(٢) محمد رشيد رضا: مجلة "المنار"، جـ ٨م ٢٢، سنة ١٩٢١، ص ٦٢٠-٦٢١.

كما نتحقق، سواء في تركيا أو في مصر، من قيام الدولة بالدور الأول في توجيه سياسات التعليم والتربية، فيما نتحقق، سواء في مدارس جبل لبنان، أو في الحوزات التأهيلية في جبل عامل، أو في المدارس القرآنية في طرابلس أو صيدا، من اضطلاع الجماعات الطائفية (والجماعات التبشيرية الأوروبية والأمريكية) بهذه السياسات. ونتلمس كذلك في مدى هذه المراجعة والمقارنة حصول عمليات في المجال التعليمي والتربوي تصدر عن سياسة منظمة ومتتابعة أو عن تعثر وتخبط، ليس أقلها أحياناً انتظار جماعات وأوساط حصول هذه السياسات وتطبيقها بالتالي، مثلما انتظرت جهات إسلامية عديدة تحقق مثل هذه السياسات في الإدارة العثمانية وتقيدها المتأخر بها. هذا في الوقت الذي بادرت فيه جهات أخرى، سواء مع الجهات التبشيرية أو مع سياسة محمد علي، إلى انتهاج سياسة تعليمية، صريحة ومبكرة، اتسمت بدينامية ظاهرة.

وهذا يعني في جملة ما يعنيه، تفاوتاً وتبايناً في دخول التعليم والتربية بشروطهما "العصرية" في المجال العثماني، حيث انه يستحسن الحديث عن عوالم مختلفة، وإن اشتركت أحياناً ببعض مظاهر الشبه والتقارب. فتجربة محمد علي اشترطت في التعليم أن يكون مشدود الصلة بالصناعات والتقنيات، فيما طلبت تجارب الجماعات الطائفية اللبنانية حاجات أخرى من التعليم اتخذت سبيلاً دينياً ودعاوياً، قوامه إنتاج المدرس، من جهة، أو سبيلاً في الترجمة، قوامه إنتاج الوساطة الثقافية، من جهة ثانية.

لهذا يمكننا القول إن تجارب التعليم العثماني دخلت في القرن التاسع عشر في مسارات مختلفة لا يجمعها، لا مثال إسلامي – عثماني عام قوامه نظام "الحلقة" الدينية – التدريسية، ولا سياسة موحدة كذلك (طالما أن "نظام المعارف" أجاز للملل وضع سياسات تعليمية خاصة بها، تحت رقابة الإدارة العثمانية ليس إلا). عدا أن التجارب هذه اتخذت سبلاً متباينة ومختلفة زمناً، في الاتصال بالمثالات الأوروبية بوصفها مثالات التمدن، ومنها مثالات التعليم. ويكفي للتدليل على هذا التباين أن نشير في أحوال الجماعات اللبنانية، على سبيل المثال، إلى دخول متعلمين موارنة، منذ ابن القلاعي في نهاية القرن الخامس عشر، في مسار تعليمي مع رومية وفرنسا وغيرهما، فيما جرى تأسيس أول مدرسة "عصرية" في بيئة جبل عامل، في العام ١٨٨٧، وبمبادرة عثمانية.

غير أن مراجعة هذه الوقائع تستدعي غير سؤال حول محركات التعليم ودوافعه ونتائجه: هل حقق التعليم في العهد العثماني الأخير النقلة المرجوة، والوصول اللازم بما كان منقطعاً عنه؟ وهل أدخلنا التعليم "العصري" في ما كنا غافلين عنه، ووفر لنا في مواده ما يمكننا من إنتاج حاجياتنا، فلا نعود مستهلكين لإنتاجات غيرنا؟ وما ذا عن طبيعة التعليم نفسها أمثاله قائم فيه أم هو نسخة متدهورة عن مثال واقع خارجه.

نتساءل، ذلك أن دخول السلطنة في عهد "تنظيمي"، لإدارتها كما لتعليمها، عنى في غالب الأحيان، التخلي عن سلطتها وتفكك حلقاتها؛ كما ان إمساك جماعات وجهات محلية بقسم من السلطات هذه، تلبية لنزعات تمايزية أو استقلالية، ما غيب أو ما منع بعد وقت قليل خضوع هذه السلطات المتكونة إلى سلطات تابعة، بل تحت الانتداب والوصاية.

ونتساءل أيضاً، ذلك أن دخولنا في عهد التمدن عن في أحوال عديدة، لا الاستفادة العلمية والتكنولوجية من التجارب الأوروبية وحسب، بل التخلي عن أنماط في العيش والثقافة والقيم من الزي والمأكل والأثاث إلى إجراء عمليات "تطبيعية" متمادية في نتاجات الفنون والآداب، كما في السلوكات الاجتماعية واقتضاءاتها القيمية.

١ - التعليم في "الحلقة" الدينية

لو كان لنا - وفق طريقة الخليل بن أحمد الفراهيدي - أن نُقَلِّب الأصوات: ل ع م، لحصلنا على "عمل" و "علم" و"لمع"، (ووضعنا "ملع" و"معل" و"لعم" في المهمل غير المستعمل): وهي أفعال تؤدي في كل واحد منها، كما في ترابطها، مجموعة من السمات الدلالية والإعتقادية التي نتحقق منها، ليس في الألفاظ واستعمالاتها وحسب، وإنما - وقبل كل شئ - في أفعال البشر أنفسهم.

ولو كان لنا - وفق طريقة الدارسين، هذه المرة - أن نبحث في العلاقات التي نشأت بين العمل والعلم و"لمعان" الترقي الاجتماعي والنجاح الاقتصادي في عصر "النهضة"، لطرحنا السؤال: هل نجد، ومتى، تغيرات حادثة في العلاقات بين الأقطاب الثلاثة المذكورة؟

لا نمتلك الكثير من المعلومات والمعطيات عن سبل اكتساب العربية وتعلمها في العهد العثماني في الولايات المختلفة، ومنها ما يقع في "لبنان" حالياً، وما نقع عليه لا يعدو كونه

معلومات متفرقة مستقاة من كتب "الأعيان" و"التراجم"، أو من كتب الرحلات، التي طلبها غير شاعر وعالم في مدى هذا العهد، أو في "تقارير" و"مراسلات" كنسية ورهبانية.

وتفيدنا هذه المعلومات عن انعقاد التعليم في "الحلقة" الدينية، سواء في نواتها الأولى، وهي المسجد أو الدير، أو في نواتها العليا، وهي أحد مراكز العلم، مثل: القاهرة والنجف ودمشق وروما (بالنسبة للموارنة أيضاً، منذ نهايات القرن الخامس عشر) وغيرها. وما يتوافر لنا في المواد يفيدنا عن المدارس القرآنية، في صيدا أو طرابلس أو بيروت، أو عن مناقشات العلماء، مثل محمد عبد الغني النابلسي (١٦٤١-١٧٣١) وعبد الجواد القاياتي (١٨٣٨-١٩٠٢) ومحمد كامل البحيري (١٨٥٦-١٩٢٠)، الذين حلوا في هذه المدن وغيرها، ودخلوا في جدالات ومسامرات مع العلماء المحليين. كما تفيدنا أخبار "أعيان" جبل عامل عن التحاق هذا أو ذاك في مدرسة شقرا أو جباع، أو عن تاريخ تأسيس هذه المدرسة أو تلك (وهو تأسيس مرتبط بشخص العالم، إذ تتوقف المدرسة بوفاته غالبا). وهي أخبار متفرقة تدل على عنايات ملية أو فردية بالتعليم، ومنها رعاية "الأوقاف" والمحسنين للمدارس، على ما نعرف عن التعليم في طرابلس، من خلال سجلات المحاكم الشرعية فيها، على سبيل المثال. إلا أن تفرق المعلومات هذا يخف كلما اقتربنا من مواد القرن التاسع عشر، إذ نتحقق من وجود مشروعات تنظيمية عديدة خاصة بالتعليم، سواء على مستوى السلطنة ككل (في نظام المعارف العام، أو في ما تجيزه من أنظمة معارف لـ "الملل")، أو على مستوى إدارات بعض الولايات، أو في سياسات إرساليات تبشيرية مقيمة في بعض الولايات، أو في تدابير وإجراءات بعض الجماعات الطائفية. وهي مشروعات متلاحقة أحياناً (يصحح أو يعدل جديدها سابقها)، ومتوسعة في بنودها، مما يشير إلى عناية متزايدة وأكيدة بالتعليم، وإلى أن المشروعات – وإن في التفرق – مجال للتنافس والتقدم عند الجماعات والأفراد.

١/ أ مباني التعليم

لو صرفنا النظر إلى القرى والقصبات والمدن والأمكنة التي انعقدت فيها دورات التعليم اللبنانية في العهد العثماني، لوجدنا أنها تؤلف خطوط مواصلات على قدر من التتابع والتقطع والتبدل؛ وأنها تجسيم في المساحة، طبيعي أو موضوع، للعلاقات بين الأهل والعلم وحقيقة هذا التجسيم تنطلق طبعاً من تعبير المكان عن وظيفته الاجتماعية، وهو ما نجده ماثلاً في "الحلقة"،

منذ العهد الإسلامي القديم، عندما اقتعد الفقيه الحسن البصري جلسته، حسب الشهرستاني، في المسجد الجامع في البصرة، واجتمع حوله مريدو العلم، وتفرق منها أصحاب الآراء والأهواء.

ولو استنطقنا التاريخ الفيزيائي لمواقع التعليم اللبنانية لوجدنا فيها، في عدد من نماذجها، ما يفيدنا عن مقادير الاحتياج إلى التعليم، وعن طبيعة العلاقات التي قامت في كل موقع، في مواده التدريسية، في العلاقات بين الطالب والمدرس، وبين الأهل (والجماعة والجهات التبشيرية والولاية والسلطنة كذلك) والمدرسة.

نجد المدرسة بداية، لصيقة الجامع (في طرابلس أو صيدا...) بل هي الجامع في أوقات من نهاره، في زاوية من أمكنته الكثيرة والكبيرة، ما يمكن تسميته بـ "لا مكانية" موقع التعليم. وهذا ما يسري على مباني التعليم في أوساط مسيحية كذلك، بعد خروجها من العهد الديني "المنغلق" في الأديرة، الذي نشير إلى بعض تحققاته في عمل النساخين (٣). إلى عهد تفاعلها الصريح، في أمكنة علنية، خارجية على الدير، مع التعليم. وهو ما نتلمس أخباره في وثائق ورسائل عن التعليم في أوساط مارونية، ويشير إلى قيام "ناحية" من نواحي الأديرة للتعليم: هذا ما نلقاه في أخبار مزامنة لعهد البطريرك الدويهي، إثر مجئ عدد من الحلبيين ذوي[سمات] "عربية مليحة"، حسب إحدى الرسائل الرهبانية، إلى شمال لبنان وتأسيسهم للنشاط الرهباني؛ كما تؤكد أخبار لاحقة، وإن على تقاطع أو تباعد، استمرار قيام "تواح" في الأديرة للتعليم.

وتعين هذه "النواحي" واقعياً، حسب إحدى الرسائل، انتحاء الراهب بالطلاب خارج الدير وبلصقه، للتدريس، منعاً للاختلاط بينهم وبين الرهبان في الدير، عملاً بالقوانين الداخلية الناظمة لحياتهم. وأتى قيام النواحي هذه وصلاً لما كانت هذه الأوساط منقطعة عنه أو غير مستفيدة منه في العهد العثماني، وهو التعليم فلم نقرأ في الوثائق أخباراً تفيد عن نشوء مدارس

---

(٣) نجد أخباراً مستفيضة عن أعمال الخطاطين والنساخ في أوساط الأرثوذكس والموارنة، قبل انتشار التعليم وإصابته فئات غير إكليريكية: نشر ناصر الجميل كتاباً في مجلدين عن النساخ الموارنة: النساخ الموارنة ومنسوخاتهم"، بيروت ١٩٩٧، ويحتوي أخباراً وتوثيقاً عن ١٦٧٢ مخطوطة، ترقى في أقدمها إلى الأعوام الواقعة بين العام ١٣٠٠ والعام ١٤٩٥: ويتحقق الجميل من أن النساخ يزيد على العدد (٨٢ ناسخا) الذي ذكره الدويهي علهم. ونتعرف في أحد الكتب المحققة أخيراً عن أحوال النسخ، وطبيعة الكتب المشمولة به، في عدد من الأديرة الأرثوذكسية في لبنان، وهو كتاب "المخطوطات العربية في الأديرة الأرثوذكسية في لبنان": تعود هذه المخطوطات إلى ستة أديرة في لبنان، ويرقى أقدمها إلى العام ١٢٤٢، وتحتوي على كتابات طقسية ولا هوتية ومواعظ، وعلى بعض الآثار الأدبية واللغوية: "المخطوطات العربية في الأديرة الأرثوذكسية في لبنان"، الجزء الأول، مركز الدراسات الأرثوذكسي الانطاكي، بيروت، د.ت.

عثمانية أو غيرها في أوساط هذه الجماعة، قبل أخبار المدارس الإرسالية أو الرهبانية فيها، أو أخبار متصرفي جبل لبنان. ولعلنا نجد في التأكيد المشدد في "حجة تأسيس" مدرسة عين ورقة (١٧٩٨) من عدم الخلط بين المدرسة والدير توكيداً بليغاً عن هذا العيش المديد بين الدير والتعليم، بل بين الدير والعلم نفسه: "انه منذ الآن وصاعداً ما عاد يطلق على عين ورقة اسم دير بل مدرسة" (٤).

لا مكان خصوصياً للتعليم، إذن، بل يتم استئجار مواقع له، أو شغل أمكنة مثل دور البيوت (٥)، أو أديرة مهجورة (٦)، أو تحويل "خلوات" معروفة (٧) لأغراض التدريس.

وإلى جانب الدير أو الجامع، عرفنا في عقود مختلفة، وفي صور متناثرة، اجتماع طالب أو أكثر حول "معلم"، أو ذهابهم إلى بيته لتحصيل العلم، إلا إذا كان الطالب من اسرة ثرية، فيتم العكس (وهو ما جرى في بيروت مع بعض أسر الأشرفية في القرن التاسع عشر)؛ وهو ما بلغ أحياناً حدود تنظيم مدرسة مؤقتة (٨) . وهو ما أخذه الطالب عن "أشياخه" في العهد الإسلامي القديم، والمستمر في العهد العثماني، والذي كان يتأكد في "الملازمة" (التحاق الطالب بشيخ)، التي يحصل في ختامه على "إجازة"، خطية في أحيان عديدة من شيخ العلم.

---

(٤) راجع نص الوثيقة في كتاب ناصر الجميل: "مدرسة عين ورقة في الذكرى المئوية الثانية لتأسيسها"، بيروت، ١٩٨٩، مطبعة دكاش، ص ١٠-١٢.

ونشطت الحركة في القرن التاسع عشر، إذ تحول بعض الأديرة إلى مدارس، مثل: دير كفرحي (١٨١٢)، ودير رومية (١٨١٧)، ودير صربا (١٨٢٧)، ودير ما عبدا هرهريا (١٨٣٠)، ودير ريفون (١٨٣٢) وغيرها.

(٥) مثلما جرى تحويل دار الأمير حسن شهاب في ١٨٤٣، في غزير، إلى ثانوية من قبل الآباء اليسوعيين؛ كما جرى استعمال بعض البيوت، لأوقات محددة في النهار، مثل مدرسة: في بيت اسحق بيرد، بإدارة زوجته، وفي بيت وليم طومسون، بإدارة زوجته...

(٦) مثل الذي أقام فيه الآباء اليسوعيون في عين طورة، في العام ١٨٣٤، مدرستهم فيه.

(٧) يقترح سعيد تلحوق، وكيل الطائفة الدرزية، في طلب تأسيس مدارس لطائفته، في ١٨٦٢، "تحويل" خلوة الشيخ أحمد أمين الدين في عبيه إلى مدرسة. وهكذا كان، وهي المدرسة "الداودية".

(٨) مثلما جرى في حلقة تدريس الشيخ ابراهيم الأحدب، التي تحولت في المختارة، بعد أن كان يدرس ولدي سعيد جنبلاط، إلى مدرسة تشمل أبناء الأقارب والأصدقاء، "وذلك مع حفظ المقام ومراعاة النسبة"، على ما يذكر أسد رستم، في إشارة إلى أن المعلم كان يباشر بتدريس أبناء البيك، ثم ينصرف إلى تدريس غيرهم: أسد رستم: "لبنان في عهد المتصرفية"، منشورات المكتبة البولسية، طبعة ثانية ومنقحة، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٢٧.

إلى هذه النماذج (الحلقة، ناحية الدير، البيت الفردي) يمكننا زيادة نموذج أخر، هو التعليم العصامي، مثلما تحقق لميخائيل شاقة على ما نقرأ في سيرته، وهو ما حصل للعديدين، مثل عالي سميث الذي درس العربية عند بطرس البستاني، وهو ما أخذه البستاني عن سميث في تعلم الانجليزية، وهو ما نجده بيناً في أحوال تعلم الكثيرين من "رجالات" النهضة فكيف ومتى تحقق بناء "مستقل" للتعليم؟

هذا ما جرى في دير عين ورقة، بعد "تحويله" إلى مدرسة، كما ذكرنا [٩]. وهذا ما نتلمس بعض أخباره في إنشاء عدد من المدارس بعدها، وهو إنشاء ذو اقتضاء مالي يعين اهتمام الجماعة (والنافذين فيها) بالتعليم من خلال صرف ميزانيات مخصوصة له.

والسؤال عن الميزانيات هو، في هذه الأحوال، سؤال عن احتياجات الجهات التبشيرية والجماعات الطائفية (والنافذين فيها) للتعليم، طالما أننا لا نلقى أخباراً تشي بسياسات تنظيمية (وإنشائية)، ولايتية أو سلطانية، قبل عهد المتصرفية في جبل لبنان. والبحث عن المال يتخذ سبلا بينة قوامها التعويل على "أوقاف" هذه الطائفة أو تلك (مثلما نرى ذلك في أخبار "الداودية" الدرزية، أو في أخبار المحسنين في طرابلس، أو المدارس المارونية العديدة)؛ أو على التبرعات وحملات الإحسان، التي يطلبها المبشرون من حكومات (مثل فرنسا وإنجلترا وغيرها) أو من جهات إحسانية مختلفة، أو من أفراد: لجأت الجهات التبشيرية إلى طلب الإحسان، خارج لبنان، وهو ما عرفناه عن جولات المرسلين الإنجيليين في لندن أو أمريكا لبناء غير مدرسة، وعن جولات اليسوعيين عند بناء جامعتهم في بيروت إذ لم يتأخروا عن جمعها في... أمريكا نفسها! وهو ما أخذه عنهم بعض "البلديين"، مثل إلياس الصليبي الذي قد يكون أول منشئ فردي للمدارس (مع المعلم بطرس البستاني طبعاً)، إذ بادر إلى بناء مدارس بمال الإحسان الذي جمعه، سواء في القرى المجاورة له أو في إنكلترا، في الأعوام ١٨٥٣ (في بتاتر) و ١٨٥٤ (في بتخنيه) و ١٨٥٥ (في عاليه)، حتى أنها بلغت خمس عشرة مدرسة في نهاية العام ١٨٧١.

---

(٩) ذلك أننا لا نملك صورة "بنائية" عن المدارس المارونية المذكورة في مواد "المجمع اللبناني"، مثل مدارس زغرتا وعين طورة وغيرها، والسابقة على العام ١٧٣٦، ولا عن الحوزات التأهيلية في عدد من القرى العاملية، في جباع وشقرا وغيرها.

هذا ما كانت "تجيزه" السلطة العثمانية، بمعنى أنها تتغاضى عنه، أو تقـــره فـــي صـــورة نظامية، كما نلقى ذلك، على سبيل المثال، في "النظامنامه" التي أقرها مجلس الإدارة الكبير في المتصرفية، والتي قضت بتمويل غير مدرسة من أوقاف هذه الطائفة أو تلك. هذا ما وجـــدت إليه سبيلاً الإدارة العثمانية، إذ اقتطعت من الرسوم التي تجبيها نسبة معينة (١٠) خصتها ببنـــاء المدارس؛ وكان لها ما أرادت، إذ تحققنا من إقدام الإدارة، في متصرفية جبـــل لبنـــان، وفـــي عهدي المتصرفين فرنقو ورستم خصوصاً، على تأسيس مدارس عديدة (١١).

ويفيدنا التقرير الواسع الذي طلب وضعه آخر متصرف على جبل لبنـــان (فـــي ١٩١٨)، اسماعيل حقي، عن "نهايات" هذه السياسة (إذا جاز القول)، ومنـــها عـــن مبـــاني المـــدارس الابتدائية، سواء للذكور أو للإناث في المتصرفية، في أقضية المتـــن وكســـروان والبـــترون وجزين والكورة وزحلة ودير القمر وبيت الدين. وهي مبان تتوزع بين جهات عديدة: المدارس المؤسسة من طرف الأجانب، أو مما يعود إلى الأوقاف، أو التي تم إنشاؤها بمســـاعدات مـــن الأهالي، أو من البلديات، أو البيوت التي تم استئجارها من طرف الأهالي أو البلديات، ولكـــن من دون أن يتضح لنا نصيب هذه الجهة أو تلك، ولا سيما السلطة العثمانية، من سياسات البناء (أو الاستئجار) التعليمي هذه. إلا أن قراءة معطيات هذا التقرير تفيدنا في أمور أخرى، مثـــل خريطة مدارس التعليم: يحصي التقرير المدارس في ٦٣ قصبة وقرية في اللواء، ومنـــها ٦٣ مدرسة للذكور و ٦١ مدرسة للإناث، ما يعد إشارة لافتة إلى قوة انتشار التعليم من جهة، وإلى

---

(١٠) نطلع على بعض جوانب السياسة التعليمية العثمانية، في عهدها "التنظيمي"، في التقرير الذي طلب وضعـــه اســـماعيل حقي، آخر متصرف على جبل لبنان (في ١٩١٨)، عن المتصرفية وأحوالها، إذ يؤكد في مراجعة التعليم والتربية: "حيـــث أن الحكومة لم تأخذ على عهدتها في الدور السابق الوظائف العائدة إلى التربية والتعليم فلم تـــر اقتضـــاء لتشـــكيل إدارة معارف رسمية في لبنان، ولهذا فان قضية نشر المعارف التي هي من أهم حقوق الدولة صارت بيد جمعيات أجنبية وبيـــد بعض الجماعات والأفراد من الأهالي فكانت نتيجة ذلك أننا رأينا تربية البلاد العلمية جارية على أهواء مختلفـــة": لبنـــان: مباحث علمية واجتماعية"، (وهو كتاب نشرته لجنة من الأدباء "بهمة" اسماعيل حقي في العام ١٩١٨)، وراجعـــه وكتـــب مقدمته ووضع فهارسه: ألطون بشارة قيقانو، دار لحد خاطر، طبعة ثالثة، ١٩٩٣، ص ٢١٣-٢١٨. ومـــن المعـــروف أن مجلس إدارة متصرفية جبل لبنان وافق على جباية غرشين من كل مئة غرش من دخل الحكومة كرسم لهذه المدارس.

(١١) وهذه الأخبار تصحح – على ما نعتقد – صورة "قاتمة" عن التعليم العثماني في بلادنا، و"مدحية" لغيرها مـــن الجـــهات التبشيرية والطائفية المحلية على اختلافها، ذلك أن ما أسسته هذه الإدارة يفوق في عدده، في نطاق إدارتها طبعاً – وهـــي توزعت في أمكنة طائفية مختلفة، من شحيم وبـــرجا إلى غوسطا وبكفيا – ما سبق لهذه الأجهزة المحليـــة والأجنبيـــة أن قامت به.

تساوي الحظوظ بين الجنسين في ذلك العهد، من جهة ثانية. كما يعيننا التقرير في الوقوف على حال المباني، على الأقل من ناحية عدد الغرف التي تشتمل عليها كل مدرسة: ففي مدارس الذكور توجد ١٦٦ غرفة، بنسبة مقدارها ٢,٦ غرفة للمدرسة الواحدة (ويبلغ عدد الغرف العالي في عدد قليل من المدارس ٥ غرف في المدرسة الواحدة، والعدد الأدنى غرفتين في المدرسة الواحدة)، فيما يبلغ عدد الغرف في مدارس الإناث ١٢٣ غرفة، بنسبة تكاد توازي غرفتين في المدرسة الواحدة (ولا يبلغ عدد الغرف الأعلى منها سوى ثلاث غرف)، ما يظهر فارقاً أبين في توفير الغرف بين الذكور والإناث، أو في الإقبال عليها بين الجنسين.

١/ ب التعليم في وقته الاجتماعي

إلا أن الوقوف على مباني التعليم (بصدورها عن عناية اجتماعية وميزانية مالية) لا يعطي سوى صورة جزئية عن هذا الاهتمام، طالما أن التركز الاجتماعي حول التعليم يتعدى ذلك، سواء في انصراف الجهات أو المدرسين أو الطلاب أنفسهم إلى مثل هذه العمليات. فالكلية السورية – الإنجيلية بدأت في ١٨٦٦ في بناء متواضع من خمس غرف، وبستة عشر تلميذاً (قضى دانيال بلس سنتين في أمريكا يخطب ويجمع المال لتدبير ميزانية صرفها)، وقام المستشفى في بيت مجاور، وكان عدد أسرته أربعة: ولم يشرعوا ببناء مستقل للجامعة (في رأس بيروت) إلا في العام ١٨٧١.

نسأل مباني التعليم عن التعليم، كما يمكن لنا أن نسأل عنه سبل الذهاب إلى مواقعه، والانصراف إليه، والبقاء فيه، أي عن الزمن الاجتماعي المخصص للتعليم. فلقد أشرنا، بداية، إلى عدم قيام موقع مستقل للتعليم، وكان حرياً بنا ربما سؤال الجماعة، في عملها واعتقاداتها وتطلعاتها، عما يمكن أن يحركها ويدفعها إلى طلب العلم. وهو سؤال قد يتحقق، أي تتم الإجابة عنه، عندما يتوافر بناء متمايز للتعليم، إلا أننا نستطيع استبيان معالمه عندما نسأل عن قدرة الأهل، ثم الأولاد، على الاستغناء عنهم في العمل، ودفعهم إلى الجلوس والاستماع غير المنتج في صورة بينة في حلقات قد تبدو لبعضهم حلقات لغو وهذر. ذلك أننا نجد في حركة الذهاب إلى المدارس اعتيادات قليلة، تقتصر على ذهاب محدود الوقت إلى مكان التعليم والعودة منه إلى بيت الأهل والعمل. ولقد راعينا في البنود التنظيمية للمدارس في متصرفية جبل لبنان، الصادرة في العام ١٩٦٩، أنها استثنت في المادة الثالثة عشرة منها الأولاد الذين لا يمكنهم الحضور لأسباب صحية وأولئك الذين لا يستغني آباؤهم عن عملهم نظراً لفقرهم، ومن

يكون مشغولا بالزراعة أو الحصاد، أو من يكون محل إقامته بعيداً نصف ساعة أو أكثر عـــن أقرب المدارس إليه.

غير أن خطوط الذهاب إلى المدرسة لن تبقى مختلطة بغيرها في حركة الذهاب إلى القداس أو أداء الصلاة في الجامع ولن تبقى خطوات التلامذة متراخية أو متباعدة، بل ســـتنتهي إلـــى انصرافهم التام عن الأهل، وخلودهم إلى المدرسة. وهو ما نجده في تفرغ الطلاب للدرس فـــي عين ورقة (١٢)، وعيشهم في مدرسة "داخلية" (كما نقول اليوم)، وهو ما نلقاه فـــي المدرســـة الداودية التي تعين انتقال حوائج الطالب من عائلته إلى جماعته الجديدة (مـــا يتوجـــب علـــى الطالب الإتيان به من عائلته، وهي فراشه وكسوته، وما يتوجب توفيره من المدرسة نفســـها). وهذا ما نجده بيناً في عدد ساعات الدرس، إذ يشترط تدريس المدرسة "الداودية" توفير ســـبع ساعات في النهار للتعليم، منقطعة لا متواصلة.

ونتأكد في بنود تأسيس عين ورقة من قيام أنظمة ترتيبية للمدرسة قوامـــها: توافـــر عـــدة أساتذة للتعليم، أو تعليمي له ترتيبه الداخلي (مثل رئيس المدرسة، أو نائبه، أو "ناظر" المدرسة وغيرهم)؛ وأعداد محسوبة من التلاميذ، و "متفرغة" لتحصيل العلم. ذلك أن الطالب لأول مرة، "يتفرغ" للدراسة وينصرف إليها انصرافاً تاماً، في نظام "داخلي" بالتالي، ولا تعـــود العلاقـــة بالدراسة مؤقتة، أو استنسابية، أو غير نظامية؛ فضلا عن انتظام التدريس في ســـنوات وفـــي ثلاثة مستويات دراسية (١٣)، ويخضع لامتحانات، تجيز أو لا تجيز الانتقال من مستوى تعليمي

---

(١٢) غير كاتب جعل من مدرسة عين ورقة "أم المدارس الوطنية" (أو في سوريا، وغيرها من الألقاب): وفي ذلك إشـــارة لا إلى أسبقيتها وحسب بل إلى تمايزها عن غيرها من المدارس المسيحية العالية: هذا ما فعله، بعد تأسيس عين ورقة، الروم الكاثوليك في عين تراز (١٨١١)، والأرثوذكس في دير البلمند (١٨٢٣)، والأرمن الكاثوليك في بزمار (١٧٩٧).

(١٣) نتبين قيام نظام عثماني تخصصي للتعليم في ثلاث درجات: رشدية وإعدادية وعالية: وهو النظام عينه الذي نلقاه فـــي تجارب مدرسية مارونية سابقة عليه: يتضح من مراجعة أحوال مدرسة عين ورقة أن التعليم فيـــها تـــوزع فـــي ثلاثـــة مستويات، دنيا ومتوسطة وعالية: ويفيد فؤاد افرام البستاني (في "تاريخ التعليم في لبنان"، محـــاضرات النـــدوة اللبنانيـــة، (١٩٥٠)، أن التعليم، قبل عين ورقة، عرف ثلاث طبقات من التلاميذ: تدرس الطبقة الأولى منهم القراءة والإملاء والخـــط والقرآن وعلم الزايرجات، أي استخراج الضمير ومعرفة الغيبيات؛ وتدرس الصراع ورمي السهام والفراســـة: والثالثـــة الفروسية والضرب بالسيف ومبارزة الأبطال.

وهذا ما نتحقق منه في مقررات "المجمع اللبناني"، إذ تتحدث عن ثلاث مراحل تدريسية: أولى، وخاصة بالأحداث، وتشمل القراءة والكتابة بالسريانية والعربية والفروض الطقسية من خدمة القداس وغيرها؛ وثانية للكفء، وفيها تحصيل العلـــوم، من قواعد النحو والصرف في العربية والسريانية، بالاضافة إلى علم اللحن والحساب البيعي؛ وثالثة، هي الأعلى، يتعلـــم

إلى آخر، وهي محك امتحان قدرات الطالب على الاستيعاب والحفظ، وتكريس شهادات توجب المصادقة عليها والاعتراف بها من السلطات العثمانية، في عهد المتصرفية، ومنها عدم جواز العلم في الطب، على سبيل المثال، من دون المصادقة السلطانية عليه.

وإذا كنا تحدثنا سابقاً عن "لإمكانية التعليم"، فإنه يمكننا الحديث عن أن التعليم شرع مع هذه التحولات في أن ينصرف عن "لا زمانية التعليم" السابقة، التي كانت توفر علماً عابراً للزمن، إذا جاز القول، يقتصر على أوليات القراءة والكتابة والحساب، أو على علوم لغوية وأدبية تستقيم في كتب "الذيل" و "الشرح" و "التفصيل" ليس إلا. فنحن نتحقق في غير برنامج دراسي "عصري"، سواء عند الجماعات الطائفية أو في نظام معارف المتصرفية، من أن مواد جديدة، مثل العلوم المختلفة (جغرافيا، هندسة، مسك دفاتر، الحقوق...)، باتت متوافرة ومطلوبة.

وهذا ما يخبرنا عن الحدود الجديدة التي يتقيد بها الطلاب في حدود المدرسة: ممنوع التدخين في غرف الطلاب في الكلية السورية – الإنجيلية، وممنوع الغياب غير المبرر عن الصف، وهي صيغ مخففة – على ما تحققنا من ذلك – عما هي عليه الأنظمة الداخلية لعين ورقة، إذ أنها متشددة في تربيتها، ما يضمن صورتها المتطلبة أمام أهل كانوا "يتخلون" عن أولادهم لغيرهم، ولأمر تربيتهم، من جهة، وما يساعد في تنشئة الطلاب على صورة "الداعية" الديني، من جهة أخرى (١٤).

ذلك أن التعليم تطلب إلى ذلك، تربية تسنده وتؤكده، ويقوم على تأهيل الطالب على غير صعيد، في لياقته البدنية، وانضباطه الاجتماعي والخلقي وتقيده بعدد من السلوكات والشروط والإكراهات: نتحقق عند مراجعة عدد من التدابير "التهذيبية" المطلوبة من تلاميذ عين ورقة من استمرار "المباينة"، وإقامة الحدود الاجتماعية، حتى داخل أسوار المدرسة، إذ أنه يطلب من الطلاب عدم التعاطي، لا مع رؤسائهم، ولا مع العاملين في المدرسة، كما يمنع عليهم عقد

فيها الشبان: الفصاحة والنظم، والفلسفة، والمساحة، والحساب، وعلم الفلك، ومبادئ الحق القانوني واللاهوت الاعتقادي والأدبي.

(١٤) يتحدث الدكتور بلس، رئيس الكلية، عن ضرورة هذه التدابير بوصفها تحقق "تقوية الإرادة" و "تغذية الضمير".

صلات مع أناس في الخارج، بالإضافة إلى تدابير متشددة تظهرهم أشبه بطلاب "رهبانيـة"، أو جماعية شديدة التمايز في الحدود الداخلية التي ترسمها للداخلين إليها (١٥).

٢- بيروت: المدرسة "العالية" و"الجامعة"

قارئ كتاب الأب لويس شيخو، "بيروت: تاريخها وآثارها"، لا يحتاج إلى مسّاح لكي يحسن قراءة التغيرات في الخريطة والطرق بين المدن الشاطئية (صيدا، بيروت، طرابلس، عكا...)، ومدن الداخل (غزير، دير القمر، زحلة، دمشق، حلب...)، بما فيها مـن عقد مواصلات وانعطافات وطرق مستقيمة، وبما غيرته من معالم الطرقات السابقة وما استدعته من تناقص الحاجة إليها، وعرضها لحاجات ناشئة ولكن قابلة للتنامي.

فلقد سعى الأب اليسوعي، بناء لطلب الحاكم العثماني (الأخير، واقعاً) على بيروت، إلـى وضع كتاب في تاريخ بيروت، ما يشير في حد ذاته، كطلب ثقافي، إلى شرف بيروت وعظـم شأنها. وهو ما ينتبه إليه شيخو، وأن يرسمه في اتجاه بيروت وحدها، فلا يفيدنا عما أصـاب غيرها من تراجع أو تحسن في إقبال الناس عليها والتوطن فيها، ومن زيادة معاشها وتحسـن الخدمات فيها، وتعاظم شأنها في الحساب الاعتباري، كمحل للاستثمار القيمي والمادي. وهـو يسوق الكلام والإحصائيات لكي يفيد كيف أن بيروت أصبحت "درة التاج العثمـاني"، مشـدداً على جعل أسباب التطور تتتالى في حركة تكاد أن تكون مبرمة، لا رجعة عنها.

ونحن لو استعدنا هذه المعطيات وغيرها أيضاً لوجدنا أن ما عاشته بيروت في مدى القرن التاسع عشر جدير بأن يكون سيرة مدينية وبشرية تحكي الصعود الباهر والساطع لهذه المدينة، التي يتبرم أمد الأطباء الروس من زيارتها، ومن أوساخها وأمراضها، في أربعينيـات القـرن الماضي. فما جرى؟

يقول شيخو: "إن الذين دخلوها في العشر الأول من القرن التاسع عشر يصفونـها كبلـدة صغيرة تحدق بها أسوار متداعية تضم بضع مئات من المساكن مع قليل من الأسواق الضيقـة القذرة لا ترى في وسطها الأشجار ما خلا جنائن بعض الخاصة" (١٦). وهو ما نتأكد منه لـو

---

(١٥) راجعها في كتاب ناصر الجميل المذكور أعلاه عن مدرسة عين ورقة: ص ٢٨-٣٢.

(١٦) لويس شيخو: "بيروت: تاريخها وآثارها"، ظهر في "المشرق" بداية، ثم في كتاب مستقل في سنة ١٩٢٥، في بـيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، بعد زيادات عليه، الشاهد: ص ٩٤.

عدنا إلى بعض الإحصائيات المتوافرة عن سكانها: يبلغ عدد سكانها في سياحات الأجانب في العام ١٨٢٠ ثمانية آلاف نسخة؛ وفي إحصاء غويس، في ١٨٣٨، خمسة عشر ألف نسمة (و ٤٠٠ نسمة من الإفرنج)؛ وفي العام ١٩١٤ مئة وثلاثين ألف نسمة (١٧).

هذا ما نتحقق منه في تحسن أحوال بيروت العمرانية وغيرها، لو عدنا إلى شهادات بعض زوارها: يتحدث فرنسيس المراش الحلبي (١٨٣٥-١٨٧٤) في كتاب "رحلة باريس" عن بيروت، في طريق رحلته إلى فرنسا: ترك المراش حلب في أيلول ١٨٦٦ متوجهاً إلى الإسكندرونة، ومنها في البحر إلى اللاذقية وبيروت، وبعد أن يمضي يومين في بيروت يكتب عنها: "لا بد أن هذه المدينة قد جلست الآن على المرتبة الأولى ما بين مدن سوريا، وأصبحت مبزغاً لكل نور يلوح في هذا الإقليم. ففيها جملة علماء عظام ومدارس معتبرة وجمع غفير من الأبنية الجميلة والشوارع الرحبة المستقيمة. وبالإجماع فوجهها متجه على الدوام إلى آفاق التقدم والنجاح غصباً عن معارضة الظروف الساعية كل يوم بردع همم التمدن هناك" (١٨).

وهو ما يقوله عنها سليم البستاني، منذ العام ١٨٨٨، في مقالة ذات عنوان لافت، إذ تتحدث عن "نمو (بيروت) السريع": "السبب في نمو هذه المدينة نمواً يزيد عما ينتظر من تجارتها مع خلوها من المستغلات إنما هو معارفها وصناعتها غير أهلها فلو تأملنا في ما ينفقه أكثر من ألف تلميذ غرباء فيها أجرة مدرسية ونفقات نزهة ولبس وخدمة وانتقال ونفقات والديهم أو أوصيائهم مع نفقات دوائر الدعاة الدينيين بواسطة تعليم الصغار وإلباسهم وما يصرفونه في سبيل إذاعة المعارف والتعاليم الدينية فضلاً عما تستحصله بواسطة ٧ أو ٨ مطابع والجرائد والكتب والمستشفيات وغيرها من الحسنات لثبت لدينا أنه يدخلها في السنة من مئة ألف إلى

يصف البارون درمنياك في تقرير رحلته، في شكل مسهب، الوقائع الحربية التي شهدتها بيروت (وغيرها أيضاً) عند عصيان أعداد من اللبنانيين، الموارنة والدروز، لخلع السلطة المصرية. ويفيدنا درمنياك أن من أسباب نقمة اللبنانيين، ان ابراهيم باشا "أعاد إلى المسيحيين، بعضاً من كرامتهم و (تمتعهم) بالمساواة (مع غيرهم) أما القانون" (ص ٩٥)؛ لكننا نعرف، في مكان آخر من الكتاب، ان ابراهيم باشا استعاد من المسيحيين ما كان وزعه عليهم من أسلحة في بداية الحملة.
Le baron D'Armagnac: *Nezip et Beyrout,* introduit par: Camille E. Boustany, Beyrouth, 1985, Éd. Lahad Khater, pp 98-128. وهي طبعة مصورة عن الطبعة الأولى، الصادرة في باريس، في العام ١٨٤٤.

(١٧) أوردت المؤرخة الروسية سميليانسكايا إحصاءات تقريبية عن نمو السكان في بيروت، منها: عدد السكان ٦ آلاف نسمة في ١٧٨٢، و ٢٧,٥ ألف في ١٨٤٧، و ٤ ألف في ١٨٦٠، ومئة ألف في ١٨٨٥، و ٢٠٠ ألف في ١٩١٥.

(١٨) فرنسيس فتح الله مراش الحلبي: "كتاب رحلة باريس"، المطبعة الشرقية، حنا النجار، بيروت، ١٨٦٧، ص ٩-١٦.

مائة وعشرين ألف ليرا من المعارف" (١٩). فماذا جرى فيها لكي تصبح، مثلما يقول فيها البستاني في المقالة عينها، "مدرسة لجزء عظيم من قارة آسيا لتعلم المعارف والصنائع العصرية"؟

يجعل شيخو من العام ١٨٤٢ موعداً مبرماً لدخول بيروت في عهدها الحديث، وهو العام الذي صدر فيه أمر الدولة العثمانية بنقل كرسي الولاية من صيدا إلى بيروت، وبجعل إقامة الجند فيها: وهو ما يتأكد في مراجعة حجم المبادلات التجارية في بيروت بين سنة ١٨٢٧ وسنة ١٨٨٤ التي يجريها الأب شيخو، وينتهي منها إلى القول بأن بيروت "أصبحت مركزاً للأعمال التجارية لكل سواحل الشام" (شيخو، م. س .، ص ٩٦)؛ وهو ما يقوله سليم البستاني عنها، في المقالة المذكورة أعلاه، إذ هي في حساب زمانه "صندوق سورية وفلسطين وندوتها التجارية" و"مدرسة لجزء عظيم من قارة آسيا لتعلم المعارف والصنائع العصرية"، وهي "صندوق سورية وفلسطين وندوتها التجارية" (سليم البستاني، م . س.، ص ٧٢٦) (٢٠).

---

(١٩) سليم البستاني، "أسباب تقدم بيروت ونموها السريع"، في "الجنان"، جـ ١٥، ١٨٨٤، ص ٤٤٩-٤٥١ وردت في: "افتتاحيات الجنان البيروتية ١٨٧٠-١٨٨٤"، الجزء الأول، إعداد وتحقيق: يوسف قزما الخوري، دار الحمراء للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠، ص ٧٢٦-٧٢٧.

كما تفيدنا بعض الرحلات إليها، في هذه الفترة، عن التغير في ملبوسها وعاداتها، كما نلقى ذلك في رحلة الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي، في نهاية القرن التاسع عشر، التي يفيدنا فيها أن غالب الناس يعتمرون الطربوش الافرنجي ويلبسون السترة والبنطلون، ويحلقون لحاهم ويبقون شعر رؤوسهم... (ورد في كتاب أنيس الأبيض، "رحلات في بلاد الشام"، ص ١٩٨). وهو ما نجد أخباره عن ملبوس قوم جبل عامل: "في تلك الأيام أبدل زعماء العشائر زيهم القديم ولبسوا الطربوش العزيز بدلاً من الطربوش المغربي الذي كانوا اتخذوه غطاء للرأس، ونزعوا العمامة من عهد المصريين ثم خلعوا السروال العريض المتخذ من الجوخ أو الصوف والدامر القصير، ولبسوا الملابس الإفرنجية كما هو زي اليوم إقتداء بفؤاد باشا (الوزير العثماني، الذي قدم سوريا في ١٨٦٠ لإصلاح شؤونها إثر الحرب الطائفية في دمشق ولبنان ووادي التيم). عدا تامر بك الحسين فقد بقي بلباسه العربي حتى وافاه الأجل" (محمد جابر آل صفا): "تاريخ جبل عامل"، طبعة ثانية، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨١، ص ١٦٠-١٦١.

لكن بيروت لم تنعم دائماً في القرن التاسع عشر بالتطور وحسنات التمدن، إذ أن الكوليرا أصابتها، في العام ١٨٤٨ (فهجرها العديد من سكانها)، ثم في ١٨٦٥، وفي ١٨٧٥.

(٢٠) يتضح من بيان مجموع الصادرات ومجموع الواردات إلى بيروت (يورده أسد رستم في كتاب "لبنان في عهد المتصرفية") بين العام ١٨٥٣ والعام ١٨٥٧ مجموعة من السمات اللافتة:

- يتزايد كل مجموع في صورة مطردة: ينتقل مجموع الصادرات من ٦٢٤٥٤٤ ليرة إنجليزية في العام ١٨٥٣، إلى ٧٩٥٦٥٧ في العام ١٨٥٦، وإلى ٩٨٣٣٩٨ في العام ١٨٥٧؛ وهذا ما يمكن قوله عن مجموع الواردات كذلك، إذ يتزايد من ٧٢٢٨٦٤ ليرة إنجليزية في العام ١٨٥٣، إلى ١١٦٢٦٧٦ في ١٨٥٦، إلى ١٣٢٤٥٥٠ في العام ١٨٥٧.

إلا أننا نجد في ما أدت إليه سياسة إبراهيم باشا في جبل لبنان وجواره، وقبل نقل كرسي الولاية إلى بيروت، التغيرات الأولى الموجبة لتطورها؛ ومنها قبوله بدخول المرسلين إلى بيروت بعد جبل لبنان: ففي العشر الثالث من القرن التاسع عشر سكن المرسلون اللعازريون فيها، والمرسلون البروتستنت في العام ١٨٢٨، واليسوعيون في ١٨٣٩، والقصاد الرسوليون منذ ١٨٤١ (٢١).

ويمكن القول إن بيروت نعمت، قبل ١٨٤٢ وبعدها خصوصاً، بمجموعة من الأسباب المتعددة والمتنوعة مما جعلها المدينة – المحور على الشاطئ المتوسطي. من هذه الأسباب، كما قلنا، عهد الحريات الدينية الذي باشر به إبراهيم باشا، والذي استمر بعد نهاية حكمه، إثر صدور "الخط الهمايوني" في العام ١٨٥٦، الذي نص على الاعتراف القاطع بالمساواة بين جميع طوائف السلطنة، ومنح الحرية والحماية لجميع أفرادها، وعلى إلغاء ضرائب الفلاحين، وجعل الكل سواء أمام القانون.

ومن هذه الأسباب ما هو سكاني أيضاً، يتصل بتوطن الناس فيها، وهو ما لاحظنا بعض أرقامه فيما سلف، وأدى إلى وجود "خليط" سكاني لافت فيها من الأجانب، كما رأينا أقواماً

– ويتضح من مقارنة المجموعين أن التفاوت قائم، بل متعاظم، بين الواردات والصادرات، ويشير في صورة دائمة إلى عجز في الصادرات عن الواردات؛

– كما يتضح من مقارنة المجموعين أن الزيادة في مجموع الصادرات لا تتعدى ٥٠ بالمئة فيما تبلغ في الواردات حوالي الضعف.

(٢١) وهو مسار تتعقد صلاته، أو "عُقَد" مواصلاته في غير مدينة بين رومية ولندن ومدن أميركية وروسية ويونانية متفرقة، وبين حلب والموصل والقدس وقنوبين وغيرها؛ كما يجمع هذا المسار بين مرسلين تبشيريين، من جهة، ورجال كهنة أو مؤمنين من المسيحيين "الشرقيين"، من جهة ثانية. هذا ما عرفته حلب قبل غيرها، في علاقاتها القديمة، وان التجارية في المقام الأول، مع: البندقية منذ العام ١٥٤٨، والفرنسيين منذ ١٥٦٢، والانجليز منذ ١٥٨٣، والهولنديين منذ ١٦١٣، والذين كانت لهم فيها قنصليات ووكالات تجارية ثابتة. وهذا ما عرفته البيئات المسيحية كذلك في بغداد والموصل، بعد حلول المرسلين الكبوشيين في العام ١٦٣٠، ووصول المرسلين الدومينيكان إلى الموصل في العام ١٧٥٠، وخصوصاً بعد نجاح عمليات "تنسيب" قسم من الطوائف المسيحية المحلية إلى سلطة بابا رومية. وهذا ما عرفته إهدن وغزير والبلمند وعين ورقة وعين تراز وبيروت وغيرها، إثر المجمع التريدنتي (١٥٤٥–١٥٦٣)، والذي أدى إلى إخراج بعض التعليم المسيحي الديني من الأديرة إلى نواح قريبة منها، وإلى استفادة غير الإكليريكيين منه أحياناً؛ كما عنى هذا الإخراج في حالة الموارنة تحديداً بلورتهم لما اسميته "التعريب الكتابي والتعليمي".

وضلوع هذه الجماعات في هذا المسار اقتضاه الحجاج الديني، إلا أنه تعداه كذلك، وهو ما ارتسمت ملامحه في خريطة واقعة بين حلب ودمشق وعين طورة وغزير وغيرها، قبل أن يجد في بيروت منتداه الجامع والمختلط لغير طائفة وجماعة تبشيرية، ومع المسلمين كذلك.

وطوائف مختلفة طلبت النزوح إليها، بعد الفتن الطائفية في الأعوام ١٨٤١ (خصوصا بعد نفي الأمير بشير الشهابي) و١٨٤٥ و ١٨٦٠. وهو ما يتحدث عنه الأب شيخو، إذ يفيدنا أن بيروت تحولت بعد هذه الفتن إلى "ملجأ" لبقايا الجبل ودمشق، وأن عدد المنكوبين فيها بلغ نحو ثلاثيـن ألفا، وأن الإرساليات تنافست على إعانتهم، ويخلص إلى القول: " ومنذ ذاك الحيـن اسـتوطن كثيرون من اللبنانيين ببيروت واتسعت دائرة أشـــغالها" (شـيخو: م . س .، ص ٩٩-١٠٠). ويزيد على هذا الاختلاط السكاني فيها إقامة عدد من القناصل لدول فرنسا وإنجلترا والنمســا وغيرها.

ولا يغيب عن بالنا في سرد هذه الأسباب أن بيروت نعمت في عهد إبراهيـم باشـا، مـن ١٨٣٣ إلى ١٨٤٠، بمحافظ لها، هو العسكري التركي، " الحديث" التوجهات، الأمير محمـود نامي، الذي كان له دوره التحديثي فيها، وسهل عمل الإرساليات وضبط الأمـن بعـد طـول فوضى.

نعمت بيروت بأسباب التطور هذه كلها، وأصبحت منذ ثلاثينيات القرن المـاضي، حسـب "تقرير" غير المذكور، مدينة كبيرة تنافس غيرها من كبرى المدن الشـامية (دمشـق، حلـب، طرابلس...)، كما يتحدث غير كذلك عن جدواها أكثر من دمشق لأن تكون محور التجارة مـع أوروبا. وهو ما قاله دون كارن بدوره في الفترة الزمنية عينها، وهو ما صاغه عبد الرحمـن سامي، في رحلته في العام ١٨٩٠، في عنوان لافت: "القول الحق في بيروت ودمشق". وفـي ذلك استكملت بيروت دور عكا (في النصف الثاني من القرن الثامن عشر) في منافسة دمشـق، وتحولها إلى المدينة الأبرز.

منذ العام ١٨٠٨ ذكر قنصل فرنسا في عكا ما يفيد أن بيروت هي مرفأ دمشق، لا عكا ولا صيدا، وذكر مسافر فرنسي آخر بيروت في الحقبة عينها بوصفها "جمهورية التجار"، ما يشير في التفاتة أولى إلى أن موجبات تطور بيروت الأولى، تجارية وأجنبية في المقام الأول، وأنـها ميسرة كذلك. فلم يكن المقصود من العملية هذه تغيـير ترسـيمة مدينـة موجـودة ذات دور ووظائف، ولا تعديلها أو توسيعها، بل "خلق" مدينة بالأحرى، من دون أن تعيق بنيتها السـابقة موجبات التغيير هذا. وفي هذا نجد أسباب تطور بيروت السريع، الذي فاجأ أهلها، مثل سـليم البستاني كما ذكرنا أعلاه، والذي استدعته ورافقته كذلك سياسات عثمانية ومبـادرات أهليـة

وجدت، هي الأخرى، في غياب الدور السابق لبيروت مجالاً لتجريب دور جديد، من دون مقاومة تذكر.

وإذا كان بعض الدارسين والمؤرخين، اللاحقين على الحقبة هذه، أوجدوا صلة "لازمة" بين تجربة "الإمارة الشهابية" (ونهايتها في ١٨٤١، بعد نفي الأمير بشير الشهابي) وتجربة بيروت – أي أن هذه أخذت دور تلك أو استكملته –، فإن هذا التفسير مدبر، وإن صارت بيروت في العام ١٩٢٠ عاصمة "دولة لبنان الكبير". ذلك أن ما جرى في جبل لبنان (امتداداً إلى شماله، من جهة، وإلى جنوبه صوب جبل عامل، من جهة ثانية)، على اختلاف الإمارات والتقطعات في خرائط الحكم، يبقى محدداً في إطار التجربة العثمانية، وإن عرفت التجارب هذه أشكال تمثيل محلي وصراعات أهلية وطائفية (لنا أن نجد فيها بعض عالم التشكل السياسي "اللبناني" اللاحق)؛ ويبقى محدداً كذلك، اقتصادياً، بالتجربة الزراعية ذات الإمتدادات الخارجية. أما ما جرى في بيروت فقد رسم فيه المنحى التجاري (من المرفأ إلى طريق بيروت – الشام، وصولاً إلى خطوط السكك الحديد والجسور وغيرها في عهد الانتداب الفرنسي) موجبات التطور، من دون أن يكون الإطار السياسي أساسياً في تعيين الخريطة والوظائف، وهو ما يمكن جمعه في التعبير: "جمهورية التجار". وإذا كانت تجارب اللبنانيين، ولا سيما في المحن الطائفية (قبل ١٨٦٠ وبعدها)، أدت إلى خلط أهل الجبل بأهل بيروت، فإن مثال التطور، الذي انتهى إلى إلحاق الجبل (وغيره أيضاً) ببيروت، أدى إلى جعل مثال التطور تجارياً وثقافياً في المقام الأول، عماده العلاقة بالخارج؛ وهو المثال "التوسطي". وهو توسط عرف صياغاته في صورتي "الجسر" و"الوسيط"، سواء الثقافي أو الحضاري أو التجاري، بين الشرق والغرب، ونجد في كتابات المعلم بطرس البستاني (الذي عايش قيام هذا التوسط في أحواله الأولى في بيروت) ما يفيد هذا الدور ويؤكده، إذ يتحدث في العام ١٨٦٩ في "خطاب في الهيئة الاجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية والإفرنجية" عن بيروت بوصفها "موصلاً بين الغرب والشرق في كل أمر مفيد".

٢/ أ تأهيل النخب

يفيدنا بطرس البستاني في "خطبة" له ، في العام ١٨٥٨، عن حال الآداب العربيـــة قديمـــاً وفي زمانه، عن أنه كان من الصعوبة بمكان إيجاد قارئ في بيروت "يفك" الحرف. فما الـــذي جرى فيها لغوياً وثقافياً، وفي مؤسساتها المتصلة باللغات والثقافات، حتى يقـــول الأب شـــيخو عنها إن الآداب والعلوم كانت منحصرة "في نطاق ضيق" حتى السنة ١٨٦٠، ثم "أخذت فـــي الاتساع بعد ذلك حتى بلغت ما نراها اليوم من الرقي العجيب"؟ وما الذي جرى حتى يقول فيها المراش في العام ١٨٦٦: "لابد أن هذه المدينة قد جلست الآن على المرتبة الأولى ما بين مدن سوريا، وأصبحت مبزغاً لكل نور يلوح في هذا الإقليم" (المراش، م. س.، ص ١٦)؟

نحن نعلم، إلى الأسباب المذكورة أعلاه، الاقتصادية والدينيـــة والسياســـية والســـكانية، أن تحركات واسعة جعلت من بيروت ميدانها، وأدت إلى جعلها ساح الصراع، وبالتالي ساح اللقاء والتفاعل، وذلك عبر نشاط الإرساليات الأجنبية في المقام الأول. هذا ما نتحقق منه في أســـباب الصراع الديني، الذي اتخذ أوجهاً لغوية، كما نعلم. وهذا ما نتأكد منه كذلك في نشوء مؤسسات مختلفة، متصلة بأسباب هذا الصراع، مثل المـــدارس والكليـــات (أي الجامعـــات) والمطـــابع والنوادي العلمية والجمعيات والجرائد وغيرها.

هذا ما يتضح في مجموعة من القرارات التي اتخذها القيمون على الجمعيات التبشـــيرية، إذ أضافوا بيروت إلى مدن تبشيرهم ونشاطهم، أو جعلوها "المركز": جعل القصاد الرسوليون من بيروت مقراً لهم (بعد عين طورة وزوق مكايل) منذ ١٨٦٠، وعدّل أســـاقفة الموارنـــة عـــن السكنى في عين سعادة، واستوطنوا بيروت، كرسي أساقفتهم منذ عهد المطران طوبيا عـــون. وهو ما فعله عدد من الجمعيات الدينية، من راهبات ومرسلين وغيرهم: منـــذ العـــام ١٨٢٢ يختار المرسل الإنجيلي بلبني فسك بيروت مركزاً لنشاطهم بدلاً من القدس؛ ومنذ العـــام ١٨٥٠ يجعل اليسوعيون من بيروت مركزاً لنشاطاتهم مع غزير وغيرها، ومنذ العام ١٨٧٠ ينقلـــون المركز من غزير إلى بيروت، وتصبح بالتالي "قصبة البعثة" (٢٢).

---

(٢٢) تبينا ذلك في وثائق اليسوعيين التي يتم تحقيقها ونشرها تباعاً؛ راجع: *Une historie du Liban tr a vers les archives des Jésuites, 1863-1873,* Kuri, Sami, s. J., Beyrouth, Dar El-Machreq, 1996

هذا ما نتأكد منه في سلسلة الخطوات التي أدت إلى فتح المدارس، "العصرية"؛ بفضل نشاط الإرساليات، بعد أن كانت المدارس "كتاتيب صغيرة تقرأ فيها مبادئ القراءة والكتابة والحساب (والتي) يعلم فيها بعض المعلمين البسطاء"، حسب شيخو، وحيث لا يتعدى عدد المدارس مدرسة لكل طائفة، وما تغيرت الأمور إلا بعد سعي المرسلين إلى فتح مدارس "أرقى شأناً".

وعرفت بيروت إنتشارا سريعا للمدارس، للصبيان كما للبنات، وعند غير طائفة، عدا أنها شهدت نشأة المدارس "العالية" (أو الجامعات): فبعد مدرسة عين ورقة (١٧٨٧) للموارنة، وعين تراز للروم الكاثوليك، بعدها بقليل، تنافست الطوائف مثل الإرساليات على فتح معاهد عالية للتعليم، مثل "الكلية البطريركية" (١٨٦٥)، و"الكلية السورية – الإنجيلية" (١٨٦٦) وكلية اليسوعيين في بيروت (١٨٧٥) وغيرها. ويكفي أن نعود إلى بعض الأرقام لكي نتأكد من حجم النقلة التي حققتها حركة المبشرين [٢٣]، والتي أدت إلى جعل بيروت مركز التعليم الأول حتى خارج بلاد الشام [٢٤].

كما شملت النهضة التعليمية النساء، إذ فتحت زوجة عالي سميث، المرسل الأميركي، مدرسة داخلية للبنات في بيروت، عام ١٨٣٥، ودخلها منذ سنتها الأولى أربعون فتاة. وأنشأ المرسلون الأميركيون مدرسة داخلية في بيروت، في ١٨٤٠، وألحقوا بها في ١٨٤٦ مدرسة

(٢٣) فتح المرسلون الأميركيون ٤ مدارس في ١٨٤١، وأصبحت ٢٢ في ١٨٥٥، و ٣٠ في ١٨٥٨، وقفز العدد إلى ٤١ مدرسة في سنة ١٨٦٢، وفيها ٩٤٨ طالبا: يؤكد هنري جسب أن مدارس الإنجيليين بلغت ولاية بيروت، بين العام ١٨٤١ والعام ١٩٠٩، تسعا وخمسين مدرسة، وفي متصرفية جبل لبنان، بين ١٨٥٨ و ١٩٠٩، إحدى وستين مدرسة. وهو ما نراه في نشأة مدارس أخرى، بعضها مختص بالتعليم العالي: مدرسة بطرس البستاني (١٨٦٣)، و"المدرسة البطريركية: (١٨٦٥)، و "الثلاثة أقمار" (١٨٦٥)، و"الكلية السورية – الإنجيلية" (١٨٦٦)، و "الكلية اليسوعية" (١٨٧٥)، و "مدرسة الحكمة" (١٨٧٦) وغيرها.

(٢٤) يقول المؤرخ الفرنسي هنري لورانس: "بعد حوادث ١٨٦٠، يتحقق المسلمون السوريون من الفارق الثقافي الذي يفصلهم عن المسيحيين الأعيان الجدد، الواعون لمسؤولياتهم، يشاركون برضاهم في تمويل (وتأسيس) مدارس خاصة بالمسلمين، ان إقامة هذه الشبكة التربوية ستجعل من سوريا في مجموعها (أي بلاد الشام) على الأرجح البلد الذي يعرف الأمية أقل من غيره في السلطنة العثمانية؛ وأحسن من أناطوليا بكثير. ففي العام ١٨٠٠ ما كانت تتعدى نسبة التعليم في مجموع السلطنة واحداً في المائة؛ وبلغت النسبة في العام ١٩١٤ خمسة أو عشرة في المائة، فيما كانت تبلغ في لبنان خمسين في المائة، و ٢٥ في المائة في سوريا"

Henry Laurens: *Le royaume impossible, la France et la genèse du monde arabe*, éd. Armand Colin, Paris, 1990, p 128-129.

للإناث؛ وهذا ما دفع "راهبات المحبة"، حسب الأب شيخو، إلى تخصيص مـــدارس ابتدائيـــة مجانية للفقيرات من البنات الكاثوليكيات، ومدارس ثانوية للطبقة الوسطى من الأهلين منذ السنة ١٨٤٧، كما قبلن أيضاً أوانس داخليات في ديرهن سنة ١٨٤٩. وهو ما فاض في شرحه غير رحالة، من المسلمين والأجانب، حتى أن الأمير محمد علي وجد "كلياتها" (أو جامعاتها)، أثنـاء زيارته لها، "لا تقل في نظاماتها عن الكليات المعروفة في البلاد الراقية".

ولم تقتصر الحركة التعليمية النشطة على أوساط المرسلين، أو المسيحيين وحدهـــم، بـل شملت أيضاً مبادرات عثمانية، أو إسلامية محلية: هذا ما نعرفـــه عـن تأسـيس "المدرسـة الرشيدية" في العام ١٨٦٣، من قبل حسن البنا (قبل أن تقدم الدولة العثمانية على إقامة مدارس بهذا الاسم). وهذا يصح في نشأة "المقاصد الخيرية الإسلامية" في العام ١٨٧٨، التـــي أتـت ضمن خطة شاملة لمدارس "عصرية"، وكانت باكورة أعمالها افتتـــاح مدرسـة للبنـات فـي ١٨٧٨، ثم مدرسة للصبيان. كما عمل الشيخ أحمد عباس الأزهري علـــى تأسـيس مدرسـة خاصة أسماها "المدرسة العثمانية" في العام ١٨٩٥ وغيرها [٢٥].

وقد يكون الحديث عن تأسيس الجمعيات التعليمية والثقافية في بيروت تمهيداً لازماً للحديث عن التعليم العالي، إذ أن الجمعيات كانت أشبه بندوات تداول تعليمية وثقافية، وإن كان بعـض أساتذتها هم بعض طلابها وفي الآن نفسه. ولقد كان للمبشرين اليد الأولى فيها، حتى أنهم كانوا يقدمون على تأسيسها رداً على ما بلغهم عن نشاط جمعية منافسة لهم، وهو ما لايتـأخر الأب شيخو عن الاعتراف به في نشاط اليسوعيين: "الظاهر أن الأب هنري دي برونيار مع أدبـــاء الكاثوليك لم ينشؤا جمعيتهم المشرقية إلا اقتداء بالجمعية السورية لينكبـــوا بالكـــاثوليك عـن الأضاليل البروتستنتية" [٢٦]. هكذا تأسس "نادي المرسلين الأميركيين" في ١٨٤٧ (وفيه بطرس البستاني، وناصيف اليازجي، وميخائيل مدور، وسليم نوفل ويوسف كتفاكو وغـــيرهم) الذيـن

(٢٥) يجعل فيليب دي طرازي في "تاريخ الصحافة العربية" من العام ١٨٦٠، بعد نهاية الخصومات الطائفية وعودة الـهدوء إلى بيروت وغيرها، بداية نشاط المدارس الإبتدائية والعالية في بيروت، ونتحقق فيه من شمول التعليم مجموع الطوائـف: "المدرسة السريانية" في ١٨٦٤، و"المدرسة الإسرائيلية" (بمبادرة من الحاخام زاكي كوهين) في ١٨٧٥، ثم بعد ٢٤ سـنة مدرسة "الاتحاد الإسرائيلي"...

(٢٦) لويس شيخو، ورد في : كتاب قزما خوري: "الدكتور كرنيليوس فان ديك ونهضة الديار الشامية العلميـة فـي القـرن التاسع عشر"، دار سوراقيا للنشر، بيروت، د. ت.، ص٣١.

كانوا يجتمعون في مواعيد وأوقات معلومة ويلقون بعض المحاضرات. وأنشأ الكاثوليك نادياً، "الجمعية الشرقية"، في ١٨٥٠، وفيها ابراهيم النجار وفرنسيس مسك وحنا أبي صعب ورزق الله خضرا وطنوس الشدياق وحبيب الزيات وغيرهم. كما تأسست جمعية أرثوذكسية، ضمت مخائيل شحاده وفضل الله بسترس واسعد سرسق ونعمه جرجس طراد وجراسيموس الشامي. وهو ما دفع شيخو إلى القول: "ترى أن بيروت نهضت في أواسط القرن التاسع عشر نهضة راقية وجرت مسرعة في معارج التقدم فمهدت لسائر أنحاء الشام الطريق لمجاراتها في هذه الحلبة الشريفة" (شيخو، م. س.، ص١٠٢).

وكان لإجتماعهم هذا وضعية "تناصية" بين لغات مختلفة، متأتية من بيئات ومرجعيات عديدة، عدا أن الإجتماع يسند أيضاً تناصية ذات طابع أقوامي، إذ يختلط في بيروت، في هذه المنتديات، أقوام وطوائف كانت لها علاقات توجسية فيما بينها؛ أو هي اضطرت إلى التعامل مع بعضها البعض في صورة تنافسية، وأقرت، وإن في صورة ضمنية ولكن لازمة، بوجود الآخر، وأوجدت له، طوعاً وغصباً، مكاناً في خطابها.

يقيم جرجي زيدان الجمع، في مراجعته للتغيرات الحادثة في القرن التاسع عشر، بين نشأة الجمعيات والمجالس الأدبية والعلمية وبين قيام الشركات الاقتصادية "التي يتعاون فيها الجماعات للمصلحة المشتركة" (٢٧). لا بل يلاحظ شيئاً أبعد من ذلك، وهو أن الجماعات هذه "تعامل معاملة الشخص الواحد وتخاطب كما يخاطب الفرد (...) أنهم يخاطبونها كما يخاطبون الفرد، ويقولون مثلاً قالت الجمعية الفلانية، وفعلت النظارة الفلانية، بحيث أن شخصية الأفراد ضاعت في المصلحة المشتركة" (جرجي زيدان، م. ن.، ص ٤٢٧/٢ – ٤٢٨). وفي ما يقوله زيدان غير قول، إذ أنه يتحقق من اجتماع الأفراد في مصلحة عامة تشملهم وتتعداهم في آن، فيغيبون كأفراد ويلتقون، أو يصبح لهم قول، ولكن على أنهم جماعة؛ إلا أن في قوله هذا ما يشير إلى أمر آخر، على ما نظن، وهو أن اجتماع الأفراد هؤلاء دلالة "تَفَرْدُن" كان له أن يقرنها بالفصل السابق (من الجزء عينه)، وهو فصل "الحرية الشخصية"، إذ أن في تلاقي الأفراد على عمل ما، غير إجباري وغير مطلوب من جهات خارجة على إرادتهم، واحداً

(٢٧) جرجي زيدان: "تاريخ آداب اللغة العربية"، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٣، ص٤٢٧/٢.

واحداً، تعبيراً عن خيار استثماري فردي، فيه مقادير من المخاطرة غير المكفولة سلفاً، عدا أنه يتيح بناء مؤسسات جديدة، منزوعة، إذا جاز القول، عن جسد السلطان، وعن رغباته.

ولقد كان الباعث إلى تأسيس الجمعيات العلمية والأدبية مبادرة بعض المبشرين، على مـــا نعرف عن تاريخ تأسيس أول جمعية، "الجمعية السورية" في العام ١٨٤٧، التي أقـــدم علـــى تأسيسها المبعوثون الأميركيون في بيروت؛ لا بل اللافت في هذه المبادرة هـــو أنـــها ســـبقت مبادراتهم الأخرى، مثل تأسيس المدارس "العالية" أو المطابع أو الجرائد وغيرها: هي أشـــبه بـــ"امتحان أول"، لما يمكن أن يكون عليه تجريب التثاقف، والمساعي في اجتماع الأفراد فـــي أطر خارجة على مجتمع الأهل. وانتظم العمل فيها، حتى أن عدد أعضائها ناف على الأربعين في بيروت وحدها، بعد سنوات قليلة على انطلاقتها (بالإضافة إلى مراسلين في صيدا ودمشـق وطرابلس وغيرها)، وفي قائمة الأعضاء نخبة من رجالات النهضة: بطرس البستاني، ناصيف اليازجي، مخائيل مشاقة وغيرهم، وكان أكثرهم يومئذ، على ما يلاحظ زيـــدان، فـــي مقتبـل العمر. وكانت الجمعية تجتمع مرة واحدة في الشهر الواحد، وبلغت جلســـاتها ٥٣ جلســـة (إذ توقفت في العام ١٨٥٢)، لسماع محاضرات ومناقشتها، مثل الموضوعات التالية: تعليم النساء، مدينة بيروت، لذة العلم وفوائده وغيرها. وكان الأعضاء يلتقون في مقـــر الجمعيـــة خـــارج الاجتماعات الدورية هذه، في المكتبة، حيث كانوا يستعيرون الكتب.

والملاحظ في مجمل هذه الحركات، سواء في المدارس أو في الجمعيات والنوادي الأدبيـــة والعلمية، هو أن المحرك الأساسي لها تأتى من مبادرات بروتستنتية، في الغالب، ذات تطلعات إصلاحية و"إيقاظية"، ما لبثت أن ردت عليها سريعاً المبادرات الكاثوليكية، ثم الأرثوذكســـية، قبل أن تبادر الجماعات الطائفية المحلية، المسيحية ثم الإسلامية، إلى تملك هذه المشـــروعات التمدنية، والتسلح بها، والتنافس والتباري بها.

يميز سامي عون بين دور الجامعة ودور الجمعية بالقول: الأولى تمنح "شهادة"، فيما توزع الثانية "جوائز مكافأة" (٢٨). وبرزت الجمعية، واقعاً، قبل الجامعـــة والحـــزب السياســـي (٢٩).

(٢٨) سامي عون: "أبعاد الوعي العلمي: دراسة في الفكر العربي الحديث"، منشورات المكتبة البولســـية، بـــيروت، الطبعـــة الأولى، ١٩٨٦، ص١٨١.

ويتضح من مراسلات خاصة بتأسيس الجمعية السورية أن إنشاءها تم بناء "على إلحاح موطنين نجباء، راغبين بالمعرفة"، كما انهم "يدعون لإلقاء محاضرات عامة".

تتعهد المدرسة المولود الجديد و"يخرج" (و"يتخَرَّج") منها لكي تتعهده أطر أخرى، مثل الجمعية أو الحفل وغيرها، ما يجعل المتعلم مثقفاً، له منتدياته وجماعاته المنغلقة والمتخصصة. ونحن نجد في أسماء أعضاء عدد من الجمعيات البيروتية (التي تنتشر بقوة في العقود الأخيرة من القرن الماضي) أسماء بعض من كانوا طلاباً وأساتذة، في هذه المدرسة أو تلك، قبل هذه العقود مباشرة. وهو ما يرينا التلازم الذي بات ضرورياً بين إنتاج المتعلم وإنتاج المثقف في هذه الدورة الجديدة.

والإنتقالة هذه، من المدرسة إلى الجمعية، تطلبت، إلى موادها التعليمية والثقافية المختلفة، سلوكات جديدة، بل "هيئات" جديدة ترينا المثقف في هيئة "الأفندي" ذي الياقة المنسقة بإحكام على العنق. وهي سلوكات، سواء في المدرسة "العالية" أو في تحضير الجمعيات، تقود المتعلم إلى التمرس بطرق في "تنظيم" الكتابة والتفكير بها، ليس أقلها إمكان الاحتكام إلى مدونة طباعية، يعود إليها في صورتها الثابتة ونظامها المظهري المنسق.

وهذا المتعلم لا يعيش بين المدرسة والجمعية حياته الخاصة، بل في شبكة أوسع، يتحقق من شمولها أوجهاً مختلفة من الحياة والسلوك والعمل: سواء في المقهى، في "كشك" الجرائد والمجلات، في المكتبات والمطابع (وفي خطوطها المنسقة مع شركات أجنبية، ومع موادها الثقافية المختلفة)، في الإعلانات عن هذه المصنوعات الجديدة (نتحقق في الأعداد الأولى من "حديقة الأخبار" من وجود إعلانات عن الإصدارات الجديدة من الكتب).

نتحدث عن "دورة"، إلا أنها لاتزال ناشئة وطرية العود، وتطاول أعداداً محدودة من المشتغلين بها والمتعاطين معها؛ بل تستتبت الدورة سريعاً ما انتهت من زرعه للتو، إذ يتداخل ويتلاقى المعلمون الجدد بالأساتذة الذين أنهوا دراساتهم. وهو ما يمكن قوله عن نوع الحاجات التي تلبيها هذه الدورة، إذ أننا لا نتبين، في تدافعات الطلب والتبادل فيها، ما هو مطلوب فعلاً

(٢٩) الجمعيات العلمية البحتة: الجمعية السورية أو جمعية الآداب والعلوم (١٨٤٧)، الجمعية العلمية السورية (١٨٦٧)، جمعية زهرة الآداب (١٨٧٣)، المجمع العلمي الشرقي (١٨٨٢)...

في الاحتياجات الناشئة مما هو مستحدث ومرغوب من المعروضات الخارجية. وهو ما يرسم حدوداً للتمدن الذي لا يعدو كونه تثاقفاً في نهاية المطاف.

٣- إستهدافات التعليم المهنية

تحققنا أعلاه من حصول "مباينة" بين الدين والعلم تؤدي إلى فك التلازم – القديم – بينهما، سواء في مباني التعليم، أو في مواده؛ وهي مباينة تسعى إلى رسم مسار آخر للتعليم لا يحصره بالعاملين في النطاق الديني أو "العلماني"، بل تتعداهم ليطاول التعليم، بل ليستهدف أساساً فئات أخرى، هي "البلديون" أو العلمانيون. هذا ما نلقاه في طلبات عدد من الأهالي، الذين تنازلوا، حسب بعض الأخبار، عن مبنى أو دير مقابل تعليم رجال الدين لأولادهم. وهو ما يتمثل خصوصاً في طلب بعض العائلات النافذة في كسروان، مثل عائلات الخازن واسطفان وحبيش ودحداح وغيرها، استفادة أولادهم من التعليم في عين ورقة (إلى جانب طالبي الانخراط في السلك الكهنوتي). ولكن ما الباعث إلى مثل هذه العمليات؟ ما دوافعها أو استهدافاتها؟

طبعاً نحن نلقى في بعض وثائق هذا العهد شهادات، مثل شهادة ميخائيل مشاقة أو أحمد فارس الشدياق وغيرهما، تشير إلى حاصل العملية، ومنها "اليقظة" التي يحققها العلم، أي ترك الغفلة القديمة؛ وتعني خروج هؤلاء الطلاب من ثقافة الأهل (كما يسميها مشاقة)، أو من الرحم القرابي، الى ثقافة العالم الأوسع وانبساط الآفاق أمام عيني المتعلم. وهو ما يشدد عليه عدد من الإرساليين ذوي الاستهدافات "الإيقاظية"، التنويرية، التي تجمع في صورة جديدة عند الإنجيليين بين الدين وصورة تحقيقية عنه (أي التثبت النصي من المصادر الأصلية، لا المحورة، كما نلقى ذلك في عملهم على "الكتاب المقدس"). وهي مباينة بين العلم والدين واقعاً تصل إلى حدود المقابلة بينهما، كما عند مشاقة، رغم أنها تسم العلم في هذه الحالة بصورة إيقاظية بوصفه الديانة الجديدة، التي يستوي فيها المتعلم أشبه برجل الدين الجديد، ماسك الحقيقة المادية للكون والبشر. ففي كثير من متطلبات التعليم شدة تهذيبية ومسلكية تقربه من "فضائل" التربية الكهنوتية، عدا أن التعليم يصبح بدوره صاحب قوة في مصادرة "معنى" العالم وممارسة السلطة بقوة هذه المصادرة نفسها.

إلا أنه كانت للعلم استهدافات مهنية، أو يؤدي إليها. وهو ما يمكن السؤال عنه في الدوافع من بناء المدارس، أو في نوع المواد التعليمية المعروضة، أو في مصائر الطلاب أنفسهم بعد تخرجهم. ولقد بدا لنا أن تأسيس المدارس لبى، بداية، وفي بعض الجماعات أكثر من غيرها، حاجات دخولها واستفادتها من حظوظ التعليم، المحرومة منه أو البعيدة عنه: هذا ما تمثل في إقبال الموارنة خصوصا عليه، حيث يتخذ أحيانا صورة "مقايضة" يشترطها بعض الأهالي من القيمين على الأديرة – المدارس: التخلي عن الدير والكنيسة مقابل تعليم الأولاد (٣٠). وهو ما بلغ في مقررات "المجمع اللبناني" (في العام ١٧٣٦) حدود الطلب من آباء الكنائس تدوين أسماء الطلاب المؤهلين للدراسة، وأمر أرباب العائلات على "سوق" أبنائهم إلى المدرسة "ولو مكرهين".

أو لبى التأسيس عند جماعات أخرى طلبها لتعليم مختلف، "عصري"، بدأ العمل به في مناطق لبنانية قبل غيرها، وظلت مناطق أخرى "نائية" عنه (٣١). أو لبى التأسيس عند بعض

---

(٣٠) يقول الأب عبد الله قراعلي (١٦٩٣-١٧١٨) في مذكراته: "(في العام ١٦٩٦) طلب منا أهالي اهدن أن نعلم أولادهم القراءة. ولأجل إصطلاح أحوال الدير، رتبني الرئيس أن أعلمهم ناحية عن الدير"، ("مذكرات الأب عبد الله قراعلي"، في كتاب "بدايات الرهبانية اللبنانية"، تقديم وإعداد: الأب جوزف قزي، مركز النشر والتوزيع، الكسليك – لبنان، ١٩٨٨، ص٣٠)؛ وهذا ماطلبه أهل غزير من قريبهم الاب يعقوب "لقاء أن يعطونا ديرهم المعروف بدير مار الياس"...

(٣١) مثلما يتحدث كمال الصليبي عن مناطق جبل عامل "النائية" عن خطوط المواصلات التجارية والتعليمية التي نعمت بها مناطق لبنانية أخرى، مثل جبل لبنان وبيروت وطرابلس وصيدا؛ وهو ما لن تعرفه الطائفة الشيعية إلا في العام ١٨٧٨، عند تأسيس مدرسة النبطية "العصرية" بمبادرة عثمانية.

ولقد عانت البيئة العاملية من عوامل اضطهاد مختلفة، دينية أو سياسية، في عهود مختلفة، ما يفسر في عدد من الأحيان هجرة العديد من علمائها، مثلما حدث على سبيل المثال في القرن الحادي عشر، إذ هاجر منها ما يزيد على سبعين عالما إلى الهند وإيران والحجاز وغيرها، وهو ما دعاهم، حسب واضح التقرير عن "المتاولة" وفي كتاب اسماعيل حقي المذكور أعلاه، "إلى التكتم والتقيد، وغمض بسبب ذلك تاريخهم على كثير من المؤرخين" (م. س.، ص٢/٢٩١).

وهو ما يوضحه هاني فرحات ("الثلاثي العاملي في عصر النهضة"، "الدار العالمية"، بيروت، ١٩٨١) بهذه العبارات: "أما المعارف وحال العلوم والتعليم على الأصول الجديدة، فلم تكن تعرف قبل عهد مدحت باشا، وإلى سوريا. فهو أول من أسس المدارس الأميرية وعني بنشر العلم وإصلاح التعليم، فأنشأ المدارس الرشدية (الثانوية) في مراكز الأقضية، والإعدادية في مراكز الألوية والولايات. ولم تشمل هذه التنظيمات جبل عامل، بل اقتصرت على مراكز الحكومة في الساحل، ولم تتأسس المدارس الإبتدائية إلا في أوائل عهد الدستور التركي الثاني وذلك عام ١٩٠٨| (ص٣٠).

وهو ما يقوله أحمد أمين أيضا عن مدحت باشا، إذ لفت نظره "أن مسلميها قد فشا بينهم الجهل، ومدارس الإفرنج تتقدم كل يوم تقدما ملموسا، وليس للحكومة سوى بعض المدارس الابتدائية" ("زعماء الإصلاح في العصر الحديث"، ص٥٥، ورد في فرحات: ص٣٩).

متصرفي جبل لبنان "مماشاة" سياسات وطلبات محلية، متوافقة مع نزعات إصلاحية سلطانية، عمادها قبول السلطنة لسياسات جديدة فيها، من اعتماد الزي الأوروبي حتى التعليم ذي النسق "العصري".

غير أن كلامنا هذا يوحي في صورة ضمنية كما لو أن استهدافات التعليم مطلوبة فقط للتشبه بمثالات تطور وتمدن واقعة خارجها، ولا تستجيب بالتالي لحاجات محلية. وفي هذا القول شئ من الصحة إذا نظرنا إلى مبادرات بعض الإرساليات التي طلبت "تنسيب" أعضاء إليها عبر "إغراءات" التعليم المتعددة: كيف لا، ونجد بعضهم يعرض مالا أو تقديمات مجزية لطالبي العلم أو مدرسيهم. ونجد في مساعي المبشرين الأوائل، والخاصة بهم والتي تعينها سياساتهم وحدهم، استهدافات بينة تميل إلي استمالة بعض "النابهين"، وإلى تعليم بعض المرشدين المحليين، وباللغة العربية طبعا، وإعدادهم للتبشير الواسع بين الجماعات المختلفة: هكذا كانت عبيه أشبه بالمدرسة الثانوية للإنجيليين، وهدفت إلى إعداد مدرسين، أشبه بدار معلمين، ومبشرين للعمل في "حقل الرب"، ونشر الإيمان بالعودة إلى الكتاب المقدس من جديد. وهو ما فعلته وسعت إليه إرساليات أخرى، مثل اليسوعية وغيرها.

هذا ما نلقاه في طلب بعض العائلات المارونية الاستفادة من التعليم العالي (استفادة أعلى مما كانت تقدمه مدارس الطائفة السابقة والمعروفة) الذي تعرضه مدرسة عين ورقة، أي إفادة أبنائهم منه، ما يشير إلى طلب إعداد "جهاز" (ثقافي وسياسي واجتماعي ومالي) متمايز عن الإكليروس الديني. وهو عينه ما نتحقق منه في طلب سعيد تلحوق (المذكور أعلاه) لأبناء الطائفة الدرزية. وهو ما جرى لاحقا في مبادرات إسلامية، سنية تحديدا، عند تأسيس جمعية "المقاصد الخيرية الإسلامية"، بفرعيها في بيروت وطرابلس.

وأصاب "التصدع" التعليم في جبل عامل منذ مطلع القرن: "كان انشطار المدرسة أو التعليم شطرين: وجه الأول إلى تشيع من غير جسم أهلي ولا أرض، ووجه الثاني إلى حداثة وعصرية خارجيتين وذرائعيتين، أمارة على التصدع المذكور" (وضاح شرارة، "الأمة القلقة"، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٩٦، ص٨٨). ويتعرض شرارة في كتاب آخر له، "دولة "حزب الله": لبنان مجتمعا إسلاميا"، لضمور التعليم الديني في جبل عامل، بل إلى انصراف متعلميه إلى نشاطات مغايرة، مثل العمل الحزبي أو الأدبي والشعري وكتابة التاريخ (وضاح شرارة، "دولة حزب الله": لبنان مجتمعا إسلاميا، دار النهار للنشر، بيروت، طبعة ثانية، ١٩٩٧، ص٣٥).

نتحقق في مدى هذه العمليات من وجود مثال أول، هو المثال التبشيري، والتحاق متقطع ومتفاوت للجماعات المحلية به، ولقد أدى هذا المسار - فيما لو وضعنا جانبا الاستهدافات التبشيرية والجهازية الطائفية عند الجماعات - على إعداد تثقيفي عام، قوامه حصول الناشئة على معارف العصر، وأدى إلى صرف التعليم على اللغات في المقام الأول.

٣/ أ من المعلم إلى الأستاذ

شدد اجتماع مجلس المبشرين في العام ١٨٦٢، عند إقرار تأسيس الكلية السورية - الإنجيلية، على أن يكون الإعداد للمهن الحرة، فلا يكون الطالب عالة على المجتمع: كلية عالية للعلوم في أربع سنوات، بعد انتهاء الدورة الثانوية، وإلحاق كلية طب وصيدلة بها في الوقت عينه. وهو ما نلقى صدى لاحقا له في "تقرير" إسماعيل حقي (١٩١٨)، إذ عاب على التعليم السابق إغفاله، أو عدم إعطاء "درجة الأهمية اللائقة في أمر العلوم الرياضية والطبيعية" (م. س.، ص٢/٢١٣). لكن قرار مجلس المبشرين يكاد يكون الاستثناء في مسار تعليمي نجده مركزا، في المواد التعليمية، على غرضين: إعداد المدرس - المبشر، وإعداد الترجمان - اللغوي.

هذا ما توفره عين ورقة في تعليمها (أكثر من ست لغات)، وهذا ما يطلبه سعيد تلحوق لمدرسة الطائفة الدرزية، أي أن تكون "للعلوم العربية واللغات الأجنبية"، وهذا ما نلقاه في بنود نظام المعارف الذي أقرته متصرفية جبل لبنان.

لا يمكننا ان نتحدث عن "المعلم" بوصفه مهنة ناشئة، ذلك أنه معروف في البيئة المحلية، وإن اختلف عمله عما كان عليه سابقا. ففي غير وثيقة قديمة نتحقق من وجود معلمين، سواء من اضطلع منهم بمهام القراءة والكتابة في المدارس القرآنية أو في نواحي الأديرة، أو من بلغوا شأوا عاليا في التعليم، ويمكن أن نسميهم بـ" العلماء"، وهو ما عرفته البيئة العاملية والسنية على السواء.

نتحقق في العقود الأولى من القرن التاسع عشر من تعايش نظامين تعليميين: فردي وعمومي. ونجد في النسق الفردي تلك العلاقة القديمة - المستمرة، بين أستاذ وطالب (أو أكثر): هذا ما كان يقوم به طالب العلم في البصرة منذ العهد الأموي، في تنقله من حلقة "شيخ" إلى آخر، حاملا ألواحه للتدوين والحفظ، وهذا ما استمر به طلاب علم، مثل الحاج حسين بيهم

(على يد أستاذيه، الشيخ عبد الله خالد والشيخ محمد الحوت)، أو أحمد فارس الشدياق مع أخيه طنوس، في العقود الأولى من القرن التاسع عشر، إذ انتقلوا من بيت أستاذ إلى آخر. وهو مــا طلبته أسر ثرية في الأشرفية (ببيروت) في العقود عينها لتعليم بناتها غير علم وفن. ونحن نجد في استمرار هذا التقليد سمة أخرى، هي استمرار تناقل "أسرار" الصناعات بمفهومها التقليدي، في صورة وجاهية من المعلم إلى أحد تلامذته (أو إلى أكثر من واحد منهم).

ولقد وقعنا على هاتين الفئتين من المعلمين في مدى العقود الأولى من القرن التاسع عشــر، وقبلها خصوصا، وإن أغفلت كتب التاريخ ذكر أسمائهم، أو ممن ذكرتهم في صــورة تظــهر ضلوعهم الراسخ في التعليم. ونتحقق من أن بعض هؤلاء اتصل بالتعليم القديــم ذي الطــابع الخصوصي، ثم بالتعليم الجديد المعروض في مدرسة، ولعدد متسع من التلاميذ، مثل المعلــم ناصيف اليازجي الذي انتقل، بعد نفي الأمير بشير الشهابي، إلى ممارسة التعليم في المدرســة البطريركية للروم الكاثوليك ثم في "المدرسة الوطنية" لبطرس البستاني، ثم في المدرسة الكلية للأميركان. وهو ما قام به المعلم بطرس البستاني بدوره، إذ أعطى دروسا خصوصية قبـل أن يصبح أستاذا عموميا، بل مديرا لإحدى المدارس...

ونتأكد في هذا المسار من أن وظيفة "المعلم"، بل "الأستاذ"، ستصبح السند الأساسي، المهني والمعاشي، لأعداد كبيرة من خريجي المدارس "العصرية"، ولعلنا نجــد فــي شــخص ودور كرنيليوس فان ديك مثال الأستاذ الذي طمح إليه، وتتلمذ على يديه، أعداد مــن أســاتذة هــذه الحقبة، بدءا ببطرس البستاني نفسه، أول الأساتذة البلديين ومثالهم الأول. ولقد تطلع إلى بلــوغ هذا النموذج أساتذة بلديون كثر، حتى أن يعقوب صروف وفارس نمر استقالا في العام ١٨٨٢ من مهمة التدريس في الكلية السورية – الإنجيلية [٣٢] لاعتراضهما على عدم ترفيعــهما إلــى رتبة "الاستاذية" أسوة بالأجانب، وزيادة معاشهما بالتالي.

٣/ ب من الترجمان إلى الوسيط اللغوي

---

(٣٢) وعلينا التخفيف من مغزى هذه الحكاية، إذا عرفنا أن صروف ونمر زارا مصر في العام ١٨٨٠ للتــأكد مــن منــاخ الحريات، فيما بلغتهما في بيروت صور "جذابة" عن خديوي مصر، بعد أن رفض مجلس الكلية ترقيتــهما إلــى درجــة الأستاذية، ورفع مرتباتهما أسوة بالأساتذة الأجانب: سيصبح صروف في مصر صاحب أملاك كبيرة؛ وســتزول الخشــية هذه في العام ١٩٠٨، على ما يبدو، إذ يفوز بدرجة الأستاذية في الكلية جبر ضومط، وبولس الخولي ومنصور جرداق.

الترجمان وظيفة قديمة، هي الأخرى، ترقى إلى صلات عرفتها الجهات الدبلوماسية الأوروبية مع السلطات المحلية، وبلغ الأمر أحيانا حدود تعيين ترجمان معتمد، مثل المقيم في طرابلس، من عائلة طرباي على سبيل المثال، الذي يتلقى وينظم المراسلات بين فرنسا وجهات مارونية، رهبانية أو بطريكية. لا يعنينا الوقوف في صورة مدققة على عمل الترجمان، ذلك أنه سابق على الحقبة التي ندرسها، وإن كنا نلقاه في اهتمامات وانشغالات عدد من متعلمي تلك الحقبة، ولاسيما المسيحيين منهم.

ولا يغيب عن بالنا كون المدارس "العصرية" راعت في تعليمها مسألة اللغات، سواء التركية أو العربية طبعا، أو الفرنسية والإنجليزية والإيطالية وغيرها؛ ونجد اللغات تحتل المقام الأول في المواد التدريسية للمدارس المنظمة الأولى: في عين ورقة يتم تعليم اللاتينية والإيطالية، والفرنسية منذ ١٨٦٠، إلى جانب العربية والسريانية؛ وفي مدرسة "الثلاثة أقمار" (في سوق الغرب في العام ١٨٥٢، ثم في بيروت في ١٨٦٦) جرى تدريس اللغات الأجنبية، بما فيها الروسية؛ وهذا ما فعلته "الكلية البطريركية" (منذ العام ١٨٦٥) إذ علمت اللغات الأجنبية والتركية إلى جانب اللغة العربية... لا بل نقوى على القول إن إنشاء المترجمين والوسطاء اللغويين وقع في أول إهتمامات تمكين الطلاب من أسباب عيش وعمل جديدة ومطلوبة في مجتمعاتهم، المتزايدة الانفتاح والتعاطي مع جهات أجنبية.

هذا ما عرفه غير متعلم ماروني في رومية، ولاسيما في "المعهد الماروني"، حيث كانوا الوسطاء الأوائل في العلاقات بين العربية والفرنسية واللاتينية، بل بين مواد ثقافية ودينية وطقوسية محلية وبين لغات (وثقافات) أوروبية. وهي ما تمثل خصوصا في تسلم عدد من هؤلاء المتعلمين المبرزين "كراسي" تعليمية راقية ومرموقة، سواء في رومية أو في فرنسا[٣٣].

هكذا نلقى عددا من التراجمة في العقود الأولى من القرن التاسع عشر، وبين أبرز خريجي المدارس "العصرية"، مثل: بطرس البستاني، ثم ابنه سليم، أو رشيد الدحداح، أو خليل مشاقة (نائب قنصل أميركا وترجمان القنصل الإنجليزي)، أو نوفل نوفل (الموظف في الإدارة

(٣٣) مثل جبرائيل الصهيوني وابراهيم الحاقلاني وغيرهما الكثير؛ حتى أن بونابرت، في حملته على مصر، وبعد مروره برومية وإقفاله للمعهد الماروني فيها، أتى ببعض الطلاب مترجمين معه إلى مصر.

العثمانية، وترجمان قنصلي ألمانيا وإنجلترا)؛ ولم يتأخر جرجي زيدان وجبر ضومط – علــى ما هو معروف – عن العمل ترجمانين في مصر أثناء الحملة على السودان. كمـــا احتــاجت السلطنة العثمانية (وهيئاتها المختلفة) إلى مثل هذه الأدوار وطلبتها، وهو مـــا احتاجتـــه فـــي تعاونها مع أعداد من المتعلمين المسيحيين، بل طلبت من بعضهم أحيانا، مثل خليل الخـــوري، أدوار وساطة بينها وبين فئة من المسيحيين أنفسهم (٣٤). ونتحقق في تقرير اســـماعيل حقـــي (المذكور أعلاه) من انتقاد السلطة العثمانية – المتأخر واقعا – لسياسة تعليم اللغات الأوروبية، وعلى حساب اللسان التركي، إذ يؤكد: "ومما يوجب الأسف أنه في سلوكهم هذا المسلك المباين للطريق القويم نرى هذه المؤسسات العلمية أهملت لسان البلاد"، وهو "أمر غير قابل للتـــأويل"، أي للتفسير (م.س.، ص٢/٢١٣).

إلا أننا سنشهد نقلة جديدة في هذا العمل تمثلت في تبلور دور آخر، هو الوسيط اللغـــوي، والذي تعين في أعمال الترجمة المختلفة، التي لا تقوم فقط على تسهيل الصلة والتفـــاهم بيـــن شخصين أو أكثر، وإنما أيضا بين لغتين وثقافتين. فالصحافي يترجم ما يقرأه في جرائد لنـــدن وباريس وأميركا قبل أن يكون محرر الأخبار التي تقع تحت أنظاره وأسماعه: أحمـــد فـــارس الشدياق وسليم البستاني وخليل الخوري – وهم من كبار أدباء وصحفي هـــذه الحقبـــة – هـــم تراجمة قبل ذلك. وهذا يصح في عمل بطرس البستاني، ولاسيما في "دائرة المعارف" منذ العام ١٨٧٥، التي لا تعدو كونها تعريبا في قسم واسع من نبذاتها عن مواد أجنبية (٣٥). وهذا يصـــح كذلك في ترجمة الروايات والفكاهات والملح الأدبية، أو في تعريف القراء بترجمـــات الشـــعر الملحمي والقصصي الأجنبي (٣٦).

---

(٣٤) لو عدنا إلى كتاب رستم، "لبنان في عهد المتصرفية"، لوجدنا قائمة غنية من أسماء المترجمين في بيروت تتعدى الستين اسماء راجع: م. س.، ص٢٦٤-٢٦٥.

(٣٥) اتفق في العام ١٨٧٠ سليم شحادة وسليم الخوري على تصنيف دائرة للمعارف التاريخية والجغرافيـــة مرتبـــة ترتيبـــا هجائيا، وصدر الجزء الأول منها في العام ١٨٧٥، بعنوان "آثار الأدهار"، والخاص بالقسم الجغرافي، ونشر الجزء الثـاني في أواخر السنة نفسها، والثالث في ربيع السنة ١٨٧٦، فالرابع فالخامس؛ وأصدر سليم شحادة في العـــام ١٨٧٧ الجـــزء الأول من القسم التاريخي.

(٣٦) ولقد كان للترجمة مفاعيل أدبية "تجديدية" إذ أفادت الأدباء في الاطلاع على أجناس وأنواع أدبية غـــير معروفـــة فـــي الآداب المحلية، مما سهل تعاطيهم معها واعتمادهم لها في الآداب العربية.

٤- المباينة بين الأهل والمدرسة

نتحقق في مدى هذه المراجعة من حصول "مباينة" بين الأهل والمدرسة، ولقد ترسمنا خطوطها وعلاماتها في غير مجال. فما يحصله الطالب في المدرسة، ويتدرب عليه يدفعه إلى الانفصال عن ثقافة بيئته بالضرورة.هذا ما تحقق منه مشاقة بمجرد وقوعه على كتاب في علم الفلك إذ خشي من ترك ثقافة أهله، وهو ما انتهى إليه بعد قراءات أخرى، لكتب وعلوم أخرى. وهذا ما أدى بأسعد الشدياق إلى الشقاق الديني (واعتناق المذهب الإنجيلي) وإلى الموت في السجن. وهو ما حدا - على ما نعلم - بالمبشرين الإنجيليين إلى نقل تعليمهم (ومطبعتهم) من مالطة إلى بيروت، بعد أن راعهم كون الدارسين المحليين يختلفون عن أقرانهم بمجرد ابتعادهم عنهم ودرسهم خارج بيئتهم أو عدم عودتهم إليها.

لهذا بدا الذهاب إلى المدرسة في كثير من الأحوال خروجا على الأهل وثقافتهم، ما يشير إلى انغلاق المنبت المحلي بالقياس مع الرحابة التي يعرضها العلم في متونه، حيث هو جولة، رحلة، متعددة المحطات في التواريخ واللغات والثقافات والعلوم والمهن. ولا يخفى علينا في هذا المجال أن انتقال الطلاب للدراسة بدا في بعض الأحوال أشبه بالرحلة من قراهم إلى "قصبات الداخل" (مثل غزير ودير القمر وغيرها)، أو خصوصا إلى بيروت منذ ستينيات القرن الماضي، التي كانت ذات درجات في التخالط، سواء في المدارس نفسها أو في بيئاتها السكانية.

وهو ما تحقق منه بعض الخريجين بمجرد عودتهم إلى بلد المنشأ: هذا ما شعر به أحمد فارس الشدياق ونقله في "الساق على الساق..."، أثناء حلوله في بيروت (١٨٤٠)، بعد هجرته منها، وإذا به أشبه بـ"البصاص" إلى قومه، يتعجب لنطقهم أو لتصرفاتهم، من دون أن يتعرف على نفسه فيهم: متحدر من البلد وغريب عنه في آن.

وما كان يصدر عن هؤلاء الخريجين شعور بالمباينة، أو ما كان يتأكد، إلا بعد حلولهم، إثر التخرج، في مواضع جديدة، غير مواضع النشأة، وهي مواضع العمل: اختلطوا بغيرهم، لا بأقاربهم، بل "سافروا" في غيرهم وخارج بلادهم.

تفكك اجتماعي يحدثه التعليم، لا في "الأفكار" التي يروجها وحسب، بل خصوصا في ما يطلبه من شروط لإنتاج المتعلم: انفصال عن مجتمع الأهل، والطائفة في بعض الأحيان، وعن

بيئتها الثقافية والاجتماعية، وعيش في أمكنة أخرى، واعتياد على علاقات وســلوكات وقيـم مغايرة، تؤدي إلى اختلاط بين التلاميذ، وبينهم وبين الأساتذة، وإلى الدخول في أفق انتظـاري له طلة إنبهارية، لا يعود بنتيجتها الطالب إلى ما كان عليه بالضرورة.

تفكك اجتماعي، من جهة، وعقد صلات إجتماعية قوامها التوافق المزاجي أو العقيدي، مـن جهة أخرى. هذا مانعرفه عن علاقات بطرس البستاني وفان ديك، أو فارس نمـــر ويعقــوب صروف، أو جرجي زيدان وجبر ضومط، أو عن "الجمعيات" السياسية التي نشأت فيما بينـهم، حتى أنها أدت الى "نشر" قصائد سياسية مناهضة للحاكم العثماني.

إلا أن تغير المسار ما قام في أصله لتلبية حاجات واقعة أو ناشئة، بل إلى زيــادة الطلـب على حاجات معروفة وسابقة، مثل التدريس والترجمة، وهو ما يدعونا إلى القول: لـــم يغـير مسار التعليم المستحدث، تبشيريا وطائفيا وعثمانيا، الصورة التي كان عليها التعليم، بل حسـنها ورفع من أدائها القديم.

حاصل التعليم "مباينة" ثقافية بالمعنى التقني، وتؤدي إلى تفكك في التصورات الاجتماعيـة، وفي العقلاقات التي تشد المتعلمين إلى أهلهم، من دون أن تصدر عن تفكك يوجبه ويقتضيــه العمل واشتراطاته (في التصور والصنع): تحديث تعليمي، لا صناعي؛ أي تعليم من دون مهن تستتبعه في المجتمع بالضرورة.

تحققنا في مدى المراجعة أعلاه من أن للتعليم اللبناني في العهد العثماني ســبلا مختلفـة، متباينة الدوافع، بين دينية وتثقيفية ومهنية، وإن أدت في نموذجها العام إلــى إنتــاج مـدرس، ووسيط لغوي، في المقام الأول. أي أن سبل التعليم أدت إلى تخريج متعلمين لا يختلفون فــي صورة حاسمة عما كان عليه المثقف الديني (سواء "العالم" الإسلامي في صورته القديمــة، أو المبشر – الداعية في الدعاوي المسيحية)، وإن خرج التعليم من الحلقة الدينية إلــى المجتمــع الأوسع، وإن تغيرت بدورها منظومة العلوم نفسها. وقام هذا المسار التعليمي علــى تكريــس وقت اجتماعي أكيد وصريح للتعليم، شمل الصبيان كما البنات، وفق أعمار محددة، وهو مــا تحقق في: التفرغ والتخصص والتدرج، وأدى إلى ترتيب جديد (بعد حذف وإعداد) للمعــارف القديمة، وإلى زيادة لمعارف (ولغات) جديدة.

قام المسار، إذن، على درجات من المباينة من دون أن تبلغ درجة التعارض التام، إلا في أحوال بعضهم، مثل بطرس البستاني وأحمد فارس الشدياق وغيرهما، ممن انفصلوا تماما عما كانت عليه أصولهم وبيئات نشأتهم واعتقاداتهم، بل جنحوا إلى معتقدات أخرى، وصلات أخرى تجمعهم بأهل معتقدهم الجديد (مثل الإنجيلية والماسونية وغيرها). وهي مباينة اجتماعية وحسب عند بعضهم الآخر، إذ عادوا إلى بيئاتهم متسلحين بـ" عدة" جديدة أهلتهم، لا لتبوء مكانات اعتبارية ناشئة وحسب، وإنما أيضا لتسلم مشروعات وارتياد مهن لا عهد لأهلهم ومجتمعاتهم بها.

عاد بعضهم إلى المجتمع من جديد، أشبه بجماعة هجينة، على أن "توحشها" هذا هو عنوان "تمدنها" وعلامة ترقيها. غير أن المباينة هذه قضت بتغيرات أخرى، واقعة في المسار التعليمي نفسه، بل في الحدود التي قطعها أو أقامها أو جددها بين العلم والجماعة. وهي حدود حادثة ترسم في بعضها حركات أوسع، تطاول التداخلات القديمة بين العلم والعمل، بل بين العلم مجتمعا وملتقيا في مصدر، هو عينه: الدين مصدرا ومصبا للعلم والعمل والقضاء والثقافة والتعليم.

فالنظام التعليمي العثماني يتحلق، مثلما يقترح اندريه ريمون وغيره، حول ركيزة "العلماء"(٣٧)، في تطلباته العلمية والدينية والثقافية والقضائية، وهي ركيزة تستكمل نظام "الحلقة"، الدينية – العلمية، الإسلامية القديمة. ونتحقق من استمرار هذا النظام في "الولايات" العربية، وإن شكا في بعض حقباته، ولاسيما الأخيرة، من تناقص في أعداد العرب المستفيدين منه؛ وهو نقص ناتج عن قلة الاحتياج إليهم في نظام القضاء الديني أو عدم طلب تميزهم الإبداعي، الشعري أو الفني، لصالح الأتراك وغيرهم طبعا. وعلينا أن نجد في هذا التناقص بعض أسباب الضمور العربي، الثقافي، والديني، واللغوي، والأدبي، المتعدد الأوجه، الذي

(٣٧) André Raymond : *Grandes villes arabes à l'époque ottomane, Sindbad*, Paris, 1985, P 79.

وهذا ما درسه بتوسع خالد زيادة في كتابه، "كاتب السلطان: حرفة الفقهاء والمثقفين" (رياض الريس للكتب والنشر، لندن – قبرص، ١٩٩١)، ويدافع فيه عن فكرة مفادها أن إنفراط نظام "العلماء" في بلاد الشام ومصر في العهد العثماني يعود، من جهة، إلى غلبة الأتراك على هذا النظام، ومن جهة ثانية، إلى انصراف الجهد العلمي إلى بعض المدن وحسب، وإلى تأثر هذا النظام بعادات النقابات والحرف فيها. ويظهر زيادة في هذا الكتاب أن مهنة "الكتاب" تراجعت في العهد العثماني منذ سنة ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م)، عندما ألغي خط "القيرمة"، وهو الخط السري الذي كان يستخدمه الكتاب في قيد الدفاتر والسجلات، وحلت اللغة العربية مكانه في تقييد سجلات الروزنامة (ص٢١٠).

نطلق عليه تسمية "الانحطاط"، وهو يعني، واقعا انسداد منافذ الترقي الأبعد والختاميـــة لــهذا النظام أمام طالبي الدخول إليه من العرب والاستفادة منه: قلة قليلة باتت تمني النفس فـــي أن تصل إلى ما بلغه سنان المعماري (أو غيره من فناني البلاط العثماني)، أو أن تســـتلم رتبــة القضاء العليا التي أمسك بها العلماء الأتراك، فتراجعت تطلعات العديد من المتعلمين العـــرب، وتناقصت بالتالي دوافعهم المحركة، وتخففوا بالتالي من اشتراطات التميز والإجادة والأســبقية في ما يقومون به أو يؤدونه.

لهذا بدا النظام التعليمي العثماني غير آبه، في عدد من الأحوال، بالتغيرات التي اقتضاهــا تمكين الإرساليات الأجنبية من أسباب التعليم، في عدد من "الملل"، وأتت سياساته فـــي عــهد المتصرفية "متأخرة" - على وفرتها ونشاطها [٣٨] - عن اللحاق والإمســـاك (غـير الإداري فقط)، بما كانت جرت عليه الاعتيادات المحلية في التعليم. وهو ما نتحقق من نتائجه في تـأخر التحاق، واستفادة فئات إسلامية، من التعليم "العصري"، سواء في بيروت أو صيدا أو طرابلـس أو في جبل عامل كله.

ولهذا أيضا بدت مقررات الخط الهمايوني، الصادر في العام ١٨٥٥ - التي أكدت علـــى حرية "كل جماعة مأذونة بعمل مكاتب ملية للمعارف والحرف والصنائع"، على أن تكون تحت مراقبة "مجلس معارف مختلط" - ، تشريعا متأخرا لما كانت سبقت إليـــه مبـادرات بعـض الطوائف والجماعات التبشيرية. ومثل هذه الإصلاحات عنى، في واقع التجربـــة التاريخيـــة،

(٣٨) لعلنا نجد في سياسات ابراهيم باشا أول المساعي هذه، إذ عمل على تأسيس عدد من المدارس الابتدائية في غير مدينة، والعالية في دمشق وحلب وانطاكية؛ وأبلغ ما وصلنا عن السياسات التعليمية العثمانية العليا يعود إلى خريف سـنة ١٨٦٩، عندما أصدرت نظارة المعارف العثمانية نظاما للمعارف العمومية في مئة وثمان وتسعين مادة وخمسة أبواب. ويتضح منه أن نظام التدريس عمومي وخصوصي، على أن للدولة حق الإشراف عليه والمصادقة على البرامج التدريســـية. وينقســم التعليم إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الرشدية، أي الابتدائية، وهي إجبارية: للصبيان من السنة الرابعة حتى الحادية عشرة من عمرهم، وللبنات من سن السادسة حتى العاشرة، واقتصر التعليم فيها على تعليم القرآن والتجويد والأخلاق والكتابة والحساب والتـــاريخ العثمـــاني ودروس مختصرة في الجغرافيا؛

المرحلة الإعدادية، أي الثانوية، وهي المدارس السلطانية كذلك، ويعطى في نهايتها شهادات في العلوم والآداب، ويشـــتمل التعليم على الكتابة والإنشاء بالتركي وأصول الحساب ومسك الدفاتر والهندسة والمساحة والتاريخ والجغرافيـــة، ومبـــادئ الفلسفة الطبيعية والمنطق وعلم المواليد والكيمياء والجبر والرسم واللغة الفرنسية؛

المرحلة العالية، وهي دور المعلمين والمعلمات ودور الصنائع والفنون ومكاتب الهندسة البحرية والبرية والحقوق والطـب والزراعة: راجع بنود هذا النظام في "لبنان في عهد المتصرفية" لأسد رستم، ص ١٤١-١٤٤.

تخلي السلطنة عن التوجيه واحتفاظها بالإشراف فقط؛ عدا أنها أجازت واقعيا للطوائف الإسلامية، بل للسنة تحديدا، إنشاء المدارس.

تستند هذه السياسات العثمانية "الإصلاحية" (كما سميت، وهي تعني، واقعا، تخلي السلطنة عن بعض أدوارها الحكومية)، أو تستجيب لتغيرات واقعة في طلب الجماعات (والفاعلين فيها تحديدا)، ومنها طلبات في التعليم وصنوه الترقي الاجتماعي، ومنها طلبات في إدارة شؤونها عند بعض الطوائف. كما ترد هذه السياسات العثمانية على سياسات أخرى في مجال التعليم، تحققت سواء في مصر مع سياسات محمد علي، أو في بيئات مسيحية متعددة، في العراق وسوريا وفلسطين ولبنان.

أحمد جودت باشا وتطوير المدرسة العثمانية

الدكتورة ماجدة صلاح مخلوف
آداب عين شمس – القاهرة

تمهيـد

مرت الدولة العثمانية ١٢٩٩-١٩٢٢م ، بمرحلتين من مراحل التوجه الحضاري، أنتجت كل مرحلة منهما، إبداعا ثقافيا وفكريا وحضاريا، يعبر عن منابع كل مرحلة.

المرحلة الأولى، وقد امتدت من قيام الدولة حتى القرن السادس عشر،ويصفها المؤرخون بأنها العصر الذهبي للدولة العثمانية، وفيها كان التوجه الحضاري متجها بكلياته نحو المنابع الإسلامية في كافة الميادين الفكرية والحضارية. وأثمرت هذه المرحلة حضارة عثمانية قوية تعبر عن المكانة الرفيعة(والقوية) التي تبوأتها الدولة العثمانية، لا على مستوى العالم الإسلامي وحده، بل على مستوى العالم بشقيه الشرقي والغربي.

أما المرحلة الأخرى، فهي مرحلة التلقي الحضاري عن الغرب. وفيها اتجهت الدولة إلى هذا المصدر الحضاري المغاير لطبيعة تكوينها، بعد الركود الذي أصاب حياتها الفكرية والحضارية منذ القرن السادس عشر، في نفس الوقت الذي انطلقت فيه أوروبا نحو بدايات حضارة غربية ذات خصائص علمية وفكرية جديدة. وأصبحت هذه الحضارة الأوروبية الجديدة ومظاهرها المدنية هي الوجهة التي تنظر إليها الدولة العثمانية بأمل الخروج من ركودها. وقد أوجدت هذه المرحلة العثمانية، إنتاجا ثقافيا ومدنيا يعبر عن هذا التحول، ويضع

الدولة في مرحلة الأزمة والصراع بين مخزونها الثقافي والتراثي، والمكتسبات الجديدة المغايرة لطبيعة هذا المخزون، مع صعوبة المزج الكامل بينهما.

واختارت الدولة طريق التحديث وفق النسق الغربي، وقدمت لهذا الاختيار بمقدمات طويلة استغرقت معظم القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، لتحدد رسميا وجهتها الجديدة سنة ١٨٣٩.

كانت المدرسة طوال التاريخ العثماني بمثابة تعبير حضاري عن مكانة الدولة وتوجهها الفكري، وعليها انعكست المراحل المختلفة التي مرت بها الدولة قوة وركودا وضعفا؛ بل يمكننا القول بأن المدرسة كانت عاملا مؤثرا في المرحلتين اللتين سبقت الإشارة إليهما لدورها في إعداد رجال الدولة العثمانية اللازمين للحياة العدلية والإدارية.

عاصر أحمد جودت باشا فترة التحول هذه، واستطاع أن يصل إلى صيغة ثقافية تحقق له الاستفادة الكاملة من مخزونه الثقافي العثماني ، ومتطلبات المرحلة الجديدة التي ولجتها الدولة العثمانية، بمقوماتها الثقافية . فقد كان أحمد جودت باشا يميل بطبعه إلى التطوير طالما أنه يضيف إليه بعدا فكريا وثقافيا جديدا.

وأدرك جودت باشا أن الثقافة التي تقدمها المدرسة العثمانية لا تفي بمتطلباته الثقافية، وأن أصول التعليم التي دفعت الدولة العثمانية إلى الأمام في عهدها الذهبي، قد تخلفت كثيرا عن احتياجات عصره، واتجه بمفرده إلى دراسة علوم أصيلة في الحضارة الإسلامية، أصبحت مهجورة ومنسية في المدرسة العثمانية في عصره مثل الجبر والهندسة واللوغاريتمات وعلم الهيئة وغيرها من العلوم الحكمية (الطبيعية)، كما اهتم إلى جانبها بدراسة العلوم الرياضية وفق الأصول الجديدة. وكذلك أدرك أهمية اللغات الأجنبية خاصة الفرنسية التي كانت آنذاك لغة الآداب والفنون والفكر الجديد، فتعلمها سرا. وكان في هذا مخالفا لعلماء عصره الذين كانوا يرون في تعلم اللغات الأوروبية خروجا على شعار العلماء.

أدرك جودت باشا أن المدرسة العثمانية أصبحت لا تفي بمهمتها كاملة، وأن المرحلة الجديدة التي ولجتها الدولة العثمانية لتحديث مؤسساتها، تتطلب تطويرا يواكبها في التعليم، فالتعليم هو الذي يؤهل الرجال اللازمين لإدارة مؤسسات الدولة في مرحلتها الجديدة. و كان لابد من تطوير مهمة المدرسة العثمانية وهو ما اهتم به أحمد جودت باشا . لقد ا اهتم بدراسة

أسباب تأخر المدرسة العثمانية وعيوب البرامج المطروحة في عصره لتطويرها، ووضع برنامجا جديدا لتحقيق التطوير الذي يقترحه.

أولا) أهمية العلم عند جودت باشا :

أولى أحمد جودت باشا قضية العلم والتعلم اهتماما كبيرا فقد كان يدرك قيمة العلم في بناء الإنسان ويعبر عن (إيمانه) هذا بقوله:"أن الحاجة إلى التعلم ، حاجة إنسانية. فالإنسان حيوان ناطق له حاجة إلى العلوم الطبيعية والرياضية لاستيفاء أدواته اللازمة للتمدن، كما أنه يحتاج إلى الأدب والشعر لاستيفاء حاجاته المعنوية"(١). و"العلم والمعرفة يكسبان الإنسان شرفا. ولا يحقق الإنسان آماله ألا باكتساب الفنون والمعارف. لذا لا يمكن إنكار قيمة العلم والمعرفة في أي زمان أو مكان.(قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (٢).

أما عن دور العلم في بناء الأمة فيقول جودت:

إن نشر التعليم أمر أساسي لنشر العمران والمدنية (٣). كما أن العلم أساس تنظيم أمور الدولة ورفاهية رعاياها، بل إنه أساس لاستمرار الدولة وبقائها (٤).

وقد ربط جودت بين تطور الأمم وتطور العلم فيها. فترقي المدنية منوط بترقي العلوم والفنون : وزوال المدنية المدينة مقترن بزوال العلوم والفنون. فالاضطرابات والفوضى التي سادت الشرق قضت على معظم العلوم التي برع فيها المسلمون مثل الرياضيات والفلك ، فما بلغنا عن وجود نوادر الكتب في مكتبات سمرقند لم يصل إلينا منه إلا القليل (٥).

أما أوربا فقد بدأت في علوم الجبر والمقابلة من حيث انتهى علماء المسلمين. ثم ارتقى الأوربيون بهذه العلوم ووصلوا بها حد الكمال (٦).

---

(١) تذاكر ج٤ ص٥٣.
(٢) تذاكر ج٤ ص٥٣.
(٣) تذاكر ج٤ ص٥٠.
(٤) تذاكر ج٤ ص٥٤.
(٥) تذاكر ج٤ ص٢٥٥.
(٦) تذاكر ج٤ ص٢٥٤.

ثانيا- دور الدولة في رعاية العلم

يرى جودت باشا أن الاهتمام بالمعارف أمر مشترك بين الحاكم والرعية فليست الرعية وحدها هي التي تقوم بدفع حركة العوم والفنون، وإنما يقع العبء الأكبر على الحاكم، فالناس على دين ملوكهم، والحاكم هنا ليس السلطان بل كل أولى الأمر من الوزراء والأمراء، فيجب أن تتضافر جهودهم لتنمية المعارف.[٧]. فيجب على الحكام أن يهتموا بمحو أمية الرعايا، ونشر التربية العامة [٨] .والإنفاق على العلم وأهله " فارتفاع قيمة العلم والمعرفة وتمدن الدول وإبداع أهلها إنما يكون بقدر ما ينفقه عليه السلاطين والملوك وبقدر رعايتهم له [٩].

ثالثا:أسباب تأخر المدرسة العثمانية:

احتلت المدرسة العثمانية جزأ كبيراً من اهتمام أحمد جودت باشا باعتباره مفكرا تولى وزارة المعارف أكثر من مرة خلال فترة التنظيمات ومن خلال تذاكره نستطيع أن نتعرف على أهم مشكلات المدرسة في عصره (القرن التاسع عشر) وهي كما عبر عنها أربع:

١-قصور مناهج المدرسة العثمانية عن تقديم ما يفي باحتياجات العصر من معارف حديثة كالرياضيات واللغات الأجنبية. وقد اختفت من المدرسة دروس الحساب والجبر والهندسة وعلم الهيئة وهي العلوم المعروفة باسم(العلوم الحكمية). وتدارك جودت هذا العجز بتثقيف نفسه أولا [١٠].

٢- عدم الاهتمام باللغة التركية "عذبة البيان" .ويقول" أن أهلها قد هجروها واعتمدوا في كتاباتهم على الألفاظ العربية والفارسية لاستعراض مقدرتهم على التأليف وكمال معارفهم. كما اقتصرت كتاباتهم على فرع واحد من فروع كليات العلوم وهو الشعر والنثر فقط دون بقية العلوم الأخرى، وبذلك ضعفت قيمة اللغة التركية كلغة ثقافة أو لغة علم" [١١].

---

(٧) تذاكر ج٤ص٢٥.

(٨) تذاكر ج٤ ص٤٩.

(٩) تذاكر ج٤ص٢٥.

(١٠) تذاكر ج٤ ص٧.

(١١) تذاكر ج٤ ص٤٧.

٣- ضياع مكانة أرباب الوظائف العلمية وتفشي الجهل بين العلماء ويعني بذلك عدم قدرتهم على فهم ما تأتي به الحضارة الحديثة من معارف وعلوم [١٢].

٤- ضعف الرواتب التي تقدم لطلبة المدارس، وانشغالهم بتدبير أسباب معيشتهم بما يؤثر على مستواهم العلمي [١٣].

رابعا:عيوب برامج الإصلاح المطروحة:

أرادت الدولة تدارك هذا الخلل الذي أصاب المدرسة العثمانية بعدد من الإصلاحات التي تستهدف إخضاع التعليم لإشراف الدولة، ووضع برامج محددة للمدارس المزمع إنشائها. فصدر في مايو ١٨٤٦ مرسوم لتنظيم التعليم ووضع خطة لتوفير احتياجات الدولة في شكلها الجديد بعد التنظيمات. وتم تكوين لجنة لتحقيق هذا الغرض.(مجلس المعارف). وقام هذا المجلس بوضع ثلاث لوائح للمراحل التعليمية بعد لأن قسمها إلى ثلاث مراحل هي:

ا – مدارس الصبيان. (الإبتدائية)

ب – المدارس الرشدية. (الإعدادية)

ج – دار الفنون. (الجامعة)

ولم ينجح هذا البرنامج في تحقيق أهدافه لأسباب ذكرها جودت باشا ، وهي:

١) عدم التدرج في تطوير مراحل التعليم الثلاثة ، بدء من مدارس الصبيان ثم المدارس الرشدية ثم دار الفنون، على اعتبار أن كل مرحلة منها تؤدي إلى المرحلة التالية. فقد بدأ مجلس المعارف بتطوير المدارس الرشدية ، دون تطوير مدارس الصبيان التي هي أساس المعارف العمومية [١٤]، والتي تعد الطلاب للمدارس الرشدية بعد أن تطورت هذه بالفعل [١٥].فتطوير مرحلة دون تطوير المرحلة السابقة عليها يفقد هذا التطوير فاعليته.

---

(١٢) تذاكرج٤ ص٨٥،٩٥.

(١٣) تذاكر ج٤ ص٦.

(١٤) تذاكر ج١ ص١٣.

(١٥) تذاكرج١ ص١١.

٢) عدم تبعية المدارس كلها لجهة إدارية واحدة. فمدارس الصبيان كانت تابعة لوزارة الأوقاف العمومية -تحت إشراف رجال المدرسة القديمة -وكان من المستحيل في ذلك الوقت تغيير هذه التبعية، بينما كانت المرحلتان التاليتان تابعتين لنظارة المكاتب العمومية -التي تسعى لتطبيق فكر التنظيمات-، وبالتالي فقد تعذر تنفيذ الإصلاحات المرجوة في مدارس الصبيان (١٦).

٣) عدم اختيار الأعضاء المناسبين القادرين على فهم وتحقيق التطوير المنشود. فالقائمون على التطوير يجب أن يؤمنوا بأهميته وضرورته. وفي الوقت الذي تشكل فيه هذا المجلس المكلف بتطوير التعليم، تولى الصدارة العظمى سعيد باشا _ وكان شديد التعصب للقديم_ فمنع طلبة المدارس الرشدية من تعلم رسم الخرائط" وكأنه يريد أن يرجع بالدولة مائة عام إلى الوراء" . وهو ما دفع المولى وهبي معاون المدارس العمومية إلى إلقاء الخرائط في دورات المياه. فكانت الدولة تعمل على تطوير التعليم من ناحية ، ويحول أمثال هؤلاء دون التطوير من ناحية أخرى (١٧).

٤) إن أنجمن دانش وهو المجمع العلمي الذي تشكل بقرار مجلس المعارف العمومية، ليكون جمعية علمية على غرار الأكاديمية العلمية في باريس ولإعداد الكتب التي سيجري تدريسها في دار الفنون(الجامعة) بعد إنشائها (١٨)،لم ينجح أيضا في تحقيق مهمته أو الفائدة المرجوة منه لأن اختيار أعضائه تم بالمجاملة لبعض الرجال الذين رأوا في الانضمام إليه مسألة شرفية، ولم يتم الاختيار حسبما تقضي به المصلحة العمومية (١٩)، لهذا لم يحققوا الهدف المأمول (٢٠).

---

(١٦) انظر، تذاكر ، ج٤ ،ص ٣٨.

(١٧) تذاكر ج١ ص١١.

(١٨) تذاكر ج٤ ص ٤٧،٤٩.

(١٩) تذاكرج٤ ص١٣.

(٢٠) تذاكر ج٤ ص٥٣.

خامسا: خطة جودت باشا لتطوير المدرسة العثمانية:

بنَى جودت باشا فكرته في تطوير المدرسة العثمانية، على مبادئ كلية لا تخرج عن الخطوط العامة لفكره الإصلاحي ، الذي يرتكز على محاور رئيسية هي:

- التدرج في الإصلاح.
- النظر إلى جوهر الإصلاح وكلياته.
- وضع الرجل المناسب في المكان المناسب.
- مواكبة روح العصر مع الحفاظ على تراث الأمة.
- تكامل الإصلاحات.

وتتم خطوات هذا التطوير على النحو التالي:

١) توسيع المدارس التي يتم ترتيبها تبعا لاحتياجات الوقت والحال، ووضع البرامج الرئيسية التي تتناسب معها [٢١]،لأن هذه المدارس هي التي سيتخرج منها الرجال القادرون على العمل في مناصب الدولة الهامة والقادرون على حسن إدارتها.

٢) الجمع بين العلوم الأصيلة والعلوم الحديثة، كدراسة الشرع والقانون على سبيل المثال والربط بين الدراسة النظرية والعملية بما من شأنه تكملة الدراسة النظرية ودعمها، وصقل ملكات المتعلمين [٢٢].

٣) إسناد مهمة تطوير التعليم إلى أهل الخبرة القادرين على فهم التطوير المنشود وتنفيذه بعيدا عن المآرب الشخصية، وإلا صاروا معوقين له [٢٣]، مثل المولى وهبي الذي تولى أمور المعارف العمومية ، ويصفه جودت بأنه " جاهل في هيئة العلماء، لم يَرَ من قبل سوى مدارس الصبيان، فقلب الأمور رأسا على عقب ونزل بالمدارس العليا إلى مستوى مدارس الصبيان" [٢٤].

---

(٢١) تذاكر ج٤ ص١٠٠،١٠١.

(٢٢) تذاكر ج٤ ص١٠٠.

(٢٣) تذاكر ج٤ ص ٣٩،٤٠.

(٢٤) أنظر تذاكر، ج٤، ص ٣٧-٤١

٤) تسهيل التعلم للأفراد ومتابعة الجديد في العلوم. فالعلوم والمعارف والفنون تتغير على مر العصور، وتتزايد بتلاحق الأفكار. لذا فمن الضروري الاهتمام بنشر العلوم والمعارف اللازمة لكل عصر [٢٥].

٥) الاستفادة من أدوات المعرفة الجديدة في عصره، مثل الوسائل التوضيحية كالخرائط مثلا ويقول: إن كتابة التاريخ بدون خرائط تصبح كمن يتعلم القراءة والكتابة في الظلام، وتصبح قراءة التاريخ قضية يكتنفها الغموض ويصبح قارئه كمن يحشر نفسه داخل نفق مظلم" [٢٦]. والبون بعيد هنا بين فكر جودت باشا وبين من يلقون بالخرائط داخل دورات المياه. كذلك يجب تعلم اللغات الأجنبية التي أصبحت لغة العلم والثقافة في عصره. وقد أدرك جودت القصور في مناهج المدرسة العثمانية في هذا الصدد، فاستكمله بجهوده الذاتية ودرس الفرنسية رغم مخالفة هذا لشعار العلماء آنذاك.

٦) تدرج وتكامل إصلاح المدارس، فلا يتم إصلاح مرحلة من مراحل التعليم وتطويرها دون بقية المراحل وهو يقول" يجب أن يبدأ البناء من الأساس وليس من المنتصف"[٢٧].

٧) رفع رواتب الطلبة بما يكفي لسد حاجياتهم ليتفرغوا لتلقي العلم وهو ما فعله جودت أثناء إدارته لدار المعلمين [٢٨].

٨) العمل على اجتذاب الأطفال في المناطق النائية للانتظام في المدرسة وذلك عن طريق:

ا – تقديم مبالغ نقدية من وزارة المعارف لتشجيع هؤلاء الأطفال.

ب – توفير الكتب والوسائل اللازمة لهم [٢٩].

---

(٢٥) تذاكر ج٤ ص٥١.
(٢٦) تذاكر ج٤ ص ٢٤٠.
(٢٧) تذاكر ج٤، ص٤١.
(٢٨) تذاكر ج٤ ،ص ٤٦.
(٢٩) تذاكر ج٣ ،ص٦٣.

أما في ميدان الرؤية الجوهرية الشاملة للإصلاح ، فقد اهتم جودت باشا بقضيتين أساسيتين يمثلان جوهر إصلاح المدرسة وهما:

١) **نشر التفكير العلمي بين طلبة المدارس** من خلال الاهتمام بالعلوم الطبيعية والرياضية لأنها أساس التمدن. ومن هذه العلوم بل وأساسها جميعا ، علم المنطق ويرى جودت أن المنطق " هو ميزان العلوم ومعيار الفهم . وهو مقدمة الحكمة وبه فصل الخطاب وهو المميز بين الخطأ والصواب"[٣٠]. لهذا فتعلُّمه مقدم على العلوم الأخرى باستثناء الهندسة، لأن البراهين الهندسية مرتبة على القواعد المنطقية، وبه تضبط أصول العلوم. فمنطقيو أوروبا استطاعوا من خلال قياس أصول كل علم على فن المنطق ، ضبط أصول جميع العلوم [٣١].

والأمر كذلك بالنسبة للهندسة، فهي تساعد على إكساب المتعلمين التفكير المنطقي، ويقول جودت" أن المبتدئين وهم يرسمون الأشكال الهندسية في مكوناتها خطوة خطوة، يكتسبون القدرة على ترتيب الأفكار المنطقية في أذهانهم، وعندما تكتسب أذهانهم قواعد التفكير المستقيم بالأشكال الهندسية ،يمكنهم تعلم بقية الفنون بصورة واقعية" [٣٢].

٢) **قضية الاهتمام باللغة التركية من خلال:**

أ – جعل اللغة التركية لغة للعلم، وفي هذا يقول جودت باشا: " إن اللغة تَكتَسِب مكانتها الرفيعة بما تقدمه من فنون ومعارف، واللغة التي تعجز عن هذا، مهما كانت لغة كاملة في أصلها تصبح كالأرض البوار الخاوية من مظاهر العمران، كما أن اللغة لا يمكن أن تكتسب شهرتها وقيمتها ما لم تكتب بها مختلف العلوم والفنون" [٣٣].

ب – تبسيط لغة الكتابة وتتريكها، ويقول:" إن هذا هو السبيل لنشر المعارف" [٣٤].

---

(٣٠) تذاكر ج٤، ص٧٧.

(٣١) من رسالة إلى ابنه سداد ضمن ، تدريسات مجموعه سى ص٤٦٥.

(٣٢) كتاب دار المعلمين، ص٤٦٥.

(٣٣) تذاكر ج٤ ص٥٥.

(٣٤) تذاكر ج٤ ص٥١.

ج – مراعاة ما يطرأ على اللغة من تطور، فاللغة كما يقول جودت باشا: "تعبر عن التطور الذي يطرأ على الأمم فإذا نظرنا إلى اللغة قبل مائة عام لأدركنا ما طرأ عليها من تغير، فاللغة مثل الإنسان تتغير وتتجدد ألفاظها واصطلاحاتها بمرور الأيام" (٣٥).

د – تبسيط وتطوير اللغة العثمانية وتقريبها من فهم العوام، ويرى أن "من الضروري تبسيط اللغة العثمانية التي تخفي در المعاني في أصداف الاصطلاحات العميقة، مما جعل الكتب المكتوبة بها رغم ما تحتوي عليه من أفكار رفيعة ، تبدو مغلقة صعبة لا يفهمها إلا الخواص ولا يتحقق للعوام منها أي فائدة، بينما التربية العمومية تقتضي نشر المعارف على اختلافها وتيسيرها لفهم كافة الرعايا" (٣٦).فيجب الاهتمام بها ليتمكنوا من فهم مكنون ثقافتهم القديمة إلى جانب الاهتمام باللغة التركية وجعلها لغة للعلم.

هـ – وضع كتب لقواعد اللغة التركية للنهوض بها وجعلها لغة للعلم حيث يقول:"إن الأمم المتمدينة هي التي تهتم بوضع كتب القواعد الخاصة بلغتها" (٣٧).

من مؤلفات جودت باشا في إطار تطوير المدرسة العثمانية:

١) تقويم الأدوار: وهي رسالة كتبها ليثبت بها قدرة اللغة التركية على التعبير عن القضايا العلمية.

٢) معيار سداد: وهي أول رسالة في علم المنطق تكتب باللغة التركية ليجري تدريسها للأطفال . فقد لاحظ جودت أن كل كتب المنطق التي تدرس في الجوامع والمدارس مكتوبة باللغة العربية وبذلك يصعب تدريس هذا العلم للأطفال ويحرمون من الإلمام به وهو أساس لتطوير العلوم (٣٨) والذي ينجو بهم من إغراق أذهانهم في الخيال

(٣٥) تذاكر،ج٤، ص١٢٩.

(٣٦) تذاكر ج٤، ص ٥١.

(٣٧) جودت باشا، بلاغت عثمانيه، ص١٢.

(٣٨) جودت باشا، رسالة إلى المستشرق الألماني، كتاب دار المعلمين ص ٤٥٢.

والوهم (٣٩). فاهتم بالكتابة في هذا العلم المبني على المقدمات والنتائج الذي هو أساس التفكير العلمي.

٣) قواعد تركية: وهو أول كتاب رسمي في قواعد اللغة التركية يوضع لطلبة المدارس، في إطار خطة للنهوض باللغة التركية .

٤) تاريخ جودت: وقد كتبه جودت ليدرس في دار الفنون بعد إنشائها.

٥) قصص الأنبياء وتواريخ الخلفاء: وهو مؤلف تعليمي وتربوي في الوقت نفسه، يتضمن عرضا مبسطا لتاريخ الأنبياء والخلفاء منذ آدم عليه السلام حتى زمن السلطان مراد الثاني العثماني.

وأظن أن فكر جودت باشا فيما يتعلق بتطوير المدرسة العثمانية جدير بالاهتمام والاعتبار في وقتنا الحالي رغم أنه طرح في القرن التاسع عشر.

---

(٣٩) كتاب دار المعلمين ص٤٦٥.

الحياة العلمية والثقافية في عهد السلطان محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١م) من خلال المصادر العربية

الدكتورة عزة الصاوي

آداب عين شمس - القاهرة

يهدف البحث إلى إجلاء حقيقة السلطان محمد الفاتح خلال فترة حكمه (١٤٥١-١٤٨١م) في أنه لم يكن رجل حرب وسياسة أمضى كل عمره في الغزو والجهاد والفتح، ولم يترك أثراً في أي ميدان آخر من ميادين الحياة. بل يؤكد البحث أنه كانت هناك جوانب أخرى في شخصية هذا السلطان العظيم لا تتصل بالحرب والسياسة، بل تمتد لتشمل اهتماماته بالعلم والثقافة والفكر، فقد كانت للسلطان إنجازات بارزة لا تقل روعة وعظمة عن جولاته في ميداني الحرب والسياسة، إن لم تكن تزيد عليهما.

يبين البحث أن نشأة الفاتح وثقافته الممتازة أهلته لكي يكون رجل علم وثقافة من طراز خاص، فما توسم في رجل نبوغاً أو تضلعاً في علم من العلوم إلا واتخذه معلماً له ينهل من علمه ويفيد منه. يتضمن البحث أيضاً مدى اهتمام السلطان محمد الفاتح بإنشاء المدارس والمعاهد التعليمية المختلفة وما أدخله عليها من إصلاح وتنظيم في مناهج التعليم واهتمامه ببناء المساجد باعتبارها الأماكن الأساسية للعلم والثقافة. وما أسبغه من رعاية كريمة واهتمام وتقدير بأهل العلم.

ويهتم البحث أيضاً بالحديث عن إدخال السلطان محمد الفاتح لنظام التخصص في مناهج التعليم حيث أفرد للعلوم النقلية والنظرية قسماً خاصاً بهما، وفي الوقت نفسه خصص للعلوم العملية التطبيقية قسماً آخر وعلى نفس الدرجة من الأهمية.

ويوضح البحث اهتمام السلطان محمد الفاتح بعقد المجالس العلمية والأدبية، ومناقشات العلماء وعقد المناظرات المختلفة بينهم، وكان يسود هذه المجالس جو الوقار العلمي وآداب المناظرة للإفادة من النقاش والمحادثة.

ويولي البحث أهمية الفكر الثاقب "للفاتح" في استعانته بالنقل والترجمة وتأثير ذلك في بعث النهضة الفكرية ونشر العلوم والثقافة، حيث استجلب الكثير من الكتب الأصلية والمخطوطات المكتوبة باللغة اليونانية واللاتينية والعربية والفارسية، وترجمها إلى اللغة التركية، فكان ذلك تدعيما لحركة التأليف والترجمة من أجل نشر المعارف وكذلك إقامة المكتبات العامة بقصد رفع المستوى الفكري والثقافي لرعاياه.

ويبرز البحث ما اتصف به الفاتح في الناحيتين الدينية والعلمية على حد السواء، تمثل ذلك في رحابة الصدر وسعة الأفق وسماحة النفس والإدراك الصحيح لمعنى حرية الضمير وحرية الرأي والقول وتجلى ذلك بوضوح في الميدان العلمي وإستقراءاته واستنتاجاته.

أما إنجازات الفاتح في إنصاف العلم والعلماء، وما ابتدعه من التنظيم والتنسيق في درجات العلماء ومراتبهم والتمييز بين المناصب والوظائف العلمية كالتدريس والقضاء، فقد أفردت له الباحثة جانبا مهما من محاور البحث.

ويخلص البحث إلى أن السلطان محمد الفاتح كان على قناعة بأن إنشاء دولة عظيمة لا تتوطد أركانها ولا يزدهر حالها إلا بالعلم والعدالة. واستكمالا للجوانب الشخصية للسلطان محمد الفاتح، أوضح البحث أنه كان رجلا فذا عظيما في علمه وثقافته، وكان يعتبر نفسه دائما تلميذا في محراب العلم والثقافة والأدب وأفرد لذلك الكثير من وقته رغم انشغاله بالحروب والفتوحات.

مقدمـــة

قد يظن الكثيرون ممن يقرأون عن تاريخ وسيرة السلطان محمد الفاتح وحكمه الذي امتـد ثلاثين عاماً (١٤٥١-١٤٨١م) أنه كان رجل سياسة وحرب، كرس كل عمـره فـي الغـزو والفتوحات ومعارك السياسة والحكم، وأن هذا السلطان ترك بصمة في هذه الميادين فقط. بينما الاستقراء المتأني المحايد العادل بعين خبير مدقق يجد غير ذلك، ويرى أن المقولة بـأن هـذا السلطان كان رجل حرب وسياسة، هي عبارة جانبها الصواب وشانها قصور الرؤية وضيـق الأفق، وربما كان ذلك راجعاً، إما لأمور سياسية أو شخصية، أو لأمور أخرى لا يتسع المجال لسردها في هذا البحث.

لذلك كان لابد من إلقاء الضوء على الجوانب الشخصية لهذا السلطان والتـي لا تتصـل بالحرب والسياسة فقط، لكنها تتعدى ذلك بكثير لتشمل نظرة أعم وأشمل فـي ميـادين العلـم والأدب والثقافة والتعليم والتي كانت للسلطان الفاتح فيها إنجازات زاهرة ونجاحـات بـاهرة، ربما كان لها درجة لا تقل عن ما حققه في ميادين السياسة والحـرب، والتـي اتفـق عليـها الصديق والعدو، مهما اختلف منهج العقل أو أسلوب التفكير.

لذلك فإن استقاء هذه المعلومات من مصادر عربية، قد تكون محايدة إلى حد كبير، يعطـي صورة أكثر إنصافاً ودقة، مما يعكس الجوانب الحقيقية لهذا السلطان دون إجحاف أو مزايدة.

المناقشة والاستنتاجات

كانت بداية التنشئة للسلطان الفاتح إبان فترة حكم والده السلطان مراد الثاني التي امتـدت أكثر من ثلاثين عاماً (١٤٢٠-١٤٥١م)، حيث عني عناية فائقة بتربية ابنه محمد الفاتح تربيـة سليمة قوية، ترسي دعائمها عناية بالعقل والفكر دون إغفال الاهتمام بالصحة والبنيـة، حتـى يشب الفاتح متعلماً مثقفاً حكيماً، ليدير شئون الحكم في سلطنته بحكمة ودراية، تتفق مع رغبـة أبيه السلطان مراد الثاني في أن يكون ابنه الفاتح قادراً على القيام بكل المهام المناط بها، سواء في الناحية العسكرية أو في إدارة شئون الحكم بالحكمة والقوة والدهاء والقدرة على اسـتيعاب كل الأمور المتعلقة بشئون السلطنة، بدراية وحنكة، وأن تكون للسـلطان الغلبـة علـى آراء المستشارين، متى اقتضت مصلحة السلطنة والسلطان ذلك، ومتى تطلبت الحاجة اتخاذ القـرار المناسب. ومن أجل ذلك اختط السلطان مراد الثاني لابنه أن يتوازى مسار تعليم ابنه مع ثقافته

في نفس المضمار بالتساوي. وبالرغم من أن السلطان محمد الفاتح كان محدداً له منذ بداية تعلمه أن يتعمق في أمور السياسة والحرب وعلومها، إلا أن تعلم الثقافة لاحقه ولازمه مع هدفه الأساسي في تعلم السياسة وإدارة شئون السلطنة، وانصهر هذا بذاك، وصار السلطان الفاتح مهيئاً لإنجاز فتوحات ناجحة بفضل تعمقه في تعلم ما يتصل بهذه الأمور، وفي نفس الوقت صار من السلاطين المثقفين الذي يغشون مجالس الأدب والفكر والثقافة فلا تفتر له همة ولا يتسلل الملل إلى قلبه حينما ينصت ويستمع، كذلك الحال حينما يتحدث، حيث كان الحاضرون يستمعون وينصتون لينهلوا من نبع فياض من الثقافة والمعرفة ينساب من لسان هذا السلطان القوى المثقف، هذا الجانب المضئ في شخصية السلطان محمد الفاتح، لم يكتسبه السلطان بسهولة عند بداياته الأولى. فقد كان السلطان في صدر شبابه ومنذ ميعة صباه عازفاً عن التعليم والدرس وراغباً عنه، مما حدا بوالده السلطان مراد الثاني أن يستعين بالمولى أحمد بن إسماعيل الكوراني الذي كان ذا مهابة واحترام، وكان يتصف بطول القامة واللحية الكثة وحسن الطلعة، مما أسبغ عليه قوة الشخصية. وتعتقد المؤلفة أن السلطان مراد الثاني كان يستشعر عزوف ابنه محمد الفاتح عن تلقى العلم والثقافة والمعرفة الأخرى، لأنه أعطى المولى الكوراني قضيباً ليزجر به الفاتح بالشدة، إذا لم يتقبل التعلم باللين والاستحسان. وحينما دخل المولى الكوراني على تلميذه محمد الفاتح بادره قائلاً : أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري، فضحك الفاتح وسخر من كلامه، فعاجله المولى الكوارني بضربة قوية ارتاع منها الفتى، وعاد إلى رشده، وأيقن أن الأمر جاد فأذعن ورضخ لأستاذه وأدرك أنه أمام معلم قوي الشكيمة، لا يعرف إلا الجد في عمله وتعليمه وأنه يختلف تماماً عن كل الأساتذة الذين سبق له التعامل معهم، ولا سبيل للفاتح إلا الانصياع والطاعة لنهل العلم والثقافة والمعرفة، وكانت هذه "الضربة" التي وكزه بها المولى الكوراني هي البداية لانفتاح شخصية الفاتح والخطوة الأولى واللبنة المبكرة في بناء الشخصية المتعددة المناحي للفاتح بعد أن حلّت مغاليقها وأقفالها.

ولفرط اهتمام السلطان مراد الثاني باستكمال شخصية ابنه الفاتح ليكون نموذجاً للسلطان ذي الفكر المستنير والشخصية المتعلمة الثقفة، كان إذا سمع عن عالم برع وبرز في علم من العلوم أو فن من الفنون أو عرفت عنه الخصال الكريمة وحسن السجايا والفضيلة أحضره إلى ابنه محمد لينهل منه الولد التحصيل الوافر في نواحي السياسة والفكر والثقافة والأدب والفن

والاستراتيجيات، وللوصول إلى ذلك، طرق الفاتح كل باب من الاستماع والتعلم والقراءة والمعايشة بأسلوب يحسد عليه في صبره ودأبه. وتتبع الفاتح كل مورد عذب يعب منه ما يروى ظمأه، واستمر ينقب ويبحث ويختزن في ذاكرته اللامعة وذهنه الخصيب وقريحته الوقادة، حتى صار الفاتح بحراً تتلاطم أمواجه بضروب الأدب والسياسة والفكر، بفضل استعداده الطيب لكي يصبح سراجاً في سماء حكمه يشهد له بالقدرة والكفاءة كل من يعايشه أو يسمع عنه.

ولاشك أن كوكبة العلماء الذين تتلمذ عليهم الفاتح كان لهم سبق الفضل في ذلك، ويحضرني هنا على سبيل المثال لا الحصر : المولى محمد بن فرامز خسرو، الذي كان إماماً مقتناً محققاً طويل الباع راسخ القدم في العلم، كذلك المولى ابن التمجيد الذي كان يتميز بالصلاح والتقوى وإجادته للشعر الجيد سواء المنظوم بالعربية أو اللغة الفارسية، وأيضاً المولى خير الدين الذي اشتهر بالبراعة في إلقاء دروسه وفي نفس الوقت كان معروفاً عنه حسن الطبع وظرف الطُرف والنوادر بالإضافة إلى غزارة علمه، زد على ذلك المولى سراج الدين الحلبي الذي علم الفاتح سرعة الكتابة دون إغفال حسن الخط.

وإلى جانب هؤلاء الشيوخ والفقهاء، أحضر السلطان مراد الثاني لابنه الفاتح أشهر الأساتذة في الرياضيات والجغرافيا والفلك والتاريخ واللغات المختلفة، فتعلم عليهم وأتقن اللغة العربية واللغة الفارسية واللغة اللاتينية واللغة اليونانية واللغة السلافية والعبرية فضلاً عن اللغة التركية، مما جعله يحتفظ في قرار فكره المكين بقدر كبير من أصول الكتابة. أما الدرة الفريدة في عقد معرفته فقد تمثلت في ختم القرآن الكريم، مما كان له أكبر الأثر في غبطة والده السلطان مراد الثاني، لذلك أكرم المولى الكوراني وأنعم عليه بالمال الكثير والعطايا والهبات القيمة(١).

وإذا كانت هذه السمات تمثل أهم الوقفات والجوانب الشخصية لمحمد الفاتح، فإننا قد نعتبره من إعداد المثقفين المتعلمين وعلى درجة من الرقي الفكري الواعي. وقد تكون لنا وقفة في هذا الاستنباط، لأن المعروف أن الثقافة تمتد طولاً وعرضاً لتشمل الإلمام بعلوم وفنون كثيرة ومتنوعة، وأن العلم يمتد عمقاً، أما التعليم فإنه منهاج وطريقة. إذن فمنهاج التعليم الذي أراده

---

(١) الرشيدي، سالم : محمد الفاتح، ص ٣١٥، ٣٦٦. القاهرة مطبعة الحلبي ١٩٥٦م.

السلطان مراد الثاني لابنه الفاتح هو أن يكون لدى ابنه أحاطه موسوعية بكثير من ألوان المعرفة. في نفس الوقت أراد له أن يتعمق في الشئون السياسية وإدارة السلطنة بما في ذلك المسائل العسكرية، وكأنه مختص في هذه الاختصاصات، حسبه أن يسد ثغرة من ثغراتها، وأن يقف على كل رافد من روافدها يهل منه ويضيف إليه. وبذلك تتحقق في السلطان الفاتح الشروط الأساسية لتكوين المثقف المتعلم الذي نشعر أمامه بتحقيق كمال وجوده، وأن مرتبته تكاد أن تعلو به إلى أسمى درجات الإنسانية المثقفة المتعلمة. وإذا استعرضنا هذه الشروط لوجدناها قد تحققت في شخصية الفاتح. فقد كان على معرفة طيبة بلغته القومية متقناً قراءاتها وكتابتها، لست أعنى أنه كان لغوياً مختصاً ضليعاً، لكنني أقول إنه كان على دراية بأساليب لغته، قارئاً لمشاهير كتابها، ذواقة لتراثها الأدبي من رصين الشعر وجيد النثر، عارفاً بكبار شعرائها وأدبائها في القديم والحديث.

ثاني الشروط التي تحقق لوصف الفاتح بأنه كان ثقيفاً، أنه كان على معرفة طيبة بأكثر من لغة أجنبية، مما جعله يتابع الإنتاج الفكري والثقافي في غير لغة بلده، لأنه ثمة فارق كبير يستشعره المثقفون حين يقرأون أي نص بلغته الأساسية دون ما وساطة الترجمة، وبين نفس النص حينما يقرأ مترجماً.

الشرط الثالث أن الفاتح كان على معرفة طيبة بتاريخ بلاده القومي ومكانتها الحضارية ومعاركها وحروبها ومفاخرها ورجالاتها، سواء من الأقدمين أو المعاصرين ليقتدي بهم.

ورابع الشروط التي تحققت في شخصية الفاتح لمنحه لقب "الثقيف" أنه كان على دراية ممتازة بشئون دينه وفروضه وواجباته بل إنه تعدى ذلك بختمه للقرآن الكريم.

وخامس الشروط أن يكون المثقف المستنير ملماً ومتعمقاً في إحدى نواحي المعرفة الأساسية، وبالنسبة للفاتح فقد كان خبيراً بشئون السياسة والفتوحات ولعل انجازاته في هذه الميادين لا تحتاج إلى إضافة أو تعليق، كذلك كان الفاتح على دراية ببعض المعارف العامة الحديثة في زمنه، ولم يكن بمنأى عن الأحداث والكشوف في مختلف المجالات التي تهم الحياة اليومية للسلطنة. وكم يرفع قدر المثقف أن يكون له بعض الإلمام بمختلف الفنون سواء أكانت من التراث أم من أمم أخرى اطلع على ثقافتها بحكم معرفته بلغة هذا البلد الأجنبي.

ثمة لون آخر من ألوان المعارف العامة، أحرى بالمثقف أن يلم به وأن يعرف مداخله ومخارجه، وذلك هو ما يختص بالحضارات الإنسانية والفلسفات المختلفة، وكيف تطورت هذه الحضارات، متى سادت ومتى بادت، وكيف تفاعلت هذه وتلك، وتطورت هذه عن تلك، والإستقراء المتأني لشخصية الفاتح، تضم هذه الميزة لتصنفه بين المثقفين. أما الشيئان المهمان اللذان يكملان الشروط المهمة للمثقف واللذان توافرا في شخصية الفاتح فهما معرفته العامة بالمبادئ والثورات والنظم السياسية والحروب الكبرى إلى غير ذلك من أمور كان لها شأن كبير في البناء الحضاري للإنسانية.

أما آخر هذه الشروط فهو معرفة المثقف بالاتجاهات الفكرية العالمية في القديم والحديث والمراحل التي مر بها الفكر الإنساني، متى كان حراً ومتى كان مقيداً ومتى كان تابعاً للدين، متأثراً به، ومتى كان متحرراً إلا من العقل وحده، وما هو الفكر العلمي، وفي أي العصور امتحن هذا الفكر، واعتقد أنني لم أجاوز قصدي حين أقول إن السلطان محمد الفاتح قد ألم بأشتات من الشروط العشرة المطلوبة لكي يكون ثقيفاً واعياً مستتيراً. لكن أضيف أن الفاتح ومن خلال المصادر العربية التي قد تكون أكثر حيدة مما كتب في زمن حكمه. كان على أية حال مثقفاً حاذقاً لأمور شتى، لعل أبرزها السياسة وفنون الحرب، لكن النواحي الأخرى الثقافية والعلمية والفكرية نالت من اهتماماته حظاً وافراً وفتح لها قلبه وعقله حتى صارت ملازمة لشخصيته ومميزة لسماته الفكرية والإنسانية.

وبعد تولي محمد الفاتح السلطة عام ١٤٥١م، لم تشغله أمور السلطنة ومهامها الجسام عن مواصلة التعلم ومتابعة الدرس، وكان حصيفاً حينما أتخذ من أئمة عصره في مناحي العلم والثقافة المختلفة أساتذة له، من بين هؤلاء "سنان باشا"، الذي كان يتميز بفكر وقاد وألمعية في ثقافته وعلمه، كذلك "خطيب زاده" و "خوجه زاده" اللذان يعدان حتى وقتنا هذا من سادة أئمة علم الكلام المبرزين فيه. ومن بين هؤلاء الأساتذة الأعلام الذين نهل على أيديهم محمد الفاتح "المولى محب الدين بن الخطيب" والذي اختاره الفاتح معلماً لصيقاً لنفسه لامتيازه بفصاحة اللسان وطلاقته وجرأة جنانه ومقدرته البينة على المحاورة والمناظرة. وأثمرت معايشة محمد الفاتح لهؤلاء العلماء واستجابته لتقبل العلم وفروع المعرفة والثقافة منهم، على انكبابه في قراءة التاريخ، سيما ما يتعلق بسير العلماء في الشرق والغرب، كما شغف بدراسة الفلسفة اليونانية بمذاهبها المختلفة.

والشئ اللافت للنظر في شخصية السلطان محمد الفاتح، والذي سمي بفكره إلى مرتبة الثقافة الراقية، هو حبه للفنون بمختلف فروعها، وهو ما نسميه اليوم بالفنون الجميلة، فكان الفاتح مولعاً وشغوفاً بالشعر والموسيقى والتصوير والنقش.

وبذلك ضم الفاتح في قريحته أزهار يانعة من بساتين الفكر المختلفة بثقافاتها المتباينة، فاكتملت له ثقافة علمية وأدبية فنية ممتازة، قلما اجتمعت وتحققت في شخصية أمير من الأمراء حتى في عصرنا الحاضر، وقد لا نتجاوز حدود الوصف إن قلنا إن السلطان محمد الفاتح كان أشبه بموسوعة تمشي على قدمين.

وبعد فتح القسطنطينية، عنى الفاتح بإنشاء المدارس والمعاهد في أنحاء السلطنة، ولم يقتصر وجودها على الأماكن القريبة من مقر الحاكم، كما يحدث في معظم البلدان. وكانت أول مدرسة أنشئت في الدولة العثمانية هي التي أنشأها السلطان "أورخان" (١٣٢٦-١٣٦٠) بمدينة "أزنيق" وبعد ذلك سار السلاطين الذين خلفوه على نهجه وانتشرت فيما بعد المدارس في بروسه وأدرنه وغيرها من البلدان.

بيد أن السلطان محمد الفاتح، تميز عن سابقيه من السلاطين، أو حتى الذين خلفوه، فقد كان الفاتح يتميز عليهم بثقافته العالية، وجهوده المثمرة في نشر العلم وإنشاء معاهده المتخصصة. كذلك إسهاماته في إصلاح وتنظيم وتطوير مناهج التعليم وما أسبغه من رعاية كريمة غامرة على أهل العلم والفن والأدب. وفي هذا المجال يقول أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي عن السلطان محمد الفاتح «كان من أعاظم سلاطين بني عثمان وهو الملك الفاضل النبيل العظيم الجليل أعظم الملوك جهاداً وأقواهم إقداماً واجتهاداً وأثبتهم جأشاً وفواداً وأكثرهم توكلاً على الله واعتماداً، وهو الذي أسس ملك بني عثمان وقنن لهم قوانين صارت كالأطواق في أجياد الزمان وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وأثار باقية في صفحات الليالي والأيام ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام .... وقد أسس في اسطنبول للعلم أساساً راسخاً لا يخشى على شمسه الأفول، وبنى بها مدارس كالجنان لها ثمانية أبواب سهلة الدخول وقنن بها قوانين تطابق المعقول والمنقول فجزاه الله خيراً عن الطلاب ومنحه بها أجراً وأكبر ثواب فإنه جعل لهم أيام الطلب ما يسد فاقتهم ويكون به من خمار الفقر أفاقتهم وجعل بعد ذلك مراتب يرتقون إليها ويصعدون بالتمكن والاعتبار عليها إلى أن يصلوا إلى سعادة الدنيا ويتوسلون بها

أيضاً إلى سعادة العقبى وأنه رحمه الله تعالى استجلب العلماء الكبار من أقصى الديار وأنعم إليهم وعطف بإحسانه إليهم كمولانا على القوشجي والفاضل الطوسي والعالم الكوراني وغيرهم من علماء الإسلام وفضلاء الأنام، فصارت اصطنبول بهم أم الدنيا ومعدن الفخار والعليا، واجتمع فيها أهل الكمال من كل فن، فعلماؤها إلى الآن أعظم علماء الإسلام وأهل حرفها أدق الفطناء من الأنام وأرباب دولتها هم أهل السعادة .... فللمرحوم المقدس قلادة منن لا تحصى في أعناق المسلمين لا سيما العلماء المكرمين» (٢).

وكان السلطان محمد الفاتح حكيماً، وله نظرة شاملة لنشر العلوم والفنون في جميع ربوع السلطنة، لذلك أنشأ المدارس في المدن الكبيرة والصغيرة بل عني بإقامة المدارس في المناطق النائية وأوقف عليها الأوقاف العظيمة، ووضع الفاتح منهاجاً ونظاماً للتعلم، لذلك رتب المدارس في درجات ومراحل ووضع لها المناهج وحدد العلوم والمواد التي تدرس في كل مرحلة وقنن نظم الامتحانات، فلا ينقل الطالب من مرحلة إلى أخرى إلا بعد اجتيازه إمتحاناً عسيراً جاداً، وكان الفاتح يشهد هذه الامتحانات بنفسه كذلك كان دائم الزيارة لمختلف المدارس ليستمع إلى الدروس من الأساتذة ويتابع الطلاب ويوصيهم بالجد والاجتهاد ويجزل العطاء للنابهين من الطلاب، وفي نفس الوقت لا ينسى الإغداق على الأساتذة المتميزين.

وكان التعليم في هذه المدارس بالمجان، وكانت هذه المدارس تعد بمثابة دور العلم الشاملة، حيث كانت تدرس فيها علوم النحو والصرف والمنطق وعلم الكلام والأدب والحساب وعلوم البلاغة والهندسة والفقه والحديث والتفسير. ويقول الشوكاني (٣) المتوفى عام ٨٨٦هـ إن "السلطان محمد الفاتح هو الذي أسس ملك بني عثمان، وكان مائلاً إلى العلماء مقرباً لهم يخالطهم بنفسه ويأخذ عنهم في كل علم، ويحسن إليهم ويستجلبهم من الأقطار النائية ويرأسهم، ويفرح إذا دخل إلى مملكته واحد منهم".

---

(٢) بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الجزء السابع ص٣٤٤، القاهرة، ١٤١٤هـ.

(٣) الشوكاني، محمد علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الجزء الثاني ص ٢٦٩ – الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ القاهرة.

ولذلك كان السلطان الفاتح محبوباً من سائر العلماء، فشكروه ومدحوه كثيراً، ومما قيل في مدحه ما جاء في كتاب نظم العقيان من أعيان الأعيان للسيوطي [٤] إن الشيخ شهاب الدين الكوراني قال في مدحه :

سلطاننا الباهر الباهي له شرف يسمو على البدر والجوزاء والشهب

محمد أنت فخر القوم قاطبة سميت بدر السماء من أنجم العرب

كذلك قال الكوراني في مدح السلطان محمد الفاتح، ما يدل على امتنان أهل العلم والأدب لأفضال هذا السلطان، حيث قال :

رياض مدحك أزهار مفتحة وصوت شعري لها كالبلبل الطرب

لك البقاء مدى الأيام فوق علا وضدك ألا يترك مجدول في نصب

ويقول الأقسكي [٥] كان محمد الفاتح عالماً كبيراً عطوفاً على أهل العلم يؤثرهم ببره وينشئ في قلب عاصمة ملكة الجديدة جامعة علمية كبيرة لازالت مبانيها الفخمة قائمة حول مسجده المعروف بإسمه، تشهد لبانيها بمبلغ عنايته بالعلم وبالغ عطفه على أهله، وتنطق بما كان للعلماء من عزة وسؤدد في عصره.

وكان اهتمام السلطان محمد الفاتح بإنشاء المدارس عظيماً مما كان له بالغ التأثير في الشئون العلمية والتعليمية بالسلطنة. ومن أشهر مدارس الفاتح التي أنشأها هي المدارس الثمانية (صحن ثمان). وقد أنشأها إلى جانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية على كل جانب منه أربع يتوسطها صحن فسيح لذلك سميت هذه المدارس أيضاً بمدارس الصحن، وفيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته. وقد ألحقت بهذه المدارس مساكن للطلبة يتناولون فيها طعامهم، كما يتناولون منحة مالية شهرية. وأنشئت بجانبها مكتبة خاصة وكان يشترط فيمن يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل الصلاح والعلم، وعارفاً بأسماء الكتب والمؤلفين ويعير الطلبة

---

(٤) السيوطى، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: نظم العقيان من أعيان الأعيان – كتبه فليب ص١٢٧. نيويورك ١٩٢٧م.

(٥) الأقسكي، علي همت: العاهل العثماني أبو الفتح السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية وحياته والعدلية. تعريب محمد إحسان بن عبد العزيز ص٧، مطبعة السعادة – مصر ١٩٥٣م.

والمدرسين ما يطلبونه من الكتب بطريقة منظمة ودقيقة. ويسجل أسماء الكتب المستعارة في دفتر خاص. وهذا الأمين مسئول عن سلامة أوراقها ويجرى التفتيش على هذه المكتبة كل ثلاثة أشهر على الأقل.

ومما لا شك فيه أن الثقافة الشخصية للسلطان محمد الفاتح، كان لها أكبر الأثر في تقديره للعلم وأهله من العلماء، لأنه عرف من خلال تجاربه الذاتية أنه ليس أعرف بمكانة العلماء وأقدرهم ممن مارس العلم وجهد في سبيله. وقد كان السلطان محمد الفاتح عالماً بحق، قرب إليه العلماء وأعلى من شأنهم ورفع قدرهم وشجعهم على العمل والإنتاج وبسط لهم يدا ندية سخية لا تضن بالبذل والعطاء، وكان السلطان الفاتح يجل العالم لعلمه وفضله أيا كانت جنسيته وأيا كان دينه وأيا كان موطنه.

ومما يروى عن السلطان الفاتح في مدى احترامه وتقديره للعلم وأهل الفضل من العلماء أنه عقب فتح القسطنطينية دخل على الشيخ (آق شمس الدين) – الذي قد بشر بفتح القسطنطينية – في خيمته وهو مضطجع فلم يقم له الشيخ فقبل السلطان محمد الفاتح يده وقال جئتك لحاجة عندك. قال : ما هي ؟ قال : أريد أن أدخل الخلوة عندك أياماً، فقال الشيخ لا، فأبرم عليه مراراً وهو يقول لا، فغضب السلطان محمد وقال إن واحداً من الأتراك يجئ إليك وتدخله الخلوة بكلمة واحدة، قال الشيخ إنك إذا دخلت الخلوة تجد هناك لذة تسقط السلطنة من عينيك وتختل أمورها فيمقت الله إيانا فعليك أن تفعل كذا وكذا، وذكر ما بدا له من النصائح. فقام السلطان محمد وودعه والشيخ مضطجع كما هو على جنبه. ولما خرج السلطان قال لابن ولي الدين ما قام الشيخ لي وأظهر التأثر من ذلك، قال ابن ولي الدين إن الشيخ شاهد فيكم الغرور بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسر للسلاطين العظام وإن الشيخ مربِ، فأراد بذلك أن يدفع عنكم الغرور، ثم بعد ذلك دعا السلطان الشيخ في الثلث الأخير من الليل وخفنا عليه من ذلك، فذهب إليه وقال : فلما ذهبت إليه تبادر إلي الأمراء يقبلون يدي، قال وجاء السلطان محمد والليل ظلم وما أدركته بالبصر بسبب الظلمة لكن عرفته روحي فعانقته وضممته إلى ضماً شديداً حتى أرتعد وكاد أن يسقط فما خليته إلى أن يزول الحال وقال السلطان : كان في قلبي شئ في حق الشيخ فلما ضمني إليه أنقلب ذلك حباً ثم أنه دخل الخيمة فصاحبه حتى طلع الفجر وأذن للصلاة وصلى السلطان خلفه ثم قرأ الشيخ الأوراد والسلطان جالس أمامه على ركبتيه يستمع الأوراد.

وحدث أيضاً أن السلطان الفاتح بعث مع أحد خدامه بمرسوم إلى المولى الكوراني، وكان آنذاك يتولى قضاء العسكر فوجد فيه أمراً يخالف الشرع فمزقه وضرب الخادم، وشق ذلك على السلطان الفاتح وتغلبت عليه ثورة الغضب فعزل (الكوراني) من منصبه ووقع بينهما نفور وجفوة. ورحل المولى الكوراني إلى مصر حيث احتفي به سلطانها (قايتباى) وأكرمه غاية الإكرام وأقام عنده مدة من الزمن. وما لبث الفاتح أن ندم على ما بدر منه، فكتب إلى السلطان (قايتباى) يلتمس منه أن يرسل إليه (المولى الكوراني) فحكى السلطان (قايتباى) كتاب السلطان محمد إلى المولى المذكور، ثم قال : لا تذهب إليه فإني أكرمك فوق ما يكرمك هو فقال المولى نعم هو كذلك إلا أن بيني وبينه محبة عظيمة كما بين الوالد والولد. وأما الذي جرى بيننا شئ آخر وهو يعرف إني أميل إليه بالطبع، فإذا لم أذهب فقد يفهم أن المنع من جانبك فتقع بينكما عداوة. فاستحسن السلطان (قايتباى) هذا الكلام وأعطاه مالا جزيلاً وهيأ له ما يحتاج من حوائج السفر وبعث معه هدايا عظيمة إلى السلطان محمد. وبعد عودة (الكوراني) إلى القسطنطينية أسند إليه الفاتح القضاء ثم الإفتاء وأجزل له العطاء وأكرمه إكراماً لا مزيد عليه.

ومن فرط حب الفاتح للعلماء أنه كان يصطحبهم في غزواته وحروبه وكانوا يشاركون السلطان في إثارة حماس الجنود ويتلون عليهم آيات الجهاد والنصر.

مما يروى عنه أنه كان يرسل إلى (خوجه جهان) أول كُتّاب الهند في عصره ألف دوقة كل عام، وكذلك إلى المولى (عبد الرحمن الجامي) من أعاظم علماء وشعراء فارس في ذلك العهد. وقد دأب محمد الفاتح منذ كان أميراً على (مغنيسيا) على مراسلة العلماء والمثقفين من الأمراء في فارس وغيرها. وبقي الفاتح على هذه السنة الحسنة بعد توليه السلطنة وضاعف ما كان يسبغه على العلماء والأدباء من تكريم ورعاية ومنحهم كل إجلال وتقدير وممن كان يكاتبهم السلطان من علماء مصر، الشيخ (محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود) المعروف بـ (محي الدين الكافييجي) الرومي الأصل وهو أستاذ (السيوطي) العالم المصري المعروف. وقد أثنى عليه العلماء والمؤرخون المصريون ثناء عظيماً لعلمه وخلقه وورعه وكان الفاتح يكافئه ويهدي إليه الهدايا السنية.

وما سمع الفاتح قط عن عالم في بلده أصابه عوز وإملاق إلا بادر إلى مساعدته ومنحه ما يستعين به على الحياة والعيشة الرغدة، بل إنه جعل للعالم الذي يعتزل علمه لسبب من الأسباب راتبا خاصاً يعرف بـ (راتب التقاعد) يستعين به على تكاليف الحياة صونا له عن ذل السؤال وصونا للعلم أن يمتهن، وفي كثير من الأحيان كان لا يقل هذا الراتب عن الراتب الذي كان يتناوله أثناء عمله، وكان من أثر ما أفاضه السلطان محمد الفاتح على العلم وأهله من رعاية سابغة وتقدير كريم وبذل سخي أن توافد إلى رحابه العلماء والأدباء والشعراء والفنانون من كل حدب وصوب، واجتمع في بلاطه من جميع هؤلاء عدد كبير من الترك والفرس والعرب واليهود والروم واللاتين.

وكان السلطان محمد الفاتح يقضي الأوقات التي يستجم فيها من الحروب بالقسطنطينية في عقد المجالس العلمية والأدبية فيباحث العلماء ويعقد بينهم المناظرات المختلفة وقد يشتد وطيس بعضها وتمتد عدة أيام كتلك المناظرة التي جرت بين المولى (مصلح الدين خوجه زاده) والمولى محمد المشهور بـ (زيرك) والتي استمرت سبعة أيام. وجرت عادة الفاتح في شهر رمضان أن يستحضر بعد صلاة الظهر، جماعة من العلماء المتضلعين في تفسير القرآن، فيقوم في كل مرة واحد منهم بتفسير آيات من القرآن الكريم وتقريرها ويناقشه في ذلك سائر العلماء، فكان هذا الدرس الديني بمثابة امتحان لهؤلاء العلماء واختبار لمقدرتهم وكفايتهم، مما كان يدفعهم إلى التنافس في الإجادة والإتقان، وبعد الفراغ من الدرس يمنح السلطان كلاً منهم مكافأة مالية جزيلة.

وكان العالم في حضرة الفاتح عرضة دائمة للسؤال والامتحان. وكان يعجبه في العالم أن يكون حاضر البديهة سريع الإجابة. وقد حدث يوما أن سأل السلطان الفاتح وهو في طريق عودته إلى القسطنطينية - (المولى محي الدين) المعروف بابن المغنيسي الذي اشتهر بالجد في التحصيل والانكباب على الدرس، عن بيت عربي فقال المولى أتفكر فيه بالمنزل ثم أجيب، فقال له السلطان محمد: يحتاج إلى فكر في بيت واحد؟ فسكت المولى ابن المغنيسي وقال السلطان لبعض خدامه: أحضر مولانا (سراج الدين) وكان ذلك مُوَقّعاً للديوان العالي فحضر فسأله عن ذلك البيت فقال: هو للشاعر الفلاني من قصيدته الفلانية من البحر الفلاني ثم قرأ سياق البيت وسماته وحقق معنى البيت فقال السلطان لابن المغنيسى ينبغي أن يكون العالم هكذا في العلم والمعرفة والتتبع. وحتى في ميادين الحرب كان السلطان الفاتح ينتهز الفترات

التي يتوقف فيها عن القتال فيعمد إلى مناظرة من يكون معه من العلماء. وبلغ من فرط حبه للعلم والعلماء وإظهار منزلتهم العالية، أنه كان يقتدي بهم حتى في ملابسهم، مما حدا به أن يرتدي لباس العلماء وينبذ زي السلطنة الفاخر.

وكان السلطان محمد الفاتح حريصاً على تهيئة جو الوقار العلمي واحترام العلماء وأدب الحوار في المجالس العلمية والأدبية التي يحضرها. وكان يطلب من كل مناظر أن يكون أمينا مدققا محققا عند عرضه لما يقول، فلا يسمح بالمغالطة أو إدعاء العلم والمعرفة أو الغش والتدليس أو الغرور. وكان يحب في العالم أن يكون قدوة حسنة في علمه وسلوكه مع تمسكه بدينه ومبادئه، لذلك كان لا يتردد في استبعاد ونبذ العالم الذي يصدر منه ما يخالف أمور الدين أو السلوك القويم وكذا المروءة والحلم عند الإجابة على الأسئلة التي توجه إليه، مهما كانت درجة العالم حتى لو كان من المقربين إليه.

ولإذكاء روح التنافس العلمي الشريف، وتشجيع العمل ودقة الإنتاج العلمي أو الأدبي وأصالته، كان يطلب إلى مجموعة من العلماء الكتابة في موضوع واحد، حتى يدفعهم إلى التنافس في الإجادة والدقة والإتقان. وانعكس ذلك في إنتاج متميز، به من الإجادة ما يعبر عن جهود الفريق المتكامل الجماعي، وكان ذلك يسعد الفاتح كثيراً فكان يجزل العطاء للعلماء ويكافئهم بسخاء، كما أنه كان يمنح العلماء المتميزين الخلع السنية.

وتميزت الفترة التي تولى فيها الفاتح شئون السلطنة بازدهار الفكر وغزارة الإنتاج في مجالات الفكر والثقافة والعلم، فأثرى الحياة بكل مناحيها، وازدانت السلطنة بكوكبة لامعة من شموس العلم والدين واللغة مثل مصلح الدين مصطفي القسطلاني، والمولى علاء الدين علي الفناري، والمولى سراج الدين محمد بن عمر الحلبي، والشيخ مصلح الدين القوجوي، والشيخ عبد الرحمن بن أحمد الجامي. كذلك العالم الفاضل الكامل يعقوب الذي كان طبيباً ماهراً، وكان محل ثقة وتقدير الفاتح، حتى أنه عينه حافظاً للدفتر بالديوان الهمايوني ثم وزيراً. كذلك العالم العجمي اللاري الذي برع في الطب وأيضاً العابد الزاهد المشهور بابن الذهبي الذي اتصل بخدمة السلطان محمد وأكرمه لطبه وصلاحه وورعه، وكان شيخاً نورانيا دائم القراءة للقرآن الكريم وعالماً بالنبات والأعشاب. كذلك يجب عدم إغفال اسم شمس الملة والدين محمد بن حمزة الشهير بآق شمس الدين الذي كان دائرة معارف طبية، فقد كان طبيباً للأبدان والأرواح،

وله في الطب تصانيف، وكان من أوائل العلماء الذين آمنوا بالتداوي بالأعشاب النباتية والطب الطبيعي. ومن شدة ولع السلطان محمد الفاتح باللغة العربية وإثراء التراث الإسلامي، حرصه على إثراء لغة القرآن بكل ما هو أصيل ورصين من كتب التراث، أن أمر بترجمة كتاب بطليموس إلى اللغة العربية.

وكان كلما سمع عن كتاب في فروع العلوم المختلفة في غير العربية أمر بترجمته ونقله إليها. وكان المشهور المولى علي قوشجي وهو من أشهر علماء عصره في الرياضيات والفلك، كلما ألف كتاباً بالغة الفارسية، ترجمه إلى اللغة العربية وأهداه للفاتح إيمانا منه بحب الفاتح للغة العربية وحرصه على إثرائها بكل ما هو حديث ومفيد.

وليس أدل على اهتمام الفاتح باللغة العربية من أنه طلب إلى المدرسين بالمدارس الثمان أن يجمعوا بين الكتب الستة في علم اللغة كالصحاح والتكملة والقاموس وأمثالها. ودعم الفاتح حركة التأليف والترجمة لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشر المكتبات العامة. على أن أهم ما يسترعي النظر في السلطان الفاتح ويستثير منا عظيم الإعجاب والتقدير هو ما اتصف به من الناحيتين الدينية والعلمية على السواء من رحابة صدر وسعة أفق وسماحة نفس وإدراك صحيح لمعنى حرية الضمير وحرية الرأي والقول، فبرغم ما بلغه من سعة الملك وقوة السلطان ونفاذ الكلمة لم يشأ أن يفرض دينه على أحد ولم يشأ أن يفرض رأيه على أحد، وتبدو لنا سماحة السلطان الفاتح ورحابه صدره وسعة أفق تفكيره وحسن تقديره لحرية الرأي والقول في صورة أروع وأبهى في الميدان العلمي.

ولم يكن شغف الفاتح بالقراءة ونهمه إلى الإطلاع يقفان عند حد فكان يقرأ كل ما يرى فيه فائدة ومتعة لعقله وفكره أو يكسبه تجارب من الحياة، فقرأ فيما قرأ كتابا في سيرة (تيمورلنك) وهو الذي هزم جده بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢م) ولم ير في ذلك غضاضة لنفسه أو نيلاً من مقامه. فهذه سماحة فذة وتقدير عظيم لحرية الرأي والكتابة لا نجد لها نظيراً حتى بين العلماء والمفكرين أنفسهم، بل والملوك والسلاطين الذين اعتادوا منذ قديم الزمن أن يعتبروا أنفسهم بمنأى عن النقد حتى لو كان في محله.

ومن خير ما أسداه السلطان الفاتح نحو العلم والعلماء هو ما اتبعه من التنظيم والتنسيق في درجات العلماء ومراتبهم والتمييز بين المناصب والوظائف العلمية كالتدريس والقضاء. وقد

جعل التدريس نفسه درجات وكذلك القضاء درجات فلا يشغل وظيفة من هذه الوظائف العلمية إلا من يثبت كفاءته وأهليته لها. أما الوظائف الصغيرة كالإمامة أو الأذان في مسجد، فكان يكفي فيمن يشغلها أن يكون قد أصاب قدراً من الثقافة الدينية.

وكان السلطان الفاتح يحتفظ بسجل خاص في قصره يثبت فيه أسماء العلماء ومنزلة كل منهم في العلم وما له من كفاية إنتاج. فإذا خلا منصب من المناصب الكبيرة في الدولة رجع إلى هذا السجل واختار للمنصب الشاغر أصلح العلماء له [٦].

ويتهم بعض المؤرخين السلطان الفاتح بالاستكبار والترفع عن الناس والاستنكاف حتى من مؤاكلة وزرائه، وليس ثمة وصف أبعد عن الحقيقة من هذا الوصف، والحق أن السلطان الفاتح برغم ما بلغه من سعة الملك وعزة المجد والقوة لم يداخله الغرور فبقي متواضعاً يخفض جناحه لجميع الناس وبخاصة أهل العلم، وقد رأينا من قبل مجالسته معهم وتواضعه وخشوعه لهم. ويحدثنا صاحب الشقائق النعمانية [٧] فيقول وكان من عادة السلطان الفاتح أثناء وجوده بالقسطنطينية أن يزور قبر الصحابي الجليل أبي (أيوب الأنصاري) فربما مر في ذهابه بمنزل المولى (حسين التبريزي) فيستقبله هذا العالم عند الباب ويقدم إليه شيئا من الحساء فيتناوله منه الفاتح ويشربه ثم يسلم عليه ويذهب إلى سبيله. وكان السلطان في ملبسه أقرب إلى التقشف والزهد، وكان أستاذه (المولى الكوراني) يعظه دائما، ويقول له إن مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط.

وكان هذا العالم يخاطب الوزير والسلطان باسمه، وكان إذا لقي السلطان يسلم ولا ينحني له ويصافحه ولا يقبل يده ولا يذهب إليه يوم عيد إلا إذا دعاه.

وكان كثير من العلماء في عهد الفاتح على مثال المولى الكوراني من الإباء والصرامة والحرص على قول الحق، ولا يغضبون إلا له ولا يرضون إلا له يجابهون الوزراء ورجال الدولة بل والسلطان الفاتح نفسه بأشد القول وأعنفه، ولا يخشون لومة لائم ولا يبتغون من وراء ذلك إلا صلاح الدين والدنيا. وكان إذا أنكر أحد من العلماء على الفاتح شيئا هدده

---

(٦) الرشيدي، سالم : المصدر السابق ص٢٧٦.

(٧) طاشكبري، أحمد بن مصطفى بن خليل، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، على هامش وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٢١٦، ٢١٧. المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠هـ.

بالخروج من مملكته أو يصلح ما ينكر. ولم يكن أشق على نفس الفاتح من أن يرى عالما يخرج من بلاده.

وعن الجوانب الذاتية في قوة شخصية محمد الفاتح ما جاء في فاتحة الفتوحات العثمانية(٨) «ولما جاء السلطان محمد الثاني على العرش جعل يمناه سلاحاً لكسر الأعداء وتسخير البلاد ويسراه وفقا لنشر العلوم وبث روح الحضارة والعمران في المملكة، فأعلى شأن السيف وأوفي حق العلم واختص بصمة جلاده عنوان الفاتح العظيم وبرغبته في العلوم وجعل عاصمة بلاده مستقراً لها، لا ننكر أن قوة بأسه وشدة مراسه كانا منتهى الدرجات، حتى أن وزراءه وأمراءه لم يأمنوا سر عتابه وعقابه، ولكن تلك النفس الأبية التي كانت تود أن تجعل الملوك صاغرة ذليلة أمامها ولا تقنع باسم الفاتح الكبير كانت تنحني باحترام لتقبيل يد أحد العلماء وتقبل خطاب أستاذ لها باسم محمد خاليا من كل إطراء ومديح وكان يحسن التكلم بست لغات ويدرك غوامض كل شئ، وكفي بذلك على مكانته العلمية شاهداً ودليلاً».

بعض مصادر البحث العربية الأخرى

- قطب الدين الحنفي، تاريخ القطبي المسمى : كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام، مكة المشرفة، ص ١١٨، مطبعة السعادة القاهرة ١٣٧٠هـ
- ابن إياس، بدائع الزهور ووقائع الدهور، الجزء الثاني، ص ٢٠٤، المطبعة الأميرية، بولاق – مصر ١٣١١هـ.
- الإسحاقي، محمد عبد المعطى بن أبى الفتح أحمد بن عبد الغنى بن على، لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص ٢٠٢، القاهرة ١٣٠٠هـ.
- الجبرتي، الشيخ عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ ١ ص ١٢، القاهرة، مطبعة بولاق ١٢٩٧هـ.
- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الأول من المجلد السابع، ص ٣٥٧، ٤٣٧ طبعة كاليفورنيا ١٩٢٦م.

---

(٨) كمال، محمد نامق: فاتحة الفتوحات العثمانية. تعريب عبد الله مخلص، المطبعة الوطنية ص٣٠، ٣١. حيفا ١٩٠٩م.

منلا خسرو: أستاذ السلطان محمد الفاتح

(وترجمته العربية لكتاب "أساس الاقتباس" في المنطق لنصير الدين الطوسي)

الأستاذ الدكتور محمد السعيد جمال الدين

جامعة عين شمس – القاهرة

تعنى هذه الورقة بإلقاء الضوء على عمل علمي كبير – ظل مجهولاً إلى الآن – قام به "منلا خسرو" أحد كبار رجال العلم والتعليم في الدولة العثمانية، وهو ترجمته لكتاب أساس الاقتباس في علم المنطق لنصير الدين الطوسي من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية.

منلا خسرو، تعريف

هو محمد بن فرامرز بن الخواجه علي الشهير بمولانا خسرو أو منلا خسرو، كان أبوه أميراً تركمانيا [1].

وتقول دائرة المعارف الإسلامية إنه ابن نبيل فرنسي دخل في الإسلام [2]، وقد ناقش الأستاذ علي همت في كتابه "العاهل العثماني أبو الفتح السلطان محمد الثاني" [3] ذلك بأنه وجد بخط المولى خسرو نفسه على بعض كتبه "أنا الفقير محمد بن فرامرز بن علي"، على أن كلمة فرامرز فارسية ومعناها "فاتح البلاد"، فلا يمكن أن يكون أبوه فرنسي الأصل مسيحياً.

---

(١) الشقائق النعمانية، طبع بيروت ١٩٧٥، ١/١٨٢، وريحانة الأدب للخفاجي، ٢/١٣٥.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ٨/٣٣٩، وكلمة منلا تعني الأستاذ العالم أو رجل الدين.

(٣) ص ١٠٢،١٠٣، وانظر درر الحكام لمنلا خسرو، طبع القاهرة ١٣٠٤هـ ٢/٤٥٣.

وقد كانت لأبيه بنت زوجها لأمير تركماني آخر يسمى خسرو ونشأ مولانا في حجره فغلب عليه اسمه، ولا يُعرف تاريخ مولده. وقد توفي سنة ٨٨٥ هجرية (١٤٨٠م).

وقد تلقى العلوم الإسلامية وبرع فيها، ومن شيوخه مولانا برهان الدين حيدر الهروي المفتي في البلاد الرومية، ومن تلاميذ سعد الدين التفتازاني، ثم عمل مدرساً بمدرسة "شاه ملك" بمدينة أدرنة، ثم انتقل إلى مدرسة يرأسها أخوه تعرف بـ "المدرسة الحلبية" وذاع صيته فاختاره السلطان مراد [الثاني] لتعليم ولده "محمد الفاتح" (٤)، فتوثقت صلته بالفاتح منذ ذلك الحين، حتى إنه عندما تولى أمور السلطنة في حياة أبيه جعل المولى خسرو قاضيا للعسكر المنصور، فلما اضطربت الأمور وانفض عن الفاتح أعوانه ورجاله أصر هو على ملازمته، فلما كَلَّمه الفاتح في ذلك قال "إن المروءة أن يشارك الرجل صاحبه في الدولة والعزل، فأحبه السلطان محبة عظيمة" (٥).

ولما عاد السلطان إلى تولي أمور الدولة – بعد وفاة أبيه – أكرمه إكراماً عظيماً وجعل له في كل يوم مائة درهم وولاه قضاء العسكر ثم قضاء القسطنطينية وما حولها مع التدريس في مدرسة "أياصوفيا"، ولكنه غاضب السلطان مدة لكونه قَدّم عليه المولى "الكوراني"، فذهب إلى "بروسة" سنة ٨٦٧هـ وأنشأ بها مدرسة دَرّس فيها بنفسه حتى استدعاه السلطان سنة ٨٧٤هـ ليجعله المفتي الأكبر لدولته أو شيخ الإسلام، فظل في هذا المنصب حتى توفي قبل وفاة السلطان بعام واحد، فَحُمل جثمانه إلى "بروسة" حيث دفن في مدرسته (٦).

وقد عرف طول حياته بالانصراف إلى العلم ومواصلة الاشتغال به برغم ما تَوَلّاه من مناصب فلم ينقطع يوماً عن الاطلاع والكتابة كما يروي طاشكبري زاده (٧).

وكان عالماً عاملاً محققاً معروفاً بالورع مشهوداً له حتى من منافسيه، قيل للشيخ الكوراني يوماً "إن الشيخ أبا الوفاء يزور المولى خسرو ولا يزورك، فقال: أصاب في ذلك لأن المولى

(٤) محمد الفاتح/ للدكتور سالم الرشيدي، ط. الحلبي بمصر سنة ١٩٦٦ ص ٣٦٥.

(٥) أيضاً.

(٦) مفتاح السعادة لطاشكبري زاده، طبع بيروت ١٩٨٥، ٦١/٢.

(٧) مفتاح السعادة ١٦/٢ والشقائق النعمانية له أيضاً ١٨٥/١.

خسرو عالم عامل تجب زيارته، وإني إن كنت عالماً لكني خالطت السلاطين فلا تجوز زيارتي" (٨).

وكان مع ثرائه الواسع شديد التواضع أخذ على نفسه عهداً أن يخدم نفسه بنفسه وكان يلبس الملابس البسيطة ولكن له هيبة ووقاراً بالغين وكان الفاتح يقدره ويباهي به الوزراء في المحافل ويقدمه عليهم، يقول لهم : انظروا هذا أبو حنيفة زمانه (٩).

إنتاجه العلمي:

أما إنتاجه العلمي فقد خلّف عدة كتب في الفقه والأصول كالغرر وشرحه، ومرقاة الوصول وشرحه مرآة الأصول وقد طبعت في مصر والآستانة (١٠) ورسائل أخرى وعدة حواش في التفسير والبلاغة وغيرها (١١). وكان له مع ذلك اشتغال بالعلوم العقلية حتى برع في المعقول والمنقول (١٢) إلى الحد الذي يصفه السيوطي بقوله:

"وكان إماماً بارعاً متقناً محققا نظارا طويل الباع راسخ القدم" (١٣) وقد انعكست نزعته العقلية في بحوثه الفقهية فقد أصدر في عام ٨٧٣هـ كما يقول صاحب كشف الظنون: رسالة في الولاء، ذهب فيها مذهباً في الولاء خرجه من أقوال الفقهاء وخالف فيه سائر العلماء وقرره في "غرره ودرره"... إلخ" (١٤).

لقد أثارت عليه نزعته العقلية وتحرره في النظر الفقهي ثائرة العلماء في عصره وبعد عصره ولكن ذلك لم يمنع تلميذه السلطان الفاتح أن يستدعيه من "بروسة" بعد هذا التاريخ ليتولى منصب الإفتاء ومشيخة الإسلام.

---

(٨) الشقائق ١/١٤٨.

(٩) الشقائق، أيضاً.

(١٠) ريحانة الأدب ٢/١٣٥ ومعجم المطبوعات العربية ص ١٧٩٠.

(١١) انظر الشقائق ١/١٨٦-١٨٧ ومفتاح السعادة ٢/٦١-٦٢ ودائرة المعارف الإسلامية المجلد الثامن ص ٣٣٩ حرف الخاء النسخة المترجمة، وبروكلمان ٢/٢٦٢.

(١٢) انظر الاعلام للزركلي ط ٣ جـ ٧ ص ٢١٩.

(١٣) محمد الفاتح للدكتور الرشيدي ص ٢٦٥ نقلا عن "نظم العقيان" للسيوطي.

(١٤) كشف الظنون، ط استانبول ١/٥٦٩ وانظر درر الحكام ٢/٣٦.

بل يذكر لنا أحد الباحثين في تاريخ السلطان الفاتح أنه قد وكل إلى المولى خسرو الإشراف على مجمع من العلماء لتقنين الشرع الإسلامي ووضع الأنظمة اللازمة للدولة من بين آراء الفقهاء المسلمين وخاصة الأحناف، وقد نهض بهذه المهمة وأنجزها (١٥).

نسبة الترجمة إلى منلا خسرو:

ولكن أحداً من مترجميه – فيما اطلعنا عليه من مراجع – لم يذكر بين مؤلفاته وأعماله العلمية ترجمته لأساس الاقتباس (الذي يعد أوسع الكتب الفارسية وأكثرها قيمة في علم المنطق) وإن كانوا جميعاً لا يقصدون حصر هذه الكتب وإحصاءها، ومن أقدمهم طاشكبري زاده، وهو باحث تركي له عنايته الخاصة بالكتب والمؤلفات، فقد أورد أسماء عدة مؤلفات له في مفتاح السعادة وفي الشقائق النعمانية، ثم يقول "وله غير ذلك أيضاً" (١٦)، فلعل هذا الكتاب من بين ما أهمل تعيينه وخاصة أنه لم يؤلفه بل قام بنقله إلى العربية فحسب، ولكن الأمر المقطوع به – كما يبدو من النسخة التي عثرنا عليها بمكتبة "شيخ الإسلام حكمت" بالمدينة المنورة تحت رقم ٨٩ منطق، وهي مكتبة زاخرة بإنتاج العلماء الأتراك وقد حصلنا على نسخة مصورة منها:

ان المترجم هو رجل من رجالات الدولة العثمانية وعلمائها، وأنه كان قريب الصلة بالسلطان الفاتح الذي طلب إليه القيام بتلك الترجمة لكي يسهل عليه شخصياً دراسة الكتاب والإفادة منه لأن الفاتح وإن كان عارفاً بالفارسية إلا أنه أكثر إجادة للعربية، إذ يقول المترجم في لوحة البسملة بعد الحمد والصلاة: "أما بعد فإن من القضايا المقررة أن شرف الإنسان إنما هو بالعلم والعرفان، والمعتبر فيهما هو ما يحصل بالنظر والاكتساب والمتكفل ببيان ما في النظر من الصحة والفساد... هو المنطق، وقد ألفوا فيه كتبا كثيرة... ولم يقع فيما اشتهر منها بين الناس شبيه بكتاب "أساس الاقتباس" الذي صنعه الحكيم المحقق والفيلسوف الدقيق خاتم الحكماء المتقدمين ومرجع الفضلاء المتأخرين خواجه نصير الدين، جامله الله تعالى يوم الدين، فانه كتاب فاخر وبحر مواج زاخر، حالٍّ بجواهر أفكار المتقدمين والمتأخيرين، وخال من شبه المشاغبين وشكوك المبطلين، ولذلك كان حسنه فائقا في حده، وإن اكتسى لباسا ما كان لائقا

(١٥) انظر السلطان "محمد الفاتح" – فاتح القسطنطينية، للدكتور محمد صفوت عباس، نشر دار الفكر العربي، طبع القاهرة، ١٩٤٨م ص ١٨٧–١٨٨.

(١٦) انظر الشقائق النعمانية ١/١٨٧.

بقدره، حيث عبر عن حقائقه الفائقة، ودقائقه الرائقة، بكلام عجمي مهين، دون لسان عربي مبين [١٧]، ومن ثمة أمرني من أمره مطاع وخلافه لا يُستطاع أن أترجمه بألفاظ عربية لأن حظه منها أكثر من حظه من العجمية، مع كمال رسوخه فيهما – وهو السلطان الأعظم والخاقان الأفخم ومولى ملوك العرب والعجم [١٨]... السلطان محمد خان ابن السلطان الأعظم مراد خان بن السلطان محمد خان، فلا جرم ائتمرت بأمره الشريف فكسوت تلك الفوائد الشريفة حلل الألفاظ والعبارات اللطيفة لتجد بها في نظرة النقاد بهاء، فجاءت بحمد الله كالشجرة المورقة ينفتح منها النوار بل كالشمس المضيئة تتلألأ منها الأنوار، فجعلتها تحفة لجنابه المنيف بل خدمة لبابه الشريف داعياً الله تعالى أن يجعل أمره مطاعاً إلى يوم الحشر والنفاذ بحق نبيه محمد وآله الأمجاد وأصحابه الأطواد" [١٩].

وقد علمنا الصلة الوثيقة بين السلطان الفاتح وأستاذه منلا خسرو العارف باللغة الفارسية[٢٠] فليس بعيداً أن يكل إليه القيام بهذه الترجمة، وقد كان هذا السلطان العالم يقترح على معاصريه أحياناً تأليف الكتب في موضوعات معينة كما فعل مع علاء الدين الطوسي وخواجه زاده في الرد على الفلاسفة [٢١] ويكلفهم أحيانا أخرى بترجمة عيون المؤلفات في اللغات الشرقية والأوروبية إلى التركية وإلى العربية أيضاً [٢٢] حتى كان بعض علماء عصره لا يؤلف كتاباً إلا وينقله إلى العربية ثم يهديه إلى الفاتح [٢٣].

على أن الاهتمام بالطوسي في بلاط الفاتح كان واضحاً فقد ألف المولى علي القوشجي وهو من أبرز علماء عصر الفاتح وأقربهم إليه واحداً من أعظم الشروح على كتاب الطوسي "تجريد

---

(١٧) اعتزاز نبيل بالعربية لغة القرآن الكريم.

(١٨) ثم يورد قصيدة في مدحه يلاحظ أنها لا تحتوي ذكرا صريحاً لفتح القسطنطينية اللهم إلا أن يكون قوله إشارة بعيدة لها: حاز الممالك في الآفاق قاطبة * * وفاز بالمطلب الأعلى بهمته

(١٩) ترجمة أساس الاقتباس ل ٢-٤.

(٢٠) انظر علي همت الأقسكي، العاهل العثماني أبو الفتح السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية وحياته العدلية، تعريب محمد احسان عبد العزيز، مطبعة السعادة، مصر ١٩٥٣م، ص ١٠٢.

(٢١) مقدمة كتاب الذخيرة لعلاء الدين الطوسي ص ٧٠٤.

(٢٢) انظر محمد الفاتح للدكتور الرشيدي ص ٢٧٤،٢٧٥،٢٨١.

٢٣ مقدمة كتاب الذخيرة لعلاء الدين الطوسي ص ٧٠٤.

الكلام" عُرف فيما بعد بالشرح الجديد وصار عمدة الدارسين لهذا العلم [٢٤]، كما شرح كتاب القطب الشيرازي "التحفة الشاهية" الذي هو بدوره شرح على كتاب الطوسي الشهير "التذكرة في علم الهيئة" بالإضافة إلى عنايته الخاصة بكتاب الطوسي "الزيج الإيلخاني" [٢٥] وللقاضي زاده الرومي صاحب المحاكمة بين الفلاسفة والغزالي حاشية على "تحرير أصول إقليدس" للطوسي أيضاً [٢٦].

ويوجد على الصفحة الأولى من النسخة الخطية الوحيدة الموجودة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة ما يلي:

ترجمة كتاب أساس الاقتباس في المنطق للخواجه نصير الدين الطوسي للعلامة "منلا خسرو" بنفس الخط الذي كُتبت به النسخة، ومع اعتبار الملابسات التي أوردناها آنفا لا نجد ما يدعونا إلى الشك في نسبة هذه الترجمة إلى هذا الأستاذ العارف بالفارسية والوثيق الصلة بالفاتح والمشتغل بالعلوم العقلية.

ولا يمكننا أن نحدد تاريخ قيام المولى خسرو بتلك الترجمة ولكن يبدو أنه بعد فتح القسطنطينية حيث يوجد في القصيدة التي صدر بها الكتاب في مدح الفاتح إشارة – وإن لم تكن صريحة – إلى هذا الحادث الجليل. على أن الفترة السابقة على الفتح من ولايته كانت من القصر والازدحام بالمهام بحيث يبعد أن يفرغ فيها لمثل هذه المشاغل العلمية.

ويبدو أن المولى خسرو قد اعتمد على أصل قريب جداً من النسخة الاصلية التي اعتمد عليها المحقق رضوي في نشر نسخته المطبوعة لأساس الاقتباس في طهران، إذ توجد فيها نصوص تخلو منها سائر النسخ العديدة التي توفرت له ولكنها توجد في ترجمتنا هذه.

نسخة خطية وحيدة:

وكنا – أنا وزميلي الأستاذ الدكتور حسن الشافعي أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة ومدير الجامعة الإسلامية العالمية بباكستان – قد عثرنا في سنة ١٩٧٨ على هذه النسخة الخطية

---

(٢٤) انظر محمد الفاتح للدكتور الرشيدي، ص ٢٧٥.

(٢٥) انظر بروكلمان ١/٥٠٦.

(٢٦) انظر تاريخ علم الفلك في العراق، ص ١٠٥-١١٣.

الفريدة من ترجمة منلا خسرو لكتاب أساس الاقتباس بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة برقم (٨٩ منطق) وعلى ظاهر النسخة عنوانها وبجواره ختم المكتبة، وفي صفحة البسملة ينوه المترجم بكتاب الطوسي، وأهمية علم المنطق ثم يشير في (ص ٣٤) إلى تكليف الفاتح إياه بترجمة الكتاب ثم يبدأ ترجمة مقدمة الكتاب ومقالاته التسع، وتقع تلك الترجمة في ٤٥١ صفحة (لا لوحة) تنتهي بقول الطوسي في الصفحة الأخيرة: وكما وعدنا في صدر الكتاب بمراعاة الإيجاز آثرنا الإتمام حامدين الملك العلام.

ثم يذكر الناسخ أنه وقع الفراغ منه يوم الأربعاء في اليوم الخامس من شهر ذي القعدة على يد "مخدوم حصاري بخاري" سنة ١٢٦٦هـ دون أن يشير إلى الأصل الذي نقل عنه أو مكان النسخ وإلى جوار ذلك بيت من الشعر الفارسي يعتذر فيه الناسخ عما عساه وقع فيه من خطأ لانشغاله بحوادث الدهر.

وقد كُتب الكتاب بالخط الفارسي في شكل دقيق لا يخلو من جمال ويوجد في بعض الصفحات ما يدل على أنها روجعت بعد الكتابة إذ يضرب الناسخ على بعض الكلمات أو يصححها في الهامش أو يكتب الصواب بين السطور.

وقد عكفنا منذ ذلك الحين على تحقيق هذه النسخة التي لم نعثر على غيرها في المكتبات وذلك بمقارنتها بالأصل الفارسي الذي حققه الأستاذ مدرس رضوي وطبع بجامعة طهران سنة ١٣٢٦هـ. ويجري الآن طبع الجزء الأول من هذه الترجمة التي تقع في مجلدين كبيرين بالقاهرة على نفقة وزارة الثقافة المصرية. وسوف يصدر هذا الجزء، مع مقدمة ضافية في ربيع هذا العام ١٩٩٩ إن شاء الله.

خاتمة:

وهكذا تجمعت لدينا مجموعة من الأسباب تدعونا إلى أن نقطع بنسبة هذه الترجمة العربية الممتازة لكتاب أساس الاقتباس إلى العلامة التركي منلا خسرو؛ نُجمل هذه الأسباب فيما يلي:

١- من الواضح أن المترجم رجل من رجالات الدولة العثمانية وعلمائها.

٢- أن المترجم كان قريب الصلة بالسلطان الفاتح، وكان مجيداً للفارسية والعربية.

٣- كان الفاتح يقترح على معاصريه من العلماء تأليف الكتب في موضوعات بعينها، أو ترجمة أهم الكتب من اللغات الشرقية والأوروبية إلى التركية وإلى العربية أيضاً.

٤- كان الاهتمام بنصير الدين الطوسي ومؤلفاته واضحاً في بلاط الفاتح.

٥- ورد في مقدمة المترجم أنها تمت بناء على طلب السلطان نفسه، لرغبته في قراءة الكتاب بالعربية التي يجيدها أكثر من الفارسية.

٦- يوجد على الصفة الأولى من النسخة الخطية الوحيدة الموجودة بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة ما يلي: "**ترجمة كتاب أساس الاقتباس في المنطق للخواجة نصير الدين الطوسي للعلامة منلا خسرو**" بنفس الخط الذي كتبت به النسخة.

ومن ثم لا نجد ما يدعو إلى الشك في نسبة ترجمة كتاب أساس الاقتباس من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية إلى العلامة التركي منلا خسرو (*).

(*) مرفق صورتان من الورقتين الأولى والأخيرة من المخطوطة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي كرم بني آدم بالنطق الفصيح وصورهم بأحسن الأشكال وكرمهم
حتى احتازوا المعقولات من الكليات والجزئيات فامتازوا عن مختلفات الأنواع
باختيار الطرق الموجبات والصلوات والسلام على سيدنا محمد المرسل بميزان الحكم
محكم الكتاب والمكمل لمن [illegible] وخالفة الغي وأجناس الفضائل بفصل الخطاب
وعلى آله وأصحابه الذين أحاطوا قصبات السبق في ميادين التبليغ والبيان [illegible]
[illegible] الحق وانقاذه بالحجج والبراهين وبعد فإن من القضايا المقررة عند أولي
الألباب والمقدمات المحررة لدى ذوي الاستبصار أن أشرف الإنسان
إنما هو بالعلم والعرفان والمعتبر منهما ما يحصل بالنظر والاكتساب لا ما يتبين من
[illegible] والمنطق بيان ما في الفكر من الصحة والفساد وهداية
المتعلم إلى سبيل الرشاد وإنما هو المنطق الموسوم بالرئيس في تحصيل العلوم الأحكام
والتأسيس قد صنفوا فيه كتبا بكثرة [illegible] ولم يقع فيما اشتهر منها بين
الناس مثل كتاب أساس الاقتباس الذي صنفه الحكيم المحقق والفيلسوف المدقق ختام
الحكماء المتقدمين ومرجع الفضلاء المتأخرين خواجه نصير الدين [illegible] قدس الله روحه
[illegible] وبحر مواج [illegible] بجواهر أفكار المتقدمين والمتأخرين [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

برد العجز على الصدر وبعضهم يسميه السبك اما ان كانت الالفاظ
مع تماثلها مختلفة المعنى يسمى تجنيسا كالعين المستعمل في معنيين وان كان بطريق الكناية
يسمى تجنيسا وشاكلت الالفاظ في الالفاظ المركبة نوع من القلب على هذا الوزن
فيقال هذا فرس عين وعين فرس ولا يقال سافرت وفاتل [illegible]
سافرت وشاكلت الالفاظ في اجزاء الالفاظ ان كانت حروفها متقاربين
متقاربين ومختلفين في الاسجاع وان كانت حركات الالفاظ متناسبات التي [illegible]
الكلمات فيها غير متشابهة كالزهر والقمر وشاكلت الالفاظ في الالفاظ
البسيطة ان تكون الالفاظ مع اتفاق الجوهر مختلفة في التعريف كالسابق والسابق
وان اختلفا في الجوهر كانت متشابهين في الحروف كالشمس والسابق [illegible]
كالصالح والسامع او متشابهين في التعريف كالعليم والعظيم او بالصيغة نحو ذبح
وذبح او يكون احدهما جزءا من الآخر كالحلي والحلي والسمي والسماء [illegible]
مشبهة كالحلم والحلم والعار والعال واتفاق الالفاظ في الالفاظ المركبة على
هذا القياس واتفاق الالفاظ في المعنى البسيط ان يرد واتفاق المعنى
الواحد باستعارات مختلفة وهو يقع كثيرا ويجب ان يكون بين المعنى
المركب مناسبات مختلفة نوع منها يسمى شعرا معنويا واتفاق الالفاظ في [illegible]
مثل ان المعنى يتشابه مناسبة او بالضد ويكون الاعتبار مختلفا واما التشبيه الخاص
فلا بد ان يكون مع المعنى المذكور مناسبة لفظية او معنوية [illegible]
والا لم يكن من قبيل الصنعة المخالفة في اجزاء الكلمات اذا اقترنت على وجه
معين جاز ان يكون نوعا من انواع الصنعة اللفظية بشرط المناسبة في [illegible]
من الاجزاء مع تكرار مستقل والتي لها في سائر الالفاظ ان كانت متماثلة
الكلمن ان يكون متراد من الالفاظ وان كانت بيد المعنى [illegible]
التراديف بعضها مع بعض كالاعداد والاضداد ويسمى مطابقة واز دواجا او
المتشابهة والاشتراك في النسبة كالامير في البلد والملاح في السفينة وفي [illegible]

كالفرس والثبات وفي الحمل كالطويل والعريض وفي الاسم كزهرة من الزهرة
وان كانت مع في هذا المعنى ولكن تحمل المناسبة من جانب اللفظ كما في
التشبيه الضد مثل ان الضد كالبياض مع السواد ومعنى الرؤية والثرى والكوكب
مع النجم بمعنى الثلاثة وان كان تحمل المناسبة من جانب المعنى كاستعمال [illegible]
مع جمع الفرس في المعنى للحقيقة الذي هو ضد التراب [illegible]
بعضها من الالفاظ المعنوية بالتي لها معنى لفظي يكون انها [illegible]
بحسب التركيب والتركيب بان لها لفظ ومعنى مما يكون ضده يسمى [illegible]
وفي تحريف اللفظ فيه يكون المعنى ضد المطلوب بان الالفاظ
مما هو يسمى الجمع والتقسيم كقولك زيد وعمرو بجار احدهما في الاعتبار
والآخر في البلاد ويجوز للمختلف فيه رجاء وخوف الرجاء والرحمة والخوف من
سطوته وكذا ما يسمى الاستدراك نحو عبد وسمي بالادا المسمى [illegible]
يمكن وهو يقتضي وسائر الانواع المختلفات انما قصد وانما قدمنا هذا القياس
ومن جملة الصنائع انواع متعلقة بمجموع الشعر كالتوشيح والترجيع [illegible]
كالمدح والـ[illegible] ينبغي ان يعلم ان المطالع كان لها اجزاء كمقدمة [illegible]
والتصديق والتي تم كذلك للشعر اجزاء كالمطلع والتشبيب والمخلص والدعاء
والتخلص ويجب لكل ركن صنائع مختلفة وتفصيل علم مفرد ولما اقتصرنا
ههنا على هذا القدر وما وعدنا في صدر الكتاب
كان قدر الاولى زاكتفى ما الاتمام ما عدا
والحمد لله على التوفيق
[illegible] التحقيق
الفراغ منه يوم الاربع
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

آخر كتاب أساس الإقتباس

شكوك علماء العرب والمسلمين على مصادرات أوقليدس

وموقف شمس الدين السمرقندي وموسى بن محمد بن محمود چلبى الرومي، قاضي زاده من المصادرة الخامسة المشهورة

الأستاذ الدكتور محمد سويسي

تونس

تمهيد : يقول ابن خلدون: "والكتاب المترجم في هذه الصناعة (صناعة الهندسة) كتاب اوقليدس، ويسمى كتاب الأصول وكتاب الأركان... وهو أول ما ترجم من كتب اليونانيين في الملة، أيام أبي جعفر المنصور، ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين" (١).

وجاء في كتاب "اخبار العلماء بأخبار الحكماء" للقفطي (٢)، عند تقديمه لأوقليدس (من حوالي ٣٣٠ ق م – إلى ٢٧٥ ق م): "صوري الأصل اسكندري المقر، صاحب "جومطريا" ومعناه الهندسة. وكتابه المعروف بكتاب الأركان، هذا اسمه بين حكماء اليونان، وسماه من بعده من الروم الاستقصات، وسماه الاسلاميون الأصول، كتاب جليل القدر، عظيم النفع، أصلٌ في هذا النوع، لم يكن ليونان قبله كتاب جامع في هذا الشأن، ولا جاء بعده إلا من دار حوله وقال قوله. وقد عني به جماعة رياضيي يونان والروم والاسلام، فمن بين شارح له ومشكل عليه ومخرج لفوائده، وما في القوم إلاّ من سلّم إلى فضله وشهد بعزيز نيله".

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، الباب السادس ص ٤٨٦، ط. مصر بدون تاريخ.

(٢) ط. ليبزيغ ١٩٠٣، ص ٦٢.

وكان لأوقليدس فضل الجمع لمادة الحقائق الهندسية المعروفة في زمنه فلم شتاتها، ورتبها، وأضاف إليها ما اختص به من استنباط، مدعّما كل ذلك بالبراهين الوثيقة الدقيقة. واستشهد به القدامى من أمثال ارخميدس وقفا أثره كبار الرياضيين من المحدثين كالجوهري والماهاني، والنيريزي والكندي، ونصير الدين الطوسي وعمر الخيام وابن الهيثم، وبالغرب بسكال وفرما وديكارت وليبنيتز ونيوطن. والكل ينوهون بكتاب الأصول الذي استمدوا منه تفكيرهم الهندسي. فكان لافرانج يقول: "من تعلم الهندسة عن غير أوقليدس كمن حاول أن يتقن اللاتينية أو اليونانية من خلال ما كتب بهاتين اللغتين من الكتب العصرية".

وبقيت تحيط باسم أوقليدس هالة من القدسية حتى عصر ليس ببعيد عنا. وقد تمركزت في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي نظريات جديدة، هي نظريات الهندسات اللاقليدية بعد أعمال اوبانسفسكي وبولياي وريمان، مما دعا بعض المتطرفين، المتجاوزين لحدود اللياقة، المنكرين للولاء، فقال قائلهم في ملتقى دولي إثر الحرب العالمية الثانية : "ليسقط أوقليدس".

وصف موجز لكتاب "الأصول"

يبدأ الكتاب بالحدود، لكل حد ترقيمه:

١-النقطة وهي شئ ما لا حد له، أو هي الشئ الذي لا يتجزأ.

٢- الخط ما له طول فقط.

٣- البسيط ذو طول وعرض فقط الخ.

١٥-١٦ الدائرة هي التي يحيط بها خط واحد، في داخله نقطة، كل الخطوط المستقيمة الخارجة منها إليه متساوية.

إلا أن إرسطو كان يرى أن حد الشئ وتعريفه أمر، وإثبات وجوده أمر ثان لا بد منه، فتحتم على أوقليدس أن يستهل عمله بالتسليم بوجوده الأشياء التي حددها. فبدأ المقالة الأولى قبل كل شئ بخمس أوليات عامة vèrités premieres(أو axiome) أو ما سمي أيضا **علوما متعارفة:**

١- الأشياء المساوية لشئ بعينه متساوية.

٢- إذا زيد على المتساوية أو نقص منها متساوية كانت النتائج متساوية.

٣- إذا زيد على غير المتساوية أو نقص منها أشياء متساوية حصلت غير متساوية.

٤- الأشياء المتطابقة متساوية.

٥- الكل أعظم من الجزء.

ويقدم أوقليدس عشر مصادرات (أو أصول موضوعة) postulat من أهمها:

١- لنا أن نصل خطا مستقيما بين كل نقطتين.

وهذا يفترض وجود النقاط، وان خطا واحدا يصل بين نقطتين، وإذا اشترك مستقيمان في نقطتين فهما ينطبقان.

٢- لنا أن نخرج خطا مستقيما محدودا على الاستقامة بقدر ما نشاء، وهذا يفترض وجود الخطوط ويتضمن أن الفضاء غير متناه.

٣- الزوايا القائمة كلها متساوية.

٤- لا يحيط خطان مستقيمان بسطح.

٥- إذا وقع خط مستقيم على خطين مستقيمين وكانت الزاويتان الداخلتان في إحدى الجهتين أصغر من قائمتين فانهما يلتقيان في تلك الجهة مهما أخرجا بلا نهاية.

وعدم التلاقي للمستقيمين الكائنين في سطح واحد هو الخاصية المميزة لتوازيهما. وهذه هي المصادرة المشهورة المتعلقة بالمتوازيات.

وبالاستناد إلى هذه المصادرات تربط المقالات بعضها ببعض ارتباطا وثيقا وعلى ذلك يعتمد البرهان.

كما يستخدم أوقليدس أحيانا قياس الخلف، أي أنه يبين أن عكس المقالة المذكورة يفضي إلى التناقض ويقتضي أن القضية باطلة. وبهذا صار أن ما ثبتت صحته بالاستناد إلى هذه المصادرات يقبل، وما لم تثبت صحته ينبذ ويطرح، وذلك كان أساس المنهج العلمي الوحيد إلى أن أضافَ إليه العلمُ العربيُّ ركنا ثانيا هو الدليل التجريبي المعتمد على "المشاهدة والنظر".

ويشتمل كتاب "الأصول" على خمس عشرة مقالة، باضافة المقالتين الملحقتين بآخره.

١- الأشكال المستوية المستقيمة الأضطلاع.

٢- رسم مربع منتظم مكافئ لشكل مستقيم الأضطلاع.

٣- الدائرة.

٤- المضلعات المنتظمة والمضلعات المحيطة بالدائرة أو المحاطة بها.

٥- نظرية التناسب.

٦-٧-٨-٩-: نظرية العدد.

١٠- الكميات الصماء: المنطقات وغيرها أي الجذور.

١١-١٢- الهندسة الفضائية.

١٣-١٤-١٥- المجسمات المنتظمة، التحليل والتأليف.

وأصلح إبسقلاوس Hypsiclpès المقالتين الرابعة عشرة والخامسة عشـرة، ولسـبليقيوس Simplicius الرومي كتاب شرح كتاب أوقليدس، ولببـس Pappus كتـاب تفسـير المقالـة العاشرة، ولثاون Theon الاسكندري شرح على كتاب الأصول مع عديد الاضافات.

نقل " الأصول" إلى العربية ومعالجته من قبل العلماء العرب والمسلمين.

نقل كتاب "الأصول" لأول مرة إلى العربية من قبل الحجاج بن يوسف بن مطر الكوفـي، نقلين، أحدهما يعرف بالهاروني، وهو الأول، ونقلا ثانيا، وهو المأموني، وعليه يعول.

ونقله إسحاق بن حنين العبّادي (ت ٢٩٨هـ/٩١٠م)، وأصلح نقله ثابت بن قرة الحرّانـي (٢١٩-٢٨٨هـ/٨٣٤-٩٠٠م).

ونقل أبو عثمان الدمشقي مقالات منه، ثم أخذ كثير ممن جاء بعدهم في تحرير هذا الكتـب متصرفين فيه إيجازاً وضبطاً وإيضاحاً وبسطاً، ففسروه وزادوا في أشكاله، وتعرضـوا إليـه بالنقد والاصلاح وحاولوا حل شكوكه، ومن هؤلاء:

- أحمد بن عمر الكرابيسي، وله كتاب تفسير أوقليدس (الفهرست ٣٩٢)
- أبو يوسف يعقوب الكندي(١٨٤-٢٥٩هـ/٨٠٠-٨٧٣)، وله كتاب "إصلاح اوقليـدس" ورسالة في إصلاح المقالة الرابعة عشرة والخامسة عشرة (القفطي ص ٣٨)
- العباس بن سعيد الجوهري (كان حيا سنة ٨٢٩)، وله:

كتاب الأشكال التي زادها على المقالة الأولى من كتاب أوقليدس، وكتاب تفسير كتـاب أوقليدس، وزيادة في المقالة الخامسة (الفهرست ٣٧٩ والقفطي ٣١٩).

- محمد بن عيسى الماهاني (توفي بين ٢٣٩ و ٢٧٠هـ/٨٥٣-٨٨٤م)، وله: رسالة في ستة وعشرين شكلا في المقالة الأولي من أوقليدس، لا يحتاج في شئ منها إلى الخلف (القفطي ٦٤)

-ولأبي الوفاء البوزجاني(ولد سنة ٣٢٨هـ/٩٣٩م)شرح على هذا الكتاب، ولم يتمه.

- وفَسّر أبو القاسم الأنطاكي الكتاب كله (الفهرست ٣٩٥).

- أبو العباس الفضل بن حاتم النيريزي (ت ٣١٠هـ/٩٢٢-٩٢٣م)، وله شرح أوقليدس، (الفهرست ٣٨٩، والقفطي ٢٥٤، وسوتي ٣٦٣) ترجمه إلى اللاتينية جيرارد الكريموني في القرن الثاني عشر الميلادي ورسالة بيان المصادرة المشهورة لأوقليدس (خ خ باريس، برلين، طهران، حيدر آباد).

- عمر الخيام (٤٦٧-٥١٧هـ/١٠٧٤-١١٢٣م)، وله رسالة في شرح ما أشكل من مصادرات كتاب أوقليدس (خ ليدن ٩٦٧- باريس ٤٩٤٦؛ تحقيق عبد الحميد صبرة، ط. الاسكندرية ١٩٦١).

- الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م).

وله: مقالة في حل شكوك المقالة الأولى من كتاب أوقليدس، ومقالة في حلّ شكٍّ رداً على أوقليدس في المقالة الخامسة من الأصول الرياضية.

ومن الملاحظ فيما يخص نقد ابن الهيثم أن من أساس البرهان وجود المستطيل، ووجود خطوط مستقيمة متساوية الأبعاد، واللجوء في البرهان إلى استعمال تحرك النقط.

وردّه على "إخراج الخطوط بلا نهاية" بكون التزايد المستمر مما ليس بمتناه، وما كان كذلك لا مجال لتخيله، وكل ما يمكن تخيله إنما هو متناه. فإذا ما كان طرفا الخطين ليسا عند نهاية فلا سبيل إلى الحكم على صورتهما.

وأما الخيام فينتقد آراء ابن الهيثم ويتساءل كيف يحصل الخط عن حركة النقطة وهو قبل النقطة بالذات والوجود؟ ثم أية نسبة بين الهندسة والحركة، وما معنى الحركة؟

- نصير الدين الطوسي (٥٩٧-٦٧٢هـ/١٢٠١-١٢٧٤م).

وله: تحرير أصول أوقليدس خ خ تونس(٩٣٨٦ مؤرخــــة ٨٩١هـــ/١٤٨٥م ورقــم ٧٩٦٦).

وتحرير مصادرات أوقليدس خ تونس ٤٧٦١.

ويقول صاحب التحرير عن المصادرة الخامسة: "إن هذه القضية ليســت مــن العلــوم المتعارفة ولا مما يتضح في غير علم الهندسة. فإذن الأولى أن تترتب فــي المســائل دون المصادرات".

- محمد بن أشرف الحسيني السمرقندي (شمس الدين) [٣] (توفي حوالي ٦٠٠هـ/١٢٠٣م)، وله : كتاب "أشكال التأسيس" في الهندسة، وهي خمسة وثلاثون شكلاً اقتبسها من كتــاب الأصول ورتبها ترتيبا مغايراً.

أوله: "الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابـــه أجمعيــن، وبعد فإن جماعة من الفضلاء وطائفة من الأصدقاء التمسوا مني رسالة تكون مقدمة وآلـــة في اقتناء براهين العلوم الحسابية، كالأعمال الجبرية والأعمال المساحية، وذلـــك مؤســس على أشكال التأسيس من كتاب أوقليدس الخ..."

والخمسة الأخيرة من هذه الأشكال من ثانية "الأصول" خاصة بسطوح الأعداد والأولــى من أولى الكتاب.

ويقدح السمرقندي في مقدمات أوقليدس والمسائل الرياضية "التي بيّنها أوقليدس بمقدمات بعضها غير محتاج إليها، وبعضها أجلى من الدعوى" و "استعمل بعض من تبعه طرقا مــن الحركات التي هي من الطبيعيات... فطعن المتأخرون في هذا البيان ورغب عنه المحققــون لأن بيان مسائل علم بطريقة علم آخر غير مستحسن عند المحققين".

وهو يوافق نصير الدين الطوسي في قولته التي أشرنا إليها آنفاً. وذاع صيــت كتــاب "أشكال التأسيس" وتعددت نسخه المخطوطة في المكتبات، وهذا العدد ذاته مما يشهد باهتمام الباحثين بالكتاب على مر العصور، ونكتفي بذكر ما يلي منه:

---

(٣) انظر عنه : بروكلمان ١ : ٤٦٨؛ الملحق ١: ٨٤٩ و ٨٥٠؛ كحالة : معجم ٩ ص ٦٣؛ كشــف الظنــون ١٠٥،٣٩؛ طوقان: تراث العرب العلمي ٣٧٧؛ هداية العارفين ٢/١٠٦.

المتحف العراقـــي ٥٧٢٩ بتاريخ ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م

٧٧٣٠ بتاريخ ١١٣٨هـ/ ١٧٢٥م

١٧٦٩٤ بتاريخ ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م

١٦٦٦٣ بتاريخ ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م

١٧٦٧٧ بتاريخ ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م

وضمن مجاميع ٢٦٤٣/٤؛ ١٠٥٥٣؛ ١٢٧٥٣/٥؛ ٨١٥٩؛ ٨٧٦٥/١؛ ١٧٦٤٠؛ ١٧١٥٧

الخزانة الحسنية بالرباط. ط. ١٤٠٣/١٩٨٣ رقم ١٦٣٨.

وتناول الكتابَ كثيرٌ من الشراح موضحين مادته متصرفين فيها، ومن بين هذه الشروح:

- تحفة الرئيس في شرح أشكال التأسيس.

أوله: "الحمد لله الذي خلق كل شئ بقدر، وقدر له ما يليق به من أشكال وصور... وبعد فإن الهندسة من متانة مسائلها، ووثاقة دلائلها، بحيث لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا مـن خلفها...".

وتوجد منه نسخ بمكتبة الأوقاف ببغداد، مرقمة كما يلـي: ١٣٧٤٠-٦٧٩٧-١٠١٠١-١٢٣١٣/٢ مجاميع- ٥٤٤٠/١ مجاميع، وبباريس رقم ٦٨٥.

وحسب الديباجة أن هذه النسخ هي عين الكتاب المعنون "شرح مختصر أشكال التأسيس" رقم ٨٥٠ بالخزانة الحسنية بالرباط، وهي من تأليف موسى بن محمد الشهير بقـاضي زاده الرومي المتوفى سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م الذي سنقدمه بعد حين فيما يلي من هذا البحث.

- الدر النفيس على شرح أشكال التأسيس

لعبد البر محمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن زين الدين المصري الفيومـي (ت ١٠٧١هـ/١٦٦١م).

بدايته: "الحمد لله الذي أظهر أشكال الموجودات وأدار أفلاك السماوات، في أمر عزته، وأفاض على عباده آلاء نعمته..." وضعت هذه النسخة لمحمد صادق بن شيخ زاده وكتبها السيد عبد الله الآلوسي سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م وحفظت بمكتبة المتحف العراقي تحت رقم ٣/٣٠٣٤٠.

وصور كتاب السمرقندي عدة مرات في استانبول، وأصدر حامد دلجون بالتركية والفرنسية ما يحتوي هذا الكتاب من عرض لمحاولة الأبهري للبرهنة على مصادرة أوقليدس الخامسة.

وأصدره يوشكفيتش بالروسية دون عرض لنص الأبهري، وأشار عبد الحميد صبرة إلى ذلك في رسالة بعث بها إلى روزنفلد ويوشكفيتش.

التعريف بقاضي زاده الرومي

هو موسى بن محمد بن محمود چلبى الرومي المعروف باسم قاضي زاده. وهو جد العالم ميرم چلبى (ت ٩٣١هـ/١٥٢٥م)؛ عالم بالرياضيات والفلك والحكمة، متأثر بمنطق أرسطو؛ من أهل بروسة (حسب كتاب الأتراك بالحروف العربية) وبروصا (حسب الكتابة المتداولة في القرن التاسع الهجري). وهي من عواصم السلطنة العثمانية، على بعد ٥٠٠ كيلو متر تقريبا غربي أنقرة، وعلى بعد ٣٠٠ كيلو متر جنوبي شرقي أدرنة.

تلقى قاضي زاده تكوينه العلمي الأول بمسقط رأسه، ولكنه سرعان ما اجتذبته خراسان وما وراء النهر (شرقي نهر جيحون أي أموداريا حاليا) بما أشعته فيها من أنوار آثار وعلماء أعلام في الرياضيات أمثال محمود بن محمد بن عمر الجغميني (ت ٧٤٥هـ/١٣٤٤م). صاحب "الملخص في الفلك" [٤]. وشمس الدين محمد بن أشرف السمرقندي، صاحب "أشكال التأسيس" (توفي حوالي ٦٠٠هـ/١٢٠٣م).

وكان موسى في شيراز عام ٨١١هـ/١٤٠٨م؛ ثم استقر بسمرقند في خدمة ألغ بك (٧٩٦-٨٥٢هـ/١٣٩٤-١٤٤٩م)، وقد عهد هذا الأمير إلى غياث الدين الكاشي (ت

---

(٤) كشف الظنون: علم الفلك وتاريخه عند العرب ص ٢٦١؛ بروكلمان ١: ٦٢٤؛ الأعلام ٨: ٥٩-٦٠؛ طبع الكتاب في الهند عام ١٢٩٣ مع شرح قاضي زاده؛ انظر معجم سركيس ص ٧٢٠ و ١٤٨٨.

٨٣٢هـ/١٤٢٩م) بإنشاء مرصد في سنمرقند، فتوفي الكاشي قبل إتمامه، وتـولاه قـاضي زاده. ولم تعرف وفاته (حوالي ٨٤٠هـ/١٤٣٧م)؛ وأكمله بعده تلميذه علـي بـن محمـد القوشجي (ت ٨٧٩هـ/١٤٧٥م)... وكان مرصد سمرقند من أهم مراكز العلم في العـالم، إلى أن دُمِّر (حوالي ٨٦٤هـ/١٤٦٠م).

ولقاضي زاده مصنفات، كلها بالعربية، أهداها إلى السلطان ألغ بك، ومنها:

١-شرح "التذكرة" لنصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٤م)

٢- شرح "ملخص" الجغميني، أوله: "الحمد لله الذي جعل الشمس ضياء، والقمـر نـوراً، وبسط على بساط البسيطة ظلا..." خ خ تونس ٧١٤٥ (بتاريخ ١١٨٦هـ) ومكتبـة الأوقاف ببغداد ٦٢٨٨/١، ونسخة أخرى بها ٥٤٨٢/٤؛ في آخرها أن المؤلف فـرغ منه في سنة ٨٠٤هـ/١٤٠٢م، وفي كشف الظنون في سنة ٨١٥هـ/١٤١٣م.

١- شرح "أشكال التأسيس" الذي ذكرناه آنفا، وتولينا تحقيقه ونشـره ببيـت الحكمـة بتونس عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

منه خ باريس رقم ٦٨٥٣ (وفيها يؤرخ قاضي زاده مؤلفه بحروف أبجد قال الشـارح: جرى عادة القوم أن (أرخو) وتاريخ تأليفه (خبره) بالباء الموحدة أي

خ	٦٠٠	أ ١
ب	٢	ر ٢٠٠
ر	٢٠٠	خ ٦٠٠
هـ	٥	و ٦
	٨٠٧	٨٠٧

وبتونس نسختان، الأولى مرقمة ٧٨٣١ (بتاريخ ١١٨٠هـ/١٧٦٧م)، والثانية رقمـها ٩٦٨١/٢ خطها مشرقي (من مدرسة علي باشا في بلدة اسلامبول).

وفي مكتبة الأوقاف ببغداد توجد "حاشية على شرح أشـكال التأسـيس" لقـاضي زاده، مؤلفها أبو الفتح محمد الهادي بن أبي نصر الحسيني العراقي المدعو بتـاج السـعيدي (ت

٩٥١هـ/١٥٤٥م)، ناسخها إبراهيم بن محمود بن إبراهيم بن سليمان، في استانبول سنة ١٠٧٨هـ/١٦٦٨م، ورقمها ٢/٥٤٤٠

١- حاشية على "شرح الهداية" خ علق بها الهروي لهداية الحكمة للأبهري: (الأعلام ٢٨٢/٨).

العودة إلى المصادرة الخامسة

ومما تجدر الإشارة إليه والتنويه به أن العلماء العرب والمسلمين، رغم ما كانوا يحيطون به القدامى، ولا سيما أوقليدس، من التقدير، لم يتقيدوا بالتقليد الأعمى لعلمائهم، بل ناقشوا قولهم، وشرحوا ما أشكل من المصادرات وما شكوا في صلاحيتها، ولم يسلموا بها تسليما.

ومن أهم هذه المصادرات وأشهرها مصادرة أوقليدس الخامسة وهي، حسب قول عمر الخيام "مصادرة عظيمة، لم يبرهن صاحب الأصول عليها، بل أخذها مسلمة. وهذه مسألة هندسية، لا تبرهن إلا فيها أصلا فهي لازمة للمهندس شاء أم أبى، وليس له أن يبتي عليها شيئاً إلا بعد البيان".

ومما يطعن به السمرقندي أصول أوقليدس أن صاحبها يعتمد "على مقدمات بعضها يحتاج إليه وبعضها أخفى من الدعوى"، فيوافق تقريباً ما يصرح به، فيما بعد، العالم الفرنسي كليرو Clairaut سنة ١٧٤١م إذ يقول : " يستهل أوقليدس كتابه بعدد عديد من الحدود والمصادرات والمبادئ التمهيدية التي لا يجني منها القارئ إلا جفافاً... ويرهق المبتدئين ببراهين، إن صح القول، لا فائدة فيها".

ويلاحظ قاضي زاده أن أوقليدس نفسه لم يكن واثقا من وضوح مصادرته، ولذا جعلها ضمن الأصول الموضوعة دون العلوم المتعارفة "وذلك آية لكونه غير بين عنده". وقد كان قاضي زاده معجبا بتحرير الطوسي وبرهان الأبهري الذي نقل القضية إلى ما بعد الشكل السادس والعشرين من أولى أوقليدس الذي صار الشكل الثامن عشر من شرحه، وأما "تحرير" الطوسي فيستعمل في بيانه لقضية الحال قضية أخرى قد استعملها أوقليدس وهي: "ان كل مقدارين محدودين من جنس واحد فإن الأصغر منهما يصير بالتضعيف مرة بعد أخرى أعظم من الأعظم". ويستخدم لذلك سبعة أشكال منها:

١- أقصر الخطوط الخارجة من نقطة مفروضة إلى خط غير محدود ليست عليه هـو الخط العمود عليه.

٢- إذا قام عمودان متساويان على خط ووصل طرفاهما بخط كانت الزاويتان الحادثتان بينهما متساويتين.

٣- إذا قام عمودان متساويان على خط ووصل طرفاهما بخط آخر كـانت الزاويتـان الحادثتان عنهما قائمتين

٤- كل ضلعين متقابلين على سطح ذي أربعة أضلاع قائم الزوايا متساويان

٥- كل خط يقع على عمودين قائمين على خط، فانه يصـير المتبـادلتين متسـاويتين والخارجة مساوية لمقابلتها الداخلة والداخلتين في جهة معادلتين لقائمتين.

٦- إذا تقاطع خطان غير محدودين على غير قوائم، وقام على أحدهما عمود، فإنـه إن أخرج، قاطع الآخر في جهة الحادة.

٧- كل خطين وقع عليهما خط وكانت الداخلتان في جهة أصغر من قائمتين فانـهما إن أخرجا في تلك الجهة يتلاقيان.

وتجدر الإشارة إلى أن أهم الشكوك والانتقادات ومحاولات البيان العربية ترجمت إلـى اللاتينية والعبرية؛ فأثرها واضح في كتاب *Commentaries to the introduction of Euclides Elements* للمؤلف Levi ben Gerson (القرن الرابع عشـر الميـلادي). وكذلك في كتاب *Rectifier of Wrong* لصاحبه Al fonso (في القرنين الرابـع عشـر والخامس عشر الميلاديين) وفي شرح أصول أوقليـدس للمصنـف Christian Clavius (القرن السادس عشر) ونشر برهان الطوسي على المصادرة الخامسة (روما ١٥٩٤ ولنـدن ١٦٥٧) واطلـع عليـه John Wallis (١٦١٦-١٧٠٣) و Girolamo Saccheri (١٦٦٧-١٧٣٣).

ويرتكز برهان الخيام والطوسي على إمكانية البناء لشكل ربـاعي (أ ب ج د) بحيـث يكون (أ ب = جـ د) و (أ ب ج = زاوية قائمة) و (ب ج د = زاوية قائمة)، مما ينتج (ب

أ د = أ د جـ)؛ فمبدئيا توجد ثلاث إمكانيات: اما أن تكون هاتان الزاويتان قائمتين أو حادتين أو منفرجتين. ويخرج الخيام والطوسي بنتيجة الحالة الأولى فحسب.

ومن المعلوم أن نظرية الأساس في هندسة لوبانشفسكي وبولياي فيما بعد تعتمد على فرضية الزاويتين الحادتين، وافتراض الزاوية المنفرجة هو المعتمد في هندسة ريمان.

ملاحظة يستند برهان الأبهري الذي يرويه قاضي زاده على مصادرة أخرى: "إذا كانت زاوية فإنه يمكن أن نخرج لها أوتارا إلى غير نهاية حيث يقع بعضها تحت بعض ويكون كل منها قاعدة لمثلث متساوي الساقين".

كما يعتمد على مصادرة ثانية: "الخطان المستقيمان لا يحيطان بسطح".

وبرهان الشكل الأول (زاوية حادة وأخرى قائمة) يستند إلى الأساس التالي: "في كل مثلث الزوايا الثلاث مساوية لقائمتين" وهو خاصة تابعة للشكل ١٧ من أولى الأصول (الشكل العشرون من أشكال التأسيس) الذي يأتي بيانه فيما بعد من الكتابين، وهذا الشكل ذاته تابع لخواص المتوازيات (الشكل ١٨ من أشكال التأسيس).

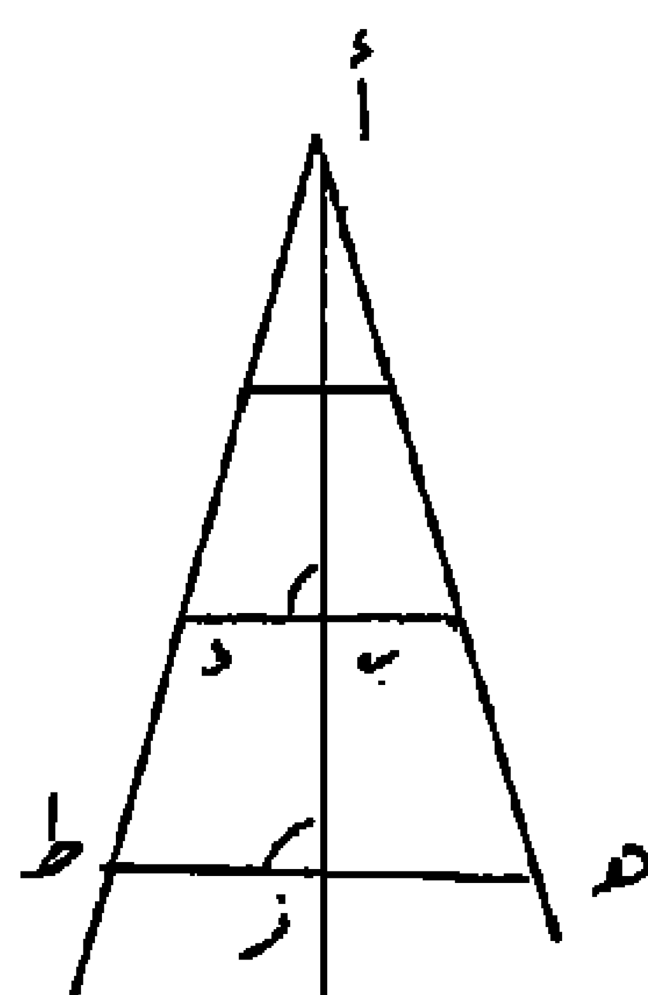
ولم يخف ذلك على قاضي زاده عند عرضه لبرهان الأبهري فيقول (ط. تونس ص ١٢١): "وإن كان محالا بالثاني والثلاثين من أولى الأصول، وهو العشرون من كتابنا هذا، **إلاّ أن هذه المصادرة مأخوذة في بيانه، فلا يصح أن يؤخذ في بيانها**".

برهان أثير الدين الأبهري (ملخص عن نقل قاضي زاده في شرحه لأشكال التأسيس).

يستهل قاضي زاده نقله بمصادرة يستند إليها الأبهري: إذا كانت لنا زاوية فانه يمكننا أن نخرج أوتارا إلى غير نهاية بحيث يقع بعضها تحت بعض، فيكون كل واحد منها قاعدة لمثلث متساوي الساقين.

ويحاول إثبات ذلك.

ثم يأتي بنص المصادرة: إذا وقع خط على خطين وصيّر الزاويتين الداخلتين في جهة أقل من قائمتين فانهما يلتقيان في تلك الجهة إن أخرجا.



١) الخطان أ ب، أ ج

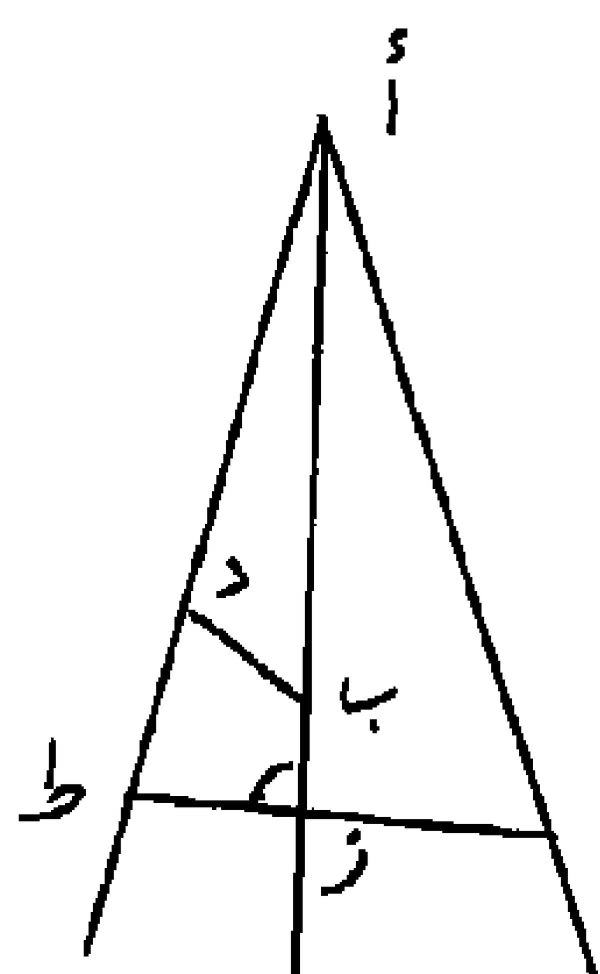
ب د يقطع أ ب

ب أ ج زاوية حادة

أ ب د زاوية قائمة

أ ز ط قائمة

هـ ط لا يلقى ب د، وإلا يحدث في مثلث قائمتان، وهو محال (الشكل ٢٠ من الشرح)



٢) أ ب د حادة

ز ب د منفرجة

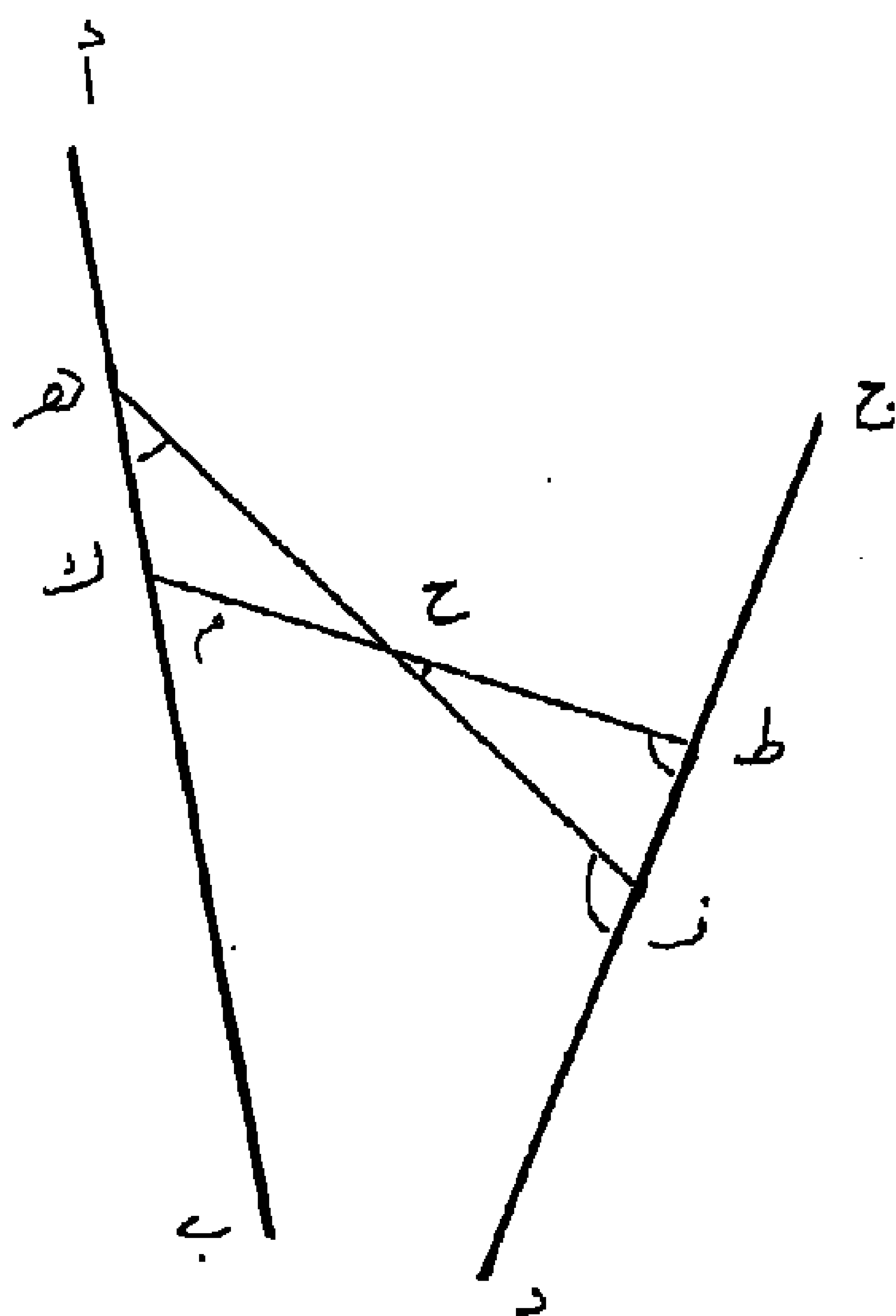
ب أ د حادة

أ ز ط قائمة

ز ط لا يلقى ب د

والا تقع في مثلث قائمة ومنفرجة

وهو باطل بعين الشكل



٣) الخطان أ ب، ج د

القاطع هـ ز

ب هـ ز حادة

د ز هـ منفرجة

ب هـ ز + د ز هـ أقل من قائمتين

ح منتصف هـ ز

ح ط ⊥ ج د

ح ط ز قائمة، ط ح ز حادة، ب هـ ح حادة

= خط أ هـ و ح م يلتقيان عند نقطة ك

هـ ك ح منفرجة وإلاّ لكانت قائمة أو حادة

I) لنفرض هـ ك ح قائمة يكن المثلثان قائما الزاوية هـ ك ح و ح ز ط متساويين ⇐ ك هـ ح = ح ز ط

⇐ زاويتا ز أصغر من قائمتين، خلف

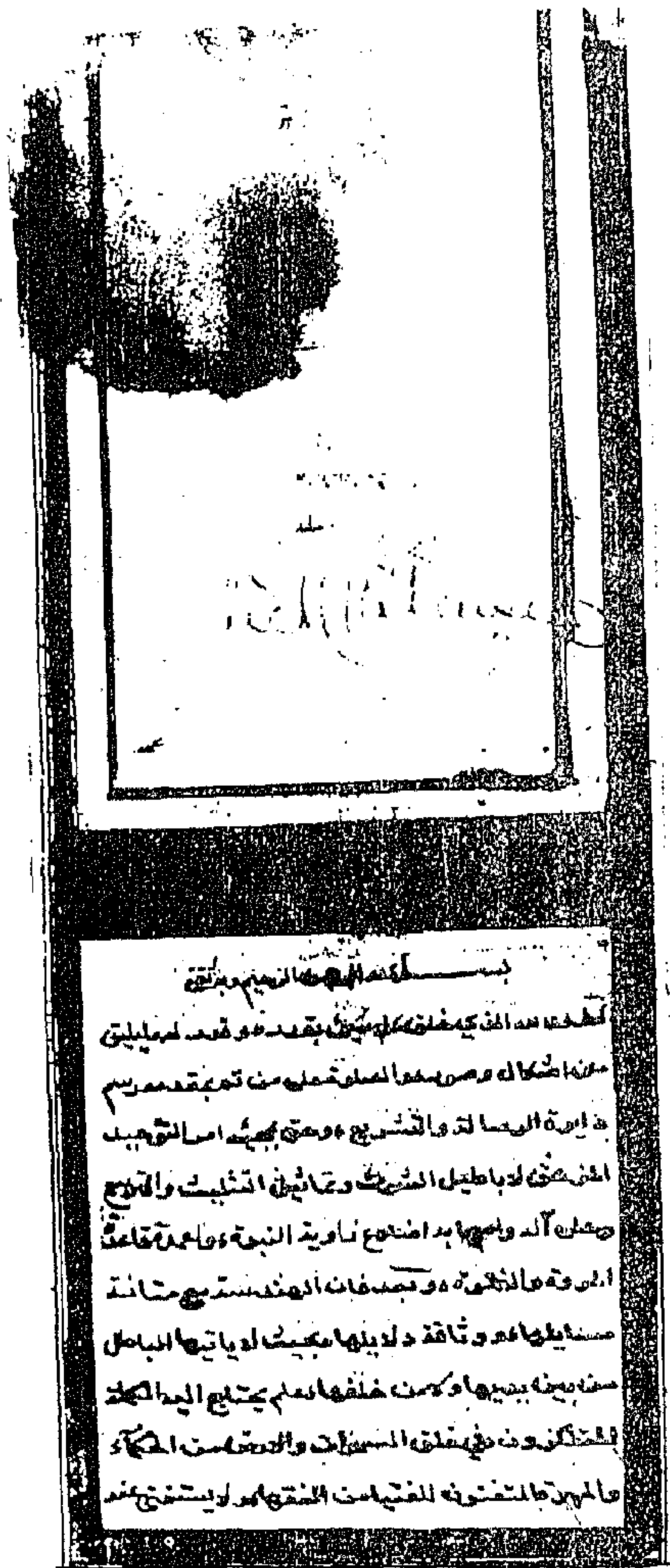
II) إن كانت هـ ك ح **حادة** وزاوية ك ط ج قائمة ⇐ (أ ب). و (ج د) يلتقيان (ب هـ ز) و (د ز هـ) أصغر من قائمتين

و (أ هـ ز) و (ك هـ ز) مثل قائمتين

⇐ (د ز هـ) أصغر من (أ هـ ز)، والخارجة أصغر من الداخلة؛ خلف إذن ثبت ان هـ ك ح **منفرجة** ⇐ هـ ك ط حادة

د ط ك قائمة

⇐ خطا ا ب، ج د بالفرض الأول يلتقيان وذلك ما أردناه.



الصحيفة الأولى من المخطوطة

والحمد لله على الاتمام والصلوة على نبيه محمد
سيد الانام واله الكرام واصحابه العظام
قال الشارح جرى عادة القوم ان ارخوا
وتاريخ تاليفه خيره باباء الموحده

وهذه الرسالة الحسنة المنيرة من ثامنة كتاب
الاصول لا تقليد منه ولكنه هنا آخر الكلام
وقد تم الكتابة بعون الملك الخلاق على يد
الفقير الحقير عبد القادر بن الشيخ مصطفى الملتقي
وذلك في اليوم الثاني عشر من شهر
شوال المبارك من شهور سنة ست وتسعين
ومائة والف من الهجرة
النبوية على صاحبها
افضل الصلوة
والسلام
والتحية
آمين
تم

١١٩٦

تاريخ فراغه	ابتداء تاليفه
١٠٠١	٦٠٠ خ
٢٠٠	٢٠٠ ـ
٦٠٠ خ	٢٠٠ ر
٦٠٠ و	٥٠٠ ه
١٠٠٦	١٠٠٧

الصحيفة الأخيرة من المخطوطة

المصادر والمراجع

باللغة العربية

خليل جاويش نظرية المتوازيات في الهندسة الاسلامية ط. تونس ١٩٨٨.

أحمد سليم سعيدان هندسة أوقليدس في أيد عربية، عمّان، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

محمد سويسي تحقيق وتقديم "أشكال التأسيس" للسمرقندي بشرح قاضي زاده الرومي، تونس ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

لسامي شلهوب وكمال نجيب عبد الرحمن :نظرية الخطوط المتوازية في المصادر العربية، حلب ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

عبد الحميد صبرة تحقيق مصادرات أوقليدس لعمر الخيام، الاسكندرية ١٩٦١.

باللغات الأجنبية

Alfonso: Meyaschricub 6. ms. Add 26894, British Museum.

A.C. Clairaut: Avant propos d'un manuel intitulé "Manuel de Géométrie", 1741.

Chr. Clavius: *Euclide's Elementorum, libri XV,* Cologne 1596; *Euclidis Elementorum geometricorum libri tredecim extraditione doctissimi Nasiriddini Tusini nune primum arabiae impressi,* Rome 1534.

H.Dilgan: Démonstration du Vème Postulat d'Euclide par Samarqandi, *Revue H.SH.* 1960.

Healt Thomas L.: *The thirteen book of Euclid,* 2nd ed. C.U.P. 1956.

Healt Thomas L.: *Greek Mathematics,* Oxford 1921.

Kh. Jaouiche: De la Fécondité Mathématique d'Omar Khayyam à G. Sacchieri, dans *Diogène,* LVII (1967), 97-113.

A. Mieli: *La Science Arabe,* Leyden 1938.

S.H. Nasr: *Islamic Science,* Londres 1976.

E.B. Plooij: *Euclid's conception of ratio and his definition of proportional magnitudes as criticized by Arabian commentators,* Rotterdam 1959.

W. Prenowitz, M. Jordan: *Basic concepts of geometry;* Blaisdell 1965.

B.A. Rosenfeld: The Theory of Parallel lines in the Medieval East, dans Actes du *X ème Congrés International d'Histoire des Sciences.*

B.A. Rosenfeld et A.P. Youschkevitch: *Omar al-Khayyam,* Moscou, 1962.

B.A. Rosenfeld: *Proofs of Euclid's Postulate 5 of Medieval mathematicians al-Hasan ibn al-Haytham and Leo Gersonides,* Moscou 1958 (en russe).

G. Saccheri: *Euclides ab omne naevo vindicadus,* Milan 1733.

G. Sarton: *Introduction to the history of Science,* Baltimore 1927-48.

D.E. Smith: Euclid, Khayyam and Saccheri, in *scripta mathematica,* II/1, Janvier 1935, 5-10.

M. Souïssi: 'ilm al-handasa, EI_2, 411-415.

René Taton (éd.) *Histoire Général des Sciences,* I, Paris 1906.

J.Wallis: De postulato quinto et definitione quinta lib. E. Euclides. in *Opera Mathematica* II, Oxford 1963, 665-78.

F. Woepcke: *L'Algèbre d'Omar al-Kayyami,* Paris 1851.

A.P. Youschkevitch: Geschichte der Mathematik im Mittlealter,

A.P. Youschkevitch: *Les Mathématiques Arabes;* traduction française par M. Cazenave et K. Jaouiche, Paris 1976.

الدور الرقابي لقضاء مصر
على مؤسستي المالية والإدارية إبان العصر العثماني

الدكتور سيد محمد السيد
كلية الآداب - جامعة جنوب الوادي
سوهاج - مصر

تهدف هذه الدراسة إلى بيان الوظيفة الرقابية لمؤسسة القضاء في أيالة مصر خلال العصر العثماني، وكيف أن هذه الوظيفة كانت تتفق مع الفلسفة الشرعية التي كانت توجه سياسة الدولة في كافة مؤسساتها، وكيف كان لها انعكاسات مؤثرة سلبا وإيجابا على سير عمل مؤسستي المالية والإدارية في مصر خلال القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري)، وحتى أوآخر القرن السابع عشر الميلادي (الحادي عشر الهجري).

لقد شكل التشريع الإسلامي القانون الأساسي للنظام الذي كانت تقوم عليه الدولة العثمانية[١]، حيث خضعت لمبادئ السياسة الشرعية [٢]، جميع رعاياها على اختلاف

---

(١) يقول هزارفن حسين أفندي في كتابه "تلخيص البيان في قوانين آل عثمان" : "دولت اشلرى دين اوزرينه بنا اولنور . دين اصل، دولت انك فرعى كورولمشدر ... ." : Ahmed Akgündüz, *Osmanlı Kanunnameleri ve Hukuki Tahlilleri*, I.,İstanbul 1990 ; 45-46 ,224

(٢) يقول عبد الرحمن تاج في تعريف الياسة الشرعية في الفقه الاسلامي : " انها اسم للأحكام والتصرفات آلتي تدار بها شئون الأمة في حكومتها وتشريعاتها وقضائها وفي جميع شئونها وسلطاتها التنفيذية والإدارية، وفي علاقاتها الخارجية التي تربطها بغيرها من الأمم، مع مراعاة أن تكون متفقة مع روح الشريعة، نازلة على أصولها الكلية، محققة أغراضها الاجتماعية، لا تقبل التغيير أو التبديل، ولا تختلف باختلاف الأمم والعصور" ؛ ثم يشير إلي مبادئ السياسة الشرعية فيقول : " ... وترجع أحكام السياسة الشرعية إلي قاعدة التيسير ورفع الحرج، ومبدأ الحكم بالعدل والتواصي بالخير، وان أمر المسلمين بينهم شورى يديرونه بما يحقق مصالحهم ويكفل سعادتهم " : السياسة الشرعية والفقه الإسلامي، القاهرة ١٩٥٣، ص ٧-٨، ١٤، ٦٦.

طبقاتهم[٣]، وكافة مؤسساتها سواء المركزية أو المحلية، وما كان يدير شئونهما من قوانين ولوائح [٤]. فكان السعي لتحقيق مبدأين أساسيين من هذه المبادئ في مؤسسات الدولة، وبين الناس؛ وهما: التيسير ورفع الحرج بما يتماشى مع تغير الزمان وتطور أحوال الناس[٥]، والحكم بالعدل والتواصي بالخير في استيفاء الحقوق والفصل في المنازعات[٦]، هو الغاية التي حملت فئة القضاة عبئها على مدى التاريخ العثماني الطويل.

تطور صلاحيات القضاء في العصر العثماني :

وكانت الوظيفة الأساسية للقاضي في البداية تنحصر في مهمة الفصل في المنازعات[٧]، ثم

---

(٣) كان تحقيق مبدأ العدل والمساواة بين الرعايا جميعا فيما عليهم من واجبات وما لهم من حقوق هو الهدف الأساسي لأحكام السياسة الشرعية : ابن القيم الجوزية، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، القاهرة ١٩٦١، ص ١٦-١٧.

(٤) تنقسم الأحكام في القانون العثماني إلى قسمين أساسيين : الأول - الأحكام التي تعتمد بشكل مباشر على القرآن والسنة، وما تم تدوينه في كتب الفقه الإسلامي، ويطلق عليها " الشرع الشريف" أو " أحكام الشرع" ؛ والثاني - الأحكام التي تتشكل من المصادر الثانوية التي تعتمد على صلاحيات التشريع المحدودة التي تكفلها أحكام الشرع، أو التي تعتمد على أساس الاجتهاد كالتنظيمات الشرعية الخاصة بالقانون المالي والعسكري والإداري، وكانت هذه تقوم على أساس الأعراف والعادات والمصالح العامة، وتعرف هذه الأحكام باسم " القانون العرفي " أو " القانون " أو " القانون نامه " أو " السياسة الشرعية . ولما لم تكن هذه الأحكام أيضا لا تخرج عن حدود الأسس الشرعية، فقد اعتبرت جزء ا من النظام التشريعي الإسلامي: Akgündüz , *Osmanlı Kanun nameleri* , I./45.

(٥) وقد مكن هذا المبدأ أولى الامر من وضع القوانين واللوائح الادارية والمالية والقضائية التنظيمية لمختلف المؤسسات، وتطويرها بما يتطلبه تطور اوضاع الدولة، على ألا تتناقض مع دليل من أدلة الشريعة التفصيلية التي روعي فيها مصالح الناس وعرفهم.

(٦) لقد حددت السياسة الشرعية مبادئ عامة للتعامل بين مؤسسات الدولة من ناحية، وبينها وبين رعاياها من ناحية اخرى، حيث اعتبر العلماء ان اقامة هذه المبادئ من الامانات التي كان لكل فرد في المجتمع نصيبه منها، فحصروا هذه الامانات في عنصرين اساسيين، هما: الولايات والاموال ؛ وحددوا حقوق وواجبات الحاكم والمحكوم لأداء هذه الامانات باستيفاء الحقوق والفصل بين المنازعات بالعدل: ابن القيم الجوزية، **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**، القاهرة١٩٦١،ص ١٦-١٧؛ ابن تيمية، **السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية**، ص ٤-٥،٢٢،٢٧-٢٨.

(٧) لما كان القضاء من الوظائف الداخلة تحت الخلافة، لانه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع (الماوردي، **الاحكام السلطانية والولايات الدينية**، ص ١١، ابن خلدون، المقدمة، جـ ٢، ص ٧٣٧)، فقد كان من الولايات العامة -كمنصب قاضي القضاة - والخاصة -كمنصب قضاة الاقاليم - التي كان يعهد بها الخلفاء لعلماء تتوافر فيهم صفات الاسلام، والعدالة، والعلم، والبلوغ، والعقل، والحرية وسلامة السمع والبصر (الماوردي، **الاحكام السلطانية**، ص١٢،٤٤). وكان اول من دفع هذا المنصب الى غيره من الخلفاء عمر ابن الخطاب، ونظرا لانشغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى في الدولة، راحت صلاحيات القضاء تزداد بالتدريج : **المقدمة**، ص ٧٣٨-٧٤٠ ؛ كذا انظر حسن ابراهيم حسن، على ابراهيم حسن، **النظم الاسلامية**، القاهرة ١٩٣٩، ص ٣٣٣ - ٣٣٦.

أضيفت إليها فيما بعد مهام عديدة أخرى(٨). ولما ورثت الدولة العثمانية نظم ومؤسسات الدول الإسلامية السابقة عليها، ومنها مؤسسة القضاء(٩)، لم يطرأ تغيير يذكر على هذه الوظائف القضائية والشرعية المناطة بالقضاة (١٠).

وخلال العصر العثماني اتسعت مؤسسات الدولة، حيث ظهرت الحاجة الملحة للحفاظ على سير العمل فيها، وحمايتها من الفساد والإضطراب. عندئذ أضيفت للقضاة صلاحيات جديدة تمكنهم من لعب دور رقابي على مختلف مؤسسات الدولة الهامة، والإشراف على أمورها الإستراتيجية (١١). وقد أخذت صلاحيات القاضي الرقابية تتطور باطراد بإصدار الأوامر والفرمانات السلطانية التي كانت بمثابة أحكام للسياسة الشرعية، إلى القضاة للقيام بمهام رقابية

(٨) عدد الماوردي (وفاته ٤٥٠) هذه المهام على هذا النحو : أ-الفصل في المنازعات وقطع التشاجر والخصومات .ب- استيفاء الحقوق من الممتنع منها وايصالها الى مستحقيها . جـ ثبوت الولاية على من كان ممنوعا من التصرف، والحجر على من يرى الحجر عليه حفظا للاموال على مستحقيها . د- النظر في الاوقاف بحفظ اصولها وتنمية فروعها . ه- تنفيذ الوصايا على الوصي فيما أباحه الشرع . و- تزويج الايامى بالاكفاء . ز- اقامة الحدود على مستحقيها . ح- النظر في مصالح عمله من الكف عن التعدي في الطرقات . ط- تصفح شهوده وامنائه واختيار النائبين عنه من خلفائه في اقارهم التعويل عليهم . ى- التسوية في الحكم بين القوى والضعيف والشريف والمشروف : الاحكام السلطانية، ص ٧١-٧٢.

(٩) M. F. Köprülü , *Bizans Müesseselerinin Osmanlı Müesseselerine Tessiri*, İstanbul 1981, s. 56-57;.

I. H. Uzunçarşılı , *Osmanlı Devleti Teşkilatına Medhal*, bas.3, Ankara, 1984, s. IX.-XIII.,14

(١٠) ورد في براءة تعيين احد القضاة صدرت عن السلطان سليمان القانولي عام ٩٥٣هـ، ذكر المهام الشرعية للقاضي العثماني الحنفي المذهب على النحو التالي: " بيوردم كه واروب قضاء مزبورده قاضي وحاكم اولوب، اجراى احكام شرايع نبويه، وانفاذ اوامر ونواهى اللهيه متمسك اولوب، شرع قديمدن متجاوز ايلميه، وأئمة حنفيه دن اقوال مختلفه واقع اولان مسائلده كما ينبغي تتبع ايدوب، اصح اقوالى بولوب، آنكله عمل ايليه ؛ وكتبه سجلات وصكوك وتزويج صغار وصغاير، وعقد النكحه، وتنفيذ وصايا، وقسمت مواريث رعايا، وضبط اموال ايتام وغايب، وعزل ونصب اواصى ونايب، وساير امور شرعية بالتمام والكمال على وجه التفصيل والاجمال متصرف ومباشر اولوب ... وجهت قضاده قضات سالفه هر نيه متصرف اوليكلمشلر ايسه، بو دخى اكا متصرف اولوب ..." : مكتبة بايزيد باستانبول، مجموعة ولى الدين افندى رقم [٢].

(١١) فيما يتعلق باتساع صلاحيات القضاة العثمانيين بحسب المذهب الحنفي، انظر أثر دده جوكي‌أفندى "سياست شرعيه" :
Ahmed Akgündüz , *Osmanlı Kanunnameleri*, IV., s. 147-148
keza bkz. " Maliyye Teşkilat Kanunnamesi " , Akgündüz , geçen eser ,IV.595;
"Kanunname-i Mısır" , VI/ 131

محددة(١٢)، ثم بالتأكيد فيما بعد على قيام كل قاضٍ بمثل هذه المهام منذ تعيينه، حتى صارت الرقابة على سير عمل مؤسسات الدولة الإدارية والمالية الهامة بحسب مبادئ السياسة الشرعية، وعلى التزام الرعايا بمبادئ الشرع في تعاملاتهم في مقدمة المهام التي كان يكلف بها القضاة في الدولة العثمانية(١٣).

وكان لمكانة أيالة مصر الاستراتيجية، منذ ضمها للإدارة العثمانية عام ١٥١٧م /٩٢٣هـ(١٤)، الأثر الأعظم في حرص الدولة على توفير حالة من الاستقرار في مؤسساتها، ومن العدل بين رعاياها(١٥)، والحفاظ على توازن العلاقة بينهما، والحيلولة دون

---

(١٢) وكان القضاة ينظرون فيما كانوا يكلفون به من مهام اشراف ورقابة، ثم يعرضون الامر بعد ذلك على مركز الدولة مباشرة: I.H.Uzunçarsılı , *Osmanlı Devletinin İlmiye Teşkilatı*, s. 109, keza bkz. Akgündüz ,I/228:

(١٣) اتسعت صلاحيات القضاة في العصر العثماني، حيث شملت الاشراف على ضمان تنفيذ كافة شئون الدولة الميرية، كتوفير الغلال والعمال، وارسال الدواب، وجمع العسكر، وجميع الامور الاقتصادية، ووضع التسعيرة للبضائع بحسب وضع الأسواق، واعمال البلديات(الحسبة)، وذلك عدا الامور المتعلقة بالانضباط الامني والعسكري . وهكذا، أصبح القضاة اصحاب وظائف استراتيجية لها علاقة مباشرة بمركز الدولة بحسب الصلاحيات المكفولة لهم: .(*İmiyye Teşkilatı*, 109);

(١٤) فيما يتعلق بمكانة مصر الاستراتيجية في العصر العثماني انظر:
Seyyid Muhammed es-Seyyid Mahmud , *XVI. Asırda Mısır Eyaleti* , İstanbul 1990, 263-278 ;
بالنسبة للنسخة العربية : سيد محمد السيد، مصر في العصر العثماني في القرن ١٦، " دراسة وثائقية في النظم الادارية والقضائية والمالية والعسكرية "، القاهرة١٩٩٧ ،ص ٤٢٩-٤٥٢، كذا انظر : " إيالة مصر ومكانتها الاقتصادية الهامة لدى الاستانة"، مجلة كلية الاداب بسوهاج، عدد١٥/ابريل١٩٩٤، ص ٤٩-٥٠ ؛ " دور مصر الاستراتيجي في الحوض الشرقي للبحر المتوسط خلال القرنين ١٦-١٧م"، نفس المجلة والعدد، ص ٢٠١-٢٠٢.

(١٥) لقد دفع ادراك السلطان سليم [الأول] لمكانة مصر الاستراتيجية بالنسبة لمركز الدولة ولولاياتها في المنطقة، دفعه للاقامة في مصر مع هيئته الديوانية الكاملة لما يقرب من ثمانية شهور(٢٩ذو الحجة٩٢٢-٢٢شعبان٩٢٣)، وذلك حتى يتيسر له الاطلاع على احوالها وتنظيم شئونها . واذا كان السلطان لم يتمكن من وضع نظام دائم لايالة مصر خلال هذه الفترة، فقد حرص على ادارة شئون مصر من الاستانة مباشرة، من خلال هيئة ادارية وضع على رأسها نائب حلب المملوكي السابق خاير بك (Seyyid M. es-Seyyid, "Hayır bey " , TDV. *İslam Ansiklopedisi* , XVII/49-50 وقد استمرت الدولة في ارسال اداريها وقضاتها الى مصر محاولة تأسيس ادارة عثمانية مستقرة في البلاد حتى توجه الصدر الاعظم ابراهيم باشا الى مصر عام ١٥٢٥م/٩٣١، وأعد قانونا دائما للادارة العثمانية في مصر (*XVI asırda Mısır Eyaleti* , s 48) وحرصا من الدولة على توفير حالة من الاستقرار في الايالة، راحت تدعم هذا القانون بأوامر وفرمانات متتالية لمواجهة الاوضاع المتجددة في البلاد، وذلك حتى مطلع القرن ١٩م : سيد محمد السيد، " دستور العمل في النظام الاداري والمالي بايالة مصر في مطلع القرن ١٨م/١٢ هـ، (بحث مقبول للنشر).

تعدي أو ظلم طرف لآخر[١٦]، وذلك حتى يمكن للايالة القيام بمسئولياتها الجسام في الداخل وفي الخارج[١٧]. وبذلك اكتسبت مؤسسة القضاء في مصر مكانة متميزة في التشكيل القضائي العثماني[١٨]، يبرز هذا الدور الهام الذي اضطلعت به في الايالة.

وقد تجسدت الأهمية الاستراتيجية لهذه المؤسسة في الوظائف والمهام التي كان يقوم بها قاضي مصر وقضاة الأقاليم بحسب الصلاحيات المكفولة لهم، والتي يمكن تقسيمها إلى قسمين أساسيين:

الأول – النظر في الأمور الشرعية والقضائية بشكل يضمن توفير جو من العدل بين الناس.

الثاني– الرقابة على تطبيق أحكام القوانين العثمانية والفرمانات السلطانية بحسب مبادئ السياسة الشرعية في مؤسسات ايالة مصر عموما، وفي أمور الدولة الميرية المالية

(١٦) لما كانت اقامة العدل بين رعايا الدولة، تأتي على رأس المهام الشرعية التي كان يناط بها اداريو الايالة في مصر، فقد حرص السلاطين العثمانيون على التأكيد على عدم التجاوز والتعدي على الرعية بغيرحق فيما وضعوه من قوانين ولوائح، وفيما كانوا يرسلونه باستمرار لامير امراء مصر وقضاته : يؤكد **قانون نامهٔ مصر** حرص الدولة على وضع خطوط عريضة للعلاقة بين الرعية من ناحية ومؤسسات الايالة من ناحية لخرى، تقوم على اساس العدل والحق وعدم الانحياز لطرف دون آخر بقوله : " ...من بعد آنده ديوان عدالت اركانده سنوك [امير الامراء] وناظر الاموالك حضورنده محروسه مصر قاضيسنك مباشرتيله شرع شريف مقتضاسنجه استماع ايدوب، ميل ومحابا ايتميوب، حق صريحه تابع الاسز ..." (Mısır Kanun namesi ",Akgündüz ,VI/ s. 170.

كذا انظر : " **قانون نامهٔ مصر**"، ص ٧٧ ؛ ارشيف رئاسة الوزراء، " مهمه دفترى"، رقم٣/١٩٣؛ رقم٦٠/١٤).
وهكذا، اعتبر نجاح امير امراء مصر في التوفيق بين نشر العدل بين الرعية، وبين الايفاء بمتطلبات مركز الدولة، سببا في ابقائه في الايالة فترة أخرى: (*XVI. Asırda Mısır Eyaleti* , s. 106).

(١٧) " **ايالة مصر ومكانتها الاقتصادية الهامة لدى الآستانة** "، ص ٤٩–٥٠.

(١٨) قام القانون الأساسي للدولة العثمانية على أسس شرعية، حيث اعتبرت مؤسسة القضاء في الدولة أهم مؤسسة على الاطلاق (Akgündüz,I./324) . فكان على رأس هذه المؤسسة، الخليفة أو السلطان نفسه، وينوب عنه فيها شيخ الاسلام. ونظرا للمكانة الهامة التي احتلتها أيالة مصر في الدولة، اعتبرت مؤسسة القضاء في مصر واحدة من المناطق القضائية الممتازة في الدولة، حيث جاءت مرتبة قاضي مصر بعد منصبي الصدرين(قاضيعسكر الروملي، وقاضيعسكر الاناضول)، ومناصب قضاء مراكز السلطنة الثلاثة (استانبول، أدرنة، وبروصه)، فاطلق على قاضي مصر لقب " مولانا"، وعلى منصبه "مولويت" (ارشيف رئاسة الوزارة، كامل كبجي، **دفاتر رؤوس همايون** رقم ٥٢٢/ص٢٦٦-٢٦٧، محرم ٩٨١هـ، ودفتر مهمة رقم ٢/ص ٢٣١، جمادى الاولى ٩٦٤هـ، رقم ٣٢/١-٢، ٩٨٥هـ، **ذيل المهمة** رقم ٢٠٨/٨، جمادى الآخرة ٩٨٩هـ، كذا انظر محمد نور فرحات، **القضاء الشرعي في مصر العثمانية**، سلسلة تاريخ المصريين، عدد١٧، ص١٧،٦٧ ؛ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، " **القضاء في مصر العثمانية** "، **فصول في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي**، سلسلة تاريخ المصريين رقم(٣٨).

والإدارية على وجه الخصوص، على نحو يحافظ على انضباط عمل هذه المؤسسات، ويحول دون تطرق الفساد إليها.

فإذا كانت الدراسات الحديثة قد أكدت على أن أيالة مصر خلال العصر العثماني كانت تتمتع بموقع إداري ومالي واقتصادي وعسكري هام بالنسبة للآستانة ولمنطقة الشرق الأوسط ولإفريقيا، ومن خلال مؤسساتها أدارت الآستانة كافة شئون هذه المنطقة، ووفرت احتياجاتها الاستراتيجية(١٩)، **أدركنا أهمية الوظيفة الرقابية التي كانت تقوم بها مؤسسة القضاء في مصر في مؤسسات الايالة عموما، ومؤسستي المالية والإدارية خصوصا.**

الوظيفة الرقابية لقضاء مصر :

لما كان قضاء ايالة مصر يمثل جزءا حيويا من التقسيم القضائي في الدولة العثمانية، فقد كان يجري عليه كافة أحكام القوانين واللوائح المتعلقة بالنظام العام للقضاء في الدولة، والصلاحيات العامة المكفولة للقضاة بحسب درجاتهم(٢٠). وقد تبلورت صلاحيات قضاة مصر من خلال مصدرين أساسيين:

الأول – قانون نامة مصر(٢١).

الثاني – الفرمانات والأحكام السلطانية التي كانت تصدر لقاضي مصر مع أمير أمراء مصر في موضوعات خاصة، ثم استقرت ببنودها بعد ذلك(٢٢).

فإذا كان القانون العثماني قد اقر بالمسئولية الرقابية المباشرة لمؤسسة القضاء في الدولة، فقد فصل قانون نامة مصر الصلاحيات الرقابية المباشرة لمؤسستي المالية والإدارية في ايالة مصر، وحصرها في كل ما يتعلق بمصادر الدخل الميرية من أراض وجمارك ومقاطعات في هاتين المؤسستين، وذلك منذ التصديق على تعيينات الموظفين المعنيين بمصادر الدخل هذه، بمعرفة قاضي مصر وشهادة الشهود الشرعيين، ومرورا بمباشرة هؤلاء لوظائفهم

(١٩) *XVI.asırda Mısır Eyaleti* , s. 263

(٢٠) " kanunname-I Al-i Osman " , Akgündüz , I. / 324 , 227-230

(٢١) قانون نامة مصر، ص. ٣٤-٣٥، ٣٩،٥١، ٥٤-٥٧، ٦٠-٦١، ٦٧، ٦٩، ٧١، ٧٦ -٧٨، ٨٢-٨٦ ؛ " Kanunname-I Mısır ". Akgündüz , s. 158,162-164 , 167, 170-171 , 173

(٢٢) Akgündüz , *Osmanlı Kanunnameleri* , I/ 228; Uzunçarşılı , *İlmiye Teşkilatı* , s. 109

في ظل الرقابة الشرعية والقانونية لقاضي مصر ولنوابه في الولايات، وانتهاء بتحري تصرفات هؤلاء الإداريين ورفع تجاوزاتهم الشرعية والقانونية إلى أمير أمراء مصر، حمايةً لموارد الدولة الميرية في مصر من الضياع، ولمؤسسات الأيالة من الفساد، وتحقيقا للعدل بين الرعايا.

وقد أضافت الفرمانات السلطانية الصادرة لقاضي مصر مع أمير الأمراء صلاحيات رقابية أكثر عمقا وتأثيراً على مؤسستي الإدارية والمالية شملت استيفاء الحقوق بين إداريي الأيالة والإدارة المركزية من ناحية، وبينهم وبين الرعايا من ناحية أخرى، وذلك حتى أصبحت هذه المهمة الرقابية بمثابة صمام أمان إداري ومالي بالنسبة للدولة يحول دون تردي أوضاع مؤسسات الأيالة عموما، والمؤسسات التي ترعى شئون الدولة الميرية في مصر على وجه الخصوص.

ولما كان قاضي مصر يأتي في التشكيل الإداري في الأيالة على رأس أعضاء "ديوان مصر العالي"(٢٣) بعد أمير الأمراء مباشرة، فقد كانت له صلاحيات النظر في كافة شئون الأيالة الهامة المعروضة على الديوان من الوجهة الشرعية وبالخاصة في الدعاوى القضائية المتعلقة بالشئون المالية والإدارية، والمسائل المالية والإدارية التي تحتاج إلى الرأي الشرعي والتحقق والقضائي (٢٤)، معتمدا على شهادة الشهود قطعا للتنازع، وعلى التسجيل في السجلات حفظا للحقوق والأملاك والديون(٢٥). كما كان قضاة الولايات والثغور في الأيالة ينظرون في مجالسهم الشرعية الأمور الخاصة بالمتعلقات السلطانية والأموال الميرية إلى جانب مهامهم القضائية والشرعية الأخرى (٢٦).

---

(٢٣) كان " ديوان مصر العالى " يعقد اربعة ايام في الاسبوع تحت الرئاسة العرفية لامير الامراء، والرئاسة الشرعية للقاضي، والرئاسة المالية للدفتردار . وكان ينظر هذا الديوان في شئون الايالة الهامة، حيث كانت تحول الامور الاعتيادية الى دواوين القاضي والدفتردار (*XVI. Asırda Mısır Eyaleti*, s. 111-112) . ولذلك، يعتبر القانونيون الترك ان دواوين الايالات كانت بمثابة " محاكم استيئناف" صغرى تنظر في قضايا الايالة المحلية قبل عرضها على الديوان الهمايوني الذي يعد اعلى محكمة استئناف في الدولة : Akgündüz , *Osmanlı Kanunnameleri*, I/ 233

(٢٤) *XVI. Asırda Mısır Eyaleti*, s. 112 , 247

(٢٥) اعتبر ابن خلدون ان الشهادة والتسجيل، هما قوام مهمة اقامة العدل بين الناس : **المقدمة**، ج. ٢، ص ٧٤٣.

(٢٦) قانون نامة مصر، ٥٣-٥٤ ؛ " Kanunname-İ Mısır " s. 163

ضبط عمل الجهاز الإداري :

إذا كان القانون العثماني قد أقر بأن تتم كافة تعيينات الأيالة الإدارية في" الديوان الهمايوني"(٢٧)، حيث كان يصدر فرمان التعيين إلى صاحب الوظيفة الذي يؤمر بالتوجه إليها بموجب هذا الأمر(٢٨)، فقد اودع " قانون نامهٔ مصر" أمر تعيين إداريي مصر المحليين في يد أمير الأمراء ودفترداره، وتحت إشراف قاضي مصر، على ألا يُعين أحد من هؤلاء رجاله في أية وظيفة تتعلق بالأموال السلطانية(٢٩)، ويتحرون الأمانة والاستقامة فيمن يختارونه للعمل في المؤسسات الميرية الهامة من خدم السلطان بالايالة(٣٠). ولكن تسلم إداريي الدولة على اختلاف مناصبهم أعمالهم في ايالة مصر، كان يتم تحت إشراف ومراقبة قاضي مصر في الديوان العالي. فكانت عملية نقل سلطة أمير أمراء مصر السابق إلى اللاحق تجري بمعرفة قاضي

---

(٢٧) وهو المجلس الاعلى للدولة العثمانية، كان يعقد ايضا اربعة ايام في الاسبوع، تحت رئاسة السلطان نفسه أو من ينوب عنه، وينظر في كافة شئون الدولة السياسية والعسكرية والادارية والشرعية -القضائية والمالية الهامة، والدعاوى والشكاوى المختلفة ؛ فهو يقوم بدور " ديوان المظالم " في الدول الاسلامية السابقة . ويأتي على رأس الاعضاء الاساسيين : الوزير الأعظم أو الصدر الأعظم، ثم قاضيا عسكر الروملي والأناضول، ودفتردارا الروملي والأناضول، والنيشانجي، واغا الانكشارية: I. H. Uzunçarsılı , *Osmanlı Devletinin Merkez ve Bahriye Teşkilatı* , Ankara 1948 , s. 2,13-14 , 22; " Kanunname-I Al-i Osman " , nşr. Akgündüz ,I/320-321; M. Z. Pakalın , *Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü* , İstanbul 1971 , I./462-5 .

(٢٨) كان هذا الفرمان يصدر بعد ان يقوم قلم التحويل في الديوان الهمايوني بتسجيل هذه التعيينات في سجلاته، ثم يعرض الوزير الاعظم الامر في تلخيص على السلطان في حجرة العرض، حيث كان السلطان يقوم بوضع خطه الهمايوني بالموافقة على العرض، ومن ثم، يصدر به الفرمان : Uzunçarşılı , *Merkez ve Bahriye Teşkilatı* , s. 44

(٢٩) قانون نامهٔ مصر، ص٧٧ ؛ Kanunname-I Mısır " , s. 170-171 " ؛ عندما يحدث محلول في احدى المناصب، [أي تصبح شاغرة] يقوم امير الامراء بترشيح الشخص المناسب، يرفع هذا الترشيح للاستانه للموافقة عليه، ومن ثم يتم التعيين بتحرير حجة شرعية تحت شهادة الشهود بمعرفة قاضي مصر : ارشيف رئاسة الوزراء، تصنيف كامل كبجي رقم (٧٩) ص٤٦٣، ذو الحجة ٩٧٨هـ؛ دفاتر المهمة رقم (١) ص ١٧١، ذو الحجة ٩٦١هـ.

(٣٠) اذا كان قانون نامهٔ مصر قد عين خدم السلطان الذين يمكنهم العمل في وظائف الخواص السلطانية، وفي الموانى والمقاطعات الهامة بقوله : " اكر كوكللو طايفه سلدن، واكر آتلو توفنكجيدن، واكر جراكسه دن، واكر جاوشلردن ..."، الا انه لوحظ منذ أواخر القرن ١٦م/١٠هـ، وعلى اثر زيادة نفوذ الامراء السناجق في الايالة، واختراق هذه المؤسسات، وتمكن العديد من رجال الامراء وذويهم من تجاوز هذا البند في القانون؛ قد أدى الى حماية هؤلاء الامراء لاتباعهم، ومن ثم الى عجز القضاة عن مزاولة نشاطهم الرقابي على هذه المؤسسات : انظرارشيف رئاسة الوزراء، دفاتر المهمة رقم (٥٦) ص٥٧، جمادى الاولى ١٠١٦هـ.

مصر في الديوان، حيث كانت تشكل هيئة شرعية لتسليم محاسبةالوالي المعزول، وإصدار حجة بما له وما عليه من أموال وحقوق.

فقد بين عرض قاضي مصر المولا أحمد إلى الاستانة عملية انتقال السلطة من اسماعيل باشا (١١٠٧-١١٠٩/١٦٩٥-١٦٩٦م) إلى حسين باشا (١١٠٩-١١١١/١٦٩٨-١٦٩٩م)، تحت إشرافه، وذلك من خلال إتمام عملية المحاسبة بينهما، بقوله :

" .. انه بحسب العادة القديمة، وقانون مصر الجاري، أجرى حسين باشا محافظ مصر المحاسبة مع اسماعيل باشا المحافظ السابق. وقد تم الإطلاع على محاسبته بمعرفة أصحاب الدراية، بحيث تبين انه لم يحدث أي غدر للمال الميري من أي طرف. عندئذ عقد مجلس للشرع الشريف بحضور قاضي مصر السابق عبد الحليم أفندي، حيث حررت حجة شرعية قاطعة للخصام، تشير إلى عدم بقاء أي شئ في ذمة أحدهما للآخر، بوجه من الوجوه، وبسبب من الأسباب "(٣١).

كما كان قاضي مصر يقوم في الديوان العالي أيضا وبحضور أمير الأمراء وبقية أعضاء الديوان بالتصديق على تعيينات الكشاف ومشايخ العربان ،وتوجيه الالتزامات إليهم والى العمال والمباشرين (٣٢).

---

(٣١) " عرض داعئ كمينه بودر كه مصر معزيه محافظى اولان دستور مكرم مشير مفخم وزير روشن ضمير حسين باشا حضرتلرى معتاد قديم وقانون مصر اوزره، سابقا مصر محافظي اولان اسماعيل باشا حضرتلريله خط همايون شوكتمقرون ايله محاسبه كوردكلريندە، امور محاسبه يه وقوف تامى اولان امرا وارباب اقلام ويدى بلوك اختيارلرى ايله طرفيندن بريله غدر اولممق وجه اوزره محاسبه لرى كوريلوب، منصل بولدقده، سلفمز مصر قاضيسى عبد الحليم افندى ايله عقد مجلس شرع شريف اوللوب، احدهمانك آخرذمتلده وجها من الوجوه، وسببا من الأسباب بر شئ باقى قالمديغنه حجت شرعية قاطع الخصام النمش ... ": ارشيف رئاسة الوزراء، تصنيف ابن الامين، داخلية رقم ١٢٣٤، اواسط ذي القعدة ١١٠٦هـ؛ كذا انظر ارشيف طوپ قاپو سراي، دفتر المهمه، اوراق رقم ١٢٣٢١/ ٥أ، ٦أ ؛ ارشيف رئاسة الوزراء، دفاتر المهمه رقم(٤٣) ص٤٧، ربيع الاخر ٩٨٨هـ.

(٣٢) كانت أقاليم مصر تنقسم الى مقاطعات وُجِّهَتْ للكشاف ولمشايخ العربان المعينين على ادارة الأقاليم، وعدد كبير منها يعطي بطريق الالتزام، حيث كان يتم تقلدهم للأقاليم والتزامات الأراضي في نفس الديوان، تحت شهادة الشهود، وبمباشرة قاضي مصر واميرالامراء : ارشيف رئاسة الوزراء، دفاتر ماليه دن مدوره، دفتر مقاطعات مصر لعام ١٠٠٠هـ، رقم ٤١١٦، ص ٦٩ .

أما في حالة إخلال هؤلاء الإداريين بالتزاماتهم في التقيد بقوانين الدولة، وإحداثهم مخالفات إدارية أو مالية أو شرعية في مؤسساتهم، كانت الإدارة المركزية تقرر إجراء تفتيش شرعي على هؤلاء الإداريين المخالفين **تحت مراقبة وإشراف قاضي مصر**، وبحضور أمير الأمراء، أو من ينوب عنه، حيث كانت هذه المحاسبة تتم من خلال سجلات القضاة ودفاتر الروزنامة(٣٣).

فعلى إثر عرض أمير أمراء مصر بان شيخ عرب البحيرة الأمير عيسى قام بقتل رعايا كثيرين، ونهب أموالهم وأرزاقهم، وفرط في محصول الولاية المذكورة، رُفع الامر إلى الاستانة، حيث صدر امر إلى أمير أمراء مصر ولقاضيه ولدفترداره جاء فيه:

" .. عندما يصل حكمي الشريف، فعليكم ألا تظهروا أي تراخ أو تأخير، وان تهتموا بأحوال المذكور كما ينبغي، بموجب الأحكام الشريفة التي أرسلت من قبل، وان تقوموا بإجراء التفتيش عليها بحسب الشرع، وبعد إعادة الأموال والأرزاق المغتصبة إلى أصحابها بحسب الشرع، فانه يجب بيان عدد الأنفس التي ثبتت شرعا ضرورة القصاص فيها ضده، وعدد المواد التي ثبت التفريط فيها وخيانتها حتى الآن من المواد الخاصة التي تتعلق بخزانة مصر من محصول الولاية المذكورة، وعرضها جميعا بشكل صحيح وعلى التفصيل على العتبة العلية .."(٣٤).

وبناءا على هذا، كان يصدر قرار عزل إداريي ولايات مصر. ومن ناحية أخرى، كان قاضي مصر مفوضاً في ضبط محاسبات خدم الدولة المتوفين من واقع السجلات الشرعية،

---

(٣٣) قانون نامة مصر، ص ٣٠-٣١، ٣٥، ٣٩ – ٤٠ ؛ "Kanunname-I Mısır ".s . 156 , 159-160

(٣٤) " بيوردم كه حكم شريفم واريجق اصلا تاخير وتراخى اتميوب، سابقا ارسال اولنان احكام شريفه مقتضاسنجه، مذكورك احوالن كركي كبى دخل واهتمام ايله بحسب الشرع تفتيش ايدوب، رزقلرى ومالرى شرعله اصحابنه اليويردكدن صكره، وشرعله قصاصى لازم كلملرين قاج نفس كمسله لك قاتى اوزرنه ثابت اولورسه، وولايت مزبوره محصوللدن شمديه قدر خزانة مصره عايد وراجع اولان اقوال خاصه نمقدار غدر وخيانت اولمش ثبوت اولان مواددن برى كتم اولنميوب، جملسن صحتي اوزره على التفصيل عتبة عليامه عرض ايليه سز . " : دفاتر المهمة رقم (٦) ص ٥٠٤، شوال ٩٧٣هـ.

وحصر متروكاتهم بعد أداء ما عليهم من ديون للدولة وللرعية(٣٥)، أو مصادرتها "لبيت المال"، إذا لم يكن لديهم ورثة (٣٦).

لم يتوقف دور قاضي مصر الرقابي عند هذا الحد، بل استمر نشطا في الجهاز الإداري بالايالة لتحقيق مصالح الرعية ورفع الضرر عنهم، واقامة العدل بينهم، ومنع عدوان بعضهم على بعض. فامتد هذا الدور الرقابي إلى حد متابعة القاضي لمدى إيفاء إداريي الأيالة بما كلفوا به من وظائف ومهام بحسب الشرع والقانون(٣٧). ولم يستثنى من الوقوع تحت هذه الرقابة حتى أمير الأمراء نفسه . فكانت لقاضي مصر صلاحية رفع تقارير سرية عن أحوال

---

(٣٥) كان قاضي مصر يباشر عملية حصر مخلفات خدم الدولة المتوفين بمصر، فيأمر بتحرير دفتر مفصل بها لرفعه إلى الأستانة، ثم يذيله بعبارة " احاط علمي بجملة ما رقم فيه "، وبتوقيعه وخاتمه : انظر دفتر مخلفات امير امراء مصر اويس باشا، دفاتر ماليه دن مدوره رقم (٣٧٤)، رجب ٩٩٩هـ، كذا انظر دفاتر المهمة رقم (١٩) ص٦١، محرم ٩٨٠هـ، تصنيف كامل كبجي رقم (٧٩) ص. ٢٢٩، ربيع الاولى ٩٧٩، رقم (٢٢٢) ص٤٧، رمضان ٩٧٨هـ.

(٣٦) أطلق اصطلاح " بيت المال" على خزينة الدولة العثمانية في البداية، ثم فقد معناه بعد ذلك، وصارت خزينة الدولة تعرف باسم " خزينة عامره " . وهكذا، انحصر اصطلاح " بيت المال " في الاشارة فقط الى المؤسسة التي تقوم على حفظ التركات التي ليس لها وارث شرعي، أو التي لا يعرف وارثها الشرعي (, " Beytu`l-mal " , Mehmed Erkal TDV. *İslam Ansiklopedisi,* VI/92-93)، وذلك لمدة خمس سنوات، حيث كانت تعد بعد ذلك من واردات " بيت المال " :

M.A. Pakalın , *Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri sözlüğü,* I/225-226.

واذا كان قانون نامة مصر قد حول لقاضي الايالة سماع دعاوى بيت المال التي تقل عن ١٠٠٠٠٠ آقجه، الفصل فيها بمعرفة ناظر الاموال (الدفتردار)، الا انه في مادة تالية أقر بنظر قاضي مصر في القضايا التي تتعلق ببيت المال، قلت أم كثرت، وذلك في ديوان العدالة (أي ديوان مصر العالي)، بحضور امير امراء مصر ودفترداره (ناظر الاموال): ص ٧٦-٧٧.

(٣٧) كان توجيه الاحكام الصادرة عن الديوان الهمايوني الى امير امراء مصر ودفترداره، و توجيهها في نفس الوقت إلى قاضي مصر او أحد قضاة النواحي يشير الى الدور الرقابي الشرعي الذي لعبته مؤسسة قضاء مصر في مختلف المعاملات الادارية والمالية التي كان يباشرها سواء امير الامراء أو نائبه في الشئون المالية الدفتردار. فقد كانت تتردد عبارات واضحة تشير الى هذا الدور الرقابي لمؤسسة قضاء مصر في تنفيذ الاحكام الادارية والمالية في مؤسسات الايالة، نحو : " ... شرعله اوكات وجهيله امرم موجبنجه كوره سز.." (دفاتر المهمة رقم (٣٣) ص١٤٨، رجب ٩٨٤هـ)؛ "...ارسال اولنان احكام شريفه مقتضاسنجه مزكورك احوالن كركى كبى دخل واهتمام ايله بحسب الشرع تفتيش ايدوب ..." (دفاتر المهمة رقم (٦) ص٥٠٤، شوال ٩٧٢هـ) ؛ "... بر فرده ظلم وتعدى ايلمكدن خلاف شرع اهل فساد حمايتدن احتراز ايليه سز ..." : دفاتر المهمة رقم (٨١) ص٥٤، شوال ١٠٢٥ هـ.

أمير الأمراء مع خدم الدولة والعلماء والرعية، وكيفية إدارته لشئون الأيالة والأمور الميرية فيها(٣٨).

فقد قام قاضي مصر شعبان أفندي برفع عريضة إلى الآستانة، أشار فيها إلى أحوال أمير أمراء مصر محمد باشا (١٠٤٧-١٠٥٠/١٦٣٧-١٦٤٠م) بقوله :

"... إن حضرة صاحب العزة والدولة كثير المروءة ... يهتم بجميع أمور الأيالة، وانه في الحقيقة يبذل مقدوره وسعيه في إخراج الخزينة بصفة خاصة ..." (٣٩).

وعلى الرغم من ذلك، فقد كان قاضي مصر يحتاج لسلطة أمير الأمراء التنفيذية حتى تكتسب وظيفته الرقابية هذه الفاعلية اللازمة. ومن ثم أوجب قانون نامۀ مصر على الهيئة الإدارية العليا في الأيالة – أي أمير الأمراء، القاضي، والدفتردار – التنسيق فيما بينهم لادارة شئون الأيالة بالعدل ودون محاباة لاحد (٤٠)؛ كما أكدت المراسلات بين مركز الدولة وأيالة مصر على ضرورة تعاون أمير الأمراء في مصر مع قاضيه، وذلك " بكمال الوفاق، وحسن الاتفاق" في إدارة مصالح العباد، بموجب الشرع المطهر"(٤١).

---

(٣٨) فيما يتعلق بالتقرير الذي قام قاضي مصر صدر الدين افندى برفعه الى الآستانة عن احوال امير امراء مصر عبد الرحمن باشا، والذي جاء فيه ان الوالي يقوم بادارة شئون أمراء السناجق وكافة طوائف الجند، والامور الميرية في الايالة باهتمام، وعلى النحو اللائق، وأنه رجل متدين، ولم يظلم احدا منذ توليه وظيفته، وأن العلماء والفقراء والاغنياء يدعون له، وأن البلاد في حالة استقرار. انظر: ارشيف طوپ قاپو سراي، أوراق رقم ٩٩٢٢، ١٠٦٢ هـ.

(٣٩) "... والى مصر عزتلو صاحب دولت وكثير المروت...حضرتلرى دخى جميع اموريلـه اهتمـام خصوصا خزينه اخراجنده حق بو در كه بذل مقدور ايدوب سعى بى شمار ايلمشدر...": ارشيف طوپ قاپو سراي، اوراق رقم ١٠٩٩٣.

(٤٠) قانون نامۀ مصر، ص ٧٧-٧٨، ٨٤؛ " Kanunname-İ Mısır " , s. 171,173

(٤١) في خطاب ارسله الصدر الاعظم قارا مراد باشا (٢١ مايو ١٦٤٩ – ٥ اغسطس١٦٥٠) الى امير امراء مصر أحمد باشا (مارس١٦٤٩- يناير ١٦٥١)، عند تعيين محمد افندى على مؤسسة قضاء مصر، يوصي الاول الثاني بالتعاون مع القاضي الجديد بقوله : " ... كمال وفاق وحسن اتفاق ايله مصالح عباد الله ايله بر موجب شرع مطهر تقيد واهتمام بيوريله ..." : ارشيف طوپ قاپو سراي، اوراق رقم ٦٦٤/٢٢.

حماية مصادر الدخل السلطانية :

لما كان المال هو قوام الدولة، ودعامة السلطة فيها، فقد كانت صيانته عن التلف، وحمايته من الضياع من أعظم الواجبات(٤٢) التي عهد بها السلاطين العثمانيون للولاة، ولنوابهم الشرعيين من القضاة في مختلف ولايات الدولة .

فإذا عرفنا أن الخزينة الإرسالية التي تقرر إرسالها من مصر للآستانة كل عام، تمثل مصروفات الجيب الهمايوني، والاحتياطي الإستراتيجي لخزينة الدولة(٤٣)، اتضح لنا إلى أية درجة كان اهتمام الدولة بمصادر الدخل في مصر. وعلى سبيل ذلك، أبقى قانون نامهٔ مصر الإدارة المحلية بالايالة في يد الكشاف ومشايخ العربان (٤٤)، وعهد بإدارة جماركها(٤٥) ومختلف مقاطعاتها الأخرى إلى الأمناء، ولكن بطريق الالتزام(٤٦). وحتى تتمكن الآستانة من

(٤٢) يتحدث قاضي قضاة مصر السيد عبد الله جمال الدين (وفاته ؟) في اثره عن جلال قدر المال ووجوب صيانته عن التلف والذهاب سدى بقوله : " .. ودوام نظام السلطنه وبقاء حكمها انما يكون بالامراء والامناء والزعماء والجنود والمأمورين وغيرهم، وهؤلاء كلهم يحتاجون الى المال ولايخدمون خدمة حسنة بدونه، ولا يعدلون بين الناس ولا ينصفون الرعية ولا يتقون الجور والاعتساف اذا لم يأخذوا ما يستحقون، ولا يطيع بعضهم بعضا اذا لم تصل اليهم ارزاقهم وحقوقهم، فالمال قوام السلطنة، ومن أعظم الواجبات، الاهتمام بحفظ موارده، وتشمير الساعد لتنميته بالعدل والحكمة. ... " : **تعريب السياسة الشرعية في حقوق الراعي وسعادة الرعية**، القاهرة ١٤١٨، ص ١٢٢-١٢٤.

(٤٣) خزينة الارسالية المصرية، هي الفائض النقدي عن ميزانية الايالة بعد اخراج المصروفات خلال عام مالي كامل . وكانت هذه الخزينة لا تدخل خزينة الدولة الميرية، بل كانت تمثل جزءا هاما من الخزينة السلطانية التي لم تكن تفتح الا من اجل مصروفات السلطان الخاصة , واحتياجات الدولة الطارئة ، انظر: S . M. es-Seyyid , *XVI. Asırda Mısır Eyaleti*, s 115-123: S.J. Shaw , *The Financial and Administrtive Organization and Development of Ottoman Egypt*, 1517-1798 , Princeton 1962 ,p. 283-289; *The Budget of Ottoman Egypt 1596-1597* , Paris 1968 P. 113

(٤٤) قانون نامهٔ مصر، ٢٩-٤١ ؛ "Kanunname-I Mısır " s. 156-160

(٤٥) وقد ضمت الجمارك في موانى مصر الى خزينة الدولة الميرية عام ٩٢٧هـ (ابن اياس، **بدايع الزهور في وقايع الدهور**، جـ ٥، ص ٤٢، ٤٠٦، ٤١٠). وقرر قانون نامهٔ مصر ان تكون ادارتها بمعرفة امناء تعينهم الآستانة. (ص ٧٧)، حيث احتلت احوال الموانى والبنادر في مصر موقعا هاما بين مواد قانون نامهٔ مصر : ص ٥٣-٥٨ .

(٤٦) لم تتبع الدولة العثمانية في ايالة مصر " نظام التيمار" (Pakalın , III. 497-506)، نظرا لوجود قوى محلية ذات نفوذ في مختلف انحاء البلاد، وذلك بعد ان عجزت عن ادارة شئون الأقاليم المحلية بمعرفة خدم الدولة . ومن ثم، اعتبرت أراضي مصر وكافة مقاطعاتها ملكا للدوله، ثم اعادت توزيعها على الكشاف ومشايخ العربان والعمال والامناء بطريق الالتزام، وذلك بدفع مبالغ محددة عن المقاطعة للخزينة الميرية مقابل ترك عملية تحصيل خراج الاراضي او المقاطعات للملتزم بحسب الشرع والقانون المعمول به . وكان الملتزم مسئولاً امام القاضي وامير الامراء بالايفاء بالتزامه، وادارة ماتحت يده من بلاد بالعدل (فيما يتعلق بنظام الالتزام انظر:. Shaw , *The Fainancial* p . 26-28; Pakalın , III. 57-58). وهكذا، يسر هذا النظام الاداري المالي في مصر على الدولة ادارة أقاليمها ومؤسساتها المحلية، وتحصيل

المحافظة على دقة عمل هذا النظام الإداري-المالي في مصر، وضعت نظاما رقابيا دقيقا على كافة المؤسسات التي كانت ترعى مصادر الدخل هذه، وذلك منذ وضع البذور في الأرض، ووصول المراكب إلى الموانئ، وتوجيه المقاطعات للملتزمين، وحتى تسليم خراج الأرض والجمارك والمقاطعات إلى الخزينة الميرية في الأيالة. وقد اضطلع بهذا الدور الرقابي الهام قاضي مصر في مركز الأيالة، وقضاة الأقاليم، حيث أكدت الأوامر الصادرة إلى قاضي مصر على ضرورة نظره في كافة الأمور المتعلقة بالمال الميري في الأيالة من الناحية الشرعية.

ففي سياق أمر موجه لقاضي مصر تاج الدين أفندي، يؤكد السلطان على صلاحيته الرقابية في المؤسسة المالية بقوله :

"... ينبغي عليك النظر والفصل بحسب الشرع في المواد المتعلقة بالمال الميري عموما، سواء الخاصة بأموال وأرزاق جند الدولة المتوفين أو المتعلقة بكافة الأمور المالية الأخرى، وذلك بمعرفة الدفتردار ... " (٤٧).

وهكذا، خضعت وظائف الكشاف ومشايخ العربان التي تتعلق بالخواص السلطانية(٤٨) لرقابة صارمة من القضاة. فكما كان قاضي المنطقة يشرف على تسليم الكشاف ومشايخ العربان التقاوي اللازمة لكل قرية بموجب محضر شرعي قبل حلول فيضان النيل(٤٩)، كان

خراج اراضيها ومقاطعاتها بدون نقصان اوضرر يقع على الخزينة الميرية . الا انه يبدو ان هذا النظام ارتبط بمدى فعالية النظام الرقابي الذي اتبعته الدولة في الايالة، حيث استمر يأتي بثماره حتى أواخر القرن السادس عشر الميلادي واوائل القرن السابع عشر الميلادي، في ظل قوة الدولة، ودقة نظمها، ثم بدأ يضطرب هذا النظام اثر اصابة النظام الرقابي في الايالة بالخلل بعد ذلك.

(٤٧)" ... اكر سرحد قوللرندن متوفى اولنلرك اموال وارزاقى احوالى در، واكر ماله متعلق اموردر بالجمله ميري يه متعلق شرعله كورلمه سن لازم اولان احوالى دفتردار معرفتيله، شرعله كوروب فصل ايليه سز ... " : دفاتر ذيل المهمة رقم (٨) ص ٢٠٨، جمادى الاخرة ١٠١٦هـ.

(٤٨) يطلق اسم " الخواص السلطانية " على الأراضي المفتوحة التي تعود عائداتها الى خزينة الدولة بعد توزيع مقاطعات التيمار والزعامت والخاص على الوزراء والامراء والجنود في الدولة (Pakalın , I/771) . ونظرا لان الدولة كانت قد اتبعت في ايالة مصر لظام طبقته فيها لاول مرة عرف باسم " السااليانه" (أي السنوي)، ولم توزع اراضي الايالة على خدمها كبقية الولايات الاخرى، بل خصصت لهم رواتب وعلوفات، نظرا لذلك، أضحت كافة أراضي مصر ومقاطعاتها خواص سلطانية، تم توزيعا على اداريي الايالة ومباشري الاموال بطريق الالتزام.

(٤٩) قانون نامة مصر، ص ٦٩؛ " Kanunname-i Mısır " , s. 168

أيضا يقوم مع المساح(٥٠) بالتفتيش على الأراضي التي تمت زراعتها بعد الفيضان. فان وجد أرضا من الخواص السلطانية لم تزرع، بحث عن السبب، فإذا تبين له أن ذلك كان بسبب تقصير الكشاف والمشايخ في الإشراف على إعداد الأرض للزراعة أو لعدم إصلاحهم الجسور قبل الري، أو لتهاونهم في توزيع الحبوب اللازمة على الرعايا، أو لظلمهم وتعديهم على الفلاحين، ففروا بأرواحهم تاركين الأرض خراباً، رفع الامر إلى أمير الأمراء الذي كان يحملهم مسئولية النقص الواقع في حاصلات ولاياتهم(٥١)، ويستخلص كافة الحقوق الميرية وحقوق الأهالي من أموالهم وأملاكهم بمعرفة القاضي(٥٢).

ومهما يكن من أمر، فقد كان لمؤسسة القضاء في مصر، دور حيوي في إنجاح نظام الالتزام الذي تم تعميمه في مؤسسات الأيالة المالية والإدارية في اواخر القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري). فكان قاضي مصر وقضاة الأقاليم والنواحي معنيين بالرقابة على تقيد الملتزمين بالشرع والقانون في ادارة ماتحت أيديهم من إلتزامات (٥٣).

وكانت مصادر دخل الأيالة من أراض وجمارك ومقاطعات أخرى في مصر ونواحيها وثغورها، يتم توجيهها لأعلى إلتزام، وذلك في الديوان العالي تحت إشراف قاضي مصر، حيث كان الملتزم الذي يقع علية الالتزام يقدم كفيلا مناسبا، ويتعهد أمام الشهود بالوفاء بما التزم بدفعه من مال للخزينة الميرية، وذلك نظير منحه حق التصرف والانتفاع بمنطقة الالتزام.

---

(٥٠) فيما يتعلق بالمساح وما يقوم به من مهام، انظر: قانون نامة مصر، ص ٦٣ ؛ "Kanunname-İ Mısır" s. 166

(٥١) قانون نامة مصر، ص ٣٠-٣١، ٣٥، ٦٧، ٧٠ ؛ "Kanunname-İ Mısır", s. 156, 158 , 167-168

(٥٢) على اثر عرض [عن] حماد بن خيير بأنه بينما كان كاشفا لولاية الجيزة، رفع قاضي الجيزة الى أمير امراء مصر أمراً بضرورة إصلاح الجسور الميرية في هذه المنطقة، بعد ان ثبت انها بسبب اهمال الكاشف، فقرر امير الامراء تحميل الكاشف المذكور دفع مبلغ خمسة اكياس ذهبية لاصلاح هذه الجسور، حيث صرفت على الإصلاح بمعرفة القاضي، وصدر الامر باعادة ما بقي من المبلغ الى الكاشف : تصنيف كامل كبجي، رقم ٢٢٦، ص ٣٦، جمادى الاولى ٩٨١هـ.

(٥٣) قانون نامة مصر، ص ٥٧؛ "Kanunname-i Mısır", s. 166"، وفيما يتعلق بالتأكيد على ضرورة قيام قضاة الولايات والنواحي بمصر برفع البدع التي يستحدثها الكشاف والامناء والعمال ومباشرو الأموال باسم " الكلفة " في مناطق التزامهم، وتطبيق الشرع والقانون علد تحصيل هؤلاء لاموال الالتزام من الرعايا، انظر الامر المرسل إليهم وأيضاً الى أمير امراء مصر : كامل كبجي رقم ٧٠، ص ٢٨٤، رجب ١٠١٣هـ، كذا انظر دفاتر المهمة رقم (٢) ص ١٨٥ أ، في ذي الحجة ٩٨٢هـ.

ففي حكم أرسل إلى قاضي الإسكندرية قبيل انتهاء فترة تحويل ملتزم مقاطعة الأرز، وتقدم نفس الملتزم لتجديد فترة إلتزامه بشروط أعلى [٥٤]، صدرت الأوامر إلى القاضي المذكور جاء فيها :

"... عندما يصل حكمي الشريف، وعند انتهاء فترة التزام الملتزم المذكور(محمد)، وإذا لم يوجد شخص يقبل بزيادة الالتزام المقترح لمقاطعة الأرز، توجه المقاطعة للمذكور، بعد الحصول على كفلاء محليين لائقين لأداء أي عجز يقع على الالتزام، وليسجل ذلك في سجلات القضاء، ولتحرر بالشرح والتفصيل أسماء الملتزم والكفلاء، وأسماء شهرتهم، وعناوينهم..، وليعرض ذلك كله على بأبي الهمايوني، وليدون هذا الالتزام في دفتر المقاطعة ... " [٥٥].

وكما كانت تدون حجة شرعية تحمل توقيعات الضامن والشهود والقاضي، وتختم بخاتم الأخير، ويصدر أمر من أمير الأمراء إلى الملتزم حتى يتسلم منطقة التزامه[٥٦]، كانت تسجل أية تغييرات تحدث قبل انقضاء الالتزام في سجلات القضاة للرجوع إليها عند المحاسبة[٥٧].

وإذا كانت مهام القضاة الرقابية على ملتزمي الأراضي من العمال والمباشرين لم تختلف كثيرا عما كان يقوم به هؤلاء للحفاظ على الخواص السلطانية الموجودة تحت إدارة الكشاف ومشايخ العربان، إلا أن هؤلاء العمال ومباشري الأموال لم يكن يمكنهم تحصيل أو صرف أية

---

(٥٤) يتعهد الملتزم في الديوان بزيادة حاصلات التزامه حتى يتمكن من المحافظة عليه وعدم توجيهه إلى ملتزم آخر بقوله : " ... اوجيوز التمش اكى آقجه ايله قبول والتزام ايدرم، وضرر حاله يرار ومتمول كفيللر ويره يم .. " : ارشيف رئاسة الوزارة، دفاتر ماليه دن مدوره رقم (٢٧٧٥)ص١١٤٤، رمضان ٩٧٣هـ.

(٥٥) " ... حكم شريفم واردقده، مذكور محمدك التزامى تمام اولدقده، ذكر اولنان مقاطعه برنج مزبور اوزره اولان التزامى موجبنجه قيد ايلدكدنصكره مذكورك و ضرر حاله النان كفيللرينك اسملرى واشتهارلرى وساكن اولدقلرى يرلرى ايله هر برى قاجر آقجه يه كفيل اولدقلرن مفصل ومشروح يازوب، قاپومه عرض ايليه سز كه التزامى مقاطعه دفترنه قيد ايدوب، ... " : دفاتر ماليه دن مدوره رقم ٢٧٧٥/ ١١٤٤ .

(٥٦) فيما يتعلق بالاجراءات الادارية والشرعية التي كانت تتم عند توجيه مقاطعات الالتزام الى الملتزمين في الموانى المصرية في العصر العثماني، انظر : عبد الحميد حامد سليمان، الموانى المصرية في العصر العثماني، سلسلة تاريخ المصريين، عدد(٨٩)، القاهرة ١٩٩٥، ١٨٠-١٨١.

(٥٧) قانون نامة مصر، ص ٦٠ ؛ " Kanunname-I Mısır " , s. 165-166

أموال ميرية إلا بعلم القاضي وإذنه وتوقيعه، بحيث كان القاضي يقوم بتقديم الأموال التي حَصّلها إلى خزينة مصر مرة كل ثلاثة أشهر(٥٨).

وكان قضاة الأقاليم حكام الشرع يقومون بالتصدي لما كان يمكن أن يقوم به الملتزم من تحصيل لأموال غير قانونية، وإحداث بدع في مناطق التزامهم، وذلك بمنعهم من ذلك، أو رفع الامر لأمير الأمراء والدفتردار للنظر في عزلهم، وإعادة الحقوق لأصحابها(٥٩).

ونظراً لأهميتها الاستراتيجية بالنسبة لمصادر الدخل الميرية، كانت المواني تخضع لرقابة أكثر صرامة من قبل قضاة الثغور. فقد قرر قانون نامة مصر أن يقوم القاضي الشرعي في المواني بمتابعة المخصصات المتعلقة بالأموال السلطانية عموما، سواء كانت محصولات جمارك أو مقاطعات أخرى(٦٠). فحتى لا تضيع الأموال السلطانية كان قاضي الشرع في

---

(٥٨) **قانون نامة مصر**، ص ٥٤ ؛ "Kanunname-I Mısır" , s. 164

(٥٩) **قانون نامة مصر** ، ص ٥٧، ٦١ ؛ " Kanunname-i Mısır " . s. 165 , 166 ؛ كذا انظر الاوامر الصادرة الى قاضي المنصورة مع امير امراء مصر حول ضرورة القيام بالواجبات المنوطة بهما، ورفع بدع " الازلمية "، " المشاق "، " المدكوك "، و" العرب " التي انتشرت في انحاء الولاية، وعدم اعطاء الفرصة للكشاف ورجاله للتعدي على الاهالي وعلى أموالهم وأسبابهم، وذلك في ربيع الاول ٩٧٩هـ (**تصنيف كامل كبجي** رقم (٧٩) ص ٢٢٠٤)، وجمادى الاولى عام ٩٨٤هـ (**تصنيف ماليه دن مدوره** رقم (٧٥٣٤) ص ٦٩٨)، وفي صفر ٩٨٧هـ (**كامل كبجي** رقم (٩٠) ص ١٦٨)؛ والامر الصادر لقاضي منفلوط حول استحداث الكشاف في هذه الولاية لبدعة تعرف باسم " مقطوعت "، وضرورة القضاء عليها ورفع كل ما يخالف الشرع والقانون (**كامل كبجي** رقم (٧٥)، ص١٨٢ ب، رجب ٩٧٣)، والأوامر الصادرة لقاضي مصر ولقضاة البهنسة والمحلة حول قيام الكشاف ومشايخ العربان بظلم الاهالي في هذه الولايات، والاستيلاء على أموالهم ودوابهم بغير وجه شرعي : **كامل كبجي** رقم (٦٧)، ص ٥ ٨ب، صفر ٩٨٠هـ؛ **دفاتر المهمة** رقم (٦) ص٢١٤، جمادى الاولى ٩٧٢هـ؛ **دفاتر ذيل المهمة** رقم (٦) ص٧٣، ربيع الاخر ١٠٠١ هـ.

(٦٠) تنقسم الجمارك في ايالة مصر الى اربع مقاطعات رئيسية ،هي : أ- مقاطعة جمركي الاسكندرية ورشيد . ب – مقاطعة جمرك دمياط وتوابعها . ج – مقاطعة جمرك بولاق ومصر القديمة. د – مقاطعة جمرك السويس (عبد الحميد حامد، **المواني المصرية في العصر العثماني**، ص ١٩٢، ٢٠٨، ٢٢٩، ٢٥١). وكان **قانون نامة مصر** قد قرر ان يرسل أمناء مواني (جمارك) مصر من الأستانة، بحيث اذا حدث تقصير او خيانة من هذا الامين أو ذلك، كان على امير الامراء عرض الامر على الأستانة لتعيين آخر محله (ص٧٧-٧٨).الا انه قد لوحظ توجيه امانة هذه الجمارك وبالخاصة جمرك الاسكندرية الى بعض اليهود بطريق الالتزام، وذلك اعتبارامن الربع الاخير من القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري): انظر **دفاتر االمهمة** رقم (٤٢) ص٣٢٩،صفر ٩٨٨هـ؛ **دفاتر ماليه دن مدوره** رقم ٢٧٧٥/ص٨٩٠، ربيع الاول ٩٧٣هـ.

الثغور يراقب ماتحمله السفن الآتية والمغادرة للميناء من محاصيل وأمتعة، ولا يعتمد على الملتزم في تقييمه لأسعارها، فيسجل صورة من مفرداتها في سجلاته(٦١).

وكان على القاضي التحقق من ادعاءات التجار الذين يتهربون من دفع الرسوم المقررة عليهم، بحيث كان يعرض أمر الممتنعين منهم على أمير الأمراء، أو على مركز الدولة مباشرة. أما ملتزم تحصيل أموال الجمارك، فكان يقوم بتحصيل رسومها وعشورها في وجود قاضي الثغر أيضا، حيث يتسلمها منه الأخير كل يوم مع محصول بقية المقاطعات لإيداعها الخزينة الميرية(٦٢).

ولما كانت حركة التعامل مع السفن التجارية الأجنبية التي ترد إلى الموانئ المصرية تخضع لما كانت الدولة تبرمه من اتفاقيات تجارية مع الدول الأجنبية(٦٣)، فقد كان قناصل تلك الدول يقومون بإرسال دفاتر الرسوم المعتمدة للبضائع الأجنبية إلى مجلس القضاء لاعتمادها والعمل بموجبها في تحصيل الجمارك(٦٤). وإذا كان قانون نامة مصر قد قرر حرية البيع والشراء مع التجار الأجانب بموجب معاهدات الدولة التجارية، إلا انه أكد على ضرورة تدوين مفردات البضائع التي تخرج من الميناء في الدفاتر، وفي سجلات القضاء بعد تحصيل الرسوم

---

(٦١) قانون نامة مصر، ص ٥٤-٥٥ ؛ "Kanunname-İ Mısır", s. 163-164

(٦٢) قانون نامة مصر، ص ٥٤، ٥٦ ؛ "Kanunname-İ Mısır", s. 164

(٦٣) مثلما جددت الدولة العثمانية الاتفاقية التجارية التي عقدتها دولة المماليك مع البنادقة عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م، و ٩٢٨هـ/١٥٢٢م، و ٩٤١هـ/١٥٣٤م، وقعت ايضا مع دولة دوبرونيك اتفاقية تجارية تسمح لتجار هذه الدولة بالدخول للموانئ العثمانية، ومنها الموانئ في مصر عام ٩٢٨/١٥٢٢م، ومع فرنسا عقدت اتفاقية اخرى عام ٩٣٥هـ/١٥٢٩م، ومع انجلترا عام ٩٨٨هـ: Uzunçarşılı *Osmanlı Tarihi*, II/292 ؛ كذا انظر : كامل كبجي رقم (٧٩) ص ١٦٦، صفر ٩٧٩ ؛ رقم (١٠٨) ص١٢٣، رجب ٩٩٤هـ.

(٦٤) قرر قانون نامة مصر انه "... عندما تأتي سفينة من بلاد الفرنجة الى احدى الموانئ المصرية، يقوم قناصلهم بارسال دفاتر رسوم الامتعة المرسلة والمختومة، واذا حان موعد استبدال قنصل من هؤلاء ينبغي على هذا القنصل أن يأتي بذلك الدفتر مختوما الى مجلس القضاء ليطلع عليه الناظر والامين، حيث يقوم بفتحه على ملأ من الناس في هذا المجلس، ويدون ما فيه في سجل القاضي، ثم يأخذ الأمين صورة منه ليعامل به التجار بموجب القانون، وترسل صورة أخرى بتوقيع القاضي والامين الى مصر. ..." : ص٥٣ ؛ "Kanunname-İ Mısır", s. 163.

المقررة عليها[٦٥]. أما طلب التجار الأجانب لشراء الغلال، فكان يتم بعد عرض القاضي الامر أولا على أمير الأمراء[٦٦].

وإذا كان قضاة الثغور قد لعبوا دورا رقابيا بارزا في مقاطعات مواني مصر التي وجهت إلى الأمناء بطريق الالتزام، باعتبارها المصدر الثاني للخراج في الأيالة بعد أراضي مصر، فان دورهم الرقابي على بقية مقاطعات الأيالة لم يقل بحال عن ذلك الدور. وعلاوة على هذا، فقد كانوا يقومون بتنظيم العلاقة بين ملتزمي المقاطعات الأصليين، وملتزمي الباطن، بحيث كانت إجراءات الالتزام الفرعي بين الطرفين تتم تحت مباشرتهم[٦٧]. على أن هؤلاء القضاة كانوا يقومون بالتفتيش على هؤلاء الملتزمين حتى لا يفرضوا رسوما تزيد عن الرسوم المقررة في صك الالتزام على الرعية بحجة الزيادة[٦٨].

وهكذا، يمكننا أن نقرر أن مؤسسة القضاء في مصر، قد استطاعت أن تلعب دورا هاما في عملية انضباط حركة عمل مؤسستي المالية والإدارية، ومن ثم في حماية مصادر الدخل الرئيسية في الايالة من خلال نظام الالتزام الذي أقر العمل به في الأيالة، فكان دورها الرقابي بمثابة صمام الأمان الذي كان يضمن لهاتين المؤسستين العمل بانتظام وبحسب قوانين الدولة وسياستها الشرعية.

---

(٦٥) قانون نامة مصر، ص ٥٥ ؛ " Kanunname-i Mısır " , s. 164

(٦٦) إذا كان قانون نامة مصر قد أجاز بيع الحبوب لسفن الاجانب، ولكن بشرط اطلاع امير الامراء، ومن ثم الاستانة على الامر اولا، (ص ٥١) فقد قررت الاوامر السلطانية ادخال الحبوب في المحصولات الممنوع بيعها للتجار الاجانب حتى لا يتقوى بها الاعداء على الدولة : دفاتر المهمة رقم (١٩) ص١٦٣، صفر ٩٨٠هـ، رقم (٢) ص ١١، ربيع الاول ٩٦١ هـ.

(٦٧) المواني المصرية في العصر العثماني، ص ٩٨-١٠٠.

(٦٨) قانون نامة مصر، ص ٥٧ ؛ " Kanunname-i Mısır " ,s. 165 . فيما يتعلق بالتفتيش على محاسبة ملتزم مقاطعة ضربخانة الاسكندرية، انظر الحكم الصادر لقضاة مصر والاسكندرية حول اجراء عملية التفتيش هذه بموجب الشرع والقانون منذ بداية مباشرته وحتى نهايتها : دفاتر المهمة رقم (٣٦) ص١٦٩، صفر ٩٨٧هـ؛ كذا بخصوص التفتيش على ملتزم مقاطعة ترسخانة السويس، انظر الحكم الصادر الى قاضي [السويس] مع امير الامراء : كامل كبجي رقم (٨٨) ص١٤٧، جمادى الاولى ٩٨٥هـ.

وكان نجاح أو عجز أمير الأمراء بمصر عن أداء مصروفات الأيالة من رواتب وعــادات لخدم الدولة في مصر، واخراجات ومبايعات[٦٩]، بحسب الأوامر، وإحداث حالة من التــوازن بين توفير الخزينة لأموال الإرسالية في موعدها وبدون نقصان، وبيــن إقــرار حالــة مـن الاستقرار في الأيالة والعدل بين رعاياها، كان دليلا على مدى نجاح مؤسسة القضاء بالأيالــة في القيام بتلك المهام الرقابية.

النظر في المهمات السلطانية:

لقد كانت كافة مصاريف الأيالة الميرية واخراجاتها السلطانية تتم تحت سمع وبصر قاضي مصر أو نوابه في الأقاليم والثغور، وبموجب توقيعاتهم وخواتمهم. فكما كانت عمليــة توفــير الاحتياجات الميرية للدولة كالحبوب والبارود والسكر والأرز والبــهار والأدويــة وغيرهــا، وشرائها من أسواق مصر وموانيها تجري بمعرفة وكيل الخرج، وبإشراف قاضي مصــر[٧٠]، فان إجراءات إرسال هذه الاحتياجات إلى الآستانة أو إلى آي مكان آخر بحسب أو آمر الدولة، كانت تتم بمعرفة قاضي مصر، أو قضاة الأقاليم والثغور في الأيالة.

وكانت هذه الاحتياجات الميرية تسلم لرؤساء السفن تسليما شرعيا وقانونيا بمجرد وصولــها إلى المواني، وذلك تحت إشراف قاضي الثغر الناظر في المتعلقات السلطانية الذي كان ينــوب عن قاضي مصر وأمير الأمراء في فحص المواد المرسلة، ومدى موافقتها للعينات الواردة من الآستانة، وسلامة وزنها وتخزينها[٧١]. وبعد إتمام عملية التسليم هذه، كــان القــاضي يــأمر

---

(٦٩) قسمت مصروفات ايالة مصر الى ستة اقسام رئيسية هي : أ–التسليمات، وهي الأموال التي كانت تسلم لرجال الدولــة من الخزينة المصرية للقيام بمهام معينة في المنطقة أو خارجها . ب – الساليانات، وهي مرتبات امير الامراء، وأمــراء السناجق ومختلف اصحاب المناصب من رجال الدولة في مصر ؛ والمواجب، وهي مرتبات جند الدركاه العــالي، وجنــد مصر . ج – الاخراجات، وتشمل ما كان يرسل للحرمين الشريفين وبيت المقدس من احتياجــات، وايضــا احتياجــات الأستانة نفسها أو احتياجات احدى ولاياتها من المؤن والذخائر بحسب ما تصدر به الاوامر . د – العــادات، وهــي مــا اعتادت الدولة على توزيعه في مصر على خدمها مع مرتباتهم، وفي المناسبات. هـ – المبايعات، وهي مــا كــان يتــم شراؤه من الأسواق في مصر لاحتياجات الدولة: Shaw , *The Budget* , p. 7 - 13

(٧٠) **تصنيف كامل كبجي رقم (٩٠)ص ٣١٣، ربيع الاخر ٩٩٨٧ هـــ، دفاتر المهمة رقم (٧٥) ص ٢٦٧، جمادى الاولــى ١٠١١هـــ؛ دفاتر ماليه دن مدوره رقم ٤٤٤٢ /ورق١١ ب، ١٠١٣ هـــ .**

(٧١) **دفاتر ماليه دن مدوره رقم ٢٤٤٤/ورق ١١ ب ؛؛ دفاتر المهمه رقم (٦٦)ص ١٥٠، ربيع الاخر ٩٩٨ هـ.**

بتحرير تقرير مفصل يتضمن ما تم من إجراءات، ويذيله بتوقيعه وخاتمه[٧٢]. وقد ذيلت إحدى دفاتر إرسالية الذخائر التي أرسلت إلى الآستانة في محرم من عام ١٠١٥هـ/١٦٠٦م، والتي حررت بمعرفة قاضي رشيد محمد بن حسن أفندي بالعبارة التالية :

"... حرر بإذن سيدنا ... مولانا محمد الناظر في الأحكام الشرعية والتعلقات السلطانية بثغر رشيد المحروسة، الواضع خطه الكريم أعلاه ... يتضمن علم ما جهز برسم الكيلار الشريف (رئيس خدم مخازن المطابخ السلطانية) لاستانبول المحمية من الأرز والحمص. على يد عبدي أغا وكيل خرج السلطنة، بجانب علي بن محمد الشاهد بمحكمة الثغر، المعين في تعاطي خدمة السلطنة الشريفة بالثغر، وقبانة البدري محمد المصري القباني بالثغر .. "[٧٣].

وكما كانت الإرسالية العينية هذه تلقى إشرافا شرعيا وقانونيا دقيقا من مؤسسة قضاء مصر على هذا النحو، كانت عملية حصر الإرسالية النقدية تتم بعد إخراج المصاريف المعتادة والطارئة، تحت إشراف أمير الأمراء والدفتردار، وبرقابة من قاضي مصر أيضا، بحيث كانت هذه الخزينة تسلم إلى سردارها (الأمير الذي يحملها إلى الآستانة) في احتفال رسمي، وبموجب محضر تسليم شرعي، وبشهادة الشهود. وقد صور أوليا چلبي هذا التسليم الشرعي الذي كان يتم في الديوان العالي وبحضور القاضي والشهود وكتبة السجلات بقوله:

"... وفي هذا المكان، يوجه الباشا الخطاب لأمير الخزينة قائلا: أيها الأمير هل تسلمت مني وقبضت أموال الكيس (الجيب) السلطاني ... بلا نقصان ؟ فيجيب الأمير: نعم، تسلمتها وقبضتها، وهي الآن في قبضة تصرفي. عندئذ يقول الباشا للحاضرين : اشهدوا على ذلك. ثم يحرر ذلك في سجلات الشرع المبين ... ." [٧٤].

---

(٧٢) دفاتر ماليه دن مدوره رقم ٤٤٤٢/ورق٣٣ب – ٤٩ أ، ربيع الآخر ١٠١٢هـ؛ دفتر المهمه رقم (٦٦) ص١٨٦-١٨٧.

(٧٣) دفاتر ماليه دن مدوره رقم ٤٤٤٢/ ورق٦٧ ب .

(٧٤) "Ol Mahalde , hazine beyine hitab idub: Bey , Padişah`ın ... kesesini bikusur benden alub kabz etdin mi? Ol dahi: Aldım , kabz etdim, hala kabza-i tasarufumdadır dedikte; Paşa: Şahid olun deyub, sicili-i şer`-i mubine ketb olunub " :*Seyahetname* , X . İstanbul 1938 , s. 41.

وبذلك، رسخ لدى الإدارة المركزية بإستانبول الإعتقاد بأن حماية مؤسساتها الإدارية والمالية الهامة في مصر من أن يتطرق إليها الفساد والاضطراب، وأن ضبط حركة عمل الجهاز الاداري في الايالة بحسب مبادئ السياسة الشرعية، والمحافظة على مصادر دخل مصر عموما، وارسالياتها العينية والنقدية على وجه الخصوص، لا يمكن أن يتحقق إلا برقابة يتوفر فيها عنصرا للشرع والقانون. ولمّا كانت قوانين الدولة ولوائحها الإدارية والمالية تخضع لمبادئ السياسة الشرعية، فقد عهد لمؤسسة القضاء بمهمة الرقابة على مدى التزام القائمين على هاتين المؤسستين بهذه المبادئ في معاملاتهم، وأدائهم لواجباتهم تجاه الدولة ورعاياها من ناحية، ومواردها الميرية من ناحية أخرى.

حماية الدور الرقابي لقضاء مصر:

إن إدراك الدولة العثمانية لأهمية **الدور الرقابي لمؤسسة قضاء مصر** جعلها حريصة على ألاّ يتطرق إلى هذه المؤسسة الهامة الفساد والاضطراب. فكان انضباط عمل هذه المؤسسة خلال القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) وحتى أواسط القرن السابع عشر الميلادي (الحادي عشر الهجري)، وراء نجاحها فيما لعبته من **دور رقابي** على مؤسستي المالية والإدارية في الأيالة.

فقد حمّلتْ الأستانة أمير أمراء مصر باعتباره وكيل السلطان المطلق في الأيالة، مهمة المحافظة على انضباط عمل مؤسسة القضاء في مناطق الأيالة ونواحيها. فعندما حذر قانون نامهْ مصر قضاة النواحي من تعيين نواب ومحضرين غير مستقيمين حتى لا يظلموا الناس، من بيعهم نيابات محاكمهم نظير رشوة(٧٥)، أمر أمير الأمراء بان يراقب تصرفات هؤلاء، ويقوم هو بنفسه بعزلهم إذا تهاون القضاة في هذا الامر، وان يهتم بشكاوى الرعايا، ويرسل من يتحقق من صحتها، وألاّ يتوانى في عرض أمر من يظهر فساده من هؤلاء على الآستانة(٧٦).

أما إذا تبين لأمير الأمراء أن قاضي المنطقة أو الناحية عين إداريي الأقاليم ومباشري الأموال والأمناء ممن يقومون بسلب ونهب أموال الرعية بغير حق، كان عليه أن يكلف ناظر

---

(٧٥) قانون نامهْ مصر، ص ٨٢-٨٣.

(٧٦) قانون نامهْ مصر، ص ٨٣.

الأموال في المنطقة بتقصي حقيقة الوضع، ثم يقوم بعزل القاضي الذي يخفي الحقائق، ويقيم مكانه آخر من أهل العلم، ويعرض الامر على الآستانة(٧٧).

وهكذا، كان لوفاء أمير أمراء مصر بهذه **الوظيفة الرقابية** على مؤسسة القضاء في الأيالة دور فعال في حماية هذه المؤسسة من أن يتطرق إليها الفساد والاضطراب. وكان ذلك يضمن لاميرامراء مصر تطبيق القوانين العثمانية، وتنفيذ الأوامر السلطانية، ومن ثم ضبط الحركة الإدارية والمالية في الأيالة عموما، ورعاية المصالح الميرية والمتعلقات السلطانية على وجه الخصوص، والإشراف عليها من زاوية الحق والعدل.

ومع ظهور بوادر الاضطراب في مؤسسات الدولة منذ اوآخر القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري)، ووصول قضاء غير مؤهلين وولاة غير قادرين إلى مناصب الأيالة الرفيعة، وزيادة نفوذ القوى المحلية في مختلف مؤسساتها(٧٨)، أخفق القضاة في ضبط الحركة المالية والإدارية شرعيا وقانونيا بشكل فعال، وتحولت **مهامهم الرقابية** إلى عادات وتقاليد فقدت الغرض من إقرارها، وظهر قصورهم في حماية الرعية من ظلم الإداريين المحليين وجور العمال، بل صدرت عن بعض هؤلاء القضاة وعن نوابهم في الأقاليم العديد من التجاوزات(٧٩).

وفي ظل هذا التطور السلبي الذي لحق بالدور الرقابي لمؤسسة قضاء مصر، عجز أميرالأمراء عن الرقابة على مؤسسة القضاء وحمايتها من الفساد ومن تسلط أصحاب النفوذ،

---

(٧٧) قانون نامة مصر، ص ٨٤.

(٧٨) Uzunçarşılı, *Osmanlı Tarihi,* III/A , 2. bas. , Ankara 1983,s. 119-126; aynı mlf, *Osmanlı Devletinin İlmiye Teşkilatı,* 2 bas, Ankara 1984 , s. 98 ؛ وقد أورد أحمد شلبي في كتابه العديد من المواقف التي تبرز الى أي درجة وصل الضعف بالادارة العثمانية بمصر، وكيف كانت القوى المحلية بالايالة تجبر قاضي مصر على التصديق على تصرفاتهم المنافية للشرع والقانون، خلال القرن ١٧م/١١هـ : اوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، ص. ١٤٢-١٤٣، ١٩٤-١٥٢، ١٧١-١٧٥، ٢٠١-٢٠٢، ٢١٩.

(٧٩) فيما يتعلق باحداث قضاة الولايات ونوابهم العديد من المظالم بدلا من مواجهتها ، انظر : تصنيف كامل كبجي رقم (٦٧)ورق ٣٦٠أ، رجب ٩٨٠ هـ؛ رقم (٨٦) ص٦٩، ذو الحجة ٩٨٣هـ؛ رقم (٩٠) ص١٦٨، صفر ٩٨٧هـ؛ دفاتر ماليه دن مدوره رقم ٣٥٣٤/ ص٣٣٧، ٦٩٨، صفر وجمادى الاولى ٩٨٤ هـ.

وتخليص حقوق الدولة والرعية من أيديهم[٨٠]. فلم يجد رعايا الأيالة سبيل للنظر في مظالمهم، والفصل ببينهم بالعدل والإنصاف في مصر، فتوجهوا بها إلى مركز الدولة مباشرة[٨١].

وقد تنوعت المظالم المرفوعة إلى الآستانة مابين شكاوى من ظلم وتعدي الإداريين المحليين من الكشاف ومشايخ العربان[٨٢]، والعمال ومباشري الأموال[٨٣]، بل تجاوزت ذلك إلى الشكوى من تعديات قضاة الولاية ونوابهم الذين راحوا يبحثون عن مكاسب مالية لهم من خلال الاتفاق مع كشاف المناطق التابعة لهم[٨٤]، أو إلتزام بعض المقاطعات بها.

فقد رفع بعض أهالي إحدى قرى الغربية مظلمة إلى الآستانة أشارت بوضوح إلى الحالة السيئة التي وصلت إليها مؤسسة القضاء في الأقاليم، وكيف راح القضاة والنواب المحليون يستغلون مناصبهم استغلالا سيئا، ويتسببون في إلحاق الضرر بالرعية، حيث ذكروا فيها :

(٨٠) لم ينعكس عجز امير امراء مصر في الربع الاخير من القرن ١٦م/١٠هـ، سلباً على مؤسسة القضاء فحسب، بل على مختلف مؤسسات الايالة، مما جعل الادارة المركزية تصدر الاوامر المشددة اليه لمراقبة تصرفات القاضي والدفتردار والامراء وسائر خدم الدولة، وليحذرهم من مخالفة ما جاء بهذه الاوامر على هذا النحو : " ...واريجق، بو بابده متنبه اولوب، ومومى اليهم قاضي ودفتردار وبكلر وساير قوللرمه دخي تنبيه ويساق ايليه سن كه ... فرمان همايونمه مخالفت ايدنلر معاتب ومعاقب اولمق مقرر ديو اكا كوره مقيد اولوب تصرف اوزره اولاسن . " : دفاتر المهمة رقم (٢٦) ص٢٦٣، جمادى الاولى ٩٨٢ هـ.

(٨١) كانت مهمة النظر في المظالم على رأس المهام التي يقوم بها الخلفاء والسلاطين في الدولة الاسلامية قبل العثمانيين ؛ فيقول المقريزي " ان هذه الخطة حدثت بسبب فساد الناس، وانها تشمل كل حكم يعجز عنه القاضي (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار، ط٢، القاهرة ١٩٨٧، ج٢، ص٢٠٧) . ويذكر الماوردي الغرض الاساسي لنظر المظالم، فيحصر ذلك في " قود المتظالمين الى التناصف بالرهبة، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة "، ثم حدد هذا النظر في عشرة أنواع من المظالم منها : النظر في تعدي الولاة على الرعية، وجور العمال فيما يجتبونه من أموال، ورد الغصوب، وتنفيذ ما وقف من أحكام القضاة لضعفهم عن انفاذه : الاحكام السلطانية، ص ٧٧-٨٠.

(٨٢) قام اهالي قرية ارجيوسي التابعة لقضاء البهنسا برفع مظلمة الى الآستانة ذكروا فيها أن الكاشف وشيخ العرب في الولاية المذكورة يجبرونهم على دفع أموالهم ويسلبونهم أغنامهم وحيواناتهم بغير حق، وذلك بعد ان قاموا هم بأداء الاموال الميرية المطلوبة بحسب الشرع والقانون : انظر الحكم الصادر الى قاضي مصر وناظر أمواله وقاضي البهنسا: كامل كبجي رقم (٦٧)، ورق ٥٨ب، صفر ٩٨٠هـ؛ كذا انظر رقم (٩٠) ص١٦٨، صفر ٩٨٧ هـ.

(٨٣) انظر الحكم الصادر الى امير امراء مصر ودفترداره ولقاضي المحلة، على أثر عرض أهالي احدى قرى المحلة على الباب السلطاني بأن الامين المكلف بتحصيل الاموال في قريتهم يقوم بطلب أموال زائدة عن القانون بخلاف الدفتر الموجود بيده : دفاتر ماليه دن، مدوره، رقم ٣٣٧/٧٥٣٤، ٣٤٦، صفر ٩٨٤ هـ.

(٨٤) انظر المظلمة المرفوعة من أهالي المنصورة إلى الباب السلطاني والتي تقول إن نائب الشرع في البلدة يتفق مع الكشاف، واله يجد له منفعة في ذلك، فيقوم هذان الرجلان بظلم الاهالي والتعدي عليهم، تحت سمع وبصر القاضي: كامل كبجي رقم (٩٠) ص١٦٨، صفر ٩٨٧ هـ.

" ... أن نائب الشرع الذي يدعى عبد البر قد تصرف في الناحية المذكورة بطريق الالتزام، وانه يتوقف عن إلحاق الأذى بالفقراء خلافا للشرع الشريف حيث يقوم بحبسهم، وتعذيبهم دون أن يثبت عليهم أي شئ بموجب الشرع، ثم انه يسلبهم أموالهم وأرزاقهم قهرا، ويحصّل منهم رسوما إضافية تعرف باسم "رسم السجل"، ويظلمهم مخالفا بذلك الشرع الشريف ..." (٨٥).

وهكذا، كانت هذه المظالم تُبحث في الديوان الهمايوني، بحضور النائب المطلق للسلطان(الصدر الأعظم)، وقاضيعسكر الأناضول والروملي، وبقية أعضاء الديوان(٨٦)، حيث كانت تصدر الأحكام المناسبة إلى أمير أمراء مصر وقاضيه، أو إليهما معا(٨٧). وكانت هذه الأحكام تُذَكِّر هؤلاء بما ينبغي عليهم القيام به للحفاظ على حالة الاستقرار في مؤسسات الأيالة، وتأمرهم بالتفتيش على المدعى عليهم، أو بتقصي حقيقة المظلمة، ثم إعادة رفعها ثانية إلى الآستانة، أو متابعة تنفيذ الأحكام التي صدرت عن الديوان الهمايوني، وتحذرهم من الظلم والتعدي على الرعية، وأموالهم واسبابهم بغير حق، ومن حماية أهل الفساد من إداريي الأيالة أو القضاة ونوابهم(٨٨).

وعلى هذا النحو، حاولت الإدارة المركزية، المحافظة على انضباط عمل مؤسستي المالية والإدارية في أيالة مصر من خلال هذا الدور الرقابي لقاضي مصر في مركز الأيالة، ولقضاة

---

(٨٥) " .. غربيه ناحيه سنه تابع بعض قرا خلقى عرض حال صونوب، نايب الشرع اولان عبد البر نام كمسنه ناحية مزبوره التزام ايله الوب، شرع شريفه مخالف فقرايى رنجيده اتمكدن خالى اولميوب، اوزرلرنه شرعله نسنه ثابت اولمادين كندوسى حبس ايدوب، ورنجيده اوروب ... جبرا...مااللرين ورزقلرين و " سجل اقجه سن " ديو زياده اقجه لرين الوب، شرع شريفه مغاير ظلم ايلدوكن بلدروب .. " : دفتر كامل كبجي رقم (٨٦) ص٦٩، ذو الحجة ٩٨٣ هـ.

(٨٦) Uzunçarşılı, *Merkez ve Bahriye Teşkilatı*, s. 13-14 , 21-22

(٨٧) تشير الاحكام التي كانت تصدر عن الديوان الهمايوني خلال القرنين ١٦-١٧م/ ١١٠-١١ هـ، الى أنه عندما كان الامر يتعلق بالامور الاستراتيجية للدولة في الايالة كان يصدر الى أعضاء الهيئة الادارية العليا (امير الامراء، القاضي والدفتردار)، أما اذا كان الامر يخص أحد أعضاء هذه الهيئة شخصيا، فكان يصدر الى العضوين الاخرين. ولما كان القاضي، هو النائب الشرعي، والدفتردار هو النائب المالي لامير الامراء، فقد كانت الاحكام الخاصة بالامور المالية تصدر الى امير الامراء والدفتردار، أما الاوامر المتعلقة بالامور الشرعية والقضائية، فكانت تصدر لامير الامراء ونائبه قاضي مصر . أما الشئون القضائية في أقاليم وثغور ايالة مصر فعادةً ما كانت تصدر لامير الامراء وقاضي الأقاليم أو الثغر، واحيانا ينضم اليهما ناظر الاموال ايضا، وذلك اذا كان الامر يتعلق بالامور المالية.

(٨٨) دفاتر المهمة رقم (٨١)، شوال ١٠٢٥ هـ.

المناطق في أقاليمها وثغورها ؛ وحتى تحافظ على استمرار حيوية هذا الدور لمؤسسة القضاء، جعلت الرقابة على هذه المؤسسة من أهم المسئوليات المنوطة بأمير أمراء مصر. وعندما كان القضاة أو أمير الامراء يفقدون الفعالية في الوفاء ببعض هذه الالتزامات الرقابية، كانت الاستانة تمارس هذا الدور الرقابي من خلال أوامرها وأحكامها الصادرة إلى هؤلاء، حماية لمؤسسات الأيالة، ولمواردها الميرية، وقطعا للنزاع، واقامة العدل بين الرعية.

* * *

مما تقدم يتبين لنا أن الوظيفة الرقابية التي اضطلعت بها مؤسسة القضاء في أيالة مصر، قد نبعت من الفلسفة الشرعية التي كانت تنتهجها الدولة العثمانية، سواء في إدارتها لمؤسستها المركزية والمحلية، أو في سياستها مع إدارييها ورعاياها، وأن مكانة أيالة مصر الإستراتيجية بالنسبة للدولة وللمنطقة، كان لها الأثر الأعظم في حرص الأستانة على المحافظة على مؤسسات الأيالة الفاعلة، وبالخاصة الإدارية والمالية في حالة من الإستقرار، وحماية مواردها الميرية ومخصصاتها السلطانية من العبث والضياع، وتوفير جوٍ من العدل بين رعاياها. وبذلك، استطاعت الادارة المركزية، من خلال قيام مؤسسة قضاء مصر بكل هذه المهام الرقابية على النحو المرجو، ضبط تطبيق نظم الدولة في الايالة، وتوفير الجو الملائم لنجاح النظام الاداري ــ المالي الذي تم تنفيذه في مصر، وذلك حتى أوآخر القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري).

وهكذا، يمكننا القول بأنه كان للدور الرقابي لمؤسسة القضاء في مصر على مؤسستي المالية والادارية بالأيالة دور فعّال في مدى نجاح الإدارة العثمانية في مصر أو فشلها خلال العصر العثماني.

المصادر والمراجع

أولا ـ المصادر :

١ـ غير المنشورة (الوثائق) :

* ارشيف رئاسة الوزراء بإستانبول (باشبقانلق ارشيفى) :

أ ـ دفاتر المهمة (مهمه دفترلرى) أرقام : ١ـ٣، ٦، ١٩، ٢٦، ٣٢ ـ٣٣، ٤٢ ـ ٤٣، ٥٦، ٦٠، ٦٦، ٨١.

ب ـ ذيل دفاتر المهمة (مهمه دفترلرى ذيلى) ارقام : ٢، ٦، ٨.

ج ـ دفاتر تصنيف كامل كبجي (كامل كبجى تصنيفى) ارقام : ٦٧، ٧٠، ٧٥، ٨٦، ٨٨، ٩٠، ١٠٨، ٢٢٢، ٢٢٦.

د ـ دفاتر ماليه دن مدوره (ماليه دن مدوره دفترلرى) أرقام : ٣٧٤، ٢٧٧٥، ٣٥٣٤، ٤١١٦، ٤٤٤٢.

هـ ـ تصنيف ابن الامين، داخلية رقم ١٢٣٤.

** ارشيف سراي طوپ قاپو (طوپ قاپى سرايى ارشيفى):

ـ أوراق أرقام : ٢٢/٦٦٤، ٩٩٢٢، ١٢٣٢١، ١٠٩٩٣

٢ ـ المصادر المنشورة :

ـ ابن القيم الجوزية، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، القاهرة ١٩٦١.

ـ ابن تيمية، تقي الدين، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق علي سامي النشار وأحمد زكي عطية، القاهرة ١٩٥١.

ـ ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، جزءان، بيروت ١٩٦٦

ـ ابن عبد الغني، أحمد شلبي، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (المعروف بتاريخ العيني) تقديم وتحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٧٨.

ـ ابن اياس، محمد ابن احمد، بدايع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج ٥، القاهرة ١٩٦١.

ـ ابو الحسن الماوردي، الاحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة ١٩٦٦.

ـ جمال الدين، السيد عبد الله، **تعريب السياسة الشرعية في حقوق الراعي وسعادة الرعية**، القاهرة ١٣١٨.

ـ **قانون نامة مصر**، ترجمه وقدم له وعلق عليه، أحمد فؤاد متولي، القاهرة ١٩٨٦

ـ المقريزي، أحمد بن علي، **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار**، ط ٢، القاهرة ١٩٨٧، جزءان.

ثانيا ـ المراجع :

١ ـ المراجع العربية:

ـ تاج، عبد الرحمن، **السياسة الشرعية والفقه الاسلامي**، القاهرة ١٩٥٣.

ـ سيد محمد السيد، **مصر في العصر العثماني في القرن ١٦**، " دراسة وثائقية في النظم الادارية والقضائية والمالية والعسكرية، القاهرة، ١٩٩٧، " **ايالة مصر ومكانتها الاقتصادية الهامة لدى الآستانة** "، مجلة كلية الاداب بسوهاج، العدد(١٥)، ابريل ١٩٩٤، ص٤٩ ـ ٧٨، " **دور مصر الاستراتيجي في الحوض الشرقي للبحر المتوسط خلال القرنين ١٦ ـ١٧م** "، مجلة كلية الاداب بسوهاج، العدد (١٥) ابريل ١٩٩٤، ص ٢٢٠ ـ ٢٣٠ .، " **دستور العمل في النظام الاداري والمالي العثماني بأيالة مصر في مطلع القرن ١٨م/١٢هـ**"، بحث مقبول للنشر.

ـ عبد الحميد حامد سليمان، **تاريخ المواني المصرية في العصر العثماني**، سلسلة تارخ المصريين، عدد (٨٩)، القاهرة ١٩٩٨.

ـ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، " **القضاء في العصر العثماني**"، فصول في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي، سلسلة تاريخ المصريين، رقم (٣٨) القاهرة .

ـ فرحات، محمد نور، **القضاء الشرعي في مصر العثمانية**، سلسلة تاريخ المصريين، العدد (١٧) القاهرة ١٩٨٨.

ـ ماجد، عبد المنعم، **نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر** ، القاهرة ١٩٦٤.

٢ ـ التركية:

- Akgündüz, Ahmed, *Osmanlı Kanunnameleri ve Hukuki Tahlilleri*, I-IX, İstanbul 1990 -1996
- Erkal , Mehmed , Beytül-mal " , *TDV . İslâm Ansiklopedisi*, VI., 92-93.
- Evliye Çelebi, *Seyahatnama*, X., İstanbul 1938.

- Koprülü, Mehmed F. , *Bizans Muesseselerinin Osmanlı Muesseselerine Te`siri,* nşr. Orhan F. Köprülü, İstanbul 1981.
- Pakalın , Mehmed z. ,*Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü,* İstanbul 197, I-III
- es-Seyyid , Seyyid Muhammed, *XVI. Asırda Mısır Eyaleti,* İstanbul 1990.
- Uzunçarşılı, İsmail Hakkı, *Osmanlı Devleti Teşkilatına Medhal*, bas. 3 , Ankara 198.
  Osmanlı Devletinin Merkez ve Bahriyye Teşskilatı, Ankara 1948.
  Osmanlı Devletinin İlmiyye Teşkilatı , bas. 2, Ankara 1984.
  Osmanlı Tarihi, II. , bas.4 , Ankara 1983 , III. bas. 3, Ankara 1983.

٣ ــ المراجع الاجنبية :

- Shaw , S. J., *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt*, 1517-1798 , Princeton 1962.
  The Budget of Ottoman Egypt 1005 - 1006/1596-1597, Paris 1968.

انتقال المخطوطات العربية إلى تركيا
وأثره في توطيد الصبغة الإسلامية للخلافة العثمانية

الدكتور أيمن فؤاد سيد
دار الكتب المصرية – القاهرة

يُمثّل الفتح العُثماني لمصر والشام بوجه خاص نقطة فارقة في التاريخ الإسلامي، وجاء ليفصل بين حضارتين متميزتين : حضارة عربية إسلامية وحضارة تركية إسلامية . فقد كانت دولةُ سلاطين المماليك في مصر والشام هي التي قادت العالم الإسلامي في أعقاب سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وتزَعَّمت حركة الجهاد الإسلامي ضد المغول والصليبيين، واستضاف سلاطين المماليك الخلفاء العباسيين في القاهرة، وهكذا لم تعد القاهرة عاصمة لسلطنة المماليك فحسب، بل أضحت أيضاً مركز الجذب السياسي والثقافي للعالم الإسلامي أكثر من قرنين ونصف القرن .

وجاء نجاح السلطان العثماني محمد الفاتح في فَتْح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م وإسقاط الدولة البيزنطية ليجعل العثمانيين يُمَثّلون القوة الإسلامية الفتية الآخذة في النماء والقوة، والتي لم تكن لترضى بأن تَقْبَع داخل حدودها الإقليمية . وفي الوقت نفسه كانت دولة سلاطين المماليك في طريقها إلى الانهيار، بالرغم من بعض الازدهار الذي عرفته في عهد كل من السلطان الأشرف قايتباي والأشرف قانصوه الغوري [1]، فلم تستطع الصمود أمام جيش السلطان سليم الأول العثماني الذي وَضَعَ نهاية لحكم سلاطين المماليك في مصر والشام. وبإتمام الفَتْح العُثماني لمصر صارت

---

(١) انظر عن هذه الفترة Petry, Carl, F., *Protectors or Praetorians? The Last Mamlūk Sultans and Egypt's Waning as a Great Power*, State University of N.Y. 1994

مصر، كما يقول ابن إياس مؤرخ الفتح العثماني "نيابةً بعد أن كان سلطانها أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبةً باعتباره خادم الحرمين الشريفين"(٢).

ومثلما أضحت القاهرة مركز الجذب السياسي والثقافي في أعقاب سقوط بغداد، أخذت إستانبول عاصمة الدولة العثمانية الفتية منذ ذلك الحين تجذب إليها بشكل مُطَّرد أنظار العرب الذين أخذت أوطانهم تدور في فلك الدولة الجديدة بطريق مباشر أو غير مباشر. وحتى يُضفي العثمانيون على عاصمتهم هذا المظهر الجديد أخرجوا من مصر نحو ١٨٠٠ من الحرفيين والصُنَّاع المهرة كالبنّائين والمهندسين والنجارين والحجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين والفَعَلَة (*)، ويضيف ابن إياس بأن سليماً الأول خرج من مصر وصحبته ألف جمل مُحَمَّلَة ما بين ذهب وفضة إضافة إلى التحف والسّلاح والصيني والنحاس المُكَفَّت والرخام الفاخر(٣).

كذلك انتقلت الخلافة الإسلامية من القاهرة إلى إستانبول، فقد أخرج العثمانيون معهم الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين بالقاهرة ومعه أبو بكر وأحمد أولاد ابن عمه خليل . وقد أصاب هذا الأمر المصريين بالأسف الشديد حيث انقطعت الخلافة من مصر وصارت باستانبول، واعتبر ابن إياس هذا الحدث "من الحوادث المهولة"(٤).

وكان من أهم ما أخرجه العثمانيون، سواء من مصر أو من سائر البلاد العربية التي فتحوها، الكتب النفيسة ؛ فقد ورث العثمانيون الدول الإسلامية السابقة عليهم واعتبروا أنفسهم الحكام الوحيدين للعالم الإسلامي بعد انتقال الخلافة إليهم، فكان من الطبيعي أن ينقلوا إلى عاصمتهم – عاصمة الخلافة – بين ما نقلوه من البلاد التي وقعت تحت سيطرتهم، الإنتاج الفكري العربي

---

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٥ /٢٠٦.

(*) ذكر ابن إياس عملية ترحيل هؤلاء الناس بين حوادث شهر شعبان سنة ٩٢٣هـ، ولكنه عاد فذكر بين حوادث شهر جمادى الأولى سنة ٩٢٧هـ أي بعد ثلاث سنوات أنهم عادوا إلى مصر، فقال: "وفي هذا الشهر حضر جماعة كبيرة من اسطانبول ممن كان السلطان سليم شاه أسرهم وأخرجهم من مصر. فلما مات واستقر ولده سليمان رسم بعودة الأسراء قاطبة إلى بلادهم ورأف عليهم، وأظهر العدل فيهم...". (ابن إياس، بدائع الزهور..، تحقيق ونشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦١، جـ ٥، ص ٢٠٧) ونقلاً عنه انظر أيضاً : (عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، القاهرة ١٩٨٠، جـ ٢، ص ٦٩١-٦٩٢) (المركز).

(٣) ابن إياس: ١٨٢/٥، ١٨٨.

(٤) نفسه ١٨٥/٥.

المتمثل في المخطوطات العربية، فاستولوا على المخطوطات التي كانت موجـــودة فـــي خزائـــن مدارس القاهرة ومساجدها المختلفة ونقلوها [أو بالأحرى قسماً كبيراً منها] إلى إســتانبول وخاصـــة المدرسة المحمودية الواقعة الآن بقَصَبَة رضوان خارج باب زُوَيْلَـــة والمدرســـة الصَّيرْغَتْمَيْشِيـــَّة المجاورة لجامع ابن طولون، والمدرسة المؤيدية الملاصقة لباب زَوَيْلَة من داخله بالإضافـــة إلـــى مدارس ومساجد وزوايا أخرى [٥]، يشهد عليها علامات الوَقْف والتَّمَلُّك الموجودة عليها.

ورغم أن عالم المخطوطات الراحل المستشرق الألماني هلموت ريتر Helmut Ritter – الذي أمضى في تركيا أكثر من عشرين عامًا يدرس مخطوطاتها العربية ويُعَرِّف بـــها – عندمـــا ســـأل صديقه الفقيه التركي الراحل خوجا شرف الدين : "كيف استطعتم أن تجمعوا كل هذه الكتب؟" أجابه بكلمة واحدة : "بالسيف"، فإن ريتر يضيف : وفي الحقيقة فإن قسمًا كبيرًا من هذه الكنوز كان أسلابًا وغنيمة، وإن لم يكن هذا هو الطريق الوحيد لَجْمع كل هذه المخطوطات فكثيرٌ منها اشتراه أصحـــاب المجموعات الكبيرة أو أهداه إليهم أتباعهم [٦].

وكل المكتبات التي تضم مخطوطات عربية في إستانبول والأنـــاضول هـــي مكتبـــات تابعـــة لمؤسسات دينية أنشأها السلاطين والوزراء وشيوخ الإسلام وكبار رجال الدولة، حتى يمكننا القـــول بلا تردُّد إن كل سلطان أو صَدْر أعظم أو شَيْخ إسلام أو قائد كبير شيَّد في إستانبول خاصةً وفـــي سائر المدن العثمانية مسجدًا وبالقرب منه مدرسةً ومكتبةً تابعتين له [٧]، الأمر الذي جعل المـــؤرِّخ ابن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م يصف السلطان سليماً الأول العثماني بأنه مـــن قوم "رفعوا عماد الإسلام وأعلوا مناره وتواصلوا باتباع السُّنَّة المطهرة وعَرَّفوا للشـــرع الشـــريف مقداره"[٨].

---

(٥) نفسه ١٧٩/٥.

(٦) Ritter, H., "Autographs in the Turkish Libraries", *Oriens* VI (1953), p. 65.

الواقع أن قسما كبيرا من مجموعات المخطوطات المحفوظة الآن في مكتبات تركيا قد ظهرت إلى الوجود بعد القرن السادس عشـر الميلادي الذي انتهت بعده حركة الفتوح الكبرى ولا سيما في الحقبة الممتدة من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين (المركز).

(٧) أحمد آتش : "المخطوطات العربية في مكتبات الأناضول"، مجلة معهد المخطوطات العربية ٤ (مايو ١٩٥٨) ٣.

(٨) ابن العماد : شذرات الذهب ١٤٣/٨.

فمن أهم المكتبات التي أنشأها السلاطين: مكتبة الفاتح، ومكتبة بايزيد، ومكتبة السلطان أحمد، والمكتبة السليمية التي أنشأها السلطان سليم الأول بمدينة أدِرْنَة، والمكتبة السليمانية نسبة إلى السلطان سليمان القانوني التي أصبحت الآن المكتبة المركزية العامة للمخطوطات.

ومن المكتبات التي أنشأها الوزراء (الصَّدْر الأعْظَم): مكتبة راغب باشا، ومكتبة شهيد علي باشا، ومكتبة كوپريلى باشا.

أما المكتبات التي أنشأها شيوخ الإسلام فمن أهمها مكتبات : أسعد أفندي، وعاشر أفندي، ووليّ الدين أفندي، وعاطف أفندي، وفيض اللّه أفندي، وإسماعيل صائب أفندي بأنقرة، ومكتبة رئيس الكتاب مصطفى أفندي.

وإلى جانب ذلك فقد أنشأت بعض من زوجات السلاطين والوزراء مكتبات هامة مثل مكتبة طُرْخان ومكتبة صالحة خاتون ومكتبة اسما خان ومكتبة جُولْشن والدة السلطان.

ولاشك أن العثمانيين أرادوا بكثرة هذه المكتبات وكثرة عدد مخطوطاتها أن تكون لإستانبول تلك المكانة التي كانت لعواصم الخلافة الإسلامية السابقة دمشق وبغداد وقُرْطُبَة والقاهرة[٩] . وإلى جانب هذه النوعية من المكتبات توجد في إستانبول مكتبات كبيرة أخرى تحتوي على مخطوطات هامة مثل متحف طوپقپوسراي الذي يضم مكتبات: أحمد الثالث وبغداد كشك ولُمانة خزينة وخزينة وقوغوشلر ومدينة، ومكتبة جامعة إستانبول، ومكتبة المتحف التركي للآثار (متحف الأوقاف سابقًا). وتتركّز أغلب هذه المكتبات في الجانب الأوروبي لإستانبول ما عدا كتبخانة سليم أغا التي تقع بأسكودار في الجانب الأسيوي.

والفرق بين تركيا وبين سائر الدول التي تضم مكتباتها مخطوطات عربية، أن المخطوطات في هذه الدول الأخيرة توجد في عواصمها أو مدنها الشهيرة فقط، بينما تشتمل جميع مدن تركيا على مكتبات تضم مجموعات هامة من المخطوطات[١٠] مثل : أدِرْنَة وبُورْصَة ومَغْنِيسْيا وقَيْسارية وأسْكيشَهر وقُونية حيث توجد العديد من مخطوطات الصوفي الشهير صدر الدين القُونَوي في مكتبة يوسف أغا في قونية، وكوتاهية.

---

(٩) محمود الطناحي : "تركيا والمخطوطات العربية "، مجلة الهلال، ديسمبر (١٩٩٤) ١٣٣.

(١٠) نفسه ١٣٤.

وبلغ من حرص الوزراء العثمانيين على اقتناء المخطوطات أن المحبي صاحب "خلاصة الأثر" يذكر في ترجمة الوزير أحمد باشا بن محمد باشا كوپريلى المتوفى سنة ١٠٨٧هـ/١٦٦٧م أنه "ملك من نفائس الكتب وعجائب الذخائر ما لا يدخل تحت الحصر ولا يُضبَط بالإحصاء"(١١) وأضاف أنه "كان قبل وفاته وَقَفَ كتبه ووضعها في خزانة بالتُّربَة التي أنشأها والده بدرب الديوان ورتَّب لها أربعة حُفَّاظ وفيها من نفائس الكتب ما لا يوجد في مكان"(١٢).

وقد استفاد العالم اللغوي عبد القادر بن عمر البَغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣هـ/١٦٨٢م صاحب كتاب "خِزانَة الأدب ولُبِّ لُباب لسان العرب" من هذه المكتبة الشيء الكثير مطالعةً وإفادةً ونَسْخًا، فقد اتَّصل بكوپريلى باشا في إستانبول الذي أدناه وأكرمه وفتح له أبواب مكتبته.

وترجع بعض المخطوطات الموجودة في مكتبات إستانبول والأناضول إلى القرن الثالث الهجري، مثل مصحف أماجور وكتاب "المأثور فيما اتفق لفظه واختلف معناه" من كلام أبي العميثل عبد الله بن خليد المتوفى سنة ٢٤٠هـ، منه نسخة كتبت سنة ٢٨٠هـ في مكتبة ولي الدين، كما تحتفظ مكتبة جار الله أفندي بنسخة من كتاب "المدخل في أحكام النجوم" لأبي معشر البلخي كتبت سنة ٣٢٧ هـ، وتحتفظ مكتبة كوپريلى بنسخة نادرة من كتاب "المقتضب" للمبرد كتبها مهلهل بن أحمد سنة ٣٤٧ هـ . ويرجع بعضها الآخر إلى الفترة المتأخرة للخلافة العباسية في بغداد، مثل حالة بعض المصاحف والمخطوطات التي كتبها بخطه الخطاط البغدادي الشهير ياقوت المستعصمي، كما أن أحد أجزاء "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي كان في خزانة الخليفة العباسي المقتفي المتوفى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، وبعض المخطوطات الأخرى كتب في المدرسة النظامية في بغداد، كما يوجد العديد من المخطوطات التي كتبت في القرن السادس الهجري في فترة حكم السلاجقة (١٣). وأغلب الظن أن كل هذه المخطوطات وصلت إلى مكتبات تركيا من خلال مكتبات المدارس الموجودة في القاهرة، فالقسم الأكبر من المخطوطات [القديمة] الموجودة في تركيا مصدره مصر والشام واليمن، وكان أغلبه في خزائن كتب المدارس المنتشرة بالقاهرة ودمشق وحلب في العصر المملوكي، وهي تشتمل على مصاحف خزائنية ونسخ نفيسة كانت موجودة على الأخص

---

(١١) المحبي : خلاصة الأثر ٣٥٣/١.

(١٢) نفسه ٣٥٦/١.

(١٣) Ritter, H., *op. cit.*, p. 63.

في القاهرة، تَدُلّ على ذلك علامات الوَقْف والتَملُّك وإجازات السَّماع والقراءة الموجودة عليها، أو من كتابتها برَسْم خزائن سلاطين وأمراء المماليك، فمن أهم المكتبات التي انتقل رصيدها وتَوَزَّع على مكتبات إستانبول المختلفة : المكتبة المحمودية التي أنشأها عام ٧٩٧هـ/١٣٩٥م الأمير جمال الدين محمود بن على الأستادّار ووصفها المقريزي بقوله :

"ولا يُعْرَف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها وهي باقية إلى اليوم لا يخرج لأحد منها كتابٌ إلاّ أن يكون في المدرسة، وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن، وهذه المدرسة من أحسن مدارس مصر"(١٤).

وَجَمع كُتُب هذه المكتبة القاضي بُرْهان الدين أبو إسحاق بن جَمَاعَة المتوفى سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م في طول عمره، واشتراها محمود الأستادّار من تركته بعد وفاته ووَقَفَها وشَرَطَ أن لا يخرج منها شيءٌ من مدرسته (١٥). ويضيف ابن حَجَر أن ابن جَماعَة "خلَّف من الكتب النفيسة ما يعزّ اجتماع مثله لأنه كان مغرمًا بها، فكان يشتري النسخة من الكتاب التي إليها المنتهى في الحُسْن، ثم يقع له ذلك الكتاب بخط مصنفه فيشتريه ولا يترك الأولى إلى أن اقتنى بخطوط المصنفين ما لا يُعَبَّر عنه كثرةً، ثم صار أكثرها إلى جمال الدين محمود الأُستادّار فوقفها بمدرسته بالموازنيين وانتفع بها الطلبة إلى هذا الوقت"(١٦).

ورغم أن ابن حجر يذكر أن مجموع كتب هذه الخزانة كان نحو أربعة آلاف مجلدة فلم يتبق منها في نهاية القرن الماضي، عندما جُمِعَت الكتب الموجودة في المدارس والمساجد لتُضَمّ إلى الكتبخانة الخديوية، سوى ثمانية وخمسين كتابًا فقط (١٧).

ومن بين المخطوطات التي كانت بهذه الخزانة وتوجد اليوم في مكتبات إستانبول: نسخة من "تجارب الأمم" لابن مسكَويْه كتبت سنة ٥٥٢هـ (أياصوفيا ٣١١٦-٣١٢١)، و"كتاب الصِّناعتين" لأبي هلال العَسكري (كوبريلى ١٣٣٣-١٣٣٤)، و"معجم البلدان "ليَاقوت الحَمَوي (كوبريلى

(١٤) المقريزي : الخطط ٢/٣٩٥.

(١٥) ابن حجر : إنباء الغمر ٣/ ٢٩٩ و٣٥٦.

(١٦) ابن حجر : إنباء الغمر ١/ ٣٥٥ , ابن العماد : شذرات الذهب ٦/٣١٢.

(١٧) فؤاد سيد : "نصان قديمان في إعارة الكتب"، مجلة معهد المخطوطات العربية ٤ (١٩٥٨) ١٢٣.

١١٦١-١١٦٥)، و"تاريخ الإسلام" للذهبي بخطه كتبت سنة ٧٢٦هـ وعليها قراءة بخط الصفدي مؤرخة سنة ٧٣٥هـ (آياصوفيا ٢٠٠٥-٢٠١٤) وغيرها .... (١٨).

ولاشك أن أحد الفضائل التي لا تقبل الجدل للأتراك العثمانيين هي حفظ هذا التراث الفني للثقافة الإسلامية في عاصمتهم الجديدة بعيدا عن التخريب والتشتيت، حتى إنه لا توجد الآن أية عاصمة في الشرق أو الغرب تستطيع أن تتباهى باقتنائها كمية مماثلة من المخطوطات، فإستانبول هي المركز الأول للمخطوطات العربية والفارسية والتركية في العالم (١٩).

ويدل الاختيار الذي قام به أصحاب هذه المجموعات في كثير من الحالات على أنهم اقتنوها بناء على مستوى عال من الثقافة والعلم. مثال ذلك أن علي أميري صاحب المجموعة المعروفة به ترقى في المناصب حتى أصبح دفتردارا في مناطق متعددة من تركيا إلى أن ترك الخدمة الرسمية وتفرغ للدرس والبحث سنة ١٩٠٨، ثم عرض عليه بعد ذلك تفتيش المالية في اليمن. ويذكر هو أنه عندما علم بالعثور على كتاب "نفحات العنبر في تراجم رجال القرن الثاني عشر" لإبراهيم بن عبد الله بخط مؤلفه في اليمن، وكذلك امتلاك بعضهم هناك لكتاب "نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة" للمحبي، كان وجود مثل هذه الكتب في اليمن سببا كافيا لأن يقبل مرة أخرى وظيفة رسمية هناك. وجمع الرجل من اليمن ثروة من المخطوطات اليمنية نقلت عقب وفاته سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٥م إلى مكتبة ملت (٢٠).

حاجي خليفة وكتاب "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون"

لاشك أن هذه المجموعة الضخمة من المخطوطات العربية هي التي ساعدت مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي المعروف بحاجي خليفة، العالم الأكثر شهرة والأغزر إنتاجا في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي في الدولة العثمانية، على وضع أكبر معجم ببليوجرافي في

---

(١٨) أيمن فؤاد سيد : الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات ٢٥٦-٢٥٧.

(١٩) Ritter, H., *op. cit.*, p. 63.

(٢٠) محمد عيسى صالحية : "المخطوطات اليمنية في مكتبة علي أميري - ملت باستانبول"، مجلة معهد المخطوطات العربية ٢/٢٦ (١٩٨٢)، ٦٦٥، ٦٦٦.

الأدب العربي [٢١]. اشتغل بإعداده مدة عشرين سنة وسجل فيه زهاء ١٥٠٠٠ من أسماء الكتب وما ينيف على ٩٥٠٠ مؤلف ذلك هو كتاب "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون"[٢٢].

وقد ابتدأ حاجي خليفة بتحرير أسماء الكتب التي كان يجدها عند الوراقين وفي خزائن الكتب بحلب، ولكن لاشك أن مجموعات المخطوطات التي وجدها في المكتبات الوقفية بإستانبول والأناضول كانت له نعم المعين على إتمام كتابه.

وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الكتاب يعد أول عمل ببليوجرافي عربي رتبت فيه أسماء الكتب على حروف الهجاء، وتمكن من خلال اطلاعه على المخطوطات بنفسه من ذكر أوائل الكتب وأبوابها وفصولها وأحيانا محتواها، ويعد بذلك رائد علم فهرسة المخطوطات العربية.

وكتب حاجي خليفة مسودة كتابه في أول الأمر تحت عنوان "إجمال الفصول والأبواب في ترتيب العلوم وأسماء الكتاب"، وقد اقتنى هذه المسودة جار الله ولي الدين أفندي صاحب المكتبة المعروفة باسمه في إستانبول وهي محفوظة بها تحت رقم ١٦١٩، وكتب على ظهرها ما مثاله :

"اعلم أن هذا الكتاب المسمى بكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لأستاذ أستاذي الحاجي خليفة المشتهر بكاتب جلبي الإستنبولي بيضه بعد ما سوده إلى آخر الكتاب إلى كلمة الدروس من حرف الدال المهملة، انتقل إلى رحمة الله تعالى سنة ١٠٦٧ وبقي الكتاب من كلمة دروس في مسودته بلا تبييض، ثم اجتمع ستة رجال فبيضوه ولكن لم يبيضوه كما ينبغي . والمسودة هي في هذا المجلد بخط المؤلف المسود رحمه الله تعالى، ولقد رأيت مبيضة بخطه إلى كلمة دروس من حرف الدال في مجلد كامل موجودة في بلدة قسطنطينية"[٢٣].

والنسخة التي رآها جار الله أفندي هي المبيضة المحفوظة الآن في مكتبة روان كشك الملحقة بمتحف طوپقپو سراي تحت رقم ٢٠٥٩.

وقد عالج إليازار برنباوم Eleazar Birnbaum في مقال هام كيف نجح حاجي خليفة (كاتب چلبی) في تنظيم كتابه بهذه الدقة على حروف الهجاء بينما فشل في ذلك سابقوه، وذلك من خلال

(٢١) G=kyay, O. S., *EI²*, art. Katip ?elebi :V, p. 791-792.

(٢٢) *Ibidem*.

(٢٣) أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق ٣٤٦.

دراسة مسودته لكتابي "كشف الظنون" و "سلم الوصول إلى طبقات الفحول" التي أتـاحت لـه فـهم طريقته في الترتيب الدقيق لمواد كتابه . وفي ترجمته الذاتية التي ألحقها بآخر كتابه "ميزان الحـق" يصف حاجي خليفة (كاتب چلبى) الشكل النهائي الذي يقابل النشر في اللغة الحديثة للنسـاخ الذيـن يكلفون بتبييض نسخ لتقديمها إلى الوجهاء وذوي الشأن (٢٤).

* * *

وعندما اضطرت الدولة العثمانية بعد القرن السابع عشر إلى مدافعة قسـم كبـير مـن العـالم الإسلامي ضد عدوان أوربا طرأ على هذه المؤسسات العلمية (المدارس والمكتبات) نـوع مـن الإهمال. ولكن منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر في عهد السلطان عبد الحميد الثـاني (١٨٧٦-١٩٠٩) بذل مجهود عظيم لإحياء هذه المؤسسـات العلميـة، وحسـب إحصـاء سـنة ١٣١١ - ١٣١٢هـ/١٨٩٣-١٨٩٤م والذي طبعته وزارة المعارف في إستانبول سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م، فقد ثبت أنه كان موجودا في المملكة العثمانية - ما عدا استانبول - ٢٧٢ مكتبـة تحتـوي علـى ٧٦٧٧٣ نسخة مخطوطة (تشتمل بالإضافة إلى الأناضول على مكتبـات فـي اليونـان وألبانيـا ويوغوسلافيا وسوريا والعراق والأردن) (٢٥).

ونشرت في هذه الفترة سجلات المخطوطات لمعظم مكتبات إستانبول تحت عنوان "دفتر"، لكنها كانت بعيدة عن الدقة وعن إعطاء فكرة صحيحة عن قيمة محتوى المكتبات . ثم أخـذت معرفـة المختصين بمخطوطات إستانبول تتوسع باستمرار بعد ما توطن المستشرق الألماني أوسكار رينشـو Oskar Rescher في إستانبول وكتب مقالات عديدة عن مكتباتها بين سنتي ١٩١٠ و١٩٢٤ . ثـم تولى هلموت ريتر Helmut Ritter دور الريادة في هذا الميدان منذ سنة ١٩٢٨، وقام بـالتعريف بمكتبات إستانبول وغيرها من مدن الأناضول لمدة تزيد على عشرين عاما (١٩٢٨-١٩٥٣)، كمـا

---

(٢٤) Brinbaum, E., "Katib Chelebi (1601-1657) and alphabetization: a methodological investigation of the autographs of his **Kashf al- Zunûn and Sullam al- Wusul**" in *Scribes et manuscrits du Moyen Orient*, Paris 1997, pp. 235-263.

(٢٥) أحمد آتش : المرجع السابق ٣، ٤.

كان رئيسًا للجنة تصنيف مخطوطات إستانبول لعدة سنوات . وذكر أن عدد مخطوطاتها العربية يبلغ ١٢٤ ألف مخطوط، قد يصل الآن إلى نحو ١٥٠ ألف مخطوط[٢٦].

وكانت من أهم أعمال التعريف بالمخطوطات العربية الموجودة في تركيا، بعثة معهد المخطوطات العربية الأولى إلى تركيا عام ١٩٤٧ والتي صَوَّرت على الميكروفلم مجموعة منتقاة من هذه المخطوطات وحفظتها في مقر المعهد بالقاهرة، واعتمد عليها العديد من الباحثين العرب والمستشرقين في نشر أهمها وفي دراساتهم المختلفة.

ولعل إمكانية بناء قواعد بيانات للمخطوطات على الحاسب الآلي الآن تُيَسِّر عملية تبادل المعلومات حول المخطوطات بين المكتبات، خاصة بعد أن بدأت وزارة الثقافة التركية منذ عام ١٩٧٨م في عمل فهرس مُوَحَّد لكل المخطوطات العربية والتركية والفارسية المحفوظة في المكتبات التركية، وأيضًا للمجموعات المحفوظة في المتاحف والمؤسسات الأخرى الموجودة في تركيا . وجعلت الأولوية في هذا الفهرس المُوَحَّد للمخطوطات التي لم تظهر من قبل في أي فهرس مطبوع، وخاصة المخطوطات الموجودة في المكتبة السليمانية بإستانبول والمكتبة الوطنية "ملي كتبخانه" بأنقرة، وهي مجموعات لا يوجد لها سوى فهارس بطاقية . وأشرف على هذا المشروع الهام في بدايته العالم التركي عصمت پارمقسز اوغلى İsmet Parmaksızoğlu حتى وفاته سنة ١٩٨٤، ثم تولى الإشراف عليه في أنقرة عبد الله أويصال Abdullah Uysal، وفي إستانبول كوناي قوط Günay Kut[٢٧].

---

(٢٦) جمع فؤاد سزكين المقالات التي تعرف بمخطوطات استانبول والأناضول ونشرها في ثلاثة مجلدات بعنوان "دراسات فيما تحتويه مكتبات استانبول والأناضول من المخطوطات العربية "، فرانكفورت – معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ١٩٨٦.
وراجع كذلك نعمت بيرقدار ومهين لوغال : ببليوغرافيا مكتبات المخطوطات في تركيا والمنشورات الصادرة حول المخطوطات المحفوظة فيها(بالتركية)، استانبول- إرسيكا ١٩٩٥.

(٢٧) Bimbaum, E.,Turkish Manuscripts! Cataloguing since 1960 and Manuscripts still uncatalogued Part 5I Turkey and Cyprus, *JAOS* 104 (1984), pp. 468-472ı Flemming, B. , ŞThe Union Catalogue of Manuscripts in Turkey I Türkiye Yazmalan Toplu Kataloğu (TÜYATOK) Ş, *MMEİ* (1986), pp. 109-110.

سالنامة وزارة المعارف العثمانية وأهميتها في دراسة واقع التعليم في البلاد العربية في العهد العثماني

الأستاذ الدكتور فاضل مهدي بيات
قسم التاريخ/ جامعة آل البيت – الأردن

سالنامة وزارة المعارف العامة (سالنامهٔ نظارتِ معارفِ عموميه) تصنف ضمن السالنامات المتخصصة الصادرة في العهد العثماني(1). أصدرتها وزارة المعارف العثمانية سنة ١٣١٦ هـ ١٨٩٨م واستمرت في الصدور حتى سنة ١٣٢١هـ ١٩٠٤م حيث صدر العدد

---

(١) تعني السالنامة الكتاب السنوي ، وقد اعتادت الدولة العثمانية إصدار سالنامات مختلفة . وأول سالنامة عثمانية صدرت في عهد السلطان عبد المجيد في سنة ١٢٦٣هـ ١٨٤٧م وهي سالنامة الدولة حملت أسم سالنامهء دولتِ عليّهء عثمانيه (سالنامة الدولة العلية العثمانية)، وهي تتناول نشاطات الدولة المختلفة، واستمرت في الصدور حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. والى جانب هذه السالنامة أصدرت بعض الوزارات والمؤسسات العثمانية سالنامات خاصة بها، وأهمها : سالنامة وزارة الشؤون الخارجية (١٨٨٤ – ١٩٠٤) والسالنامة العسكرية (١٨٦٥ – ١٩٠٨) والسالنامة البحرية (١٨٨٩ – ١٩١٨) وسالنامة المرصد العامر (١٨٧٢) وسالنامة وزارة المعارف العامة (١٨٩٨ – ١٩٠٤ م) والسالنامة العلمية (١٩١٦) . وعلاوة على هذه السالنامات، أصدرت الولايات العثمانية هي الأخرى سالنامات خاصة بها، وهي تتضمن بشكل عام معلومات تاريخية – جغرافية – اقتصادية – اجتماعية – ثقافية – وصفية عامة تتعلق بالولاية التي صدرت فيها السالنامة والوحدات الإدارية التابعة لها، فضلاً عن معلومات إحصائية مختلفة تتعلق بتشكيلات الولاية من دوائر ومرافق رسمية تم تقديمها على شكل جداول. والولايات العربية التي أصدرت السالنامات هي : حلب ، سورية ، طرابلس الغرب، مصر ، بغداد، اليمن، الحجاز، جبل لبنان، البصرة، الموصل، وبيروت. للمزيد من التفصيلات يراجع : د. فاضل مهدي بيات : السالنامات العثمانية مصدراً لدراسة التاريخ المحلي، منشور ضمن كتاب : **دراسات في مصادر تاريخ العرب الحديث**، (تحرير د. هند أبو الشعر)، منشورات جامعة آل البيت ١٩٩٨، (ص ١٥٩ – ٢٠٤).

الأخير منها[٢]. وعلى الرغم من أن هذا العدد يحمل الرقم (٦) إلا انه لم يتم الوقوف على العدد الخامس منها في جميع مكتبات استانبول التي تتضمن مجاميع كاملة من السالنامات وربما صدر منها خمسة أعداد ووضع الرقم (٦) على العدد الخامس والأخير سهواً (*).

وعلى الرغم من قيام بعض الوزارات العثمانية كالخارجية والحربية والبحرية والمالية ومؤسسات أخرى باصدار سالنامات خاصة بها، إلا أن سالنامة وزارة المعارف تعتبر أهم السالنامات المتخصصة[٣] ، ويكفي أن نشير هنا إلى أن العدد الأول منها ضم ١٢٥٧ صفحة والعدد الثالث ١٦٧٧ صفحة. وقد حاولت سالنامة المعارف رسم المعالم العامة للمعارف بشكل عام في الدولة العثمانية وأصبحت بذلك مصدرا تاريخيا لا يمكن تجاهله عند دراسة تاريخ التعليم في الدولة وبضمنها كل الوحدات الادراية المرتبطة بها. إذ أن هذه السالنامة لم تهتم بالمؤسسات التعليمية في العاصمة فحسب، بل حظيت باهتمامها كل المدارس التي أنشأتها الدولة أو الجهات الاخرى وإن كانت في قضاء واقع في آسيا أو اوروبا أو افريقيا واحتفظت لنا بأسماء الكثير من المربين الذين كان لهم الفضل في نشر التعليم بين الأهالي ولهذا فانها تعتبر مصدرا لا غنى عنه للذين يدرسون تاريخ المعارف والثقافة في الدولة العثمانية بكل أرجائها.

وأشارت السالنامة في مقدمة العدد الأول إلى دوافع وظروف نشر سالنامة المعارف قائلة:

".. على الرغم من التقدم الذي حققته المعارف خلال فترة وجيزة، لم تنشر لحد الآن احصائية منتظمة من قبل ادارة الفروع، بل ظل هذا الرقي يتناقل شفهيا، ولم يكن هناك أي سجل صحيح تناول هذا.. إلا أن الجدول الاحصائي الخاص بالمعارف والذي تم اعداده ونشره في السنة الماضية (١٨٩٦) قد غطى إلى حد ما قسما من هذا، لأن هذا الجدول قد خص المكاتب والمكتبات التابعة لوزارة المعارف، أما هذه السالنامة فانها تتضمن فضلا عن ذلك

---

(٢) صدرت أعداد سالنامة المعارف على الوجه الآتي :

١-١٣١٦هـ ١٨٩٨م، ٢-١٣١٧هـ ١٨٩٩م، ٣-١٣١٨هـ ١٩٠٠م، ٤-١٣١٩هـ ١٩٠١م، ٦- ١٣٢١هـ ١٩٠٣م.

* حول السالنامات والتقاويم العثمانية بوجه عام انظر الفهرس الذي أصدره المركز تحت عنوان: الفهرس الموحد للتقاويم العثمانية، السالنامات والنوسالات الموجودة في مكتبات استانبول، إرسيكا (استانبول ١٩٨٢) (المركز).

(٣) انظر عن هذه السالنامات المتخصصة : د. فاضل مهدي بيات : السالنامات العثمانية.... ضمن الكتاب المار ذكره في الهامش رقم ١.

معلومات متعلقة بالمكاتب العسكرية والمدارس العلمية (الدينية) والمكاتب الملحقة بوزارة الزراعة ومعلومات تتعلق بمسائل مختلفة..."

وينبغي ألا يفهم من هذا أن سالنامة المعارف جاءت لتكمل الجدول الاحصائي الآنف الذكر، بل تشتمل على معلومات متنوعة يمكن حصرها فيما يلي:

١-تقويم سنوي والسالنامة بوضعها هذا التقويم تتقيد بالتقليد المتبع في جميع السالنامات العثمانية وبكل أنواعها وذلك بوضع تقويم سنوي في بداية كل عدد من اعداد السالنامة. ووجود هذا التقويم كان السبب في تسمية السالنامات العثمانية بالتقاويم.

٢-موجز تاريخ وزارة المعارف.

٣- سيرة حياة الذين تقلدوا منصب وزارة المعارف بين سنتي ١٢٧٣ هـ (١٨٥٦-١٨٥٧م) ولغاية صدور العدد الأخير من السالنامات.

٤- الأنظمة والتعليمات والقرارات المتعلقة بالمؤسسات التعليمية والثقافية والقائمين بها.

٥-مفردات المواد الدراسية المقررة في كافة المراحل الدراسية وبكل انواعها مع وصف الكثير من هذه المواد، وهي عامة لا تخص مدرسة بحد ذاتها بل تشمل كل المدارس من هذا القبيل أو ذلك في الدولة.

٦- الجداول الاحصائية المتعلقة بوزارة المعارف وهي تتعلق بـ:

أ- تشكيلات وزارة المعارف.

ب- الدوائر المركزية الملحقة بوزارة المعارف.

ج- المدارس العليا المرتبطة بوزارة المعارف.

٧- الجداول الاحصائية المتعلقة بالولايات العثمانية كل على حدة.

* * *

وأحاول فيما يلي، أن أتناول هذه النقاط كلا على حدة.

أما النقطة الأولى المتعلقة بالتقويم فإنه لا يختلف عن التقاويم الموضوعة في بداية سالنامة الدولة أو سالنامات الولايات، وليس له أي صفة مميزة في سالنامة المعارف فهو يتضمن أيام الأسبوع وما يقابل كل يوم من أيام الشهور الهجرية والرومية والميلادية (الإفرنجية) وأوقات

الفجر والظهر والعصر والعشاء والإمساك والمواسم، وحقل المواسم أشبه بتقويم زراعي، كما لا ينسى التقويم بيان أوقات المناسبات الدينية والوطنية.

أما النقطة الثانية فتحمل إسم "موجز تاريخ وزارة المعارف" ولكن يبدو في الوهلة الأولى عند قراءة هذا المبحث أنه لم يخصص لتناول تاريخ وزارة المعارف فقط بل عبارة عن عرض تاريخي عام لنشأة التعليم وتطوره في الدولة العثمانية والمؤسسات التعليمية فيها والإصلاحات التي تحققت في مجال التعليم عبر السنوات.

وتكمن أهمية هذا الموجز التاريخي في أنه كتب في إطار عرض الإرادات السنية أي الأوامر السلطانية الصادرة بشأن التعليم، ويبدو أن أي حدث كان يتعلق بالتعليم، مهما كان نوعه أو أهميته، كان يقترن بالإرادة السنية، ولهذا فأن هذا الموجز أشبه بعرض لما جاء في الأوامر السلطانية المتعلقة بالتعليم والتي صدرت أثر اللائحة المقدمة من مجلس أمور نافعة (مجلس الاعمار) في ١٢٥٤هـ ١٨٣٨م. وقد أشار هذا الموجز في بدايته إلى الوضع العام للمؤسسات التعليمية في الدولة العثمانية بشكل عام، فذكر أن مؤسسات التعليم الموجودة في البلاد العثمانية في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) كانت عبارة عن المدارس المخصصة لطلبة العلوم الدينية، والمدارس المقامة من قبل السلاطين، ومدارس المحلات التي أقيمت من قبل بعض أصحاب الخيرات، وأخير المدارس العسكرية التي تم تأسيسها في عهد السلطان سليم.

ويبدو أن الدولة العثمانية أحست في منتصف القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) أن ما يتوفر من المؤسسات التعليمية غير كاف لتأمين الكوادر المتعلمة لدوائر الدولة، المدنية منها والعسكرية، وللقضاء على الجهل المتفشي بين الأهالي. ولهذا قام مجلس أمور نافعة (مجلس الاعمار) برفع اللائحة المذكورة، وقد أعدت هذه اللائحة لتسلط الأضواء على الوضع الذي يعيشه واقع التعليم في الدولة وتبدي الأراء والمقترحات التي من شأنها النهوض بالتعليم.

وفي مستهل اللائحة تم إبراز أهمية المعارف والعلوم وفضل العلم في ظهور الصنايع والحرف ذاكراً "إذا كانت العلوم الدينية وسيلة للنجاة في الآخرة فإن الفنون الأخرى ستؤدي إلى بلوغ بني البشر الكمال" فعلم الهيئة (الفلك) يسهل سير الفن، الأمر الذي يؤدي إلى رواج

أمر التجارة وازدهارها، والعلوم الرياضية تؤدي إلى حسن انتظام الأمـور الحربيـة والإدارة العسكرية.

ثم تبرز اللائحة فائدة الآلات في حياة الإنسان.. ثم تجري مقارنة بين هذا الوضع ووضـع الأهالي الذين يعانون من الجهل مركزة على أن الصنائع التي إكتسبوها عن طريق عملهم لـن تتقدم أبدا، فيجهلون بذلك الدولة التي يعيشون فيها ولا يعرفون البلاد التي يتواجدون فيها.

وتقر اللائحة أن الدولة العثمانية قامت بإنشاء المدارس والمكاتب(٤) وأحيائها فنشـأ جمـع كبير من رجال العلم والمعارف، ترك كل واحد منهم أعدادا هائلة من الكتب، فطافت شـهرة الدولة العثمانية في الآفاق في مجال العلوم والمعارف أيضا.

ثم تشيد اللائحة بالجهود المبذولة من قبل السلطان من أجل نشر التعليم.. وعلى الرغم مـن هذا، فإن الطلاب المقبولين في هذه المدارس كـانوا لا يمتلكـون المعلومـات الأساسـية ولا يتمكنون من الكتابة وقراءة الكتاب التركي، كما كانوا لا يلمون باللغة العربيـة والفارسـية أو اللغة الفرنسية.. ومرد كل ذلك إلى عدم وجود منهج أو نظام خاص للتعليم في هذه المـدارس التي لم تدخل تحت إشراف ومتابعة أية جهة ويقوم المعلمون بتعليم الطلاب ما يعرفـون مـن معلومات، فتمضي أوقات الطلبة هباء في هذه المدارس. كما أن بعض الناس يسجلون أولادهم في هذه المدارس عند بلوغهم الخامسة أو السادسة، ولكنهم يخرجونهم منها وهم لم يتعلموا شيئا وذلك لأجل تشغيلهم في مهنة أو حرفة، أو أن البعض لا يضعون أولادهم في المدارس أبـدا بسبب فقرهم، فينشأ هؤلاء الأولاد وهم يقضون أوقاتهم في اللعب واللهو. والذين يعملون فـي المهن قد يتمكنون من الإحاطة بمهنهم، إلا أنهم لن يتقدموا فيها طالما لم يتلقوا علوما في هـذا الصدد، فلن يفيدوا بذلك دولتهم وشعبهم.

وقد أقر مجلس أمور النافعة الذي يعنى بأمر أحياء الزراعة والتجارة والصنايع في البـلاد، أن أيا من كل ذلك لن يتحقق في غياب العلوم.

ولأجل تيسير وتسهيل عملية تعليم وسائل العلوم والمعارف فقد أوصى المجلس بما يلي:

---

(٤) المقصود بـ (مدرسة) في اللغة العثمانية هو المدرسة الدينية الإسلامية، أما "مكتب وجمعها مكاتب " فهو المدرسة غير الدينية الإسلامية وتشمل المدارس الحكومية والخاصة والأجنبية : انظر Midhat Sertoğlu : *Resimli Osmanlı Tarihi Ansiklopedisi*, İstanbul, 1958 , S. 200 - 201

١-تنظيم المدارس الموجودة بتعيين من يقوم بالوقوف على أحوال ودرجة معلومات معلمي المدارس الموجودة وذلك للإشراف على تعليم التلاميذ في المدارس الصغيرة الكائنة في المحلات.

٢-استخدام المعلمين من ذوي الكفاءات والقادرين على تربية الأطفال.

٣-تقسيم التلاميذ إلى صفوف مختلفة ضمن مدرسة واحدة، وإعتماد دروس خاصة بكل صف، وإلقاء الدروس على تلاميذ الصف الواحد كلهم دفعة واحدة، وذلك بدلاً من تعليم التلاميذ كل على حدة، الأمر الذي يؤدي إلى إعاقة تعليمهم.

٤-قيام كل شخص بوضع أبنائه في المدارس عند بلوغهم الرابعة وحتى الخامسة وتنبيه الذين يعملون خلاف هذا، وهذا يعني الانتقال إلى التعليم الإلزامي في البلاد.

٥-إقامة عدد من المدارس للفقراء يوضع فيها الأطفال المتسولون، والعاملون في الأعمال الرذيلة بسبب فقر عوائلهم، والأيتام، وكذلك الأطفال المتسكعون في الشوارع.

٦-نقل التلاميذ الموجودين في المدارس الصغيرة (الكتاتيب) التي أقيمت في المحلات لتعليم التهجي وتلاوة القرآن الكريم، إلى المدارس الكبيرة التي تقيمها الدولة وتعليمهم بقدر المستطاع اللغة التركية والخط والكتابة ورسالة الأخلاق وإدخال الذين ختموا القرآن مرة أو مرتين ودرسوا علم الحال (أي قواعد الدين) إلى الصف الثاني من هذه المدارس.

٧-إدخال التلاميذ الذين ينهون دراستهم في المدارس السابقة وذوي الكفاءات إلى المدارس العالية التي سبق أن تأسست أو تتأسس فيما بعد، حسب رغباتهم.

٨-عدم السماح لأولياء التلاميذ الذين لم يتعلموا علم الحال / ولم يكتسبوا القدرة على القراءة والكتابة لإخراجهم من المدرسة لأجل تشغيلهم في إحدى المهن.

٩-إدخال الذين درسوا علم الإجمال (المالية) وتعلموا رسم الخط في المدارس العالية المهنية.

وبهذا يتم وفي غضون فترة قصيرة إعداد كوادر متعلمة في مختلف المجـــالات المهنيـة ولأجل تعميم كل ذلك في كافة أرجاء الدولة العثمانية سيقوم مجلس أمور النافعـة (الأعمـار) وموظفوه ببذل جهودهم من أجل تنظيم وأحياء المدارس الموجودة فـي العاصمـة اسـتانبول بالشكل اللائق والمناسب.

ويستدل من العبارة الأخيرة من اللائحة: "والأمر والفرمان لمن له الأمر" إنـها عرضـت على السلطان بشكل مباشر.

وبعد عرض هذه اللائحة جرت مراسلات بين دار شوراى باب عالى (مجلس شـورى الباب العالي) وديوان الأحكام العدلية، وأجريت عليها بعض التعديـلات ثـم اقـترنت بالإرادة السنية. وإثر هذا تأسس مكتب معارف عدلية[٥] (مدرسة المعـارف العدليـه) وخمسة مكاتب رشدية في استانبول، ثم انقسم مكتب معارف عدليه إلى قسمين: مكتـب ادبى ومكتب عرفاني. وبهذا تم وضع الحجر الأساس للمعارف العامة ونظارة المعارف في الدولة العثمانية.

واعتبارا من هذا التاريخ اشترط على الذين يتعينون في "الأقلام"[٦] (الشعب الإدارية فـي الدوائر) اكتسابهم الملكة والكفاءة بالانتساب إلى المدارس المقامة، كما تقرر قيام منتسبي الباب العالي (رئاسة الوزراء) ونظارة المالية بالانخراط في صفوف مكتب معارف عدلية صباحـا، وتعيين المتخرجين من هذه المدرسة في أقلام "ديوان همايون مهمه اوطـه سـى"[٧] (غرفـة

---

(٥) مكتب معارف عدليه وهي مدرسة أقيمت على مستوى المدارس الابتدائية في سنة ١٨٣٨م لتعليم الموظفين فـي دوائـر الدولة . ولفظة (عدليه) الواردة في اسم المدرسة لا تتعلق بالعدل أو القانون , بل بالسلطان محمود الذي كان يتلقـب بـ (عدلي) . و استمرت هذه المدرسة حتى سنة ١٨٦٢ م. أنظر :

M . Z . Pakalın, *Osmanlı Tarihi Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü*, İstanbul 1993 , 2 : 453

(٦) الأقلام جمع قلم : مصطلح استخدم للدلالة على قسم التحريرات في دوائر الدولة، وكذلك الغرف التي يجتمع فيها الكتـاب ويقومون بالكتابة فيها . أنظر ش . سامي : قاموس تركي , ص ١٠٨٠ .

(٧) "مهمه اوطه سى" أو "مهمه قلمى" (غرفة المهمة – قلم المهمة) تم تأسيسها بموجب النظام الصادر سنة ١٧٩٧ م من أجل جمع" كتاب المهمة" في أقلام الديوان السلطاني للعمل معا ، إذ يقومون فيها بتدوين المباحثات الرسمية الجارية في الديـوان السلطاني في الدفتر المسمى " مهمه دفترى–دفتر المهمة" أنظر :

Rehber Ansiklopedisi, İstanbul 1993, 5:375; *Meydan Larousse*, İstanbul 1992 ,14:294

المهمة في الديوان السلطاني) ومكتوبئ صدر عالى [٨] (الشؤون الكتابية في رئاسة الــوزراء) ووزارتي المالية والداخلية. وكان السلطان يقوم في كل سنة بتفقد الامتحانات النهائية في هــذه المدرسة فكان له أبلغ الأثر على الطلاب.

ورأت الدولة أن إدامة انتظام إدارة المدارس القائمة والتي ستقام فيما بعد، تتوقــف علــى إصدار نظام خاص. وبالفعل تم تشكيل مجلس مؤقت لدراسة اللائحة النظامية التي يتم إعــداده في هذا الصدد، وذلك في سنة ١٢٦١. فقام المجلس بعقد اجتماعاته مرتين في الأسبوع، ويرفع نتائج مباحثاته إلى (مجلسِ والاي أحكامِ عدليه)[٩] حيث يتم تدقيقها قبل عرضها على السلطان. وقد تمخضت هذه المباحثات عن اتخاذ جملة من الإجراءات في ســنة ١٢٦٢ منــها إصــدار الأنظمة المتعلقة بتنظيم الإدارة وأصول التدريس في المدارس الإبتدائية والرشدية، وتأســيس دار الفنون (الجامعة) التي تجمع كل العلوم والفنون، وينخرط فيها كل من يرغب التعيين فــي أقلام الدولة. إلا أن أهم إجراء أتخذ في هذا الوقت بالذات هو تشكيل مجلس معارف دائم وذلك للنظر في المسائل المتعلقة بالتعليم ومتابعتها.

وكانت الدولة العثمانية تولي اهتماماً كبيراً لمجلس المعارف الذي تم تشكيله بإرادة سلطانية فاتخذ مقره في دائرة (مجلسِ والا) بالباب العالي وأختير لرئاسته وعضويتــه كبــار رجــال الدولة. وأخذ المجلس يعنى بكل ما يتعلق بالمعارف وتنفيذه، ولأجل تنفيذ الإجراءات المتعلقــة بالمعارف ومتابعتها، تم تأسيس نظارة المكاتب العمومية.

وكانت المكاتب الرشدية تتوسع بشكل مطرد، فأصبحت هناك حاجة ماســة إلــى إعــداد معلمين للمدارس الجديدة، وذلك بإقامة دار للمعلمين، وأقيمت أول دار للمعلمين في ١٠ ربيــع الآخر من سنة ١٢٦٤هـ (مارس/ آذار ١٨٤٨).

---

(٨) مكتوبيء صدر عالى ،مصطلح يقابل مدير المكتب الخاص والسكرتير العام في رئاسة الوزراء، وكانت مهمتــه تــأمين تحرير الكتب الرسمية في مقر الصدارة (رئاسةالوزراء)، حيث يقوم بتحرير الكتب الرسمية المهمة و يصحــح الكتــب المحررة من قبل الكتّاب : .Pakalın, 2:466

(٩) مجلس والاى أحكام عدليه، مجلس تم تشكيله في سنة ١٢٥٣ هـ ١٨٣٧م من أجل إعداد الأنظمة التي استوجبتها حركات الإصلاح والقيام بمحاكمة موظفي الدولة وإبداء المشورة في شؤون الدولة عند الضرورة. Pakalın, 2:430-431

وفي سنة ١٢٦٧هـ (١٨٥٠-١٨٥١م) تم تشكيل "مجلس العلم" (انجمنِ دانش)(١٠) ليصبح أعلى وأرفع مؤسسة للمعارف في الدولة العثمانية وكان أعضاؤه الأصليون يتكونون من أربعين شخصية من أرفع شخصيات الدولة، أما الأعضاء غير الأصليين فلم يكن عددهم محدوداً، وكان يضم في عضويته الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وسَرْ عَسْكر أي القائد العسكري العام ورئيس (مجلسِ والا) ووزيري الخارجية والتجارة. وقد أخذ هذا المجلس على عاتقه تأليف وترجمة الكتب التي يتم تدريسها في المدارس.

وفي رمضان من سنة ١٢٧٣هـ ١٨٥٧م عين سامي باشا أول وزير لنظارة المعارف العمومية، وبذلك تأسست وزارة المعارف العثمانية.

وشهد التعليم ومؤسساته، بمرور المزمن تطوراً كبيراً، وتوسعت المدارس القائمة في الدولة واستحدثت مدارس جديدة استجابة للحاجات التي أحست بها الدولة بمرور الزمن، كما شهدت تشكيلات وزارة المعارف هي الأخرى توسعاً في دوائرها ومجالسها.

ففي ١٨ جمادى الآخرة من سنة ١٢٧٥هـ (نوفمبر ١٨٥٨م) صدرت الإرادة السنية لتأسيس مكتب ملكية (أي مدرسة الإدارة المدنية) لإعداد كوادر إدارية لإستخدامهم في الوظائف المدنية كقائمقامي الأقضية ومديري النواحي.

وفضلاً عن هذا أقيمت مدارس رشدية كثيرة توزعت على مختلف أرجاء الدولة، كما أقيمت في استانبول مدرسة للغابات ومدرسة للكتبة من الصنف العالي (مخرج أقلام). وفي مايو سنة ١٢٨٠ أعيد تشكيل هيئة المعارف العمومية وتم تقسيمها إلى قسمين: لجنة المدارس الإسلامية ولجنة المدارس الرشدية والعالية، وأنيط بالأولى تدقيق كل الكتب المذهبية الخاصة، بينما كلفت الثانية بالنظر فيما يتعلق بأمر تعليم الأطفال.

ويبدو أن الدولة العثمانية بتشكيلها هذه الهيئة أخذت ولأول مرة تتدخل في شئون المدارس الدينية، الأمر الذي يدل على أن وزارة المعارف كانت تسعى، إلى إدخال كافة مؤسسات التعليم تحت إدارتها وإشرافها.

---

(١٠) انجمن دانش، و يعني مجلس العلم، تمّ تشكيله من أرباب العلم والمعرفة. أنظر: ش . سامي ٦٠٠

وفي سنة ١٢٨٣هـ أقيمت دائرة التأليف والترجمة لإعداد الكتب المتعلقة بالفنون النافعة للمدارس وللعامة من الناس.

وفي محرم ١٢٨٥هـ (إبريل ١٨٦٨) صدرت الإرادة السنية بتأسيس مكتب سلطاني (المدرسة السلطانية) لأجل تعليم الرعايا المسلمين وغير المسلمين اللغات الأجنبية. وخلال هذه الفترة بدئ كذلك بإنشاء دار الشفقة، كما تأسست في نفس السنة المدرسة الطبية المُلْكية.

وفي نفس السنة أقيم مجلس شورى الدولة، الذي[11] قرر أن تقوم وزارة المعارف بتأسيس دار المعلمين الابتدائية في استانبول وزيادة المدارس الرشدية في الولايات المختلفة وإقامة مدارس رشدية للإناث في استانبول. وقد تم تنفيذ هذه المقررات بالكامل. وتقرر فيما بعد إعداد معلمات كفوءات لمدارس الرشدية للإناث، فتأسست في ٢٤ محرم ١٢٨٧ (٢٦ إبريل ١٨٧٠م) أول دار للمعلمات، كما مدت يد الإصلاح إلى دار المعلمين.

وفي سنة ١٢٩٣هـ ١٨٧٦م وبمناسبة ذكرى جلوس السلطان تم تأسيس "مكتب ملكيه سلطانية" (المدرسة الملكية السلطانية)، لأعداد مأمورين إداريين وتقرر أن تكون هذه المدرسة تحت رعاية السلطان نفسه.

وفي تموز ١٢٩٥ (رومي) صدرت الإرادة السنية بتقسيم مؤسسات وزارة المعارف إلى خمس وحدات إدارية تيسيراً لشؤون المعارف وضماناً لأداء مهامها بالشكل المطلوب، وتم إسناد كل وحدة إدارية بأحد أعضاء مجلس المعارف.

وفي ٤ شباط ١٢٩٧ (رومي) تم تشكيل مجلس معارف في كل مركز من مراكز الولايات وتعيين مدير معارف عليه، وذلك من أجل تسيير شؤون المعارف في الولايات. والحقيقة أن هذا الإجراء جاء نتيجة لتوسع مؤسسات التعليم في الولايات المختلفة.

وفي ١٥ تشرين الأول من سنة ١٣٠٠ (رومي) تم توسيع وسائل التعليم وذلك بإقامة المدارس الإعدادية في استانبول والولايات السلطانية.

---

(١١) شوراى دولت (شورى الدولة)،مجلس تمّ تشكيله إثر إلغاء" مجلس والا" في سنة ١٢٨٤هـ ١٨٦٧م، و أنيط به اتخاذ القرارات المتعلقة بأمور الدولة و تدقيق القوانين والأنظمة، ومحاكمة الموظفين ذوي المراتب العالية. أنظر:

Pakalın, 2:360-361

وفي ٢٤ نيسان ١٣٠٢ (رومي) تأسست إدارة تفتيش على المدارس الأجنبية وغير الإسلامية.

ويبدو أنه على الرغم من إقامة وزارة المعارف وتنظيمها، إلا أن بعض المدارس ظلت غير تابعة لها حتى سنة ١٣٠٢ (رومي) حيث تقرر الحاق مدرسة الحقوق السلطانية ومدرسة الصنايع للبنات ومدرسة الصنايع النفيسة بوزارة المعارف.

وفي ٥ حزيران ١٣٠٥ (رومي) أقيمت مدرسة الصم والبكم في استانبول وشهدت سنتا ١٣٠٨/١٣٠٧ (رومية) تنظيمات وإصلاحات مختلفة في مجال المعارف.

ويبدو أن وزارة المعارف أحست أن المناهج المقررة في المدارس الإعدادية والرشدية والابتدائية هي دون المستوى الذي تنشده، فقررت إجراء تعديلات عليها. ولهذا أصدرت في حزيران ١٣٠٨ رومية (١٨٩٢م) مناهج مفصلة جديدة مع تعليمات متعلقة بها. وبموجب هذه التعليمات تم تقسيم المدارس الإعدادية إلى قسمين: المدارس الإعدادية في مراكز الولايات (وتكون ذات سبعة صفوف)، والمدارس الإعدادية في الألوية (وتكون ذات خمسة صفوف). كما يبدو أن الكتب الدراسية في المراحل الدراسية المختلفة لم يكن يتم اختيارها من قبل وزارة المعارف، بل كان ذلك متروكا لرغبات واجتهادات المدرسين. واستمر هذا الأمر إلى سنة ١٣١١ (١٨٩٥م) حيث أخذت الوزارة على عاتقها اختيار وإقرار الكتب الدراسية في جميع المراحل الدراسية. (عن تطور التعليم، أنظر السالنامة عدد ٢ سنة ١٣١٧هـ ص١٦-٣٣).

وفي (موجز تاريخ وزارة المعارف) خصص أكثر من ثلاثين صفحة لسير حياة الذين تقلدوا منصب وزارة المعارف، وذلك بدءا من سنة ١٢٧٣هـ حيث تقلد عبد الرحمن سامي باشا أو وزارة معارف في الدولة العثمانية، وانتهاء بسنة صدور السالنامة. والحقيقة أن هذا مهم جدا لمعرفة الخلفية الثقافية والعلمية للقائمين على رأس الإدارة المركزية للمؤسسات التعليمية.

الأنظمة والتعليمات والقرارات المتعلقة بالتعليم:

الحقيقة أن استعراض مجموعة من الإرادات السنية المتعلقة بالمعارف، والتي صدرت تباعا، وشكلت بمجموعها مادة أساسية لموجز تاريخ وزارة المعارف، أو بالأحرى موجز تاريخ المعارف، قد أضفى أهمية خاصة سالنامة المعارف. كما أن قيام السالنامة بنشر عدد

كبير من الأنظمة والتعليمات المتعلقة بالتعليم أضفى عليها أهمية إستثنائية أخرى. وذلك لأنه لا يمكن بأي شكل من الاشكال تأريخ التعليم وتوثيق معلوماته دون الرجوع إلى هذه الأنظمة والتعليمات، وبالتالي فإنها ترسم لنا أو تستكمل رسم المعالم العامة للتعليم في الدولة العثمانية. وذلك لأن هذه الأنظمة والتعليمات لم تكن تخص مدرسة بعينها، قائمة في مكان ما، بل أعدت بشكل عام لكي تخضع لها كل المدارس من نفس القبيل، ولهذا لا يمكن تناول التعليم وواقعه في الولايات العربية دون معرفة أصوله والظروف المحيطة بنشأة كل نوع من أنواعه، الأمر الذي يستدعي عدم الإكتفاء بالإستناد إلى الجداول الإحصائية بل تجاوز ذلك إلى هذه الأنظمة والتعليمات.

أما الأنظمة والتعليمات هذه فنجد أن نصوص عدد كبير منها قد نشرت بالكامل في السالنامة. وقبل أن نستعرض أهميتها التاريخية لدراسة واقع التعليم في الدولة العثمانية ككل، نلاحظ أن هذه الأنظمة والتعليمات اتبع في إعدادها المنهج القانوني، أي نظمت على شكل مواد قانونية. والظاهر أن هذا المنهج أريد به إضفاء الصفة القانونية على هذه التعليمات حتى يكون لها حكم القانون.

ومن الممكن تقسيم هذه الأنظمة والتعليمات حسب أنواعها إلى:

أ - المتعلقة بالمدارس، حيث نجد فيها شروط القبول ومهام الهيئة الإدارة والتعليمية والتدريسات والدروس المقررة فيها... ونشرت السالنامة الأنظمة المتعلقة بمدارس مختلفة هي (مكتب ملكية)، مكتب الحقوق السلطاني، مكتب الطبية الملكية، مكتب الصنائع النفيسة، دار المعلمين، المكاتب الإعدادية الملكية[١٢]، دار المعلمات، مدرسة العشيرة، المكاتب الرشدية في استانبول، المكاتب الرشدية في خارج المركز، المكاتب الإبتدائية في العاصمة، مدارس الصنايع للأناث.

ب - وظائف مدراء المعارف في الولايات السلطانية.

ج - نظم إدارة شئون الآثار القديمة.

---

(١٢) ملكيه بضم الميم ، إحدى التشكيلات الثلاثة للدولة العثمانية، والتشكيلان الآخران هما "علميه" و "عسكريه".وقد ظهر مصطلح "ملكيه" بعد التنظيمات. وأضيف إليه مصطلح "مامور" فأصبح بشكل "ملكيه مأمورى" أي موظفو الملكية، وأطلق على كبار الموظفين "رجال ملكيه" . والملكية بشكل عام تشمل صنف موظفي الدولة وهيئتها، وهو يقابل الآن عندنا "مدني" أي غير العسكري والديني. أنظر: Pakalın, 2:613 وانظر أيضا ش. سامي ١٤٠٣

د - مفردات المواد الدراسية.

هـ - وظائف الإداريين في المدارس.

و - شروط أختيار الطلاب وقبولهم.

ز - ما يتعلق بالإمتحانات.

ح - ما يتعلق بالزي واللباس.

ط - النظام المتعلق بالمطابع ودور الكتب.

والحقيقة أننا نجد معلومات في غاية الأهمية بين ثنايا هذه الأنظمة والتعليمات. وهي تسلط الأضواء على التعليم والمستوى الذي وصل إليه في الدولة العثمانية عند صدور كل نظام من هذه الأنظمة. وفيما يلي نماذج من هذه المعلومات:

١-لم يكن قبول الطلاب في المدارس، وبكافة أنواعها منحصرا في الحاصلين على الشهادة الدراسية التي تسبق الدراسة التي يرغبون الانخراط فيها. وقد نصت التعليمات المتعلقة بالمدارس بمختلف أنواعها أنه يشترط في المتقدمين للدراسة في مدرسة من المدارس أن يكونوا إما حاصلين على شهادة مدرسية تسبق مرحلة الدراسة، أو يمتلكون معلومات تعادل المعلومات التي يمتلكها أقرانهم من خريجي المدارس الذين يتقدمون للمدرسة، وفي هذه الحالة يطالبون باجراء امتحان في مواد سبق أن درسها أقرانهم. فمكتب الحقوق السطاني (كلية الحقوق) اشترط على المتقدمين أن يكونوا حاصلين على شهادة المكاتب العالية أو المكتب السلطاني، وهؤلاء يتم قبولهم دون إجتيازهم امتحان القبول. أما الذين لايحملون شهادة من إحدى هذه المدارس فقد اشترط عليهم ان يكونوا قادرين على الكتابة باللغة العثمانية وأن يكونوا ملمين بعلوم الصرف والنحو المنطق والجغرافية وفنون الحساب، ويمتلكون المعلومات اللازمة في التاريخ العثماني والتاريخ العام ويؤدون الامتحان اللازم لذلك. وهذا الأمر، أي قبول الطلاب بشهادة معينة أو دونها، كان ينطبق على (مكتب طبيةٔ ملكيةٔ شاهانه) (المدرسة الطبية الملكية السلطانية)، فكان

يقبل فيه خريجو الإعدادية أو الذين ينجحون في الامتحان الذي يجـرى وفـق منـاهج المدارس الإعدادية (س٢ ص٩٣)[١٣] وهكذا في بقية المدارس.

٢-كان تدريس اللغات التركية والعربية والفارسية إلزاميا في كل المدارس العثمانية وبكـل مراحلها الدراسية.

كما كانت اللغة الفرنسية تدرس كلغة أجنبية إجبارية في كافة المراحل الدراسية في معظـم المدارس، ولكن يبدو أن هذا الشرط لم يكن ملزما في بعـض المـدارس، إذ كـان الطـلاب بإمكانهم تعلم لغة أجنبية أخرى كالروميـة والأرمنيـة والإنجليزيـة والألمانيـة والإيطاليـة واللاتينية، كل حسب اختياره مثل ما كان جاريا في المكتب السلطاني (ص١٢٨).

وبالرغم من إلزام تعلم اللغة العربية في المدارس العثمانية، إلا أنها لم تكن تفرض علـى الطلبة في بعض المدارس العالية، ففي مكتب الملكية كان يتـم تدريـس اللغـات العربيـة أو الرومية أو الأرمنية أو البلغارية على الطلبة، كل حسب رغبته، ولثلاث سنوات، ويتم لأجـل هذا تقسيم الطلبة إلى أربعة أقسام، يدرس طلبة كل قسم إحدى هذه اللغات (ص ٧٧-٧٩).

٣- كانت المدارس في الدولة العثمانية تنقسم إلى قسمين:

أ- المدارس الرسمية، وهي المدارس التي تديرها الدولة، إذ يتم تعيين مدرائها ومعلميـها وباقي منتسبيها من قبل الدولة.

ب- المدارس غير الرسمية، وهي التي تقيمها الطوائف والأفـراد والأجـانب، ولا يتـم تعيين منتسبيها من قبل الدولة، بل من قبل مؤسسيها الذين يتحملون نفقاتها وتسـتوفى الاجور من طلبتها. وهذه المدارس تنقسم بدورها إلى قسمين أيضا:

ب/أ-المدارس الخاصة الإسلامية: وهي التي تقيمها الافراد ومجالس المحـلات او النواحي أو القرى، وتكون إدارتها وتعيين معليمها من قبل مؤسسيها، ويشـترط عليها أن تكون برامجها الدراسية منسجمة مع برامج المدارس الرسمية (مـادة ٢٦ س٢ ص١٤٦ من تعليمات وظائف مدراء المعارف).

---

(١٣) نظرا لتكرار نشر الأنظمة والتعليمات الخاصة بالتعليم في أعداد سالنامة المعارف سأكتفي بالإشارة إلى العدد ٢ الصادر سنة ١٣١٧ فقط.

ب/ب- المدارس غير الإسلامية، وكانت على قسمين أيضا:

- المدارس الملية وتعود ملكيتها إلى الطوائف الدينيـة وتغطـي نفقاتـها مـن الأوقاف المخصصة لها وتدار من قبل الطوائف والبطريركيات التي تتبعها.
- المدارس الخاصة وهي المدارس التي تقام من قبل الاشـخاص (مـادة ٢٧ س٢ ص١٤٧ من نفس التعليمات).

٤-لم ترد في التعليمات أية إشارة إلى أن الدولة العثمانية كانت تمارس ضغوطا على الطلبة غير المسلمين، إذ كان الطلبة غير المسلمين معافين من الدروس المتعلقة بالتربية الدينية الإسلامية. وإذا كان عدد غير المسلمين في المدارس الحكومية قليلا بالمقارنة مع أعداد الطلبة المسلمين، فإنه لم يرد ما يتعلق بممارسة أية ضغـوط عليـهم مـن قبـل إدارة المدرسة أو الطلبة، وورد ضمن الإعلان المتعلق بنظام المكتـب السـلطاني أنـه تـم تخصيص جامع خاص بالمدرسة يتم فيه تعليم الطلاب المسلمين بالمبادئ الدينية بشـكل إجباري على يد أحد الأئمة. أما التلاميذ غير المسلمين فكان يتم إرسالهم إلى معـابدهم الخاصة لتعليمهم المبادئ الضرورية لديانتهم (ص١١٠).

٥-من الممكن الإطلاع على الأوضاع الداخلية للمدارس المختلفة، وذلك من خلال المـواد المتفرقة التي تنظم الإدارة الداخلية لهذه المدارس. والمعروف أن المدارس كـانت إمـا نهارية أو ليلية، أي أن الطلاب كانوا يقيمون في المدرسة ويتلقون دروسهم نـهارا، أي تكون المدرسة داخلية في نفس الوقت أو نهارية ولبلية في آن واحد، وهذا يعني أن قسما من الطلاب كانوا يدرسون في المدرسة دون أن يقيموا فيها ليلا وأن قسما منهم كـانوا يقيمون في المدرسة بعد دوامهم في الدروس.

واقتضى هذا الأمر وجود مشرفين للاشراف على الطلبة وتنظيم أحوالهم فـي المـدارس الداخلية. وكان يقوم بهذا العمل معاونو المدير الذين يتم تعيينهم في المـدارس. وقـد نظمـت التعليمات الخاصة بالادارة الداخلية وظائف المعاونين وكيف يجب أن يكونوا. وكان بعضـهم يتناوبون في الإقامة بالمدرسة ليلا، ويبيتون في الأماكن المخصصة لـهم مـن قبـل مديـر المدرسة، وذلك بعد ربع ساعة من نوم الطلبة، ويستيقظون في الصباح قبل ربع سـاعة مـن استيقاظ الطلبة، ويحرصون على ارتداء الطلبة ملابسهم بانتظام وبسرعة ونزولهم ووضوءهم،

وبعد أدائهم الصلاة يأخذونهم إلى قاعات المطالعة حيث يكون الطلاب تحت مراقبتهم. (مادة ١٢ ص١٩٨).

وخلال فترة الراحة (بين الدروس) يكون الطلبة تحت مراقبة أحد المراقبين وبرفقة المبصرين [١٤]. ويقوم المعاون بمراعاة عدم دخول الطلاب من الحديقة إلى داخل المدرسة والصفوف بشكل متفرق (مادة ١٤ ص١٩٩). وهذا يعني أن الطلاب كانوا ينتظمون في صفوف عند دخولهم المدرسة أو الصفوف وينبغي خلال تناول الطلبة طعامهم أن يكون أحد المبصرين حاضرا ليشرف عليهم (مادة ٢٠ ص٢٠٠).

أما المبصرون فيتم إختيارهم من الحاصلين على شهادة الرشدية، أو ممن يمتلكون معلومات في مستوى المدارس الرشدية (مادة ٢٤ ص٢٠١).

وكانت المدارس تتبع إشرافا طبيا، إذ يقوم أحد الأطباء بزيارة المدرسة ومعالجة المرضى من الطلبة، ويحضر إلى المدرسة كلما يستدعى، ويعد الطبيب سجلا يتعلق بالوضع الصحي للطلاب، ويقدم تقريرا للمدير يبين فيه الوضع الصحي للمدرسة (مادة ٣٩ ص٢٠٥).

وفضلا عن هذا فإن هذه التعليمات تتناول مسائل مختلفة، كالزي والأطعمة المقدمة للطلاب. وهذه المعلومات لا تخص الطلاب فقط، بل تمس المعلمين أيضا بإعتبارهم جزءا من العملية التعليمية، فانتظام الدروس يتوقف بالدرجة الأولى على حضورهم، ولهذا نجد أن هذه التعليمات تؤكد على عدم بقاء الدروس شاغرة أي دون معلم، فنجد أن المادة (٨١) من التعليمات الخاصة بالإدارة الداخلية للمكاتب الإعدادية الملكية قد نصت على عدم أحقية المعلمين تحت أي ذريعة من الذرائع في ترك دروسهم وإلا تعرضوا إلى قطع الراتب لذلك الدرس. وفي حالة المرض يتم تنسيب وكيل يحل محل المعلم المريض لذلك الدرس لا تتعرض الدروس لأي خلل (مادة ٨١ ص٢٢٥). كما نصت نفس المادة على أن المعلم عند غيابه لثلاث مرات لأعذار لا تقبلها إدارة المدرسة، يعد مستقيلا (مادة ٨١ ص٢٢٥).

---

(١٤) المبصر، مصطلح استخدم للدلالة على الموظف الذي يكلف بأمور انضباط الطلبة في المدارس. وقد استمرت هذه الوظيفة حتى انقلاب تموز ١٩٠٨ حيث ألغيت وتعهد بها معاونو المدير. Pakalın 2 : 56.

وفضلا عن هذا فقد نشرت سالنامة المعارف نصوص التعليمات المتعلقة بالإدارة الداخلية للمدارس الرشدية في استانبول (ص٣٤٧-٣٦٠)، وأخرى للمدارس الرشدية المقامة في خارج المركز (ص٣٦٠-٣٧٣).

٦- كانت الدولة العثمانية تولي موضوع الأخلاق الحميدة وحسن السلوك أهمية إستثنائية، ولهذا نجد جميع التعليمات والأنظمة المتعلقة بالمعارف تؤكد على هذا الموضوع عند قبول الطلاب وعند إستمرارهم في الدراسة. ولم يكن هذا الأمر يخص الطلاب وحدهم، بل يشمل مدراء ومعلمي المدارس أيضا.

ففي المادة الثانية من القرار الصادر بمقتضى الإرادة السنية في سنة ١٣٠٩ رومية (١٨٩٣م) اشترط على المدراء والمعلمين أن يكونوا من ذوي الأخلاق الحميدة وحسن السلوك والإخلاص والإستقامة، كما تصب بقية المواد من نفس القرار في تكريس الأخلاق الحميدة للطلبة (ص٦٨).

وقضت المادة (١٧) من التعليمات الخاصة بطلبة المدرسة الطبية الملكية السلطانية أن لا يكشف الطلبة صدورهم عند تجوالهم خارج المدرسة وأثناء تمتعهم بالإجازة، وأن يتصرفوا بحدود الأدب، وإلا تعرضوا للمحاسبة والعقاب، فيتم في البداية تنبيههم بشكل سري، وفي المرة الثانية بشكل علني، وفي المرة الثالثة يحاسب الطالب بموجب قانون العقوبات المدني ويرقن قيده من المدرسة (ص٩٨-٩٨).

ومما يجدر ذكره أن عبارة "أن يكون المتقدم من ذوي الأخلاق الحميدة" يمكن مشاهدتها في كافة المواد التي تعرض شروط القبول في المدارس المختلفة. وكل ذلك يثبت أن الدولة العثمانية كانت تولي موضوع التربية الصالحة للطلبة إهتماما إلى جانب إهتمامها بتعليم الطلبة.

كما منع الطلبة من التزاور في بيوتهم أو الغرف التي يقيمون فيها، وذلك بموجب المادة (١٩) من نفس التعليمات. وعند وقوع حالة من الحالات التي إعتبرت ممنوعة من قبل المكاتب العسكرية السلطانية كقيام الطلاب بالتزاور فيما بينهم أو التجمع بشكل جماعي في مكان من الأماكن فإنه يتم ترقين قيودهم من المكتب (ص٩٨).

٧-من التعليمات الداخلية للمدارس نجد بعض المواد التنظيمية لسلوك وتصرف الطلبة في بعض المدارس، ففي المدرسة الطبية الملكية السلطانية، كان الطلاب ملزمين بعدم ملاحقة المعلمين بعد مغادرتهم الصفوف، بل يراجعونهم بواسطة المبصرين (الموظفون الذين يراقبون الطلاب)(ص٩٧).

كما نصت المادة (١٦) من التعليمات الخاصة بنفس المدرسة على أن يتم جلوس الطلاب في الصف حسب الدرجات أو العلامات التي حصلوا عليها في الامتحان، وأن يشرف على ذلك المبصرون، ولا يحق لأي طالب تغيير محله إلا بمعرفة المبصرين ص (٩٧).

ونصت المادة (٢٠) على تقيد الطلاب بارتداء الزي الرسمي وحمل الأرقام المخصصة لهم (٩٨).

الجداول الإحصائية

وتشكل الجداول الإحصائية القسم الأخير من سالنامة المعارف، وهي تأخذ حصة الأسد فيها، فتشكل مثلا ثلثي العدد الثاني الصادر سنة ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) (أي من ص ٥١٦-١٤٩٦)

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الجداول الإحصائية لا يمكن دراستها دراسة شاملة أو فهمها فهما عميقا بمعزل عن التعليمات والأنظمة المتعلقة بالمفردات الدراسية الواردة فيها. وسنتوقف عند هذه المسألة فيما بعد.

وكانت هذه الجداول يتم إعدادها وفق المعطيات المقدمة من قبل مدراء المعارف في الولايات المختلفة، بل كان من واجبات المدراء - كما نصت المادة السادسة من التعليمات المتعلقة بوظائف مدراء المعارف في الولايات - قيامهم بإعداد لائحة تتضمن الإجراءات والوقوعات الجارية في مجال المعارف كل ثلاثة أشهر، وإعداد لائحتين أخريين في نهاية كل سنة دراسية، تتعلق الأولى بأوضاع جميع المدارس الموجودة ضمن دائرة مأمورياتهم ودرجاتها وصور إصلاحها ومقارنة هذه المدارس من حيث عدد طلبتها ومدى رقيها أو تدنيها مقارنة بما كانت عليها في السنة السابقة، والأخرى تتعلق بما يخص الأموال والإيرادات والنفقات، على أن تتضمن هاتان اللائحتان الأسباب والأدلة اللازمة والشاملة، ورفع هذه اللوائح إلى الوزارة (ص ١٣٩-١٤٠ من س٢ ١٣١٧هـ).

وينبغي عدم التشكك في مصداقية هذه الجداول أو التقليل من شأنها، بل يجب الأخذ بها كوثائق رسمية لكونها أعدت في وزارة المعارف وفق المعطيات المذكورة.

تبدأ هذه الجداول بتشكيلات وزارة المعارف والدوائر المركزية الملحقة بها، كالمتحف السلطاني والمطبعة العامرة (مطبعة الوزارة) والمرصد والمدارس العالية المرتبطة بالوزارة، كالمدرسة الملكية السلطانية والمدرسة الطبية الملكية السلطانية ومدرسة الحقوق السلطانية والمكتب السلطاني ودار المعلمين، ثم مختلف المدارس الرسمية في استانبول، والمدارس الخاصة.. ثم تليها الجداول الإحصائية الخاصة بالمدارس المرتبطة بالوزارات الأخرى، كالمدارس العسكرية والمدارس التابعة لوزارة البحرية والمدارس المرتبطة بوزارة الغابات والزراعة والمعادن، وتليها الجداول المتعلقة بالمكتبات والمطابع الموجودة في استانبول، ثم الجداول الخاصة باسماء الصحف والمجلات الصادرة في استانبول.

وقد خصصت للمدارس الكائنة في استانبول الصفحات (٥٤٧-٨٤٩)، أي ثلاثمائة صفحة، ثم يلي ذلك الجداول الإحصائية للمؤسسات التعليمية والثقافية الكائنة في مختلف الولايات والسناجق العثمانية المستقلة.

وقد تم ترتيب الولايات العثمانية المختلفة حسب الترتيب الالفبائي، بدءا من أدرنه وإنتهاء بـ (يانية) (في البانيا). أما الولايات العربية الواردة ضمن هذا الترتيب فهي: البصرة، بغداد، بيروت، حلب، سورية، الموصل، وتلي هذه الولايات السناجق (الالوية) المستقلة، والسناجق العربية هي بنغازي والزور والقدس.

اتبعت السالنامة منهجا واحدا في جميع الجداول المتعلقة بالولايات المختلفة، فتتضمن هذه الجداول المحاور الآتية:

١- إدارة المعارف.
٢- المدارس الإعدادية الملكية.
٣- المدارس الإعدادية العسكرية.
٤- المكاتب الرشدية الملكية.
أ- في مركز الولاية.
ب- في السناجق، أي الالوية التابعة إلى الولاية.

٥- المكاتب الرشدية العسكرية.
٦- المدارس الدينية الإسلامية.
٧- المدارس غير الإسلامية.
٨- المدارس الأجنبية.
٩- المكتبات.
١٠-المطابع.
١١-الصحف الصادرة في الولاية.
١٢-المدارس التي أقيمت في الولاية منذ تولي السلطان الحكم.

ولكن يلاحظ أن هذه المحاور قد تتغير لعدم توفر نوع من المدارس المتخصصة في إحدى الولايات، فقد لا تتوفر مدرسة إعدادية عسكرية أو أجنبية فيها، ولهذا نجد أن السالنامة إما تتجاهل هذه النقطة أو تشير إلى أن هذا النوع من المدارس غير موجود في الولاية.

ومما يلاحظ على المحاور السابقة عدم ذكر المدارس الابتدائية، إذ كانت تنتشر انتشار واسعا في مختلف أرجاء الدولة العثمانية، بما فيما الاقضية والنواحي. وقد تكون كثرتها سببا في عدم تمكن السالنامات من تناولها، بل اكتفت بذكر إحصائية عامة عنها في النهاية كما سنذكر.

واتبع في تناول الجداول المتعلقة بكل محور من هذه المحاور منهج محدد أيضا يتكرر في جميع الولايات. وفيما يتعلق بإدارة المعارف نجد أن الجداول تتضمن الحقول التالية:

تاريخها	الرتبة	الأسماء	الوظيفة

أما الوظائف القائمة ضمن إدارة المعارف فهي: مدير المعارف ومأمور المحاسبة ومأمور التدقيق وكاتب الإدارة ورفيق مأمور المحاسبة وأمين الصندوق، وقد تضاف إلى هذه الوظائف وظائف أخرى موجودة في ولاية دون أخرى كمفتش المكتبات ومأمور التدقيق لاتحاد البريد أو مأمور المتحف.. الخ.. أما حقل الاسماء فترد فيه أسماء المأمورين الذين يتولون هذه الوظائف مع ذكر الرتبة التي حصلوا عليها وتاريخ الحصول عليها. ويستدل من هذه الوظائف أن إدارة المعارف في الولايات كانت بسيطة فلم يكن يتجاوز عدد الموظفين فيها أحيانا أربعة أو خمسة،

وقد يقوم أحد الموظفين بسمؤولية وظيفتين في آن واحد، كأن يجمع وظيفة مدير المعارف مع وظيفة المحاسبة، أو وظيفة مدير المدرسة الإعدادية.. أو ما شابهها.

ولكن الذي يلاحظ على هذه الجداول خلوها مما يتعلق بمجالس المعارف في الولايات المختلفة، وذلك على الرغم من وجود هذه المجالس في هذا الوقت بالذات، أي وقت صدور السالنامة والتي أخذتها بنظر الاعتبار سالنامات الولايات المختلفة. والمعروف أن هذه المجالس كانت على صلة وثيقة بإدارة المعارف إذ كان مديرو المعارف يترأسون عادة هذه المجالس.

أما المدارس الرسمية، إعدادية كانت أم رشدية، ملكية كانت أم عسكرية، فقد اتبع في جداولها الإحصائية منهج معين، وهو نفس المنهج المتبع في جداول إدارات المعارف السابقة، ولكن أسماء الدروس في هذه المدارس حلت محل الوظائف الإدارية في إدارات المعارف، أي إلى جانب أسماء الدروس ترد أسماء المعلمين. والحقيقة أن أهمية الجداول المتعلقة بهذه المدارس تكمن في:

١-أنها تعطينا فكرة عامة عن الدروس المقررة في هذه المدارس، ومدى انسجام هذه الدروس مع الأنظمة والتعليمات الصادرة من وزارة المعارف، أو مع أسماء الدروس الواردة ضمن مفردات المناهج الدراسية الموضوعة في السالنامة.

٢-أنها تقدم لنا أسماء المربين الذين تتلمذ عليهم معظم الذين تولوا مراكز مهمة في بداية تأسيس الدول العربية التي تشكلت على ممتلكات الدولة العثمانية، ولكن الذي يؤخذ على السالنامة وكذلك على معظم السالنامات أن معظم هذه الأسماء لم تذكر كاملة، بل اكتفت السالنامة بأخذ الاسم الأول دون اسم الأب أو اسم العائلة مثلا، وألحقت بها كلمة افندي أو بك كرفعت افندي، توفيق أفندي، خيرالدين بك، مسعود بك(١٥).. الخ.

٣-أنها تعطينا فكرة عامة عن المدارس الإعدادية والرشدية المنتشرة في الولايات العربية العثمانية في فترة صدور السالنامات. وحتى في حالة عدم وجود نوع من أنواع هذه المدارس في ولاية من الولايات فان السالنامة تشير إلى ذلك. كما هي الحال في جداول

(١٥) عن الألقاب العثمانية الملحقة بأسماء العلم كأفندي و بك يراجع : فاضل بيات ،" مصطلحات عثمانية : باشا، بك، جلبي، أفندي" مجلة البيان، إصدار جامعة آل البيت، الأردن، المجلد الثاني، العدد الثالث، خريف ١٩٩٩، ص١٩٦-٢٠٢

البصرة حيث ورد أنه لا توجد مدارس إعدادية فيها (س٢ ١٣١٧ ص١٠٥٦). وقد وردت إشارة مماثلة في كل من جداول سنجقي بنغازي (س٢ ص٢١٤٦) والزور (س٢ ص١٤٦٨)

وفي فترة صدور السالنامات كانت المدارس الإعدادية موجودة في جميع مراكز الولايات العربية (عدا البصرة)، وكذلك في بعض السناجق التابعة لهذه الولايات. إذ كانت موجودة في ولاية بغداد، وولاية بيروت وفي سناجقها: اللاذقية ونابلس وعكا وطرابلس الشام، وولاية حلب، وفي ولاية سورية وفي سنجق حما، وولاية الموصل، وسنجق القدس المستقل، أما المدارس الرشدية فقد انتشرت في جميع مراكز الولايات والسناجق التابعة لها.

٤-تتضمن الجداول المتعلقة بالمدارس إحصائية بأعداد الطلبة الموجودين فيها في سنة دراسية معينة، إلا أن الإحصائيات المتعلقة بالمدارس الإعدادية أكثر تفصيلا من الإحصائيات الخاصة بالمدارس الرشدية، وقد استخدم فيها كذلك منهج معين اتبع في جميع المدارس: ففي السنة الدراسية ١٣١٤/١٣١٥ كان عدد الطلبة في المدرسة الإعدادية ببيروت كالآتي:

ليلي				نهاري		المجموع		
اجرتلى (بأجر)		اجرتسز / مجانا						
مسلم	غير مسلم	مسلم	غير مسلم	مسلم	غير مسلم	مسلم	غير مسلم	خدم
٥٨	٣	٢٢	٣	٩٦	٣	١٧٧	٩	١١

ونستدل من هذه الإحصائية على وضع المدرسة في هذه السنة، فالمدرسة كانت مفتوحة للمسلمين وغير المسلمين على حد سواء، إلا أن رغبة غير المسلمين في الانخراط فيها كانت قليلة، ولهذا نجد نسبتهم ٥٠% تقريبا، وهي قليلة قياسا إلى نسبة غير المسلمين في مدينة بيروت في هذه الفترة. كما يستدل منها أن المدرسة كانت تضم قسما داخليا، أي كان قسم من الطلاب يقيمون فيها، كما أن قسما من الطلاب كانوا يداومون فيها نهارا ولا يقيمون فيها.

كما يستدل من هذا الجدول أن الدراسة في المدارس الإعدادية العثمانية كانت مجانية أو غير مجانية، وكان الطلبة الفقراء يقيمون في المدرسة ويدرسون فيها مجانا. وقد اشترطت التعليمات ألا يتجاوز عدد هؤلاء ثلث الطلبة الذين يدرسون في المدرسة ويقيمون فيها.

ومما يجدر ذكره هنا أن الذين كانوا يدرسون في المدرسة دون الإقامة فيها هم من أهالي مركز الولاية التي تقع فيها المدرسة. أما الذين يقيمون فيها فهم من أهالي الأقضية التابعة لمركز الولاية. وقد اشترطت التعليمات توزيع عدد المقبولين في الدراسة المجانية في هذه المدارس، على الأقضية المختلفة التابعة للولاية التي تقع فيها المدرسة، أي يكون لكل قضاء حصة ثابتة لا يجوز تجاوزها بقبول طلبة من مركز الولاية، حتى وأن لم يكتمل العدد في حصة القضاء المقررة. وذلك لأن طلاب المركز بإمكانهم الاستفادة من التحصيل الدراسي النهاري (مادة ٥٣ من التعليمات الخاصة بالادارة الداخلية للمدارس الاعدادية ص٢١٢ من س١٣١٧) وكذلك لكيلا يكون هناك أي تجاوز على التعليمات ويتم قبول طلبة المركز على حساب طلبة الأقضية.

وعلى الرغم من التفصيل الوارد في هذا الجدول، إلا أن معظم الجداول اقتصرت على بيان أعداد الطلبة من المسلمين وغير المسلمين ثم مجموع الطلبة دون التطرق إلى كون المدرسة ليلية أو نهارية، أو كون الدراسة فيها مجانية أوغير مجانية.

ومما تجدر الاشارة إليه هنا أنه كان ينظر إلى معظم المعلمين في المدارس العثمانية على أنهم واسعوا المعرفة، وبإمكانهم تدريس مختلف المواد، إذ يرد اسم معلم واحد يقوم بتدريس مواد مختلفة مثل:

- معلم المثلثات والقوزموغرافيا والمواليد والكيمياء والماكنة والمعلومات النافعة وحفظ الصحة (في إعدادية حلب س٢ ص١١٠٩).
- معلم اللغات العربية والفارسية والتركية (كذا)
- معلم العلوم الدينية واللغة التركية والهندسة والتاريخ (إعدادية عكا ص١٠٨٠).
- المدير ومعلم الحساب العملي والنظري والتاريخ العمومي وأصول دفتري واللغة الفرنسية والجبر والإنشاء والكتابة (إعدادية الموصل ص١٤٠٢).
- معلم المعلومات والحكمة والقوانين والجبر وأصول دفتري والمثلثات والقزموغرافيا (إعدادية بغداد ١٠٦٢).

المدارس الرشدية:

انتشرت المدارس الرشدية في مراكز الولايات وفي جميع المدن (الاقضية والنواحي) التابعة للمركز. وقد اتبع في تناولها نفس المنهج المتبع في المدارس الاعدادية، ولكن الذي

يلفت النظر هنا عدم وجود معلمين كثيرين فيها، إذ يتراوح عددهم بين ٣-٥، كما لا تتوفر هنا التخصصات الواردة في الإعدادية إلا ما ندر، فنجد هناك أسماء المعلم الأول والثاني والثالث. وكان المعلم الأول هو الذي يقوم مقام المدير، وكانت هذه المدارس نهارية، أي انها لم تكن تتضمن قسما داخليا (سكنا) لطلبتها.

المدرسة الرشدية في غزة

الوظيفة	الاسم	الرتبة	تاريخها
المعلم الأول ومعلم حسن الخط	علي رضا أفندي	درجة بروسه	٢٣م ٩٨
المعلم الثاني	خزينه دار زاده عبد اللطيف افندي		
معلم اللغة الفرنسية	كمال زاده عبد السلام		
عدد الطلبة ٧٥ عدد الخدم (١)			

س/ ١٣١٧ ص١٤٧١

والإحصائيات العددية التي رأيناها في نهاية الجداول المتعلقة بالمدارس الإعدادية لا نجدها بنفس التفصيل في المدارس الرشدية، بل اكتفي بعدد الطلبة والخدم فقط، وذلك لأن هذه المدارس كانت نهارية بشكل عام، أي لم يكن فيها سكن للطلبة، كما أن هذه المدارس كانت خاصة بالمسلمين، ولهذا لم يكن هناك من داع للتعقيد أو التفصيل الذي رأيناه في جداول المدارس الإعدادية.

ومما يلاحظ على الجداول الخاصة بالمدارس الإعدادية أو الرشدية أنها تخصص حقلا تحت اسم (الرتبة) للمدرسين الذين ترد اسماؤهم أزاء الدروس التي يقومون بتدريسها مثل:

المدرسة الإعدادية في بغداد

الوظيفة	الاسم	الرتبة	تاريخها
معلم اللغة العربية	محمد فهمي أفندي	درجة استانبول	-
معلم الكتابة الرسمية	محمد نائل بك	درجة ثالثة	-
معلم اللغة الفرنسية	مصطفى أفندي	بدرجة يوزباشي	-
معلم الجغرافية	علي حيدر بك	بدرجة ملازم أول	-

س ١٣١٧ ص١٠٦٢-١٠٦٣

ونستدل من حقل (الرتبة) هذا، على الخلفية الدراسية للمدرسين في هذه المدارس إذ كان قسم منهم ينتسبون إلى أصول دينية في علومهم، ولهذا كانوا يحملون رتبا علمية (دينية)، كما كان قسم منهم ينتسبون إلى الجيش، ولهذا نجدهم يحملون رتبا عسكرية.

المدارس العسكرية

إذا استثنينا الجداول الإحصائية المتعلقة بالمدارس العسكرية نجد أن سالنامة المعارف لم تأخذ هذه المدارس بنظر الاعتبار ضمن القسم الذي خصصته للتعليمات والأنظمة المتعلقة بالمعارف، وذلك لأنها كانت ترتبط بوزارة الحربية أو البحرية ولا تخضع إدارتها للمعارف. أما سبب تخصيص السالنامة مجالا لهذا النوع من المدارس ضمن جداولها الإحصائية فيعود إلى أن السالنامة أرادت أن تعكس واقع المدارس في الدولة العثمانية، وبكل أنواعها، بغض النظر عن ارتباط هذه المدارس من الناحية الإدارية والتعليمية بوزارة المعارف أو بوزارة أخرى، كما أفصحت السالنامة نفسها عن ذلك في المقدمة.

والمعروف أن المدارس العسكرية وقت صدور السالنامة كانت على النحو التالي:

أ- مكتب حربيۀ شاهانه: المدرسة الحربية السلطانية (الكلية العسكرية).

ب- مكتب فنون طبيۀ شاهانه: مدرسة العلوم الطبية السلطانية.

ج- مهند سخانۀ بريۀ همايون: دار الهندسة البرية السلطانية.

د- مكتب حربيۀ شاهانه اعداديسى: المدرسة الإعدادية الحربية السلطانية.

هـ- مكتب إعداديۀ طبيۀ شاهانه: المدرسة الإعدادية الطبية السلطانية.

و- مكاتب رشديۀ عسكرية/٦ في استانبول.

ز- بيطر رشديۀ عسكريسى: المدرسة الرشدية البيطرية العسكرية.

ح- مكتب بحريۀ شاهانه وليلى تجار قپودان مكتبى: المدرسة البحرية السلطانية ومدرسة الملاحة التجارية الليلية.

ط- تجار قپودان مكتبى: مدرسة الملاحة التجارية.

ي- كدكلى شاكردانى مكتبى: مدرسة الضباط الاحتياط.

ك- رشديۀ بحريه ومنشأ كتاب عسكرى مكتبى (نهارى): المدرسة الرشدية البحرية ومدرسة إعداد الكتاب العسكريين النهارية.

ل- اجزاجى وتيمارجى صبيان مكتبى: مدرسة الصبيان للصيدلة والتمريض.

م- مكتب النواب.

وعلى الرغم من تنوع المدارس العسكرية في استانبول خلال صدور السالنامات إلا أن الولايات العربية لم تضم غير المدارس الإعدادية والرشدية العسكرية وذلك في فترة صدور سالنامة المعارف. وقد توزعت المدارس الإعدادية العسكرية على الولايات العربية في كل من: بغداد ودمشق.

أما المدارس الرشدية فكانت موزعة على: بغداد، بيروت، حلب، السليمانية بولاية الموصل، دمشق.

ويعود السبب في اقتصار الإعداديات في كل من بغداد ودمشق إلى أن كل واحدة من هاتين المدينتين كانت مركزا لفيلق من الفيالق العثمانية، وبهذا تكون إدارة المدرسة الإعدادية تابعة للفيلق السلطاني الموجود هناك.

وقد اتبع في جداول المدارس العسكرية نفس المنهج المتبع في جداول المدارس الملكية. إلا أن الإحصائيات الواردة بعد كل جدول بسيطة، ولاتتجاوز أحيانا رقما واحدا. وسبب ذلك كون هذه المدارس (ليلية)، أي أن الطلاب يقيمون فيها، كما كانت خاصة بالمسلمين، ولهذا لا نجد فيها إشارة لغير المسلمين.

المدارس الدينية الإسلامية التقليدية

لم تكن المدارس الدينية الإسلامية مرتبطة بوزارة المعارف، ولم يكن لها أي تدخل في شؤونها، بل كانت تتبع الجهات التي تشرف عليها. وهذه الجهات كانت جهات وقفية بالدرجة الأولى.

وإذا استثنينا الجداول الإحصائية المتعلقة بهذه المدارس فاننا لا نجد في سالنامة الوزارة أية تعليمات أو نظام يتعلق بهذه المدارس، وذلك لأن جميع التعليمات والأنظمة الواردة في السالنامة تخص المدارس التي تتبع وزارة المعارف وتخضع لقراراتها.

أما الجداول الإحصائية المتعلقة بالمدارس الدينية الإسلامية فقد تم وضعها ضمن الجداول الإحصائية المتعلقة بالمعارف في الولايات المختلفة، ولكن الذي يلفت الانتباه هنا تجاهل ذكر المدارس الدينية الموجودة في مركز العاصمة دون أن تذكر السالنامة أي سبب لهذا.

ويستدل من الجداول الإحصائية أن هذه المدارس كانت تتوزع على الولايات المختلفة، بما فيها من ألوية وأقضية.

وطبقا لما أوردته السالنامة فأن المدارس الدينية الإسلامية توزعت في الولايات العربية في فترة صدور السالنامة (أنظر س١٣١٧/٢ وس١٣١٨/٣) كالآتي:

١- بغداد (ست وعشرون مدرسة).

٢- بيروت (خمس مدارس).

٣- حلب: وفيها ٥١ مدرسة توزعت كالآتي: ٢١ في مدينة حلب، ٨ في انطاكية، ٢١ في كليس، ١ في الرقة، ٢ في جسر شغور، ٥ في المعرة، ١ في بيلان، ٣ في باب، ٦ في ادلب، ٨ في البستان (لم نأخذ هنا بنظر الاعتبار كلا من اورفه ومرعش وعينتلب التي كانت تتبع ولاية حلب).

٤- الموصل: وكانت فيها ١٢١ مدرسة، (٣١) منها في مدينة الموصل والباقية في السليمانية وكركوك.

٥- سنجق القدس: خمس مدارس.

ولكن الذي يلفت الانتباه في هذا الصدد عدم وجود المدارس الدينية الإسلامية في ولاية البصرة وسنجقي الزور وبنغازي المستقلين، حيث أشارت السالنامة إلى ان المدارس الدينية غير موجودة فيها.

وقد انتهجت السالنامة منهجا محددا في عرضها هذه المدارس وهو:

اللواء	القضاء	اسم المدرسة	محلها	مدرسها	عدد الطلبة	مؤسس المدرسة	ملاحظات

والحقيقة أن المعلومات الواردة في حقول الجداول الإحصائية المتعلقة بهذه المدارس تكاد تكون كافية إلى حد ما لرسم صورة عن واقع هذه المدارس في فترة صدور السالنامة.

ومما يلاحظ في هذا الخصوص:

١- أن قسما من هذه المدارس أقيم في داخل الجوامع أو المساجد.

٢- حمل قسم منها أسماء الجوامع التي أقيمت فيها، مثل: الإمام الأعظم والأصفية وحيدر خانه في مدينة بغداد والجامع الكبير في حلب وجامع خزام في الموصل.

كما حمل قسم منها أسماء أخرى بالرغم من إقامتها داخل الجوامع، مثل مدرسة نائلة خاتون في مسجد الحيدر خانه أو الإسماعيلية في جامع قويومجيلر وابولبوت باشا في الجامع الكبير بالقدس وابراهيم آغا بالجامع الكبير في صلاحية (كفري) بكركوك.

٣- أن معظم المدارس كان فيها مدرس واحد، عدا البعض، ففيها أكثر من واحد كما يستدل من أسماء المدرسين.

٤- أن معظم الذين أقاموا هذه المدارس كانوا من كبار رجال الدولة أو نسائهم كالولاة مثلاً، ويبدو من أسماء مؤسسي المدرسة أن الوالي داود باشا بنى وحده خمس مدارس في بغداد من ضمن المدارس البالغ عددها ٢٦ مدرسة.

٥- أن عدد الطلاب في المدارس يختلف من مدرسة إلى أخرى، فالمدرسة العثمانية في مركز حلب كان فيها ١٦٨ طالبا وثلاثة مدرسين، وطلاب مدرسة السيدة رقية في السجاعية بغزة كان عددهم (٦).

٦- كان طلاب بعض المدارس يداومون في مدرسة أخرى لعدم وجود مدرس فيها، كما هي الحال في مدرسة الأشرفية بمركز حلب وعدد طلابها (٦)، وكانوا يقومون بالدراسة في مدرسة أخرى لعدم وجود مدرس في المدرسة.

٧- أن قسما من هذه المدارس قديم جدا مثل مدرسة الجامع الكبير في حلب والتي أسسها الخليفة عبد الملك (وقد ورد أسمه في السالنامة عل شكل "من الأمويين السلطان عبد الملك" ص١١١٤-١٥) والنورية في العمارة بدمشق والتي أسسها نور الدين زنكي، والمدرسة العادلية الكبرى التي أسسها الملك العادل في حلب أيضا (س٢ ص١٢٣٦-١٢٣٨).

٨- لم يرد عند بعض المدارس اسم المدرس أو عدد الطلبة، الأمر الذي يدل على عدم استقبالها الطلاب وإغلاقها.

٩- ورد في حقل الملاحظات أن بعض المدارس تم اتخاذه مكاتب (مدارس رسميه)، مما يدل على إغلاقها، وتقليص عدد هذه المدارس بعد فتح مختلف أنواع المدارس الرسمية.

١٠-لم يرد في السالنامة ما يشير إلى أسماء المواد الدراسية في هذه المدارس.

المدارس غير الإسلامية

وهي المدارس التي أقامتها الطوائف غير الإسلامية وبخاصة المسيحية واليهودية. ولا تدخل المدارس الاجنبية ضمن هذا الحقل. وكانت المدارس غير الإسلامية تنتشر في كل الولايات العربية، وفي سنجق القدس المستقل، عدا سنجقي بنغازي والزور المستقلين، كما أشارت إليه سالنامة المعارف.

اتبع في عرض المدارس غير الإسلامية منهج محدد أيضا في الجداول الإحصائية في جميع الولايات وكالآتي:

اللواء	القضاء	اسم المدرسة	الطائفة التي تنتسب إليها المدرسة	المدير المسؤول الذي منح الترخيص باسمه	درجة المدرسة	عدد الطلبة ذكور إناث	تاريخ تأسيس المدرسة	تاريخ الترخيص

ومن خلال الجداول المتعلقة بالمدارس يمكننا الاستدلال على معلومات متنوعة، يمكن على ضوئها رسم صورة عامة. ومما يلاحظ على هذه الجداول:

أ – أنها لم تكتف بتنسيب هذه المدارس إلى الديانة فقط كالمسيحية واليهودية، بل أعدت إحصائيات دقيقة عن مدارس كل مذهب من المذاهب، ولا سيما المسيحية. ففي مدينة حلب مثلا كانت هناك ٢٥ مدرسة موزعة كالآتي: ١٠ لليهود/ و ٥ للأرمن/ ٦ للروم/ ٢ للروم الأثوذكس/ وواحدة لكل من البروتستانت والموارنه.. هذا فضلا عن المدارس المنتشرة في انطاكية وادلب والباب وجسر شغور والمدن الواقعة حاليا داخل الحدود التركية والتي كانت تابعة لولاية حلب (س/١٣١٧ /ص ١١٢٢ – ١١٣١).

ب – أن معظم المدارس غير الإسلامية كانت مختلطة للذكور والإناث. وقد بينت السالنامة ذلك عند إيرادها أعداد الطلبة وتقسيمها إلى ذكور وإناث، وبخاصة المدارس الابتدائية والرشدية والإعدادية.

وعلى الرغم من هذا كانت المدارس غير الإسلامية في بعض المدن غير مختلطة، مثل المدارس التي أقيمت في بغداد وسورية. كما أن بعض المدارس في بعض المدن كبيروت مثلا، كانت مخصصة للذكور فقط.

ج – من خلال الإطلاع على اسم الطائفة التي أقامت مدرسة من المدارس أو أعداد الطلبة الدارسين فيها يمكننا وضع مؤشر على الوضع الاثني للمدينة التي تقع فيها هذه المدرسة في فترة إعداد هذه الإحصائيات، كما يدلنا ذلك على الوضع الثقافي للطوائف غير الإسلامية بشكل خاص والمدينة بشكل عام.

د – أن المدارس التي أنشأتها جمعية الاليانس الإسرائيلية [١٦] (التي كانت جمعية يهودية عالمية) وردت أسماؤها ضمن المدارس غير الإسلامية المقامة في الولايات العربية، كما هي الحال في بغداد والشام، عدا القدس، إذ وردت ضمن المدارس الأجنبية. وحملت هذه المدارس اسم الجمعية أي (اليانس اسرائيليت)، كما في الشام والقدس و(اتفاق اسرائيلي)، كما في بغداد.

وربما كان المدراء المسؤولون عن هذه المدارس، والذين منحت اجازة تأسيسها باسمهم هم ن رعايا الدولة العثمانية.

هـ – أن قسما من المدارس غير الإسلامية كان غير مرخص، كما ورد في حقل (تاريخ الترخيص).

ومما يجدر ذكره أن وزارة المعارف ألزمت هذه المدارس بالحصول على الترخيص من الوزارة، وذلك وفق التعليمات المتعلقة بمهام مدراء المعارف في الولايات السلطانية الصادرة

---

(١٦) للمزيد من المعلومات عن جمعية الأليانس الإسرائيلية و اهتمامها بالتعليم، يراجع: Hikmet Tanyu , *Tarih Boyunca Yahudiler ve Türkler İstanbul,* 1979, 1: 315,319; Osman Ergin *Türkiye Maarif Tarihi,* İstanbul, 1977, C.1-2, s. 804-805, 807 ..مجلة لغة العرب، بغداد، العدد ٢ آب ١٩١١، ص ٧٧

في ٨ رجب سنة ١٣١٤هـ (تشرين الثاني ١٨٩٦م). ويستدل من المادة (٤٥) من هذه التعليمات (س٢، ص١٥١) أن الوزارة لم تكن تتخذ أي قرار من شأنه غلق المدارس غير المرخصة، بل اتخذت بعض الإجراءات الجزائية، مثل عدم الموافقة على تجديد وإعمار هذه المدارس وإقامة عروض الباليه والمسرحيات فيها وسحب بطاقات اليانصيب باسمها أو جمع المعونات لها وعدم قبول الوساطة بشأن إعفاء الكتب والمواد الأخرى التي ترد باسم هذه المدارس من الرسوم الكمركية. كما أن هؤلاء المدراء لم يكن بوسعهم إتخاذ أي إجراء بشأن هذه المدارس عند ارتكابها مخالفات. وكان عليهم إجراء تحقيق بالموضوع، واشعار الوزارة بنتيجة التحقيق (ص١٥١-١٥٥).

و - يشكل سنجق القدس حالة فريدة من نوعها بين الولايات الدينية من حيث تضمنه أعدادا هائلة من المدارس غير الإسلامية تفوق ما كان موجودا في أية ولاية من الولايات العثمانية العربية. ومما يجدر ذكره أن سنجق القدس كان يضم في سنة ١٣١٧هـ أي سنة صدور السالنامة أقضية ونواحي: بيت لحم ويافا والرملة واللد وغزة. أما أعداد المدارس غير الإسلامية في القدس ومعها ملحقاتها فهي كالآتي:

أ - للروم ٢٠ مدرسة، واحدة إعدادية، وأخرى رشدية، والمدارس الباقية ابتدائية، منتشرة في مختلف الأقضية والنواحي والقرى. وأكبر هذه المدارس كانت في بيت لحم، واحدة للذكور وتضم ٢٢٠ طالبا، وأخرى للإناث تضم ١٥٠ طالبة.

ب - للاتين ١٣ مدرسة كلها ابتدائية في مختلف المدن والقرى.

ج - للارمن ٥ مدارس واحدة إعدادية وأخرى رشدية والثلاث الباقية ابتدائية، وأكبرها في قضاء القدس، وهي رشدية كانت تضم ٥٠ طالبا.

د - للقبط مدرسة واحدة (ورد ذلك في س٣ سنة ١٣١٨)

هـ - لليهود ٣٩ مدرسة، وكلها ابتدائية، ٩ منها في يافا والثلاثون الباقية في القدس (سالنامة المعارف ١٣١٧هـ ص ١٤٧٢-١٤٧٩). ولم يكن هذا العدد يمثل كل المدارس اليهودية الموجودة في القدس، بل كانت هناك مدارس لم يشر إليها هذا العدد من السالنامة، إذ ورد في سالنامة المعارف ٣ لسنة ١٣١٨هـ أن عدد المدارس اليهودية

هو (٤٥)، وذلك باضافة المدارس التي كانت قائمة في كل من الخليل والرملة ويافا وعيود قاره وملبر وعاقر (ص١٦٥٦). وينبغي ألا يظن أن هذه المدارس أقيمت فيما بعد، بل كانت قائمة قبل هذا التاريخ وفق ما هو مبين في حقل تاريخ تأسيسها، ولكن العدد الثاني من السالنامة لم يدرجها ضمن جداوله.

وأكبر المدارس اليهودية هي (تلمود تورات) في القدس، وكانت تضم ٣٦٥ تلميذا.

ومما يلاحظ هنا أنه لم يرد في حقل (تاريخ الترخيص) أي إشارة إلى أن بعضا من المدارس غير الإسلامية في القدس، مسيحية كانت أم يهودية، كانت مرخصة أم لا، بل وضعت نقطة إزاء بعض المدارس (٠)، مما قد يعني أن تاريخ الترخيص غير معروف، أو أن وضعها غير معروف لمعدي السالنامة.

كما يلاحظ أن جميع المدارس المسيحية كانت غير مختلطة، عدا مدرسة أرمينية صغيرة واحدة في قضاء يافا، ولعل قلة عدد الطالبات وهو (٥) كانت السبب في فتح مدرسة خاصة بالاناث، فتم ضمهن لمدرسة الذكور.

المدارس الأجنبية

وهي المدارس التي أقامتها الدول الأجنبية المختلفة في الولايات العربية: بغداد، بيروت، حلب، سورية، والموصل وكذلك سنجق القدس. وكانت البصرة وسنجقي الزور وبنغازي خالية منها:

واتبع في عرضها منهج قريب من المنهج المتبع في المدارس غير الإسلامية، وهو كالآتي:

اللواء	القضاء	اسم المدرسة	الملة صاحبة المدرسة	المدير المسؤول الذي منح الترخيص باسمه	درجة المدرسة	عدد الطلبة ذكور-اناث	تاريخ تأسيس المدرسة	تاريخ الترخيص

أما الدول التي أقامت هذه المدارس فهي أمريكا، فرنسا، إنكلتره، روسيا والمانيا وإيطاليا. إلا أن هذه الدول لم تفتح مدارس لها في كل الولايات عدا ولاية بيروت. ومما يلاحظ هنا نلاحظ عدة نقاط:

١- انفردت أمريكا بتأسيس مدارس لها في سورية (١٣ مدرسة)، وانفردت فرنسا بتأسيس مدرستين في الموصل، ولم تكن فيهما مدارس لدول أخرى.

٢- المدارس الأجنبية التي تأسست في كل من حلب وبيروت أقامتها دول مختلفة، ففي حلب اقامت فرنسا: ٥ مدارس (في مركز حلب) (المدارس الكائنة في المدن الواقعة داخل تركيا الحالية والتي كانت تابعة لولاية حلب لم تؤخذ بنظر الإعتبار).

وفي بيروت توزعت المدارس على الدول كالآتي:

أمريكا: ٥ مدارس، اثنتان في مركز بيروت)، وواحدة في كل من طرابلس وصافيتا والحصن.

فرنسا: ٧ (٣ في مركز بيروت) و(٢ في عكا و٢ في طرابلس).

انكلتره: واحدة في قضاء صفد بعكا.

المانيا: ٤ (واحدة في الناصرة و٣ في عكا).

إيطاليا: ٢ في مركز بيروت.

ويلاحظ هنا أن الأمريكان فتحوا مدارس طبية وإعدادية في مركز بيروت، كما أسست فرنسا مدرسة سان جورج الطبية في مركز بيروت أيضا. وأوردت السالنامة في حقل تاريخ التأسيس أن المدارس الفرنسية كانت قديمة.

٣-لم ترد في الجداول الإحصائية المتعلقة ببغداد وسنجق القدس أسماء الدول المؤسسة للمدارس الأجنبية، بل ادرجت بدلا عنها أسماء الطائفة الدينية التي أقامت هذه المدارس.

وكما هو الحال في المدارس غير الإسلامية فإن أعداد المدارس الأجنبية في القدس ملفتة للنظر، ويمكن توزيع هذه المدارس على النحو التالي:

أ - ٢٤ مدرسة لليهود (في سنة ١٣١٧) و ٢١ (في سنة ١٣١٨).

ب - ٤ مدارس، واحدة للاتين.

ج - ٤٦ مدرسة وردت في حقل اسم الطائفة التي أسست المدرسة عبارة: (اطفال غير مسلمة) الأطفال غير المسلمين.

ويستدل من هذا أن مدارس اليهود واللاتين كانت مميزة، وأن مدارس النصارى تدخل ضمن المدارس المخصصة للأطفال غير المسلمين، إلا أن هذا يجب ألا يعني أن هذه المدارس كلها كانت خاصة بالنصارى، إذ أن قسما من مدارس اليهود ورد ضمن نفس الحقل، فنجد أن المدارس التي تحمل اسم (اولنيادى رويشلد) والمقامة في قضائي غزة ويافا (س٢ سنة ١٣١٧هـ ص١٤٨٤) قد وردت تحت حقل (مدارس الأطفال غير المسلمين)، في حين أن مدرسة أخرى تحمل نفس الاسم أقيمت في القدس (ص ١٤٨٢) تدخل ضمن حقل مدارس الأطفال اليهود.

في سالنامة ١٣١٨ (١٩٠٠م) طرأ تغيير على الجدول المتعلق بالمدارس الأجنبية في القدس، فقد ذكر للبروتستان ١٣ مدرسة و١٤ للاتين.

ومعظم هذه المدارس كانت مرخصة، ولم يرد في حقل (تاريخ الترخيص) عبارة (غير مرخصة)، بل وضعت النقطة (٠) إزاء بعض المدارس، ولعل هذا يعني أن تاريخ الترخيص مجهول للسالنامة.

د - كل المدارس إبتدائية باستثناء واحدة منها.

أما المدرستان الأجنبيتان في ولاية بغداد فهما تحملان اسم البروتستان واللاتين، وهما رشديتان. ومما يلفت النظر أن عدد طلاب مدرسة اللاتين هو ٤١٦ طالبا و٦٧١ طالبة، وهي غير مرخصة، في حين أن عدد طلبة مدرسة البروتستان هو ١٧ طالبا و ١٩ طالبة.

المكتبات

وأدرجت السالنامة جداول إحصائية للمكتبات الموجودة في كل ولاية من الولايات المختلفة عدا ولاية البصرة وسنجقي الزور وبنغازي، إذ ذكرت بخلوها من المكتبات. وقد انتهجت في تناولها أيضا منهجا معينا جاء وكالآتي:

اللواء	القضاء	اسم المكتبة	محلها	مؤسسها	عدد الكتب	تاريخ التأسيس

وعلى الرغم من أن قسما منها قد أسسته إدارة المعارف أو الأوقاف، إلا أن معظمها تمت إقامته من قبل الوجهاء في الولاية. ولم تكن هذه المكتبات تقتصر على مركز الولاية، بل انتشرت في الأقضية والنواحي أيضا في بعض الولايات. ومما يلاحظ على هذه المكتبات أنها

كانت تمتلك أبنية مستقلة كما أن بعضا منها أقيم في داخل الجوامع، ومن الممكن رسم لوحة موحدة عن المكتبات المنتشرة في الولايات العربية في العهد العثماني في فترة صدور السالنامة (١٣١٧هـ) على الوجه الآتي:

١- بغداد: وفيها ١٢ مكتبة، وكلها في مركز بغداد، إحداها أسستها إدارة المعارف في الحيدرخانه سنة ١٢٩٧ هـ، وفيها ١٢٤٥ كتابا، وأخرى من قبل إدارة الأوقاف في الأعظمية[١٧]، والباقية أقيمت من قبل وجهاء البلدة، وقسم منها أقيم داخل الجوامع.

٢- بيروت: لم يرد في السالنامة إلا اسم مكتبة واحدة أقيمت في عكا بقضاء طرابلس الشام، ولم يرد ذكر عدد كتبها لكونها حديثة العهد.

٣- حلب: وكانت تضم أكبر عدد من المكتبات بعد ولاية الموصل، إذ كانت تضم (عدا مرعش وأورفه وعينتاب) ٢٣ مكتبة، وكلها أقيمت من قبل الوجهاء، وكان معظمها في مركز الولاية، كما ضمت ادلب خمس مكتبات، بينما ضمت المعرة مكابة واحدة. وأكبر المكتبات في حلب هي المكتبة الأحمدية التي أقيمت سنة ١١٦٥، وضمت ١٤٦٧ كتابا.

٤- سورية: لم يرد فيها سوى اسم مكتبتين، إحداهما المكتبة العامة في دمشق، في مدرسة الملك الظاهر، وضمت ٣٥٦٦ كتابا، والأخرى في قضاء حماه في جامع الشيخ إبراهيم، وضمت ٦٠٠ كتاب.

٥- الموصل: تميزت ولاية الموصل بكثرة المدارس الإسلامية فيها، كما اشتهرت بمكتباتها أيضا، وكانت فيها في فترة صدور السالنامة ٣٢ مدرسة موزعة على المركز (١٦)، وفي عقرة (٢)، وفي سنجق كركوك (١٢)، والسليمانية (٢). وانفرد الجدول الإحصائي للمكتبات في الموصل بإيراد أسماء مدراء هذه المكتبات، وأكبر المكتبات في الولاية هي المكتبات التي أقيمت في رواندوز بقضاء أربيل بلواء كركوك، إذ ضمت إحداها (وهي مكتبة كرد محمد باشا) اربعة آلاف كتاب. أما مكتبة الجامع الكبير في أربيل فقد اشتملت على ٢١٠٥ كتب.

---

(١٧) الأعظمية، إحدى الملحقات الإدارية لمدينة بغداد.

٦- القدس: لم يرد في سالنامة المعارف لسنة ١٣١٧هـ إلا اسم مكتبتين، إحداهما في مركز القدس والأخرى في غزة. وأضيف اسم مكتبة أخرى في سالنامة ١٣١٨هـ. ومما يلاحظ على المعلومات المتعلقة بالمكتبات، أن السالنامة لم تأخذ بنظر الاعتبار غير المكتبات الإسلامية، أما المكتبات غير الإسلامية فلم تذكر عنها شيئا.

المطابع

انتشرت المطابع في الولايات العربية بدرجات متفاوتة عدا سنجقي الزور وبنغازي، والمعلومات السالناماتية تم إدراجها وفق المنهج الآتي:

اللواء	القضاء	اسم المطبعة	محلها	صاحب الامتياز	نوعها	اللغات التي تطبع بها	تاريخ التأسيس	قيامها بطبع الصورة أم لا
					حروف/ حجر			

وتنقسم المطابع إلى قسمين: مطابع رسمية، وأخرى أهلية. أما توزيعها على الولايات العربية فهو كالتالي:

١- البصرة: واحدة رسمية، وتطبع بالعربية والتركية، تأسست في ٧ مارس ١٣١١ (رومي).

٢- بغداد: أربع مطابع، إحداها رسمية تطبع بالعربية والتركية، تأسست في ١٢٨٦هـ، واثنتان أهليتان تطبعان بالعربية والتركية أيضا، وواحدة لليهود، تطبع بالعربية والعبرية، تأسست سنة ١٣٠٦.

٣- بيروت: فيها ١٨ مطبعة، إحداها في طرابلس والأخرى في المركز، واحدة منها رسمية تأسست سنة ١٣٠٤، ومعظم المطابع تطبع بالتركية والفرنسية أو بالإنكليزية، وأقدم هذه المطابع هي المطابع التي تأسست في ١٣٠٤ وعددها خمس.

٤- حلب: وفيها ٣ مطابع في مركز الولاية، إحداها رسمية، والثانية أهلية، تطبع بالتركية والعربية، والثالثة يهودية تطبع بالعبرية، وأقدمها هي المطبعة الأهلية التي تحمل اسم (المطبعة المارونية)، وتأسست في ١٢٤٦هـ أما مطبعة الولاية فتأسست في سنة ١٢٨٤هـ.

٥- سورية: وفيها ٤ مطابع، إحداهما رسمية تطبع بالتركية والعربية، وهي أقدمها، وتأسست سنة ١٢٨١هـ، واثنتان أهليتان تطبعان بالعربية، وواحدة أهلية تطبع باللغات التركية والعربية والإنكليزية والفرنسية.

٦- الموصل: وفيها اثنتان، إحداهما رسمية تأسست سنة ١٢٩٨هـ، وتطبع بالتركية، والأخرى أهلية (الدومنيكان)، وتطبع باللغات التركية والكلدانية والفرنسية والربانية واللاتينية، وهي غير مرخصة.

٧- القدس: وكانت تضم أكبر عدد من المطابع، بلغ في ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) ٢٢ مطبعة، اثنتان في يافا، وكانت معظمها تطبع باللغات المختلفة وهي: العربية والتركية والعبرية والفرنسية والإنكليزية والروسية والنمساوية والإيطالية والرومية، وكان أصحاب إمتيازها إما نصارى أو يهود، وكان قسم منهم أجانب: ألمان أو نمساويون أو إنكليز أو روس، وخلافا للمطابع الموجودة في الولايات الأخرى التي لم تكن تطبع الصور والرسوم فان معظم مطابع القدس كانت تطبع الرسوم. وأقدم المطابع فيها تأسست سنة ١٢٦٤هـ، وهي مطبعة الفرنسيسكان.

ومما يجدر ذكره أن هذه المطابع كان عليها الحصول على ترخيص رسمي وإلا تعرض من يقيمون مطابع ويطبعون الكتب والمجلات وسائر الاوراق إلى غلق مطابعهم وتغريمهم ٥٠ ليرة ذهبية عثمانية تطبيقا لا للمادة (١٣٧) من قانون العقوبات. وكان على المطابع الحصول على الترخيص من وزارة الداخلية ومن الولايات خارج العاصمة، وتكون هذه المطابع تحت إشراف ومراقبة مفتشي وزارة المعارف وإدارة المطبوعات في استانبول، وموظفي المعارف في الولايات السلطانية (انظر نظام المطابع ص ١٧٢ وما بعدها سالنامة المعارف ٢ لسنة ١٣١٧هـ).

الصحف

تناولت سالنامة المعارف الصحف الصادرة في استانبول والولايات العثمانية المختلفة، واتبع في تناولها منهج معين أيضا هو:

اللغات التي يتم إصدار الصحف بها	أسماء الصحف	أسماء أصحاب الامتياز

وكانت الصحف تصدر في جميع الولايات العربية في فترة صدور سالنامة المعارف، عدا سنجقي الزور وبنغازي، وهي:

١- البصرة: صدرت فيها جريدة واحدة (البصرة)، وهي رسمية صدرت بالعربية والتركية.

٢- بغداد: صدرت فيها جريدة واحدة أيضا (الزوراء)، وهي رسمية صدرت بالعربية والتركية.

٣- بيروت: صدرت فيها ١٩ صحيفة ومعها خمس مجلات، منها جريدة (بيروت) الرسمية باللغتين العربية والتركية، و١٢ جريدة صدرت بالعربية وهي: بيروت، البشير، ثمرات الفنون، لسان الحال، المصباح، التقدم، النشرة الاسبوعية، الهدية، كوكب الصبح، المنير، الأحوال، طرابلس وطرابلس الشام، وصدرت فيها جريدة واحدة باللغتين العربية والفرنسية. أما المجلات فكانت أربع منها تصدر بالعربية، وهي المشرق والطبيب والمحبة والمنار، أما المجلة الخامسة فكانت تصدر بالفرنسية، وقد أوردت السالنامة أسماء أصحاب امتياز هذه الصحف والمجلات.

٤- حلب: ولم تصدر فيها إلا جريدة واحدة (فرات)، وهي رسمية صدرت بالعربية والتركية.

٥- سورية: صدرت فيها ثلاث جرائد واحدة رسمية، وهي (سورية) كانت تصدر بالعربية والتركية، واثنتان أهليتان، إحداهما صدرت بالعربية والتركية، وهي (روضة الشام)، والأخرى (الشام) وصدرت بالعربية فقط.

٦- الموصل: صدرت فيها جريدة واحدة (الموصل)، وهي رسمية كانت تصدر بالتركية.

٧- القدس: أوردت سالنامة المعارف (عدد ٣ سنة ١٣١٨هـ) أسماء أربع جرائد ومجلة واحدة، وهي حبق والغزال (وهي بالعربية) وحبيلن وهاسيفي (وهما بالعبرية) ومجلة (هاشكاف) وهي بالعربية والعبرية. ومما يلفت النظر هنا أن جميع هذه الصحف والمجلات أصدرها يهود عثمانيون أو يهود أجانب، كما أن المجلة أصدرتها امرأة

يهودية (حمده بنت شلومو)، وهي أول سيده تصدر صحيفة عربية وعبرية في البلاد العربية.

الإنجازات التعليمية التي تحققت في زمن السلطان عبد الحميد الثاني:

اعتادت سالنامة المعارف بوضع جدول في نهاية الجداول الملحقة بكل ولاية من الولايات العثمانية، ومنها العربية، يتعلق بالانجازات التي تحققت في الولاية في مجال المعارف منذ تولي السلطان عبدالحميد الثاني السلطنة. واتبع في إعداد هذا الجدول أيضا منهج خاص، وهو:

اللواء	القضاء	درجة المدرسة	موقعها	تاريخ تأسيسها	مقدار الصرف	ملاحظات

والحقيقة أن لهذه الجداول أهمية كبيرة في دراسة واقع التعليم في الولايات المختلفة وذلك لـ:

أ – رصد كافة المنجزات في مجال التعليم، بدءا من تولي السلطان السلطنة ولغاية صدور السالنامة.

ب – التعرف على المدارس الابتدائية وتاريخ تأسيسها بالتحديد. والمعروف أن سالنامة المعارف لم تدرج ضمن الجداول الإحصائية للولايات أي جدول يتعلق بالتعليم الابتدائي، فضلا عن أننا نجهل تحديد تاريخ إقامة المدارس لعدم ورود ما يتعلق بها في المصادر الأخرى.

ج – ورد في حقل الملاحظات الخاصة بهذه الجداول معلومات في غاية الأهمية عن هذه المدارس والجهات التي ساهمت في إقامتها، منها:

١– أن الدولة كانت تقوم بتحويل بعض الأبنية الأميرة المملوكة لها إلى مدارس تتخذها مقرا لها.

٢– أن الدولة قامت بمنح قطع أراضي لبناء مدارس عليها من قبل الأهالي، أي أن الأهالي كانوا يساهمون في بناء هذه المدارس.

٣– أقيمت بعض المدارس الابتدائية من قبل السلطان نفسه.

٤– قسم من أبنية المدارس كان مستأجرا.

٥– جرى أحيانا اتخاذ غرف بعض الجوامع مقرا للمدارس الابتدائية، كما في بغداد.

٦– أن قسما من المدارس الابتدائية أقيم من قبل الأهالي، وأوقفت لها أوقاف لإدارتها (كما في بيروت).

٧- أن قسما من المدارس الابتدائية أقيم من قبل الأهالي وتدار من قبلهم أيضا حتى في بيروت.

٨- أن قسما من المدارس الابتدائية كان يسدد رواتب معلميه من معونات حصة المعارف.

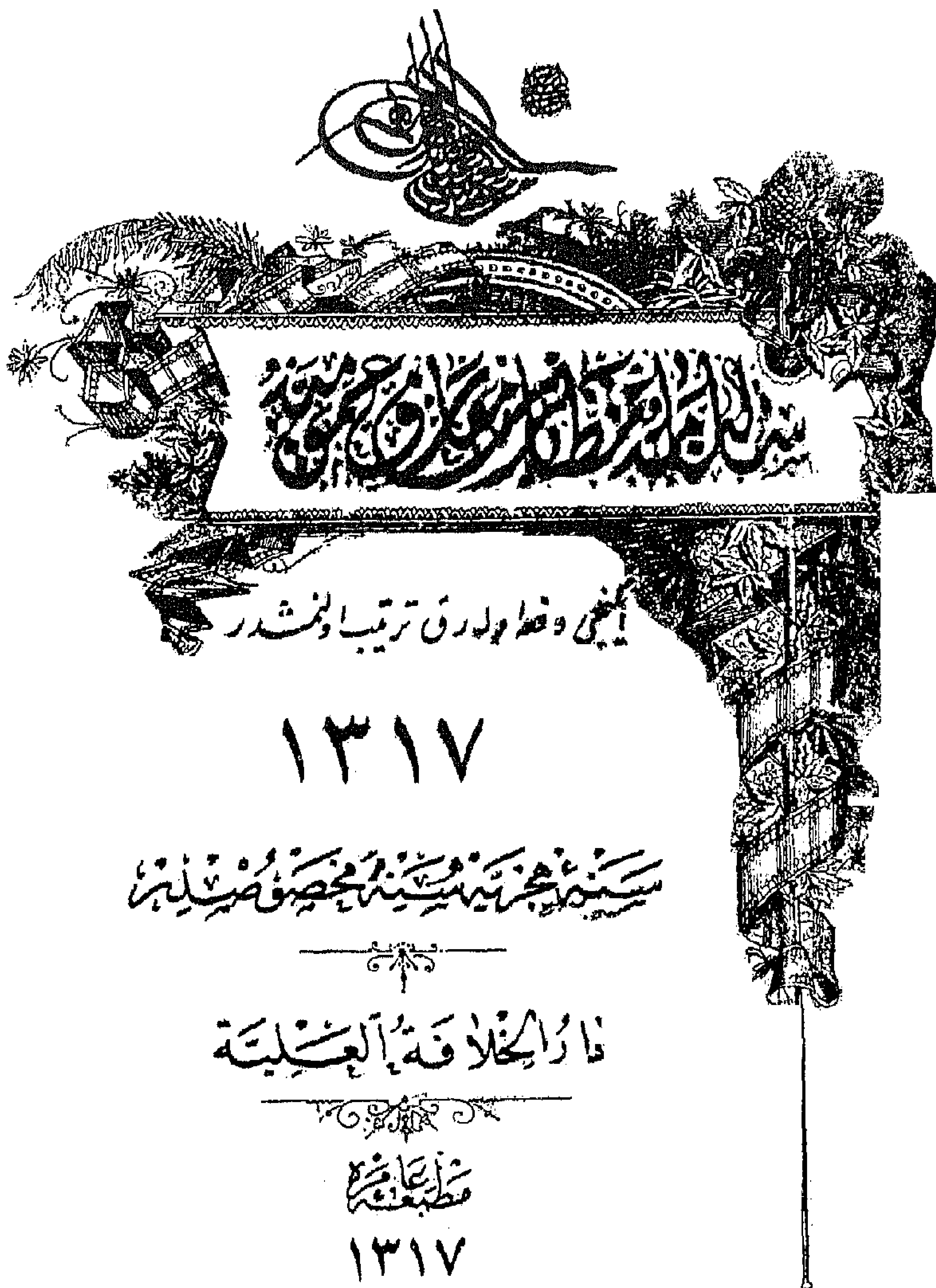
٩- تم صرف رواتب معلمي العلوم الدينية والقرآن الكريم في قسم من المدارس من رواتب شعبة مجلس المعارف (كما في بيروت).

المدارس الابتدائية

إذا استثنينا المعلومات الواردة في الجداول الملحقة بجداول الولايات والمتعلقة بالإنجازات التي تحققت في عهد السلطان عبدالحميد، لم يرد في سالنامة المعارف أية معلومات تتعلق بالمدارس الابتدائية سوى جدول واحد وضع في نهاية السالنامة وهو عبارة عن إحصائية باعداد المدارس الابتدائية التي أقيمت في الدولة العثمانية بولاياتها المختلفة. وقد ورد في نهاية الجدول أنه أقتبس من الإحصائيات الخاصة بسنة ١٣١٠-١٣١١ (١٨٩٥-١٨٩٦م) والمنشورة في نفس السنة. أما الإحصائيات المتعلقة بالولايات العربية فهي كالآتي:

الأسماء	أصول عتيقه (النظام القديم)	أصول جديده (النظام الجديد)	يكون (المجموع)
در سعادت (استانبول)	١٩٦	٤٧	٢٤٣
البصرة	٩٠	٢٦	١١٦
بغداد	٣٨	١١	٤٩
بيروت	٢٠٥	١٨١	٣٨٦
حلب	٦٠٤	٢٩	٦٣٣
سورية	٢٣٢	٥٩	٣٩١
الموصل	٣٩٢	-	٣٩٢

ومما يلاحظ هنا تقسيم هذه المدارس إلى قسمين: (أصول قديمة) و(أصول جديدة)، وعلى الرغم من هذا لم يرد في التعليمات والانظمة المنشورة في السالنامة أية إشارة إلى هذا النوع من التقسيم.



غلاف سالنامة نظارة المعارف العمومية ١٣١٧هـ

﴿ معارف نظارتنك تاریخچه‌سی ﴾

عصر سابق هجریتك نصف اولنده ممالك شاهانه‌ده موجود اولان وسائط تحصیل طلبهٔ علومه مخصوص مدارس ایله سلاطین عظام حضراتی جانب معالی جالب همایونلرندن و بعض اصحاب خیرات و مبرات طرفلرندن انشا ایدیلن محله مکتبلرندن ویرده فردوس آشیان سلطان سلیم خان ثالث حضرتلری زماننده تأسیس اولنان مکاتب عسکریه‌دن عبارت ایکن مملکتك معارفه اولان احتیاج قطعی و مبرمی صنایعه جهت تعلق اعتباریله اك اول ١٢٥٤ تاریخنده مجلس امور نافعه‌جه نظر دقت واعتنایه آلنمرق سنهٔ مذکوره ذی القعده سنك یکرمی برنجی کونی انتشار ایدن تقویم وقایع نسخه‌سندن منتسخ لایحهٔ آتیه ایله کیفیت مرجع عالیسنه عرض اولنمشدر :

« معلوم معالی ملزوم عالی بیورلدیغی اوزره معارف وعلوم ، اقرادانامه سرمایهٔ عز وسعادت ومدار مباهات ومفخرت وهر حالده منبع ثروت وغنا اولدیغی دلائل عقلیه ونقلیه ایله مثبت وموجود ومشهود اولان صنایع وحرف محضا علم ایله ظهوره کلدیکی وعلوم دینیه وسیلهٔ نجات آخرت اولدیغی مثللو فنون سائره دخی معاشرت نوع بنی آدمك کافه سببی اوله‌جقی وارستهٔ قید بیان واشارتدر . ازجمله علم هیئت تسهیل سیر سفائنه مدار اولمغله

امر تجارتك رواج وکثرتنه وعلوم ریاضیه امور حربیه وادارهٔ عسکریه‌نك حسن انتظامنه سبب اولدیغندن بشقه حیوت ده حکمای اسلاف اولان وابور مثللو بونجه امور غریبه و نافعه بوجهتله میدانه چیقوب علوم جدیده‌نك توسع وانتشاری ویکیدن فنون کثیره‌نك ظهوری جهتیله صنایع وحرفك اعمالاتنده یسر وسهولت حاصل اولمغله مثلا یوز آدمك واسطه‌سیله کوریله‌جك ایش برکشیله اداره اولنمق اوزره نیجه آلات مهمه علم ایله میدانه چیقدیغی مشهود وروتما وبالعکس اهالی جهل و نادانی ایله متصف اولدقلری حالده کار وکسبلرنده عسرت چکه‌جکلرندن بشقه عملاً تحصیل ایلدکلری صنایع اصلا ایلریله‌میه‌جکی وسایه‌سنده یشامقده اولدقلری دولتك وبولندقلری مملکتك نه اولدیغنی بیلمیه‌جکلری مجزوم وهویدا وجمه حال بردولتده رواج علم وهنر اقدم مقاصد وآمال اولمق لازم کله‌جکی بدیهی وروشنا اولدیغنه مبنی دولت علیهٔ ابد مدت دخی ترویج علم ومعرفت نیت خیریه‌سیله نیجه مکاتب و مدارس انشا واحیا بیورمش اولمرق بونجه اصحاب علم وهنر یتشمش وهر بری فنون متنوعه‌ده نیجه کتب مدونه یادکار براقمش اولدقلرندن دولت علیهٔ عثمانیه معدن علم وهنردر دیو مشهور آفاق اولمش ایکن سکره‌لری بعض مشاغل وغوائل بو خصوص نافعه‌یه حاجز وحائل اولمرق منسی ومتروك حکمنه کیرمش ایکن رب عز تعالی وتقدس حضرتلری توکنمز عمر وعافیت احسانیله سایهٔ معدلت وایهٔ شاهانه‌لرنده الی الابد مفارق بندکان اوزره بر قرار بیورسون

صحیفتان من أول السالنامة

ملاحظات حول مسألة
التسامح الديني في العهد العثماني

الدكتور حسن عزوزي
جامعة القرويين بفاس

يطمح هذا البحث إلى طرح مجموعة من الملاحظات المنصبة على جوانب معينة من مسألة التسامح الديني الذي ساد في عهد الدولة العثمانية تجاه اليهود والنصارى وغيرهم من الذميين الذين كانوا يمثلون شريحة مهمة من شرائح المجتمع العثماني.

ولاشك أن إثارة موضوع التسامح والتعايش بين مختلف الطوائف الدينية المنضوية تحت لواء واحد له ما يبرره في الحقل الأكاديمي، فالتنقيب عن الخلفيات الدينية التي تجمع بينها والأسس والمرتكزات التي تنتج قاعدة صلبة للتفاهم والتعايش، كل ذلك يساهم في إبراز واقع الحوار الحضاري الذي كرس عبر كثير من مراحل التاريخ.

والذي دفعنا إلى إثارة هذه الملاحظات هو ما أبداه بعض الباحثين الغربيين في حقل العثمانيات من شبهات حول قضايا مختلفة ترتبط ارتباطا وثيقا بمسألة مدى تسامح الدولة العثمانية تجاه رعاياها الذميين، ولما كان أساس تلك القضايا موصولاً بعقد الذمة الذي هو عقد شرعي يتأصل به حق غير المسلمين في المساواة مع المسلمين في حقوق المواطنة وواجباتها، فإن في بيان مدى التزام السلاطين العثمانيين بتنفيذ مقتضيات العقد وعدم الإخلال بها حسب ما يفرضه الشرع الإسلامي، وفي توضيح حقيقة الجزية المفروضة على أهل الذمة العثمانيين وكذا في بيان معالم الامتزاج والتعايش الحاصل بين هؤلاء ومواطنيهم أهل الذمة العثمانيين وكذا في بيان معالم الامتزاج والتعايش الحاصل بين هؤلاء ومواطنيهم من المسلمين والتي

فرضتها المصالح المشتركة بين الجانبين سواء على الصعيد الرسمي أو على المستوى الشعبي. في بيان كل هذا ما يكفل إعطاء صورة واضحة عن العهد العثماني وما تخلله من انتشار واسع لسياسة التسامح الديني تجاه الذميين المنضوين تحته.

ولا بد من الإشارة إلى أن التسامح الديني في العهد العثماني لا يمكن تعميمه بشكل لا يقبل الاستثناء، وإذا كانت قد طرأت بعض المضايقات التي تعرضت لها الطوائف الذمية من حين لآخر، فإن ظروفا سياسية أو اقتصادية كانت تستغل من طرف المسلمين ذريعة لاتخاذ مواقف متشددة، كما إن بعض الإستثناءات التي قد شهدت بها بعض النصوص والوثائق لا تلغي صحة قاعدة التسامح والتعايش بين المسلمين والذميين في ذلكم العهد، فهي إستثناءات طبيعية تعرفها كل المجتمعات وتشهدها كافة الحضارات قديما وحديثا، خاصة إذا تعلق الأمر بكيان سياسي بهذا الاتساع والتنوع العرقي والديني الذي عرفته الإمبراطورية العثمانية حيث لا يمكن تصور انعدام حوادث التعصب والتشدد.

من هذا المنظور يسعى هذا البحث إلى تقديم ملاحظات حول بعض النظريات والآراء التي حاولت تشويه الصورة المشرقة للعطاء الحضاري المتميز للدولة العثمانية في مجال حقوق أهل الذمة، والتي أبت إلا أن تقوم بتأويلات مجانبة للصواب لبعض النصوص التاريخية القليلة التي تصيد البعض بدهاء، بالمقابل فإننا لا ننكر قيام كثير من الباحثين الغربيين بدراسات عن العهد العثماني ممتعة ومنصفة أبانوا من خلالها عن سياسة التسامح المتميزة التي أظهرها الحكام وعملوا على تكريسها بقوة.

من جهة أخرى فإننا نتأسف على عدم إمكان إطلاعنا على الوثائق والارشيفات التركية المرتبطة بتاريخ العثمانيين الديني والتي تعتبر المصدر الأساسي لكل باحث في هذه الفترة، فجهلنا باللغة التركية من جهة، وانعدام وجود مصادر عربية موثوقة ببلاد المغرب نظرا لندرة الاهتمام بمجال العثمانيات قديماً وحديثاً، كل هذا دفعنا إلى اعتماد مراجع أجنبية والتزامنا الحذر والحيطة في عدم الانسياق وراء النظريات التي قد تمليها دوافع ايديولوجية معينة.

حول مدى التسامح الديني لدى السلاطين العثمانيين

ليس غريبا ان توجه سهام الاتهام بعدم التسامح إلى السلاطين والحكام الذين تنضوي تحت حكمهم ولوائهم مجموعة من الطوائف الدينية غير المسلمة، فتاريخ هؤلاء يتداوله باحثون

ومؤرخون من شتى المشارب والنزعات يتبنون مختلف الآراء ويهدفون إلى شتى الاتجاهات، ومن الطبيعي ان يكون الباحث او المؤرخ الغربي أقرب وأدنى إلى نزعة التحامل والاتهام من غيره، وهذا ما حدث بالنسبة للسلاطين العثمانيين الذين وإن كنا لا ننكر سلامة توجه كثير من الأقلام الغربية في دراستها وتحليلها لتاريخهم الديني إلا أن فئة منهم – وهي قليلة لحسن الحظ – يكادون يجمعون في مختلف كتاباتهم على أن الطوائف الدينية وخاصة منها الطائفة اليهودية قد لقيت اضطهادا ومضايقة شديدين في كثير من الأحيان.

من أجل ذلك فإن الذي نود التأكيد عليه في هذا البحث هو أن دراسة متأنية وفاحصة للموقف العام الذي أبداه الحكام العثمانيون تجاه الأقليات الدينية غير المسلمة تظهر تسامحا لا مثيل له وعطفا لا نظير له، حتى إن بعض الباحثين الغربيين قد أكدوا على أن تسامح العثمانيين مع رعاياهم من غير المسلمين لم يعرفه الحكم الإسلامي على مدى التاريخ(١).

ولا نبالغ إذا قلنا إن استشفاف روح التسامح الديني من تاريخ السلاطين العثمانيين لا يحتاج من الباحث إلى كبير جهد وعناء، إذ تنطق مختلف النصوص التاريخية والفرمانات السلطانية التي كانت تصدر من حين لآخر بشواهد حية على النزعة المسالمة والمتسامحة لديهم.

لقد أظهر العثمانيون من التسامح المفضي إلى التعايش ليس فقط ما يكفل للذميين حرية ممارسة عقائدهم ولكن أيضا ما يجعلهم مواطنين في هذا المجتمع مندمجين فيه، موفوري الحرية والكرامة، غير منعزلين ولا مهمشين، لا يختلفون عن المسلمين إلا بشئ واحد هو دفعهم للجزية التي هي مقابل إعفائهم من التزامين ينهض بهما المسلمون القادرون هما: دفع الزكاة والخروج للجهاد. ويكفي ان نذكر من مظاهر تسامحهم وعدلهم ما يروى من أن السلطان سليمان القانوني عندما كان يهم ببناء مسجد السليمانية وجد عرقلة في أمر شراء بقعة أرض كانت توجد محاذية لمكان البناء، وقد تبين أنها في ملك يهودي امتنع عن بيعها ورد كل

---

(١) تنظر على سبيل المثال ماجاء في كتاب "المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي" لفليب فارج ويوسف كرباج، ترجمة بشير السباعي، ط١/١٩٩٤ من أنه "خارج نظام الملل كان السلاطين العثمانيون يكتفون باحترام المبادئ القرآنية تجاه غير المسلمين وهم يفعلون ذلك بإخلاص واستقامة يزيدان عن اخلاص واستقامة أي خليفة عباسي". ص١٨٧.

عروض البيع المغرية، وبالرغم من أن مستشاري السلطان العثماني قد أشاروا عليه بالضغط على اليهودي إلا أن السلطان رفض ذلك وأبقى الأرض لصاحبها (٢).

ويقول السير توماس أرنولد Sir Th.ARNOLD : "إن المعاملة التي أظهرها الأباطرة العثمانيون للرعايا المسيحيين – على الأقل بعد أن غزوا بلاد اليونان بقرنين – لتدل على تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفا في سائر أوربا، وإن أصحاب Calvin في المجر وترانسلفانيا وأصحاب مذهب التوحيد Unitarians من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا طالما آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورغ المتعصبة، ونظر البروتستانت إلى تركيا بعيون الرغبة وتمنوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي"(٣). صحيح أن ثمة أحداثا معينة قد عكست تشدد بعض السلاطين العثمانيين في بعض الأحيان كما أن الفتاوى الرسمية التي كان يوقعها بعض المفتين كانت تصب في نفس الاتجاه، بيد أن مثل هذه الإستثناءات لا يمكنها أن تلغي صحة قاعدة التسامح والتعايش التي كانت تجمع بين رعايا الطوائف الدينية وسلاطين الدولة.

لقد ذهبت بعض الدراسات الغربية في تحامل واضح إلى الطعن في بعض العثمانيين واتهامهم باضطهاد أو – على الأقل – مضايقة اليهود والنصارى.

يقول برنارد لويس B. Lewis : "لقد فتح محمد الفاتح نافذة على الغرب وقدم حظوة وامتيازا لليونانيين واليهود وجعل من نفسه حاميا للفنانين والعلماء القادمين من أوروبا المسيحية، أما ابنه بايزيد الذي كان معروفا بكثرة تقواه وشدة تأثره بنفوذ العلماء، فقد وضع حدا للوضع السابق، حيث طرد الموظفين اليهود والنصارى، وحسب بعض المصادر اليهودية فقد أمر بإغلاق بيع اسطنبول التي كان قد تم بناؤها عام ١٤٥٣، وهذا ما يتناقض مع قوانين الشريعة الإسلامية..."(٤).

---

(٢) Bernard Lewis: *juifs en terre d'Islam*, Paris 1984, p 127

(٣) السير توماس ارنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن وزميليه، ط ١٩٥٧- القاهرة ص١٨١، وقد نقل ذلك عن ثلاثة مصادر غربية قديمة.

(٤) B. Lewis : opcit p 67.

لقد ذهب لويس إلى ما ذهب إليه اقتناعا منه بأن سنية بايزيد المتشددة دفعته لا محالة إلى التعصب للمسلمين ضد غيرهم، ثم إن عدم انفتاحه على الغرب على غرار ما فعله والده قد يكون في ذلك كراهية للمسيحيين واليهود بصفة عامة، وهذه أحكام اعتباطية لا أساس لها من الصحة، فإذا كان بايزيد الثاني قد عرف عنه تمسك شديد بتعاليم الدين الإسلامي حتى سماه بعض المؤرخين الأتراك "بايزيد الصوفي"(٥) فإن ذلك لم يكن له أي صلة بمدى تسامحه مع الطوائف الدينية الأخرى، بل عكس ذلك، فالرجل بحكم نزعته الصوفية ميال للسلم والمسالمة، يقول عنه توماس أرنولد: "ان المؤرخ البيزنطي الذي خلف لنا قصة سقوط القسطنطينية يحدثنا كيف كان بايزيد الصارم نفسه رحب الصدر كريم الخلق مع رعاياه المسيحيين وكيف جعلهم يألفونه ألفة تامة بأن سمح لهم بالتردد على مجلسه في حرية كاملة"(٦). ويمكن القول بأن فكرة برناردلويس هاته والتي مفادها ان شدة التقوى لدى بعض السلاطين كانت حافزا على التهوين من شأن الذميين والإخلال بحقوقهم هي نفسها التي تتكرر في كثير من كتابات الغربيين عن السلاطين العثمانيين، فنجد مثلا في كتاب هاملتون جب وهارولد بووين. "المجتمع الإسلامي والغرب" قولهما(٧): "لقد أصبحت أعداد المسلمين أكثر من أعداد الذميين بعد أن كان العكس هو الصحيح قبل ذلك، وقد أثر هذا في اتجاه المسلمين بوجه عام، فمن ناحية كان غالبية رعايا السلطان الجدد يفوقون سابقيهم في تشددهم السني مما أدى إلى ازدياد الاتجاه إلى السنية المتشددة التي كانت قد غلبت على السلاطين وحكومتهم لمدة تزيد على قرن وترتب على ذلك نمو الاتجاه إلى عدم التسامح مع غير المسلمين". والذي نراه ان تمسك السلاطين العثمانيين بمبادئ الإسلام وتعاليمه يعتبر أكبر دافع لاحترام حقوق الذميين وإبداء العطف اللازم تجاههم، لقد كان يدفعهم إلى ذلك هاجس وجوب حفظ حقوقهم والالتزام بتنفيذ أحكامهم كما نصت عليها التشريعات الإسلامية.

---

(٥) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل، بيروت ١٩٧٧، ص٦٨.

(٦) توماس ارنولد: مرجع سابق ص ١٧٣.

(٧) المجتمع الإسلامي والغرب: تأليف هاملتون جب وهارولد بووين، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ (٢/٢٣٣).

لقد كان على العثمانيين وهم حكام إمبراطورية شاسعة الأطراف ان يكيفوا الوضع الديمغرافي والتنوع العرقي والديني على إيقاعات لم يسبق ان توفرت في بلدان إسلامية أخرى، سيما وان مجئ الحكم العثماني قد اصطدم بوجود إثنيات وطوائف دينية ذات كثافة سكانية أكبر وأضخم مما كان عليه المسلمون، لذلك كان من واجب العثمانيين أن يوفروا لتلك الطوائف الدينية المتباينة المشارب والمذاهب كامل حقوقهم التي تكفلها لهم الشريعة الإسلامية. لقد جاء في فرمان أصدره السلطان محمد الثالث وأرخ في شهر مارس من عام ١٦٠٢ ما يوضح ذلك حيث أكد السلطان على أن الله رب العالمين قد أمر في كتابه المنزل حماية وضمان أمن واحترام أهل الذمة من اليهود والنصارى وهو ما يعتبر واجبا جماعيا ودائما يفرض على كافة المسلمين، وهو بالتالي ضرورة ملحة يتحملها جميع السلاطين، ثم يستطرد قائلا: "انه إذن من المهم والضروري أن تهتم عنايتنا الملتزمة بتعاليم الشريعة بكافة أفراد هذه الطوائف الدينية التي تقوم بسداد ما عليها من ضرائب، حيث تعيش في كنف حكمنا وخلافتنا السعيدة في أمن وأمان لا يضايقهم أحد ولا يمنعهم أو يمس حياتهم وأموالهم أحد".(٨).

وإذا كانت وضعية الذميين تحت أي حكم إسلامي تختلف من جهة لأخرى ومن زمان لآخر فإن وضعيتهم خلال العهد العثماني قد اتسمت إلى حد كبير بالاستقرار والعيش في أمن ورخاء وتعايش مع المسلمين. لقد سعى العثمانيون إلى تأمين الاتحاد الأخوي لجميع شعوب وطوائف وملل الإمبراطورية، وبموجب مرسوم كلخانه فإن جميع رعايا الإمبراطورية أيا كان جنسهم او ديانتهم يوفر لهم الأمن التام فيما يتعلق بحياتهم وكرامتهم مع احترام حقوقهم الشرعية، جاء في مستهل الفرمان: " لا يخفى على عموم الناس ان دولتنا العلية من مبدأ ظهورها وهي جارية على رعاية الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها، ولذا فان قوة ومكانة سلطتنا السنية ورفاهية أهاليها قد وصلت حد الغاية، ثم انعكس الأمر منذ مائة وخمسين سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال لا للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة." ثم يضيف الفرمان ما نصه: "وتمتاز سائر تبعية دولتنا العلية من المسلمين وسائر الملل الأخرى بمساعداتنا هذه

---

(٨) *juifs en terre d'Islam*, p 61.

الملوكية بدون استثناء وقد أعطيت من طرفنا الملوكي الأمنية التامة في الروح والعرض والناموس والمال بمقتضى الحكم الشرعي لكل أهالي ممالكنا المحروسة."(٩).

فالسلطان العثماني كما يقول روبير منتران R. Mantran لا يستطيع تجاوز المبادئ المقدسة للشريعة، فقد كان عليه أن يراعي نوعا من إيديولوجية إمبراطورية ليس المصدر الإسلامي غير أحد مكوناتها... وهذه الإيديولوجية توصيه بأن يعمل على سيادة العدل بين الرعايا المسلمين الذين أوكل الله أمرهم إليه وان يحميهم من ابتزازات موظفيه وبأن يضع سلطته في خدمة صلاح حالهم.(١٠).

ومما ساعد كثيرا على الالتزام بتعاليم الشريعة في مجال حقوق الذميين ان الحكام العثمانيين كانوا يعتمدون على القضاة الشرعيين الذين كانوا يعينون في كافة ولايات الإمبراطورية، وقد كان هؤلاء الذين كانوا ذوي قدر وحظوة يمارسون مهمة تفسير النصوص الشرعية وتنفيذ معطياتها ومقتضياتها، كما كان للمفتي دور كبير في حماية تنفيذ تعاليم الشريعة فيما يخص فقه أهل الذمة. لقد كان هاجس الحفاظ على حقوق أهل الذمة ذا أولوية عظمى في اهتمامات الحكام والقضاة العثمانيين، ولقد أبانت كثير من الوثائق المحفوظة عن نماذج رائعة لتسامح السلاطين وعطفهم على أبناء الملل والطوائف الدينية الأخرى، كما نقلت لنا وقائع كثيرة اشتكى فيها الذميون من تصرفات وسلوكات بعض المسلمين المشينة، ولقد ثبت في بعض الحالات ان اشتكى بعض أفراد الأقليات الدينية لدى القاضي من الوالي أو العكس(١١). وقد تحصل مشاكل خرق نظام حقوق الذميين أحيانا عندما يفقد الحكم الإقليمي قدرته على فرض سلطة الأمن واحترام القانون، فتتدخل السلطة المركزية برعاية السلطان العثماني لإعادة الأمر إلى نصابه١٢. من جهة أخرى فقد ساعد على توفير أجواء التسامح تجاه ابناء الطوائف الدينية الأخرى كون اجتهادات الفقه الحنفي في مجال أحكام أهل الذمة تتسم

---

(٩) تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٢٥٥.

(١٠) روبير منتران: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي ط١/١٩٩٣، القاهرة ٢٥٣/١.

(١١) *juifs en terre d'Islam*, p 62.

(١٢) لا ننسى في هذا الصدد دور المحتسب الذي كان من بين مهامه مراعاة استتباب الأمن العام وتوفير جو التعايش بين كافة الطوائف الدينية.

باليسر والمرونة مقارنة بغيرها من المذاهب، وهو ما لاحظه - فضلا عن الباحثين المسلمين - كثير من الباحثين الغربيين خلال حديثهم عن بعض القضايا والمسائل المرتبطة بالذميين، فتوماس ارنولد تحدث عن بناء الكنائس في الدولة الإسلامية فقال: "ويختلف فقهاء المسلمين في هذه المسألة اختلافا بينا، ومن أكثر المذاهب تسامحا المذهب الحنفي الذي يعلن انه على الرغم من أن بناء الكنائس ومعابد اليهود مخالف للشرع إلا أنه يمكن إصلاح ما كان قائما إذا ما خرب أو اعتراه البلى، كما يجوز بناء كنائس ومعابد يهودية جديدة في القرى والضياع التي لا تظهر فيها الشعائر الإسلامية"(١٣). وأثناء حديثه عن موقف الإسلام من الذمي الذي يسب الإسلام أوضح برنارد لويس أن المذهب الحنفي يعتبر الأكثر تسامحا في هذه المسألة، ففي الوقت الذي يقرر فيه المذهبان المالكي والحنبلي عقوبة الموت على شاتم الإسلام، يكتفي المذهب الحنفي بعقوبة الجلد والحبس، ولذلك يذهب الفقيه الحنفي أبو السعود أفندي إلى أن عقوبة الموت لا يلجأ إليها إلا عند تكرير السب والشتم أو في حالة الجهر بذلك أمام الملأ من الناس.

وفي سياق آخر يستشهد لويس على يسر المذهب الحنفي في هذا المجال بقضية اليهودي الذي يدعى Batu Sfez الذي اتهم في تونس عام ١٨٥٧ بسب الإسلام وهو في حالة سكر. ولما كان المذهب الحنفي هو السائد في البلاد وهو المذهب الذي لا يعاقب بأكثر من الجلد والحبس لم يجد الوالي - الذي غاظه الأمر - بداً من تقديم اليهودي المتهم إمام محكمة شرعية مالكية حتى تستطيع الحكم عليه بعقوبة الموت، ولاحظ الناس في ذلك الوقت ان الذي دفع الوالي إلى القيام بهذا الإجراء كونه قد حكم قبل ذلك بوقت قليل على مسلم بعقوبة الموت نظراً لكونه قام بسرقة وقتل ذمي يهودي، وبذلك أراد عن طريق الحكم بالموت على اليهودي شاتم الإسلام أن يبرهن على عدله وحسن تصرفه(١٤).

من جهة أخرى فقد كان في إسناد شؤون تدبير أمور الطوائف الدينية إلى رؤسائها من رهبان وبطاركة ما يدل على مدى رغبة السلاطين العثمانيين في عدم التدخل في أمور الذميين الدينية والمدنية على السواء، حيث كانت مختلف الملل الدينية تنتخب رئيسها أو يعينه السلطان

---

(١٣) توماس ارنولد: مرجع سابق ص ٨٤.

(١٤). B. Lewis : opcit p 58

ليكون مسؤولا عن كل ما يتصل بشؤونهم، وقد احتفظت المصادر والوثائق التاريخية بأسماء كثير من هؤلاء الرؤساء وأعطت تفصيلات عن طبيعة التسيير الديني والمدني لكل طائفة(١٥)، فمحمد الفاتح عندما فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ اصطدم بمشكل نزاع الكنيستين الأرثوذوكسية والكاثوليكية وازداد الأمر تفاقما بعدما انتقلت المدينة التاريخية من يد المسيحية إلى يد الإسلام، لذلك وبعد القضاء على بيزنطة كان لابد من العمل على إيجاد حل لجمع شمل اليونان الأرثودوكس استعدادا لاحتمال كل عدوان خارجي من جانب المسيحيين الغربيين، إذ ان الكنيسة الكاثوليكية لم تكن مقبولة ولا مرغوبا فيها، فهي راعية الصليبية الغربية وحامية المسيحيين الأوربيين أعداء الإمبراطورية.

وهكذا جرى تكريس الغرض المأمول من خلال تنصيب بطريك يوناني اورثودوكسي على رأس أولى الملل المسيحية في الإمبراطورية(١٦)، ومنذ ذلك الحين أصبح يعتبر رجل الدولة الرفيع الذي يفرض سلطته الدينية والمدنية على جميع اورثودوكس الإمبراطورية، ويظهر التقدير الاستراتيجي الكبير الذي أبداه السلطان العثماني للبطريرك في منحه كافة الصلاحيات والامتيازات عندما نقارن وضعه في ظل الحكم العثماني بوضعه السابق في ظل الإمبراطورية البيزنطية حيث كان يأتمر بأوامر الإمبراطور. يقول كمال كربات K.Karpat : "فخلافا للفترة البيزنطية لم يعد البطريرك خادما صاغرا للإمبراطور، بل أصبح عضوا معترفا به ومحترما من أعضاء بيروقراطية السلطان ويتمتع بسلطة كاملة على أتباع ملته(١٧)." ولكي يعبر السلطان محمد الفاتح للبطريرك المنصب كامل احترامه وتقديره قال له أثناء تنصيبه في السادس من يناير ١٤٥٤: "كن بطريركا وتقبل كل تهانئي الحارة، كن أيضا على يقين من صداقتي وبتمتعك بكامل الصلاحيات المخولة للبطاركة الذين سبقوك". ثم عمد السلطان بعد ذلك إلى

---

(١٥) مصطلح "طائفة" كان هو الأكثر شيوعا في الدولة العثمانية قبل إصدار قانون التنظيمات في القرن التاسع عشر الذي نص على مصطلح "ملة" الذي يعني الطوائف الدينية غير المسلمة، وقد حمل مصطلح "ملة" عدة معان عبر التاريخ الإسلامي، منها معنى الديانة Confession ، ثم معنى الطائفة الدينية، ثم معنى الدولة Nation ، وقد كانت جميع هذه المعاني سائدة في الكتابات العثمانية حتى ظهور التنظيمات. انظر: art"Millet" in EI² T 7 p 62.

(١٦) كان البطريرك المعين هو جناديوس Genadios وكان معروفا باستقامته ونزاهته وكرهه للكنيسة الكاثوليكية.

(١٧) Kamal Karpat "Millets and Nationality" in Brande et B. Lewis: *christians and jews in the ottoman Empire*, New york 1982.

تسليمه شارات وظيفته مع الثياب الطقوسية والعصا الرعوية وكذا الصليب الرعـوي، وعنـد خروجه من الكنيسة امتطى البطريرك صهوة جواد أهداه إياه السلطان الفاتح وطاف بالمدينـة مع طاقم الرهبان الذين يحيطون به قبل أن يلتحق بمكان إقامته(١٨).

أما الأرمن فقد تمتعوا بنفس الامتياز، ونظموا في إطار ملة وعين السلطان علـى رأسـها بطريرك بورصة المسمى يواكيم Joachim، غير أن الذي ميز هذه الملة هو ضمـها لكافـة الطوائف الدينية غير اليهودية والارثودوكسية، وذلك مثل الكاثوليك والنساطرة، وقد أظهـرت بعض النصوص الوثائقية حماية السلطان لكل هذه الطوائف التي اعتبرت مهرطقة وذلك حينما تحاول بعض الكنائس المهيمنة تحويلها عن عقائدها(١٩). من جهة أخرى نجد نفـس التسـامح والتقدير قد أبداه السلطان تجاه الطائفة اليهودية حيث عين على رأسها حاخاما كبيرا (حاخـام باشى) هـو Mosses Kapsali وأعطـاه نفـس الامتيـازات التـي أعطيـت للبطريركيـة الاورثودوكسية: "لقد تحس وضعهم في العهد العثماني حيث أضحى حالهم أفضل وأحسن بكثير مما كان عليه في الدول الأوربية، لقد اضطهدوا كثيرا في بولونيا والنمسا وهو ما دفعهم بشكل رئيسي إلى الهجرة نحو اسطنبول وسالونيك ومدن أخرى(٢٠).

وقد اشتد ساعد الملة اليهودية إلى حد كبير وخاصة في عهد سليم الأول وسليمان القانوني، فبالإضافة إلى اليهود الذين كانوا يقطنون الولايات العثمانية منذ قديم نزح كثير مـن اليـهود الذين تم طردهم من اسبانيا (١٤٩٢-١٤٩٧) فاستقروا في اسطنبول وفي فلسطين وكذا فـي سوريا ومصر، وكان السلطان بايزيد الثاني الذي حدث في عهده طرد يهود اسبانيا يتعـاطف معهم تعاطفا خاصا حيث أصدر مرسوما يدعو إلى حسن معاملتهم، وكان بعض المهاجرين من اليهود يضمون المارانوس Marranos أي اليهود الذين جاهروا باعتناقهم للدين المسيحي اتقاءا للاضطهاد، ولكنهم وضعوا حدا لتخفيهم حين وجدوا الأمن والأمان في ظـل الامبراطوريـة، ومن ثم انخرطوا في هيئة السفارديم الذين سيطروا في الولايات الأوروبية على أبناء دينهم(٢١).

---

(١٨) André Clot: *Mehmed 2,le conquerant de Byzance,*, Perrin, Paris 1990 p 93.

(١٩) جب وبووين: مرجع سابق: ٤٣٣/٢.

(٢٠) André Clot: opcit p 94.

(٢١) جب وبووين: مرجع سابق: ٤١٠/٢.

ومن عطف السلاطين العثمانيين على رعاياهم اليهود انهم كانوا يهبون لهم الحماية والأمن ولو تواجدوا خارج حدود الدولة، وبهذا الصدد يمكن الإشارة إلى حوادث ميناء أنكون Ancone عام ١٥٥٦ حينما كان يعتبر مركزا تجاريا كبيرا مع شرق البحر المتوسط وتحت قبضة الدول الكاثوليكية، فحدث أن كان كثير من اليهود الذين يخفون أصلهم الديني (Marranos) يتاجرون في الميناء وذات مرة أوقفهم البابا بول الرابع وصادر أموالهم وتوعدهم بالتقتيل إن لم يعودوا إلى الدين المسيحي، وتفاقم أمر هؤلاء إلى ان تدخل السلطان سليمان القانوني، وتمكن بعد التدخل لدى البابا من انتزاع عفو عام عن أولئك اليهود(٢٢). وسرعان ما وصلت العالم اليهودي الأنباء القائلة بأن اليهود يلقون ترحيبا في الإمبراطورية العثمانية وقد أشار Gallante في كتابه *Turcs et Juifs* إلى خطاب أرسله حاخامان ألمانيان كانا يسعيان إلى الهجرة نحو الإمبراطورية العثمانية إلى مواطنيهم في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي يشيدان فيه بجمال هذه الإمبراطورية ومزاياها. وقد بدأ المهاجرون فعلا يتوافدون على الولايات العثمانية من المجر وملدافيا (قبل خضوعها للحكم العثماني) ومن القرم وأجزاء من آسيا وغيرها.

وأوردت بعض المصادر رسالة ليهودي اسمه إسحاق السرفاتي Issac Zarfati سكن مدينة ادرنة Andrinople في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي، حيث دعا فيها أبناء دينه إلى ترك البلاد المسيحية حيث يعانون فيها ويلات الاضطهاد والقمع والتشريد إلى البلاد التركية حيث الأمان والاطمئنان. وبعد ذلك بقرن واحد كتب يهودي برتغالي كتابا سماه (مواساة عن محن إسرائيل) ضمن جانبا منه تحريض أبناء دينه على الهجرة إلى تركيا التي يصفها قائلا: "في ذلكم البحر الشاسع الأطراف الذي شقه الله تعالى بعصا رحمته كما شق البحر الأحمر زمن الخروج، أبواب الحرية فيها تبقى دائما مفتوحة على مصراعيها للذين يدينون باليهودية(٢٣). "وما دمنا نتحدث عن الطائفة اليهودية في ظل العهد العثماني والتي تشكلت في الأساس من اليهود المطرودين من اسبانيا فلا بأس من الإشارة إلى موقف العثمانيين من قضية الموريسكيين، حيث كان كل طرف على علم بما يجري لدى الطرف

---

(٢٢) B. Lewis: opcit p 160.

(٢٣) B. Lewis: opcit p 159.

الآخر، فالعثمانيون كانوا متتبعين لأخبار الموريسكيين ومعاناتهم في ظل الحكم المسيحي الكاثوليكي، وهؤلاء بدورهم كانت تبلغهم أخبار تسامح السلاطين العثمانيين وطبيعة التعايش الديني الذي كان سائدا في الولايات المنضوية تحت لوائهم، ولعل أبرز خطوات الموقف العثماني في هذا الاتجاه تلك المساعي الحثيثة التي قام بها السلطان أحمد الأول لدى بريطانيا وفرنسا والبندقية لمساعدة الموريسكيين بتسهيل تحولهم إلى أراضي الدولة العثمانية[٢٤]. وذهب الباحث التونسي الدكتور عبد الجليل التميمي إلى تأكيد حقيقة الخلفية الدينية للصراع العثماني – الإسباني في البحر المتوسط، فقد كان المحرك الأساسي للعثمانيين في المنطقة هو مواجهة الزحف الاسباني الصليبي: "إن موقف العثمانيين تجاه النصارى الذين يعيشون بين ظهرانيهم أو الذين تحالفوا معهم كان موقف التسامح والتحالف، أما موقفهم من النصارى الذين أعلنوا الحرب المقدسة عليهم وحاربوا المسلمين وألحقوا بالموريسكيين بالأندلس أشد ألوان التنكيل وعملوا على احتلال مدن الساحل الإسلامي المغربي، فإن موقفهم منهم كان شديدا وعنيفا شدة وعنف خصومهم[٢٥].

من جهة أخرى فقد أمكن اعتبار اليهود الطائفة الدينية الوحيدة التي ساهمت في النمو الديموغرافي للدولة العثمانية عن طريق هجرتها[٢٦]: يقول برنارد لويس: "يمثل الفتح والهجرة العاملين الأساسيين في النمو السريع للشعب اليهودي العثماني، وفي الوقت الذي سمح فيه الفتح الإسلامي لإدماج كثير من الطوائف الدينية في الدولة العثمانية، فإن الهجرة لم تخص سوى اليهود الذين تميزوا وحدهم عن غيرهم بالاختيار الطوعي في أن يصبحوا رعايا للدولة العثمانية. ولم يتوقف نزوح يهود الدول الأوربية إلى الولايات العثمانية لعدة قرون، لقد جذبهم

---

(٢٤) عبد الجليل التميمي: رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوق البندقية حول الموريسكيين، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس ع ٧-٨/١٩٩٧ ص٩.

(٢٥) عبدالجليل التميمي: الخلفية الدينية للصراع الاسباني – العثماني وقضية الموريسكيين، المجلة التاريخية المغربية ع ١٠-١١/١٩٨٧.

(٢٦) لمزيد الاطلاع على نسب النمو الديموغرافي ليهود الدولة العثمانية، راجع كتاب فارج وكورباج السابق وانظر: Xavier de planhol: *Minorités en Islam*, Flammarion 1997 p243-262.

إلى ذلك ما بلغهم من تسامح وعطف الدولة العثمانية وكذا الامتيازات الاقتصادية التي تتيحها لهم"[٢٧].

ومما يدل على ضخامة عدد اليهود الذين هاجروا من اسبانيا إلى الولايات العثمانية يحدوهم أمل العيش في ظل التسامح العثماني أنه في عام ١٤٧٧ (أي قبل الطرد الجماعي لليهود الاسبان) كان في اسطنبول ١٦٤٧ (أسرة يهودية أي بنسبة ١١% من عدد السكان، ومع وصول يهود اسبانيا إلى العاصمة في تدفق كبير على مدى عدة عقود أمسى عددهم في عام ١٥٣٥ حوالي ٨٠٧٠ أسرة يهودية[٢٨].

وفي أواسط القرن السادس عشر الميلادي ذكر أحد الرحالة الاسبان ان عددهم ناهز ١٠٠٠٠ اسرة يهودية، ولم يكن اليهود الاسبان وحدهم الذين نزحوا إلى تركيا، فقد كان هناك نزوح كبير لبعض الطوائف الدينية من جهات مختلفة مثل نزوح القوزاق Cosaques الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية فوجدوا من التسامح في ممالك السلطان العثماني ما أنكره عليه إخوانهم في المسيحية[٢٩].

والآن ننتقل للحديث عن جانب آخر ذي صلة بموضوعنا ويتعلق الأمر بشدة النقد الموجه إلى الدولة العثمانية فيما أجرته من قوانين معينة في حق الذميين بدت لمعظم الباحثين الغربيين مخلة بمبدأ التسامح العام الذي اتسمت به علاقات الدولة مع رعاياها الذميين. من ذلك على سبيل المثال ما يعرف بالدوشيرمة Devshirme أي تجنيد أبناء المسيحيين في صفوف الجيش والادارة بعد أن يتحولوا إلى الإسلام، ويذكر ان اورخان بن عثمان أدرك خلال معاركه حاجته الملحة إلى جيش من المشاة، فيما كان الأتراك تتركز خبراتهم على الخيالة، من هنا جاءت الفكرة بأن يستخدم عنصرا غير تركي في تكوين جيش من المشاة وانتهى الأمر بالأخذ بنظام الدوشيرمة. وتتضارب النصوص التاريخية في تقريب الصورة من هذا الإجراء وعن عدد الذين تم تجنيدهم بهذا الشكل، فروبير منتران يؤكد أن ذلك لم يمس بصورة مباشرة سوى جزء

---

(٢٧) *Juifs en terre d'Islam*, p145.

(٢٨) Lewis: opcit p 146.

(٢٩) توماس ارنولد: مرجع سابق ص ١٨٢، وانظر كيف ازدادت نسبة الجماعة المسيحية باسطنبول من ٨% إلى ١٦% ما بين القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر (فارج وكورباج: مرجع سابق ص١٨٧).

تافه من السكان المسيحيين[٣٠]، ويحاول آخرون التضخيم من العدد إمعانا منهم في التأكيد على قساوة الإجراء وتعسفه.

وإذا كان بعض الباحثين الغربيين يرون في ذلك عمليات غسل أدمغة وعمليات أسلمة قسرية[٣١] تخالف ما عرف عن السلاطين العثمانيين من تسامح وأخذ بالمبدأ القرآني في عدم الإكراه في الدين معترفين في نفس الوقت بأن هذا السلوك لا يعدوا أن يكون استثناءا واضحا، وإذا كان الرحالة الغربيون الذين تنقلوا في الولايات العثمانية قد رسموا صورة قاتمة عن قانون الدوشيرمه، فإن كثيرا من الباحثين الغربيين لم ينكروا أن هذا الإجراء لم يكن بالصورة القاسية والتعسفية التي نسجها الآخرون، فالجيش في أول نشأته قد كثر عدده بسرعة فائقة نظرا لتطوع كثير من المسيحيين أنفسهم الذين وجدوا في هذا الإجراء أفضل وسيلة للتخلص من خطر الهلاك جوعا ومن اليتم، أضف إلى ذلك أن عادة بيع المسيحيين أرقاء كانت في ذلك الحين قد انتشرت إنتشارا واسع النطاق ربما أدى إلى جعل هذه الضريبة أقل إثارة للدهشة مما كان متوقعا.

وذهب توماس ارنولد إلى انه لم يكن ثمة ما يدعو القواد الذين كانوا يجمعون العدد المعين من الأبناء إلى استخدام القوة والإكراه إلا في القليل النادر، ذلك أن الآباء كانوا مشتاقين في الغالب إلى إدخال أبنائهم في خدمة تهئ لهم في كثير من الأحيان حياة سعيدة وعيشة ناعمة مريحة لا تعنيهم الظروف والملابسات طالما كان هؤلاء الاسرى الصغار تتم تنشئتهم وتثقيفهم كما لو كانوا أولاد السلطان نفسه.[٣٢].

ويذهب Wittek بعيدا في محاولة إدراك كثير من الجوانب الإيجابية التي تنجم عن هذا الإجراء الذي يوفر في الواقع مجالا لوصول أولئك المجندين إلى أعلى مناصب الدولة، "ففي

---

(٣٠) روبير منتران: مصدر سابق ٤٥٥/١.

(٣١) انظر على سبيل المثال، جب وبووين: مرجع سابق ٤١٧/٢ "كانت الدوشيرمة آخر الأمر تستند إلى ما نصت عليه الشريعة فيما يتعلق بالعبيد أسرى الحرب، وان يكن ذلك قد تم بصورة قسرية، ومن هنا فقد بدت في الأصل وكأنها نوع من المهانة، وبالإضافة إلى ذلك فإنها حكمت على من كانوا يجمعون بهذه الطريقة بالافتراق عن أهلهم في سن مبكرة وبان يرغموا على التخلي عن دينهم ويتلقوا تدريبا شاقا وطويل الأمد".

(٣٢) توماس ارنولد: مرجع سابق ص١٧٦.

خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين كان من الميزات الفعلية التي يتمتع بها من يطمحون إلى تولي أعلى الوظائف كونهم قد ولدوا ذميين صالحين للتجنيد، ومن ثم أصبح من المعتاد أن نجد آباء يسعون إلى اختيار أبنائهم حتى ولو كانوا غير صالحين، مما ترتب عليه أن أصبح السكان الذين ولدوا مسلمين مستائين من استبعادهم عن شؤون الدولة[٣٣].

ويقال إن الأمر كان يصل إلى حد أن قرويين فقراء كانوا يتطوعون وكانوا يلتمسون من رقيب التجنيد أخذ ابنهم بدلا من ابن الجار[٣٤].

وإذا كان هذا الإجراء قد أتاح لكثير من المسيحيين بلوغ مراتب المجد ومناصب الدولة فإن في إلغائه من طرف الدولة (عام ١٦٣٨) ما كان يجعل المسيحيين يمتزج لديهم إحساس بالارتياح من جهة والتأسف على إلغائه من جهة أخرى لأنه كان سلما للمجد الأثيل.

ومهما يكن موقف الباحثين والمؤرخين من نظام الدوشيرمه، ومهما يكن النقد الأوربي شديد الوطأة على الإجراء الذي قد يتضمن في طياته بعض عناصر القسوة والإكراه فإنه لا يمكن أن يقارن بما فعله الاسبان بمسلمي الأندلس ويهودها الذين لم يكن لهم بد من الاختيار بين الموت أو التنصر.

ومما أصر بعض الباحثين الغربيين على اعتباره إجراءا قمعيا تجاه اليهود ما يعرف باسم Sürgün الذي يعني بالتركية النفي إلى منطقة معينة، وقد التجأت الدولة العثمانية إلى هذا الإجراء لأغراض التوطين والتعمير الذي استدعته ظروف بناء الدولة ومتطلبات اقتصادية واستراتيجية شتى.

فبعد فتح القسطنطينية مثلا صدرت أوامر سلطانية بترحيل جماعات من اليهود إلى العاصمة وغيرها من المدن، غير أن القول بان عمليات التهجير هاته كانت في بعض الحالات عقوبة لجماعات معينة أو لأشخاص معينين إذا أظهروا من الأعمال ما يستحق ذلك فهو يعتبر قولا مجانبا للحقيقة، إذ أن معظم النصوص التاريخية التي تتحدث عن قضية النفي

(٣٣) Wittek : *The Rise of the Ottoman Empire*, p.42. وانظر في ذلك أيضا:

O. Turan: "Les souverains seljoukides et leurs sujets non musulmans. *Studia Islamica*, Paris 1953 p90.

وراجع روبير منتران: مرجع سابق ٧٣/١.

(٣٤) *EI 2*, art "Devshirme" p.V.L.Ménage.

Sürgün والسياسة السلطانية التي أملت ذلك تؤكد أن الهدف الرئيسي من الإجراء هو تعمير المدن العثمانية بجميع الرعايا الذين يستظلون بحمى الدولة، ثم أن الطرق والوسائل التي اتبعت في ذلك لم تكن قمعية أو تعسفية كما ذهب إلى ذلك برنارد لويس(٣٥) إلا في حالات نادرة، علاوة على ذلك فإن الأجراء لم يطل الذميين فحسب وبخاصة اليهود كما يريد لويس أن يؤكد عليه وإنما طال كذلك المسلمين، فهو إذن إجراء تنظيمي عام فرضته مصلحة الدولة وضرورة التعمير، وليس فيه ما يدعو إلى الغض من مستوى التسامح الديني الذي كان سائدا.

ومما قام بعض الباحثين الغربيين بإثارة الشبهة حوله ما يقال بان ذميي الدولة العثمانية كانوا ملزمين بألا يلبسوا مثل المسلمين وأن يضعوا على أكتافهم شارات معينة تميزهم عن المسلمين، وقد حاول برنارد لويس أن يتصيد بعض النصوص من فتاوى علماء الدولة العثمانية(٣٦) وكذا من كتابات الرحالة الغربيين الذين لا ننسى أنهم كانوا مبغضين للأمبراطورية.

والذي يظهر من خلال نصوص أخرى أن الأمر لم يكن عاما، ولم يكن مطبقا في كل وقت، على أن المسألة ليست جديدة، فقد عرفت منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)(٣٧) الذي يروى عنه انه اشترط على أهل الذمة ألا يتشبهوا بالمسلمين في ثيابهم ونعالهم، بيد أن الأمر لم يوضع موضع التنفيذ والإلزام في معظم العصور التاريخية، وحتى في عهد الدولة العثمانية لم يثبت أن اشتكى أبناء الطوائف الدينية من هذا الأمر عندما يكون حاصلا، وإلا فإننا نملك من النصوص ما ينفي تدخل الدولة في أمور اللباس، ففي الرسالة التي كتبها إبان القرن الخامس عشر الميلادي بأدرنه اليهودي الفرنسي الذي دعا أبناء دينه إلى التخلي عن بلاد المسيحية والهجرة إلى بلاد الأتراك نص فيها على قوله: "هنا (أي في تركيا) لا يمنعكم أحد من أن تلبسوا أحسن ثيابكم، في حين كان من الصعب عليكم في بلاد

---

(٣٥) B. Lewis: *Juifs*, p 147.

(٣٦) أنظر على سبيل المثال ما نقله عن مفتي الامبراطورية في عهد سليمان القانوني الفقيه أبي السعود أفندي في كتابه السالف الذكر ص ٥٢.

(٣٧) هناك تضارب في النصوص الإسلامية التاريخية عن نسبة تلك التدابير إلى عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز. أنظر بحث الدكتور عزالدين جسوس: "عمر بن العزيز وأهل الذمة" في مجلة الاجتهاد البيروتية، ع ٢٨، س ٧/١٩٩٥ ص١٥ وما بعدها.

المسيحية أن تضعوا على أبنائكم ثيابا ذا حمرة أو زرقة، بل كان عليكم أن تلبسوا ثيابا سوداء مظلمة[٣٨]".

إن هذا يدل على أن مسألة فرض لباس معين على يهود أو مسيحي الدولة العثمانية لم يكن مطبقا في كل الأوقات والأزمان، وإذا حدث شئ من ذلك فإن المقصود لم يكن إذلالهم أو احتقارهم أو كما يقول لويس: إظهار الدونية الاجتماعية للذميين وإعلاء شأن المسلمين[٣٩]، فكل ما في الأمر هو أن الذميين كان عليهم ألا يتشبهوا بالمسلمين في ثيابهم حتى يتم التمييز بينهم وبين المسلمين، وهو ليس تمييزا عنصريا وإنما وسيلة اجتماعية لمعرفة أبناء كل طائفة على حدة، فالفقيه أبو يوسف صاحب أبي حنيفة عندما تحدث عن لباس أهل الذمة وزيهم قال: "لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته[٤٠]". واعتمد أبو يوسف في تفسير ذلك على قول عمر بن الخطاب: "حتى يعرف زيهم من زي المسلمين" فالمسألة إذن ليس فيها اضطهاد أو تمييز عنصري.

ولاشك أن هذا التمييز بين الناس تبعا لأديانهم كان أمرا ضروريا في بعض الأوقات، بل إن بعض أهل الأديان الأخرى أنفسهم كانوا حريصين عليه، ولم تكن هناك وسيلة للتمييز غير الزي لأنه الوسيلة الوحيدة لإثبات دين كل من يرتديه، فقد كان للعرب المسلمين ملابسهم، كما كانت للنصارى واليهود ملابسهما الخاصة أيضا، وإذا كان برنارد لويس يعتبر أن تحديد شكل ولون الثياب هو من مظاهر الاضطهاد[٤١] فنحن نقول له: "إن الاضطهاد حسب هذا المفهوم يكون قد أصاب المسلمين والذميين على السواء، لأن المسلمين أيضا مأمورون بعدم التشبه بالنصارى واليهود فكذلك هؤلاء مأمورون في ظروف اجتماعية معينة بألا يتشبهوا بالمسلمين. ويذهب المؤرخ ترتون Tritton في مناقشة هذه المسألة إلى إبراز حقيقة الإشكال وما ينطوي

(٣٨) Juifs en terre *d'Islam*, p160.

(٣٩) B. Lewis: *opcit*, p 54.

(٤٠) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص ٧٢.

(٤١) من مظاهر الاضطهاد والتمييز العنصري حسب لويس ما ذكره من أن الذميين كانوا يمنعون من حمل السلاح دفاعا عن أنفسهم فكانوا بذلك عرضة لكل عدوان (من أين؟) يقول: "حقيقة ان الاعتداءات ضد الذميين كانت نسبية، ولكن عدم السماح لهؤلاء بحمل السلاح في مجتمع يفرض ذلك يجعلهم يشعرون دائما بعدم الأمان فضلا عن إحساسهم بالدونية". *Juifs*, p53.

عليه فيؤكد على أن النصوص القديمة لم تشر إلى وقوع شئ من الجبر أو الإلزام في هذا الأمر إذ لم تكن ثمة ضرورة لذلك ما دام النصارى واليهود كانوا يلبسون ثيابهم الخاصة التي يتميزون بها وكانوا يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم دون إكراه أو إلزام، لكن الحاجة استلزمت هذه الفروض فيما بعد حين أخذ المسلمون بحظ من التمدن، فحمل الإغراء الشعوب الخاضعة لهم على الاقتداء بهم في ملابسهم والتشبه بهم في ثيابهم.(٤٢).

ومما يدل أيضا على أن الأمر لا يعدو أن يكون مؤقتا فرضته ضرورات معينة أنه في عصرنا هذا لم يقل أحد من فقهاء المسلمين ما رآه الأولون فهو ليس أمرا دينيا يتعبد به في كل زمان ومكان كما فهم ذلك جماعة من الفقهاء، وهو ليس أكثر من أمر من أوامر السلطة الشرعية الحاكمة يتعلق بمصلحة زمنية للمجتمع آنذاك ولا مانع من أن تتغير هذه المصلحة في زمن آخر.(٤٣).

وقد أورد جب وبووين في كتابهما إشارة إلى أن اليهود الأطباء الذين كانوا يشتغلون في بلاط السلاطين العثمانيين لم يكونوا ملزمين بارتداء ملابس مميزة بل سمح لهم أن يمارسوا حياتهم الخاصة كما يريدون(٤٤).

وهكذا فإذا كانت صور التسامح الديني التي سلف عرضها تهم الجانب الرسمي أي الدولة العثمانية فكيف كانت مظاهر التسامح الديني على الصعيد الشعبي حيث امتزاج واختلاط كافة أتباع الملل والطوائف الدينية في بوتقة مجتمع واحد.

بعض معالم التعايش المشترك بين المسلمين والذميين

لا تسعفنا المصادر التاريخية للعهد العثماني بمعلومات ضافية عن أسلوب التعايش بين المسلمين والذميين، وما وصلنا من ذلك يعكس أوضاع تعايش إيجابي ويعبر عن مدى التسامح الذي كان يجمع بين مختلف الطوائف والملل، وقد ساعد على ذلك تكريس السلاطين العثمانيين لمبدأ التسامح الديني إزاء رعاياهم الذميين بشكل كبير، وهو ما نجم عنه – بشكل طبيعي –

---

(٤٢) ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ترجمة حسن حبشي ص ٨٦–٨٧.

(٤٣) د. يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، دار المعرفة، الدار البيضاء، ١٩٨٨– ص.٦٠.

(٤٤) جب وبووين: مرجع سابق ٤٠٦/٢.

فسح المجال للقاء الأخوي القائم على التعاون والتفاهم بين المسلمين والذميين، ولاشك أن إبداء العطف من طرف السلاطين تجاه رعاياهم الذميين يتضمن حتما حماية وضعهم الاجتماعي ضد كل عدوان أو مضايقة أو تعصب من جانب مواطنيهم المسلمين، ولم يهتم المسلمون بالفروق القومية والدينية لمواطنيهم الذميين بل أدت حرية الاختلاط إلى كثير من التجانس والتماثل بين مختلف الجماعات والطوائف، كما كثر التصاهر بينهم حيث كان يكثر تزوج المسيحيات بالمسلمين الأتراك، وبذلك أسهمت ذريتهم المسلمة في زيادة أعداد المسلمين، ويحدث أحيانا تقاسم المسلمين والمسيحيين لأماكن العبادة كما يحتفلون أحيانا بأعياد واحدة. "والواقع أن الإسلام المقترح على "الكفار" المهزومين كان متسامحا إلى أبعد حد حتى مع الهراطقة، فالسنية الرسمية لا تسود إلا في المدن، وفي جميع الأماكن الأخرى يتجاور المسيحيون مع دين شعبي متسامح".(٤٥).

وبالرغم من تحذيرات الفقهاء الحنفية ودعوتهم أحيانا لالتزام جانب التحفظ في التعامل مع أهل الكتاب بكل حرية، فإن ذلك لم يحل دون الاختلاط وتبادل المصالح المشتركة. "ففي بعض المناطق الريفية حيث كان المسلمون والذميون يعيشون جنبا إلى جنب كانوا متحررين نسبيا من الميول الطائفية لارتباطهم بالمصالح المشتركة وبتشابه أساليب الحياة، ولأن المواطنين المعتنقين لكلتا الديانتين كانوا ينزعون إلى التحرر في تفسير مسائل العقيدة."(٤٦).

صحيح أن بعض الخلافات الدينية التي كانت تحتدم في المجالس الكلامية أثارت بعض التشدد من كلا الجانبين(٤٧) لكن الأمر لم يكن يشكل طابعا عاما، ويذهب برنارد لويس إلى اعتبار بعض المشادات الكلامية أو بعض العلاقات غير الممتازة بين المسلمين الأتراك واليهود خلال العهد العثماني أمرا يحكمه شعور "طبيعي" يحس به أفراد كل من الجماعتين المهيمنة والمهيمن عليها.(٤٨).

---

(٤٥) فارج وكورباج: مرجع سابق ص ١٨٥.

(٤٦) المجتمع الإسلامي والغرب ٢/٤٧٤.

(٤٧) عن بعض تلك الخلافات الدينية انظر بحث: Elisabeth Zachariadons : الحوار الديني بين البيزنطيين والاتراك خلال التوسع العثماني. مجلة الاجتهاد البيروتية ع ١٩٩٥/٢٨ ص١٣٧ وما بعدها.

(٤٨) *Juifs en terre d'Islam*, p 49.

ومن خلال كثير من الفتاوى الفقهية والوثائق التاريخية يتبين أن أهل الذمة في ظل الدولة العثمانية كانوا يتمتعون بحرية دينية تامة، إذ سمح لهم بإصلاح ما كان قائما من الكنائس والبيع إذا ما أصابها الخراب، ونظرا ليسر المذهب الحنفي في مسألة أحكام أهل الذمة فقد أجاز فقهاء الحنفية في العهد العثماني بناء كنائس ومعابد يهودية في القرى النائية التي لا تظهر فيها الشعائر الدينية.(٤٩).

وينقل لنا الفقيه ابن عظوم التونسي في فتاواه نوع التسامح الذي كان سائدا بين المسلمين والذميين في أرجاء الإيالة التونسية في عهد العثمانيين، وكيف شاهد الإسلام محنة تحدي المسيحية له في تونس في القرن السادس عشر، كما تقلص تأثيره في المناطق الصحراوية نتيجة انتشار الجهالة، وتنافرت مذاهبه ووزعت الأحقاد بين الناس، ولم يمنع ذلك المسلمين من التزام التسامح والتعايش مع الأديان الأخرى وإعطاء أصحابها حرية العقيدة وممارسة الطقوس الدينية وبناء المعابد والسماح للمنظمات الدينية بالسهر على مساندة من رقت ديانته وخاصة في الأوساط المسيحية... ويتمتع اليهود بنوع من الحكم الذاتي إذ لهم بيعهم وتنظيماتهم الاجتماعية والقضائية والثقافية، وقد تعزز مركزهم بمن وفد عليهم من يهود اسبانيا.(٥٠).

لقد كان من أبرز نتائج ذلك التعايش المشترك والتسامح الذي أبداه الرعايا المسلمون دخول كثير من الذميين في الإسلام متأثرين بالأخلاق الإسلامية وبروح السماحة السائدة مما لم يعرفوا له نظيرا من قبل.

يقول توماس ارنولد: "وبينما كان في المجتمع المسيحي في ذلك الحين ما يدعو إلى الصد والنفور كان في أخلاق الأتراك وحياتهم ما يبعث على التقريب والاجتذاب، ثم ينقل عن مؤرخ للعهد العثماني قوله: "تجد كثيرا من الإغريق من ذوي المواهب العالية والميزات الخلقية قد بلغ من تأثرهم بتفوق المسلمين أنهم حتى عندما كانوا يتجنبون الانخراط في خدمة السلطان بأداء ضريبة الأبناء كانوا يدخلون في دين محمد (صلى الله عليه وسلم) بمحض إرادتهم، و لابد انه كان لتفوق المجتمع التركي من الناحية الخلقية شأن كبير في هذا التحول إلى الإسلام الذي كان

(٤٩) الدعوة إلى الإسلام، ص ٨٤.

(٥٠) المجلة التاريخية المغربية، س ١١ ، ع ٣٣-٣٤/ ص١٥١.

كثير الوقوع في القرن الخامس عشر الميلادي بقدر ما كان للطموح الشخصي للأفراد من أثر في هذه السبيل."(٥١).

ويصف روبير منتران حياة الاسطنبولي اليومية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين فيقول: "لقد كان التركي المسلم قانعا بما عنده، يسعى إلى العيش حسب طاقته وإمكاناته، وكان حريصا على أن يكون على علاقة جيدة مع أصدقائه وجيرانه ولو كانوا غير مسلمين، فهو ليس متعصبا ولهذا لم نعثر على أي أثر لاعتراض أو معاداة للمسيحيين خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وبالمقابل فإن اليهود واليونان والأرمن من جهتهم كانوا يتجنبون كل ما قد يثير غضب المسلمين."(٥٢).

من جهة ثانية فقد عكس تعلم اللغة التركية من طرف الذميين مظهرا آخر من مظاهر التعايش المشترك حيث تخلوا عن لغاتهم الأصلية واندمجوا مع مواطنيهم المسلمين في كل شئ لا يفصل بعضهم عن بعض سوى اختلاف الأديان.

يقول روبير منتران: "لدى تأسيس الدولة العثمانية كان المسلمون والمسيحيون يتجاوبون في السوق، ومما سهل التعايش وجود أتراك متنصرين على الأرض البيزنطية، وصحيح أنهم ليسوا على دين واحد، إلا أنهم يتكلمون بلغة واحدة، وتشهد السجلات العثمانية التي ترجع إلى أواسط القرن الخامس عشر على جود مسيحيين لهم أسماء اصلها تركي".(٥٣) ويرى برنارد لويس(٥٤) أن اليهود الذين كانوا مستقرين بآسيا الصغرى وبالبلقان كانوا يتحدثون اللغة اليونانية فقط، لكن بعد انتقال الولايات التي يقطنونها إلى الحكم العثماني اكتسبوا لغة هؤلاء وأصبحوا يتحدثون بها مع مواطنيهم من المسلمين، وبقي الأمر كذلك إلى أن وفدت جموع اليهود المطرودين من اسبانيا أواخر القرن الخامس عشر، فاختلطوا بهم وأضحت اللغة التركية لغة التعامل السائدة، حتى إنه في كثير من الأحيان كان اليهود هم الذين يقومون بعملية الترجمة بين المسلمين الأتراك والتجار الغربيين الذين يفدون إلى الدولة العثمانية لمهام تجارية، وقد

---

(٥١) ارنولد: مرجع سابق، ص ١٩٨.

(٥٢) Robert Mantran: *La vie quotidienne à Istanboul au siècle de soliman le magnifique*, Hachette 1990 p 274.

(٥٣) روبير منتران: تاريخ الدولة العثمانية ٢٢/١.

(٥٤) B. Lewis: *Juifs*, p 136.

عرف عن هؤلاء اليهود شدة ولعهم بأمور التجارة وتبادل السلع حيث كانوا يعتبرون المرجع الأساسي للمسلمين في معرفة قيمة السلع المستوردة ومدى جودتها.

ومن مظاهر التعايش بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة أن هؤلاء أصبحوا أعضاء في طوائف الحرف الصناعية والتجارية جنبا إلى جنب مع المسلمين، وقد اشتهر المارانوس بوجه خاص بكونهم صانعي أسلحة الحرب، في حين اشتد انخراط آخرين في التجارة البرية والبحرية، كما ازداد الطلب على السفارديم المتخرجين من مدارس الطب في سلمنكا، وكان قدر كبير من المزايا التي تمتعوا بها حتى عام ١٧٠٠ ناتجا عن نفوذ أطباء البلاط، كما كان من المعتاد جدا أن يشغل اليهود وظائف المترجمين نتيجة لارتباطهم بأوربا ومعرفتهم بها[٥٥]، كما اشتغلوا على وجه الخصوص بالمسرح والطباعة حيث كانوا السباقين إلى إدخال مبادئهما إلى البلاد العثمانية. ولكل ذلك قوبل اليهود النازحون من اسبانيا بحماسة شديدة وتم تقديرهم واحترامهم لما جلبوه معهم من تقاليد ثقافية قيمة وصناعات مهمة، ولعل ما جعلهم يحظون بالاهتمام والتقدير كون حدث الطرد الذي طال المسلمين واليهود قد صادف سقوط إمارة غرناطة آخر معاقل الحكم الإسلامي بالأندلس.

لقد صرح مراقب بندقي عاش في القرن السادس عشر بأن هؤلاء النازحين من اسبانيا علموا ويعلمون الأتراك كل الفنون المفيدة، وان القدر الأكبر من الحوانيت والحرف في أيديهم وهم يقومون بالعمل فيها.[٥٦]

وفي ميدان التعاون والتبادل الثقافي والاجتماعي بين أتباع الديانات التوحيدية الثلاث يقول برنارد لويس: "خلال العهود الأولى كان المسلمون واليهود والنصارى يكونون بالرغم من اختلاف أديانهم مجتمعا واحدا نسجت في ظله أواصر الصداقة وتبادل الأعمال والمصالح وغيرها، وكانت هذه العلاقات جد شائعة، ونتوفر على وثائق عديدة تشهد بغنى التبادل الفكري والثقافي بين الطوائف الدينية الثلاث، إذ نجد في معاجم الطب التي كتبها المسلمون الأتراك ترجمات لأطباء مسلمين ومسيحيين ويهود مجتمعة من غير تمييز، وبفضل هذه الكتب نستطيع تكوين فكرة دقيقة عن نشاط الوظيفة الطبية في ذلك الوقت، وفي المستشفيات كما في الوظيفة

(٥٥) المجتمع الإسلامي والغرب ٤١١/٢.

(٥٦) المرجع السابق ٤٠٧/٢.

الخاصة كان أطباء الطوائف الدينية الثلاث يبذلون جهودهم مجتمعين، ويقرأ بعضهم كتب البعض الآخر ويتبادلون التلاميذ، فكان الوضع بعيدا عن التمييز الطائفي الذي كان يمثل القاعدة في الغرب المسيحي والذي انتقل فيما بعد إلى العالم الإسلامي."(٥٧).

يمكن القول إذن بأنه كان للحرية التامة التي كانت تنتقل وتنتشر بها الأفكار والسلع أثر كبير في توفير جو ملائم للتعايش والتفاهم لم يترك المجال للاختلافات الدينية كي تطفو على الساحة أو تثير أي إحساس بنوع من التمييز الطائفي أو التعصب الديني. نعم لقد تدهور الأمر في آخر عهود الدولة العثمانية عندما بدأ الضعف ينخر في كيانها حيث أمست وضعية الذميين تتدهور بدورها شيئا فشيئا، وهذا أمر طبيعي، لأن جميع المعادلات الاجتماعية والدينية تتخلخل بشدة ويصيبها الضعف، وقد أشار إلى هذه الحقيقة كثير من المؤرخين، فبرنارد لويس ربط تدهور حالة اليهود بتدهور الدولة العثمانية، سواء على المستوى السياسي أو الثقافي أو الاقتصادي(٥٨)، على أن الذي يمكن إثباته هو انه بتدهور حالة الدولة وضعفها استوى جميع السكان والأهالي في المعاناة وملاقاة المتاعب، فلم يكن أهل الذمة وحدهم الذين تدهورت أحوالهم، وبالتالي فإن الأمر قد ارتبط أساسا بضعف الدولة وليس بدعوى عدم التسامح أو اللجوء إلى سياسة الاضطهاد. يقول توماس أرنولد: "مما يثبت ان ما تحملوه (أي المسيحيون) من مشاق كان راجعا إلى فساد الحكومة أكثر منه إلى الاضطهاد الديني أن المسلمين والمسيحيين قد لاقوا المتاعب على حد سواء".(٥٩).

ونحن لا ننكر أن هناك أسبابا أخرى دفعت المسلمين أحيانا إلى الاستياء من أمر الذميين ومضايقتهم، من ذلك مثلا أنه في أوقات معينة كانت الوظائف العليا يتمتع بها أشخاص ذميون على حساب المسلمين، نعم لقد كانوا أكثر كفاءة وقدرة على تسيير وتدبير دواليب الإدارة وغيرها من المرافق الحكومية، إلا أن ذلك في نظر مواطنيهم المسلمين الذين يشكلون أغلبية سكان الإمبراطورية أمر غير منطقي إلى حد كبير، فكانت النتيجة كما يقول جب وبووين

(٥٧) B. Lewis: *Juifs*, p 74.

(٥٨) B. Lewis: Juifs p 165.

(٥٩) توماس ارنولد: مرجع سابق ص ١٨٠.

"ثورة المسلمين على هذا الاحتكار خلال فترة الاضمحلال"[٦٠] ومما لاشك فيه أن التسامح الإسلامي خاصة على المستوى الرسمي من جانب السلاطين العثمانيين هو الذي هيأ لكثير من الذميين مراكز قوية في النواحي المالية والإدارية. ففي مرحلة انحلال الإمبراطورية التي شهدت مضايقات الذميين من جانب المسلمين كان في إسطنبول عام ١٩١٢ حوالي أربعين من رجال البنوك كلهم من أهل الذمة، ولم يكن هناك أي واحد من المسلمين،[٦١] ومن خلال لائحة أخرى تضمنت عددا من أسماء الصرافين كان باسطنبول حوالي ٣٤ (منهم ١٨ يونانيا و٦ يهود و١٥ أرمن) ولم يكن بينهم أي مسلم.[٦٢] لقد اشتهر اليهود باحتلال مجمل مراكز التعامل التجاري مع الأوروبيين، كما كانوا يحتلون مراكز مهمة في إدارة الجمارك والأبناك.[٦٣]

ومن الأسباب التي دعت أيضا إلى حصول بعض حوادث السخط على الذميين تضخم الثروات لدى الكثيرين منهم وخاصة اليهود، وذلك بصورة أثارت الجماهير المسلمة التي كان يرى بعضها ان جل تلك الثروات قد جمعت بطرق غير مشروعة.

أما أكبر أسباب انعدام التسامح والتعايش في أواخر عهود الدولة العثمانية فهو اتهام المسلمين لمواطنيهم النصارى على وجه الخصوص بالتواطؤ مع الدول الأوروبية التي كانت تشن حروبا صليبية على الولايات العثمانية بغية استرجاع البلقان، كما كانت تنتظر ضعف الإمبراطورية للانقضاض على ممالكها، وبهذا اعتبر الذميون النصارى حلفاء للعدو الخارجي، على أن هذا الأمر لم يكن عاما، بل اقتصرت الاتهامات على مناطق محدودة، كما كان الشأن في سوريا وبعض البلدان المجاورة، نظرا لاجتياح البعثات التبشيرية، وكذا في مصر ضد الأقباط بعد حملة بونابارت. وفي عام ١٧٩٩ جرى ارتكاب اعتداءات على المسيحيين في دمشق انتقاما من دخول بونابارت إلى مصر، كما أن التمرد اليوناني عام ١٨٢١ ونزول الفرنسيين إلى الجزائر وغير ذلك من الأحداث التي أصيب فيها المسلمون بنكسات كان لها

(٦٠) المجتمع الإسلامي والغرب ٤٣٣/٢.

(٦١) كان منهم ١٢ يونانيا و١٢ أرمينيا و ٨ يهود.

(٦٢) B. Lewis: l'Islam et les non musulmans, in *Annales, E,S,C* (35 annèe) 1980-N°3-4 p796.

(٦٣) *EI²* art "Turks" Tome 4 p 1016.

وقد اشتهر من هؤلاء يوسف ناسي Joseph Nassy المقرب من السلطان سليم الثاني.

الأثر على العلاقات بين المسلمين والطوائف الدينية الأخرى. من جهة أخرى فإن الذميين اليهود لم يكونوا يعانون من هذا الاتهام بحكم عدم صلتهم بالدول الغربية التي كانت في جملتها مسيحية(٦٤) وضايقت اليهود على مدى عدة قرون، وهكذا يتبين إذن مما سبق أن وقوع أحداث التحرش بالذميين من طرف المسلمين كانت تحركها مشاعر السخط والغضب بين الطبقات الاجتماعية أكثر مما كانت تحركها المشاعر الدينية.

الجزية ومبدأ التسامح الديني: هل من تعارض؟

يذهب بعض الباحثين الغربيين إلى أن الجزية التي فرضها السلاطين العثمانيون على رعاياهم من أهل الذمة كانت ثقيلة ومرهقة وأنها كانت تخلق لدى هؤلاء نوعا من الحقد والبغض تجاه السلاطين(٦٥)، ويكاد يشترك جميعهم (أي الباحثون الغربيون) في القول بأن فرض هذه الضريبة كان الغرض منها إذلال أفراد تلك الطوائف الدينية المجبرين على أداء الجزية عن يد وهم صاغرون، ويبالغ بعضهم حين يتعسف في إيراد جداول وإحصاءات تبين مقادير تلك الضريبة ويعمل على التضخيم منها قصد الإيهام بأنها كانت ثقيلة جدا(٦٦)، هذا في الوقت الذي نجد فيه باحثين غربيين آخرين يؤكدون على تفاهة مقادير تلك الضريبة وأنها كانت رمزية فقط.(٦٧).

---

(٦٤) B. Lewis: *Comment l'Islam a découvert l'europe*, p100. وأنظر أيضا: *EI 2*, art "DHIMMA" Tome 2/236.

ويرى لويس كعادته في الإغراب والتأويل المتعسف أن سبب عدم مضايقة اليهود كانت بسبب حاجة الأتراك إلى مهاراتهم وكفاءاتهم، وكذا لمصالح اقتصادية كان اليهود يستطيعون وحدهم تحقيقها.

-*Annales E,S,C*,art cipté p785.

- *Comment l'Islam a découvert l'europe* p 101.

(٦٥) *Juifs en terre d'Islam*, p48.

(٦٦) هذا ما فعله برنارد لويس فيما يخص اليهود في بحثه الموسوم:

Notes and documents from the turkish Archives: a contribution to history of the Jews in the ottoman Empire, Jerusalem 1952.

وانظر بحثه: *L'Islam et les non musulmans* p789.

(٦٧) يمكن الاستشهاد بما ذكره أحد الألمان وقد أسره العثمانيون عام ١٣٩٦ ورجع إلى وطنه ميونيخ من ان الضريبة التي لم يكن بد من أن يدفعها مسيحيون لم تزد على جزءين من مائة من المارك الألماني، كما قرر شفر Scheffer الذي كان مولعا بتلوين حالة المسيحيين في ظل الحكم العثماني بأقتم ما استطاع من ألوان القتامة أن دوكة واحدة لكل رأس شيئ تافه.

بادئ ذي بدء نريد التأكيد على أن السلاطين العثمانيين عندما فرضوا أداء الجزية على الذميين الذين ينعمون تحت سلطانهم لم يكونوا في ذلك سوى معبرين عن التزامهم بتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية التي تفرض هذه الضريبة على كل ذمي مقابل التمتع بحقوق مهمة هي نفسها التي يتمتع بها المسلمون إلا في أمور محددة مستثناة، ولعل أبرزها تمتعهم بحماية الدولة من كل عدوان خارجي ومن كل ظلم داخلي حتى ينعموا بالأمان والاستقرار. ثم إن مقادير الجزية قد اختلفت حسب طبقات وطاقات الدافعين لها (ثلاث طبقات، كل طبقة تؤدي نصف ما على التي بعدها) فالطبقة الضعيفة والدنيا لا تؤدي سوى ربع ما يؤديه الموسرون، لذلك لا نرى مبررا لدعوى برنارد لويس بأن الجزية في عهد العثمانيين كانت ثقيلة على الضعفاء والفقراء.

من جهة أخرى فإن الذميين إذا كانوا يدفعون الجزية فلأنهم كانوا معفيين من الخدمة العسكرية وإن كانوا يعيشون في ظل الدولة، وإذا علمنا مدى اتساع رقعة الحروب والفتوحات التي خاضها العثمانيون في شتى الجهات والمناطق تبين لنا فضل الامتياز الذي حظي به الذميون في عدم المشاركة في الحرب التي يلزم المسلم فقط بأن يخوض غمارها دفاعا عنها، ويمكن القول بأن مظهر أداء الجزية مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية يبدو بشكل واضح حين تقرر عام ١٨٤٧ إصدار قانون يطلب من المسيحيين العثمانيين الانخراط في الخدمة البحرية العسكرية مع إعفاء المطلوبين من دفع الجزية، وحين ألغيت الجزية نهائيا بعد تسع سنوات (١٨٥٦) كان على الذميين بدلا من ذلك ان يدفعوا ضريبة خاصة بدلا من الخدمة العسكرية(٦٨). يقول توماس ارنولد: "لم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة (أي الجزية) على أهل الذمة كما يرمي إلى ذلك بعض الباحثين لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام وإنما كانوا يؤدونها في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين."(٦٩) وإذا كانت بعض التحليلات الغربية لمسألة الجزية في العهد العثماني تذهب بعيدا في إضفاء نوع من القتامة على طريقة جباية مستحقات الجزية، فيجب أن نعلم أن الأمر يرجع إلى ظلم بعض الأفراد الذين استغلوا مناصبهم الإدارية لابتزاز الأموال من أولئك الذميين الذين وقعوا تحت

---

(٦٨) *EI²*, art, Tanzimat, Tome 5.

(٦٩) توماس ارنولد: مرجع سابق ص ٧٩.

نفوذهم.(٧٠) وإذا كانت تلك المظالم التي تتنافى مع روح الشريعة السمحة تقع من حين لآخر، فقد كانت عامة على كافة الرعايا مسلمين أو ذميين، وهكذا فإنه إذا كان التعسف والابتزاز يقع على الذميين فيما يخص دفع الجزية وبعض الضرائب الأخرى فإن ذلك كان يقع أيضا على المسلمين فيما يخص دفع الضرائب المختلفة، وهو ما يدل على ان ما تحمله الذميون من مشاق ومتاعب كان راجعا إلى عهد فسد فيه الجهاز الإداري والجبائي المتحكم في جمع أموال الضرائب أكثر منه إلى الاضطهاد الديني، ويمكن اعتبار الأمر شيئا طبيعيا في كل مجتمع.

لقد ذكر وليام فورسيث W. Forsyth إبان القرن التاسع عشر أنه: "من الخطأ أن نزعم ان المسيحيين وحدهم هم الطائفة المظلومة البائسة من الأهالي، فقد كان فساد الإدارة الحكومية التركية شاملا يرزح تحت ثقله جميع الناس على السواء، وربما كان بؤس المسلمين في بعض أنحاء المملكة أسوأ حالا في الواقع من بؤس المسيحيين، وإنما كانت حالة المسيحيين هي التي أثارت أكثر من غيرها شفقة الرحالة."(٧١).

ويقول De la Jonquiere : "خيل إلى أوربا ان المسيحيين وحدهم الذين يذعنون في تركيا للاستبداد والعذاب والهوان الذي نشأ عن التعسف، لم يكن هذا مطلقا، فما من قوة أجنبية كانت تعنى بأمر المسلمين، ومن ثم ربما كان الغبن الواقع عليهم أشد وتعرضهم لحمل نير الظلم أكثر مما تعرض له هؤلاء الذين لا يؤمنون بالنبي."(٧٢).

وعلى الجملة فايا كانت تلك المتاعب التي لم يكن بد من ان يتجشمها الذميون فقد كان من الصعب على السلاطين العثمانيين تبديدها والسيطرة عليها، فالسلطة المركزية في اسطنبول لم يكن لها سوى سلطان فعلي ضئيل على كل أرجاء الإمبراطورية العثمانية. وبذلك كان الظلم اليسير الذي يحدثه بعض جباة الجزية والذي كان يفرز أحيانا أحقادا من جانب أبناء الملل الأخرى يشكل حالات معزولة يمكن أن تحدث في ظل أي حكم أو سلطان أينما كان، ولا يخفى

---

(٧٠) نشير في هذا الصدد إلى أن المبدأ الإسلامي المفروض تطبيقه ينص على وجوب إظهار جباة الجزية للشفقة بأهل الذمة بوجه خاص، فلا يظلموهم ولا يؤذوهم في المعاملة ولا ينزلوا بهم عقابا جسمانيا إذا لم يؤدوا الجزية. (الخراج لأبي يوسف ص٦٩-٧٠، وانظر كتاب الاستخراج لأحكام الخراج لابن رجب).

(٧١) نقلا عن كتاب ارنولد السابق ص١٨٠.

(٧٢) A, De la Jonquière: *Histoire de l'empire Ottoman*, Paris 1881 p507.

أن هذا المشكل قد اختفى تماما عندما تم إسناد أمر جباية أموال الجزية والضرائب إلى رؤساء الطوائف الدينية وبطاركتهم.

ولا ننسى في هذا الصدد ما أحدثه مرسوم گلخانه السلطاني الصادر في الثالث من نوفمبر ١٨٣٩ من انعطافة كبرى في مجال التخفيف من الضرائب المالية بشكل أكبر على أبناء الملل، فقد كانت الحركة الإصلاحية المعروفة باسم (التنظيمات) في سبيل إنقاذ الإمبراطورية من بعض مظاهر الضعف الذي أصابها تحاول معالجة كل القضايا التي أدت إلى إضعاف الدولة. وكان أبرز عمل تخلل نظام التنظيمات هو إخضاع جميع الرعايا لقانون موحد يهدف إلى إحداث صيغة جديدة لمفهوم المواطنة في ظل الحكم العثماني، وذلك عن طريق تقديم تنازلات بضمان المساواة مع المسلمين في مجال الضرائب نزولا على الضغوط ونفوذ المبادئ السياسية الأوروبية في ذلك الوقت، حيث كان طلب إلغاء الخراج على الذميين ملحا من طرف الدبلوماسيين الغربيين المقيمين في اسطنبول، وهكذا أتاح فرمان ١٨٥٦ إصلاحا جذريا في هذا المجال، حيث تم إلغاء ضريبتي الخراج(٧٣) والجزية وفرض ضريبة أخرى (البدل العسكري) على غير المسلمين مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية.(٧٤)

من جهة أخرى فإن السلاطين العثمانيين لم يفرضوا الجزية سوى على القادرين على حمل السلاح من الرجال، فلم يوجبوها على امرأة ولا صبي ولا شيخ لأنهم ليسوا أهل قتال، وكذلك استثني من أداء الجزية المسكين الذي يتصدق عليه والشيخ الفقير الفاني الذي لا يستطيع العمل، وهذا يدل على أنه لم تكن هناك فئة من الذميين قد وقع عليها القهر بأداء الجزية كما ذهب إلى ذلك برنارد لويس حين قال بأن الطبقات الأكثر فقرا كانت تعاني من شدة ثقل أداء الجزية عليها(٧٥)، وقد نص هاملتون جب وهارولد بووين على أنه كان يعفى من دفع الجزية القادرون على كسب قوتهم دون أن يصيبوا في ذلك نجاحا كبيرا، بحيث لا يمكنهم دفعها إلا

---

(٧٣) من الواضح أن كلمة "خراج" في الاستعمال العثماني تدل في آن واحد على الضريبة العقارية والضريبة المفروضة على الرؤوس الذمية، وفي بعض الوثائق كان لها نفس مفهوم الجزية، في حين أن مفهوم الخراج العام هو الضريبة على الأرض.

(٧٤) *EI*², art "Kharaj" Tome 5 p1086.

(٧٥) B. Lewis in *Annales, E.S.C*, art cité p796.

بصعوبة، مما ينفي وجود قهر مالي على أي شخص كان من الذميين.(٧٦) ومن سماحة السلاطين العثمانيين أنهم قرروا أن لا جزية على الراهب المتنسك المنقطع للعبادة، وإذا كان المبدأ الإسلامي يعفي الرهبان الذين ليسوا من أهل اليسار دون غيرهم أو الذين يعيشون في أديرة لا تخصص لها أوقاف كافية فإن هذا الشرط في العهد العثماني كان أكثر مرونة، بحيث شمل كل رجال الدين على اختلاف أحوالهم.

ويجب أن لا نغفل في هذا الصدد أن السلاطين العثمانيين كانوا يعفون من أداء الجزية أولئك الذميين الذين دخلوا في خدمة الجيش الإسلامي، مثال ذلك ما عومل به أهل ميغاريا Megaris وهم جماعة من مسيحي ألبانيا حيث أعفوا من أداء الجزية شريطة ان يقدموا جماعة من الرجال المسلمين لحراسة الدروب على الجبال الواقعة على التخوم، كما كان المسيحيون الذين استخدموا طلائع لمقدمة الجيش التركي لإصلاح الطرق وإقامة الجسور قد أعفوا من أداء الخراج ومنحوا هبات من الأرض معفاة من جميع الضرائب، وكذلك لم يدفع أهالي Hydra المسيحيون ضرائب مباشرة للسلطان وإنما قدموا في مقابلها فرقة من مائتين وخمسين من أشداء رجال الأسطول التركي كان ينفق عليهم من بيت المال في تلك الناحية، وقد أعفي من الجزية أيضا أهالي رومانيا الجنوبية وكانوا يؤلفون عنصرا هاما من عناصر القوة في الجيش التركي خلال القرنيين السادس عشر والسابع عشر، وبتلك الروح ذاتها لم تقرر جزية الرؤوس على نصارى الإغريق الذين أشرفوا على القناطر التي أمدت اسطنبول بماء الشرب ولا على الذين كانوا في حراسة مستودعات البارود في تلك المدينة نظرا لما قدموه للدولة من خدمات عسكرية (٧٧).

وهكذا يتبين لنا ان السلاطين العثمانيين كانوا متسامحين مع رعاياهم من أبناء الملل الأخرى في إشراكهم مع المسلمين في القتال والدفاع عن دار الإسلام، وهذه الاستثناءات يوجد

---

(٧٦) المجتمع الإسلامي والغرب ٤٦٨/٢ وراجع: EI², - Tome 2 p 577

(٧٧) توماس ارنولد: مرجع سابق ٨٠-٨١.

لها نظير في التاريخ الإسلامي المبكر كما نصت على ذلك بعض العهود والمواثيق التي أبرمت بين المسلمين وأهل الذمة وخاصة في عهد الخليفة عمر (رضي الله عنه)(٧٨).

ويمكن القول أيضا إنه بفضل هذه المرونة في جباية مستحقات الجزية لم يعد يدفعها في عهد العثمانيين سوى عدد يتراوح بين الثلث والنصف من السكان الذميين.(٧٩).

بالمقابل لا ننكر أن نوعا من اللامبالاة وعدم التقدير كان يطال عملية جباية أموال الجزية من الطوائف الدينية فيما يخص المقدار المطلوب من كل واحدة منها، إذ لم يتم مراعاة عدد الأفراد المنضوين تحت لواء كل طائفة أو ملة، وبذلك طلب من كل واحدة في كل مقاطعة أن تدفع مقدارا يحدد سنويا حتى لو نقصت أعداد السكان الذميين، وهو ما كان يقع مرارا في مختلف أرجاء الإمبراطورية، فكان كلما نقص عدد السكان تضاعف المبلغ المفروض على كل رأس، ويعتبر هذا من أكبر الأسباب التي جعلت بعض الطوائف الدينية أو الملل يبدون نوعا من السخط والتذمر تجاه الحكام والولاة والجباة. والواضح أن هذا يخالف تعاليم الشريعة الإسلامية التي نصت على وجوب أخذ الجزية عن كل رأس ذمي بالغ، فيبقى بذلك المقدار المحدد ثابتا لا يتغير بوفاة الأشخاص أو نقص أعدادهم، ولقد أثير هذا الأمر كإشكالية في كتب فقهاء الدولة العثمانية.

ختاما نؤكد مرة أخرى على أن التسامح الديني كان يخيم بظلاله على عهد الدولة العثمانية في أزهى صورة، فالذميون كانوا منخرطين بصفة طبيعية وتلقائية في المجتمع الإسلامي - العثماني. كما أن السلاطين العثمانيين قد أبانوا عن روح متسامحة مع جميع رعاياهم كيفما كانت خلفياتهم الدينية والعرقية، كما أن روح التسامح التي شاعت في المجتمع العثماني قد سمحت بظهور تأثير متبادل بين المسلمين والذميين وذلك بفضل التعامل التلقائي الذي فرضه وجود مشترك على أرض مشتركة.

---

(٧٨) أنظر كتاب "أحكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام" للدكتور عبد الكريم زيدان ص ١٥٥ ، وراجع "فتوح البلدان" للبلاذري ص١٥٩ حيث أورد مسألة الصلح مع قبيلة الجراجمة وهي قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار انطاكية سالمت المسلمين وتعهدت أن تكون عونا لهم وأن تقاتل معهم في مغازيهم شريطة ألا يؤاخذوا بالجزية وأن يعطوا نصيبهم من الغنائم.

(٧٩) المجتمع الإسلامي والغرب لهاملتون جب وهارولد بووين ٤٦٩/٢ ، وراجع كتاب: فيليب فارج ويوسف كورباج السالف الذكر ص ١٩٤.

وإذا كانت بعض الكتابات الغربية قد حاولت صياغة التاريخ الديني للدولة العثمانية في صورة مظلمة وقاتمة متهمة إياها بالتعصب والسنية المتشددة لكثير من سلاطينها ورعاياها المسلمين، فإن ذلك لا يؤثر في شئ على الصورة العامة المشرقة التي أنتجها المشروع العثماني، وأعطى بذلك مثالا ناصعا لواقع حضاري متعايش ظهرت أبرز تجلياته في التأثيرات المتبادلة والمشتركة بين المسلمين ومواطنيهم من الذميين...

المطبوعات التركية العثمانية في مصر
(١٢٣٩- ١٣٣٣هـ/ ١٨٢٣ - ١٩١٥م)
دراسة ببليومترية تحليلية

الأستاذ الدكتور محمد عبد اللطيف هريدي
آداب عين شمس - القاهرة

مقدمة

لاشك أن المطبوعات هي الأوعية التي تضم الإنتاج الفكري والثقافي للأمم، وهي لسان حالها، وتقاس حضارةُ الأمم بما خلّفت من تراث في عالم الكتب والمكتبات، ولقد خلفت الدولة العثمانية رصيدا هائلا من هذا التراث وهو موزع على البلدان التي حكمتها والتي كانت تمثل ثلث العالم القديم (أي باستثناء الأمريكيتين).

إذا طالعنا قوائم هذا التراث المدون باللغة التركية العثمانية[١] نجد القاهرة تأتي بعد إستانبول - العاصمة- من حيث حجم هذا التراث وأهميته وذلك لاعتبارات عديدة لا يتسع المجال لذكرها، ولكن مما لاشك فيه أن القاهرة- بما لها من ثقل حضاري وديني - كانت من أهم مراكز الإشعاع الثقافي في العهد العثماني. ومن هنا

(١) على سبيل المثال يضم فهرس المطبوعات التركية في دار الكتب ما يربو على ٤٥٠٠عنوان، كما يضم فهرست المخطوطات الموجودة بنفس الدار أكثر من ٦٠٠٠ مخطوطة، انظر: الفهارس التي أعدها الأستاذ نصر الله مبشر الطرازي الصادرة عن الهيئة العامة للكتاب، المطبوعات القاهرة، ١٩٨٢ والمخطوطات (١٩٨٧-١٩٩٠). أضف إلى ذلك عشرات الجرائد والمجلات وسنفرد لها دراسة خاصة إن شاء الله.

تأتي أهمية ما كان يصدر عنها من مطبوعات تركية؛.ومن ثم يمكن من خلال استقراء قائمة هذه المطبوعات تحقيقُ عدةِ أهدافٍ من أهمها:

١- رصد الظواهر الفكرية والاجتماعية والسياسية.

٢- الحصول على قاعدة معلومات مهمة عن الإنتاج الثقافي في العهد العثماني.

٣- رصد الدور الثقافي للقاهرة العثمانية.

ولتحقيق هذه الأهداف كان لا بد من إتمام الخطوات التالية:

أ- حصر المطبوعات التركية العثمانية الصادرة في الفترة الزمنية موضوع الدراسة؛ أي من عام ١٢٣٩هـ/١٨٢٣م إلى عام ١٣٣٣هـ/١٩١٤م وهي الأكثر ازدهارا بالنسبة لها.

ب- ضبط هذه المطبوعات، ضبطا ببليوجرافيا.

ج- تصنيف المطبوعات طبقا لموضوعاتها، وبما يحقق أهدافَ البحثِ.

د- رصد وتحليل الظواهر الفكرية والاجتماعية والسياسية من خلال عناوين هذه المطبوعات أو تحليل مقدماتها.

ولإتمام هذه الخطوات تم حصر المطبوعات من خلال الفهارس وقوائم المكتبات المختلفة(٢)، كما تم تصنيفها تصنيفا موضوعيا طبقا للعناوين (٣).

ولذلك ينقسم البحث إلى قسمين رئيسيين :

القسم الأول : وهو الدراسة التحليلية لقوائم المطبوعات، وتشتمل بدورها على الأجزاء التالية:

---

(٢) اعتمدنا في ذلك على فهرس المطبوعات التي تقتنيها دار الكتب والسابق ذكره في (ح ١)إلى جانب الفهارس والكتب التالية:

١- فهرس الكتب التي طبعت بالمطبعة الأميرية، بولاق، ١٢٦٦/١٨٤٩م.

٢- فهرس الكتب الموجودة بمكتبة صالح أفندي، بولاق، " "

٣- فهرست الكتب الموجودة بالكتبخانه الخديوية، المطبعة العثمانية، ١٣٠٦/١٨٨١م.

٤- فهرس مكتبة جامعة القاهرة.

٥- أبو الفتوح رضوان، تاريخ مطبعة بولاق، القاهرة،

(٣) جاء تقسيم العناوين على الموضوعات التي تخدم أهداف الدراسة.

(١) تمهيد، وهو نبذة مختصرة عن نشأة الطباعة في مصر وباكورة إنتاجها.

(٢) ملاحظات عامة على قوائم المطبوعات.

(٣) الظواهر التي يمكن رصدها من خلال هذه القوائم.

وقد استعنا خلال هذه التحليلات بالجداول الاحصائية والرسوم البيانية

القسم الثاني : ويشمل قوائم المطبوعات وقد تم تصنيفها كالتالي:

القائمة رقم (١) وقد أدرجت بها كل المطبوعات أو الأوعية وهي بصفة عامة لا يقل عدد صفحات المطبوع منها عن ٤٠ صفحة، وقد صنفت تصنيفا موضوعيا في ضوء أهداف الدراسة، كما كان المفتاح بعد الموضوع هو اسم الكتاب ثم المؤلف ثم المترجم أو الشارح- إن وجد- ثم اسم المطبعة وتاريخ الطباعة.

القائمة رقم (٢) وقد ضمت الأعمال المترجمة وقد قسمت إلى :

أ- كتب مترجمة عن العربية.

ب- كتب مترجمة عن الفارسية.

ج- كتب مترجمة عن اللغات الأوروبية وقد اكتفينا في هذه القائمة بذكر اسم الكتاب ، ثم المؤلف، ثم المترجم.

القائمة رقم (٣) وتشمل الكتب المشروحة، وقد أدرج بها اسم الكتاب، ثم المؤلف، ثم الشارح.

القائمة رقم (٤) وتضم أسماء المؤلفين او جهات الإصدار بالنسبة للمطبوعات الحكومية.

القائمة رقم (٥) وتضم اسماء المترجمين.

القائمة رقم (٦) " " الشارحين.

القائمة رقم (٧) وتضم المطبوعات الرسمية مرتبة طبقا لسنوات صدورها ترتيبا زمنيا.

القائمة رقم (٨) وتضم المطبوعات الخاصة بأعضاء تركيا الفتاة مرتبة طبقا لسنوات صدورها.

وأخيرا نأمل أن تتحقق الأهداف المرجوة من هذا البحث وأن يكون خطوة تعقبها خطوات في سبيل تحليل كل أنواع التراث العثماني في البلاد العربية. والله ولي التوفيق.

القسم الأول : الدراسة التحليلية:

تمهيـــد:

يرجع تاريخ الطباعة في مصر إلى عهد الحملـــة الفرنسـية عـام ١٢١٣هـــ/١٧٩٨م حيث استغلت الحملة المطبعة التـــي جلبتـــها معـــها فـــي طباعـــة المنشـــورات والبيانـــات السياســـية والعســـكرية، ولكـــن هـــذا النشـــاط توقـــف بانســـحاب الفرنســـيين عـــام ١٢١٦هـــ/١٨٠١م، وظلـــت مصـــر بـــلا مطبعـــة حتـــى مجـــيء محمـــد علـــي باشـــا (١٢٢٠هــ- ١٢٦٤هـــ)(١٨٠٥م/١٨٤٨م) حيـــن أمـــر بإنشـــاء المطبعـــة الأهليـــة فـــي بولاق عام ١٢٣٧هــ/١٨٢١م وظهرت أولـــى مطبوعاتـــها بعـــد ذلـــك بعـــامين، وكـــانت تعمل بحروف عربية وتركيـــة فضـــلا عـــن الإيطاليـــة واليونانيـــة [٤]. وقـــد ظلـــت هـــذه المطبعة تعمل بلا كلل طوال أكثر من تسعين عامـــا. ومـــن المعـــروف أن اللغـــة التركيـــة كانت اللغة الرسمية في مصر آنـــذاك [٥] ولذلـــك طبـــع أول كتـــاب فـــي مطبعـــة بـــولاق باللغة التركية، وجاء منسجما مع مشروعات محمـــد علـــي وطموحاتـــه؛ فقـــد كـــان لتعليـــم الجيش المصري أصـــول التدريـــب علـــى وضـــع الألغـــام وصناعـــة القنـــابل " خمـــبره جدولـــي"[٦].

أما جريدة "الوقائع المصرية " التي تمثل المرحلـــة الثانيـــة مـــن تـــاريخ الطباعـــة فـــي مصر فقد جاءت لتؤكد على أن اللغة التركيـــة هـــي اللغـــة الرسـمية للبـــلاد، إذ صـــدرت

(٤) يتضح الاهتمام بالمطبوعات التركية منذ إنشاء هذه المطبعة حيث بلغ عـــدد الصـــافين الأتـــراك فيـــها اثنـــى عشـــر عاملا، انظر: جرجى زيـــدان، تـــاريخ الآداب العربيـــة، دار الـــهلال(د.ت.) ج٤ ص ٤٦.

(٥) وقد ظلت كذلـــك حتـــى عـــهد الخديـــوي إسـماعيل (١٢٨٠هــــ-١٢٩٦هــــ) (١٨٦٣-١٨٧٩م) حيـــن أصـــدر مرسوما بتعريب الدواوين وكافة المعاملات الرسمية فـــي ١٤ شـــوال ١٢٨٦هــــ/١٨٧٠م، انظـــر: جاك تاجر، حركة الترجمة في مصر في القـــرن التاســـع عشـــر، القـــاهر، (د.ت.)، ص ٨٠/٨١.

(٦) أنظر رقم ١٣٠ من القائمـــة رقـــم (١).

الأعداد الأولى منها باللغتين العربية والتركية حيث كانت الصفحة مقسمة إلى نهرين أحدهما بالتركية والآخر عبارة عن الترجمة العربية لنفس الموضوعات(٧).

انطلقت المطبعة الحكومية في بولاق ثم أعقبتها المطابع الخاصة لتضخ آلافا من الكتب التركية العثمانية في شتى الموضوعات رغم صدور قرار الخديوي إسماعيل بتعريب الدواوين والمراسلات الرسمية عام ١٢٨٦هـ/١٨٧٠م مما يدل على أن الهدف من هذه المطبوعات لم يكن رسميا فقط بل كانت تأتي تلبية لاحتياجات القراء وسنحاول من خلال تحليل قوائم المطبوعات أن نتعرف على أهم هذه الاحتياجات، كما سنحاول رصد ما يمكن رصده من الظواهر الثقافية والسياسية والأدبية.

أولا: ملاحظات عامة على القوائم

١- التوزيع السنوى للمطبوعات

عندما نستعرض سنوات صدور قائمة المطبوعات نلاحظ ما يلي:

أ- أن نشاط الطباعة بلغ ذروته في سنوات الإصلاح الإداري والسياسي، أي بين عامي ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م و ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م، وأن جل ما طبع في هذه السنوات كان صادرا عن مطبعة بولاق الحكومية.

بلغت المطبوعات أدنى معدل لها في أواخر عهد الخديوي إسماعيل وبداية الاحتلال الإنجليزي لمصر، أي بين عامي ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م و ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م، وتفسير ذلك يكمن في السياسة التي انتهجها الخديوي إسماعيل مثل تعريب الدواوين والمراسلات الرسمية، وتضييق الخناق أحيانا على المعارضة التركية العثمانية في مصر، وبعد هذا الانخفاض الشديد في المعدل عاودت حركة المطبوعات نشاطها مرة أخرى نتيجة لنشاط حركة المعارضة ضد السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٢-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م)، وكان ذلك بين عامي ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م و ١٣٢٩هـ/١٩١١م.

---

(٧) صدرت عام ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م ومن المرجح أن الأصل كان بالتركية ، انظر : جاك تاجر، نفس المرجع السابق، ص ٤٠.

السنوات	عدد المطبوعات
١٢٣٩-١٢٤٨/١٨٢٣-١٨٣٢	٥١
١٢٤٩-١٢٥٨/١٨٣٣-١٨٤٢	١٠٨
١٢٥٩-١٢٦٨/١٨٤٣-١٨٥١	٤٩
١٢٦٩-١٢٧٨/١٨٥٢- ١٨٦١	٢٧
١٢٧٩-١٢٨٨/١٨٦٢- ١٨٧١	٢٧
١٢٩٠-١٢٩٩/١٨٧٣-١٨٨١	١٨
١٣٠٠-١٣٠٩/١٨٨٢-١٨٩١	٢٣
١٣١٠-١٣١٩/١٨٩٢-١٩٠١	٢٤
١٣٢٠-١٣٢٩/١٩٠٢-١٩١١	٤٦

معدل الطباعة كل عشر سنوات جدول رقم (١)

٢- التوزيع السنوي واللغوي للمترجمات

أظهرت الدراسة أن نسبة المؤلفات تزيد عن المترجمات بدرجة كبيرة، إذ بلغت الأولى ٧٣,٨%، أما الثانية فقد بلغت ٢١,٧% وجاءت المشروحات في ذيل القائمة[٨]. ومن الجدير بالملاحظة أن حركة الترجمة قد تميزت بالنشاط في بداية حركة الإصلاح للأسباب التي ذكرناها من قبل وعادت للنشاط نسبيا في مطلع القرن العشرين، ويأتي ذلك النشاط متمشيا مع نشاط أعضاء جمعية تركيا الفتاة من دعاة التغريب (انظر جدول رقم ٢).

النوع	العدد	النسبة المئوية	ملاحظات
المجموع الكلي	٣٨٢	%١٠٠	
المؤلفات	٢٨٢	%٧٣,٨	
المترجمات	٨٣	%٢١,٧	
المشروحات	١٧	%٤,٤	

جدول رقم (٢)

(٨) انظر جدول رقم (٢).

ويتضح من جدول رقم (٣) أن الترجمة عن اللغة العربيـة تـأتى فـى مقدمـة اللغـات المترجم عنها وذلك بسبب المؤلفات العربيـة ذات الموضوعـات الإسـلامية.

اللغة	العدد	النسبة المئوية	ملاحظات
المجموع الكلي	٨٣	١٠٠%	
العربية	٣٥	٤٢,١%	
الفارسية	١٤	١٦,٨%	
الأوروبية	٣٤	٤٠,٩%	

جدول رقم (٣)

٣- التوزيع الموضوعي للعنـاوين

بلغ عدد العناوين التي شملتها القائمة ٣٨٢ عنوانـا. وهـي كمـا يظـهر فـي جـدول (٤) تأتى آداب اللغات فـي المقدمـة حيـث بلغـت نسـبتها ٢٦,٧% تليـها موضوعـات القوانين والنظم ٢١,٢% ثم التاريخ والجغرافيا والمعارف الإسـلامية(٩) . وقـد جـاء هـذا التوزيع انعكاسا طبيعيا للمرحلة التي كانت تعيشها الدولة العثمانيـة فـي النصـف الأخـير من القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشـر الميـلادي؛ فقـد كـانت مرحلـة التنظيمـات والتجديد في الأدب، حين بدأ الأدباء يدركون الوظيفـة الاجتماعيـة لـلأدب، كمـا نشـطت حركة الترجمة عن الآداب الغربية، ولذلـك جـاءت قائمـة المطبوعـات مصداقـا للواقـع حيث كان جل اهتمـام الحكومـة العثمانيـة فـي إسـتانبول تطبيـق مرسـوم التنظيمـات الخيرية ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م، كذلك كانت الحكومة المصريـة فـي القـاهرة تعيـش سلسـلة الإصلاحات الإدارية والعسكرية والاقتصادية التي بدأها محمـد علـي باشـا(١٠).

(٩) انظر جدول رقـم(٤) .

(١٠) لمزيد من التفاصيل حول هذه الموضـوع انظـر:

هنرى دودويل، محمد علي مؤسس مصر الحديثة، أحمد عبـد الخـالق بـك ، القـاهرة ، د.ت.

الموضوع	عدد العناوين	النسبة المئوية	ملاحظات
المجموع الكلي	٣٨٢	١٠٠%	
المعارف الإسلامية	٥٥	١٤,٧%	
القوانين والنظم	٧٩	٢١,٢%	
اللغات	٢٩	٧,٧%	
الآداب	٩٧	٢٦,٧%	
التاريخ والجغرافيا	٦١	١٦,٣%	
العلوم التطبيقية والفلك	١٩	٥,١%	
الفلسفة والأخلاق	٩	٢,٤%	
العلوم الاجتماعية	٨	٢,١	
المعارف العامة والفهارس	٧	١,٨%	
موضوعات أخرى	١٨	٤,١%	

جدول رقم (٤)

٤- التوزيع اللغوي للآداب

بينت الدراسة – كما يظهر من جدول (٥) أن كتب الأدب التركي قد تصدرت قائمة الآداب؛ فقد بلغت نسبتها ٨١,٤%[١١] وهذا أمر طبيعي لتلبية حاجة الأتراك المقيمين في مصر آنذاك في الإطلاع على الأعمال الأدبية لكبار الأدباء الأتراك من ناحية، ولحاجة الأدباء الذين يريدون التعبير عن أنفسهم بالتركية من ناحية أخرى . ولكن من الجدير بالملاحظة أن نسبة ما ترجم عن الآداب الأوروبية يفوق ما ترجم عن اللغة العربية. ويأتي ذلك انعكاسا لانفتاح الأدباء الأتراك على الآداب الأوروبية آنذاك ولاسيما من كانوا يرتادون تيار التغريب.

(١١) انظر جدول رقم (٥).

الأدب	العدد	النسبة المئوية	ملاحظات
المجموع الكلي	٩٧	%١٠٠	
الأدب العربي	٥	%٥,١	
الأدب التركي	٧٩	%٨١,٤	
الأدب الفارسي	٥	%٥,١	
الآداب الأوروبية	٧	%٧,٢	
آداب أخرى	١	%١,٠٣	

جدول رقم (٥)

٥- التوزيع النوعي لفنون الأدب التركي :

يظهر من قائمة الأدب التركي[١٢] جدول رقم (٦) غلبة الشعر على غيره من الفنون، وليس ذلك بمستغرب لما لهذا الفن من أثرة، وجذور عميقة ليس في الأدب التركي فحسب بل في كل الآداب الشرقية، أما الملاحظة الثانية فهي كثرة كتب المقالات وهذا يفسره لنا نشاط المعارضة من الأدباء الذين كانوا ينشرون مقالاتهم في الجرائد والمجلات ثم يجمعونها في كتاب وهناك عدد لا بأس به من القصص والمسرحيات.

الفن	العدد	النسبة المئوية	ملاحظات
المجموع الكلي	٧٩	%١٠٠	
الشعر	٤١	%٥١,٨	
القصة والمسرحية	٨	%١٠,١	
المقال	١٥	%١٨,٩	
الإنشاء والمنتخبات	١٢	%١٥,١	
فنون أخرى	٣	%٣,٧	

جدول رقم (٦)

(١٢) انظر القائمة رقم (١) ص ٣٥ وما بعدها.

٦- توزيع المطبوعات على دور الطباعة :

إذا نظرنا إلى الجدول رقم (٧) وجدنا أن غالبية المطبوعات كانت فى مطبعة بولاق، وهذا أمر طبيعي نظرا للعدد الكبير الذي تضمنته القائمة من المطبوعات الحكومية، فضلا عن ذلك فقد كانت هذه المطبعة تتمتع بالدعم الحكومي.

دار الطباعة	عدد العناوين التي طبعت بها	النسبة المئوية
بولاق	٢٦٢	%٦٨,٥
مطبعة الاجتهاد	٢٣	%٦,٠
مطبعة وادي النيل	٧	%١.٨
مطبعة هندية	٧	%١,٨
المطبعة العثمانية	٦	%١,٥
مطبعة الجهادية	٦	%١,٥
مطبعة المعارف	٥	%١,٣
مطابع أخرى	٦٦	%١٧,٥

جدول رقم (٧)

ثانياً: الظواهر السياسية والفكرية والأدبية:

عند استقراء قائمة المطبوعات يمكن رصد عدة ظواهر لعل من أهمها:

١- شكل العلاقة الرسمية بين الحكومة المصرية والحكومة المركزية في استانبول:

أشرنا من قبل إلى نشاط حركة المطبوعات الحكومية نتيجة لكثرة إصدار القوانين واللوائح والتعليمات التي كان تستهدف تنظيم الحياة الإدارية والمالية والعسكرية[١٣]. وبقدر ما كان هذا النشاط يدل على اهتمام الحكومة بالكتاب باعتباره وسيلة لتنفيذ الإصلاحات، بقدر ما كان مؤشرا نتابع من خلاله علاقة الحكومة المصرية بالباب

(١٣) قمنا بإحصاء عدد النسخ المدرجة في فهرس مكتبة المطبعة الأميرية والتي طبعت في نفس المطبعة حتى عام ١٢٦٦هـ/١٨٤٩م فوجدناها تربو على ٢٥٠٠٠ كتاب.

العالي في إستانبول، فمن المعروف أن طموحات محمد علي باشا والي مصر قد دفعت به إلى التمرد والجنوح إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية، ولكنه في أواخر عهده اقتنع بتحسين علاقته بالسلطان العثماني وأمعن خلفه عباس الأول (١٢٦٤-١٢٧٠هـ/١٨٤٨-١٨٥٤م) في هذه السياسة حتى كاد يعود بها إلى التبعية الكاملة، وعادت العلاقة إلى الجفاء في عهد سعيد باشا (١٢٧٠-١٢٨٠هـ/١٨٥٤-١٨٦٣م). وفي عهد الخديوي إسماعيل وخلفائه كانت العلاقات تتأرجح بين التحسن والتوتر[١٤]. فإذا نظرنا إلى جهة إصدار المطبوعات الرسمية نجدها انعكاسا صادقا لهذه العلاقات، ففي الفترة من عام ١٢٣٩هـ/ ١٨٢٣م إلى عام١٢٧١هـ/١٨٥٤م طبع ٤٩ كتابا بينهم ١٤ فقط يحملون إصدار (الدولة العلية العثمانية) وفي الفترة من عام ١٢٧١هـ/ ١٨٥٤م إلى عام ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م طبع ٢١ كتابا بينهم ٣ فقط يحملون إصدار (الجهادية المصرية).

وهكذا نرى أن الفترة الأولى تعد فترة عدم الاستقرار ولكنها إلى القطيعة أقرب، أما الفترة الثانية فهي تعبير عن الاعتراف المطلق بالسيادة العثمانية حتى جاء الاحتلال الإنجليزي، فتوقفت الإصدارات الحكومية تماما.

٢- نشاط المعارضة ضد الحكومة المركزية

لم تفقد القاهرة - على مدى التاريخ - أهميتها وجاذبيتها الثقافية لاعتبارات عديدة لا يتسع المجال لذكرها ولكن نكتفي هنا بالعوامل الثقافية والسياسية؛ فهي مقصد طلاب العلوم الإسلامية؛ يؤمونها للدرس والتحصيل على يد علماء الأزهر الشريف، أما في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي فقد أضيفت عوامل أخرى سياسية؛ مثل هروب المعارضين للحكومة العثمانية في إستانبول وبحثهم عن مكان بعيد عن أعين الرقابة في إستانبول. وقد بدأ هذا النشاط منذ تشكل جمعية الشبيبة العثمانية في عهد السلطان عبد العزيز(١٢٧٧-١٢٩٣هـ/١٨٦١-١٨٧٦م) وزادت حدته على يد أعضاء جمعية تركيا الفتاة في عهد السلطان عبد الحميدالثانى، وقد عرف هؤلاء المعارضون في المطبوعات وسيلة فعالة لنشر أفكارهم ومبادئهم،

---

(١٤) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ؛ انظر:
أحمد عبد الحليم مصطفى(دكتور)، علاقات مصر بتركيا، دار المعارف، ١٩٦٧، ص ٨ وما بعدها.

ويروي عبد الله جودت في مقدمة أحد مؤلفاته قصة هروبه بأوراق يقول عنها " لا آمل شيئا أكثر من أن ترى النور في هذا الظلام الدامس"(١٥). وقد حقق بعض هؤلاء المعارضين شهرة في مجال الأدب مثل محمد أشرف (١٢٤٠-١٣٢٨ هـ/١٨٢٤-١٩١٠م) ومحمد مراد (؟ -١٣٢٦هـ/١٩١٧م) وبكر فخري (؟ - بعد ١٩١٤) وعبد الله جودت (١٨٦٩-١٩٣٢) (١٦) و غيرهم، وهناك من رجال الجيش والسياسة أمثال احمد مختار باشا (١٧) وطونه لى حلمي وغيرهما. وعلى الرغم من أن نشاط هذه المعارضة كان خاضعا لموقف الحكومة المصرية من الباب العالي(١٨) حينا، ولموقف الباب العالي منهم أحيانا (١٩) لم تتوقف مطبوعاتهم الصادرة من القاهرة، بل كانت سببا في ارتفاع معدل المطبوعات التركية في أوائل القرن العشرين(٢٠).

والمتأمل لقائمة المطبوعات الخاصة بأعضاء تركيا الفتاة يلاحظ ما يلي:

١- أن ذروة نشاطهم كان بين سنتي ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م و١٣٢٦هـ/١٩٠٨م حيث طبع في هذه الفترة ١٣ كتابا من ٣١ هي جملة المطبوعات(٢١)، وهي الفترة التحضيرية التي سبقت الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد الثاني مباشرة

٢- لم يطبع في المطبعة الأميرية(بولاق) سوى مؤلفات أحمد مختار باشا وهي في المواقيت والحسابات الفلكية، أما باقي مطبوعات الجماعة فقد طبعت في

(١٥) عبد الله جودت، فنون وفلسفة، مطبعة الاجتهاد، ١٩٠٦، المقدمة.

(١٦) صدر له في القاهرة حوالى ١٣ كتابا (بين مؤلف ومترجم).

(١٧) هو المشير احمد مختار باشا تولى وظيفة المفتش العام في مصر من عام ١٨٨٥-١٩٠٦، انظر: ارنست رامروز، تركيا الفتاة، صالح العلي(دكتور)، بيروت، ١٩٦٠، ص ٦٠.

(١٨) حينما كان يسود الوئام بين الحكومتين تبدأ الحكومة المصرية في مطاردة المعارضة التركية والضغط عليها؛ مثال ذلك ما حدث في عام ١٨٩٦ حين طلبت من الجمعية إيقاف نشاطها، فأمرت اللجنة الإدارية للجمعية مراد بك بنقل نشاطه إلى اوروبا ، انظر: تركيا الفتاة، القاهرة ،المرجع، ص ٦٧.

(١٩) مثال ذلك الاتفاق الذي تم بين السلطان عبد الحميد الثانى وعبد الله جودت (انظر الكتاب السابق، ص ٨٣).

(٢٠) انظر جدول رقم (١).

(٢١) انظر القائمة السابقة.

المطابع الخاصة، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للنشاطات التي تسمح الحكومات بمرورها ولكن دون اعتراف رسمي صريح.

٣- باستثناء كتاب مترجم عن تاريخ الإسلام لا تحتوي القائمة على أية موضوعات إسلامية.

٤- تحتوي القائمة على الموضوعات التي كان يدعو إليها رواد التجديد أو التغريب مثل : تحرير المرأة، أو النهضة الاجتماعية، أو إعطاء فكرة عن حياة المجتمعات الغربية...إلخ.

٥- تناول التاريخ العثماني من وجهة نظر العناصر المعارضة لحكم السلاطين، ولا سيما في عهدي السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد الثاني أو تمجيد شخصيات المتمردين على الدولة أمثال: تبه دلنلى علي باشا، أو إثارة العنصرية عن طريق البحث في تاريخ القوميات مثل كتاب طونه لى حلمى عن مقدونيا... إلخ

٦- التجريب في الأنواع الأدبية الحديثة مثل القصة والمسرحية والمقال.

٣- الاتجاه الإسلامي:

بعد أن تم حصر عناوين المطبوعات خلال الفترة موضوع الدراسة والتي تصل إلى خمسة وثمانين عاما أصبح من السهل رصد الاتجاهات والميول الفكرية والأدبية لقراء التركية في مصر آنذاك. فإذا تأملنا قائمة هذه المطبوعات أدركنا للوهلة الأولى أن الاتجاه الإسلامي يتصدر كل الاتجاهات رغم اتجاه البعض إلى التغريب؛ ذلك أننا لو استثنينا المطبوعات الرسمية الخاصة بالقوانين والنظم لوجدنا أن الموضوعات الإسلامية تتصدر باقي الموضوعات، إذ تبلغ مطبوعاتها خمسة وستين عنوانا[٢٢]؛ وهذا ليس بمستغرب على مجتمع مسلم مثل المجتمع التركي.

والمتأمل لقائمة المطبوعات الإسلامية يمكنه أن يلاحظ ما يلي:

---

(٢٢) إذا أضفنا إلى ٥٥ كتابا الخاصة بالعلوم الإسلامية الدواوين الشعرية الصوفية والتراجم وكتب الآثار الإسلامية والتاريخ الإسلامي يصبح إجمالى الكتب ذات الاتجاه الإسلامي ٦٥ كتابا.

١- أن الكتب الخاصة بالتفسير أو الحديث والفقه وغيرها من أصول الدين ومؤلفات كبار المتصوفة، وغيرها من كتب التراث كانت رائجة حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. ولكن ذلك لا يعني أنها لم تطبع بعد ذلك، بل كانت تأتي فرادى.

٢- أن طباعة الكتب الخاصة بالدفاع عن الإسلام، أو المقارنة بين الأديان، أو للدعوة الإسلامية كانت أكثر رواجا مع نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وهي الفترة التي بدأ فيها الإسلام يتعرض لهجمات المستشرقين.

٣- إذا أضفنا الكتب الخاصة بالأدعية ذات المعاني الصوفية إلى كتب التصوف وجدنا أن موضوع التصوف يبلغ ١٣ عنوانا أي يتصدر باقي الموضوعات الإسلامية.

٤- الاتجاه القومي فى اللغة والأدب والتاريخ:

وإذا نظرنا إلى قائمة المؤلفات الأدبية وجدنا الشعر هو الغالب، ولاسيما الشعر التقليدي الذي يسير في فلك شعر الديوان، أما التجديد فقد جاء في الأنواع الجديدة مثل القصة والمسرحية والمقال وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

وإلى جانب ذلك يبدو الاهتمام بتعليم اللغة التركية واضحا من عدد كتب القواعد والمعاجم التي صنفت لهذا الغرض[٢٣] والتي فاقت غيرها من هذا النوع على الرغم

(٢٣) انظر الجدول رقم (٨).

من عدم تدريس اللغة التركية في المدارس الأميرية. ويتضح ذلك من خلال الجدول رقم(٨).

اللغة	العدد	النسبة المئوية	ملاحظات
المجموع الكلي	٢٩	%١٠٠	
العربية	٦	%٢٠,٦	
التركية	١٢	%٤١,٣	
الفارسية	٩	%٣١,٠٣	
الأوروبية	١	%٣,٤٤	
لغات أخرى	١	%٣,٤٤	

جدول رقم (٨)

وهناك اهتمام واضح بتاريخ الدولة العثمانية ولاسيما تاريخ الأزمات والنكسات التي واجهتها في النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، ويكمن سبب ذلك في رغبة المؤلفين من أعضاء تركيا الفتاة في الهجوم على سياسة الباب العالي آنذاك. انظر الجدول رقم(٩).

الموضوع	العدد	النسبة المئوية	ملاحظات
المجموع الكلي	٥٥	%١٠٠	
التاريخ الإسلامي	٤	%٧,٢	
التاريخ العثماني	٢٣	%٤١,٨	
أوروبا والمستعمرات	٩	%١٦,٣	
التراجم	١٤	%٢٣,٦	
موضوعات أخرى	٥	%٩	

جدول رقم(٩)

ثانيا القسم الثاني : ويتضمن القائمة الكاملة للمطبوعات التركية العثمانية التي طبعت في الفترة موضوع البحث، ونظرا لبعض الصعوبات الفنية يتعذر طباعتها ضمن هذا الكتاب.

الفنون العثمانية
في ضوء مقتنيات الأمير محمد علي بقصر المنيل

الدكتورة كوثر أبو الفتوح الليثي
مركز البحوث الأثرية بالمجلس الأعلى للآثار
القاهرة – مصر

يعد قصر المنيل من أجمل وأهم المتاحف التاريخية بالقاهرة، فهو يعبر عن فترة هامة من تاريخ مصر الحديث، ويعكس صورة حية لما كانت عليه حياة أمراء الأسرة الملكية السابقة، ويصورها بعناية فائقة.

والأمير محمد علي، وهو صاحب القصر وابن "الخديوي توفيق" [(١)] وشقيق الخديوي "عباس حلمي الثاني"[(٢)] ولد بالقاهرة عام ١٨٧٥م وتوفي عام ١٩٥٤م.

نال الأمير ثقافات عربية وأجنبية رفيعة المستوى، وكان محبا للفنون بكافة صورها، وخاصة الفنون العثمانية، واشتهر بجمع التحف والآثار والمقتنيات الثمينة، و كان له في هذا المجال عيون متخصصة، مهمتهم البحث عن النادر من التحف وجلبها للأمير ليعرضها بقصره بجانب ما تلقاه من هدايا من ملوك و أمراء الدول المختلفة.

(١) الخديوي محمد توفيق حكم مصر من عام ١٨٧٩ إلى ١٨٩٢م.

(٢) الخديوي عباس حلمي الثاني حكم مصر من عام ١٨٩٢ إلى ١٩١٤ م.

وعن المكانة السياسية . فقد كان الأمير "محمد علي" وصيا علي العرش بعد وفاة عمه الملك فؤاد الأول عام ١٩٣٦، وحتى تولى ابن عمه الملك فاروق الأول حكم مصر في ذات العام، ونصب الأمير وليا للعهد حتى عام ١٩٥١م.

وانعكست صفات وجوانب شخصية الأمير على قصره، فخرج فريدا في طرازه، متميزا عن قصور أقرانه من حكام وأمراء الأسرة، فقد وضع الأمير في اعتباره عند تشييده للقصر أن يكون متحفا يحمل اسمه، ويتضح ذلك في اللوحة التأسيسية للنص الإنشائي وهو" أنشأ هذا القصر الأمير محمد علي باشا نجل المغفور له محمد توفيق إحياءاً للفنون الإسلامية وإجلالا لها، ابتكر هندسة البناء وزخرفته سمو الأمير وقام بالتنفيذ المعلم محمد عفيفي وتم ذلك في سنة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م.

وقصر المنيل ينفرد عن باقي القصور التاريخية، فقد بني على طراز إسلامي شاعت فيه روح الفن العثماني، برزت في تصميمه المعماري وفي زخرفة مبانيه، هذا بالإضافة إلى ما يضمه القصر من نفائس شتى من الفنون العثمانية تمثلت في عديد من التحف والمقتنيات النادرة التي لا يتسع المجال لحصرها .. ونكتفي في هذه الدراسة بشرح أهمها :

أولاً: المخطوطات

خصصت لها قاعة بالمتحف الملحق بالقصر لعرض المخطوطات النادرة من المصاحف وتفسير القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ومجموعات من اللوحات الخطية التي تضم أدعية و أبيات الشعر ومجموعة طغراء لبعض سلاطين آل عثمان نفذت جميعها بأجمل الخطوط وبأسلوب يدل علي المهارة الفائقة، وكل الأعمال نفذها أشهر الخطاطين في العالم الإسلامي من العصور المختلفة، وقد كرم الأمير أحدهم بوضع اسمه علي اللوحة التأسيسية للمسجد الملحق بالقصر وهو الحاج "احمد كامل" رئيس الخطاطين في استانبول لأعماله الكثيرة بالقصر.

ومن خلال دراسة المصاحف العثمانية، أمكن التعرف على عدد من المذهبين والناسخين، الذين عملوا في هذا الميدان وكان لكل منهم أسلوبه الفني المتميز، وهم :

١- المذهب عبد الله بن مصطفى

وهو من مذهبي العصر العثماني الذين تألقوا في تذهيب المصاحف الشريفة، ومن إنتاجه مصحف قام بتذهيبه سنة ١١١٨ هـ (لوحة ١) وقد سبق توقيعه لفظ "ذهبه" وهذا التوقيع كتب بالمداد الأبيض علي مهاد ذهبي في شريط زخرفي أختتم بـه النص المؤرخ للمصحف والمسجل به اسم الناسخ السيد عبد الله المعروف بالإمام، ونص توقيعه في سطرين "ذهبه الفقير عبد الله بن / مصطفي غفر الله لهما"، وحدد الشريط الزخرفي بإطار أزرق اللون ثم بإطار من خطوط متموجة باللون الذهبي، ومن أساليب التذهيب التي اتبعها عبد الله بن مصطفي استخدامه طريقة التذهيب بدون لون، وهو ما يطلق عليه الأتراك خلكاري Helquari وهذه الطريقة أن يقوم المذهب باستخدام مداد الذهب في تنفيذ بعض العناصر الزخرفية وبدون تحديد بأي من الألوان المساعدة، كما استخدم طريقة الرش بالتذهيب وينتج عنها أرضية منقطة بنقاط ذهبية، ويطلق الأتراك علي هذه الطريقة زرفشان Zerefşan، أي الرش بالذهب، أو سربمه يلدز Serpme Yaldız، أي منقط بالذهب. ومن أساليب التذهيب أيضا التي اتبعها المذهب عبد الله بن مصطفي هو التذهيب الملون، أي استخدام مداد الذهب في تحديد العناصر الزخرفية وتلوينها بالألوان المختلفة، أو تحدد العناصر الزخرفية بالألوان المستخدمة في التلوين الأبيض والأخضر والأحمر والأزرق.

ومواضع التذهيب التي اعتني بتذهيبها صفحتا البداية والبسملة وفواصل الآيات وفواصل السطور وعناوين السور. وقد تنوعت الوحدات الزخرفية التي تشير إلى الأحزاب أو الأجزاء ومواضع السجدات.

٢- محمد الردوسي

من أشهر مذهبي العصر العثماني وقام بتذهيب المصحف المؤرخ بشهر شعبان ١١٧٥هـ، والذي قام بنسخه يوسف المعروف بحافظ القرآن، وكتب توقيعه بالمداد الأبيض وبخط النسخ في منتصف الإطار الذهبي المحدد لصفحتي النهاية وسبق اسمه لفظ "ذهبه" ونص توقيعه بالصفحة اليمنى"ذهبه محمد الردوسي". وليستكمل بالصفحة المقابلة "مشهور قليوني".

ومحمد الردوسي من جزيرة رودس، وأقام بالقاهرة ولقب بالردوسي نسبة إلى بلدته، وهو من عائلة فنية تعمل في مجال نسخ وتذهيب المصاحف الشريفة في هذا العصر، ويبدو أنه على صلة قرابة وثيقة بالناسخ ابراهيم الردوسي، الذي قام بنسخ مصحف يرجع إلى النصف

الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، وتتلمذ على يديه الناسخ موسى حسن أفندي زاده، الذي سجل انه من تلاميذ ابراهيم الردوسي بالمصحف المحفوظ بنفس القاعة المخصصة للمخطوطات بقصر المنيل والمؤرخ ١١٦٣ هـ .

ويتضح أن هذا التاريخ يسبق تاريخ المصحف الموقع من المذهب محمد الردوسي باثني عشر عاما، مما يبين أنه من عائلة الردوسي التي عملت في مجال نسخ وتذهيب المصاحف في هذه الفترة، وربما عمل في مجال نسخ المصاحف أيضا علاوة علي تذهيبها.

ومن أساليب التذهيب التي اتبعها المذهب الردوسي هي استخدام طريقة التذهيب بدون لون "خلكاري" Helquari، وفيها أن تحدد العناصر الزخرفية بمداد الذهب، ثم تملأ سمك هذه العناصر الزخرفية بدرجات مختلفة من اللون نفسه، مما يضفي جمالا علي الزخرفة ويطلق الأتراك علي هذه الطريقة زر اندر زر Zerenderzer وتعني ذهب على ذهب، وقد اتبع هذا الأسلوب الفني في هوامش صفحتي النهاية، ومن مميزات أسلوبه الفني أيضا استخدامه للتذهيب الملون أي استخدام مداد الذهب مع ألوان أخرى كاللون الأحمر والأزرق والأخضر والوردي والبنفسجي والأصفر والأبيض وذلك في مواضع التذهيب وهي صفحتا البداية، وكتب النص القرآني في تقسيم زخرفي مربع الشكل، وفواصل الآيات وفواصل السور، كما أبدع المذهب محمد الردوسي في تذهيب صفحتي النهاية.

واستخدم زهرة القرنفل والرمان والأوراق الرمحية وزخرفة الرومي والأفرع النباتية والأشكال الدائرية والمستطيلة.

٣- اسماعيل

تألق المذهب اسماعيل في تذهيبه لمصحف مؤرخ سنة ١٢٣٨ هـ، ونص توقيعه "عمل إسمعيل" وذلك بخط نسخ دقيق وبمداد أسود في مركز مذهب لوريدة متعددة البتلات تتوسط وريدات أخرى مع أفرع متماوجه تزين صفحة الختام المسجل بها اسم الناسخ يوسف رفعت بن حسن، وتاريخ النسخ ١٢٣٨ هـ، ولا يمكن قراءة توقيع المذهب اسماعيل بسهولة بصفحة الختام، ولكن بالتدقيق في شكل الوريدات يمكن التعرف على توقيعه . والمذهب اسماعيل لم يذكر لقبه واكتفى باسمه الأول، حيث يلاحظ أنه لم يتظاهر بتوقيعه مما يدل على أنه من المذهبين المشهورين في هذه الفترة، وغني عن أن يعرف بنفسه.

وأسلوبه في التذهيب هو استخدامه طريقة التذهيب الملون، أي أنه استخدم مداد الذهب في رسم العناصر الزخرفية مع ألوان الأزرق بدرجاته والوردي والأحمر والأبيض والبرتقالي والأخضر في تباين رائع جميل، ومواضع التذهيب مثلث في صفحتي البداية وعناوين السور وهوامش الصفحات التي زينت بوحدات متنوعة تشير إلى الأحزاب والأجزاء وأماكن السجدات، ومن مواقع التذهيب أيضا صفحة ختام المصحف المسجل بها اسم الناسخ، وتاريخ النسخ وتوقيع المذهب. ومن أهم العناصر الزخرفية التي تميز بها المذهب اسماعيل زخرفة الرومي، أشكال الجدائل والإشعاعات والدوائر المقسمة إلى ستة أقسام .

٤- السيد علي الحمدي

من مذهبي القرن الثالث عشر الهجري، وقام بتذهيب مصحف مؤرخ سنة ١٢٣٨ هـ، ونسخه الحاج السيد أحمد المعروف بحمدي الجسري، ويبدو أن الناسخ والمذهب علي صلة قرابة ومن عائلة فنية عملت في مجال نسخ وتذهيب المصاحف، فقد تخصصت بعض الأسر في مجال فن الخط و التذهيب في العصر العثماني، وتوقيع المذهب نفذ بمداد أبيض على مهاد ذهبي وأختتم به النص المؤرخ للمصحف، ولم يسبق التوقيع لفظ "ذهبه" أو "عمل" كما هو معروف.

كما استخدم المذهب أساليب التذهيب المستخدمة في المصاحف السابقة، واستخدم أيضا طريقة الدبوس أو الأبرة (اكنه پرداخى Iğne perdahı).

٥- أحمد شاكر

عرف هذا المذهب من خلال توقيعه المميز بالمصحف المؤرخ سنة ١٢٤٣ هـ، ونص توقيعه باللغة التركية "بندة مولاناي رضى أحمد شاكر" وهي تعني عبد المولى الرضي أحمد شاكر، وذلك باللون الأبيض علي مهاد ذهبي في شريط زخرفي مستطيل توج به دعاء ختم القرآن .

وتميز الأسلوب الفني لهذا المذهب باستخدامه طريقة الدبوس أو الإبرة "اكنه پرداخى Iğne perdahı في أشكال زخرفية تبدو كالبريق المتألق بالإضافة إلى طريقة التذهيب الملون. وصفحة الختام مسجل بها اسم الخطاط محمد الزهدي، وتاريخ النسخ أواخر شهر شعبان سنة ١٢٤٣ هـ، وهذا الخطاط من عائلة مشهورة بفنون نسخ وتذهيب المصاحف الشريفة .

٦- السيد ابراهيم بن علي

قام بتذهيب مصحف مؤرخ سنة ١٢٥٨ هـ، وقد سبق اسمه لفظ "ذهبه" ونص توقيعه في خمسة أسطر في شكل مثلث رأسه إلى أسفل، وتوج به صفحة ختام المصحف المسجل بها اسم الخطاط السيد حافظ مصطفي بهجت، وتاريخ النسخ سنة ١٢٥٨ هـ ونصه "ذهبه الحقير الفقير/السيد ابراهيم بن/علي قرآ خواجة/بمدينة/توتة".

وفي هذا المصحف سجل المذهب اسمه كاملا مع ذكر مكان التذهيب ولم يرد في الأمثلة السابقة ذكر مكان التذهيب، وسبق اسم المذهب لفظ "الحقير الفقير" وهي من الألفاظ التي تدل علي مدى تواضع الفنان، وأساليب التذهيب التي اتبعها بدون لون "خلكاري" وطريقة التذهيب الملون بألوان متنوعة، كما استخدم طريقة الدبوس أو الإبرة "آكنه پرداخى" ومواضع التذهيب التي أبدع فيها صفحتا البداية وكتب النص القرآني بهما شكل دائري وتألق في تذهيب صفحة الختام المسجل بها اسم الناسخ "السيد حافظ مصطفي بهجت كتخدا يري زاده" وتاريخ النسخ.

من خلال التعريف بفنون تذهيب المصاحف العثمانية، التي يضمها متحف قصر المنيل، أمكن التعرف على مجموعات كبيرة من الخطاطين الذين تألقوا في كتابة المصاحف بالخط النسخ، ومعظمها ختمت بنص كتابي سجل به اسم الخطاطين واسم والده وأحياناً يسجل الخطاط اسم أستاذه، ومن هنا أمكن التعرف علي بعض الأسر الفنية التي اختصت بنسخ المصاحف في هذا العصر.

(١) الشيخ حمد الله الأماسي المعروف بابن الشيخ

وهو الشيخ حمد الله بن الشيخ مصطفي دده الأماسي، المعروف بابن الشيخ، وقد هاجر والده من بخارى إلى أماسيا وأستقر بها، وولد الشيخ حمد الله سنة ٨٣٣ هـ وتوفي سنة ٩٢٦ هـ، وكان علما من أعلام الخط حيث نبغ فيه نبوغا عظيما، وتأثر بقواعده وطريقته في الخط كل من جاء بعده من الخطاطين، وقد قام بتعليم أصول الخط للسلطان بايزيد الثاني بن محمد خان، وكتب سبعة وأربعين مصحفا بين كبير وصغير، ونحو ألف نسخة من سورة الإنعام والكهف وجزء عم، وفي متحف قصر المنيل مصحفان نسخهما حمد الله بن الشيخ مؤرخان سنة ٩٢٠ هـ، سنة ٩٢٦ هـ.

(٢) جعفر بن عبد الله

نسخ المصحف المؤرخ بسنة ٩٧٢ هـ في زمن السلطان سليم الأول.

(٣) درويش علي

كان إماماً في فن الخط، وتوفي سنة ١٠٨٤ هـ، ومن المصاحف التي نسخها ولازالت محفوظة بمتحف قصر المنيل مصحف مؤرخ سنة ١٠٧٢ هـ، ومصحف آخر مؤرخ سنة ١٠٧٨ هـ، بالإضافة إلى مصحف غير مؤرخ ولكن سجل اسمه فقط، أمكن تحديده بالربع الأخير من القرن الحادي عشر الهجري.

(٤) ابراهيم بن محمد

الشهير بخزينه دار أوقاف السلطان محمد خان، وقد نسخ المصحف المؤرخ سنة ١١٣٢ هـ.

(٥) ابراهيم الردوسي

نسخ مصحف يرجع الي النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري.

(٦) لحاج ابراهيم المعروف بـ (چورخه جى زاده، وقد نسخ المصحف المؤرخ سنة ١١٦٨.

(٧) يوسف المعروف حافظ القرآن.

نسخ المصحف المؤرخ سنة ١١٧٥ هـ.

(٨) محمد الوفائي.

نسخ المصحف المؤرخ سنة ١١٩٥ هـ.

(٩) حافظ صالح المعروف بجمشيد.

نسخ المصحف مؤرخ سنة ١٢١٥ هـ.

(١٠) حمدي الجسري.

نسخ المصحف المؤرخ سنة ١٢٣٨ هـ .

(١١) محمد الزهدي.

نسخ المصحف المؤرخ سنة ١٢٤٣ هـ.

(١٢) عبد الوهاب أحمد الذهبي.

نسخ المصحف المؤرخ سنة ١٢٤٤ هـ.

وإضافة لهذه المجموعة الرائعة من المصاحف الكريمة، التى يتجلى فيها جمال الخط وحسن التذهيب وجودة التلوين والزخرفة، كان لهؤلاء المشاهير من الخطاطين ثروة من اللوحات الخطية، ازدانت بها خزانات العرض وجدران القاعة الكبيرة التى خصصها الأمير محمد علي بمتحفه الملحق بالقصر، ومن بين هذه اللوحات:

- لوحة فيها البسملة الشريفة على رسم طائر بخط رئيس الخطاطين اسماعيل الزهدي معلم السراي السلطانية (لوحة رقم ٢).

- طغراء السلطان عبد الحميد الأول بقلم أحمد كامل رئيس الخطاطين.

- لوحة لمصطفى راقم قاضي العسكر المتوفى سنة ١٢٤١ هـ ومؤرخ بسنة ١٢٢٨ هـ، كتب بها "بسم الله الرحمن الرحيم" وفاتحة الكتاب

- لوحة لإبراهيم شيخ زاده تضم الحديث الشريف "ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة".

وباستعراض بدائع الخطوط الجميلة التى تزخر بها قاعة المخطوطات يتبين لنا ما وصل إليه فن الخط من دقة فى الذوق والجمال، والروعة فى الخط والصنعة والزخرفة لأساتذة جرت أقلامهم فى سبيل إبداع روائع الفن فى رسم الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والحكم الرائعة على نهاية من الجمال والكمال.

ثانيا: الصور الشخصية

كان سلاطين آل عثمان مغرمين بفن الصور الشخصية، وقاموا باستدعاء الفنانين إلى القصر سواء محليين أو أجانب. فقد حرصوا على أن يتركوا رصيدا جيدا من الفن من خلال صورهم الشخصية، وقد ظل الاهتمام بالتصوير مستمرا من قبل السلاطين العثمانيين حتى اكتمل هذا الفن وترابطت حلقاته التاريخية، وأصبحت دراسته على قدر كبير من الأهمية.

ويضم قصر المنيل مجموعة من هذه الصور الشخصية بلغت ثلاثين لوحة زينت بها جدران بهو يتوسط أجنحة سراي الإقامة الخاصة بالأمير محمد علي، وقد سمي "بهو اللوحات" وقد دون أسفل كل صورة اسم السلطان وتاريخ الميلاد وتاريخ الحكم وتاريخ الوفاة بالتقويم الهجري كالآتي:

	ولد	جلس	توفى	
١- السلطان عثمان	٦٥٦	٦٩٩	٧٢٦	(لوحة ٣)
٢- السلطان اورخان	٦٨٠	٧٢٦	٧٦١	
٣- السلطان مراد الاول	٧٢٦	٧٦١	٧٩١	
٤- السلطان مراد الثانى	٧٦١	٧٩١	٨٠٥	
٥- السلطان بايزيد	٧٨١	٨٠٦	٨٢٤	
٦- السلطان محمد	٨٠٦	٨٢٤	٨٥٥	
٧- السلطان محمد الثانى	٨٢٢	٨٥٥	٨٦٦	
٨- بايزيد الثانى	٨٥١	٨٨٦	٩١٨	
٩- سليم الأول	٨٧٥	٩١٨	٩٢٦	
١٠- سليمان القانونى	٩٠٠	٩٢٦	٩٧٤	(لوحة ٤)
١١- سليم الثانى	٩٣٠	٩٧٤	٩٨٢	
١٢- مراد الثالث	٩٥٣	٩٨٢	١٠٠٢	
١٣- محمد الثالث	٩٧٤	١٠٠٣	١٠١٢	
١٤- أحمد الأول	٩٩٨	١٠١٢	١٠٢٦	
١٥- مصطفى الأول	١٠٠١	١٠٢٦	١٠٤٨	
١٦- عثمان الثانى	١٠١٣	١٠٢٦	١٠٣١	
١٧- مراد الرابع	١٠١٣	١٠٣٢	١٠٤٩	
١٨- ابراهيم	١٠٣٤	١٠٤٩	١٠٥٨	
١٩- محمد الرابع	١٠٥١	١٠٥٨	١١٠٤	

٢٠- سليمان الثانى	١٠٥٢	١٠٩٩	١١٠٢
٢١- أحمد الثانى	١٠٥٢	١١٠٢	١١٠٦
٢٢- مصطفى الثانى	١٠٧٤	١١٠٦	١١١٥
٢٣- أحمد الثالث	١٠٨٤	١١١٥	١١٤٣
٢٤- محمود الأول	١١٠٨	١١٤٣	١١٦٨
٢٥- عثمان الثالث	١١١٠	١١٦٨	١١٧١
٢٦- مصطفى الثالث	١١٢٩	١١٧١	١١٨٧
٢٧- عبد الحميد الأول	١١٣٧	١١٨٧	١٢٠٣
٢٨- سليم الثالث	١١٧٥	١٢٠٣	١٢٢٢
٢٩- مصطفى الرابع	١١٩٣	١٢٢٢	١٢٢٢
٣٠- محمود الثانى	١١٩٩	١٢٢٣	١٢٥٥

وهذه المجموعة الرائعة من اللوحات الزيتية للسلاطين تعكس مفهوم فن الصور الشخصية، والتعرف بالشكل والمضمون الذى يصوره الفنان للسلطان العثماني من ناحية البساطة في إظهار تعبيرات الوجوه والتنوع في الملابس وأشكال أغطية الرؤوس بالإضافة إلى الحليات التى تزينها، وأصبحت هذه الصور موضوعاً متكاملاً ومستقلاً يستحق الدراسة الفنية والتاريخية.

كما توجد مجموعة ثمينة من اللوحات الزيتية لبعض الفنانين العالميين، زينت بها جدران قاعات قصر المنيل، منها :

- لوحة لمنظر سوق شعبي بجوار مسجد السلطان أحمد الثالث بمدينة استنابول للفنان الفرنسي برست ترجع الي القرن التاسع عشر .
- لوحة لسيدة تركية وابنتها للفنان كوردت مؤرخة لسنة ١٨٥٢.
- لوحة لسيدة تركية تمسك نارجيلة بجوار مشربية مشغولة بالخرط للفنان فيردي.

وهذه اللوحات تعكس تقاليد المجتمع التركي من حيث أسلوب تصميم الملابس وزخرفتها وخلفياتها التي توضح خصائص عمارة المساجد العثمانية، والعناصر المعمارية التي تتمثل في أشغال خرط المشربية التي تعتبر من أهم الملامح المميزة للمنازل العثمانية الطراز .

ثالثا : الخزف

فن صناعة الخزف والبلاطات الخزفية يعتبر مدرسة كبيرة من مدارس الفن الإسلامي التي ازدهرت على يد الأتراك العثمانيين الذين وصلوا بهذا الفن إلى مرحلة من النضج لم تبلغها أمة من قبل، فأصبح لهذا الفن مركز الصدارة بين الصناعات التطبيقية، فنراه يغشى القصور والمساجد والعمائر، حيث كانت تصدر الفرمانات السلطانية إلى مراكز صناعة الخزف بإعداد عدد معين منه يحدده السلطان، مع إيضاح شكل الزخارف وكافة التفاصيل الدقيقة الأخرى المتصلة به، ولما كانت غالبية هذه العمائر باقية حتى الآن، فهي مؤرخة بطبيعة الحال.

وتعتبر مدينة كوتاهية أهم مركز لصناعة الخزف في القرن الثامن عشر، وتقع على مساحة ٧٥ كيلو متراً جنوبي مدينة إزنيق، وقد تسلمت مدينة كوتاهية شعلة هذه الصناعة بعدما كاد ضوؤها ينطفئ في إزنيق، فنحن نعلم أن إزنيق كانت اكبر مراكز إنتاج البلاطات والأواني الخزفية في القرن السادس عشر.

وقصر المنيل يضم اكبر مجموعة من البلاطات الخزفية كسيت بها معظم جدرانه، وتكمن أهمية هذه المجموعة في أنها عملت خصيصا لهذا المتحف برسوم موضوعة مسبقا تحت إشراف الأمير محمد علي صاحب القصر، ويتضح ذلك في تكامل اللوحات الخزفية وإطاراتها وتكامل وتماثل اللوحات الزخرفية مع مساحة الجدران الموضوعة عليها .

وكلها صناعة مدينة كوتاهية، فقد استمرت مصانع هذه المدينة تنتج البلاطات الخزفية خصيصا لسراي المنيل .

وقد وصلت صناعة الخزف بمدينة كوتاهية إلى أقصر مراحل تطوره في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومازالت مستمرة وتفرض وجودها بقوة، وأصبح الخزافون بها أساتذة في فن الخزف المرسوم تحت الطلاء، واستخدموا في ذلك اللون الأزرق الزهري والأزرق الفيروزي والأخضر والأصفر والأحمر "بلون الطماطم". وهذا اللون الأخير من الألوان المميزة للخزف التركي، وكان يصنع من الطفل الأرمني المحمر، وتوضع منه طبقة سميكة

فوق سطح الإناء أو البلاطة، أما الزخارف المستخدمة فتتكون من مراوح نخيلية وتعبيرات مزهرة أمتاز بها الفن التركي، فمن أنواع الزهور نجد زهرة القرنفل و اللاله والسنبل البري وأنواع الورود، وكلها منتظمة في أشكال متماثلة وتكرار غاية في الدقة .

ومجموعات قصر المنيل خير مثال على ما وصلت إليه مدينة كوتاهية من تفوق.

وبعض اللوحات الخزفية قد رسمت أشكالها بانطلاق وحيوية ومن ثروة هائلة من الزخارف النباتية، فتبدو وكأنها تنبت من الأرض إلي أعلى، أو تخرج من أشكال زهريات. ومن الأشجار أختار الفنان التركي شجرة السرو إلى جانب رسوم نباتية.

وفي الصالون الملحق به حجرة المكتب الخاصة بالأمير محمد علي نشاهد وزرة الجدران كسيت ببلاطات من القاشاني سداسية الشكل تميزت بلونها الأزرق الفيروزي .

ورغم أنها بلاطات خالية من الزخرفة إلا أنها نفذت بشكل غاية في الدقة والجمال، وقد اشتهر باسم (الصالون الأزرق) نسبة الي لون بلاطات القاشاني.

وتمثل الزخارف الكتابية مركزا هاما في تزيين بلاطات القاشاني، فقد كشفت هذه الزخارف عن مهارة الخطاط العثماني وعبقريته في المزج بين الحروف مزجا زخرفيا جميلا، نجح في تكوين صيغ من كتابة معكوسة، أو كما تعرف باسم الكتابة المرآتية كما يسميها العثمانيون (آينه لى). (لوحة رقم ٥).

وخير مثال على ذلك لوحات بخط رئيس الخطاطين أحمد كامل تزين جدران مسجد الأمير الملحق بقصره، تتضح فيها براعة الخطاط وإبداعه في صياغة فنية رائعة، كما تتجلى هذه البراعة أيضا في الشريط الكتابي للنص القرآني والزخارف النباتية المورقة (الرومي) التي تزين محراب الصلاة (لوحة ٦).

كما يضم قصر المنيل مجموعة من التحف الصغيرة من أكواب وأباريق وزهريات، وغيرها من الأواني الخزفية من صناعة كوتاهية زخرفت بعناصر نباتية من الزهور الطبيعية والتي تتمثل في الورود والقرنفل واللاله والزنبق وزخرفة قشر السمك.

أما الألوان فنجد الأزرق الفيروزي والأحمر الذي أصبح لونه يميل إلى البني الفاتح والأخضر المائل إلى الزرقة والبنفسجي والزيتوني والأسود، فضلا عن اللون الأصفر الذي

عاد الي الظهور بعد أن اختفى منذ منتصف القرن السادس عشر، وظهر مع اللون البني على خزف كوتاهية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وقد تميزت مجموعة قصر المنيل بصغر حجمها ودقة صناعتها وعناصرها الزخرفية الدقيقة والغنية.

واشتهرت مدينة كوتاهية بإنتاج نوع من الخزف كانت زخارفه تتم باللون الأزرق على أرضية بيضاء، وهو يعتبر تقليداً بسيطاً للبورسلين الصيني، كما أنتجت مصانع كوتاهية خزف يقلد خزف إزنيق، من ذلك النوع الذي يعرف باسم خزف رودس.

وقد استعملت في خزف كوتاهية والمنسوب لرودس خامة تتكون من حبيبات دقيقة ولون عجينتها أبيض غير نقي مضافا اليها كمية من السليكا، مما جعل هذا الخزف رقيقا بدرجة فاقت الخزف الإيراني.

وقد أمكن التغلب على عدم نقاوة الطينة بتغطيتها بطبقة من البطانة البيضاء الجيدة، ورسمت التصميمات بطبقة من الطلاء الزجاجي الشفاف النقي.

رابعاً: السجاد

فن صناعة السجاد يعتبر الابتكار الأصيل والأكثر ارتباطاً بالتقاليد التركية، وذلك مع بداية دخول السلاجقة لآسيا الصغرى فى القرن الحادى عشر الميلادي، والسلاجقة قبائل تركية كان لهم الفضل فى إدخال صناعة السجاد المعقود، وفي القرن الثالث عشر الميلادى أرسى سلاجقة الأناضول الأسس التى قام عليها فن السجاد الذي انتشر في العالم الإسلامي.

ولقد وصلت صناعة السجاد التركى في القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى قمة ازدهارها، ويتضح ذلك في تعدد وتنوع مراكز النسج، وأصبح لكل مركز تصميمه المتفرد الذي يجعل من السهل في كثير من الأحيان معرفة نوع كل سجادة.

ومتحف قصر المنيل يحظى بمجموعة كبيرة ورائعة من السجاد التركي تعتبر ثروة نادرة لا يوجد مثيل لها بأي متحف من المتاحف العالمية أو المجموعات الخاصة.

وسنلقي الضوء على بعض النماذج التى توضح هذا الفن التطبيقي الجميل من خلال بعض مراكز النسج الهامة:

عُشّـاق

يعتبر إقليم عُشّاق من أهم مراكز نسج السجاد بسبب تطور وتنـــوع وازدهـار الإنتـاج، وبمتحف قصر المنيل مجموعة نادرة نذكر منها سجادة عشاق ذات الميداليـــون البيضـاوي، وتعتبر من أشهر أنواع سجاجيد عشاق وأكثرها أهمية، وتتميز بوجود ميداليون يتوسط سـاحة السجادة، وهو يكشف بلا شك عن تأثير الفن الإيراني، وبخاصة فى زخرفة السجاجيد الإيرانية وبصفة خاصة في تبريز، وهذا التأثير نتج عن هجرة الفنانين الإيرانيين وعملهم في القصــور العثمانية، فتلقى عنهم الفنانون الترك كثيراً من أساليب الزخرفة، وهذه السجادة يتكون تصميمها من ميداليون يتوسط ساحة السجادة وعلي نفس المحور الأوسط توجد أجزاء من ميداليون أعلي وأسفل الميداليون الأوسط ويحجب أجزاء منها خط الكنار، كما يوجد أربع ميداليونـات علـى المحاور الخارجية، ودائما تكون غير كاملة حيث يقطعها خط الكنار، ويشغل أرضية السـجادة أفرع نباتية متشابكة تحمل أوراقاً عريضة وزهورا متنوعة على نمط زخـارف الأرابسـك، وتؤرخ بالقرن السادس عشر (لوحة رقم ٧).

سجاجيد عشاق للصلاة نادرة وخاصة المبكرة منها. وقد حظيت مجموعة قصـر المنيـل بسجادتين ترجع كل منهما إلى بداية القرن السادس عشر، وتعكس كل منهما التصميم الأصيـل والمبكر حيث تميزت برسم عقد المحراب بشكل ثلاثي يبدأ من بداية ساحة السـجادة، وهـو مرسوم من خط رفيع يمتد بخاصرتين بارزتين إلى الداخل في تصميـم متمـيز، والزخرفـة الرئيسية لساحة المحراب عبارة عن شريط كبير من رسوم سحب صينية، ودائما يشغل العقـد وتوشيحتيه رسوم نباتيـة علـى نمـط زخارف الارابيسك وتؤرخ بالقرن السادس عشر.

سجادة عشاق طراز ترانسلفانيا، ويتميز هذا النوع من السجاجيد بشـكل عقـد مـزدوج يتوسط ساحتها، و يزين توشيحات العقود فروع نباتية رسمت محورة على طريقة زخـارف الأرابسك تكتنفها الورود المزهرة وزهور اللاله .

وقد اقتصر تصميم كنار هذا النوع على رسوم المراوح التحليلية التي ظهرت فـي شـكل هندسي يشبه الجعران، ويمتد منه جناحان يزينهما زهور زنبق، تتبادل مع وردة هندسية كبيرة لها ايضا جناحان، ومن الملاحظ أن هذا التصميم وجد يزين كنار سجاجيد الصلاة مـن نـوع

جورديــز وقولا (Gördes, Kula) المبكرة التي تعود إلى القرن الثامن عشر، ويبدوان فنـــاني جــورديز وقولا قد استوحــوا هــذه الوحــدة الزخرفيــة من طراز ترانسلفانيا.

برجامة (برغما Bergama)

تعد مدينة برجامة مركزا تاريخيا هاما ذا ماض عريق في صناعة السجاد الــتركي، وقــد أمدنا هذا الإقليم بمجموعة من السجاجيد ذات تصميمات متنوعة، ويوجد بمتحف قصر المنيــل أمثلة عديدة نذكر منها:

- سجادة برجامة تعد من أقدم الأمثلة حيث تعود للقرن السابع عشر، وأسلوب التصميـــم، اعتمد أساسا علي الأسس الأولية للتقاليد السلجوقية التي تتمثل في الأشكال الهندســية متعــددة الأضلاع والأشكال النجمية ثمانية النقاط والتي تكون في الغالب داخل مثمــن أو دائــرة إلــى جانب الحليات المعقوفة.

- كما أمدنا إقليم برجامة بأمثلة عديدة توضح أساليب متنوعة وتكوينات محــورة تعكــس أسلوب برجامة ذا الطابع الهندسي الذي برع في تنويعه، ففي، نجد ساحة السجادة قد قســمت إلى ميداليونات هندسية متصلة يتوسط كلا منها شكل مربع يضم زخرفة (خف الجمل) يحيط بهذا التصميم أربعة حيوانات محورة ، يمثل كل منها حصانا ؛ وترجع هذه السجادة إلى بدايــة القرن التاسع عشر.

- سجادة برجامة للصلاة وهي مثال نادر، فإقليم برجامة لم يكن له دور في إنتاج سجاجيد للصلاة مثل معظم الأقاليم التركية، وقد تميزت هذه السجادة بتصميمها المبتكر من رسوم نباتية وهندسية على شكل أشرطة رأسية تضم زهورا محورة تتبادل مع وريدات نجمية هندسية كــل منها داخل إطار مثمن أو مستطيل تتخللها حليات تمثل تمائم وأشجار محورة، وأشرطة الكنــار يلفت النظر إليها أسلوب تصميم الشريط الداخلي حيث لعب الأسلوب الهندسي دوره في تشكيل تعبيرات محورة تمثل أشكال جمال أو طيور، وهذه السجادة ترجع إلى بالقرن التاسع عشر.

ورسوم الكائنات الحية بهذا الأسلوب المحور تعتبر من أهم الســمات المميــزة لســجاجيد برجامة في القرن التاسع عشر.

- سجادة برجامه للعرائس (قيز برجامه) وقد أطلق هذا الاسم على هذا النوع من السجاد، لان كل فتاة تركية صغيرة كانت تبدأ بنسج سجادتها بعناية فائقة لتصبح ملائمة لتقديمها الـــى

زوجها في بداية حياتهما، ولهذا الأمر يعكس تصميمها روح التفاؤل وتبدو مشرقة ذات حيوية وجمال، بعيدة عن التقاليد النمطية لسجاجيد برجامة، ويبدو ذلك في سجادة محفوظة بمتحف قصر المنيل، فساحتها يبدو فيها عقد مزدوج اتخذ شكلا من فستونات، ويتوسطها ميداليون تزينه الزهور الثمانية وزهور القرنفل في تصمم اتسم بالحيوية، ويشاهد في الأركان الأربعة تعبير هندسي يحاكي شكل العنكبوت.

جورديز (كوردس Gördes)

تعتبر مدينة جورديز من أهم المدن التي اشتهرت بصناعة السجاد وبخاصة سجاجيد الصلاة، حيث تضم مجموعة متحف قصر المنيل ست عشرة سجادة صلاة، انفردت برسم عقد المحراب بشكل مميز، يرتفع على هيئة رأس مثلث في استطالة، ينتهي بزاوية حادة، وتحيط بجوانب المحراب زهرات قرنفل منفردة، فقد كانت لهذه الزهور الصدارة في تتويج عقود المحاريب، كما تختص بميزة بارزة هي وجود حشوتين مستطيلتين أفقيتين تحددان ساحة المحراب من أعلي وأسفل على شكل شريطين مزخرفين بأشكال متماثلة أو مختلفة . ويرجع إنتاج سجاجيد جورديز إلى القرن الثامن عشر (لوحة رقم ٨).

وقد اشتهر إقليم جورديز بإنتاج السجاجيد التي سميت "سجاجيد العرائس"، والجدير بالذكر أن هذا النوع من السجاجيد انتج في إقليم برجامة وجورديز فقط، والأخيرة كانت أكثر إنتاجا وشهرة من الأولى، وانفرد متحف قصر المنيل بسجادتين متشابهتين تقريبا تميزتا بجمال التصميم الذي ينعكس على شكل الكنار، فقد تميز بتقسيم الشريط الأوسط إلى مثلثات متجاورة وفي أوضاع متبادلة، أضفى على السجادة مسحة رائعة من الجمال والحيوية تعبر عن مشاعر الفرحة لدى الفتيات الصغيرات اللائي كن يصنعنها ليقدمنها هدية الزواج، وهذا النوع من السجاجيد يرجع الي منتصف القرن التاسع عشر (لوحة رقم ٩).

قولا (Kula)

مدينة عريقة ترجع إلى أقدم العصور، وتعد من أهم مراكز صناعة السجاد، وتأتي في المرتبة الثانية بعد عشاق في صناعة السجاد غربي الأناضول، وانتج إقليم قولا سجاجيد أغلبها للصلاة، المبكرة منها تعود إلى بداية القرن الثامن عشر، ومن أهم ما يميز سجاجيد قولا للصلاة أن العقد يرتكز على عمودين فقدا صفاتهما المعمارية، فصارا كأنهما يتدليان من جانبي

العقد، كما اختصت سجاجيد قولا للصلاة بحشوة واحدة مستطيلة تعلو توشيحي العقد. ويوجد بمتحف قصر المنيل مجموعة رائعة من هذه السجاجيد.

كما توجد سجادة قولا للصلاة نادرة ومؤرخة بعام ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩) وتميز تصميمها بوجود شجرة محورة تحمل أنواعا عديدة من الزهور كأنها تنبثق من آنية تتوسط مدخلا إلى ساحة المحراب، وقد عرفت تحت اسم كومرجي Kömürcü وهي كلمة تركية تعني الفحمي [أو الفحام]، ولعل اطلاق هذا الاسم سببه غلبة الألوان الداكنة التي تميزت بها أرضية السجادة، ومما يزيد قيمة السجادة، الكتابات الشعرية باللغة التركية تعلو ساحة المحراب داخل حشوة مستطيلة، وتضم كلمات دينية سامية تتناسب مع ما صنعت من أجله هذه السجادة، وتقول "في هذه اللحظة يصبح نور محمد *(صلى الله عليه وسلم)* "تجاه القبلة".

وهناك سجادة قولا تؤكد قدرة فنان قولا على التنوع والابتكار يتوسط ساحتها وحدة معينة الشكل يزينها ويجمل أرضيتها زهور القرنفل واللاله مع أوراق عريضة وأشكال صنوبرية (لوحة رقم ١٠).

ميلاس

تعد من المراكز الهامة التي اكتسبت شهرة واسعة في سجاجيد متميزة لها سمات خاصة تنفرد بها، وتجعل من السهل التعرف عليها، ويمكن تصنيفها وفق تصميماتها إلى نوعين:

- ❑ **سجاجيد ميلاس للصلاة**

وتصميم هذا النوع يتميز بعقد المحراب ذي الشكل المعين، وبصغر حجم المحراب الذي احتل أقل من ثلث ساحة السجادة ، بينما حظي الكنار بالجزء الأكبر، ويحيط بجوانب المحراب زهور محورة ذات شكل هندسي في تكرار، فبدا المحراب وعقده كأنهما ماسات متلألئة، وقد انفرد سجاد ميلاس للصلاة بهذا التصميم دون باقي سجاجيد الصلاة التركية. وأغلب سجاجيد الصلاة أنتجت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

- ❑ **سجاجيد ميلاس ذات التصميم المتنوع**

هذا النوع يعد من أجمل وأندر الأمثلة، وقد وجد على نحو قليل للغاية في بعض المجموعات الخاصة. وقد حظيت مجموعة القاهرة بمتحف قصر المنيل بأثنتين من هذا النوع، وترجع كل منهما إلى القرن الثامن عشر، وتحملان نوعين من التصميم:

الأول يتمثل فى شكل مستطيل يتوسط ساحة السجادة، تشغله زهور قرنفل، ويحيط بالمستطيل فرع نباتي متعرج يحصر فيما بينه باقات جميلة من زهور القرنفل و اللالة، كما أضفى تصميم الكنار عليها رونقا وبهاء.

الثانى يتكون من مربعين يعلو أحدهما الآخر فى شكل صندوقين يتوسطان ساحة السجادة، أما الكنار فقد اعتمد تصميم زخارفه على الأسلوب ذاته.

سجاجيد قونية

ارتبط اسم قونية بتاريخ سجاد الأناضول المبكر السجاد السلجوقي الذي يعد الركيزة الأولى لصناعة السجاد التركي، والذي انتشر من آسيا الوسطى إلى أنحاء العالم، ومازالت قونية حتى الآن إحدى القلاع الثقافية القديمة، ومركزا هاما من مراكز نسج السجاد وسوقا عظيمة له.

وبمجموعة قصر المنيل خمس سجاجيد، بدراستها، اتضح أن أهم الخصائص الفنية لهذا النوع، عناصر نباتية محورة أخرجها الفنان عن طبيعتها تماما وصاغها داخل إطار هندسي، فجاءت تعبيراته شديدة التحوير، كشف عن الأصالة الفنية والتقاليد النمطية لسجاد العشائر التركية، تلك التي اتسمت بالبساطة، و أبرزت الأصالة الفنية للسجاد التركي في أجمل صورها، وهذه الخصائص نراها في سجادة للصلاة، فنجد شكل العقد يحتل أعلى ساحة المحراب في شكل معين صغير تمتد من جوانبه حليات معقوفة في شكل بدا كأنه ماسة متلألئة، وملئت ساحة المحراب بعناصر هندسية في هيئة زهور محورة بعضها داخل إطار مستطيل والبعض الآخر اتخذ صور تمائم، ومثال آخر لسجاجيد قونية للصلاة يتضح في، فنلاحظ عقد المحراب قد رسم من عدة خطوط متعرجة علي شكل (زجزاج)، وله خاصرتان يمتد طرفاهما بحلية معقوفة، وساحة المحراب خالية من الزخارف، باستثناء بعض الخطوط المتوازية التي تحمل أوراقا نباتية، أما كنار هاتين السجادتين فقد استمدت زخرفتهما من العناصر السائدة بساحة السجادة .

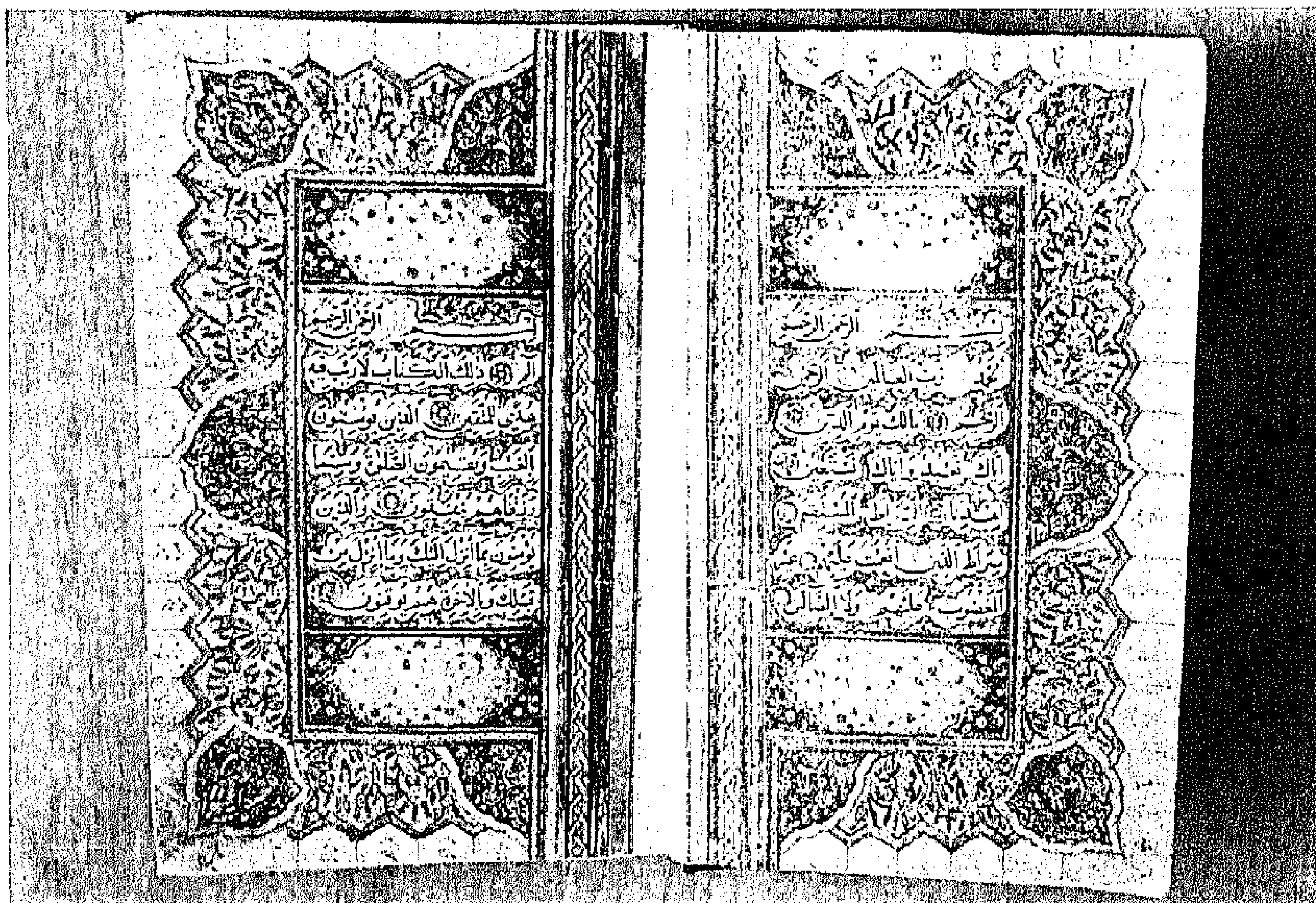
ومن بين هذه المجموعة، سجادة مستطيلة، تميزت بتقسيم ساحتها إلى خمس مناطق هندسية سداسية الشكل متشابهة الزخارف، يحتوي كل منها على وحدة نباتية من أفرع مستقيمة تحمل

زهورا متنوعة في إطار هندسي متماثل، وتعد هذه السجادة من أندر السجاجيد التركية بصفة عامة وسجاجيد قونية بصفة خاصة.

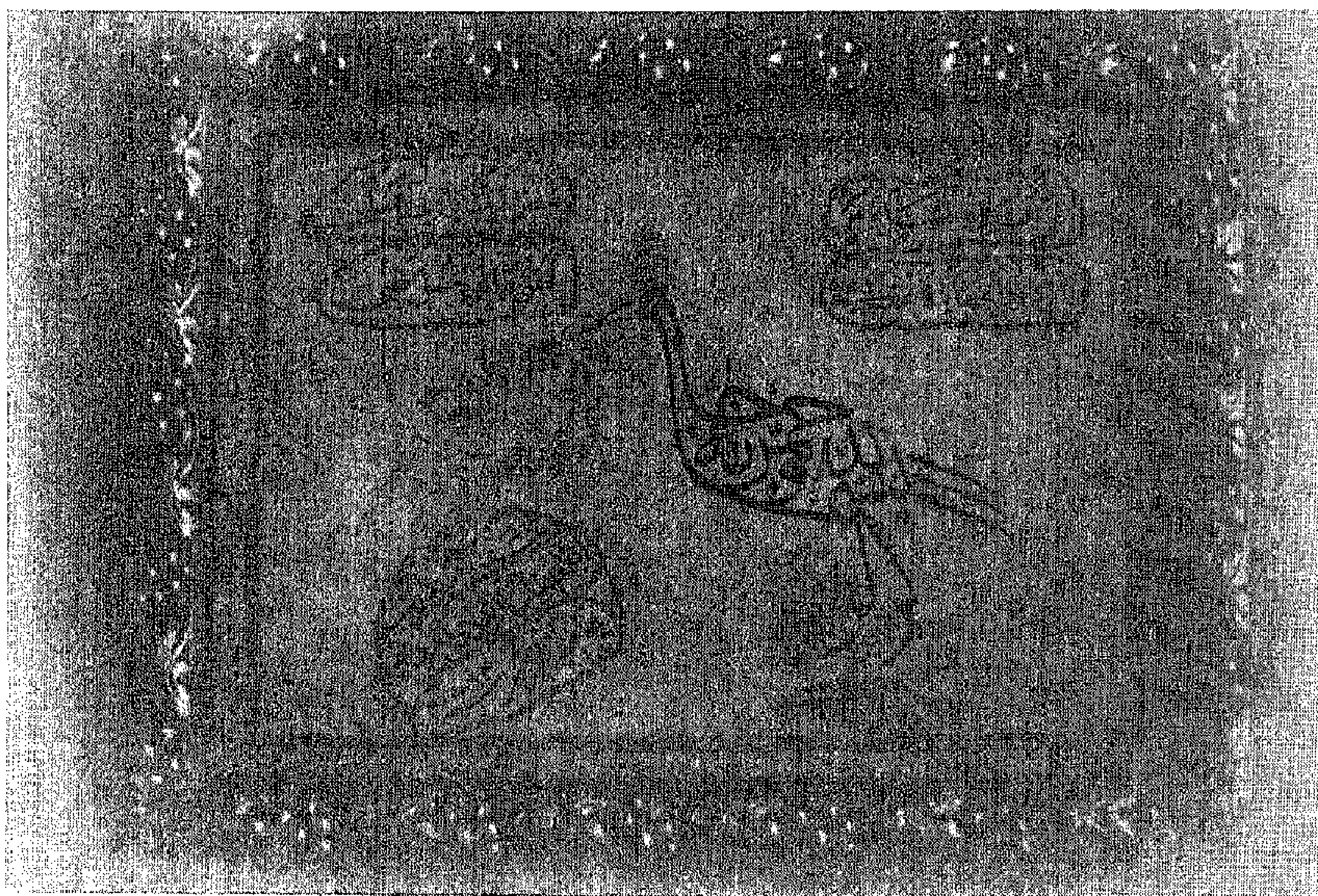
❑ ونظرا لأن مجموعات السجاد بمتحف قصر المنيل، تعكس ما وصل إليه فن صناعة السجاد التركي من غزارة في التصميمات وتنوع في الإنتاج .. فالمجال لا يتسع هنا لإضافة باقي مجموعات السجاد التي أنتجتها المراكز الأخرى، مثل لاذق وقيرشهر وموجور ومكري، وهذه المجموعة الرائعة والمعروضة في بعض قاعات المتحف الملحق بقصر الأمير محمد علي تعتبر مصدرا لا ينضب للباحثين والمتخصصين في هذا المجال.

وبعد

وقد تم إلقاء الضوء على بعض مجالات الفنون العثمانية، التي يزخر بها قصر المنيل، والذي يعد مؤسسة تعليمية متكاملة لدراسة شتى أنواع الفنون العثمانية، من تصميم وعناصر معمارية وفنون زخرفية متنوعة، وسوف يظل هذا القصر مصدرا أساسيا لتعليم نفائس الفنون العثمانية للأجيال يواصلون فيه رسالتهم العلمية والفنية.



١- مصحف شريف قام بتذهيبه عبد الله بن مصطفى سنة ١١٨هـ.



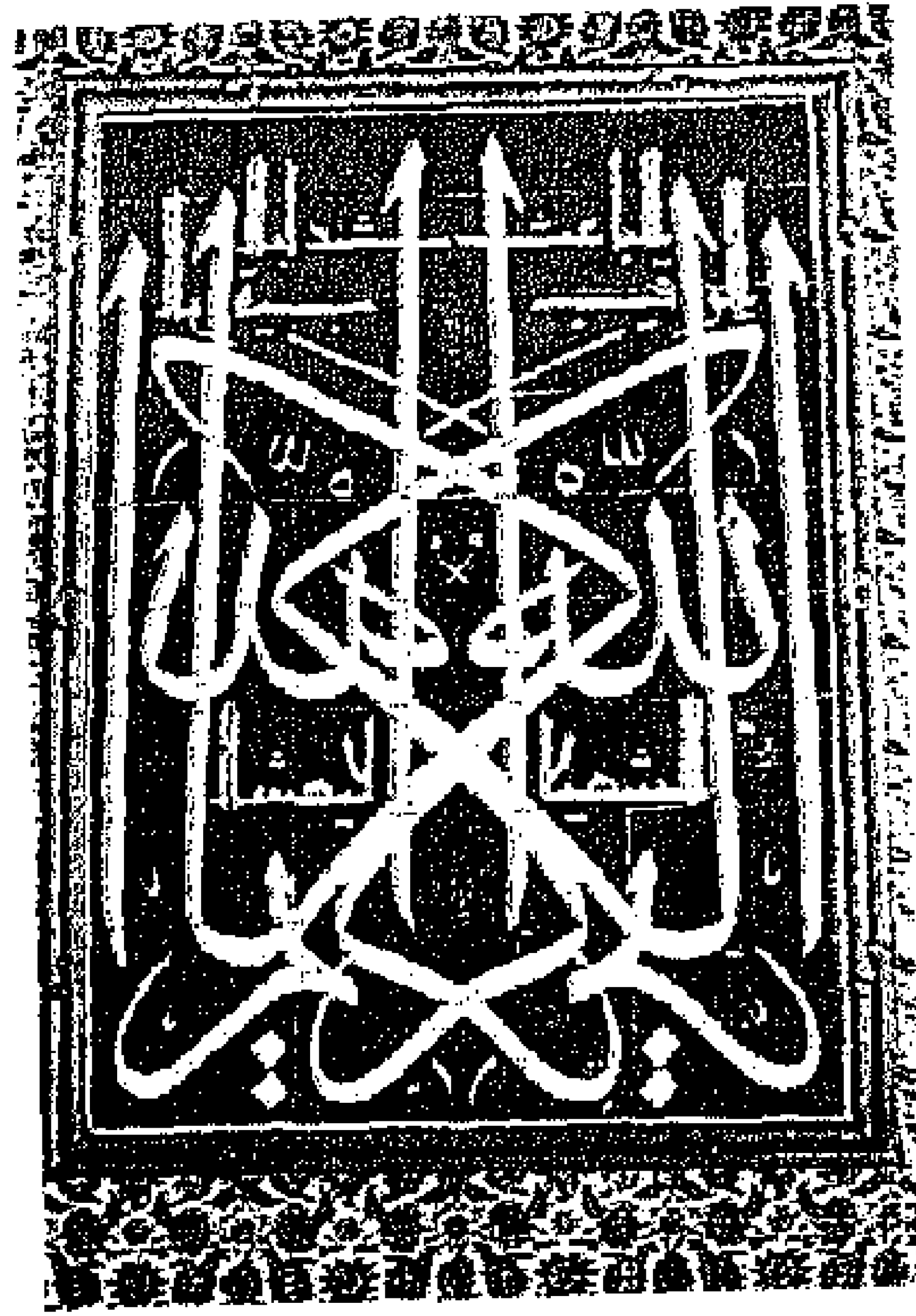
٢- البسملـــة على شكل طائر بخط رئيس الخطاطين إسماعيل الزهدي.



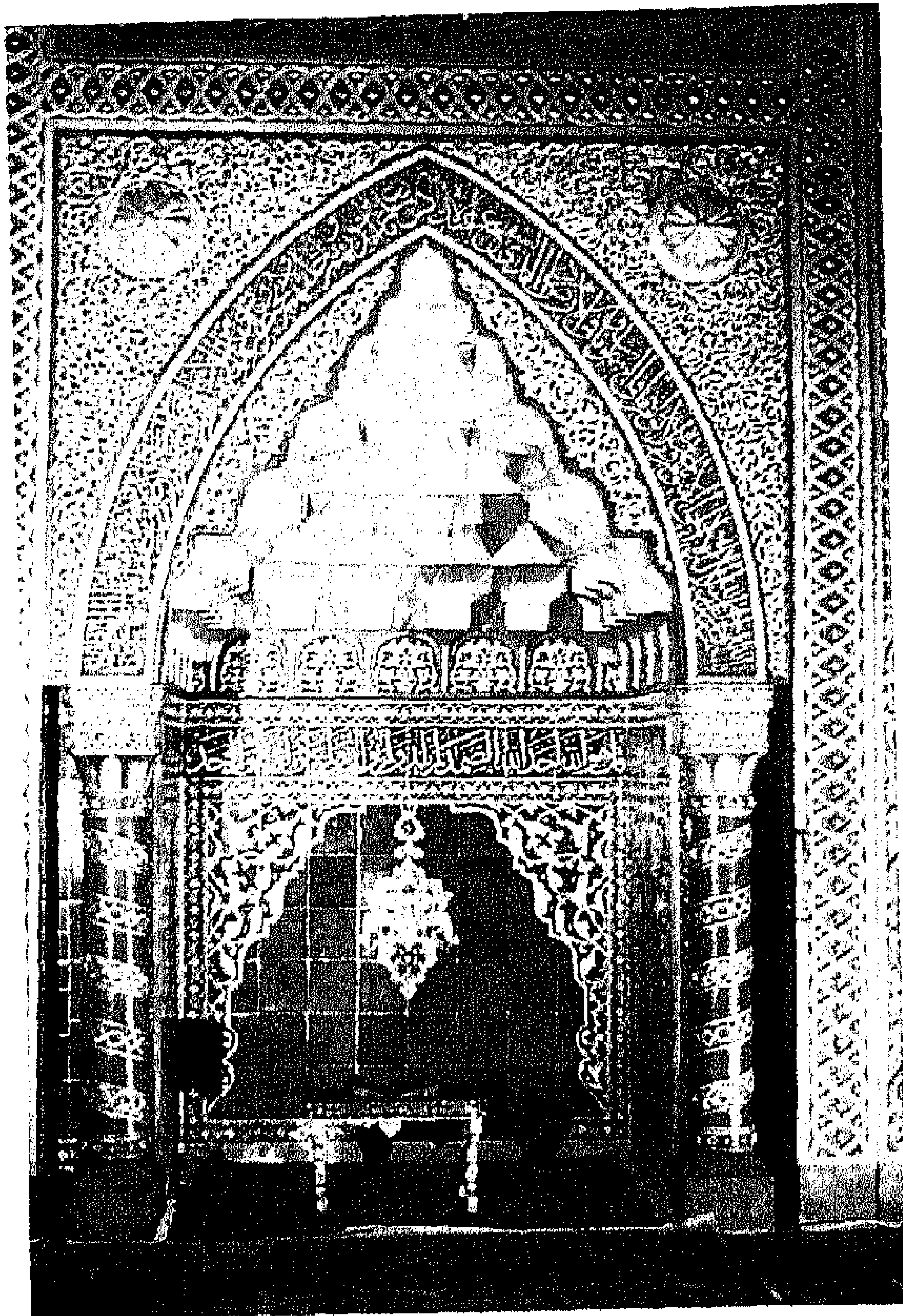
٣- صورة شخصية للسلطان عثمان



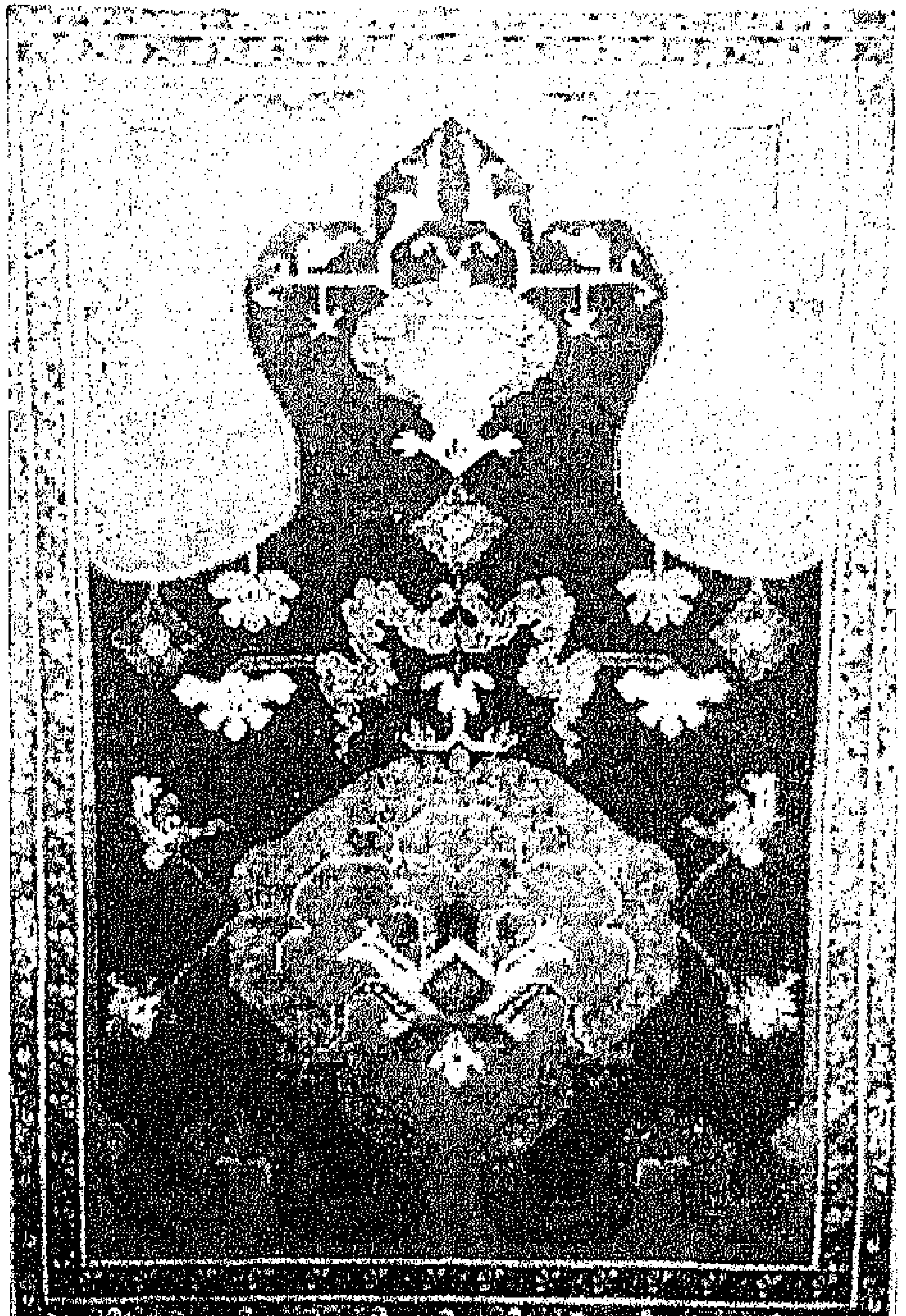
٤- صورة شخصية للسلطان سليمان القانوني.



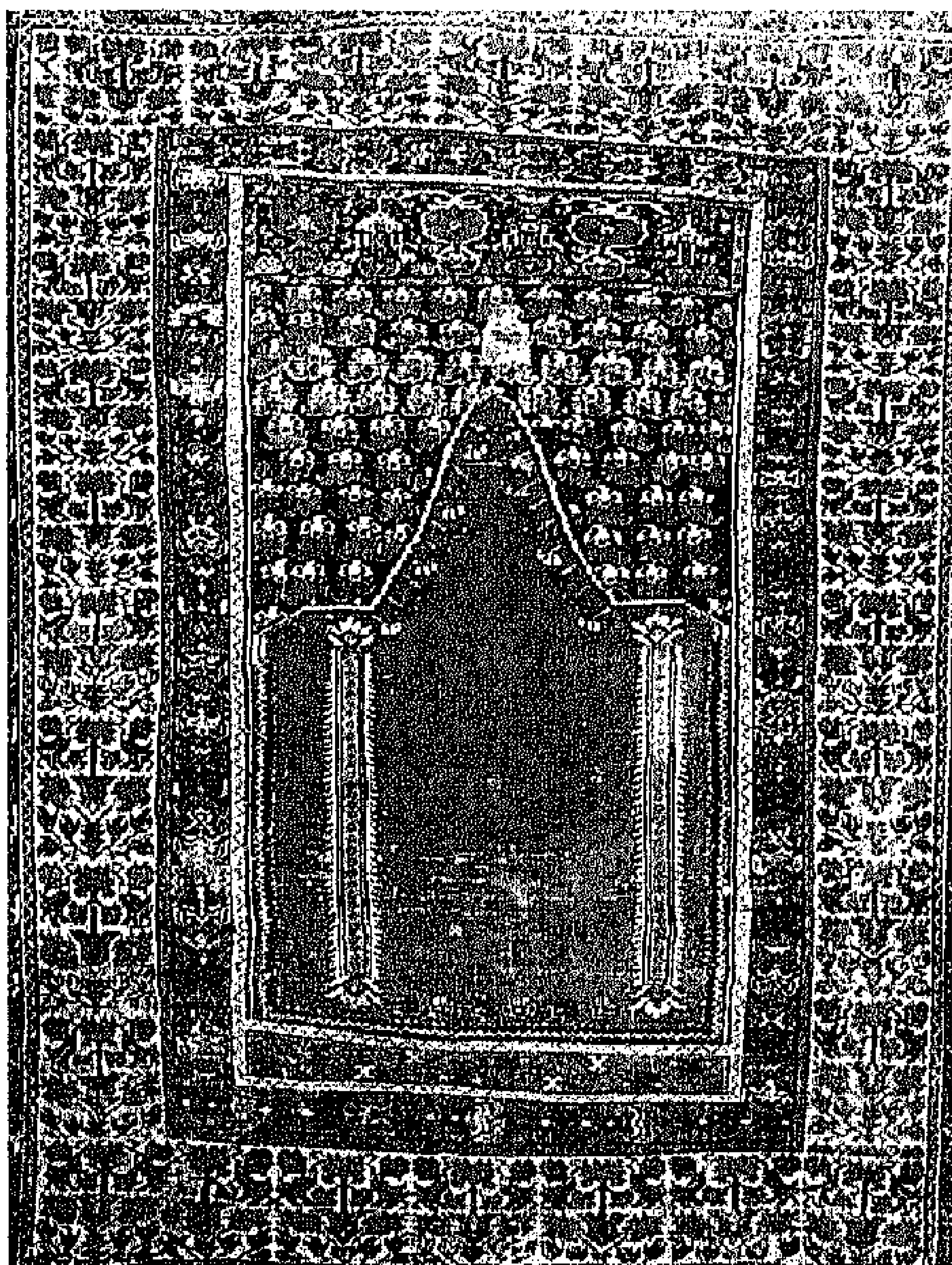
٥- بلاطات القاشاني تزين أحد جدران مسجد الأمير محمد علي الملحق بقصره.



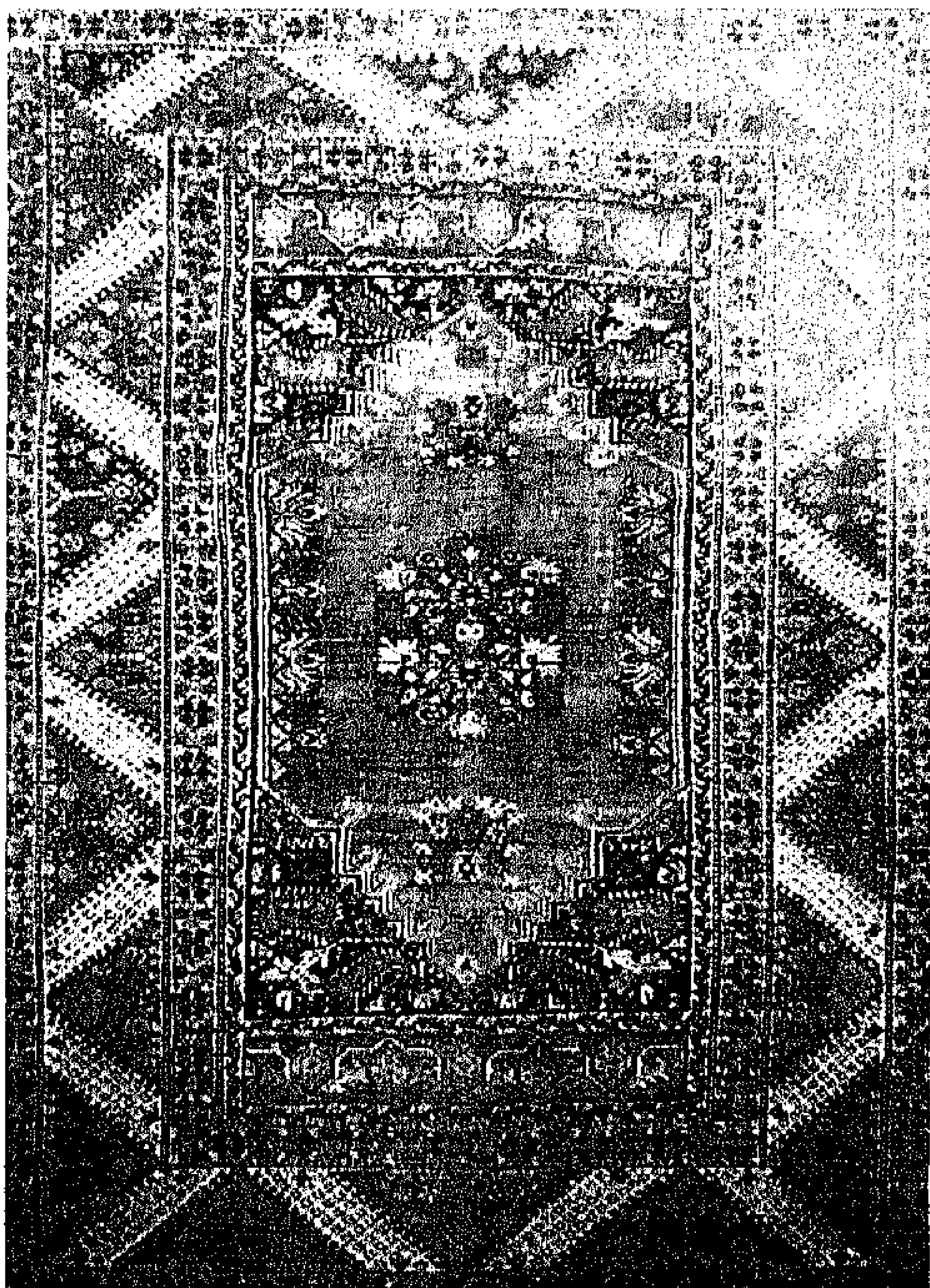
٦- محراب مسجد الأمير وتتجلى فيه براعة رئيس الخطاطين أحمد كامل للنص القرآني وجمال الزخارف النباتية المورقة.



٧- سجادة عشاق للصلاة (ترجع إلى بداية القرن ١٦م).



٨- سجادة جورديز للصلاة (القرن ١٨م).



٩- سجادة جورديز للعرائس (أوائل القرن ١٩م).



١٠- سجادة قولا (منتصف القرن ١٨م).

